أُنسُ المتَّقِين ولذَّة العابِدِين

في تفسيرِ سُورَةِ

الرَّحمن و الواقعة و تبارك و الكهف و يس

الرَّوضُ الأُنُف في تفسيرِ سُورَةِ الكهفِ

إتحافُ المؤمنين في تفسيرِ سُورَةِ يس

فتحُ المنَّان في تفسيرِ سُورَةِ الرَّحمن

الجواهرُ اللامعة في تفسيرِ سُورَةِ الواقعة

تنويرُ المدارك في تفسيرِ سُورَةِ تبارك

الشَّيخ الشريف جميل محمّد حليم علي الأشعريّ الشافعي
دكتور محاضر في العقائد والفرق
غفر الله له ولوالديه ولمشايخه

شركة دار المشاريع

الطبعـــة الأولى

١٤٤٣ هـ - ٢٠٢٢ ر

شركة دار المشاريع

بيــروت - لبنــان

العنوان: المزرعة، بربور، شارع ابن خلدون، بناية الإخلاص

تلفون وفاكس: ٣١١ ٣٠٤(١ ٩٦١)٠٠

صندوق بريد: ٥٢٨٣ - ١٤ بيروت - لبنان

شركة دار المشاريع للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.

email: dar.nashr@gmail.com

www.dmcpublisher.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يقولُ الإمامُ المُزَنِيُّ رَحِمَهُ الله:

«قرأتُ كتابَ الرسالةِ على الشَّافعيّ ثمانين مرة، فَمَا مِن مرةٍ إلَّا وكان يقفُ عَلَى خطأ، فقالَ الشَّافعيُّ: هِيه، أَبَى اللهُ أن يكونَ كِتابٌ صحيحٌ غيرَ كِتَابِهِ»

أَخي القارئُ الكريمُ، مَا كَان مِن خطإٍ في كتابِنا فأَرْشِدنا إليهِ فإنَّنا لَا نَدَّعي العِصمةَ، ونحنُ لكَ مِن الشَّاكرِين.

قَالَ شَيخُنَا الحافِظُ الهَرَرِيُّ رَحِمَهُ الله:

«الَّذِي يَعْتَمِدُ وَحْدَهُ عَلَى مُطالَعَةِ الكُتُبِ يَطْلُعُ ضَالًّا مُضِلًّا»

فلا بُدَّ أخِي القارئُ مِن تَلَقِّي العِلمِ
مِن أفواهِ الأثباتِ الثِّقاتِ مِنَ أهلِ العِلمِ

التَّوطِئَة

المِيزان في بيَان عَقِيدَة أهلِ الإيمان

الحمدُ لله ربِّ العالمين، وصلى اللهُ وسلَّم وشرَّف وكرَّم على سيِّدنا محمَّد، الحبيبِ المحبوبِ، العظيمِ الجاهِ، العالي القَدرِ طه الأمينِ، وإمامِ المرسلينَ وقائدِ الغُرِّ المحَجَّلِينَ، وعلى ذُرِّيَّته وأهلِ بَيتِه المَيامِين المكرَّمين، وعلى زوجاتِه أمَّهات المؤمنين البارّاتِ التَّقيَّات النَّقيَّات الطاهراتِ الصَّفيَّات، وصحابَتِه الطيِّبِين الطَّاهِرين، ومَن تَبِعَهُم بإحسانٍ إلى يَومِ الدِّين.

أما بعدُ، فهذه عقيدةُ كلِّ الأمّة الإسلاميةِ سلَفًا وخلفًا، وهي المرجع الذي تُعْرض عليه عقائدُ الناس، فمن خالفها أو كذبها لا يكونُ من المسلمينَ، وهي ميزان الحقِّ الذي يَكْشِفُ زيْفَ الباطلِ وزيغَهُ، فكان لا بُدَّ من هذا البيان المهمّ لخصوصِ الغَرضِ وعمومِ النَّفْعِ؛ وعليه:

اعلم أرشدَنا اللهُ وإياكَ أنهُ يجبُ على كلِّ مكلفٍ أن يعلمَ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ واحدٌ في ملكِهِ، خلقَ العالمَ بأسرِهِ العلويَّ والسفليَّ والعرشَ والكرسيَّ، والسماواتِ والأرضَ وما فيهمَا وما بينهُمَا. جميعُ الخلائقِ مقهورونَ بقدرتِهِ، لا تتحركُ ذرةٌ إلا بإذنِهِ، ليس معهُ مُدَبِّرٌ في الخلقِ

ولا شريـكٌ في الملكِ، حي قيومٌ لا تأخذُهُ سِـنَةٌ ولا نـومٌ، عالمُ الغيبِ والشـهادةِ لا يخفى عليه شيء في الأرضِ ولا في السـماءِ، يعلمُ ما في البرّ والبحرِ، وما تسقطُ من ورقةٍ إلا يعلمُهَا، ولا حبةٍ في ظلماتِ الأرضِ ولا رطبٍ ولا يابسٍ إلا في كتابٍ مبينٍ.

أحاطَ بكلِ شيء علمًا وأحصَى كلّ شيءٍ عددًا، فعالٌ لما يريدُ، قادرٌ على ما يشـاءُ، له الملكُ وله الغِنى، وله العِزُّ والبقاءُ، وله الحكمُ والقضاءُ، وله الأسـماءُ الحسـنى، لا دافعَ لما قضَى، ولا مانعَ لما أعطَى، يَفْعَلُ في ملكِهِ مـا يريدُ، ويَحْكُمُ في خَلْقِهِ بما يشـاءُ، لا يَرجُـو ثوابًا ولا يخافُ عقابًـا، ليس عليهِ حـقٌ يلزَمُهُ ولا عليهِ حُكْـمٌ، وكلُّ نِعمةٍ منْهُ فَضْلٌ وكل نِقْمةٍ منه عَدْلٌ، لا يُسـألُ عمّا يَفْعَلُ وهم يُسْـألونَ. مَوجودٌ قبلَ الخَلْقِ، ليسَ لهُ قبلٌ ولا بعدٌ، ولا فوقٌ ولا تحتٌ، ولا يمينٌ ولا شمالٌ، ولا أمـامٌ ولا خلفٌ، ولا كلٌّ ولا بعـضٌ، ولا يقالُ متَى كانَ ولا أينَ كانَ ولا كيفَ، كانَ ولا مـكانَ، كوَّنَ الأكوانَ، ودبَّرَ الزمانَ، لا يتقَيَّدُ بالزمانِ، ولا يتخصَّصُ بالمكانِ، ولا يشـغَلُهُ شـأْنٌ عن شـأْنٍ، ولا يلحقُهُ وهمٌ ولا يكتنِفُهُ عقـلٌ، ولا يتخصَّصُ بالذّهـنِ، ولا يتمثَّلُ في النفسِ، ولا يُتصَـورُ في الوهمِ، ولا يتكيفُ في العقـلِ، لا تَلْحَقُهُ الأوهامُ والأفكارُ، ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾. تنـزَّه ربِّي عن الجلوسِ والقعودِ والاستقرارِ والمحاذاةِ، الرّحمٰنُ على العرشِ استوى استواءً منزهًا عن المماسةِ والاعوجاجِ، خلقَ العرشَ إظهارًا لقدرتِهِ ولم يتَّخِذه مكانًا

لذاتِـهِ، ومن اعتقـدَ أنَّ اللهَ جالسٌ على العرشِ فهو كافـرٌ، الرّحمٰنُ على العرشِ استوى كما أخبرَ لا كما يخطرُ للبشرِ، فهو قاهرٌ للعرشِ مُتصرِّفٌ فيه كيف يشاءُ، تنزَّهَ وتقدَّسَ ربّي عن الحركةِ والسكونِ، وعن الاتصالِ والانفصـالِ والقُربِ والبُعدِ بالحِسّ والمسـافةِ، وعـن التَّحوُّلِ والزّوالِ والانتقالِ، جلَّ ربّي لا تُحيطُ به الأَوهامُ ولا الظُّنونُ ولا الأفهامُ، لا فِكرةَ في الرَّبِّ، خلق الخلق بقُدرته، وأحكمَهم بعِلْمه، وخَصَّهم بمشـيئته، ودَبَّرَهم بحِكمَته، لم يكن له في خَلْقِهم مُعِين، ولا في تَدبيرِهم مُشِير ولا ظَهِير.

لا يلزمـه (لِمَ)، ولا يُجـاوِرُه (أين)، ولا يُلاصِقُـه (حَيث)، ولا يَحُلُّه (ما)، ولا يَعُدُّه (كَم)، ولا يَحصُره (متَى)، ولا يُحيطُ به (كَيف)، ولا يَنالُه (أيٌّ)، ولا يُظِلُّه (فَوق) ولا يُقِلُّه (تَحت)، ولا يُقابِلُه (حَدّ)، ولا يُزاحِمُه (عِنـد)، ولا يأخُذه (خَلْف)، ولا يَحُدُّه (أمام)، ولم يَتقدَّمُه (قَبْل)، ولم يَفُتْه (بَعد)، ولم يَجْمَعْه (كُلّ)، ولم يُوجِدْه (كان)، ولم يَفْقِدْه (لَيس).

لا إلـٰه إلا هـو، تقدَّسَ عـن كلِّ صفـاتِ المخلوقينَ وسِـمَاتِ المحدَثـينَ، لا يَمَسُّ ولا يُمَسُّ ولا يُحَسُّ ولا يُجَسُّ، لا يُعرَفُ بالحواسِّ ولا يُقاسُ بالناس، نُوَحِّدُه ولا نُبَعِّضُه، ليس جسـمًا ولا يتَّصِفُ بصفاتِ الأجسام، فالمجسِّم كافر بالإجماع وإن قال: «اللهُ جسمٌ لا كالأجسام» وإن صام وصلَّى صورةً، فاللهُ ليس شبحًا، وليس شخصًا، وليس جوهرًا، وليـس عَرَضًا، لا تَحُلُّ فيه الأعراضُ، ليس مؤلَّفًا ولا مُركَّبًا، ليس بذي

أبعــاضٍ ولا أجزاءٍ، ليس ضــوءًا وليس ظلامًا، ليس مــاءً وليس غَيمًا وليس هواءً وليس نارًا، وليس روحًا ولا له روحٌ، لا اجتماعَ له ولا افتراقَ.

لا تجري عليه الآفاتُ ولا تأخذُه السِّنَاتُ، منزّهٌ عن الطُّولِ والعَرْضِ والعُمْقِ والسَّــمْكِ والتركيبِ والتأليــفِ والألوانِ، لا يَحُلُّ فيه شيء، ولا يَنْحَلُّ منه شيء، ولا يَحُلُّ هو في شيء، لأنه ليس كمثله شيء، فمَن زعَم أنّ اللّه في شيء أو مِــن شيء أو على شيء فقَــد أشرَك، إذ لو كان في شيء لكان محصورًا، ولو كان مــن شيء لكان مُحدَثًا أي مخلوقًا، ولو كان على شيء لكان محمولًا، وهو معكم بعلمه أينما كنتم لا تخفى عليه خافية، وهو أعلم بكم منكم، وليس كالهواء مخالطًا لكم.

وكلَّــم اللّه موسى تكليمًا، وكلامُــه كلامٌ واحدٌ لا يتبعض ولا يتعدد ليس حرفًا ولا صوتًا ولا لغةً، ليس مُبتَدأً ولا مُختَتَمًا، ولا يتخلله انقطاع، أزليٌ أبديٌ ليس ككلام المخلوقين، فهو ليس بفم ولا لســان ولا شفاه ولا مخارج حروف ولا انســلال هواء ولا اصطكاك أجرام. كلامُه صفةٌ من صفاتِــه، وصفاتُه أزليةٌ أبديةٌ كذاتِه، وصفاتــه لا تتغيَّر لأنَّ التغيُّرَ أكبرُ علاماتِ الحدوثِ، وحدوثُ الصفةِ يستلزمُ حدوثَ الذاتِ، واللّه منزَّهٌ عن كل ذلك، مهما تصورت ببالك فاللّه لا يشــبه ذلك، فصونوا عقائدَكم من التَّمسُّــكِ بظاهِرِ ما تشابَه من الكتابِ والسنَّةِ فإنَّ ذلك من أصولِ الكفر، ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ﴾ ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾، ومــن زعم أن إلٰهنا محدودٌ فقد جهِلَ الخالقَ المعبودَ،

فاللّه تعالى ليس بقدر العرش ولا أوسع منه ولا أصغر، ولا تصِحُّ العبادة إلا بعد معرفة المعبود، وتعالى ربّنا عن الحدود والغايات والأركان والأعضاء والأدوات، ولا تحويه الجهات السِتّ كسائر المبتدَعات، ومن وصف اللّه بمعنى من معاني البشر فقد خرج من الإسلام وكفر.

﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾ ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾، ما شاء اللّه كان وما لم يشأْ لم يكن، وكلّ ما دخل في الوجود من أجسامٍ وأجرامٍ وأعمالٍ وحركاتٍ وسكناتٍ ونوايا وخواطر وحياة وموت وصحة ومَرَض ولذّة وألم وفَرَح وحزن وانزعاج وانبساط وحرارة وبُرودة ولُيونة وخشونة وحلاوة ومرارة وإيمانٍ وكفر وطاعة ومعصية وفوز وخسران وتوفيق وخذلان وتحركات وسكنات الإنس والجن والملائكة والبهائم وقطَرات المياه والبحار والأنهار والآبار وأوراق الشجر وحبّات الرمال والحصَى في السُّهول والجبال والقِفار فهو بخَلق اللّه، بتقديره وعلمه الأزلي، فالإنس والجن والملائكة والبهائم لا يخلقون شيئًا من أعمالهم، وهم وأعمالهم خَلْق للّه، ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾، ومَن كذَّبَ بالقدر فقد كفَر.

ونشهد أن سَيِّدَنا ونبيَّنا وعظيمنا وقائدَنا وقُرَّة أعيننا وغوثنا ووسِيلتنا ومعلّمنا وهادينا ومرشدنا وشفيعنا محمَّدًا عبدُه ورسولُه، وصفيُّه وحبيبُه وخليلُه، مَن أرسَله اللّهُ رحمةً للعالمين، جاءنا بدين

الإســلام ككُلِّ الأنبياء والمرسلين، هاديًا ومُبَشِّرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه قمــرًا وهَّاجًا وسِراجًا مُنيرًا، فبلَّغ الرســالة وأدَّى الأمانة ونَصح الأُمّــة وجاهَد في الله حَقّ جِهاده حتّى أتاه اليَقِين، فعَلَّمَ وأرشــدَ ونَصحَ وهَدى إلى طريق الحقِّ والجنَّة، ﷺ وعلى كلِّ رســولٍ أرسَلَه، ورضي الله عن ساداتنا وأئمتنا وقدوتنا وملاذنا أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وسائر العشرة المبشَّريــن بالجنة الأتقياء البررة وعن أمهات المؤمنين زوجات النبي الطاهرات النقيات المبرَّآت، وعن أهل البيت الأصفياء الأجلاء وعن سائر الأولياء وعباد الله الصالحين.

ولله الفَضلُ والمِنَّةُ أنْ هدانا لهذا الحقّ الذي عليه الأشاعِرة والماتريدية وكلِّ الأمة الإسلامية، والحمد لله ربّ العالمين.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدِّمة

الحمدُ لله الّذي جعَلَ فينا القرءانَ كِتابَه العظِيمَ رَحمةً وذِكرَى، وهُدًى وبُشرَى، فأنارَ لنا بِه السُّبل، وأقامَ بِه الحُجّة وفرَّق بينَ الحَقّ والباطِل، ورفَع بِه مَن شاءَ مِن عبادِه، وفضَّلَهُم على كَثيرٍ مِن خَلقِه بتوفِيقِه.

والصّلاةُ والسّلامُ علَى سيّدِنا محمّدٍ إمامِ المُتّقِين، الصّادِق الأمِين، مَن بَلَّغ الرِّسالَة، وأدَّى الأمانَة، ونَصَح للأُمّة، وجاهَد في اللهِ حَقَّ جِهادِه.

وبعدُ، فإنّ عِلمَ التّفسِيرِ مِن أشرَفِ العُلومِ وأجَلِّها قَدرًا، وأعظَمِها بركَةً وأوسَعِها عِلمًا، وفضائِلُه كثِيرةٌ لا يُحصِيها إلّا اللّه تعالَى، كيفَ لا وهو الكتابُ الّذي قال اللّهُ عزَّ وجلَّ فيه: ﴿يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [سُورة المائدة: ١٦]، وقال تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ١٧٤ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾ [سُورة النِّساء: ١٧٤-١٧٥].

وقَد حثَّ اللّهُ عزَّ وجلَّ عِبادَه على تدبُّرِ معاني ءاياتِ الكِتابِ المُبين

فقال جلَّ جلالُه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [سُورة ص: ٢٩].

ولمّا كان الأمرُ كذلكَ نظَرتُ في السُّورِ الّتي يُقبِلُ على تِلاوتِها عامّةُ النّاسِ في أيّامِنا أكثرَ مِن غيرِها فوجدُتها سُورَ جزءِ عَمَّ وبعضًا مِن سُورِ جزءِ تباركَ وغيرِها، ولمّا كنتُ قد جمعتُ بمَنِّ اللهِ وفَضلِه كتابًا في تفسيرِ سُورةِ أُمِّ القرءانِ أسمَيتُه «**الأَعطارَ الفائِحة في فَضلِ وتَفسير سُورةِ الفاتِحة**»، وكتابًا في تفسيرِ ءايةِ الكُرسيِّ أسمَيتُه «**المَدَدَ القُدسِيّ في فَضلِ وتَفسير ءايةِ الكُرسِيّ**»، وكتابًا في تفسيرِ جُزءِ عمَّ أسمَيتُه «**جَواهِرَ الأئِمّة في تَفسِير جُزءِ عَمّ**» وءاخرَ في تفسيرِ جُزءِ تباركَ أسميتُه «**المَنهَجَ المُبارَكَ في تَفسِير جُزءِ تبارَك**» وقرأتُهما على شيخِنا العلّامةِ الحافظِ المفسِّرِ الأصوليِّ عبدِ اللهِ بنِ محمدٍ الهرريِّ رحمه اللهُ ورضي عنه وغفَر له ولوالِدَيه، اختَرتُ ما رأيتُ للنّاسِ إقبالًا على تِلاوتِه مِن السُّوَرِ الّتي لَم أجمعَ تفسيرَها مِن قبلُ أو جمعتُه على غيرِ هذا المِنوالِ الجديدِ الّذي أُريدُ.

وقد جعلْتُ عُمدَتي ما تلقَّيتُ ما بينَ قِراءةٍ وسماعٍ في عِلمِ التّفسيرِ مِن كُتبٍ كثيرةٍ، بعضُها تفسيرٌ بالمأثورِ وبعضُها بالدِّرايةِ، وضمَمتُ إليها بعضَ ما تلقَّيتُ مِن فوائدَ مِن بُطونِ كُتبِ عُلومِ القرءانِ الكريم فصارَ مِنهاجِي في العمَلِ على تفسيرِ كُلِّ سُورةٍ مِن الآتِي ذِكرهُنّ كما يلي:

- ذِكرُ وقتِ نُزولِ السُّورةِ وما جاءَ في ذلكَ.
- بيانُ فضلِها وما ورَدَ فيه مِن الأخبارِ المرفوعةِ والموقُوفةِ.

- ذكرُ بعضِ خصائصِها وأسرارِها ومُجرَّباتِ الصّالحِين في ذلكَ.
- تفسيرُها بأسلوبٍ مَزجيٍّ على مِنوالِ: ﴿قُلْ﴾ لهُم يا محمّدُ: اللّهُ ﴿هُوَ﴾ وحدَه ﴿الَّذِي ذَرَأَكُمْ﴾ أي خلقَكُم وبثَّكُم ونشَركُم ﴿فِي﴾ أقطارِ ﴿الْأَرْضِ﴾ وأرجائِها».
- بَيانُ المعانِي اللُّغويّة للألفاظِ مع ذِكر المعنَى التفصيليّ للآيةِ.
- العِنايةُ بتفسيرِ الآياتِ المتعلّقةِ بتوحيدِ اللّهِ عزَّ وجلَّ وصفاتِ الذاتِ والأفعالِ، والتّنبيهُ على دقائقِ الكلامِ فيها.
- تأييدُ التّفسيرِ بالمأثورِ قُرءانًا وحدِيثًا في كثيرٍ مِن المواضِع حسبَ الحاجةِ.
- الفَصلُ بينَ المواضيعِ مع رَبطِ السّابقِ مِنها باللّاحِق، نحوُ قولِنا: «ولمّا ذكَر اللّهُ عزَّ وجلَّ إنعامَه على الإنسانِ بِتعليمِه البَيانَ، أَعقبَ ذلكَ بامتِنانِه على العِبادِ بإيجادِه الشَّمسَ والقمَرَ وما فيهما مِن المَنافِع العَظِيمة للأرضِ وأهلِها فقال تعالَى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ أي يَجريانِ مُتعاقِبَين ﴿بِحُسْبَانٍ ۝٥﴾[1] أي بحِسابٍ دقِيقٍ مُنظَّمٍ مُقدَّرٍ لهُما» إلخ.

---

(١) الحُسْبانُ بضمّ الحاءِ من قولِهم: حَسَب كَذا – من بابِ نصَرَ – حِسابًا وحُسْبانًا إذا عَدَّه، وأمّا الحِسْبان بكسرِ الحاءِ فمصدرٌ بمعنَى الظَّنّ مِن قولِهم: حَسِبَ يَحسَبُ من بابِ عَلِمَ.

- تخصيصُ فُصولٍ مُستقِلّةٍ لبعضِ المواضِيعِ التّي تحتاجُ إلى بَسطٍ لمُناسبةِ الموضوعِ؛ مثالُه: «فصلٌ في خَلقِ سيّدنا ءادمَ ﷺ»، ومُناسبةُ ذلك وُرودُ تفسيرِ قولِ اللّه تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ﴾ [سُورة الرَّحمن: ١٤].
- سَردُ القَصَصِ المتعلّقةِ بمواضِيع السُّورة، كقِصّةِ أهلِ الكهفِ في سُورَتِها، وقِصّةِ المسلمِينَ أتباعِ سيّدنا عيسَى ﷺ في سُورة يٰس، وهكذا.
- التّحذِيرُ مِن بعضِ الأقوالِ الفاسدةِ الموجودةِ في بعضِ التّفسِير.
- تشييدُ مَباني الكِتابِ بحواشٍ غزيرةِ الفوائِد في الأصولِ واللُّغةِ والفِقهِ والحديثِ وغيرِها مِن العُلوم، مع ذِكر اختياراتِ شيخنا الإمام الهرريّ رحمه اللّهُ في بعضِ المواضِع وبعضِ دُرَرِ كلامِه رضي اللّه عنه.
- ختمُ تفسيرِ السُّورةِ بخاتِمةٍ في إيجازِ ما اشتَملَتْ علَيه مِن المواضيعِ.

وقد أسمَيتُ هذا المجموعَ المبارَكَ «**أُنس المُتّقِين ولَذّة العابدِين في تَفسِير سُورةِ الرَّحمٰنِ والواقِعةِ والمُلكِ والكَهفِ ويٰس**»، وهو مشتمِلٌ على خمسةِ رسائلَ:

«الرَّوضُ الأُنُف في تَفسِير سُورة الكَهف»

«إتحافُ المُؤمِنِين بتَفسِير سُورة يٰس»

«الجَواهِرُ اللّامِعة في تَفسِير سُورةِ الواقِعة»

«فَتْح المَنّان في تَفسِير سُورة الرَّحمٰن»

«تَنوِير المَدارِك بتَفسِير سُورة تَبارَك»

واللّهَ عزَّ وجلَّ أسألُ أن يَنفَعَ بهذا المجموعِ المبارَك وأنْ يضعَ له القَبولَ، فإنّي رجَوتُ به جزيلَ الثّوابِ مِنكَ يا أرحمَ الرَّحِمين.

وسبحانَ اللّه وبِحمَدِه، وصلَّى اللّهُ وسلَّم على سيِّدنا محمّدٍ صفِيِّه وَعبدِه، واللّهُ تعالَى أعلَمُ وأحكَمُ.

نُبْذَة تعريفِيَّة
عن حياةِ الشّيخ الدُّكتور جَمِيل حَلِيم

بقلم الناشر

هو السيد الشريف رئيس جمعية المشايخ الصوفية الشيخ الدكتور عماد الدين أبو الفضل جميل بن محمد حليم، الحسينيُّ الأشعري الشافعي الرفاعي القادريّ.

تلقَّى العلم عن علَّامة العصر وقدوة المحققين الحافظ الشيخ عبد اللَّه ابن محمد الهرري الشيبي العبدري، وأجازه كثيرٌ من العلماءِ والمحدِّثين والمشايخ في شتّى البلاد إجازةً عامةً مطلقةً بكل ما تجوز لهم روايته.

وقد حاز الشيخ جميل على شهادتي دكتوراه، الأولى من الجامعة العالمية في لبنان تحت عنوان «السُّقوط الكبير المُدَوّي للمُجَسِّم ابن تَيمِيةَ الحرَّاني» بتقديرٍ ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى، والأخرى من جامعة مولاي إسماعيل بالمغرب تحت عنوان «التأويل في علم الكلام وضوابطه عند أهل السنة والجماعة» وذلك بتقدير مشرف جدًّا.

وقد أولى الشيخ جميل اهتمامه العلم والمطالعة، فهو يعكف اليوم على تأليفِ الكتب وتحقيق مصنَّفات العلماء في مكتبته «المكتبة الأشعرية العبدرية» في بيروت وقد حوت ءالاف الكتب المطبوعة والمخطوطة

النادرة بشـتى العلـوم والفنون. هذا وقد خصَّهُ بعـض العلماء وأحفاد رســول الله ﷺ وأصحاب الطرق من بلادٍ شتّى بآثارٍ من آثار رسول الله محمَّد ﷺ، فحفظها في «الخزينة الحليمية». وفي كل عام يتبرك عشرات الآلاف من المسلمين في شتى البلاد ببعض هذه الآثار الزكية(١).

(١) للتواصل مع المؤلف راجع ما يلي: ٩٦١٣٠٠٦٠٧٨+ / ٩٦١٣٢١٥٣١٦+

sh.jamil.halim@gmail.com Jameel.Sheikh SheikhJameelHalim
sheikh_jameel JameelHalim sheikhjameelhalim

نَسَبُ
الشّيخ الدكتور جَمِيل حَلِيم إِلَى رَسُولِ الله ﷺ

هو السيد الشريف الحسيب النسيب الشيخ الدكتور عماد الدين أبو محمد جميل ابن محمد الأشعري الشافعي الحسيني الرفاعي القادري ابن السيد محمد ابن السيد عبد الحليم ابن السيد قاسم ابن السيد أحمد ابن السيد قاسم ابن السيد عبد الكريم ابن السيد عبد القادر ابن السيد علي ابن السيد محمد ابن السيد ياسين ابن السيد إسماعيل ابن السيد حسين ابن السيد محمد ابن السيد إبراهيم ابن السيد عمر ابن السيد حسن ابن السيد حسين ابن السيد بلال ابن السيد هارون ابن السيد علي ابن السيد علي أبي شجاع ابن السيد عيسى ابن السيد محمد ابن أبي طالب ابن السيد محمد ابن السيد جعفر ابن السيد الحسن أبي محمد ابن السيد عيسى الرومي ابن السيد محمد الأزرق ابن السيد أبي الحسن الأكبر عيسى النقيب ابن السيد محمد ابن السيد علي العريضي ابن الإمام جعفر الصادق بن الإمام محمد الباقر بن الإمام السجاد علي زين العابدين ابن الإمام السبط السعيد الشهيد الحسين ابن السيدة الجليلة الزكية الطاهرة فاطمة البتول زوجة أمير المؤمنين أسد الله الغالب علي بن أبي طالب عليه السلام وابنة رسول رب العالمين خاتم النبيين والمرسلين محمد صلوات الله وسلامه عليه إلى يوم الدين.

الرَّوْضُ الأُنُف

في تَفْسِيرِ

سُورَةِ الكَهْفِ

سُورة الكَهفِ: خَصائِصُها وفَضائِلُها

وَقتُ نُزولِ سُورةِ الكَهفِ

مِن المعلومِ أنّ الصّوابَ مِن القولِ أنّ ما نزَلَ قبلَ الهِجرة مِن الآياتِ والسُّوَر يُوصَف بأنّه مكّيٌّ، وما نزَلَ بعدَها فهو مدنيٌّ، سواءٌ كان نُزوله بمكّة أو المدِينةِ أو خارِجَهُما.

وسُورةُ الكهفِ مكيّةٌ، وقال بعضهم: هي مكيّةٌ وفيها مدنيٌّ وهو قولُه عزّ وجلّ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ إلى قولِه: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [سُورة الكهف: ١-٥]، وقولُه عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ٣٠﴾.

وقال الشَّمسُ القُرطبيُّ في تفسِيره: «وهي مكّيّةٌ في قولِ جميع المُفسّرين، رُوِي عن فِرقةٍ أنّ أوّلَ السُّورةِ نزَل بالمَدِينة إلى قولِه: ﴿جُرُزًا﴾ [سُورة الكهف: ٨]، والأوّلُ أصَحُّ».

وذكرَ علَم الدّين السَّخاوي في «جمال القُرّاء» عن ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنهما قال: «نزلَتِ الكَهفُ بمكّةَ بَين ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾ [سُورة الغاشية: ١] والنَّحلِ»، وكلا السُّورتَين مكّيٌ، وعلى ذلك جرَى الحسَن البِصريُّ وعِكرِمةُ.

فَضلُ سُورةِ الكهفِ

أوّلًا: هي إحدَى السُّوَرِ المِئِينَ الّتي أُوتِيَها رسولُ الله ﷺ مَكان الزَّبُور

أخرَجَ الطَّيالسِيُّ مِن حديثِ واثلةَ بنِ الأسقَعِ رضي اللَّه عنه أنّ رسولَ اللَّه ﷺ قال: «**أُعْطِيتُ مَكانَ التَّوْراةِ السَّبْعَ الطِّوالَ وَمَكانَ الزَّبُورِ المِئِينَ**» الحديثَ.

والسَّبعُ الطِّوالُ بكَسرِ الطاءِ جَمعُ طويلةٍ هي البقَرةُ إلى ءاخرِ بَراءةَ بجَعلِ الأنفالِ معَ براءةَ واحدةً في العَدِّ، وقيل غيرُ ذلك. وأمّا المِئُون فهي كلُّ سُورةٍ تَزيدُ على مائةِ ءايةٍ أو تُقارِبُها.

ثانيًا: تنَزُّل السَّكِينةِ لقِراءَتِها

أخرَجَ الشَّيخانِ والطَّيالسِيُّ والتِّرمذيُّ عن البَراءِ بنِ عازِبٍ رضي اللَّه عنه قال: كان رجُلٌ يَقرأُ سُورةَ الكَهفِ وإلى جانبِه حِصانٌ مَربوطٌ بشَطَنَينِ(١)، فتَغَشَّته(٢) سَحابةٌ فجعَلَتْ تَدنُو وتَدنُو وجَعَل فرَسُه يَنفِرُ، فلَمّا أصبحَ أتَى النَّبِيَّ ﷺ فذَكر ذلك له فقال: «**تِلْكَ السَّكِينَةُ تَنَزَّلَتْ بِالقُرْءانِ**»، وفي رواية: «**مَعَ القُرْءانِ**»، وفي أخرى: «**عَلَى القُرْءانِ**»، وفي رابعةٍ: «**لِلْقُرْءانِ**».

---

(١) أي حبلَين طويلَين شديدَي الفَتل.

(٢) أي أحاطتْ به.

ثالثًا: فضيلةُ قِراءَتِها يومَ الجمُعةِ

روى الحاكمُ وصحَّحَه والبيهقيُّ عن أبي سعيدٍ الخُدريّ رضي اللّٰه عنه أنّ رسولَ اللّٰه ﷺ قال: «**مَن قَرأَ سُورَةَ الكَهفِ يومَ الجُمُعَةِ أَضاءَ لَهُ مِنَ النُّورِ مَا بَين الجُمُعَتَينِ**».

قال ابنُ السُّبكيّ في «تخريج أحاديث الإحياء»: «وقال الحافظ ابن حجَرٍ في «تخريج الأذكار»: هو حديثٌ حسَنٌ وهو أقوى ما ورَد في قراءة سُورةِ الكَهفِ». وزاد الحافظ العسقلانيُّ فقال: «وقَع في روايةِ أبي النُّعمانِ «**لَيلَةَ الجُمُعةِ**» وفي سائرِ الرِّواياتِ عَن هُشَيمٍ: «**يَوْمَ الجُمُعَةِ**»، ويُمكِن الجمعُ بأنّ المُرادَ اليومُ بلَيلَتِه واللَّيلةُ بيومِها».

رابعًا: عِصمةُ مَن يَحفَظُ عَشرَ ءاياتٍ مِن أوّلِها أو ءاخِرِها مِن فِتنةِ الدَجَّال

روى الشَّيخانِ وأحمدُ وأبو داودَ وغيرُهم عن أبي الدَّرداء رضي اللّٰه عنه قال: «**مَنْ حَفِظَ**(١) **عَشْرَ ءايَاتٍ مِن أَوَّلِ سُورَةِ الكَهْفِ عُصِمَ مِن الدَّجَّالِ**»، وفي روايةٍ ثابتة أيضًا: «**مِنْ خَواتِيم سُورَةِ الكَهْفِ**»، قال أبو العبّاس القُرطبيُّ في «المُفهِم» والشِّهابُ الرَّمليّ في «شرح أبي داود»: «ويكُون ذِكرُ العَشرِ علَى جهةِ الاستِدراجِ في حِفْظِها كُلِّها».

وروَى مُسلِمٌ في «صحيحِه» وأحمدُ وبعضُ أصحابِ السُّنَن عن النَوَّاسِ

(١) أي عَن ظَهرِ قَلبٍ، قاله المُلّا عليّ القاري وابنُ علّان وغيرُهما.

ابن سِمْعانَ[١] رضي اللّه عنه أنّ رسولَ اللّهِ ﷺ ذكَرَ حديثًا في خبَرِ الأعوَرِ الدجّالِ وفيه: «**فَمَنْ أدْرَكَهُ مِنكُم فَلْيَقْرَأْ عَلَيهِ فَواتِحَ سُورَةِ الكَهْفِ**».

خامِسًا: مِن مُجرَّباتِ بعضِ العُلماءِ في خواصِّها

روَى الدّارِميُّ عن محمّدِ بنِ كثيرٍ عن الأوزاعيّ عن عَبْدةَ عن زِرِّ بنِ حُبَيشٍ قال: «مَن قرَأَ ءاخِرَ سُورَةِ الكَهْفِ لِساعَةٍ يُرِيدُ أنْ يَقُومَها مِن اللَّيلِ قامَها»، قال عَبْدةُ بنُ أبي لُبابَةَ: فجرَّبْناه فوجَدْناه كذلكَ[٢].

والمُرادُ بأواخِرِها هُنا كما قال علَم الدِّين السَّخاوي في «جَمال القُرّاء» الآياتُ الأربعةُ الأخيرةُ ابتداءً مِن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ۝١٠٧﴾ إلى ءاخِرِ السُّورة.

وقال الثَّعالِبيُّ المُفسِّرُ في تفسيره: «يَبتدِئُ مِن: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلًا ۝١٠٢﴾ إلى ءاخِرِ السُّورةِ فإنّه يَستيقِظُ بإذنِ اللّهِ في الوَقتِ الّذي نواهُ، ولتَكُنْ قِراءَتُه عِندَ ءاخِرِ ما يَغلِبُ علَيه النُّعاسُ بحَيثُ لا يَتجدَّد له عَقِبَ القِراءةِ خَواطِرُ».

وقال العلّامة عفِيفُ الدّين أبو محمّدٍ اليافعيّ الشافعيّ[٣] اليمَنيّ المكّي

---

(١) بكَسر السِّين وتُفتَح.

(٢) قال شيخُنا رحمه اللّه: «ضعِيفٌ يُعمَل به».

(٣) هو فقيهٌ صوفيٌّ مُتكلّمٌ مؤرِّخٌ مُفسِّرٌ مِن أهلِ القرنِ السّابعِ الهِجريّ، ومِن أعظَم مَقالاتِه في التَّوحِيد: «الّذي نَعتقِدُه أنّه سُبحانَه وتعالَى استوَى=

في «الدُّرِّ النَظِيم» فيما جُرِّب في سُورة الكَهف:

مَن كتَبَ السُّورةَ وجعَلَها في إناءِ زُجاجٍ وجعَلَها في مَنزِله فإنّه يأمَنُ الفقرَ والدَّينَ ويأمَنُ هو وأهلُه مِن أذَى النّاسِ.

ومَن كَتَبها وجعَلَها في مَخازِنِ الحُبوبِ كالقَمحِ والشَّعِيرِ والأرز وغيرِ ذلك رُفِعَ عنها كلُّ ما يُؤذِيها.

ومَن كتَب مِن أوّلِها مِن قَولِه تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ إلى قولِه: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ في إناءٍ طاهِرٍ ومَحاهُ بالماءِ ورَشَّ به حِيطانَ مَنزلِه الأربعَ بحَيثُ لا ينالُ الأرضَ مِنها شيءٌ[1] رأى مِن عِمارةِ المَنزلِ وكَثرةِ خَيرِه ما يَسرُّه.

وهـذا كُلُّه ليسَ مِمّا ورَد في حديثٍ ثابتٍ عن رسولِ اللَّه ﷺ إنّما مِن مُجرَّباتِ أهلِ الخيرِ الصّالحِين.

= علَى الوَجهِ الّذي قالَه وبالمعنَى الّذي أرادَه استِواءً مُنزَّهًا عن الحلُولِ والاستِقرارِ والحركَةِ والانتِقالِ، لا يَحمِلُه العَرشُ بل العرشُ وحَمَلَتُه مَحمُولُون بلُطفِ قُدرَتِه. لا يُقالُ: أينَ كانَ، ولا كيفَ كانَ، ولا متَى كانَ، ولا مكانَ ولا زمانَ، وهو الآنَ علَى ما علَيه كان، تعالَى عن الجِهاتِ والأقطارِ والحدُودِ والمِقدارِ».

(١) ولو نالَ الأرضَ مِن هذا الماءِ شيءٌ فإنّه جائزٌ.

تفسير سُورة الكهفِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ محمّدٍ ﷺ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي القرءانَ الكريمَ[1] ﴿وَلَمْ يَجْعَل﴾ اللهُ ﴿لَّهُۥ﴾ أي للقرءان ﴿عِوَجَا ۜ ١﴾ أي شيئًا

---

(١) اعتاد المُفسّرون مِن أهل السنّة والجماعة أن يُصدِّرُوا مقدّمات كُتبِهم بقولِهم: «الحمدُ لله الذي أنزلَ القرءانَ إلخ» اقتداءً بما صدَّرَ اللهُ عزَّ وجلَّ به بعضَ السُّور كسُورةِ الكهفِ، وحاولَ الزمخشريُّ المعتزليّ أنْ يخالفَ أهلَ السُّنّة في ذلك تقريرًا منه لمذهبِه في القولِ بخَلقِ القرءانِ مُطلقًا مع نفيه صِفة الكلامِ لله عزَّ وجلَّ، فأبدلَ هذا المعتزليّ لَفظَ «أنزلَ» بـ«جعَلَ» يُريدُ «خَلَقَ». قال ابن خَلّكان في «وفيات الأعيان» (٥/ ١٧٠): «وكان الزَّمخشريُّ المذكورُ مُعتزليَّ الاعتِقادِ مُتظاهِرًا به، حتّى نُقِل عنه أنه كان إذا قصَدَ صاحِبًا له واستأذَنَ عليه في الدُّخول يَقُول لِمَن يأخُذُ له الإذنَ قُل له: أبو القاسِم المُعتزليُّ بالباب. وأوّل ما صَنَّفَ كِتابَ «الكَشّاف» كتَبَ استِفتاحَ الخُطبةِ: «الحمدُ للهِ الّذي خَلَقَ القُرءانَ»، فيُقال إنّه قيل له: متى تَركتَه على هذه الهيئةِ هَجرَه الناسُ ولا يَرغَبُ أحدٌ فيه، فغيَّرَه بقولِه: «الحمدُ للهِ الّذي جعَلَ القرءانَ» وجعَلَ عِندَهم (أي المعتزلة) بمَعنَى خَلَقَ، والبحثُ في ذلكَ يَطُول، ورأيتُ في كَثيرٍ من النُّسَخ: «الحمدُ للهِ الذي أنزَلَ القُرءانَ» وهذا إصلاحُ النّاسِ لا إصلاحُ المصنِّف».

مِن العِوَج قطُّ، فأثبَتَ عزَّ وجلَّ الاستِقامةَ للقرءانِ الكريمِ ونَفَى وُجودَ التناقضِ في معانِيه.

وقد أثنَى اللهُ سبحانه وتعالى على نَفْسِه بإنعامه على خلقه بالكتاب الذي أنزله على عبـدِه محمّدٍ ﷺ وجعَل العمَلَ بهذا الكتابِ سببَ نجاتِهم وفوزِهم في الآخرة.

وقـد أنزلَ اللهُ الكتابَ ﴿قَيِّمًا﴾ أي مُستقِيمًا مُتناهيًا في الاستِقامة يُصدّقُ بعضُه بعضًا ﴿لِّيُنذِرَ﴾ بما فيه الّذين كفَروا ﴿بَأْسًا﴾ أي عذابًا ﴿شَدِيدًا﴾ مُرسَلًا ﴿مِّن لَّدُنْهُ﴾ أي مِن عِندِه خلقًا وتكوينًا في مُقابَلةِ كُفرِهم وتكذيبِهم، وليستِ العِندِيّةُ هنا عِنديّةَ مَكانٍ وتحيُّزٍ، لأنّ اللهَ عزّ وجلّ موجودٌ أزلًا وأبدًا بلا كَيفٍ ولا مَكانٍ.

وهذا الكتابُ الذي أنزلَه اللهُ يهـدِي للحقّ ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وفيه بِشارةٌ للمؤمنين ﴿ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ أي ثوابًا عظيمًا وهـو الجنّةُ ﴿مَّٰكِثِينَ﴾ أي مُقِيمين في هذا الأجرِ الّذي نالُوه وهو الجنّة ﴿فِيهِ أَبَدًا﴾. مِن غيرِ انتهاءٍ لمُدّةِ إقامتِهم فيها.

﴿وَيُنذِرَ﴾ أي وقد أنزَل اللهُ هذا الكتابَ ليُنذِرَ الكُفّارَ عامّةً بالعذابِ الشَّـدِيدِ ويُنذِرَ ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ خاصّةً أيضًا، وذلك لبلُوغِ هؤلاءِ في الكفرِ الشَّنِيعِ مَبلغًا بعيدًا، وهُم ثلاثُ طوائفَ: بعضُ كفّارِ العرَب القائلُون الملائكةُ بنـاتُ الله، واليهودُ القائلون عُزَيرٌ ابنُ الله، والنصارَى القائلون المسيحُ ابنُ الله.

﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٖ﴾ أي ونِسبةُ هؤلاءِ الكفرةِ الولَدَ إلى اللهِ لَم يَصدُر مِنهُم عن عِلمٍ أصلًا لأنّه يستحيل أن يكونَ للهِ ولَدٌ، فما صدَر مِنهُم كان عن جَهلٍ مُفرِط، فاللهُ ليس أصلًا لفَرعٍ ولا فرعًا لأصل، بل مِن الإلحاد المخرِج مِن الإسلام أنْ يُقال عن الله «أصلُ العالَم أو مَنبَعُه أو العالَمُ فرعُ اللهِ أو عِلّة الوُجود أو مادّة العالَم أو مادّة الوجود».

﴿وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡۚ﴾ أي ولا كان لآباءِ هؤلاءِ الكفَرةِ الّذِين قلَّدهم أبناؤهم في الجهالةِ والضلالةِ عِلمٌ مِن قبلُ بل قالُوا مقالتَهم عَنْ جَهلٍ مُفْرِطٍ، ومع ذلك فقد كفَّرهم اللهُ عليها.

﴿كَبُرَتۡ﴾ أي ما أعظمَها في الكُفرِ ﴿كَلِمَةٗ تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ﴾ يَفتَرُون بها على اللهِ الكذِبَ ويَنسبُون له ما لا يَليقُ بهِ سبحانَه[1] أي ما

(١) لَم يَثبُتْ عن نَبِيّ مِن أنبياءِ اللهِ عليهم السّلامُ ولا جاء في كِتابٍ سَماويّ نِسبةُ البُنُوّةِ إلى اللهِ، حاشا لله، وكيفَ يكُون نبيًّا مَن كان جاهِلًا باللهِ وقد كَفَّرَه اللهُ بنِسبةِ الولَد إليه سبحانَه، قال الله تعالى: ﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ﴾ [سُورة الفُرقان: ٢]. فليُحذَر مِمّا في بعضِ الكُتبِ مِن قولِهم: «إنّ عِيسَى عليه السّلامُ قال: يا مَعشَر الشُّعوب، قومُوا بنا إلى أبِي وأبِيكُم، وإلهي وإلهِكُم»، فإنّه يستحيلُ على نَبِيّ مِن أنبياءِ اللهِ أنْ ينسُبَ إلى اللهِ الأُبوّة أو البُنُوّة، ولا يجوزُ ادّعاءُ المَجاز في ذلكَ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَ﴾ [سُورة المائدة: ١٨]، وقال أيضًا: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ =

﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ مُخالِفًا للحق، هذا ومع كَونهم قالُوها جهلًا مِنهُم بالحقِّ إلّا أنّ ذلك لم يكُن عُذرًا لهُم في دَفعِ الكُفرِ عنهم.

ولمّا كذَّبَ أهلُ مكّةَ النبيَّ ﷺ خفَّفَ اللهُ تعالى عَن نبيّه فأنزل: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ ﴾ أي جاهِدٌ وناهِكٌ نفسَك مِن بَعدِهم ﴿إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ أي حزنًا وغضبًا.

أي هوَ اللهُ عزَّ وجلَّ، وضمير الجمعِ للتّعظيم واللهُ واحِدٌ لا شريكَ له،

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا ﴾ أي ممّا يَصلُح أن يكون زينةً لها ولأهلِها مِن زَخارِفِ الدُّنيا وما يُستحسَن منها ﴿لِنَبْلُوَهُمْ﴾ أي نختبرَهم - واللهُ عليمٌ بما هُم فاعِلُون - ليَظهَرَ للنّاسِ ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ فيُجازَى المُحسِن بالثوابِ والمسيءُ بالعقابِ، وليس لِمَن ماتَ على الكُفرِ إلا العقابُ.

﴿ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ ﴾ أي يُصيِّرُ اللهُ ﴿مَا عَلَيْهَا﴾ أي ما على الأرضِ مِن الزِّينةِ عِندَ دُنُوِّ القِيامةِ ﴿صَعِيدًا﴾ أرضًا ملساءَ ﴿جُرُزًا ﴿٨﴾﴾ لا نباتَ فيها

= أَبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [سُورة التَّوبة: ٣٠].

قال القاضي المُفسّر أبو محمدٍ عبدُ الحقّ بنُ عَطيّة الأندلُسيُّ في تَفسيره سورة التَّوبةِ - وعنه نقلَه الشّمس القُرطبيُّ في تفسيره - ما نصُّه: «ويقالُ: إنّ بَعضَهم يَعتقِدُها بُنوّةَ حُنُوٍّ ورحمةٍ، وهذا المعنَى أيضًا لا يَحِلُّ أنْ تُطلَقَ البُنوّةُ علَيه سُبحانه، وهو كُفرٌ».

بعـد أن كانت خضراءَ مُعْشِـبةً، فيموتُ فيها الحيـوانُ ويجِفُّ النَّباتُ والشَّجرُ وغيرُ ذلك.

﴿ أَمْ حَسِبْتَ ﴾ أي أحَسِبَ بعضُ أمّتكَ يا محمّدُ ﴿أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ ﴾ في بقائِهـم على الحياةِ مُدّةً مديـدةً ﴿مِنْ ﴾ أي مِن بَينِ ﴿ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾ أي ءايةً ذاتَ عجَبٍ، فإنّ خَلْقَ السّمواتِ والأرضِ وما فيهـا مِن العجائِب أعجَبُ مِن ذلـكَ. والرَّقيمُ هو لوحٌ كُتب فيه قِصّةُ أصحـاب الكهفِ ووُضِع عـلى بابِه، وقيل: هو اسـمُ الوادي أو الجبل الذي فيه الكهفُ، وقيل: اسمُ القرية التي خرَج منها أصحاب الكهف، وقيل غيرُ ذلك.

ذِكر قِصّة الكَهف وسبَب خرُوج الفِتية إليه

كان نَسلُ أمّة نبيّ اللهِ عِيسَى ﷺ قد أتَى عليهِم وقتٌ بعدِ رَفعِه إلى السماء بسنِينَ مديدةٍ عظُمَت فيهِم الخطايا وطغَت ملُوكُهم حتّى عبَدُوا الأصنام وذبَحُوا للشّياطين، لكن بَقِي فيهم بَقايا على الإسلامِ دِينِ المَسِيحِ عيسى ﷺ والذي هو دينُ جميعِ الأنبياءِ عليهِم الصّلاة والسّلامُ.

وكان ممن أشرَكَ وذبَح للشّـياطين مِن ملُوكِهـم مَلِكٌ مِن الرُّومِ يُقال له دِقْيانُـوسُ، وكان يَقتُـل مَن خالَفه في دِينِه الباطِـل. فلَمّا نزلَ مدينةَ أصحابِ الكَهفِ أُفْسُـوسَ(١) استَخفَى منه أهلُ الإيمانِ وهرَبوا في كُلّ

(١) مُعجَم البُلدان، ياقوت الحَموي، (١/ ٢٣١). وفي تعيين موضع الكَهفِ =

جهـةٍ، فاتّخـذ شُرَطًا(١) مِن الكفّـار وأمرهُم أنْ يَتبعُوهـم في أماكنِهم ويُخرِجُوهم إليه فيُخيِّرُوهم بين القتلِ وبين عبادةِ الأصنامِ، فكان مِنهُم مَن يَرغَب في الحياة ومِنهُم مَن يأبى أنْ يَعبُد غيرَ الله فيُقتَلُ(٢).

= أقـوالٌ كثيرةٌ، منها أنّه في الأردُنّ بقرية الرَّجِيب أو بالبَتراء أو في دمشـق بجبَل قاسيُون أو في لُوشة (Loja) بغرناطةَ في الأندلُس، والّذي قاله شيخُنا المحقّـق الهـرَريّ رحمه الله إنّ الأقرَب بحسَـبِ العلامـاتِ والأوصافِ أنّ الكهفَ في أفشِـينَ (Afşin)، ويقال لها: عَفْشِـين بالكُردِيّـة، الواقعةِ في مدينةِ قَهْرمـان مَرعَش (Kahramanmaraş) جنوبَ تُركيا عند أطراف جبـال طُورُوسَ، وقد زارَه شـيخُنا رحمه الله معَ بعـضِ طُلّابه وحصَل لَهُم هنالـكَ أنسٌ عَجِيـبٌ. وقد أكرمَنِي اللّهُ تعالى بزِيارةِ هـذا المكان ودخلتُه فوجدتُ فيه مِن الهَيبةِ والأُنسِ الظاهرِ والعَلاماتِ الحِسّيّة ما لا يَخفَى.

(١) بضَمّ الشّـين وفَتح الرّاء وهم أعوانُ الوُلاةِ والظَّلَمة، والواحِدُ مِنهُم شُرَطِيٌّ بِضَمّ ففَتح، وقد رُوي في حديثٍ ضعيفٍ مرفوعًا: «**الجَلّادُ وَالشُّرَطُ وَأَعْوانُ الظَّلَمَـةِ كِلَابُ النَّـارِ**»، قال الحافظ جـلال الدّين السُّـيوطي في «اللّآلئ المصنُوعـة» (٢/ ١٥٧): «لا يصِحُّ، فمحمّدُ بنُ مُسـلِم الطائفيُّ ضعَّفَه أحمدُ جِدًّا. قلتُ: لكِن وثّقَه ابنُ مَعِين وغيرُه وروَى له مُسلِم والأربعَة».

(٢) مَن أُكرِه على الكُفرِ بالقَتلِ مِمّن يُنفِّذُه فتلفَّظ بالكُفرِ ظاهرًا مِن غيرِ أن يَنشرِحَ صَدرُه فَليسَ عليه حرَجٌ، أمّا إنْ شرَحَ صدرَهُ للكُفرِ فقد كَفَر، وهذا ما يُفهَمُ مِـن قـول الله تعـالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [سُـورة النَّحل: ١٠٦]، وقال شـيخُنا الهـرريّ رحمه الله تعالى: «ليسَ هذا الحُكمُ خاصًّا بأُمّـةِ محمّـدٍ ﷺ فقـط».

فلمّا رأى ذلك أهلُ الرُّسوخِ في الإيمانِ جعَلُوا يُسلِمُون أنفسَهم للعذابِ والقَتلِ فيُقتَلون ويُقطَّعُون، وكان يُجعَلُ ما قُطِعَ مِن أجسادِهم على أسوارِ المدينـةِ وأبوابِها، فلمّا عَظُمَتِ الفِتنةُ وكثُرَتْ ورأى ذلك الفِتيةُ حَزِنوا حزنًا شـديدًا وقاموا فاشـتغلوا بالصّلاةِ والصِّيامِ والتَّسـبيحِ والدُّعاء وبكَـوا وتَضرَّعوا إلى اللهِ عزَّ وجلَّ وجعَلـوا يقولون: «ربَّنا لا نعبُد غيرَكَ أبدًا فاكشِـفْ عن عبـادِك المؤمنِين هـذه الفِتنةَ وارفَـعْ عنهُم البلاء فيَجهَروا بعِبادتِك».

فبينمـا هُم على ذلك وقد دخَلُوا مُصلّاهـم أدركَهُم الشُّرَط فوجَدُوهم سُجَّدًا يَبكُون ويَتضرَّعُون إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، فقال لهُم الشُّرَط: ما خلَّفَكُم عـن أمرِ المَلِك؟! ثُـمّ انطلَقُوا إلى المَلِك فأخبَرُوه خـبرَ الفِتيةِ فبَعثَ إليهِم فأُتِيَ بِهِم تَفِيضُ أعيُنُهم مِن الدَّمعِ وقد تَعفَّرَتْ وجوهُهم بالتُّراب فقال لهُـم: ما منعَكُم أنْ تَشـهَدوا الذَّبحَ لآلهتِنا الّـتي تُعبَدُ في الأرضِ وتَجعَلوا أنفُسَـكُم أُسـوةَ أهلِ مَدِينتِكُم؟ اختارُوا إمّا أنْ تَذبَحُوا لآلهتِنا وإمّا أنْ أقتُلَكُم، فقال مَكسَـلْمِينا[١] وهو أكبَرُهم: «إنّ لنا إلـهًا عظِيمَ القَدْر[٢] لنْ نَدعُوَ إلـهًا غيرَه، له الحمدُ والتكبيرُ مِن أنفُسِنا خالِصًا أبدًا،

---

(١) ويقال في ضَبطِه: «مَكْشَلْنينا».

(٢) أي الشـأن، ولا يُوصَف اللهُ عزَّ وجلَّ بأنّه عظِيمُ المِقدارِ أي الحجمِ إنّه هو عظيمُ القَدْرِ والشأنِ والعَظَمةِ لأنّه تعالَى ليسَ جِسمًا ولا يُشبهُ الأجسامَ ولا المخلوقاتِ بأيّ وجهٍ مِن أوجهِ الشَّـبه، فإذَا قُلنا: «اللهُ أكبَرُ» معناه أكبَرُ =

إيّاهُ نَعبُدُ وإيّاهُ نَسألُ النَّجاةَ والخيرَ، فأمّا الطَّواغِيتُ فلَنْ نَعبُدَها أبدًا، اصْنَعْ بِنا ما بَدا لكَ»، وقال أصحابُه مِثلَ ذلكَ، فلمّا سَمِعَ المَلِكُ كلامَهم أمَر بنَزعِ ثيابِهم وحِليةٍ كانت عليهِم وقال: سَأَفرُغ لكُم وأُنجِزُ لكُم ما أَوعَدتُكم مِن العُقوبةِ، وما يَمنعُني أنْ أُعجِّلَ ذلكَ لكُم إلّا أنّي أراكُم شُبّانًا حدِيثي السِنّ فلا أُحِبُّ أنْ أُهلِكَكم حتّى أجعَلَ لكُم أجَلًا تَذَكَّرُون فيه فتَرجِعُونَ إلى عُقولِكم.

ثُمّ أمَر بهِم فأُخرِجوا مِن عِندِه، وانطلَقَ دِقْيانُوسُ إلى مدِينةٍ أُخرَى قَريبةٍ مِنهُ لِبَعضِ أمُورِه، فلمّا رأى الفِتيةُ خُروجَه بادَرُوا وخافُوا إذا قدِمَ أنْ يَذكُرَهم، فائتَمَرُوا بينَهم واتَّفقوا على أنْ يَأخُذَ كُلُّ واحدٍ مِنهُم نفقةً مِن بيتِ أبِيهِ فيَتصدَّقُوا منها ويَتزوَّدُوا بما بَقِي ثُمّ يَنطلِقُوا إلى كَهفٍ قَريبٍ مِن المدِينةِ في جبَلٍ يُقالُ لهُ يَنْجلُوسُ[1] فيَمكُثُوا فيه ويَعبُدوا اللَّهَ، حتّى إذا جاء دِقْيانُوسُ أتَوْهُ فيَصنَعُ بهِم ما يَشاءُ.

فلمّا اتفقُوا على ذلكَ عمَدَ كلُّ فتًى مِنهُم إلى بيتِ أبِيهِ فأخَذَ نفقةً فتَصدَّقَ مِنها وانطَلَقُوا بِما بَقِي معَهُم، وتَبِعَهُم كَلبٌ كان لهُم، حتّى أتَوا ذلكَ الكهفَ فمكَثُوا فيه. وقيلَ: لَم يَكُن الكَلبُ لهُم، بل مَرُّوا في

= مِن كُلّ كَبِيرٍ قَدْرًا وشَأنًا وقُوّةً وعِلمًا لا أنّه أكبَرُ حَجمًا وجِسمًا ومَكانًا لأنّه تعالَى لَيسَ جِسمًا ولا عرَضًا ولا يَتمكَّنُ في مَكانٍ ولا يَتقيَّدُ بِزَمانٍ، مَهمَا تَصوَّرتَ ببالِكَ فاللهُ لا يُشبِهُ ذلكَ.

(١) مُعجَم البُلدان، ياقوت الحَمَوي، (٥/ ٤٥٠).

طريقِهم إلى الكهـف بِكَلبٍ فتبِعَهُم فطَرَدُوه فعـادَ ففَعلُوا ذلكَ مِرارًا فقـال لهُم الكَلبُ[١]: ما تُريدونَ منّي؟ لا تخشَـوا منّي أنا أُحِبُّ أحبابَ اللّه، فناموُا حتّى أحرُسَكُم.

ولَبِثُـوا في الكَهـفِ ليسَ لهُم عمَـلٌ إلّا الصّلاةُ[٢] والصِّيامُ والتّسـبيحُ والتّحميدُ ابتِغاءً لِرِضَى اللّه عزَّ وجلَّ، وجعَلُوا نفقتَهُم إلى فتًى مِنهُم اسمُه تَمْلِيخا[٣] فكان يَبتاعُ لهُم أرزاقَهُـم مِن المدينةِ سِرًّا، وكان مِن أجمَلِهم وأشدِّهم قوّةً، وكان إذا دخَل المدِينةَ لَبِسَ ثيابًا رَثّةً كثيابِ المُسلمِينَ

---

(١) وهذا كرامةٌ لأصحابِ الكهفِ لأنّهم كانوا صادقِين في إيمانهم وإسـلامِهم وتَقواهُم، فأظهَرَ اللّهُ لهم هذه الكرامةَ تأييدًا لهم وتَثبيتًا، وليس ذلكَ بِعَزيزٍ على اللّه جَلَّ وعَـزَّ، والكَرامةُ خَرقٌ للعادةِ ولكنّها مِـن المُمكِناتِ العقليّة ليسـتْ مِن المستحيلات. ثّم إنّ مَن أجرَى العادةَ أنْ يَنطِقَ بعضُ البهائِم كالبَبّغاءِ قادِرٌ على أنْ يُنطِقَ مَن شاءَ مِن البهائِم بِما شاءَ. ومِن عَجيب أمرِ بعضِ البَهائِم أنّها تَعمَل في الخِياطةِ وصِياغةِ المُجوهَرات كالقِرد، فقد قال البجيرميّ في حاشيته على الخطيب (٤/ ٣٠٩) وغيرُه: «أهدَى مَلِكُ النُّوبةِ إلى المُتوكِّل (ت ٢٤٧هـ) قِردًا خيّاطًا وءاخَر صائِغًا، وأهلُ اليمَن يُعلِّمُون القِردَ القِيامَ بحَوائجِهم وحِفظَ دَكاكِينِهم».

(٢) وهذا دلِيلٌ على أنّ المُسـلمِينَ مِن الأُمَم الماضِية كانُوا يُصَلُّون، وصلاتُهم كانَتْ بوُضوءٍ ورُكوعٍ وسُجودٍ.

(٣) ويقال في ضَبطِه: «أَمْلِيخَا» و«إِمْلِيخَا» و«يَمْلِيخَا» و«مَلِيخَا».

ثُـمّ يأخُذ وَرِقـةً[١] فينطلِقُ إلى المدِينةِ فيَشـتَري لهُـم طعامًا وشرابًا ويَتحسَّسُ لهُم الخبرَ هل ذُكِرُ هو وأصحابُه بِشيءٍ، ثُمّ يَرجِعُ إلى أصحابِه، فلَبِثُوا على ذلكَ ما شاء اللهُ أنْ يَلبَثُوا.

ثُمّ قَدِمَ دِقْيانُوسُ المدِينةَ وأمَرَ عُظماءَ أهلِها أنْ يَذبَحوا للطّواغِيتِ[٢]، ففَـزِعَ مِن ذلكَ أهلُ الإيمانِ، وكانَ تَمْلِيخَا بالمدِينةِ يَشـتَري لأصحابه طعامَهُـم فرجَع إلى أصحابِه وهو يَبكِي ومعَه طعامٌ قلِيلٌ، فأخبَرَهُم أنّ الجبّارَ قد دخَلَ المدِينةَ وأنّهُم قَد ذُكِرُوا والْتُمِسُوا مع عُظَماءِ المدِينةِ، ففَزِعوا ووَقَعُوا سُجودًا يَدْعُونَ اللّهَ ويَتضرَّعُون إلَيه ويَتعوَّذُونَ مِن الفِتنةِ فقال لهُـم تَمْلِيخَا: يا إخْوَتاهُ، ارْفَعُوا رُؤوسَـكُم واطْعَمُـوا وتوَكَّلُوا على ربِّكُم، فرَفَعُوا رُؤوسَـهُم وأعْيُنُهم تَفِيضُ مِن الدَّمعِ وذلكَ عِندَ غرُوبِ الشَّـمسِ، ثُمّ جلَسُـوا يَتحدَّثُون ويَتدارَسُـون ويُذكِّرُ بَعضُهم بعضًا، فبينَما هُم على ذلكَ إذْ أنامَهُم اللّهُ في الكَهفِ وكَلبُهُم وهو باسِطٌ ذِراعَيه ببابِ الكَهفِ.

فلمّـا كانَ مِن الغَـدِ تفقَّدَهُم دِقْيانُوسُ والْتَمَسَـهُم فلَم يَجِدْهُم فقال لِبَعضِ عُظَماءِ المدِينةِ: لقَد ساءَنِي شأنُ هؤلاءِ الفِتيةِ الّذين ذهَبوا، لقَد ظَنُّوا أنّ بِي غضَبًا عليهِم لِجَهلِهم ما جَهِلُوا مِن أمرِي، ما كُنتُ لِأَجهَلَ علَيهِم إنْ هُم تابُوا وعبَدُوا ءالِهَتِي، فقال عُظَماءُ المدِينةِ: ما أنتَ بِمُحِقّ

---

(١) أي عُملةً مِن فِضّة.

(٢) جمعُ طاغُوتٍ وهو الشَّيطانُ أو ما يُزيِّنُ الشَّيطانُ للنّاسِ أنْ يَعبُدوه.

أنْ تَرحَم قومًا فجرةً مَردةً عُصاةً، قد كُنت أجَّلْتَ لهُم أجلًا، ولَو شاؤُوا لرَجعُوا في ذلكَ الأجَلِ ولكِنّهُم لَم يَتُوبوا، فلمّا قالوا ذلكَ غَضِبَ غضبًا شديدًا ثُمّ أرسَلَ إلى ءابائِهم فأُتِي بهِم فقال: أَخبِرُوني عن أبنائِكُم المَرَدةِ الّذِين عصَوْني، فقالوا: إنّهُم ذهَبُوا بأَموالِنا وأَهلَكُوها في أسواقِ المدِينةِ ثُمّ انطَلَقُوا إلى جبَلٍ يُدعَى يَنْجَلُوسُ. فلمّا قالوا له ذلكَ خلَّى سبِيلَهم وجعَلَ ما يَدرِي ما يَصنَعُ بالفِتيةِ، فأمَرَ دِقْيانُوسُ بِسَدِّ بابِ الكَهفِ علَيهِم فأَمَر بذلكَ فسُدَّ عليهِم، وقال: دَعُوهُم كما هُم في كَهفِهم يمُوتُون جُوعًا وعطَشًا ويكونُ كَهفُهم الّذي اختارُوه قبرًا لهم.

ثُمّ إنّ رَجُلَين مُؤمِنَين في بَيتِ المَلِك دِقْيانُوسَ يَكتُمانِ إيمانَهُما اهتَمّا أنْ يَكتُبا شأنَ هؤلاءِ الفِتيةِ وأَسماءَهُم وأنسابَهُم وأخبارَهُم في لَوحَينِ مِن رصاصٍ ويجعلاهُما في تابُوتٍ مِن نُحاسٍ ويَجعَلا التابُوتَ في البُنْيانِ وقالا: لعلَّ اللَّهَ أنْ يُظهِرَ على هؤلاءِ الفِتيةِ قومًا مؤمِنينَ قَبلَ يومِ القِيامةِ فيَعلَمُوا خبرَهُم حِينَ يَقرؤُون الكتابَ، ففَعلَا ذلكَ وبنَيَا عليه.

وبَقِي دِقْيانُوسُ ما بَقِي ثُمّ ماتَ هو وقَومُه ومرَّتْ بعدَهُ قُرونٌ كثيرةٌ وخَلَفتِ المُلُوكُ بَعد المُلوكِ، ثُمّ مَلَكَ تِلكَ البلادَ رجُلٌ مؤمِنٌ صالحٌ يقالُ له بَيْدَرُوسُ وبَقِي مُلكُه ثمانِي وسِتّينَ سنَةً، وتحزَّبَ النّاسُ في مُلكِه؛ فمِنهُم مَن يُؤمِن باللّهِ ويوقِنُ أنّ الساعةَ حَقٌّ، ومِنهُم مَن يُكذِّبُ بها، فكَبُرَ ذلك على المَلِك الصالِح وتَضرَّعَ إلى اللهِ وحَزِنَ حزنًا شدِيدًا لمّا رأَى أهلَ الباطِل يَزِيدُون ويَظْهَرُون علَى أهلِ الحقّ ويقُولونَ: «لا حياةَ

إلّا الحيـاةُ الدُّنيا، وإنّما تُبعَثُ الأرواحُ دُونَ الأجسـادِ»، فجعلَ المَلِك الصالِح يُرسِلُ إلى مَن يظُنُّ فيهم خيرًا وأنّهم أئِمّةٌ في النّاس، لكنّ هؤلاء كانوا قد جعلُوا يُكذِّبُون بالسـاعةِ أيضًا حتّى كادوا يُخرِجُون النّاسَ عنِ الإيمانِ وقد خفِي أمرُهم عليه، فلمّا رأى الملِكُ ذلِكَ دخَل بيتَه وأغلقَ عليـه بابَه ودأَبَ ليلَه ونهارَه يتـضرَّعُ إلى اللَّهِ تَعالَى ويَبكِي ويقولُ: «ربِّ إنّكَ ترَى اختِلافَ هؤلاءِ فابعَثْ لهُم ءايةً تُبيِّنُ لهُم بُطلانَ ما هُم علَيه».

ثُـمّ إنّ اللَّهَ تَعالَى أرادَ أنْ يُطْلِعَ النّـاسَ على أصحابِ الكهفِ ويُبيّن لهُم شـأنَهم ويجعَلُهم ءايـةً وحُجّةً علَيهم ليَعلَمُوا أنّ السـاعةَ ءاتِيةٌ لا رَيبَ فِيها، ويَسـتجيبَ لِعَبدِه الصّالِحِ بَيْدَرُوسَ ويُتِمّ نِعمتَه علَيه وأنْ يجمَعَ مَن كان تفرَّقَ مِن المُؤمنين، فألقَى اللَّهُ سُـبحانَه وتَعالَى في نَفْسِ رجُلٍ اسـمُه أُوْلِياسُ مِن أهلِ البلَدِ الّذي فيه الكهفُ أنْ يَهدِمَ البُنْيانَ الّذي على فَمِ الكهفِ لِيَبنِيَ مِن حِجارةِ الهَدْمِ حظِيرةً لغَنَمِه، فاستأجَرَ غُلامَين فجعَـلَا يَنزِعانِ تِلكَ الحِجارةَ ويَبْنِيانِ بِهـا الحظِيرةَ، فلمّا نَزَعا ما كان على بابِ الكهفِ حجَبَ اللَّهُ أصحابَ الكهفِ عنهُما فلَم يَرَياهُم.

فلمّا فُتِحَ الكهفُ استَيقظَ الفِتيةُ وجلَسُوا فرِحِينَ مُسْفِرةً وُجوهُهم طيّبةً أنفُسُهم وسَـلَّم بعضُهم على بعضٍ كأنّما اسـتَيقَظُوا مِن ساعَتِهم الّتي كانوا يَسـتيقِظُون منهـا إذا أصبَحُوا مِن لَيلَتِهم، ثُـمّ قامُوا إلى الصّلاةِ فصَلَّـوا كما كانوا يَفعَلُون لا يُرَى في وُجوهِهم ولا ألوانِهم شىءٌ يُنكِرُونه بـل كانوا كهَيئَتِهم حِينَ رقَدُوا وهُم يرَونَ أنّ دِقْيانُوسَ يطلُبُهم، فقالوا

لِتَمْلِيخَا صاحبِ نفقتِهم: أنبِئْنا بما قال النّاسُ في شأنِنا عَشِيّةَ أمسِ عِنْدَ هذا الجبّارِ، وهم يظُنُّون أنّهم قد رقَدُوا كبَعضِ ما كانوا يرقُدُون، حتّى تساءلوا فيما بينَهم: كَم لَبِثتُم نيامًا؟ قالوا: لَبِثْنا يومًا أو بَعضَ يومٍ، قالوا: ربُّكُم أعلَمُ بما لَبِثتُم، فقال لهُم تَمْلِيخَا: قَدِ التُمِسْتُم في المدِينة، ودِقْيانُوسُ يُرِيدُ أنْ يُؤتَى بِكُم اليومَ فتَذبَحوا للطَّواغيتِ أو يَقتُلَكُم، فما شاءَ اللهُ بَعد ذلكَ كانَ، فقال لهُم مَكْسَلْمِينَا: يا إِخْوَتاهُ، اعلَمُوا أنّكُم مُلاقُو اللهِ[1] فلا تَكفُروا بَعد إيمانِكُم إذَا دَعاكُم عَدُوُّ اللهِ، فقالوا لِتَمْلِيخَا: انْطَلِقْ إلى المدِينةِ فتَسمَّعْ ما يُقالُ فِينا بِها وما الّذي يُذكَرُ فِينا عِندَ دِقْيانُوسَ، وتَلطَّفْ ولا تُشعِرَنَّ بكَ أحَدًا، وابْتَعْ لنا طَعامًا فأْتِنا به وزِدْنا علَى الطّعامِ الّذي جِئْتَنا به فقَد أصبَحنا جِياعًا، ففعَلَ تَمْلِيخَا كما كانَ يَفعَلُ ووضَعَ ثِيابَه وأخَذَ الثِّيابَ الّتي كانَ يَتنكَّرُ فيها وأخَذَ ورِقًا مِن نفقَتِهم الّتي كانَتْ معَهُم الّتي ضُرِبَتْ بطابَعِ دِقْيانُوسَ وانطَلَق خارِجًا، فلمّا مَرَّ ببابِ الكهفِ رأى حِجارةً منزُوعةً عن بابِ الكهفِ فعَجِبَ منها ثُمّ مَرَّ ولَم يُبالِ بها حتّى أتَى بابَ المدِينةِ مُسْتَخْفِيًا تخوُّفًا مِن أنْ يَراه أحَدٌ مِن أهلِها فيَعرِفَه، وهو لا يَشعُرُ أنّ دِقْيانُوسَ وأهلَه هلَكُوا قبلَ ذلك بِما يزيدُ على ثَلاثمائةِ سنةٍ.

---

(١) أي مُلاقُو حسابِ اللهِ يَومَ القِيامةِ، واللهُ تعالَى لا يكُونُ مُتحيِّزًا في أرضِ المَحشَرِ ولا في غيرِها مِن الأماكِنِ، هو موجودٌ أزلًا وأبدًا بلا مَكانٍ ولا جهةٍ ولا كَيفٍ سُبحانَه.

فلمّا أتـى تمْليخا بابًا مِن أبـوابِ المدِينةِ رفَعَ بصَرَه فـرأى فوقَ ظَهرِ البـابِ علامةً كانتْ لأهلِ الإيمـانِ، فعَجِبَ وجعَلَ يَنظُـرُ إليها يمِينًا وشِـمالًا ثُمّ تركَ ذلكَ البـابَ ومضَى إلى بابٍ ءاخَرَ فـرأى مِثلَ ذلك، فخُيِّلَ إليه أنّ المدِينةَ ليسَتْ بالّتي كان يَعرِفُ، ورأى أشخاصًا كثِيرينَ مُحْدَثِـينَ لَم يكُن رءاهُم قبل ذلكَ، فجعَلَ يمشِي ويَتعجَّبُ ويُخَيَّلُ إليه أنّهُ حَيرانُ، فرَجَعَ إلى البابِ الّذي أتَى مِنهُ وجعَلَ يَتعجَّبُ بَينَه وبينَ نَفْسِـه ويقُول: ما هذا؟ أمّا عشِـيّةَ أمسِ فكان المسلِمُون يُخفُونَ هذه العلامةَ في هذه المدِينةِ ويَسْتَخفُون بها، واليومَ ظاهِرةٌ! لعَلّي نائمٌ حالِمٌ، ثُمّ رأى أنّه ليسَ بنائِمٍ، فأخذَ كِساءَه فجعَلَه على رأسِه ثُمّ دخَلَ المدينةَ وجعَلَ يمْشي في أسـواقِها، فسَـمِعَ أُناسًـا يَحلِفُون بِربِّ عِيسَى ابنِ مَريمَ، فزادَه ذلكَ تعجُّبًا، ورأى أنّه حيرانُ فقامَ مُسـنِدًا ظهرَه إلى جِدارٍ مِن جُدرانِ المدِينةِ وهو يقولُ في نَفْسِه: واللهِ ما أدري ما هذا، أمّا عشِيّةَ أمسِ فلَم يَكُن على الأرضِ مَن يذكُر عِيسَى ابنَ مَريمَ إلّا قُتِلَ، وأمّا اليومَ فأسـمَعُ كُلَّ إنسانٍ يَذكُر عِيسَى ابنَ مَريمَ لا يَخافُ، ثُمّ قال في نَفسِه: لعَلَّ هذه ليسَـتْ بالمدِينةِ الّتي أعرِفُ، واللهِ ما أعلَمُ مدِينةً بِقُربِ مدِينَتِنا! فقامَ كالحيرانِ، ثُمّ لَقِيَ فتًى فقال له: ما اسـمُ هـذه المدِينةِ يا فتى؟ فقال: اسـمُها أُفْسُوسُ، فقال في نفسِه: لعَلَّ بِي مَسًّا أو أمرًا أذهَبَ عَقْلِي، واللهِ يَحِقُّ لي أنْ أُسرِعَ الخُروجَ قبلَ أنْ يُصِيبَنِي فيها شَرٌّ فأَهلِكَ.

ثُـمّ مضَى تَمْلِيخا إلى الّذِين يبِيعُون الطّعامَ فأخرَجَ لهُم الوَرِقَ الّتي كانتْ

معَـه وأعطاها رجُلًا مِنهُم وقال له: بِعْنِي بهـذِه الوَرِق طعامًا، فأخذَها الرجُل ونظَر إلى ضَرْبِ الوَرِق ونَقْشِها فعَجِبَ منها، فناولَها رجُلًا ءاخَرَ مِن أصحابِـه فنَظَر ثُمّ جعَلُـوا يَتطارَحُونها بينَهُم مِـن رجُلٍ إلى رجُلٍ ويَتعجَّبُـون مِنها ويَتشـاوَرُون بينَهم ويقُول بَعضُهـم لِبَعضٍ: إنّ هذا أصـابَ كنزًا خَبِيئًـا في الأرضِ مُنذُ زمانٍ طوِيلٍ، فلمّـا رءاهُم تَمْلِيخَا يَتحدَّثُـون فيه خافَ وجَعَل يَرعُد ويَظُنّ أنّهُم قد فَطِنُوا به وعرَفُوه وأنّهُم إنّما يُرِيدُون أنْ يَذهَبُـوا به إلى مَلِكِهم دِقْيانُوسَ. وجَعَل أناسٌ يأتُونَه ويَتعَرَّفُونه فلا يَعرِفُونَه، فقال لهُم وهو شدِيدُ الخوفِ مِنهُم: أَفْضِلُوا علَيَّ قد أخَذتُم ورِقِي فأَمْسِكُوها، والْتفتَ إلى البائِع فقال له: أمّا طعامُكَ فلا حاجةَ لي به، فقالوا له: يا فتَى مَن أنتَ وما شـأنُك؟ واللهِ لقَد وجَدتَ كنـزًا مِن كنُوزِ الأوّلِينَ وأنـتَ تُرِيدُ أنْ تُخفِيَه مِنّا، انطَلِـقْ معَنا وأَرِناهُ وشـارِكْنا فيه نُخَفِّفْ عليكَ ما وجَدتَ، وإنّـك إنْ لَم تَفعَلْ نَحمِلْكَ إلى السُّلطانِ فنُسلِمَكَ إليه فيَقتُلَك، فلمّا سَمِعَ قولَهُم قال: واللهِ قد وقَعتُ في كُلّ شيءٍ كُنتُ أحذَرُ مِنهُ، فقالوا له: يا فتَى إنّكَ واللهِ لا تَسـتطِيعُ أنْ تَكتُمَ ما وجَدتَ، فجَعَـل تَمْلِيخَا لا يَدرِي ما يقُولُ لهُم، حتّى إنّه لَم يَجْرِ على لِسـانِه كلامٌ مِن الخَوفِ، فلمّا رأَوهُ لا يَتكلَّمُ أخَذُوا كِساءَه فطرَحُوه في عُنقِه وجعَلُوا يَسْـحبُونه في طُرقِ المدِينةِ حتّى سَمِعَ به مَن فيها وهم يقولون فيه: قد أُخِذَ رجُلٌ معَه كَنزٌ.

فاجتمَـعَ علَيه أهلُ المدِينةِ وجعَلُوا يَنظُرون إليه ويقُولون: واللهِ ما هذا

الفتى مِن أهلِ هذِه المدِينةِ وما رأَيناهُ فيها قَطُّ وما نَعرِفُه، وجعَلَ تَمْلِيخَا لا يَـدرِي ما يقُولُ لهُم، وكان مُتيقِّنًـا أنّ أباهُ وإخوتَه بالمدِينةِ وأنّه مِن عُظَماءِ أَهلِها وأنّهُم سـيَأْتُونه إذَا سَمِعُوا بِه، فبَينَما هو كالحَيرانِ يَنتظِرُ متَى يأتِيه بعضُ أهلِـه لِيُخلِّصَه مِن أيدِيهِم إذِ اختطَفُوه وانطَلَقُوا بِه إلى رَئِيسَي المدِينـةِ ومُدَبِّرَيْها اللَّذَينِ يُدبِّـرانِ أمرَها وهُما رجُلانِ صالِحان اسـمُ أحَدِهما أَرْيُوسُ واسـمُ الآخَرِ طَنْطِيُوسُ، فلمّا انطَلَقُوا به إليهما ظَنَّ تَمْلِيخَا أنّه إنمّا يُنطلَقُ بِه إلى دِقْيانُوسَ الجبّارِ، فجعَلَ يَلْتَفِتُ يمِينًا وشِـمالًا وهو يَبكِي والنّاسُ يَسخَرُونَ مِنهُ كما يَسخَرُونَ مِن المجنُون، ثُمّ رفَعَ رأسَه إلى السّماءِ[١] وقال: اللهم إلهَ السَّماءِ وإلهَ الأَرضِ أفْرِغْ علَيَّ اليومَ صَبرًا وأَولِجْ مَعِي مِنكَ ما يُؤيِّدُني عِندَ هذا الجبّار، وجعَلَ يقُولُ في نَفسِـه: فرَّقُوا بَينِي وبَين إخوَتي، يا لَيتَهُـم يَعلَمُون ما لَقِيتُ، ويا لَيتَهُم يأتُونَـنِي فنَقُومَ جمِيعًا بَين يدَيْ هـذا الجبّارِ، فإنّا قد كُنّـا تَواثَقْنا على الإيمانِ باللّهِ وأنْ لا نُشرِكَ به أحدًا أبدًا ولا نَفترِقَ في حياةٍ ولا موتٍ.

فلمّا انتهَى إلى الرّجُلَين الصالِحَينِ أَرْيُوسَ وطَنْطِيُوسَ ورأى أنّه لَم يَذهَبْ إلى دِقْيانُوسَ أفاقَ وذهَبَ عنه البُكاءُ، فأخَذَ أَرْيُوسُ وطَنْطِيُوسُ الوَرِق

(١) لأنّ السّماء قِبلةُ الدُّعاءَ كما أنّ الكعبةَ قِبلتُنا في الصّلاة، وليسَ رفعُ اليَدَين إلى السَّـماءِ لأنّ اللهَ يسكُنُها، حاشـا للّه وتقدّسَ، فاللّهُ تعالى خالِقُ السَّماءِ والعـالَمِ بأسْرِه، فليسَ يحتاجُ إلى شيءٍ، وهو موجودٌ أزلًا وأبدًا بلا مَكانٍ ولا جِهةٍ ولا كَيفٍ.

ونظَـرا إليها وعَجِبا مِنها وقالا: أينَ الكَنـزُ الّذي وجَدتَ يا فتَى؟ فقال تَمْليخَا: ما وجَـدتُ كنزًا ولكِن هذا وَرِقُ ءابائـي ونَقْشُ هذِه المدِينَةِ وضَرْبُها، ولكِن واللهِ ما أَدري ما شـأني وما أقُولُ لكُم، فقال له أحدُهما: مِمّـن أنتَ؟ فقال تَمْليخَا: أمّا أنا فكُنتُ أرَى أنّي مِن أهلِ هذِه المدِينَةِ، فقِيل له: ومَن أبُوكَ؟ ومَن يَعرِفُك بها؟ فأخبَرَهُم باسـمِ أبِيه فلَم يُوجَد مَـن يَعرِفُه ولا أبـاه، فلَم يَدْرِ تَمْلِيخَا ما يقُول غـيرَ أنّه نكَس بصرَه إلى الأرضِ فقال بعضُ مَن حَولَه: هـذا رجُلٌ مجنُونٌ، وقال بعضُهم: ليسَ بمَجنُونٍ ولكنّه يُحَمِّقُ نَفسَـه عمدًا لكي يَنفلِتَ مِنكُم، فقال له أحدُهما ونظَرَ إلَيهِ نظَرًا شدِيدًا: أتظُنُّ أنّا نُرسِلُكَ ونُصدِّقُك بأنّ هذا مالُ أبيكَ ونَقْشُ هذه المدِينةِ وضَربُها ولهذا الورَقِ أكثرُ مِن ثلاثِمائةِ سـنَةٍ وأنتَ غُلامٌ شـابٌّ؟! أتظُنُّ أنّكَ تأفِكُنا[1] وتَسـخَرُ بنا ونحنُ شُـيوخٌ شُمْطٌ وحَولَك سَراةُ هذه المدِينـةِ ووُلاةُ أمرِها وخزائِنُ هذه المدِينةِ بأَيدِينا وليسَ عِندَنا مِن هذا الضَربِ دِرهَمٌ ولا دِينارٌ؟! وإنّي لأَظُنُّني سآمُرُ بكَ لِتُعذَّبَ عذابًا شـديدًا ثُمّ أُوثِقُكَ حتّى تَعترِفَ بهذا الكَنزِ الّذي وجَدتَه، فقال لهُم تَملِيخَا: أَخبِرُوني عمّا أسأَلُكم عنه، فإنْ أنتُم فعَلتُم صدَقْتُكم عمّا عِندِي، فقالوا له: سَـلْ لا نَكْتُمْك شـيئًا، قال: فما فعَلَ المَلِكُ دِقْيانُوسُ؟ فقالوا: ما نَعرِفُ على وَجهِ الأرضِ مَن اسـمُه دِقْيانُوسُ ولَم يكُن إلّا مَلِكًا هلَكَ في الزّمانِ الأوّلِ وله دَهرٌ طوِيلٌ وهلَكَ بَعدَه قرُونٌ،

---

(١) أي تَكذِبُنا بمعنَى أنّك لا تَصدُقُنا القَولَ.

فقالَ تَمْلِيخَا: إنِّي إذًا لحيرانُ وما يصدِّقُني أحدٌ مِن النّاسِ فيما أقُولُ، لقَد كُنّا فِتيةً على دِينٍ واحِدٍ وإنّ المَلِكَ أكرَهنا على عبادةِ الأصنامِ والذَّبحِ للطّواغيتِ فهَرَبْنا مِنهُ عَشِيّةَ أمسِ، فأتَيْنا إلى الكهفِ الّذي في جبل يَنْجَلُوسَ فنِمْنا فيه، فلمّا انتَهَيْنا خرَجتُ لأشتَرِيَ لأصحابي طعامًا وأتحسَّسَ الأخبارَ فإذَا أنا معَكُم كما ترَونَ، فانطَلِقُوا معي إلى الكهفِ لأُرِيَكُم أصحابِي. فلمّا سَمِعَ أَرْيُوسُ قولَ تَمْلِيخَا قال: يا قومِ لعَلّ هذِه ءايةٌ مِن ءاياتِ اللّهِ جعلَها اللّهُ عزَّ وجلَّ لكُم على يَدِ هذا الفتَى، فانطَلِقُوا بِنا معَه حتّى يُرِينَا أصحابَه.

فانطلَقَ أَرْيُوسُ وطَنْطِيُوسُ ومعَهُما جميعُ أهلِ المدِينةِ نحوَ أصحابِ الكهفِ لِينظُروا إليهِم، فلمّا رأى الفِتيةُ أصحابُ الكهفِ تَمْلِيخَا قَدِ احتبَسَ عنهُم بطَعامِهم وشَرابِهم عن القَدْرِ الّذي كان يأتي فيه ظَنُّوا أنه أُخِذَ وذُهِبَ بِه إلى دِقْيانُوسَ، فبَينَما هُم يظُنُّون ذلك ويَتخوَّفُونه إذْ سَمِعُوا الأصواتَ وجَلَبَةَ الخَيلِ مُصْعِدةً فظَنُّوا أنّهُم رسُلُ الجبّارِ دِقْيانُوسَ بعَثَ بهِم إليهِم لِيُؤتَى بهِم، فقامُوا إلى الصّلاةِ وسَلَّم بعضُهم على بَعضٍ وأوصَى بعضُهم بعضًا وقالوا: انطَلِقُوا بِنا نأْتِ أخانا تَمْلِيخَا فإنّه الآنَ بَينَ يدَيِ الجبّار دِقْيانُوسَ وهو يَنتظِرُنا حتّى نأتِيَه، فبَينَما هُم يقُولونَ ذلك وهم جُلوسٌ على هذه الحالةِ إذَا هُم بأَرْيُوسَ وأصحابِه وقُوفًا على بابِ الكهفِ، فسبَقَهُم تَمْلِيخَا ودخَلَ وهو يَبكِي، فلمّا رأَوهُ يَبكِي بكَوا معَه ثُمّ سأَلُوه عن خبَرِه فقَصَّ علَيهِمُ الخبَرَ كُلَّه، فعرَفُوا أنّهُم كانوا نِيامًا

بأمـرِ الله ذلكَ الزّمنَ الطوِيـلَ وأنّهُم إنّما أُوقِظُـوا ليَكُونوا ءايةً للنّاسِ وتَصدِيقًا للبَعثِ ولِيَعلَم النّاسُ أنّ الساعةَ لا رَيبَ فِيها.

ثُمّ دخَلَ عـلَى إثْرِ تَمْلِيخَا أَرْيُوسُ فرأَى تابُوتًا مِـن نُحاسٍ مَختُومًا بخاتَمِ فِضّـةٍ، فوقَفَ عـلَى البابِ ودَعا جَماعةً مِن عُظَماءِ أهـلِ المدِينَةِ وأمَرَ بِفَتـحِ التابُـوتِ بِحَضرَتِهِم، فوجَـدُوا فيه لَوحَين مِن رَصـاصٍ مَكتُوبًا فِيهِمـا: «مَكْسَـلْمِينَا وَمَحْشَـلْمِينَا وتَمْلِيخَا(١) ومَرْطُونَسُ وكَشْـطُونَسُ وبَيْرُونَسُ ودَيْمُوسُ وبَطْنَيُوسُ ونُوانَسُ(٢)، والكلبُ اسمُه قِطْمِيرُ، كانوا فِتيةً هرَبُوا مِن مَلِكِهِـم دِقْيانُوسَ مَخافةَ أنْ يَفتِنَهُم عن دِينِهِم فدَخَلُوا هذا الكهفَ، فلمّا أُخبِرَ بمَكانِهِم أمَرَ بالكهفِ فسُـدَّ علَيهِم بالحِجارةِ، وإنّا كتَبْنا شـأنَهم وخبَرَهُم لِيَعلَمَهُ مَن بَعدَهم إنْ عَثَر بهِم»، فلمّا قرأُوه

(١) ويقال في ضبطِه: «أَمْلِيخَا» و«إِمْلِيخَا» و«يَمْلِيخَا» و«مَلِيخَا».

(٢) قال الحافظ اللُّغوي محمد مرتـضى الزَّبيدي في «تاج العروس»: «اختُلِفَ في ضَبطِ أسامِيهِم على خَمسةِ أقوالٍ: القولُ الأوّلُ: مَكْسَلْمِينا، إِمْلِيخا، مَرْطُوكَشُ، نَوالِسُ، سانِيُوسُ، بَطْنَيُوسُ، كَشْفُوطَطُ، أو مَلِيخَا بحَذْفِ الألِفِ، مَكْسَلْمِينَا مِثلُ الأوّلِ، مَرْطُوسُ، نِوانِسُ، أَرْبَطانِسُ، أُونُوسُ، كَنْدَ سَـلْططْنُوسُ، وهذا هوَ القولُ الثّاني، أو مَكْسَـلْمِينَا، مَلِيخَا، مَرْطُونَسُ، يَنْيُونَسُ، سـارْبُونَسُ، كَفَشْطَيُوسُ وفي بَعضِ النُّسَخِ بِطاءَين، ذُو نُواسُ، وهذا هوَ القَولُ الثّالِثُ، أو مَكْسَـلْمِينَا، أَمْلِيخَا، مَرطُونَسُ، يُوانَسُ، سـارَيْنُوسُ، بَطْنَيُوسُ، كَشْفُوطَطُ وهذا هوَ القَولُ الرّابعُ، أو مَكْسَلْمِينا، يَمْلِيخَا، مَرْطُونَسُ، يَنْيُونَسُ، دَوانَوانِسُ، كَشْفَيْطَطُ، نُونَسُ، وهذا هوَ القَولُ الخامِسُ».

عَجِبوا وحَمِدُوا اللهَ سُبحانَه وتعالَى الّذي أراهُم ءايةً تَدُلُّهم علَى البَعثِ ثُمّ رَفَعُوا أصواتَهُم بِحَمدِ اللهِ وتَسبيحِه، ثُمّ دخَلُوا علَى الفِتيةِ الكَهفَ فوجَدُوهم جُلوسًا مُشرِقةً وُجوهُهم لَم تَبْلَ ثِيابُهم، فخَرَّ أَرْيُوسُ وأصحابُه سُجَّدًا للهِ وحَمِدُوا اللهَ سُبحانَه وتَعالَى الّذي أراهُم ءايةً مِن ءاياتِه، ثُمّ كَلَّم بعضُهم بعضًا وأخبَرَهُم الفِتيةُ عن الذي لَقُوه مِن مَلِكِهم دِقْيانُوسَ.

ثُمّ بَعَثَ أَرْيُوسُ وأصحابُه بَريدًا إلى مَلِكِهم الصّالِحِ بَيْدَرُوسَ أنْ عَجِّلْ لعَلَّكَ تنظُرُ إلى ءايةٍ مِن ءاياتِ اللّهِ جَعَلَها اللّهُ علَى مُلْكِك للنّاسِ ءايةً لِتَكُونَ لهُم نُورًا وضِياءً وتَصدِيقًا بالبَعثِ، فلمّا أتَى المَلِكَ الخَبَرُ ذَهَبَ همُّه وقال: أحمَدُكَ اللهم رَبَّ السَّمواتِ والأرضِ وأعبُدُكَ وأُسَبِّحُ لكَ، تطَوَّلْتَ(١) علَيَّ ورحِمْتَني ولَم تُطفِئِ النُّورَ الّذي جَعَلته لآبائي ولِي، ثُمّ رَكِبَ حتّى أتَى الكهفَ، فلمّا صَعِدَ الجبَلَ ورأى الفِتيةَ فَرِحَ بِهِم وخَرَّ ساجِدًا للهِ وقام قُدّامَ الفِتيةِ ثُمّ اعتنَقَهُم وبكَى وهم جلوسٌ بَين يدَيه على الأرضِ يُسبِّحُونَ اللّهَ ويَحمَدُونه.

ثم قال الفِتيةُ لِبَيْدَرُوسَ المَلِكِ: نَستودِعُكَ اللّهَ والسَّلامُ عليكَ ورحمةُ اللّهِ وبَركاتُه، حَفِظَكَ اللّهُ وحَفِظَ مُلكَكَ ونُعيذُكَ باللّهِ مِن شَرِّ الإنسِ والجِنّ. فبَينَما الملِكُ قائِمٌ إذا هُم رجَعُوا إلى مَضاجِعِهم فنامُوا، وتوَفَّى اللّهُ أنفُسَهم. فقام المَلِكُ إليهم وجعَلَ ثِيابَهُم عليهم وأمَرَ أنْ يُجعَل كلُّ رجُلٍ مِنهُم في تابوتٍ مِن ذَهَبٍ، فلمّا أمسَى ونامَ أتَوه في مَنامِه فقالوا له: إنّا لَم

(١) أي تفضَّلْتَ.

نُخلَق مِن ذهَبٍ ولا فِضّةٍ ولكِنّا خُلِقْنا مِن تُرابٍ وإلى التُّرابِ نَصِيرُ، فاترُكْنا كما كُنّا في الكَهفِ على التُّرابِ حتّى يَبعثَنا اللّهُ تَعالَى مِنهُ. فأمَرَ المَلِكُ عِندَ ذلك بتابُوتٍ مِن ساجٍ[1] فجُعِلُوا فيه وحجَبَهُم اللّهُ حِينَ خَرَجُوا مِن عِندِهِم عن أعيُنِ النّاسِ، ولَم يَقدِرْ أحَدٌ أنْ يَدخُلَ عليهِم، وأمَرَ المَلِكُ أنْ يُتَّخَذَ على بابِ الكَهفِ مَسجِدٌ يُصلَّى فيه، وجَعَلَ لهُم عِيدًا عظِيمًا وأمَرَ أنْ يُؤتَى كُلَّ سنَةٍ[2].

فهذا ذِكر ما في قِصّة أهل الكهفِ على التّفصِيل، وقد أُوجِزَتْ في القرءانِ الكريم بأَبلَغِ بيانٍ فقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِذْ﴾ أي واذكُر إذْ ﴿أَوَى ٱلْفِتْيَةُ﴾ أي التَجأَ أصحابُ الكهفِ وهُم مِن الشَّبابِ ﴿إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ وجعَلُوه مأواهُم، وكانوا فِتيةً مؤمنِينَ باللّهِ مِن أشرافِ قومِهم الرُّومِ، فأرادَهم مَلِكُهم دِقْيانُوسُ على الشِّرك ففَرُّوا منه بدِينِهم إلى الكَهفِ واشتغَلُوا بالتضرُّعِ إلى اللّهِ والدُّعاءِ ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ﴾ أي مِن خزائِنِ رَحمتِك ﴿رَحْمَةً﴾ خاصةً فنَنالَ مِنكَ المغفرةَ والرِّزقَ والأمنَ مِن الأعداء ﴿وَهَيِّئْ﴾ ﴿لَنَا﴾ ﴿مِنْ أَمْرِنَا﴾ أي واجعَل لنا الّذي نحنُ عليه من مُهاجَرة الكفّارِ والمُثابَرةِ على طاعتِك ﴿رَشَدًا ۝١٠﴾ أي إصابةً

---

(١) نوع من الخشب.

(٢) أي ليقِفُوا على المكانِ الّذي ظهرَتْ فيه هذه الآيةُ العظيمةُ فيَعتبِرُوا ويتدبَّروا ويَشكُروا اللّهَ عزّ وجلَّ على إظهارِ هذه العَلامةِ الّتي كانتْ سببًا في بَيانِ الحَقِّ الّذي عليهِ المُسلِمُون.

للطَّرِيــق المُوصِل إلى المطلُوبِ، معناهُ يَــسِّر لَنا ما نَلتمِسُ منه رِضاكَ وما فيه رُشـدُنا.

﴿ فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ ﴾ أي ألقى اللَّهُ علَيهِمُ النَّومَ ومنعَ أسماعَهُم مِن التّنبُّه للأصواتِ، وقد أنامَهُم اللَّهُ ﴿فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدٗا ١١﴾ أي كثيرةً تُعَدُّ عددًا لِكَثرَتِها.

﴿ ثُمَّ بَعَثۡنَٰهُمۡ ﴾ أي مِــن نَومِهم بمَعنَى أيقظْناهُم ﴿لِنَعۡلَمَ أَيُّ ٱلۡحِزۡبَيۡنِ﴾ أي لِيُظهِرَ اللَّهُ ما عَلِمَ أنّه يكونُ وهو كَونُ إحدَى الطائفتَين المتنازِعتَين في المدِينةِ في مُدّة لُبثِ أصحــابِ الكهف ﴿أَحۡصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدٗا ١٢﴾ أي أحفَــظُ لِمَا مكثَ الفِتيةُ في كَهفِهِــم نِيامًا، واللَّهُ تعالَى عالِمٌ بما كانَ وَما يَكُون وما سيَكُون، فَلا يَخفَى علَيه شيء سُبحانَه.

ثُمّ امتَنَّ تعالَى على نَبيّه ﷺ بإنبائِه عَن خبَرِ أهلِ الكَهفِ بالوَحيِ فقال عزَّ وجــلَّ: ﴿ نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم ﴾ أي نُخـبِرُك بتَفاصِيل أخبارِهم ﴿بِٱلۡحَقِّۚ﴾ أي بالصِدْق ﴿إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ﴾ أي شُـبّانٌ(١) ﴿ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ ﴾ سُبحانَه وتعالَى ﴿وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى ١٣﴾ أي إيمانًا وبَصِيرةً فَثَبّتْناهم على دِينِ الإسلامِ.

﴿ وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ ﴾ أي قوّينا قلُوبَهم بالصَّبر والتّثبيتِ ونُورِ الإيمانِ حتّى صبَرُوا على هَجرِ الأهلِ والأوطــانِ والنّعيم والإخوانِ معَ اجترائِهم

---

(١) والفِتيةُ جَمعُ فَتى وهو الشابُّ، مأخوذٌ مِن الفُتوّةِ القُوّة.

على الصَّدع بالحقّ مِن غيرِ خوفٍ والرَدِّ على دِقْيانُوسَ الجبّارِ ﴿إِذْ قَامُواْ﴾ مُنتصِبين لإظهارِ شعارِ الدّين الحَقّ في المدينةِ أو المعنَى إذْ قاموا بين يدَيْ دِقْيانُوسَ حِينَ دعاهُم يُعاتِبُهم على عدمِ عبادة الأصنام والذّبح للطّواغِيت ﴿فَقَالُواْ﴾ أي الفِتيةُ بجُرأةٍ في الصَّدع بالحقّ ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ﴾ أي لَن نعبُدَ غيرَ اللهِ[1] ﴿إِلَٰهًا﴾ وكان أكثرُ قومِهم عبَدةَ أصنامٍ، ولو عبدْنا غيرَ اللهِ إلـٰهًا ﴿لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا قَوْلًا﴾ ﴿شَطَطًا ١٤﴾ أي مُفرِطًا في الظُّلم مُتجاوزِين بهِ الحَدَّ خارجِين به عن حَدِّ العُقولِ، والعبدُ إذا خالفَ أمرَ اللهِ فقد ظلَمَ نفْسَه، فلا يَلحَقُ اللهَ مِن عِصْيان العُصاةِ ضَرٌّ ولا مِن طاعةِ الطائعِينَ نفعٌ، سُبحانَه وتعالَى هو الغنيُّ عن العالَمين.

---

(١) فقد يُطلَقُ الدُّعاءُ على معنَى العبادةِ كما ههنا في الآيةِ، وأمّا ما جاءَ في الحديثِ عن النَّبيّ ﷺ بالتَّرغِيب في الدُّعاء والحثِّ عليه: «**الدُّعاءُ مُخُّ العِبادَةِ**» فمَعناه أنّ الدُّعاءَ مِن أفضَلِ الحَسَنات، فالعبادةُ هنا الحَسَناتُ ولَيسَ مَعناها نهايةَ التذلُّلِ كالّتي في الآية: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ لأنّ «نعبُد» هنا معناها نَخُصُّك يا اللهُ بأقصَى غايةِ الخضوعِ والخُشوعِ، ويقال أيضًا: نُطيعُك يا اللهُ طاعةً معَ الخضُوع لك، فهذه هي العبادةُ الّتي مَن صرَفَها لغَيرِ الله فقد كفَر. وليسَ معنَى الحديثِ السَّابقِ ما تدَّعيه الوهّابيةُ المُجسِّمةُ مِن أنّ التوسُّلَ بالرَّسولِ والوليّ إلى اللهِ شِركٌ وعِبادةٌ لِغيرِ اللهِ، فإنّهم يحتجُّون بهذا الحديثِ لتَحريم قولِ المُسلم: «يا رسولَ اللهِ، وأغِثْني بإذنِ اللهِ يا رسولَ الله»، أو اللهم أسأَلُك بجاهِ رَسولِ اللهِ كَذا وكَذا مِن الخَيرِ، وقولُ الوهابيّة ذلك باطِلٌ ساقِطٌ لا يُلتفَتُ إليه.

وأنكَـر الفِيتةُ على قومِهم عِبادةَ الأصنـام فقالوا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا﴾ أهلُ بلَدِنـا ﴿ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ﴾ أي مِـن دُونِ اللهِ أصنامًـا ﴿ءَالِهَةٗ﴾ يَعبدُونها ﴿لَّوۡلَا﴾ هو للتّحضِيض لكنّه في معنى الإنكارِ والتعجيزِ أي هلّا ﴿يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم﴾ أي عـلى عِبادتِهِمُ الأصنـامَ ﴿بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖ﴾ أي بُحجّـةٍ واضحةٍ، وإنّما قالوا ذلك في مَقـام التّبكيتِ لهُم وإلقامِ الحجَر، فإنّ الإتيانَ بحُجّةٍ على عبـادةِ الأصنامِ مُحالٌ، ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ١٥﴾ بزعمِـه أنَّ للهِ شرِيكًا أو ولَدًا، أي لا ظُلم أشَـدُّ من الكُفرِ، سواءٌ كانَ كُفرَ إشراكٍ أو غيرَه مِن أنواعِ الكُفر، أجارَنا اللهُ مِنها.

ثم قال بعضُ الفِتيةِ لِبعضٍ: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ﴾ أي فارَقتُم قومَكم ﴿وَمَا يَعۡبُدُونَ﴾ أي واعتَزلتُم معبوداتِهم ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾ فإنّكُم لَم تتركُوا عِبادتَه، فإنّكُم إذًا مُعتَزِلونَ قومَكُم فيما تَدِينُون به[1]، فاعتَزِلُوهم فِي الوطَنِ أيضًا ﴿فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ﴾ أي الجؤوا إليه ﴿يَنشُرۡ لَكُمۡ﴾ أي يَبسُطْ عليكُم ﴿رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ أي رِزقِه أو كُلِّ ما يَدفَعُ عنكُم الهلاكَ ﴿وَيُهَيِّئۡ﴾ أي ويُسهِّل ﴿لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم﴾ الّذي أنتُم فيه ﴿مِّرۡفَقٗا ١٦﴾ ترتفِقُون به أي تَنتفِعُون به مِن رزقٍ وغيرِه.

وأخبَر اللهُ عزَّ وجلَّ عن حالِ الفِتية بعدَما أَوَوا إلى الكهفِ فقال: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ﴾ أي ولـو رأيـتَ الكهـفَ كُنتَ ترى الشّـمسَ ﴿إِذَا طَلَعَت﴾

---

(١) أي تتّخِذُونه دِينًا وهو الإسلامُ.

وأشرق ضوؤُها ﴿تَّزَٰوَرُ﴾ أي تَميلُ بضَوئِها ﴿عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ﴾ أي جِهةَ يَمين الكَهف ﴿وَإِذَا﴾ أي وكُنتَ تراها عِندَ ﴿غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ أي تتركُهم وتعدِلُ عنهُم إلى جِهةِ شِمالِ الكَهفِ ﴿وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُ﴾ أي ومع أنّهُم في متّسَعٍ مِن الكَهفِ مُعرَّضٍ للإصابةِ بضَوءِ الشَّمسِ إلّا أنها كانتْ لا تُصيبُهم في طُلوعِها ولا في غُروبِها، ومع ذلكَ فقَد حَفِظَ اللهُ أبدانَهُم وهواءَ الغارِ مِن التعفُّنِ[1]، ﴿ذَٰلِكَ﴾ الّذي كانَ مِن شأنِهم ﴿مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي مِن عَجائِب صُنعِ اللهِ والدِّلالاتِ على عظِيمِ قُدرتِه عزَّ وجلَّ، وكما أنّ حِفظَ أهلِ الكَهفِ بتقديرِ اللهِ ومشيئتِه وتدبيرِه فكذلكَ هدايةُ أهلِ الكهفِ إلى الإيمانِ بمشيئةِ اللهِ وتقديرِه وتدبيرِه، ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ﴾ أي مَن يَهدِهِ اللهُ إلى الإيمانِ كأصحابِ الكهفِ ﴿فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِ﴾ المفلِحُ، ﴿وَمَن يُضۡلِلۡ﴾ أي ومَن يُضلِلْهُ اللهُ بأنْ يَخلُقَ فيه الضّلالةَ ولا يُرشِدَه إلى الحقِّ كدِقْيانُوسَ وتابعِيه على الكُفرِ ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ١٧﴾ أي يُرشِدُه ويَهدِيه، والمعنَى أنّه لا أحدَ يَهدِي مَن أضلَّه اللهُ.

---

(١) اللهُ عزَّ وجلَّ خالِقُ الأسبابِ والمُسبَّباتِ، فالارتباطُ بينَ الأسبابِ والمُسبَّباتِ ارتباطٌ وتلازُمٌ عاديٌّ فيصِحُّ تخلُّفُ المُسبَّبِ عن السبَبِ، فإنْ شاءَ اللهُ تعالى في الأزلِ وقُوعَ المسبَّب وقَع وإنْ لَم يشأْ فلا يقعُ المُسبَّبُ، ألَا ترى أنّ النّارَ مِن الأسبابِ العادِيّة للحَرقِ بدليلِ أنّه قد لا يقَعُ حَرقٌ عِند مُماسّة شيءٍ النّارَ.

﴿وَتَحۡسَبُهُمۡ﴾ أي ويحسبهم الناظرُ إليهم ﴿أَيۡقَاظٗا﴾ غيرَ نائمين لأنّ أعيُنَهم مُفتَّحةٌ ﴿وَهُمۡ رُقُودٞ﴾ أي نِيام ﴿وَنُقَلِّبُهُمۡ﴾ أي يَخلُق اللهُ فِيهم التقلُّبَ - وفِعلُ اللهِ ليس بالمُباشَرة والمُماسّةِ، فهو خَلق وإيجادٌ لا كفِعلِ المخلُوقِين - فيتقلَّبُون تقُّلبَ النّائم أثناءِ نَومِه، وكان لهُم تَقلُّبتانِ في السَّنةِ؛ ﴿ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ﴾ أي جِهةَ أيمانِهم تَقلُّبة ﴿وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ أي وجِهةَ شَماِلهم تَقلُّبة، مِن جانبٍ إلى جانبٍ لئلّا تأكُلَ الأرضُ لحومَهُم من طُولِ المُكثِ وامتناعِ النّسيم عن الجَنْبِ الّذي يَلِي الأرضَ.

ولو شاءَ اللّهُ عزّ وجلّ لحَفِظَ أبدانَهُم مِن دُون تقلِيبٍ لَهُم، ولكنّه عزّ وجلّ يفعَلُ ما يشاءُ لحِكمةٍ، فهو خالِقُ الأسبابِ والمسبَّبات.

﴿وَكَلۡبُهُم﴾ واسمُه قِطْمِيرُ أو غيرُه(١) وهو راقِدٌ ﴿بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ﴾ أي

---

(١) سئل شيخُنا الإمام عبد الله الهرري رحمه الله عن كِتابةِ أسماءِ أهلِ الكهفِ بشَكلِ دائرةٍ وفي الوسَطِ اسمُ كَلبِهم قِطْمِيرُ وتُوضَع على الطِفلِ المحمُوم؟ **فقال رحمه الله**: اسمُ الكلبِ ما فيه برَكةٌ، أمّا اسمُ الرِّجالِ فيُتبرَّك به.
وذُكِرَ في خواصِّ أسماءِ أصحابِ الكَهفِ أنّها تَصلُحُ للطَّلَبِ والهَربِ وإطفاءِ الحَرِيقِ تُكتَبُ في خِرقةٍ ويُرمَى بها في وَسَطِ النّارِ، ولِبُكاءِ الطِّفلِ تُكتَبُ وتُوضَعُ تحتَ رأسِه في المَهدِ، وللحَرثِ تُكتَبُ علَى القِرطاسِ وتُرفَعُ على خشَبٍ مَنصُوبٍ في وسَطِ الزّرعِ، وللضَّرَبان وللحُمَّى المُثلَّثة والصُّداع والغِنَى والجاهِ والدُّخولِ علَى السَّلاطِين تُشَدُّ علَى العضُدِ الأيمَن، ولِعُسرِ الوِلادةِ تُشَدُّ علَى العضُدِ الأيسَرِ، وتكتَبُ لحِفظِ المالِ والرُّكوبِ في البِحارِ والنَّجاةِ مِن القَتلِ.

مـادٌّ لَهما ﴿بِٱلۡوَصِيدِ﴾ أي برَحبــةِ الكهفِ ومُتَّسَــعهِ أو عَتبَةِ بابِه وهو جاعِــلٌ وَجهَه تُجاهَ الفتيةِ. وقيل: كان يَتقلَّــبُ مع تقلُّبِهم، فإذا انقلَبوا جِهةَ اليَمينِ لَوى أذُنَه اليُمنى ورقَد عليها، وإذا انقلَبوا جِهةَ الشِّمالِ لَوى أذُنَه اليُسرَى ورَقَد عليها.

تنبيــه: لا يصِــحُّ ما يُروَى في بعضِ الكتُب بلا ســندٍ مِــن أنّه يدخُلُ الجنّــة مِن بهائِم الدُّنيا دُلدُلٌ بَغْلةُ النّــبِيّ محمّدٍ ﷺ، وناقة صالِحٍ ﷺ، وعِجلُ إبراهيمَ ﷺ، وكَبْش إســماعيلَ ﷺ، وبقَــرةُ بَني إسرائيلَ زمَن مُــوسَى ﷺ، وحُوتُ يُونسَ ﷺ، وحِمارُ عزَيرٍ رضي اللَّه عنهُ[١]، ونَمْلةُ[٢] وهُدهُدُ سُــلَيمانَ ﷺ، وكَلبُ أهلِ الكَهفِ رضي اللَّه عنهم، كما أنّه لا يصِحُّ ما يُقــالُ إنّهم يصِيرُون على صُورةِ كَبْــشٍ ويدخلُون الجنّة، كُلُّ ذلــك مِمّا لا أصــلَ له ولا دليــلَ لقائلِه عليه وإن وُجِــد ذلك في بعضِ الكتب والتّفاسِــير، بل الأصلُ عدَمُ وُرودِ اســتثناءِ شيءٍ في قضِيّةِ مآلِ البهائِــم وهــو الفَناءُ كما هو مُبيَّنٌ في حديــثٍ رواهُ ابن جَريرٍ عن ابن عُمــرَ والحاكمُ عن أبي هُريــرةَ رضي اللَّه عنهُم موقوفًــا عليهِما: «يُحشَرُ الخَلْق كُلُّهم يومَ القِيامةِ، البَهائِمُ والدَّوابُّ والطَّيرُ وَكُلُّ شَيءٍ، فَيبلُغُ من

---

(١) هو وليٌّ على القولِ الرّاجح وليس نَبيًّا.

(٢) قيل كان اسمُها طاخيةَ أو مُنذِرة أو جَرمَى.

عَدلِ اللّهِ أنْ يَأخُذَ لِلجمّاءِ مِنَ القَرْناءِ(١)، ثُمَّ يَقُولُ(٢): كُوني تُرابًا فَذلِكَ ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾ [سُورة النَّبأ: ٤٠]». أمّا البُراقُ(٣) الّذي رَكِبَهُ كُلُّ الأنبياءِ عليهِمُ الصّلاةُ والسّلامُ فهو مِن دَوابِّ الجنّة(٤)، وقد أُعِيدَ إلى الجنّة بعدَما رَكِبَه رسولُ اللّهِ محمّدٌ ﷺ في رِحلةِ الإسراء.

﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أي لَو عايَنتَهُم وشاهَدتَهُم وهُم في حالِ الرُّقاد وأعيُنهم مُفتَّحةٌ ﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ﴾ أي لفرَرتَ مِمّا شاهَدتَ(٥) ﴿فِرَارًا﴾

---

(١) الجَلْحاء هي الجمّاءُ وهي الّتي لا قَرنَ لها وهي ضِدُّ القَرْناءِ، وليسَ هذا مِن قِصاصِ التَّكلِيفِ إذْ لا تَكلِيفَ على البَهائِم بل هو قِصاصُ مُقابَلةٍ كما قال الحافظ النوويّ رحمه الله.

(٢) أي يأمُرُ اللّه بذلك ويَنفُذُ حُكمهُ وقضاؤُه في الدَّوابّ. ليسَ معناه أنّ اللّه يكونُ ساكِتًا ثمّ يتكلَّمُ، حاشا لله، فكلامه عزَّ وجلَّ صِفةٌ له أزليّةٌ أبديّةٌ ليسَ حرفًا ولا صوتًا ولا لُغةً، لا مَبدأَ له ولا خَتْمَ، ليس مُتقطِّعًا ولا متعاقِبًا، بل كلامٌ ليس ككلامِ المخلوقِينَ.

(٣) قال ابن الأثير في «النّهاية» (١/ ١٢٠): «سُمِّي بذلك لنُصوعِ لَونِه وشِدّة بَريقه، وقيل: لِسُرعةِ حركَتِه».

(٤) روَى مُسلِمُ في صحِيحه وغيرُه عن أنسٍ رضي الله عنه أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «**أُتِيتُ بِالبُراقِ، وَهُوَ دابَّةٌ أَبْيَضُ طَوِيلٌ فَوْقَ الحِمارِ وَدُونَ البَغْلِ يَضَعُ حافِرَهُ عِنْدَ مُنْتَهَى طَرْفِه، فَرَكِبْتُهُ حَتَّى أَتَيْتُ بَيْتَ المَقْدِسِ**» الحديث.

(٥) الجُبنُ مُستحيلٌ على الأنبياء عليهم الصّلاةُ والسّلامُ، أمّا الخوفُ الطَّبيعيُّ فلا يَستحِيلُ عليهم بل هو موجودٌ فيهم، وذلك كالنُّفورِ من الحيّةِ =

وذلك لِمَا ألبسَهمُ اللّهُ مِن الهَيبة فلا يَصِلُ إليهم أحَدٌ ﴿وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ﴾ أي مِن رُؤيتِهم ﴿رُعْبًا ﴿١٨﴾﴾ أي خوفًا. وقيل: ذلكَ بسبَب كثرةِ شعُورِهِم وطُولِ أظفارِهِم وعِظَمِ أجرامِهِم.

وروَى ابنُ أبي حاتِمٍ وابن أبي شَيبةَ عن ابنِ عبّاسٍ رضي اللّه عنهُما بسنَدٍ صحيحٍ أنّه قال: غزَوْنا معَ معاوِيةَ نحوَ الرُّومِ(١) فمرَرْنا بالكَهفِ الّذي فيه أصحابُ الكَهفِ، فقال معاويةُ: لو كشَفَ اللّهُ عن هؤلاءِ لنظَرْنا إلَيهِم، فقال ابنُ عبّاسٍ: قد مُنِعَ ذلكَ مَن هو خَيرٌ منكَ فقيل له: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾، فقال مُعاويةُ: لا أنتَهِي حتّى أعلَمَ عِلمَهم، فبعثَ معاويةُ ناسًا فقال: اذهَبُوا فانظُروا، فلمّا دخَلُوا الكهفَ بعَث اللّهُ تعالَى علَيهم رِيحًا فأخرجَتْهُم(٢).

وأخبرَ اللّهُ عزَّ وجلَّ عن حالِ أهلِ الكَهفِ بعدِ استيقاظِهِم مِن رُقادهم فقال تعالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي وكما أنمْناهُم في الكَهفِ وحَفِظْنا

= فإنّ طَبيعةَ الإنسان تَقتضِي الهرَبَ مِن أذاها، ومِثلُ ذلكَ التخوُّفُ مِن تكالُبِ الكُفّارِ عليهِم حتّى يَقتُلوهُم. لكن لا يُقالُ عن نَبيّ مِن الأنبياءِ عليهم الصّلاةُ والسّلامُ «هربَ» بحيثُ يُشعِرُ بالجُبنِ، أمّا فرَّ مِن الأذَى مثلًا فلا يُشعِرُ بالجُبنِ جائزٌ ما فيه نَقصٌ، وعلى هذا المعنَى يُنزَّلُ قولُه تعالى إخبارًا عن قولِ موسَى ﷺ: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ [سورة الشعراء: ٢١].

(١) أي إلى ناحيةٍ أبعدَ مِن الكهفِ شَمالًا.

(٢) وفي بعضِ الرِّوايات: «فأحرَقَتْهُم».

أجسامَهُم مِن البِلَى والتعفُّنِ على مدى زمانِ رُقادِهم ﴿بَعَثْنَٰهُمْ﴾ أي بعثَهُم اللّٰهُ مِن نومَتِهم التّي تُشبِهُ الموتَ ﴿لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْ﴾ أي لِيسألَ بعضُهم بعضًا عن حالِهم فيَعتبِرُوا ويزدادَ إيمانُهم كمالًا، ولمّا أفاقُوا وقَد استَنكَرُوا كَم نامُوا ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ وهو رئيسُهم وكبيرُهم مَكْسَلْمِينا: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ في نومِكم، ﴿قَالُواْ﴾ أي قال بعضُهم ﴿لَبِثْنَا﴾ في رُقادِنا ﴿يَوْمًا﴾، ثُمّ نظَرُوا فوجَدُوا الشّمسَ قد بَقِي مِنها بَقِيّةٌ لَم تَغرُبْ بعدُ فقالوا: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾.

ورُوِي أنّهم لمّا نظَرُوا إلى طُولِ شعُورِهم وأظفارِهم علِمُوا أنّهم لبِثُوا أكثَرَ مِن ذلكَ فحينئذٍ ﴿قَالُواْ﴾ أي قال بعضٌ مِنهُم: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ في الرُّقادِ وأنتُم لا تَعلَمُون.

ورُوِي أنّ مَكْسَلْمِينا لمّا سَمِعَ الاختلافَ بينَهُم قال: دَعُوا الاختِلافَ، ربُّكُم أعلَمُ بما لَبِثتُم، ﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم﴾ يعني تَمْلِيخَا ﴿بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ﴾ أي بدراهِمِكُم المَتّخذَةِ مِن الفِضّةِ وكان عليها ضَربُ طابَعِ دِقْيانُوسَ ﴿إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ أُفْسُوسَ التّي خرَجتُم منها ﴿فَلْيَنظُرْ﴾ تَمْلِيخَا ﴿أَيُّهَآ﴾ أي أيُّ أهلِها ﴿أَزْكَىٰ﴾ أي أحَلّ ﴿طَعَامًا﴾ وذلكَ أنّه كان لا يَزالُ في المدِينةِ مؤمِنُون يُخفُونَ إيمانَهم ويذبَحُون بما يوافِقُ الشّرِيعةَ[1]

---

(١) ويُمكِنُ الاستدلالُ بذلكَ على تَحريمِ المَيتةِ وما أُهِلَّ به لِغَيرِ اللّٰهِ في شريعتِهم كما في جميعِ الشَّرائعِ وعلى أهميّةِ تَحرّي أكلِ الحَلالِ.

﴿فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ أي مِن هذا الطّعامِ الأزكى لتأكلوه ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ أي وليَترفقْ في الطَّريق وفي المدينةِ لكَيلا يَعرفَ بأمرِه دِقْيانوسُ وجَماعتُه ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ﴾ أي ولا يَفعلَنَّ ما يُعلِمُ بسببِه ﴿بِكُمْ أَحَدًا ۝١٩﴾ مِن النّاسِ. وفي ذلكَ كُلِّه دليلٌ على أنّ التزوُّدَ مِن الحلالِ والعمَلَ بالأسبابِ لا يُنافِي التوكُلَ على اللَّه.

﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا﴾ أي إنْ يَطّلعْ كفَرةُ المدِينةِ ﴿عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾ أي يَقتُلوكُم أخبثَ القَتلِ رَجمًا بالحِجارةِ ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ﴾ أي وإلّا صَيَّرُوكم ﴿فِي مِلَّتِهِمْ﴾ شِرعةِ الكُفرِ بإخراجِكم مِن دِينِ الحَقّ الّذي أنتم عليه ﴿وَلَن تُفْلِحُوا﴾ أي ولَن تَسعَدُوا في دنياكُم ولا في أُخْراكُم ﴿إِذًا﴾ أي إنْ صِرتُم في دِينِ الكُفرِ ﴿أَبَدًا ۝٢٠﴾ فإنّه لا يُفلِحُ الكافِرُون.

تنبيه: ليس في قولِه: ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ دليلٌ على أنّ أصحابَ الكَهفِ كانوا على الكُفرِ فترةً ثُمّ دخلُوا الإسلامَ وأنّهم يَخشَون الإعادةَ إلَى الحالِ الأُولى، فالعَودُ يأتي في لُغةِ العربِ بمَعنَى التَّصيِير وهو في كلامِهم كثيرٌ، وبذلك نطَق القُرءانُ العظِيمُ في حَقّ نَبِيّ اللَّهِ شُعَيبٍ عليه الصّلاةُ والسّلام حِكايةً عَن قولِه للكافِرين مِن قَومِه: ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [سُورة الأعراف: ٨٩]، فشُعَيبٌ ﷺ نَبِيٌّ كريمٌ على اللَّهِ كسائِر الأنبياءِ عليهِمُ السّلامُ، وقَد حَفِظَهُم اللَّهُ عزَّ وجلَّ مِن الكُفرِ وكبائِر الذُّنوبِ وصغائرِها الدالّةِ على خِسّةِ النَّفْسِ قبلَ النُبوّةِ وبعدَها، فلا يصدُر مِن نَبِيّ شيءٌ مِن ذلكَ قطُّ، ومَن نسبَ إليهِم شيئًا مِن ذلكَ

الاعتِقاد فقَد كَفَر والعياذُ باللَّهِ.

ولِذا فلا يجوزُ تفسيرُ الآيةِ بأنّ شُعَيبًا عليه السّلامُ كانَ ابتداءً على الكُفرِ وخرَجَ مِن بَعدِه إلى الإيمانِ ثُمّ أبَى أن يعودَ في الكُفرِ مرّةً أخرَى حِين قال: ﴿إِنۡ عُدۡنَا﴾، حاشَا لنبيٍّ مِن أنبياءِ اللَّهِ أن يكونَ كافِرًا بُرهةً مِن الزَّمَن، بل يَتعيَّنُ أن يكونَ العَودُ هنا في ﴿عُدۡنَا﴾ بمَعنَى التّصيير، هذا هو الحَقُّ، خلافًا لشيخِ المجسِّمة ابنِ تيميةَ الحرّانيّ الّذي قال في كتابه «مجموع الفَتاوى» ما نصُّه[1]: «ظاهِرُه دليلٌ على أنّ شُعَيبًا والّذِين ءامَنُوا معَه كانُوا على مِلّة قَومِهم؛ لقَولهِم: ﴿أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ ولقَولِ شُعَيبٍ: أنعُود فِيها ﴿أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ ولقَولِه: ﴿قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنۡ عُدۡنَا﴾ فدَلَّ على أنّهم كانُوا فيها، ولِقَولِه ﴿بَعۡدَ إِذۡ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنۡهَا﴾ فدَلَّ على أنّ اللَّهَ أنجاهُم مِنها بَعد التلوُّث بها، ولِقَولِه: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾ ولا يجوزُ أنْ يكُون الضّميرُ عائِدًا على قَومِه لأنّه صُرِّح فيه بِقَولهِم: ﴿لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ﴾ ولأنّه هو المُحاوِرُ لهُم».

فلينظُرِ الّذين يُدافِعُون عن ابنِ تيمية مُغتَرّين ببعضِ ما في مُصنَّفاتِه ماذا يقولُون في مِثل هذا الّذي طبعَهُ أتباعُ ابنِ تيمية في هذا العَصرِ وهُم الوهّابيّةُ المُجسِّمةُ، فالحقُّ أحقُّ أنْ يُتَّبَع.

---

(١) مجموع الفتاوى، أحمد بن تيمية، (١٥/ ٢٩). طبعة مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف. ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

ثُمّ أخبَر اللّهُ عزَّ وجلَّ أنّه قَد مكَّن بعضَ النّاسِ من الاطّلاعِ على حالِ أهلِ الكهفِ فقال جلَّ وعزَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي وكما أنّ اللّهَ تعالَى أنامَ أهلَ الكهفِ وبَعثَهُم مِن رُقادِهم ﴿أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ﴾ أيْ أطلعَ النّاسَ عليهم ﴿لِيَعۡلَمُوٓاْ﴾ أيْ الّذين أطلَعهُم اللّهُ علَى أهلِ الكهفِ ﴿أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ بالبعثِ لِيومِ الحِسابِ ﴿حَقّٞ﴾ صادِقٌ لا خُلفَ فِيه، لأنّ الّذي خرَقَ العادةَ في إنامَتِهم وإيقاظِهم قادرٌ على إحياءِ الموتَى ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ﴾ أي ساعةَ القيامةِ وهي ساعةُ بَعثِ الخلائقِ للحِساب والجزاءِ ءاتيةٌ ﴿لَا رَيۡبَ﴾ أي لا شَكَّ ﴿فِيهَآ﴾ أنّها كائنةٌ وإنْ وُجِدَ مِن الكافِرين مِن يُنكِرُها.

أي واذكُرْ ﴿إِذۡ يَتَنَٰزَعُونَ﴾ أي أهلُ الزّمانِ ﴿بَيۡنَهُمۡ أَمۡرَهُمۡ﴾ أي أمرَ دِينِهم، فمِن مُقِرٍّ لِلبَعثِ ومِن جاحدٍ له، ومِن قائلٍ يقولُ ببَعثِ الأرواحِ دُونِ الأجساد، وءاخرَ يقولِ ببَعثِهما معًا، والحقُّ الّذي علَيه المُسلِمُون أنّ البعثَ يكُون بالرُّوحِ والجسَد كما ثبَتَ ذلك بنُصوصٍ شَرعيّةٍ كثيرةٍ وعلَيه إجماعُ المسلمِينَ قاطِبةً.

ولمّا توفّى اللّهُ عزَّ وجلَّ أصحابَ الكهفِ رأى النّاسُ ما كانَ مِن عَجِيبِ أمرِهم ﴿فَقَالُواْ﴾ أي قال بعضُهم ﴿ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم﴾ أي علَى بابِ كَفِهِم ﴿بُنۡيَٰنٗا﴾ أي استُرُوهُم مِن النّاس مُحافظةً على تُربَتِهم وليكونَ البُنيانُ علَمًا علَى كهفِهم ﴿رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡۚ﴾ أي بأمرِهم، ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ﴾ أي الغالِبُون في ذلكَ الوقتِ وهُم المؤمِنُونَ بَيدَرُوسُ وأَصحابُه:

﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم﴾ أي علَى بابِ كَفهِهم ﴿مَّسۡجِدٗا ۝٢١﴾ يُصلِّي فيه المُسلِمُون ويَتبرَّكون بمَكانِهم(١)، قاله الإمامُ الماتريديُّ في تفسيره.

---

(١) اعتِقادُ المسلمين قاطبةً أنّ اللهَ تعالَى هو خالِقُ البرَكةِ، فهو تعالَى يُبارِكُ بما اختارَ أنْ تُطرَحَ فيه البرَكةُ، فمِن ذلكَ أنّهُ أثبَتَ سُبحانَه وتعالَى البرَكة لأنبيائِه علَيهِم الصّلاةُ والسّلامُ، قال تعالى حِكايةً عن قَولِ عيسَى ﷺ: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ﴾ [سُورة مريم: ٣١]، وكذلكَ يُبارِكُ اللهُ المُؤمنينَ المُتَّبعينَ لأوامِرِه المُنتَهِين عمّا نهَى عنه، قال تعالى حكايةً عن قولِ الملائكةِ لسارةَ زوجةِ إبراهيمَ ﷺ: ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ [سُورة هُود: ٧٣]، وقال جلَّ جلالُه: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، فيُستحَبُّ للمُؤمِن أن يَلتمِسَ البركةَ مِن الجهاتِ التي أثبتَ اللهُ لَها ذلكَ، فمِنها التبرُّكُ بالنَّبيِّ ﷺ وءاثارِه في حياتِه وبعدَ مماتِه، وقد ثبَت هذا الفِعلُ مِن صَحابةِ رسولِ اللهِ ﷺ بِذاتِه وءاثارِه في حَياتِه ولَم يُنكِر علَيهِم ﷺ ذلكَ، بل ورَد عنه ﷺ إجابتُه لَهُم بالتّبريك لهُم وعلَيهِم، والأدِلّةُ في ذلك كثيرةٌ جِدًّا، مِنها ما رواهُ البُخاريّ في صَحيحِه عن عِتبانَ بنِ مالكٍ رضي اللهُ عنه أنّ رسولَ اللهِ ﷺ أتاهُ في مَنزِله فقال له: «**أيْنَ تُحِبُّ أنْ أُصَلِّيَ لَكَ مِن بَيْتِك؟**». قال الحافظ أبو الحسَن بنُ بطّالٍ في شرح البُخاريّ (٢/ ٧٧): قال المُهلَّبُ: وفيه التبرُّكُ بمُصلَّى الصالحِينَ ومَساجِد الفاضلِينَ، وفيه: أنّه مَن دُعِيَ مِن الصالحِين إلى شىءٍ يُتبرَّك به مِنهُ فلَه أنْ يُجيبَ إذا أَمِنَ الفِتنةَ مِن العُجب»، ومِثلُه قال جميعُ شُرّاحِ هذا الحديثِ مِن أهلِ السُّنّة.

وقَد أفرَدْنا في هذه القضيّة رسائلَ، مِنها: «**عُمدة الكَلام في أدِلّة جَوازِ التبرُّك والتوسُّل بخَيرِ الأنامِ**».

وقد اختلَف نَصرانيّان وبعضُ المسلِمينَ في عِدّة أصحابِ الكهفِ في حياةِ رسولِ الله ﷺ، فنزلَ في ذلك قولُ الله تعالَى: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ ﴾، والقائلُ اسمُه السيّدُ[1] مِن نصارَى نَجْرانَ[2] وكان

---

(١) وإطلاقُ ذلكَ عليه مِن بابِ العلَميّة لا مِن بابِ التّعظيم جائزٌ، كما أنّه كان فيهِم رَجُل ءاخَر يُسمَّى عبدَ المسيح ذكرَه أهلُ السِّيَر بدُونِ حكايةٍ مِن بابِ العلمِيّة فلَم يحرُم ذلكَ، لكنّ تسميتَه بذلكَ في الأصلِ ابتداءً حَرامٌ.

(٢) يجِبُ الحَذَرُ مِن قِصّةٍ مكذوبةٍ يَرويها بعضُ أصحابِ كُتُبِ الحديثِ والتاريخِ عَن أحَدِ وُفودِ نَصارَى نجرانَ يقولون فيها: «إنَّ وَفدًا مِن نَصارَى نجرانَ قَدِموا المدينةَ المنوَّرة ودعاهم النَّبيّ ﷺ إلى الإسلام فلَم يُسْلِموا ورَضُوا بالجزية، ولَمّا حانَ وقتُ صلاةِ أولئكَ النَّصارَى قاموا مُتَّجِهين إلى المشرِق»، فعلَى زَعمِ الراوي: «أرادَ النّاسُ مَنعَهُم فقال النّبيُّ لأصحابه: دَعُوهم يؤدُّون صلاتَهم في مَسجِدي»، وهذا كذِبٌ وافتراءٌ على رسولِ الله محمَّدٍ ﷺ، وكيف يَصِحُّ أن يُقِرَّ النّبيُّ الكُفرَ وقد أرسلَهُ الله تعالَى ءامِرًا بالمعروفِ ناهِيًا عن المُنكَرِ ماحِيًا للكُفرِ، وقَد سَمَّى النّبيُّ ﷺ نَفْسَه الماحِي فقال: «وَأَنا المَاحِي الَّذي يَمْحُو اللهُ بِيَ الكُفْرَ» وقال تعالَى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ٣٣ ﴾ [سُورة التَّوبة: ٣٣].
ثُمّ مِن حيثُ السَّنَد فالقِصّةُ مَرجِعُها إلى ابنِ إسحاق في طَبقاته وعنهُ نقلَها ابنُ هِشامٍ وغيرُه مِن أهلِ السِّيَرِ الّذينَ أوردُوها، وليسَ لها سَنَدٌ مِن ابن إسحاقَ إلى مُنتَهاها، حتّى الرّوايةُ التي يُسنِدُها إلى محمَّد بن جعفر ابنِ الزُّبَير إسنادُها مُعضَلٌ فإنَّ محمَّدًا يروي عن صِغارِ التّابعِينَ فقط. =

تابعًا لليَعقوبيّـةِ[1]، ﴿وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ والقائلُ مِن

= وقد نصّ الحافظ ابنُ رجَبٍ في «شرح صحيح البخاري» (٣/ ٢٤٤) على أنّه أثَرٌ مُنقَطِعٌ ضعيفٌ وأنّه لا يَصِحُّ الاحتِجاجُ بهِ لِمَن ادَّعَى جوازَ إقرارِهم على إقامةِ صلواتِهم في مساجِد المُسلمِينَ.

أمّا الرِّوايةُ الّتي فيها: «دَعُوهُم» مِن دُونِ الزِّيادةِ المكذوبةِ: «يؤدُّونَ صلاتَهم في مَسجِدي» فهي وإنْ كانَ لا أصلَ لَها إلّا أنّه قَد يُحمَلُ المعنَى فيها على أنْ «لا تَقرَبُوهـم فيَزدادُوا كُفرًا» وليس معنـاهُ الإذنَ للنّصارَى بالكُفرِ ولا على معنَى الرِّضَى بفِعلِهم، أمّا مَن يقولُ: «إنَّ النَّبِيّ أذِنَ للنّصارَى بإقامةِ صلاتِهم أو أنّهُ أقرَّهُم على ذلكَ» فهو خارِجٌ عَنِ الإسلامِ كافِرٌ والعِياذُ باللهِ، فقد قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [سُورة الزُّمَر: ٧]، وقال أيضًا: ﴿وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [سُورة المائدة: ٢] ولا إثْمَ أشَدُّ مِن الكُفرِ.

ومِن أشـنَعِ العباراتِ الّتي يَتمسَّكُ بها بعضُ الدُّعاة إلى ما يُسمَّى «التّسامُحَ والتّلاقِي بينَ الأديانِ» مَقالةٌ لابن قَيِّمِ الجَوزيّةِ تلميذِ ابنِ تيميّة المُجسِّمِينَ المُشـبِّهِين، حيث يقول في كتابه المسـمَّى «زاد المَعاد» (٣/ ٥٥٨) بعدَ إيرادِه قِصّة نصارَى نَجْرانَ ما نصُّه: «وفيها تَمكِينُ أهلِ الكِتابِ مِن صَلاتِهم بِحَضرةِ المُسلمِينَ وفي مَساجِدِهم أيضًا إذا كان ذلك عارِضًا ولا يُمَكَّنُون من اعتِيادِ ذلكَ»، فجَعلَ ابنُ القَيِّمِ تَمكِينَ الكافِرِ مِن كُفرِه في مساجِدِ المُسلمِينَ جائـزًا بشَرطِ أنْ لا يَتَّخِذَ الكافِرُ ذلـكَ عادةً له، وهذه فَتوَى لإباحةِ الكُفرِ صريحةٌ، وقَد نصَّ الفقهاءُ على أنَّ الإشارةَ إلى الكافِرِ بالبَقاءِ على الكفرِ كُفرٌ، فكيفَ بتمكِينِه مِن مُباشَرةِ عبادتِه الكُفرِيّةِ فلا شكَّ أنّ ذلكَ كُفرٌ.

(١) طائفـةٌ مِن طوائفِ النَّصارَى تنتسِـبُ إلى راهِبٍ نـصرانيّ يُدعَى يعقوبَ البراذعـيّ وقـد كان مذهَبُه مُنتـشِرًا في مِـصرَ والنُّوبةِ والحَبَشـةِ، كانُوا =

نصارَى نَجْرانَ أيضًا واسمُه العاقِبُ وكان تابعًا للنَّسطُورِيّةِ[١]، وكلاهُما يقــول ذلكَ ﴿رَجْمَا بِالْغَيْبِ﴾ أي ظَنًّا مِنهُما بأمــرٍ غابَ عِلمُه عنهُما، ﴿وَيَقُولُونَ﴾ والقائــلُ هُم المســلِمون ﴿سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾، وقد قال ذلك بعضُ المســلِمينَ قبل نُزولِ الوحيِ على رسولِ اللَّه ﷺ في شــأنِ أهلِ الكهفِ، ﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ أي بعدَدِ أهلِ الكهفِ ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ﴾ أي ما يَعلَمُ عددَهُم ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾ مِن النّاسِ. قال ابنُ عبّاسٍ رضي اللَّه عنهما: «أنا مِن أولئكَ القلِيل، كانوا سبعةً وكَلبُهُم».

﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ﴾ أي فــلا تُجــادِلْ أهــلَ الكتابِ[٢] في شــأنِ أصحاب

= يرونَ أنّ المَســيحَ هو اللَّهُ، وأنّ اللَّهَ والإنســانَ اتّحَدا في طبيعةٍ واحدةٍ هي المَسيحُ، والعياذُ باللَّهِ مِن هذا الضّلالِ المُبين.

(١) بضمّ النُّون وفَتحِها طائفةٌ مِن طوائفِ النّصارَى تنتسِبُ إلى نُسطُورَ بطريركِ القُســطَنطِينيّة في زمَــنِ الخليفةِ المأمونِ العبّاسيّ، كانُوا يرَونَ أنّ لِلمَســيحِ طَبيعتَين مُتميّزتَين: طَبيعةً إلهيّةً وطبيعةً إنســانيّةً، والعياذُ باللَّهِ، واختلفَتِ النَّســطُوريّة عن اليَعقُوبيّة في أنّ هذه الأخيرة تقولُ بأنّ اللَّهَ والمســيحَ اتّحَدا فصارَا شــيئًا واحدًا، وأمّا النَّسطُوريّةُ فتقولُ بالاتّحادِ الّذي يكونُ كلُّ واحِدٍ مِن المتَّحِدَين فيه باقِيًا بحَسَبِه، وكلُّ هذا كُفرٌ لا رَيبَ فيه.

(٢) أهلُ الكِتابِ هُم الّذين يَنتسِبُونَ إلى التَّوراةِ والإنجيلِ لكِن لا يَتَّبِعُون التَّوراةَ والإنجيــلَ الحقِيقِيَّين الأصلِيّينِ بل يتّبِعُونَ الكُتبَ المُحرَّفةَ، فهُم مِن حيث التّسميةُ سُمُّوا بذلكَ لأنّهم يَنتَسِبُون إلى التّوراةِ والإنجيلِ الأصليّينِ انتسابًا مِــن غيرِ حقيقةٍ، وأمّا من حيث الحقِيقــةُ فهُم يتّبِعُونَ الكُتبَ المُحرَّفة، =

الكهـف ﴿إِلَّا مِرَآءً﴾ أي جِدالًا ﴿ظَـٰهِرًا﴾ غـير مُتعمّقٍ وذلك بأنْ تقُصَّ عليهِم ما أنزلَ اللهُ في شأنِ أهلِ الكهفِ في القرءان ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم﴾ أي في شـأنِ أصحابِ الكهف ﴿مِّنْهُمْ﴾ أي مِن أهلِ الكتابِ ﴿أَحَدًا ٢٢﴾ فقد جعَل اللهُ فيما أنزلَه مِن القرءانِ إرشادًا لك.

رُوي أنّ بعضَ أهلِ الكتابِ قالوا لقُريشٍ: سـلُوا محمّدًا عن الرُّوح وعن أصحابِ الكهفِ وعن ذِي القرنَين، فسألُوه فقال ﷺ: أُخبِرُكم غدًا، ولم يقُـل إنْ شـاءَ اللهُ، فأبطأَ عليه الوحـيُ أيّامًا ثُـمّ نزلَتْ: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ﴾ تعزِمُ عليـه ﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ﴾ الشيءَ ﴿غَدًا ٢٣﴾ أي فيما يُسـتقبَلُ مِن الزّمان ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي إلّا مع الاستِثناءِ بمشيئةِ اللهِ بأنْ تقول: «أفعلُ ذلك إنْ شـاءَ اللهُ»، وليس هذا نهيَ تحريمٍ بل هو إرشادٌ إلى الأفضلِ.

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ﴾ أي مشـيئةَ ربِّـكَ ﴿إِذَا نَسِيتَ﴾ الاسـتِثناءَ بِهـا وقَد عزمتَ على أمرٍ، فاستَثْنِ بقول: «إن شاءَ اللهُ» إن تنبَّهتَ لها عن قُربٍ، ﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ﴾ أي يُثبّتني ﴿رَبِّي﴾ على طريقٍ ﴿لِأَقْرَبَ مِنْ هَـٰذَا رَشَدًا ٢٤﴾ هو أقربُ إليهِ قُربًا معَنويًّا وأرشَدُ[1].

= بدليـل أنّهم لا يؤمنون بمُحمّد ﷺ، والتّوراةُ الأصليّةُ والإنجيلُ الأصليُّ فيهِما الأمرُ باتّباعِ محمَّدٍ ﷺ وبيانُ صِفته ﷺ وصِفةِ أمّته.

(١) القُربُ المَعنويُّ هـو القُرب مِن رِضَى اللهِ تعالَى بالتقرُّب بالطاعاتِ والبُعد عن سـخَطِه باجتِناب المَعاصي، أمّا القُربُ المَسافيّ فمُستحيلٌ علَى اللهِ =

ثُمّ أخـبرَ اللّه عزَّ وجلَّ عن مُـدّة لُبثِ أهلِ الكهـفِ في كَهفِهم فقال تعالَى: ﴿ وَلَبِثُوا۟ ﴾ أي أصحابُ الكهـفِ ﴿فِى كَهۡفِهِمۡ ﴾ أحياءً راقدِينَ قَـد حُجِبَتْ أسـماعُهم عـن التّنبُّه للأصـواتِ ﴿ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزۡدَادُوا۟ تِسۡعًا ﴿٢٥﴾ ﴾ قَبلَ أنْ يُحيِيَهُم اللهُ ويَكشِفَ حالَهم للنّاسِ ويُخاطِبَهُم المَلِكُ الصّالِحُ بَيْدَرُوس ويُمِيتَهُم اللّهُ عزَّ وجلَّ في كَهفِهم.

ورُوي أنّ نصارَى نَجْرانَ قالتْ: أمّا ثلاثُمائةٍ فقد عرَفْنا، وأما التِّسـعُ فلا عِلـمَ لنا بها فأنزلَ اللّهُ تعـالَى: ﴿ قُلِ ﴾ أي وإنْ نازَعَكَ أهلُ الكتابِ أو غيرُهم يا مُحمّدُ في مُدّةِ لُبثِ أهلِ الكهفِ في كَهفِهم فقُل: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ ﴾ مِنكُم ﴿بِمَا ﴾ أي بالزَّمانِ الّذي ﴿لَبِثُوا۟ ﴾ فيه، وقَد أخبرَ بمُدّةِ لُبثِهم.

وقال بعضُ المفسّرين: بيـانُ خطأ نصارَى نَجْرانَ في ذلكَ أنَّهم اعتبَروا العِدّة بالسِّـنِين الشّمسـيّةِ فعدُّوها ثلاثمائةٍ، وهي بالسـنِّين القمَريّةِ ثلاثُمائةٍ وتسعُ سنِين كما أخبرَ اللّهُ تعالَى.

فَلا يَخفَى على اللهِ شيءٌ، هو أعلَم بحالِ أصحابِ الكهفِ وغيرِهم، كيف لا وهو الّذي ﴿لَهُۥ غَيۡبُ ﴾ أي يَعلَمُ ما خَفِيَ في ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ لا يَخفَـى علَيه شيءٌ مِن أحوالِ مـا فيها، ﴿أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡ ﴾ أي ما أعظَمَ شأنَه عزَّ وجلَّ مِن سـامعٍ لا كالسَّامعِين ومُبصِرٍ ولا كالمُبصِرِين

= تعالى، وكُلَّـما كان العبدُ أقربَ إلى رَبِّهِ مَنزلةً وقُربًا مَعنويًّا كان أشَـدَّ له خَشيةً مِمَّن دُونَه.

مِن خَلقِه، فهو بصِيرٌ لِكُلِّ المُبصَراتِ سميعٌ لسائِرِ المَسمُوعاتِ، وسَمعُه وبصَرُه أزليّانِ لا يُشبِهانِ سَمعَ وبصَرَ المخلوقِين، فبصَرُ العبادِ وسَمعُهم يُدرَكُ ويُتصوَّرُ، وأمّا سَمعُ اللهِ وبصَرُه فصِفتانِ مِن صفاتِه الأزليّةِ الواجبةِ له عزَّ وجلَّ، والّتي يَجِبُ الإيمانُ بثُبوتِها له تعالَى، ولا يصِحُّ تصَوُّرُها ولا تكييفُها.

﴿مَا لَهُم﴾ أي ليسَ لأهلِ السّمواتِ والأرضِ ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ أي من دُونِ اللهِ ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ أي مِن ناصِرٍ يَتولّى أمورَهم ويَنصُرُهم استِقلالًا[1]، واللهُ تعالَى هوَ الّذي يَحكُم في خَلقِه بما يشاءُ ﴿وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ﴾ أي في قضائِه ﴿أَحَدٗا ٢٦﴾ لأنّه غَنِيٌّ عن الشّريكِ ويستحيلُ عليه الاحتياجُ.

وسواءٌ صدَّقَ الكُفّارُ الّذين سَمِعُوا بما جاءَ في شأنِ أهلِ الكهفِ وغيرِهم في القُرءانِ أو كذَّبُوا بذلكَ فلا تَلتفِتْ إليهم ﴿وَٱتۡلُ﴾ أيْ واقرَأْ يا محمّدُ ﴿مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ﴾ أيْ ما أُنزِلَ عليكَ ﴿مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ القُرءانِ متَّبِعًا ما فيه عامِلًا به فإنّهُ ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي لا أحدَ يَقدِرُ على تحريفِ القُرءانِ بتَبدِيلِه بغيرِه[2]، فإذا أخبَرَ اللهُ أنّ أهلَ الكهفِ مَكَثُوا ثلاثَمائةٍ وتسعةً من السِّنِينَ فلا يَتبَدَّلُ قولُ اللهِ ولا يتغيَّرُ خبَرُ القرءانِ لأجلِ قولِ نصارَى نَجْرانَ ولا غيرِهم، فإنّ خبَرَ اللهِ عزَّ

---

(١) أي بِدُون مَشيئَتِه سُبحانَه.

(٢) أمّا تحريفُ تفسِيرِ بعضِ ءاياتِه فقَد حصَلَ ولا يَزالُ، فليسَ هذا مِمّا ضَمنه اللهُ عزَّ وجلَّ أنْ لا يكونَ بل شاءَ أن يقَعَ لِحكمةٍ.

وجلَّ لا يجوزُ فيــه الخُلفُ، فهو عزَّ وجلَّ أصدَقُ القائلِينَ، ثُمّ إنّه تعالَى قَد ضَمن حِفظَ القُرءانِ مِن التّحريفِ والتّبديلِ والتغييرِ إلى وقتِ رفعِه مِن الأرض إلى السّماء قُبَيلَ قِيامِ السّاعةِ فقال عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [سُورة الحِجر:٩]، ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي مِن دُونِ اللَّه ﴿مُلْتَحَدًا ٢٧﴾ أي أحدًا تَلجأُ إليه، فمَن ترَكَ اتّباعَ القُرءانِ فَلا وَلِيَّ له ولا ناصِرَ مِن دُونِ اللّه.

فائدة: ســبَقَ فيما قُلنا أنّ اللّه عزَّ وجــلَّ حَفِظَ القرءانَ الكريمَ إلى يومِ القيامةِ مِن أن يُصِيبَه تحريفُ اللَّفــظِ الّذي أصابَ الإنجيلَ(١) الأصليَّ الّذي أنزلَه اللّه على ســيّدنا عيسَى ﷺ والّذي أصــابَ التّوراةَ الأصليّة الّــتي أنزلَها اللّهُ على ســيّدنا موسى ﷺ، والّذي أصــابَ الزَّبُورَ(٢) الّذي أُنزِل على ســيّدنا داودَ ﷺ، أمّا تحريفُ معاني بعضِ الآياتِ مِن القُرءانِ الكريمِ مِن قِبَل بعضِ الجاهلِين والمُبتدِعينَ والضالّينَ الكافرِين فليسَ مِمّا شــاءَ اللّهُ تعــالَى أنْ لا يكُونَ، بل شــاءَ اللّهُ عزَّ وجــلَّ أنْ تقومَ أفرادٌ وجماعاتٌ بتحريفِ تفســيرِ كثيرٍ مِن الآياتِ، وقَــد حصَل أنْ ظهَرَت أفرادٌ وجماعاتٌ مِن الكافرِينَ فحرَّفوا تفسيرَ الآياتِ المُتشابِهاتِ حيثُ حمَلُوها على ظاهرِها وفسَّروها بناءً على ذلكَ فوقَعُوا في تشبِيه اللّهِ بِخَلْقِه،

---

(١) مأخُوذٌ مِن قولِهم: نجَلتُ الشيءَ إذَا أخرجْته، ومِنهُ قِيلَ لِنسْــلِ الرَّجُل نَجلُه لِكَونِه مُخرَجًا منه.

(٢) مُشتقٌّ مِن قولِهم: زبَرَ الكِتابَ يَزبُرُه إذَا كتَبَه.

وذلكَ كتفسيرِهم قولَ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [سُورة طه: ٥] بمعنَى جلَسَ على العَرشِ، والعياذُ باللهِ مِن هذا الكُفرِ، فإنَّ الجُلوسَ مِن صِفاتِ المخلوقِينَ، واللهُ هو خالِقُ المخلوقِينَ وصِفاتِهم، فلا يُشبِهُهم بأيّ معنًى مِن المعاني، فالحقُّ تفسيرُ هذه الآيةِ بنحوِ: الرَّحمنُ قَهرَ العرشَ وحَفِظَه مِن السُّقوطِ، كما يصِحُّ أنْ يقالَ: «الاستواءُ فِعلٌ يفعَلُه اللهُ في عَرشِه بقُدرَتِه مِن غيرِ جُلوسٍ ولا مُماسّةٍ» مع اعتقادِ تنزيهِ اللهِ وتقدِيسِه عن كُلّ ما لا يجوزُ عليه.

ولمّا تمَّ الإخبارُ عن قِصّةِ أهلِ الكهفِ أخبرَ اللهُ عزَّ وجلَّ عن قضيّةٍ أُخرى، وذلك أنّه كان بعضُ رؤساءِ الكُفّارِ قد أتَوا النَّبيَّ ﷺ وعندَه جماعةٌ مِن فُقراءِ الصّحابةِ ومِنهُم سَلمانُ رضي اللهُ عنه[1] وكان عليه

---

(١) هو الصّحابيُّ الجليلُ ومولَى رسولِ اللهِ ﷺ وأحدُ رُواة الحديثِ النبويّ الشّريف. أصلُه مِن بلادِ فارِسَ، ترَكَ أهلَه وبلدَه سَعيًا وراءَ معرفةِ الدّينِ الحقّ، فوصَفَ له أحدُ القَساوِسَةِ ظُهورَ نَبيّ في بلادِ العَرَبِ ووصَفَ له علاماتٍ لِيتحَّققَ منه. فاتَّفقَ سَلمانُ معَ قومٍ مِن بَني كَلبٍ لِينقُلوه إلى بلادِ العَرَبِ، فغدَرُوا به وباعُوه إلى يهُوديّ مِن وادي القُرَى، ثُمّ اشتَراه يَهُوديٌّ ءاخَرُ مِن يَثرِبَ مِن بَني قُرَيظةَ ورحَلَ به إلى بلَدِه.
ولمّا هاجرَ رسولُ اللهِ ﷺ إلى المدينةِ سَمِعَ بذلكَ سَلمانُ فسارَعَ لِيتحقّقَ مِن العلاماتِ فأيقَنَ أنّه نَبيُّ ءاخِرِ الزّمانِ الّذي يَبحثُ سَلمانُ عنه، فأسلَمَ وأعانه رسولُ اللهِ وأصحابُه على مُكاتبَةِ مالكِه حتّى أُعتِقَ. شَهِدَ رضي اللهُ عنه غَزوةَ الخندَقِ وأشارَ على النّبيّ ﷺ بحَفرِ الخَندقِ وِقايةً للمدينةِ مِن=

صُــوفٌ(١) قد عَــرِق فيه فقال هذا الكافرُ للنَــبيِّ ﷺ: أما يُؤذِيكَ رِيحُ هؤلاءِ؟ ونحنُ ساداتُ مُضَرَ وأشرافُها إنْ أسلَمْنا أسلَم النّاسُ، وما يَمنَعُنا مِن اتّباعِك إلّا هؤلاءِ، فنَحِّهم حتّى نَتَّبِعَك أو اجعَلْ لنا مَجلِسًــا، فأنزَل اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ﴾ أي احبِسْ نَفسَك يا محمّدُ وثبِّتْها ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم﴾ كصُهَيــبٍ وعمّارٍ وخَبّــابٍ مِن فقراءِ المؤمنِين وهُــم دائِبُونَ على تَســبيحِ اللهِ والتّحميدِ والتّهليــلِ والدُّعاءِ والأعمالِ الصّالِحةِ ﴿بِٱلۡغَدَوٰةِ﴾ أوّلَ النّهارِ

﴿وَٱلۡعَشِيِّ﴾ ءاخِــرَ النّهارِ ﴿يُرِيدُونَ﴾ بعمَــلِ الطّاعاتِ ﴿وَجۡهَهُۥ﴾ أي رِضــا اللهِ(٢) لا يُريدُون عرَضَ الدُّنيا الزّائِلَ، ﴿وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ﴾ أي ولا

= جيشِ قُرَيشٍ وأحلافِها، كما شَهِدَ باقِيَ المشاهِدِ معه ﷺ. تولّى رضي الله عنه إمارةَ المَدائِنِ في خِلافةِ عمرَ رضي اللّه عنه إلى أن توفّي في خلافة عثمان رضي اللّه عنه. قال أبو نُعيم الأصبهانيّ في تاريخه: اختُلِفَ في سِــنّه، فقيل: عاشَ ثلاثَمائةٍ وخمسِين سنةً، والّذي لا يُشَكُّ فيه مائتَين وخمسِين سنةً.

(١) أي ثوبٌ مَنسوجٌ مِنهُ لا يَجِدُ غيرَه.

(٢) وقَــد يُطلَق وَجهُ اللهِ في غيرِ هذا الموضِع ويُرادُ به ذاتُ اللهِ أي حقيقَتُه عزّ وجلَّ وهو أنّه ذاتٌ موجودٌ لا يُشــبِهُ الموجوداتِ، قال تعالى: ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ﴾ أي ذاتُ ربِّــك معناهُ يَفنَى الخَلقُ بعدَ النَّفخــةِ الثّانيةِ في الصُّورِ فلا يَبقَى حَيٌّ إلّا اللّهُ فإنّه لا يجوزُ عليه الموتُ أو الفَناءُ.

ويُطلَقُ الوَجهُ مضافًا إلى اللّهِ على غيرِ هذا المعنَى أيضًا، قال اللّه تعالَى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِ﴾ أي فهُنــاكَ القِبلةُ الّتي رخَّصَ اللّهُ =

ينـصرِفْ بصرُك ﴿عَنۡهُمۡ﴾ أي عن فقراء المؤمنِينَ إلى غيرِهم مِن ذوي الهيئـاتِ والثّـروةِ ﴿تُرِيدُ﴾ أي مِن أجلِ أنّـكَ تطلُبُ ﴿زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي مُجالسةَ الأغنياءِ أشرافِ القومِ وصُحبةَ أهلِ الدُّنيا. والخطابُ وإنْ كانَ للنّبِيِّ ﷺ إلّا أنّ التّحذيرَ والنّهيَ يتوجَّهُ لأُمّتِه[1]، أمّا رسولُ اللهِ ﷺ فمحفوظٌ عن أنْ تُلهِيَه الدُّنيـا وزِينَتُها عن مصالِحِ أُمّتِه ومعصومٌ مِن التكبُّرِ على فقراءِ المسـلمِينَ وإيذائِهم لِفَقرِهم، فهو ﷺ أشَدُّ خلْقِ اللهِ تواضُعًا، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾ [سُـورة القلَم: ٤]، فلو كان ﷺ سيِّئَ الخُلُقِ لأدّى ذلكَ إلى تكذيبِ الآيةِ، وذلكَ مُحالٌ.

﴿وَلَا تُطِعۡ﴾ في الإشارةِ عليكَ بطَردِ فقراءِ المؤمنِينَ ﴿مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ﴾ أي مَن جعلْنا قلبَه غافِلًا ﴿عَن ذِكۡرِنَا﴾ أي عن الإيمانِ باللهِ وطاعتِه[2] والإيمانِ بكِتابِه ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ أي مَن كان غافِلًا عن الإيمانِ ومُتّبِعًا لِهوى نَفسِـه

= لكُـم في التّوجُّـهِ إليها في صلاةِ النَّفلِ وذلك بأنَّ مَن كان في سـفَرٍ فإنّ له التوجُّهَ إلى الجهةِ الّتي يَذهَبُ إليها هي قِبلةٌ له في النّفلِ إن كان راكِبًا الدابّةَ. ومعلومٌ لدَى المسـلمِينَ قاطبةً أنّه لا يجوزُ نسبةُ الوَجهِ إلى اللهِ بمعنَى الجُزءِ المعروفِ مِن الخَلقِ، تقدَّسَ اللهُ وتنزَّه عن أن يكونَ جِسمًا أو شبيهًا بشيءٍ مِن الخَلقِ.

(١) ونظِيرُ ذلكَ في القرءانِ كثيرٌ كقولِه تعالى: ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [سُـورة الزُّمَـر: ٦٥]، فالمرادُ بذلكَ تحذيرُ أمّتِه ﷺ إذ مَعلومٌ أنّه ﷺ كسـائِرِ الأنبياءِ عليهِمُ الصّلاةُ والسّلامُ يستحيلُ عليهم الكُفرُ بسائرِ أنواعِه قبلَ النُبوّةِ وبعدَها.

(٢) فيها دليلٌ لأهلِ السُنّةِ على أنّ خلَقَ الضّلالةِ في الكافرِ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ.

في طلَبِ الشّهوات ﴿وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ٢٨﴾ أي وكان أمرُ هذا الضالِّ المُتبِّعِ هَواهُ أي ضَياعًا وهَلاكًا لأنه أعرَض عن الإيمانِ واتَّبعَ هَواهُ.

﴿وَقُلِ﴾ يا محمّدُ لأولئكَ الّذين ضَلُّوا عن الإيمانِ واتَّبَعوا هواهُم أو وقُل للنّاس ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ الّذي أتيتُكم به مِن الإسلامِ والقُرءانِ مُوحًى به إليّ ﴿مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾ فمِن اللهِ خَلقُ التّوفيقِ والخِذلانِ ولَهُ تصريفُ الهُدَى والضّلالِ كما يشاءُ، ليسَ إليَّ من ذلكَ شيءٌ، إنّما أدعُوكُم ولا أخلُقُ فيكُم الهِدايَةَ، وقَد ظهَر الحَقّ ﴿فَمَن شَآءَ﴾ أي الأخذَ في طريقِ النجّاةِ ﴿فَلۡيُؤۡمِن﴾ أي فآمَنَ باختيارِه، ﴿وَمَن شَآءَ﴾ أي الأخذَ في طريقِ الهَلاكِ ﴿فَلۡيَكۡفُرۡ﴾ أي فقَد كفَر باختيارِه أيضًا، وليسَ في ذلكَ إباحةٌ وتفويضٌ لارتِكابِ الكُفرِ أو تَسويةٌ بينَه وبين الإيمان، حاشا، إنّما ذلكَ على طريقِ التّهدِيدِ كقَولِه تعالَى: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ [سُورة فُصّلت: ٤٠] أي فمَن عمِلَ شرًّا فعلَيهِ إثمُه كما أنّ مَن عَمِلَ صالِحًا فلَهُ جزاؤُه.

وروي عن ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنهما أنّ المعنَى: مَن شاءَ اللهُ له الإيمانَ ءامَنَ، ومَن شاءَ اللهُ له الكُفرَ كفَرَ.

والدّليلُ على أنّ قولَه تعالى: ﴿وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ﴾ محمولٌ على معنَى التّهديدِ لا التّرخيصِ في الكُفرِ[١] ما أوعَدَ اللهُ به الكافرِينَ وما ذكَره مِن

---

(١) قال القاضي أبو بكر بن العربيّ في «النّاسخ والمنسوخ» (٢/ ٢٨٧): «لا خِلافَ بَين العُقلاءِ في أنها تَهدِيدٌ يَستحِيلُ التَّخييرُ فيها، لأنّ اللهَ تعالى لا يأمُر بالفَحْشاءِ شرعًا ولا يأمُر بالكُفرِ عقلًا ولا شَرعًا، لأنّ الأمرَ بالكُفرِ =

= مُحــالٌ، إذِ الأمــرُ بالشيء يَقتَضِي مَعرفةَ الأمــرِ ضَرورةً، والكُفرُ هو الجهلُ بالأمر، والجمعُ بينَهُما مُحالٌ، فيَستحِيلُ الأمرُ بِهِما».

فالآيةُ مَسُــوقةٌ مَســاقَ التَّهديد، وقال مجاهِدٌ: هي وَعِيدٌ، وقال ابنُ زَيدٍ في هــذه الآيةِ وفي قولِه تعــالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سُــورة فُصِّلَتْ: ٤٠]: «هذا كلُّه وعِيدٌ ليسَ مُصانَعةً ولا مُراشاةً ولا تَفويضًا».

تنبيه: ادعَّى بعضُ الزَّنادِقةِ أنّ الإســلامَ يَضمَــنُ ويَكفُل حُريّةَ المُعتقد ويَصُون ذلكَ ويُجيزُ لأيِّ إنسانٍ عِبادةَ ما يَشاءُ، والعياذُ باللّه، ويَستنِدُ هؤلاءِ إلى جُملةِ أمورٍ مِنها: تفسيرُه الفاسُد لقولِه تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ﴾، وتفســيرُهم الباطلُ لقولِه تعــالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، وتمسُّــكُهم بتفسِــير ءاياتٍ كَرِيمةٍ أُخرَى بما تَهوَى أنفسُهم خِلافًا للحقِّ، ومِن ذلكَ: قولُه تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾، والآيةُ: ﴿جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩١ فَإِنِ﴾.

ويُرَدُّ علَيهِم بجُملةِ أُمورٍ، مِنها:

١) أنّه لا يَجُوز تَفسِــيرُ الآيتَين الأُولَيين على معنَى أنّ الإنسانَ له حُريّةَ اختيارِ ما شاءَ إيمانًا كان أو كُفرًا ولا مؤاخذةَ عليه في ذلك، لأنّ في ذلك:

أ- ردًّا للنُّصوصِ الشّرعِيّة والقُرانيّة والحديثيّة الثّابتةِ وإجماعِ المُسلمِينَ.

ب- إبطالًا لوَظِيفةِ الأنبياء الّذين جاؤوا بمَبدإٍ جامعٍ هو الدَّعوة إلى عِبادةِ اللّه وحدَه وعدمِ الإشراكِ به والتّحذِير مِن عاقبةِ الكُفرِ.

٢) أنّ ءايةَ ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ نزلَتْ قبلَ ءاياتِ الجِهادِ ونُســخَت بها، وقال بعــضُ العلَمــاءِ: هو خاصٌّ بأهلِ الكِتــابِ الّذين إذا امتنَعُــوا مِن القِتالِ ودفعُوا الجِزيةَ لإمامِ المُســلمِينَ ترَكَ قِتالَهُــم، وقالَتْ طائفةٌ: معنَى الآيةِ أنّ القُدرةَ القاهِرةَ والمَشِــيئةَ النّافِذةَ ليســتْ إلّا للّهِ الحَقِّ سُــبحانه وتعالَى، =

الجزاءِ المُعَدِّ لَهُم بقولِـه: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا﴾ أي خَلقَ اللهُ وهيَّأَ ﴿لِلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي الكافرِيـن ﴿نَارًا﴾ عظيمةً ذاتَ أهـوالٍ عجيبةٍ ﴿أَحَاطَ بِهِمۡ﴾ أي يُحِيطُ بالكافرِينَ فيها ﴿سُرَادِقُهَا﴾ هي جُدُرٌ[1] مِن نارٍ تُحِيطُ بالكافِرينَ مِن سـائِرِ الجهاتِ وهُم في جهنَّم، تَغشاهُم مِن كُلِّ النَّواحِي فيحتَبِسُ عليهِمُ حَرُّها ويَزِيدُ فيَزدادُون عذابًا فوقَ العذاب.

روَى التِّرمذيُّ عَن أبي سَعيدٍ رضي اللهُ عنه أنّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «**لِسُرَادِقِ النَّارِ أَرْبَعَةُ جُدُرٍ، كِثَفُ[2] كُلِّ جِدارٍ مِثْلُ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ سَنَةً**».

وقد عُبِّرَ بالظَّالمِينَ عن الكافرِين لأنَّ الكُفرَ أشَدُّ الظُّلم، فالّذين اختارُوا الكُفـرَ على الإيمـانَ ظَلَمُوا أنفُسَـهُم بوَضعِهمُ الشيءَ في غَـيرِ موضِعِه وتجاوُزِهم للحَدِّ.

﴿وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ﴾ أي وإنْ يَطلُـبِ الكافِـرُون الغَوثَ مِمّـا هُم فِيهِ مِن عذابِ جهنَّمَ وشِـدّةِ العطَشِ ﴿يُغَاثُواْ﴾ أي يُجابُوا في مُقابلةِ الغَوثِ بِما

= فلا تَسـتطِيعُ أنْ تُكـرِهَ قَلبَ كافِرٍ على الإيمـانِ وإنْ أظهَرَ لكَ التَّصدِيقَ والإسـلامَ فإنّه يُبطِنُ الكُفرَ، إنّما يُؤمِنُ مَن شاءَ اللهُ له الإيمانَ، ومِثلُ ذلكَ يُقالُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [سُورة يُونس: ٩٩].

(١) السُّرادِقُ كلمةٌ مُفرَدةٌ جمعُها سُرادِقاتٌ وهي في الأصلِ كلُّ ما أحاطَ بالشيءِ واشتمَلَ عليهِ مِن ثَوبٍ أو حائطٍ.

(٢) أي غِلَظُ.

فيـه عذابٌ فـوقَ العَـذابِ ﴿بِمَآءٍ﴾ غليظٍ أسـودَ ﴿كَٱلْمُهْلِ﴾ كعكَرِ الزَّيـتِ[١] المُتناهـي في الغَليَـانِ أو كخَلِيـطِ الدَّمِ والقَيـحِ المُغْلَى أو كالرَّصـاصِ والنُّحاسِ المُذابِ، ومِن صِفـةِ هذا الشَّرابِ أنّه ﴿يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ يُقَدَّم إليهم ليَشرَبُوه فتَشـوي حرارَتُه وجُوهَهُم فتَسقُط جِلدةُ وُجوهِهم فيه، ثُمَّ تُفرِغُه الملائكةُ في أفواهِهم.

روَى التِّرمذيّ[٢] عن أبي سَـعيدٍ الخُدريّ رضي اللّه عنه عن النَبيّ ﷺ أنّه قال في المُهْلِ: «كعَكَرِ الزَّيت، فَإِذا قُرِّبَ إِلَيهِ[٣] سَقَطَتْ فَرْوَةُ وَجْهِهِ مِنهُ» أي جِلدَتُه.

وقد ذَمَّ اللّهُ عزَّ وجلَّ هذا الشّرابَ مع إظهارِه شِـدّتَه على الكُفّارِ فقال: ﴿بِئْسَ﴾ أي قَبُحَ ﴿ٱلشَّرَابُ﴾ الذي يُسقاهُ الكُفّارُ في النّارِ ﴿وَسَآءَتْ﴾ أي وقَبُحَتِ النّارُ ﴿مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾ أي مَنزِلًا ومأْوًى[٤]، إذْ ليسَ فيها شيءٌ إلّا العذاب.

ولمّـا بَيّنَ اللّهُ عزَّ وجلَّ بعضَ ما يكـونُ للكافرِين في جهنَّم أخبَرَ عن

---

(١) هو ما يجتَمِعُ في أسفلِه ويُسمَّى الدُرْدِيَّ.

(٢) وفي الحديثِ ضَعفٌ مِن جِهةِ رِشْدِينَ أحَدِ رُواتِه.

(٣) أي إلى الكافِرِ في جهنَّمَ.

(٤) والمُرتفَـقُ في الأصلِ المُتّكَأُ، ومعلومٌ أنّه لا مُتّـكَأَ لأهلِ النّارِ يأوُون إليه، وإنّمـا جيءَ بلَفظِ المُرتفَقِ هُنا مُشـاكَلةً مع الآتِي في الآيةِ التّاليةِ في وصفِ الجنّة: ﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾.

بعـضِ حالِ المؤمنِينَ في الجنّة فقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ باللّهِ ورسولِه وما نزّلَ اللّهُ على رَسولِه ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي الأعمالَ الصّالحةَ وهُم مؤمِنون فإنّ اللّهَ يُثيبُهم أجرًا عظِيمًا في الآخِرة، ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ﴾ أي لا يُبطِلُ اللّهُ ﴿أَجْرَ﴾ أي ثواب ﴿مَنْ أَحْسَنَ﴾ مِن المؤمنِينَ ﴿عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾ وإنْ قلَّ.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أي المؤمنُـون المَوصُوفونَ بالصِّفاتِ السّـابقةِ ﴿لَهُمْ﴾ مِن الأجـرِ في الآخرةِ ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ أي جنّاتُ إقامـةٍ أبديّةٍ يخلُدُون فيها مُمَتَّعِـينَ ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ﴾ أي مِن تحتِ أمكِنَتِهـمُ الّتي فيها قُصورُهم وسُرُرُهم وبسـاتينُهم ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ المُطَّرِدةُ الّتي لا ينقَطِعُ جرَيانُها، ولهُم فيها أربعةُ أنواعٍ مِن الأنهار: نهرٌ مِن خَمرٍ غيرِ مُسكِرٍ ولا مُستقبَحٍ خِلافًا لخَمرِ الدُّنيا، ونهرٌ مِن لبَنٍ[1] لا يتغيَّرُ خِلافًا للبَنِ الدُّنيا، ونهرٌ مِن عسَلٍ مُصفًّى مِن الشَّوائِب، ونهرٌ مِن ماءٍ غيرِ متغيّرٍ.

﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ أي يُزَيَّنُ كُلُّ مؤمنٍ في الجنّة ﴿مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ وأساورَ مِن فضّةٍ كما دلَّ على ذلك قولُه تعالى: ﴿وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ [سُـورة الإنسـان: ٢١] وأَسـاورَ مِن لُؤلـؤٍ لِقَولِه تَعـالَى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾[2] [سُـورة الحجّ: ٢٣]، فليسَ أحَدٌ مِن أهلِ الجنّةِ إلّا وفي يَدِه الأسـورةُ الثّلاثـةُ، ﴿وَيَلْبَسُونَ﴾ في الجنّةِ ﴿ثِيَابًا خُضْرًا﴾

---

(١) وهو الحليبُ.

(٢) على قِراءةِ الجَرّ في ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾.

والخُضرةُ في الثِّيـــابِ محبُوبةٌ، ويكونُ لهُم صِنفًا ثياب مِن حريرٍ أحَدُهما ﴿مِّن سُندُسٍ﴾ وهـــو الرَّقيق مِنهُ وءاخرُ مِــن ﴿وَإِسۡتَبۡرَقٍ﴾ وهو الغَلِيظُ مِنهُ، يجلسُـــون في جِنانِهم ﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾ مُنعَّمِين ﴿فِيهَا﴾ أي في الجنّةِ ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ﴾ أي أَسِرّةٍ مِــن ذهَــبٍ مُكلّلةٍ بالــدُّرِّ والياقُــوتِ(١)، والاتّكاءُ التّحامُل على الشيءِ نحوُ التوكُّؤ، ﴿نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ﴾ أي طابَ وعَظُمَ جزاؤُهم الّذي نالُوه ﴿وَحَسُنَتۡ﴾ الجنّات ﴿مُرۡتَفَقًا ٣١﴾ أي مَقرًّا ومجلِسًا.

ولمّا انقضَى ما أخبرَ اللهُ عزَّ وجلَّ به عن بعضِ ما يكونُ لأهلِ النّارِ مِن العذابِ ثُمّ أعقبَه بذِكرِ بعضِ مـــا أُعِدَّ لأهلِ الجنّةِ مِن النّعيمِ أنزلَ عزَّ وجلَّ خبَرَ أهلِ البُستانَين وما فيه مِن العِبَر قال عزَّ وجلَّ:

﴿وَٱضۡرِبۡ﴾ أي واذكُــرْ ﴿لَهُم﴾ أي للمؤمنـــين والكافِرين ﴿مَّثَلًا﴾ قِصّةً فيهـــا عِبَر ﴿رَّجُلَيۡنِ﴾ أي اذكُرْ حالَ رجُلَـــين كانا مِن بَنِي إسرائيلَ أحدُهما مؤمِنٌ واســـمُه يَهوذَا والآخَرُ كافرٌ واسمُه قُطْرُوسُ(٢) شريكانِ في ثمانيةِ ءالافِ دِينـــارِ ذهَبٍ أو كانا أخوَين وقد وَرِثاها مِن أبيهما، فاقتَســـماها فاشـــترَى الكافرُ أرضًا بألفِ دِينـــارٍ فقال المؤمنُ: اللهـــم إنّ فُلانًا قد اشـــترَى أرضًا بألفٍ وإنّي قد اشـــترَيتُ مِنكَ أرضًا في الجنّة بألف دِينار، فتصدَّق بها، ثمّ إنّ صاحبَه بنَى دارًا بألفِ دِينارٍ فقال المؤمنُ: اللهم إنّ

(١) لا يتوكّؤون عليها مِن تعَبٍ ولا نُعاسٍ، لأنّ أهلَ الجنّةِ لا يُصِيبُهم تعَبُ فِكرٍ ولا بدَنٍ.

(٢) وفي رواية: «فُطْرُوسُ» بالفاء.

فُلانًا بنَى دارًا بألفِ دِينارٍ وإنّي اشتريتُ مِنكَ دارًا في الجنّةِ بألفِ دِينارٍ، فتصدَّق بها، ثُمّ تزوَّجَ صاحِبُه امرأةً فأنفقَ عليها ألفَ دِينارٍ فقال المؤمنُ: اللهم إنّي أخطُب إليكَ امرأةً مِن نساءِ الجنّة بألفِ دِينارٍ، فتصدَّق بها، ثم اشترَى صاحِبُه خدَمًا ومَتاعًا بألفِ دِينارٍ فقال المؤمنُ: اللهم إنّي أشتَري منكَ خدَمًا ومَتاعًا بألفِ دِينارٍ في الجنّة، فتصدَّق بها.

ثُمّ أصابتِ المؤمِنَ حاجةٌ شديدةٌ فقال: لو أتيتُ صاحِبي لَعَلّي ينالُني منه معروفٌ، فجلَس على طريقِه حتّى مَرَّ به في خدَمِه وحشَمِه فقام يَهُوذا المؤمنُ فنظَر إليه قُطرُوسُ الكافِرُ فعرَفَه فقال: فلانٌ؟ فقال يَهُوذا: نعَم، قال: ما شأنُك؟ قال: أصابَتْني حاجةٌ بَعدَك فأتَيتُك لِتُعينَني بخَيرٍ، قال قُطرُوسُ: فما فعَلتَ بِمالِكَ وقد قاسَمتُك مالًا وأخذتَ شَطرَه، فقَصَّ عليه يَهُوذا قِصَّتَه فقال قُطرُوسُ الكافِرُ: وقد تصدَّقتَ بِكُلّ هذا؟! اذهَبْ لا أُعطِيكَ شيئًا، فوبَّخَه على التصدُّق بمالِه وطرَدَه.

وقد أخبَرَ اللهُ عزَّ وجلَّ بما ملَّكه أحدَ الرَّجُلَين فقال تعالَى: ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا﴾ وهو الكافِرُ ﴿جَنَّتَيْنِ﴾ أي بُستانَين[1] ﴿مِنْ أَعْنَٰبٍ﴾ من كُرومِ العِنَبِ ﴿وَحَفَفْنَٰهُمَا﴾ أي وجعَلْنا البُستانَين مُحاطَين ﴿بِنَخْلٍ﴾ وأحسَنُ البساتِينِ مَنظَرًا ما كان كذلكَ ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا﴾ أي وجعَلْنا بين

---

(١) حكَى المسعوديّ في «أخبار الزّمان» (ص/ ٤٩) والمَقريزيّ في «المواعظ والاعتبار» (١/ ٣٢٧) أنّ موضعَ البُستانَين تِنِّيس بمِصرَ وقد كانتْ قدِيمًا مدينةً عامِرةً معروفةً، وهي تقعُ اليومَ في جنوبَ غربيّ مدينةِ بُور سعِيد بمِصرَ.

البُســتانَين ﴿زَرۡعٗا ٣٢﴾ فلَم يكُن بينَهُما أرضٌ بِغَيرِ زرعٍ بل كان الزّرعُ يصِلُ ما بينَهُما.

وقَــد طرَح اللهُ الكريمُ الرَّزّاقُ في البُســتانَين وفِيما بينَهُما البَركةَ فجعلَها مثمرَةً، وأخبرَ عــزّ وجلَّ عن ذلك فقال: ﴿كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا﴾ أي كُلٌّ مِن البُستانَين أعطَى ثمرَه وبلغَ مَبلغًا صالحًا للأكلِ ﴿وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ﴾ أي ولَم يَنقُصْ أيٌّ مِن البُستانَين مِن ثَمرِه[1] ﴿شَيۡـٔٗا﴾ على خِلافِ المعهودِ في البَســاتينِ فــإنّ الثِّمارَ غالبًــا تَكثُر في عامٍ وتَقِلُّ في عــامٍ ءاخَر، وكذا الأشجارُ بعضُها يُثمِرُ في أعوامٍ ولا يُثمِرُ في أُخرى، ﴿وَفَجَّرۡنَا﴾ أي أجرَى اللهُ ﴿خِلَٰلَهُمَا﴾ أي وسَطَ البُستانَين ﴿نَهَرٗا ٣٣﴾ جارِيًا، فيسَّر للبُستانَين والزَّرعِ السَّــقيَ بأفضَلِ ما يُســقَى به ولِتَدُوم طَراوةُ الأرضِ وتَستغنِيَ عن

---

(١) الظُّلــم يأتِي في اللُّغةِ بِمعــنَى النُّقصانِ كما هو في هذه الآيــةِ، وبمَعنَى تَركِ الأفضَــلِ لا بمعنَى المَعصيةِ كما جاء ذلكَ في الحديــثِ المرفوعِ: «**هَكَذا الوُضُوءُ، فَمَنْ زادَ عَلَى هَذا أَوْ نَقَصَ فَقَدْ أَساءَ وَظَلَمَ**» أي وضعَ الشيءَ في غَــيرِ موضعِه فأتاهُ بالوُضوءِ عــلى غيرِ الوجهِ الأكمَل، ويــأتِي الظُّلم بمَعنَى الوُقوعِ في المَعصيةِ الصَّغيرةِ الّتي لا خِسّةَ فيها ولا دَناءةَ وفي ذلكَ جاءَ إخبارُ اللهِ عن ءادمَ ﷺ وزوجَته حوّاءَ عليها السّــلامُ: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [سُورة الأعراف: ٢٣]، ويأتِي الظُّلــمُ بمعنَى المَعصيةِ الكبــيرةِ ومِثالُــه: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ﴾ [سُورة ءال عِمران: ١٣٥]، وغالبًا ما يأتِي بمعنَى الكُفرِ في القرءانِ الكريمِ.

المطَر عِندَ القَحطِ.

﴿وَكَانَ لَهُۥ﴾ أي لقُطـرُوسَ الكافـر ﴿ثَمَرٌ﴾ أي أنواعٌ أُخرَى مِن المالِ غيرُ البُستانَين، ويُطلَقُ الثَّمرُ على جميع المالِ من ذهَبٍ وفِضّةٍ وحَيوانٍ، ﴿فَقَالَ﴾ صاحبُ البُســتانَين الكافِرُ ﴿لِصَٰحِبِهِۦ﴾ المؤمِن يَهُوذَا ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ أي يُراجِعُه الكلامَ ويُخاطِبُه افتِخارًا علَيه وتقبِيحًا لحالِه بالنِّسبةِ إليه: ﴿أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا﴾ لِمَا ترَى مِن بَســاتِيني وثِماري ﴿وَأَعَزُّ نَفَرٗا ٣٤﴾ أي أكثَرُ مِنكَ حشَمًا وأعوانًا وأولادًا ذُكورًا[1]. قال قَتادةُ: «تلكَ واللّهِ أُمنِيةُ الفاجِر، كَثرةُ المالِ وعِزّةُ النَّفر» أي ولا يُبالِي بطاعةِ اللّهِ.

ثُمّ أخذَ قُطرُوسُ الكافرُ بِيَدِ يَهُوذَا ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ﴾ أي بُستانَه يَطُوف بِه فيها ويُرِيه إيّاها مُعجبًا بمالِه ﴿وَهُوَ﴾ أي والحالُ أنّه ﴿ظَالِمٞ﴾ أي ضـارٌّ ﴿لِّنَفۡسِهِۦ﴾ بكُفرِه باللّهِ وتمــرُّدِه وتكبُّرِه وتجبُّرِه وإنــكارِه للبَعثِ والمَعادِ ﴿قَالَ﴾ اغترارًا مِنهُ ﴿مَآ أَظُنُّ﴾ أي لا أُوقِن ﴿أَن تَبِيدَ﴾ أي تَفْنَى ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾ الجَنّةُ أي البُستانُ ﴿أَبَدٗا ٣٥﴾ فتَذهَـبَ، فتوهَّم أنّه يبقَى له بُســتاناهُ لا يَفنَيانِ، فأخبرَه صاحبُه المؤمِنُ أنّه لن يُخلَّد ولا أموالُه وأنّ الدُّنيا إلى فَناءٍ والقيامةَ ءاتيةٌ وسيُبعَثُ كما يُبعَث الخَلقُ، فأنكرَ قُطرُوسُ الكافِرُ البعثَ وقـال: ﴿وَمَآ أَظُنُّ﴾ أي لا أثِـقُ ولا أعتـقِدُ ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾ أي القِيـامـة ﴿قَآئِمَةٗ﴾ أي كائنـةً، ﴿وَلَئِن﴾ أي وعـلَى فَـرضِ أنّ كلامَكَ حقٌّ بأنّ القيامةَ كائنةٌ ﴿رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي﴾ بأنْ بَعثَني بعدَ الموت

(١) روَى أبو عُبَيدٍ عن أبي زَيدٍ: «النَّفَر والرَّهطُ ما دُونَ العشَرةِ مِن الرِّجال».

للقِيامةِ ﴿لَأَجِدَنَّ﴾ في الحَيــاةِ الأُخرويّةِ ممّا يُعطِيني اللّهُ إيّاه جنّةً ﴿خَيْرًا مِّنْهَا﴾ أي مِــن بُســتاني الّذي أعطانِيــه في الدُّنيا ﴿مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ أي أحسنَ مَرجِعًا ومَآلًا، ومَدارُ ذلكَ على أنّ هذا الكافِرَ يَظُنّ أنّه لَم يُعطِه اللّهُ ما أعطاهُ مِن بساتِينَ في الدُّنيا إلّا لِاستِحقاقِه أن يُعطِيَه في الآخِرةِ أفضلَ منها لِكَرامَتِه على اللّهِ كما يَزعُم، وبِئسَ ما ظَنَّ هذا الكافِرُ[1].

﴿قَالَ لَهُۥ﴾ أي لِقُطْــرُوسَ الكافِــرِ ﴿صَاحِبُهُۥ﴾ المؤمِنُ ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾

---

(١) لقَد أخبَرَ اللّهُ عزَّ وجلَّ في القرءانِ الكريم عن حالِ الإنسانِ الجاحِد نِعمةَ رَبِّه إذا ابتلاهُ اللّهُ فقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾ لأنّــه لا يرى الكرامةَ إلّا بكثرةِ العرَضِ في الدُّنيا، ولذلكَ تجِدُ بعضَ الجاهِلين إذا رأَوا إنسانًا واسِعَ الرِّزق قالوا: «لولا أنّ اللّهَ يُحِبُّه ما أعطاه هذا المال كُلَّه» ويكونُ هذا الإنســانُ في الحقيقةِ فاجِرا كافِرا، فقد جعَلوا مِعيارَ الكَرامةِ على اللّهِ أن يكونَ المرءُ واسِــعَ الرِّزقِ كثيرَ المالِ غَنِيًّــا في الدُّنيا، وهذا جهلٌ عريضٌ طويــلٌ، فإنّ اللّهَ عزَّ وجلَّ جعلَ أكثرَ الأنبيــاءِ والأولياءِ فُقراءَ، وكذلكَ هُم أكثرُ النّاسِ بَلاءً في الدُّنيا فليسَ نُزولُ البَلاءِ علامةً على سُــوءِ حالِ الإنسانِ دائمًا، فقد ثبَت أنّ رســولَ اللّهِ ﷺ سُــئِلَ: يا رَســولَ اللّهِ مَن أشَدُّ النّاسِ بَــلاءً؟ قال: «**الأَنْبِياءُ ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ، يُبْتَلَى العَبْدُ عَلَى حَسَــبِ دِينِه**» فاللّهُ تَعالَى يُعظِمُ للأنبيــاءِ الأجرَ فوقَ الأجرِ الّذي نالُوه بأعمالِهم الصّالحةِ ويُعطِيهِــم قُــوّةَ الصّبرِ أكثرَ مِــن غيرِهم، وهكذا مَن بَعدَهُــم مِن الأولياءِ والأتقياءِ الأمثَلُ فالأمثَلُ.

مُنكِـرًا عليه ومكفِّرًا له لِنفيه البعثَ وشَـكِّه في قيامِه[1]: أي ما أجرأك علـى اللهِ ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ﴾ أي خلقَ أصلَـك ﴿مِن تُرَابٍ﴾ فإنّ ءادمَ ﷺ نَبِيُّ اللهِ ورسولُه أبو البشرِ خُلِقَ مِن تُرابٍ مِـن غيرِ أبٍ وأُمٍّ، وخَلْقُ ءادمَ سـببٌ في خلقِ ذُرِّيّتِه، فكانَ التُّرابُ أصلًا لهُم، فكأنّه قال لِقُطروسَ: قد جعَلَ اللهُ أصلَكَ مِن تُرابٍ ﴿ثُمَّ﴾ جعَلَ مَبدأَ نشأتِكَ في رَحِمِ والِدَتِك ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي مَنِيّ امرأةٍ ورَجُلٍ مُختلِطَين ﴿ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ۝٣٧﴾ أي عدَلك بشَرًا سَوِيًّا وكَمَّلَك إنسانًا ذكَرًا بالِغًا مَبلَغَ الرِّجالِ.

ولمّـا أثبتَ يَهُوذا المؤمنُ على قُطْرُوسَ الكافِرِ كُفرَه وأنكرَه عليه بَيَّنَ له أنّـه هو المُؤمنُ بـاللهِ باعتِقادِه ما يُضـادُّ اعتِقادَ قُطْـرُوسَ فقال له: ﴿لَّٰكِنَّا۠﴾ أي لكِـنْ أنا أقـولُ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى﴾ أي خالِقي ومالِكي، هو

---

(١) قال المفسِّرُ اللُّغويّ أبو الحسَن الواحديُّ في «البسيط» (١٤/ ١٦): «فأجابه صاحبُه مُكفِّرًا له بهذا القول».

والأدِلّـةُ على تكفِير المُعيَّنِ كثيرةٌ، فمَن كانَ يُؤمِنُ باللهِ ورَسـولِه محمّدٍ ﷺ فهـو مُؤمِنٌ، ومَن كَفَر فهو كافِرٌ، فهذه صِفـةُ كُلِّ واحِدٍ مِنهُما، وقد قال الإمامُ أبو الحسَـنِ الأشعريُّ في كتابِه «اللُّمَع في الرَدِّ على أهلِ الزَّيغِ والبِدَع» ما نصُّه: «قد أجمَعَ أهلُ اللُّغةِ أنّ مَن كانَ مِنهُ ضَربٌ فهو ضارِبٌ، ومَن كان مِنهُ قَتلٌ فهو قاتِلٌ، ومَن كان مِنهُ كُفرٌ فهو كافِرٌ، ومَن كان مِنهُ فِسـقٌ فهو فاسِقٌ، ومَن كان مِنهُ تَصدِيقٌ فهو مُصدِّقٌ، وكذلك مَن كان فيه إيمانٌ فهو مؤمِنٌ». ولنا في هذه المسألةِ مُصنَّفٌ أسميناه: «**البُرهانُ المُبيَّنُ في ضَوابِط تَكفِيرِ المُعيَّن**»، فليُنظَر فإنّه مُهِمٌّ نافِعٌ.

أحْيانِي وهو يُميتُني ثُمّ يَبعَثني ليَومِ القيامة، ﴿وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ﴾ أي بعِبادةِ ربّي ﴿أَحَدٗا ٣٨﴾ غيرَه، وفيه إيذانٌ بأنّ قُطْرُوسَ كان على الشِّرك.

ثُمّ أقبلَ يَهُوذَا المؤمِنُ على قُطْرُوسَ يُوبِّخُه ويلُومُه فقال: ﴿وَلَوۡلَآ﴾ أي وهلّا ﴿إِذۡ دَخَلۡتَ﴾ أي عِندَ دُخولِك ﴿جَنَّتَكَ﴾ أي بُستانَك الّذي رَزَقَكَ اللّهُ وجعلْتَ تَنظرُ إلى ما ملَّكك اللّهُ ﴿قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي الأمرُ ما شاءَ اللّهُ أو أيُّ شيءٍ شاءَ اللّهُ كانَ اعتِرافًا مِنكَ بأنّ هذه البساتِينَ وكلَّ خَيرٍ فِيها إنّما وُجِدَ بمَشيئةِ اللّهِ وفَضلِه وأنّ أمرَها له عزَّ وجلَّ، إنْ شاءَ حَفِظَها عامِرةً وإنْ شاءَ جعلَها خرابًا، وهلّا قُلتَ: ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ اعترافًا مِنكَ بأنّ ما قوِيْتَ بِه على عِمارةِ بساتِينِكَ وتَدبيرِ أمرِها إنّما هو بمعُونةِ اللّهِ لكَ على ذلكَ، ولا تَقدرُ على حِفظِ شيءٍ مِن مالِكَ ودَفعِ ضُرٍّ عنه إلّا بعونِ اللّهِ(١).

---

(١) اللّهُ عزَّ وجلَّ مُتّصِف بصِفاتٍ مِنها صِفةُ الإرادةُ، فيَجبُ اعتِقادُ أنّ اللّهَ مُتّصِفٌ بالإرادةِ وهِيَ المَشيئةُ، وهِيَ صِفةٌ أزليّةٌ أبديّةٌ يُخصّصُ اللّهُ بها المُمكنَ العَقليّ بالوُجُودِ بَدَلَ العَدَمِ، وبِصِفةٍ دُونَ أُخرَى وبِوقتٍ دُونَ ءاخرَ، قالَ اللّهُ تعالَى: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُ﴾ [سُورة القصص: ٦٨]. فالذّواتُ، ذَواتُ الأرواحِ وغيرُها مِنَ الأعيانِ، والأعمالُ، كُلُّ ذلكَ بخَلقِ اللّهِ تعالَى، فلَو لَم يَكُنِ اللّهُ تعالَى مُريدًا لِوُجُودِ كُلّ حادِثٍ لَما وُجِدَ شيءٌ مِنَ العالَمِ. فكُلّ ما يَحصُلُ مِنَ العِبادِ مِن أفعالٍ، خَيرٍ أو شَرٍّ، فاللّهُ تعالَى هُوَ مُوجِدُها وهُوَ الّذي خَلَقَ فِي العِبادِ القُدرةَ عَلَى مُباشَرةِ هَذِهِ الأفعالِ، واللّهُ خالِقُ ذلكَ كُلِّهِ، مَع أنّهُ عزّ وجلّ يُحِبُّ مِن أعمالِ العِبادِ الحَسَناتِ ويَكرَهُ المَعاصِي، = =

رُوِي عــن التابعيّ الفقيهِ عُروةَ بــنِ الزُّبَيرِ رضي الله عنه أنّه كان إذا رأى مِن مالِه شــيئًا يُعجِبُه أو دخَل بُستانًا مِن بَساتِينِه قال: «ما شاءَ اللهُ، لا قُوّةَ إلّا باللهِ»(١).

﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠﴾ أي وقد تكبَّرتَ عليَّ وتعظَّمتَ لأجلِ أنّك تجِدُني ﴿أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ۝٣٩﴾ أي وأنا أُقِرُّ بالعَجزِ والافتقارِ، ولكنّني مُؤمِنٌ باللهِ ربِّ العالَمينَ ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ﴾ أي فلَعلّ رَبِّي ﴿أَن يُؤۡتِيَنِ﴾ أي يُعطِيَني إنْ شــاءَ جنّةً في الدُّنيا ﴿خَيۡرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ أي بُستانِكَ الّذي أعطاكَه، أو المرادُ أنّي أرجو مِــن اللهِ أن يُدخِلَني في الآخرةِ الجِنانَ فيكون لي هُنالِكَ جنّةٌ خيرًا مِن بُســتانِكَ في الدُّنيــا، ﴿وَيُرۡسِلَ﴾ أي ولَعلّ ربِّي أنْ يَقلِبَ حال جنّتِك هذه التّي أنتَ فيها فيَبعثَ ﴿عَلَيۡهَا حُسۡبَانًا﴾ عذابًا، نارًا أو

لَكِــن لَولا تخصِيصُ اللهِ تعالَى لِلحَسَــناتِ بالوُجودِ بَــدَلَ العَدَمِ ما وُجِدَت، وكَذلكَ الكُفرِيّاتُ والمَعاصِي لَولا تَخصِيصُ اللهِ تعالَى لَها بالوُجُودِ ما وُجِدَت. فيَجبُ الإيمانُ بأنَّ مَشِــيئةَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ شــامِلةٌ لأعمالِ العِبادِ الخَيرِ منها والشَّرِّ، فلا يَحدُثُ في العالَمِ شَىءٌ إلّا بمَشِــيئةِ اللهِ، ولا يُصِيبُ العَبدَ شَىءٌ من خَيرٍ أو شَرٍّ أو صِحّةٍ أو مَرَضٍ أو فقرٍ أو غِنًى أو غيرِ ذلكَ إلّا ما شاءَ اللهُ، وهَذا كَمالٌ في حَقِّ اللهِ ولَيسَ نَقصًا، فإنَّ شُمُولَ قُدرتِه ومَشِيئتِه لائِقٌ بجَلالِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ، والعالَمُ كُلُّه مِلكٌ للهِ، فلَو كانَ يَقَعُ في مِلكِه عَزَّ وجَلَّ ما لا يَشــاءُ لَكانَ ذلكَ مُنافِيًا لِلأُلُوهِيّةِ.

(١) كان رضي الله عنــه إذا كانــتْ أيّــامُ الرُّطَبِ فتحَ بُســتانَه للنّاسِ يدخلُون فيأكلُون ويَحمِلُون ما يشاؤُونَ بِغَيرِ عِوَضٍ.

مَرامِيَ صواعِقَ أو غيرَهــا، ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ تُهلِكُها ﴿فَتُصۡبِحَ﴾ جنَّتُكَ ﴿صَعِيدٗا زَلَقًا ٤٠﴾ أي أرضًا جَرْداءَ مَلْساءَ لا نَباتَ فيها، ﴿أَوۡ﴾ ولَعَلَّ رَبِّي يُذهِــب ماءَها بــأنْ ﴿يُصۡبِحَ مَآؤُهَا﴾ أي مــاءُ جنَّتِك ﴿غَوۡرٗا﴾ أي غائِـرًا في الأرضِ ذاهِبًا لا تَنالُه الأيدي ولا الدِّلاءُ ﴿فَلَن تَسۡتَطِيعَ﴾ أبدًا ﴿لَهُۥ﴾ للماءِ الغائِرِ ﴿طَلَبٗا ٤١﴾ أي إنْ طلَبْتَه لَم تَجِدْه.

وقد حقَّقَ اللّهُ بعضَ ما كان يَتوقَّعُ يَهُوذا أنْ يَحصُلَ لِبســاتِينِ قُطْرُوسَ ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ أي أحــاطَ العــذابُ بثمَرِ بســاتِينِ قُطْروسَ، فقد أرسلَ اللّهُ تعــالى عليها مِن السَّماءِ نارًا فأهلكَتْها وغارَ ماؤُها ﴿فَأَصۡبَحَ﴾ صاحِبُها مُتأسِّــفًا مُتلهِّفًا ﴿يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ﴾ أي يُصفِّقُ بكَفٍّ علَى الأُخرَى ويُقلِّــبُ كفَّيــه ظَهــرًا لِبَطــنٍ نادِمًــا ﴿عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ أي في عِمارَتِها ومصَالِحِها معَ عدَمِ صِيانَتِه لهــا مِمّا حَلَّ بها بأنْ يُؤمِنَ ويتّقِي اللّهَ فيُدِيم اللّهُ عليــهِ هذه النِّعمَة، وفي ذلكَ يقولُ اللّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [سُورة الرَّعد: ١١] أي لا يَسلُب عنهُم النِّعمةَ غالبًا حتّى يَعصُوا ويَتمادَوا، وفي ذلك قالَ أبو العَتاهِيَة: [المُتقارب]

إِذَا كُنْــتَ فِي نِعْمَــةٍ فَارْعَهَــا ... فَــإِنَّ المَعَــاصِي تُزِيْــلُ النِّعَــمْ

فجعَــلَ قُطْــرُوسُ يَقِــفُ متأسِّــفًا نادِمًــا، ﴿وَهِيَ﴾ أي جنَّتــا العِنَبِ المحفوفتانِ بالنَّخيلِ ﴿خَاوِيَةٌ﴾ ساقطةٌ ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ أي علَى دَعائِمها المَصنوعَــةِ للكُــروم، وقَد هلَكَ كُلُّ ما حولَ البســتانَين من نَخيلٍ وما بينَهُمــا مِــن زَرعٍ وغاضَ الماءُ في الأرضِ غائــرًا، ﴿وَيَقُولُ﴾ أي تذكَّر

قُطْرُوس موعظةَ صاحبِه المؤمِن وعَلِم أنّه ابتُلِي بسـبَبِ كُفرِه وطُغيانِه وجعَـلَ يقولُ: ﴿يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ٤٢﴾ تمنَّى أنْ لو كان مُؤمنًا باللّهِ وحدَه ولَم يكُن مُشرِكًا به فلَم يُصِبْه ما أصابَه، ويجوزُ أن يكونَ قدَ تابَ مِـن كُفرِه ودخَـلَ في الإسـلامِ ونَدِمَ على مـا كانَ مِنـهُ، وقال بعضُ المُفسِّرينَ: إنّه ماتَ كافِرًا.

﴿وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ﴾ أي لِقُطْـرُوسَ ﴿فِئَةٞ﴾ أي جماعـةٌ ﴿يَنصُرُونَهُۥ﴾ أي يَقـدِرُون على نَصرِه بِدَفعِ ما نزَلَ بمالِه مِن العذابِ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي بِغَـيرِ عَونِ اللّهِ، فاللّهُ هو الّذي يَحفَظُ ما يشـاءُ مِمّا يُريدُ وهو القادِرُ على نُصرةِ من يَشـاءُ، ﴿وَمَا كَانَ﴾ أي ولَم يَكُن قُطْرُوسُ ﴿مُنتَصِرًا ٤٣﴾ أي مُمتنِعًا بقُوّتِه ومنَعَتِه مِن انتِقامِ اللّهِ.

ثُمّ بيَّنَ اللّهُ تعالَى أنّهُ يَنصُر أولياءَه ويَخذُل أعداءَه فقال: ﴿هُنَالِكَ﴾ أي يومَ القِيامـةِ ﴿ٱلۡوَلَٰيَةُ﴾ أي النَّصرُ ﴿لِلَّهِ﴾ وَحدَه، لا يَقـدِر علَى ذلكَ أحدٌ مِن دُونِ اللّهِ ﴿ٱلۡحَقِّۚ﴾ أي الموجودِ الّذي لا يَجوزُ عليهِ زَوالٌ ولا تغيُّرٌ ولا غَفْلةٌ لأنّه أزليٌّ أبديٌّ ولا شبيهَ له فلا يَحتاج إلى مكانٍ ولا إلى عرشٍ ولا إلى سماءٍ ولا غيرِها مِن المخلوقاتِ، فإنّ الاحتياج صِفةُ المخلوقِ، واللّهُ مُنزَّه عن ذلك كُلِّه. فهو تعـالَى ناصِرُ أولياءَه يومَ القيامةِ على الكفَرةِ بإظهارِ شرَفِ أوليائِه وإكرامِهم وإبـرازِ مراتبِهم العَليّة في مُقابلِ خِذلانِ أعدائِه، فليسَ ما جاءَ به قُطْرُوسُ مِن الكُفرِ والتَّعالي على يَهوذَا المؤمن نَصرًا بل المؤمنُ منصورٌ معنًى في كلِّ حالٍ، ﴿هُوَ﴾ أي اللّهُ عزَّ وجلَّ ﴿خَيۡرٞ ثَوَابٗا﴾ أي أفضلُ

جـزاءً في الدُّنيـا والآخِرة لأهلِ طاعَتِـه ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾ أي واللّهُ خيرٌ عاقبةً لِمَن ءامَن به.

قوله ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم ﴾ أي واذكُرْ يا محمّدُ لِقومِك ﴿مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي تشبيهَها وتمثيلَها في صِفتها[1] ﴿كَمَآءٍ ﴾ أي مطرٍ ﴿أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ مِن تحتِ العَرشِ فسقَتْه ريحٌ إلى الغيمِ فصارَ سحابًا مُشبَعًا بالمطرِ الّذي نزَلَ إلى الأرضِ[2] ﴿فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ ﴾ أي بسببِ هذا الماءِ ﴿نَبَاتُ

---

(١) ضرَبَ اللّهُ عزَّ وجلَّ الأمثالَ للنّاسِ في القرءانِ الكريم لِما في ذلكَ مِن تَقريبٍ لِمَا بَعُد مِن أفهام كثيرٍ مِن النّاسِ، وإيضاحِ ما قد يُشكِلُ عليهِم أمرُه، ويَستعصِي عليهم فَهْمُ حُكمِه، ولِما في فَهمِ المثَلِ مِن تأثيرٍ على المَرءِ لا سيّما لجِهةِ التفكُّرِ والتدبُّر، قال اللّه عزَّ وجلَّ: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [سُورة العنكبوت: ٤٣]، وقال تعالَى: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [سُورة إبراهيم: ٢٥]، وقال أيضًا: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سُورة الحَشر: ٢١].

(٢) أوّلُ ما خلقَ اللّهُ عزَّ وجلَّ الماءُ ثُمّ جعَلَ مِن هذا الماءِ الأصلِ العرشَ وجعلَه طافِيًا عليه، ثُمّ صارَ بعدَ ذلكَ انفصالٌ بينَهُما، وتَبِعَ ذلكَ مِن المخلُوقات اللَّوحُ المحفوظُ والقلَمُ الأعلَى، وأمرَ اللّهُ عزَّ وجلَّ القلَمَ أن يَجرِي بقُدرةِ اللّهِ فيكتُبَ كُلَّ ما يكونُ في هذه الدُّنيا إلى يومِ القِيامةِ - فلا يَدخُل في ذلك أمورُ الآخرة مع أنّها مخلُوقةٌ للّهِ - فجرَى القلَمُ بما أُمِرَ، ثُمّ بعدَ خمسِينَ ألفَ سنَةٍ خلَقَ اللّهُ السّماواتِ والأرَضِينَ ثُمّ جعَلَ الظُّلمةَ والنُّورَ وخلَقَ الملائكةَ والجِنّ والبهائمَ، ثُمّ خلَقَ ءادمَ ﷺ وخلَقَ له حوّاءَ ومِنهُما جاءَ البشَرُ فيما بعدُ. =

﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي تداخَل بعضُه في بعــضٍ وتكاثفَ بَهيجًا ﴿فَأَصۡبَحَ﴾ ذلك النَّباتُ المُلتفُّ إثرَ بَهجَتِه عن قَريبٍ ﴿هَشِيمٗا﴾ أي مَهشُــومًا مكسُورًا يابِسًـــا ﴿تَذۡرُوهُ﴾ أي تَحمِلُه وتُفرِّقُــه ﴿ٱلرِّيَٰحُ﴾ وهذا مَثلُ الدُّنيا الزّائلةِ الفانيةِ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ أي ولَم يزَلْ ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ مِن الأشياءِ إنشاءً وإفناءً وإعادةً ﴿مُّقۡتَدِرًا ٤٥﴾ أي قادِرًا على إنفاذِ ما يشــاءُ وَفقَ عِلمِه الأزليّ، فهو قادِرٌ أزلًا قبلَ وجودِ الكائناتِ ولَا يزالُ مُتّصِفًا بالقُدرةِ التامّة أبدًا بِلا نهايةٍ(١).

= أمّــا الماءُ الّذي يَنــزِلُ إلى الدُّنيا اليومَ فأصلُه مِن ذلك الماء الأوّل، وذلكَ أنّ العرشَ الّذي هو سَقفُ الجنّة أوسعُ مِن الجنّةِ فإنّ تحته مِن إحدَى نواحيه مــاءٌ مِن الماءِ الأوّلِ، يأمرُ اللهُ تعالَى ميكائيل عليه السّــلامُ فيأخُذ ميكائيلُ وأعوانُه مِن الملائكةِ مِن ذلكَ الماءِ فيَكِيلُون ما أُمروا بتنزيله بمِكيالٍ معلومٍ ثُــمّ يضعُونَه في ريحٍ قويّةٍ تَسُــفُّ هذا الماء مِن ذلكَ المــكانِ إلى الغيمِ في المنتشِرِ تحتَ السَّــماءِ الدُّنيا فوقَ الأرضِ، فيمتلئُ هذا السَّحابُ بالماءِ، ثُمّ يُؤمَرُ الملَكُ رَعدٌ أن يَضرِبَ السَّحابَ لِيَسُوقَه إلى المَكانِ المأمورِ به فيفعَلُ به ذلكَ، ثُمّ يُؤمَرُ الملائكةُ المُوكَلُون بأمرِ السَّحابِ بتدبيرِ أمورِ نُزولِ المطرَ فوق ناحيــةٍ دُونَ أخرَى، قال اللهُ تعــالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَيَبۡسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ يَشَآءُ وَيَجۡعَلُهُۥ كِسَفٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ﴾ [سُورة الرُّوم: ٤٨].

(١) ذاتُ اللهِ أزَليٌّ أبَــدِيٌّ لا يَتغيّر ولا يَتبدَّلُ ولا يتطــوَّرُ، وكذلكَ صِفاتُهُ أزليّةٌ أبديّــةٌ لا يَلحَقُها تغيُّرٌ ولا يَطرَأُ علَيها تطوُّرٌ أو تبدُّلٌ، فهي صِفات كاملةٌ لا نَقصَ فيها.

مَن كان مقصودُه في الدُّنيا كَثرةَ المالِ والبَنِينَ فـ ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ﴾ الفانيةُ الّتي يَفتخِرُ بها الأغنياءُ﴿زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الزّائلةِ وليسَتْ مِن زادِ الآخِرة، فإنْ لَم يَكُن فيها نفعٌ لآخِرَتِكم فإنّها لَكُم فِتنةٌ كما دلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [سُورة الأنفال: ٢٨] أي ابتِلاءٌ واختِبارٌ لكُم مِن اللهِ(١)، فمَن كسَب الحرامَ لأجلِ أولادِه فهو مَفتونٌ بالمالِ والولَد، وقد أعطاكُم اللهُ إيّاها لِيُظهِرَ للنّاسِ - وهو عالِمٌ بما يكون - أتتّقُونَه فيها وتُطِيعُونَه أو تعصُونَه بسببِها وتُخالِفُون أمرَه عزَّ وجلَّ.

ولمّا حذَّر اللهُ عزَّ وجلَّ مِن فِتنةِ عَرَضِ الدُّنيا الزّائِل رَغَّب في الاعتناءِ بما ينفَعُ العبدَ عِندَ ربِّه فقال: ﴿وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ﴾ وهي أعمالُ الخيرِ الّتي تُكسِبُ المرءَ الحسَناتِ كالصّلاةِ والصِّيامِ والحَجِّ والصّدقاتِ والذِّكرِ وقِراءةِ القُرءانِ ونحوِ ذلك(٢) يَبقَى نفعُها لفاعِلِها مِن المؤمنِينَ

---

(١) وقد أخبرَنا اللهُ عزَّ وجلَّ في كِتابه بأنّه يكُون للمرءِ زَوجةٌ وأولادٌ أعداءٌ لا يُحِبُّون له الخيرَ فيَحملانِه على معصيةِ اللهِ وتَركِ طاعته، قال اللهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [سُورة التّغابُن: ١٤]. وسببُ نُزولِ هذه الآيةِ كما روَى التِّرمذيُّ عن ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما أنّ رجالًا أسلَموا مِن أهلِ مكّةَ وأرادُوا أنْ يأتُوا النّبيَّ ﷺ، فأبَى أزواجُهم وأولادُهم تركَهم بأنْ يأتُوا رَسولَ اللهِ ﷺ، فلمّا أتَوا رَسولَ اللهِ ﷺ رأَوا النّاسَ قد فقِهُوا في الدِّين فهَمُّوا أنْ يُعاقِبُوهم فنزلَتْ هذه الآيةُ.

(٢) اختلفَ المفسِّرُون في معنَى الباقِياتِ الصّالِحات على أقوالٍ كثيرةٍ، فقيل: هي الصّلواتُ الخمسُ، وقيل: سُبحانَ اللهِ والحَمدُ للهِ ولا إله إلا اللهُ واللهُ =

ولا ينقطعُ عنه الجزاءُ على فِعلِها في الجنّةِ، فهي أعمالٌ باقِيةٌ باعتِبارِ بقاءِ جزائِهـا في الآخِرةِ لفاعلِها في الدُّنيا، فهـذه الأعمالُ الصّالحةُ ﴿خَيْرٌ﴾ مِـن نَعيمِ الدُّنيـا الزّائـلِ ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ في الآخـرة ﴿ثَوَابًا﴾ أي جزاءً للمؤمِـن، والأعمالُ الصالحـةُ مُشرَّفةٌ عِندَ اللهِ، وهو عـزَّ وجلَّ يثيبُ علَيهـا المؤمنَ في الآخِرة بخِلافِ نعِيـمِ الدُّنيا الفانِي، وهي ﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ أي خـيرُ ما يُؤمِّلُه العبدُ وهـو ثوابُ اللهِ في الآخِرة. وقريبٌ مِن ذلـكَ معنَى ما جاءَ في قـارُونَ الغَنِيّ الكافِر من بَـنِي إسرائيل[١] في قولِه

= أكبَرُ، وقيل: سـبحانَ اللهِ والحَمدُ للهِ ولا إله إلا اللهُ واللهُ أكبَرُ ولا حولَ ولا قُوّةَ إلّا باللهِ، وقيل: الكلامُ الطيِّبُ كذكرِ اللهِ عزَّ وجلَّ والصّلاةِ على رسـولِ اللهِ ﷺ، وقيل: كُلُّ ما كان مِن طاعةِ اللهِ.

(١) كانَ قارُونُ مِن بَني إسرائيلَ وهُو ابنُ عَمّ سَـيّدِنا مُوسَى عليه السَّـلامُ، وقَد رَزقَهُ اللهُ تَعالَى سَـعَةً في الرّزق، وكَثـرَةً في الأموالِ حتّى فاضَت بِها خَزائِنُهُ، واكتَظَّـت صَناديقُـهُ بما حوتهُ منها، فلَم يَعُد يَسـتَطيعُ حَمـلَ مَفاتِيحِها مَجمُوعَةٌ مِـنَ الرِّجالِ الأقوياءِ، وكانَ يَعِيشُ بَينَ قَومِه عِيشَـةَ التَّرَفِ، فكانَ يَلبَـسُ المَلابِسَ الفاخِرَةَ ولا يَخرُجُ إلاَّ في زِينَتِه، ويَسـكُنُ القُصُورَ، ويَختارُ لِنَفسِه الخَدَمَ والعَبِيدَ، ويَستَمتِعُ بِمَلَذّاتِ الدُّنيا الفانِيَةِ.

لَكِن قارُونُ لَم يَكُن عَبدًا شَـكُورًا، فبَدَلا مِن أن يُطِيعَ اللهَ، أخَذَ يَغتَرُّ بِنَفسِـه ويَتكَـبَّرُ علَى قَومِـه ويَفتَخِرُ بِكَثرَةِ ما ءاتـاهُ اللهُ تَعالَى مِنَ الأمـوالِ والكُنُوز، فنَصَحَـهُ النُّصَحاءُ مِن قَومِه ووَعَظُوهُ ونَهَوهُ عَن فَسـادِه وبَغيِـه ولَكِنَّهُ أجابَهُم جَوابَ مُغتَرٍّ مَفتُونٍ مُسـتَكبِرٍ مُدَّعِيًا أنَّهُ لا يَحتاجُ إلى نَصائِحِهِم لأنَّهُ اكتَسَبَ مالَهُ بِعِلمِه وفَضلِه مُعتَقِدًا علَى زَعمِه أنَّ اللهَ يُحِبُّهُ ولِذَلِكَ أعطاهُ المالَ الكَثِيرَ. =

= ويُروى أنَّهُ عِندما أُنزلَت فرضِيَّةُ الزَّكاةِ علَى سَيِّدِنا مُوسَى عليه السَّلامُ أخبَرَ قومَهُ بما يجِبُ عليهِم وقالَ لِقارُون مُذكِّرًا إيّاهُ بِتقوى الله وحقّه عليه إنَّ علَى كُلِّ ألـفِ دِينـارٍ دينارًا، وعلَى كُلِّ ألـفِ دِرهَمٍ دِرهمًا، فحَسَـبَ قارُونُ ما يَترَتَّبُ عليه مِن زكاةٍ فاسـتكثرَهُ، فشَـحَّت نفسُهُ فكفرَ بما جاءَ به مُوسَى عليه السَّـلامُ. ثُمَّ جمَعَ قارُونُ بَعضَ مَن يَثِقُ بِهِـم مِن أتباعِه وقالَ لهُم: إنَّ مُوسَى أمَرَكُم بِكُلِّ شَيءٍ فأطَعتُمُوهُ، وهُو الآنَ يُريدُ أخذَ أموالِكُم، فقالُوا لهُ: مُرنا بِما شِـئتَ. قـالَ: ءامُرُكُم أن تُحضِرُوا «سِـبَرتا» العاصِيَةَ فتجعَلُوا لَها أُجرَةً علَى أن تَزعُمَ أنَّ مُوسَى أرادَ الزّنَى بِها، والعِياذُ بِاللهِ تعالَى، ففعَلُوا ذَلِكَ وأرسَلُوا لَها طَستًا مِن ذَهَبٍ مَملُوءًا قِطَعًا ذَهبِيَّةً.

فلَمّا كانَ يومُ عِيدٍ لهُم أتَى قارُونُ لَعَنَهُ اللهُ إلى سَـيّدِنا مُوسَى عليه السَّـلامُ مُتَظاهِـرًا بالوِدّ فقالَ لَـهُ: إنَّ قومَكَ قَدِ اجتَمَعُوا لَـكَ لِتَأمُرَهُم وتَنهاهُم، فخَرَجَ إلَيهِم نَبِيُّ اللهِ مُوسَى عليه السَّـلامُ فقالَ لهُـم: مَن سَرَقَ قَطَعنا يَدَهُ، ومَن زَنَى وهُو غيرُ مُتَزوّجٍ جَلَدناهُ، وإن تزَوَّجَ وزَنَى رَجَمناهُ حتّى يَمُوتَ. فقالَ لهُ قارُونُ: وإنْ كُنتَ أنتَ؟ قالَ مُوسَى: أعُوذُ بِاللهِ مِنكَ، إنَّني لا أقرَبُ هَذِه الفَواحِشَ، وتَجويزُ ذلِكَ مِن قارُونَ على مُوسَى ﷺ كُفرٌ مِن قارُون. فقالَ لهُ قارُونُ: إنَّ بَني إسرائِيلَ يَزعُمُونَ أنَّكَ فجرتَ بِـ«سبَرتا»، فقالَ عليه السَّلامُ: ادعُوها، فلَمّا جاءَت اسـتَحلَفَها مُوسَى عليه السَّلامُ بِاللهِ الَّذي فلَقَ البَحرَ وأنـزَلَ التَّوراةَ أن تَصـدُقَ، فتَدارَكَها اللهُ تعالَى بِرحمَتِـه فتابَت وتبَرَّأت مِمّا نَسَـبُوا إلى مُوسَى وقالَت: كَذَبُوا، بَل جعَلَ لِي قـارُونُ أُجرَةً علَى أن أتَّهِمَكَ بِالزّنَى، فسَجَدَ مُوسَى عليه السَّلامُ ودَعا اللهَ علَى مَن ظَلَمَهُ فأوحَى اللهُ تعالَى إلَيهِ: مُرِ الأرضَ بِما شِئتَ فإنَّها مُطِيعَةٌ لَكَ.

وفِي اليَـومِ التّالِي خرَجَ قـارُونُ كَعادَتِه فِي مَوكِبٍ كَبِيرٍ يَضُمُّ ءالافَ الخَدَمِ =

تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٧٩ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ [سُورة القصص: ٧٩-٨٠].

= والحَشَمِ وقد تَزَيَّنت ثيابُهُم بالذَّهَبِ والجَواهِرِ ورَكِبُوا علَى بغالِهِم وأفراسِهِم وهُو يَتقدَّمُهُم علَى بَغلَةٍ شَهباءَ زَيَّنَها وقَدِ ارتَدَى أجمَلَ ثِيابِه وأفخَرَها مَزهُوًّا بِنَفسِه مُتطاوِلاً، والنّاسُ علَى الجانِبَينِ يَنظُرُونَ إلَيه بدَهشَةٍ، ومِنهُم مَن اغتَرَّ بِه فقالَ: هَنِيئًا لِقارُونَ إنَّهُ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ، مالٌ وجاهٌ، فلَمّا سَمِعَهُم بَعضُ الصّالِحِينَ مِن قَومِهِم نَصَحُوهُم أن لا يَغتَرُّوا بِزَهرَةِ الدُّنيا فإنَّها غَرّارَةٌ.

وقِيلَ إنَّ قارُونَ مَرَّ فِي مَسِيرِه علَى مَجلِسٍ لِسَيِّدِنا مُوسَى علَيه السَّلامُ فأوقَفَ المَوكِبَ وخاطَبَهُ قائِلاً: يا مُوسَى أما لَئِن كُنتَ فُضِّلتَ علَيَّ بالنُّبُوَّةِ، فلَقَد فُضِّلتُ علَيكَ بِالمالِ، ولَئِن شِئتَ فاخرُج فادعُ علَيَّ وأدعُو علَيكَ، فخَرَجَ سَيِّدُنا مُوسَى علَيه السَّلامُ ثابِتَ القَلبِ مُتوكِّلاً علَى رَبِّه سُبحانَهُ وتعالَى، وبَدَأ قارُونُ بالدُّعاءِ فلَم يُستَجَب لَهُ، ودَعا سَيِّدُنا مُوسَى وقالَ: اللهُمَّ مُرِ الأرضَ فلتُطِعنِي اليَومَ، فاستَجابَ اللهُ لَهُ، فقالَ مُوسَى: يا أرضُ خُذِيهِم، فأخَذَتِ الأرضُ قارُونَ المَلعُونَ ومَن مَعَهُ مِن أتباعِه الخُبَثاءِ إلَى أقدامِهِم ثُمَّ قالَ: يا أرضُ خُذِيهِم، فأخَذَتهُم إلَى رُكَبِهِم ثُمَّ إلَى مَناكِبِهِم ثُمَّ قالَ: أقبِلِي بِكُنُوزِه وأموالِه، فاهتَزَّتِ الأرضُ تَحتَ دارِه وما فِيها مِن أموالٍ، ثُمَّ أشارَ مُوسَى علَيه السَّلامُ بِيَدِه فقالَ: يا أرضُ خُذِيهِم فابتَلَعَتهُم جَمِيعًا.

ولَمّا حَلَّ بِقارُونَ ماحَلَّ مِن خَسفِ الأرضِ وذَهابِ الأموالِ وخَرابِ الدّارِ وخَسفِها نَدِمَ مَن كانَ تَمَنَّى مِثلَ ما أُوتِيَ وشَكَرُوا اللهَ تَعالَى الَّذِي لَم يَجعَلهُم كَقارُونَ طُغاةً مُتَجَبِّرِينَ مُتَكَبِّرِينَ فيَخسِفَ بِهِمُ الأرضَ.

ثُمّ أخبرَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ عن بعضِ أهوالِ يومِ القيامةِ فقال: ﴿ وَيَوْمَ ﴾ أي واذكُرْ يومَ ﴿نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ ﴾ أي يُذهِبُ اللَّهُ بقُدرَته مِن غيرِ مُماسّةٍ جَميعَ جبالِ الدُّنيا فتقلَع مِن مَكانِها وتُحطَّمُ فتصيّرُ غُبارًا مسحُوقًا مُسيَّرًا في الجوِّ كالسَّحابِ ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ ﴾ ذلكَ اليومَ ﴿بَارِزَةً ﴾ أي ظاهِرةً ليسَ عليها شجَرٌ ولا جبَلٌ ولا بناءٌ ولا نُتوءٌ ولا مُنخفَضٌ بيضاءَ كالجِلدِ المشدُودِ ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ ﴾ أي يُجمَعُ المؤمِنون والكافِرُون جميعًا إلى موقِف الحِسابِ بعدَ أنْ بُعِثُوا مِن قُبورِهم ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ ﴾ أي لَم نَترُكْ ﴿مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ ﴾.وقال بعضُ المفسّرين: معنَى ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ ﴾ أي قبلَ نَسفِ الجِبالِ وتبدِيلِ معالِمِ الأرضِ وذلك بأنْ يُبعَثَ الموتى مِن قُبورِهم ثُمّ يُحشَرون إلى ظُلمةٍ عند الصِّراطِ يُعايِنُون فيه نَسفَ الجِبالِ وتسييرَها وتَبدِيلَ الأرضِ وغَيرَ ذلكَ مِن الأهوالِ ثُمّ يُعادُون إلى الأرضِ المُبدَّلة للحِسابِ[1].

﴿ وَعُرِضُوا۟ ﴾ أي ويُعرَضُ المحشُورونَ ﴿عَلَىٰ رَبِّكَ ﴾ أي لحِسابِ ربِّك،

---

(١) يجبُ الحذَرُ والتّحذِير مِن إنكارِ بعضِ الملاحِدة البعثَ وأُمورَ القِيامةِ والجنّةَ والنّارِ وما فِيهما، وقد درَج بعضُهم علَى القولِ في مَعرِض الإنكار بعاميّة بلاد الشّام: «مِين راح شاف وإجا خبَّر» يعني مَن ذا الّذي ذهَبَ ورأى وجُودَ ذلكَ ثُمّ رجعَ فأخبَرَ؟ فمثلُ هؤلاءِ لا يُلتَفتُ إليهم ولا وزنَ عِندَنا لكَلامِهم، فما أخبرَنا بِه الشَّرعُ أنّه يكونُ لا بُدَّ أن يكونَ، وقد فضَحَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ أمثالَ أولئكَ المُعاندِينَ الكافرين فقال تعالَى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴾.

واللهُ علِيمٌ بكُلِّ شيءٍ مُبصِرٌ لِكُلِّ مَرئيّ لا يَخفَى عليه شيءٌ، وليس سُبحانَه مُتحـيِّزًا في أرضِ المحشرِ ولا في غيرِها مِن الأماكِن بل هو ليسَ كمِثلِه شيءٌ موجـودٌ أزلًا وأبـدًا بلا مكانٍ ولا جهةٍ ولا كَيـفٍ، ويكونُ عَرضُ المحشُـورِينَ[١] ﴿لَّقَدۡ جِئۡتُمُونَا﴾ أي يَظهَـرُون مُصطفِّين[٢] لا يَحجُبُ بعضُهم بعضًا ويقالُ لهم: أي حُشِرتُم بأمرِنا للحِسابِ والجزاءِ مُنفَرِدين لا شيءَ معكم[٣] ﴿كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ﴾ أي كمَجِيئكُم وبُروزِكُم عِندَ خَلقِ اللهِ

---

(١) يُحشَرُ النّاسُ بعـدَ البعثِ على الأرضِ المُبدَّلة، وهي أرضٌ مُسـتويةٌ كالجِلدِ المَشـدُودِ لا جبالَ فيها ولا وِديانَ، وهي أكبَرُ وأوسَـعُ مِن أرضِنا هذه، وهي بَيضاءُ كالفِضّة. وبدءُ الأمرِ أن تَنشَـقَّ القُبورُ عن أهلِها فيُخرَجُون ويُنقَلُون إلى مَكانٍ قُربَ الصِّراطِ في ظُلمةٍ، يكونونَ محمُولِينَ بقُدرةِ اللهِ بَعدَ أنِ انفصَلُوا عن هذه الأرضِ، ثُمّ تُدكُّ هذه الأرضُ وتُبدَّلُ صِفَتُها بأرضٍ غيرِها، قال اللهُ تعالى: ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [سُورة إبراهيم: ٤٨].

(٢) اشـتهَر عند العُلماء التّعبيرُ عن وُقوفِ العَبدِ يومَ القِيامةِ للحِسابِ بقولِهم: «الوُقوف بينَ يدَي اللهِ» ومعناها الوقوفُ لحِسـابِ اللهِ، فليسَ معناه نِسـبةَ المُقابلةِ والجِهةِ والمكانِ للهِ وليسَ في ذلكَ نِسـبةُ اليدِ بمَعنَى العُضوِ والجُزءِ للهِ، تعالَى اللهُ عن ذلكَ.

(٣) وليسَ الأمرُ كما تقولُ المُشـبِّهة المُجسِّمة بأنّ اللهَ يكُون في أرضِ المَحشَرِ على كُرسِيّ لِفَصلِ القَضاءِ، فإنّه لا يصِحُّ مِن أحاديثِ الجُلوسِ والقُعودِ شيءٌ مِمّا فيه نِسبةُ الجُلوسِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، ولنا في ذلكَ رسالةٌ مُختصَرة أسمَيناها «**إبهاجَ النُّفوس في إبطالِ أحاديثِ الجُلوسِ**»، ورسالةٌ أوسَعُ مِنها أسمَيناها «**بزُوغَ الشُّموس في بُطلانِ حديث الجلُوس**».

لَكُم ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ حِينَ أخرجَكُم إلى الدُّنيا فإنّكُم كُنتم في حُكم العدَم ثُمّ صوَّرَكُم نُطَفًا مَيّتَة في أرحامِ أُمّهاتِكُم(١) ثُمّ خَلقَ فيكُم الحياةَ أوّلَ مرّةٍ ثُمّ أفناكُم بالموتِ ثُمّ أعادكُم إلى الحياة مرّةً أُخرى فبعثَكُم وحشَرَكُم ليُجازِيَكُم على ما قدَّمتُم مِن العمَل في دُنياكُم، وقَد أخبَرَ عزَّ وجلَّ عن بعضِ ما يَعترِفُ به أهلُ النّارِ ومنه هذا، فقال تعالَى: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ [سُورة غافِر: ١١]، وفي كُلّ مرَّةٍ يَسألُ فيها الكُفّارُ الخُروجَ مِن النّارِ يُجابُون بما يَزيدُهم نَكَدًا وغمًّا فوقَ العذابِ الّذي هُم فيه، مِن ذلكَ ما جاءَ في قولِه تعالى ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [سُورة المؤمنون: ١٠٨]، ومِنها قولُه: ﴿فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [سُورة فاطِر: ٣٧]، وءايةُ: ﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [سُورة النَّبأ: ٣٠] فقد رُوي عن عبدِ اللّه بن عمرٍو وأبي بَرْزةَ الأسلميّ رضي اللّه عنهما قالا: إنّها أشَدُّ ءايةٍ على أهلِ النّارِ إذْ هُم في مَزيدٍ مِن عذابٍ أبدًا.

ويُقال لمُنكِري البعثِ يومَ القِيامةِ توبيخًا لهم وتَقريعًا(٢) ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ﴾

---

(١) النُّطفةُ الأمْشاجُ هي نُطفةٌ ميّتةٌ لا رُوحَ فيها متركِّبةٌ مِن مَنِيّ الرّجُل المختلط بمَنِيّ المرأة، واعتقادُ المسلمين أنّ المنيّ لا رُوحَ فيه، وهذا الّذي عليه القُرءانُ والحديثُ والأصولُ والحقائِقُ العِلميّةُ اليَقينيّة، فيجُب الاعتقادُ جزمًا بأنّ المنِيَّ لا حَياةَ فيه ولا رُوحَ إنّما فِيه صِفةُ التموُّجِ كما في الزِّئبقِ ولا رُوحَ فيه.

(٢) بمعنَى التَّوبِيخ.

أي قد ادَّعَيتُم جهلًا مِنكُم وأنتُم في الدُّنيا ﴿أَلَّن نَّجۡعَلَ لَكُم﴾ أبدًا ﴿مَّوۡعِدٗا ٤٨﴾ أي وقتًا نُنجِزُ فيه ما وعَدْناكُم به مِن البَعث وما يَتبَعُه، فقَد كذَّبتُم ولَم يَنفَعكُم جهلُكم(١).

---

(١) يُطلِقُ بعضُ مُدَّعِي المَشـيَخةِ الضالِّين القولَ بـأنّ الجهل عُذرٌ للجاهِل ولو كانَ كلامُه مُصادِمًا للدّين على أيّ حالٍ كان، وهذا الكلامُ مصادِمٌ للنُّصوصِ الشَّرعيّةِ؛ والأمثِلة في ذلكَ كثيرةٌ جِدًّا، نَسوقُ فيها بعضَ أقوالِ العُلماء:

- قـال الإمام الماتريدي رضي الله عنه في تفسـيره (٨/ ٦٢٢) عِندَ قولِ الله تعـالى: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ «دِلالـةُ لُـزومِ الحُجّةِ والوَعيد علَى الظَنّ والجَهل» اهـ.
- وقـال الفَخرُ الرازيُّ في تَفسـيره (١٤/ ٣٤٩): «بيَّنَ أنّ بَـنِي إسرائيلَ لمّا شـاهَدُوا قومًا يَعكُفونَ على عِبادةِ أصنامِهم جَهِلُوا وارتَدُّوا» اهـ. أي وقَعُوا في الكُفرِ مع أنّهُم رأَوا المُعجِزات قبلَ ذلكَ وكانُوا مِن المكلَّفِين وقد أيقَنُوا أنّهـم علَى حَقٍّ إلّا أنّهُم لِجَهلِهم ارتَدُّوا فـكان حُكمُهم حُكمَ الكافِرين، ولَم يَقُل لهُم سـيّدنا موسَى ﷺ «إنّ جَهلَكم نفَعَكم ودَفَع عنكُم الكُفر»، وكلُّ ذلـكَ وارِدٌ عِندَ الكلام على قولِ مـوسى ﷺ لقَومِه الّذين قالوا له كما أخبَرَ الله عن مقالَتِهـم: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾ أي جَهـلًا أوقعَكُم في الكُفرِ حيث إنّكُـم أنكرتُم وَحدانيّةَ اللهِ في الألُوهيّـةِ والصِّفات، فكان مِنهُم مَذهَبٌ كُفريٌّ منشَـؤُه جهلُهم الّذي لَم يُعذَرُوا به، وهو مذهَبٌ كُفريٌّ جامعٌ بينَ عَقيدةِ المُشركين وعَقيدةِ مَنظَرَ في هذه الأُمّةِ مِن المُعتزِلةِ النُّفاةِ لِصفاتِ اللهِ والعِياذُ باللهِ.
- وقال أبُو حيّانَ في «البَحرِ» (٥/ ١٥٧): «أجمَعَ كلُّ الأنبياءِ عليهِم السّـلامُ عـلَى أنّ عِبادةَ غيرِ الله كُفرٌ، سـواءٌ اعتقَدَ كونَه إلهًا للعـالَمِ أو أنّ عِبادتَه =

ثُمّ ذكَرَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ بعضَ ما يكونُ مِن مَواقِفِ الحِسابِ فقال: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي تُوضَعُ صَحائِفُ أعمالِ العِبادِ في أيديهم، فيُناوَلُ المؤمِنُ كتابَه بيَمينِه لشَرفِ الإيمانِ الّذي كان علَيه، ويُناوَلُه الكافِرُ بشِماله مِن وَراءِ ظَهرِه لِخَساسةِ الكُفرِ الّذي كان علَيه، فيَفرَحُ المؤمِنُ النّاجي ويُعلِنُ ذلك لأحبابِه المؤمِنين: ﴿فَيَقُولُ هَآؤُمُ﴾ أي خُذوا ﴿ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ﴾ [سُورة الحاقّة: ١٩]، وأما الكافِرُ ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ﴾ [سُورة الحاقّة: ٢٥] لِما

= تُقرِّبُ إلى اللَّه» ا.هـ.

- وقال البُرهان البِقاعيّ في «نَظم الدُّرَر» (١٤/ ٣٢٦) عِندَ قولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾: «أي ولكِنَّهم جهِلُوا فكفَروا».
- وقال أبو السُّعود الحنَفي في تفسيره (٥/ ١٠٧) عِندَ قولِه تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: «أي يُضِلُّون مَن لا يَعلَم أنّهم ضُلّالٌ، وفائدةُ التّقييد بها الإشعارُ بأنّ مَكرَهم لا يَروجُ عِندَ ذي لُبٍّ وإنّما يَتبَعُهم الأغبياءُ والجَهَلة، والتّنبيهُ على أنّ جَهلَهم ذلك لا يكُون عُذرًا إذْ كان يَجِبُ عليهم أن يَبحَثُوا ويُميِّزُوا بَين المُحِقّ الحَقيقِ بالاتّباع وبَين المُبطِل» ا.هـ.
- وقال القاضي عِياضُ المالكيُّ فيما نقَله عنه ابنُ المُلقِّن في «التَّوضيح» (٣١/ ٥٤٩) وأقرَّه عليه ما نصُّه: «وأمّا مَن قال شيئًا مِن ذلكَ غيرَ قاصِدٍ السَّبَّ والإيذاءَ ولا مُعتقِدَه ولكِنّه تَكلَّم بذلكَ جَهلًا أو لِضجَرٍ أو شيءٍ اضطرَّه إليه أو قِلّةِ ضَبطِ لِسانه وعَجرَفةٍ وتَهوُّرٍ في كَلامه فحُكمُه حُكمُ الوَجهِ الأوّلِ القَتلُ دُونَ تَلعثُم، إذْ لا يُعذَرُ أحَدٌ في الكُفرِ لِجَهالةٍ ولا لِشيءٍ ممّا ذكَرْناه إذا كان عَقلُه في فِطرَتِه سَليمًا إلّا مَن أُكرِهَ وقَلبُه مُطمئِنٌّ بالإيمانِ» اهـ.

يرَى فيه مِن الفَضائِح.

وقال بعضُ المفسِّرين: معنَى ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ المُرادُ بها هُنا صُحف أعمالِ العِبادِ تُوضَع في الميزانِ يومَ القِيامةِ لوزنِ الأعمالِ[1] ﴿فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ أي الكافرين[2] ﴿مُشۡفِقِينَ﴾ أي خائفِينَ ﴿مِمَّا فِيهِ﴾ أي في الكِتابِ مِن إثباتِ الأعمالِ السَّيئّةِ إذْ ليسَ للكافِرِ حسَنةٌ ﴿وَيَقُولُونَ﴾ مِن شِدّة رُعبِهم وكَربِهم عِندَ مُعاينَتِهم لَه ورؤيتِهم ما فِيه مِمّا عَمِلُوه مِن كُفرٍ ومعصِيةٍ: ﴿يَٰوَيۡلَتَنَا﴾ أي يا هَلاكَنا ﴿مَالِ هَٰذَا﴾ أيْ أيُّ شيءٍ لِهذا

---

(١) ميزانُ يومِ الحِسابِ شَبيهٌ بِميزانِ الدُّنيا مِن حيثُ إنَّ لَهُ قصَبةً وعَمُودًا وكفَّتَين، كفّة للحَسَناتِ وكفّة للسَّيِّئاتِ، تُوزَنُ به الأعمالُ يومَ القِيامةِ، والَّذِي يَتولَّى وزنَها جبريلُ وميكائيلُ، قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [سُورة الأنبياء: ٤٧]، والَّذِي يُوزَنُ الصَّحائِفُ الَّتِي كُتِبَ علَيها الحَسَناتُ والسَّيِّئاتُ، فمَن رَجحَت حسَناتُهُ علَى سَيِّئاتِه فهو مِن أهلِ النَّجاةِ، ومَن تَساوَتْ حسَناتُه وسَيِّئاتُهُ فهو مِن أهلِ النَّجاةِ أيضًا ولَكِنَّهُ أقلُّ رُتبةً مِنَ الطَّبَقةِ الأُولَى وأرفَعُ مِنَ الثّالثَةِ، ومَن رَجحَتْ سَيِّئاتُهُ علَى حسَناتِه فهو تَحتَ مَشيئةِ اللهِ إن شاءَ عَذَّبَهُ وإن شاءَ غَفرَ لَه. وأمّا الكافِرُ فتَرجَح كَفّةُ سَيِّئاتِه لا غيرَ لأنَّهُ ليسَ له حسَناتٌ في الآخِرةِ، قال اللهُ تعالَى: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾ [سُورة الفُرقان: ٢٣].

(٢) قال ابن الجوزيّ في «زاد المَسير» (٣/ ٨٩): «وذكَر بعضُ أهلِ العِلم أنّ كُلَّ مُجرِمٍ ذُكِر في القُرءانِ فالمُرادُ بِه الكافِرُ» اهـ.

﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي ما حَالُه فإنّه شيءٌ يُتعجَّبُ مِنهُ فهو ﴿لَا يُغَادِرُ﴾ أي لا يَترُك ﴿صَغِيرَةً﴾ مِن ذُنوبنا ﴿وَلَا كَبِيرَةً﴾ مِنها[١] ﴿إِلَّآ أَحۡصَىٰهَا﴾ أي ضَبطَها وأَثْبتَها.

﴿وَوَجَدُواْ﴾ أي ويجِدُ الكافِرُون وقتَئِذٍ ﴿مَا عَمِلُواْ﴾ في الدُّنيا ﴿حَاضِرًا﴾ أي مَكتُوبًا مُثبَتًا في كتابهم، أو المعنَى أنّهُم وجَدُوا العِقابَ في الآخِرةِ جَزاءَ ما عَمِلُوا في الدُّنيا مِن الكُفرِ والمَعاصِي، وكُلُّ امرئٍ يُجازَى بما قدَّم ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ٤٩﴾ فيَكتُبَ عليه ما لَم يَعملْ[٢].

---

(١) قال بعضُ العلَماء: إذَا أردتَ أن تعرِفَ الفَرقَ بَينَ المعصيةِ الصَّغيرةِ والكَبيرةِ فاعرِضْ مَفْسدةَ الذَّنبِ علَى مَفاسِد الكَبائِر المنصُوصِ علَيها، فإذَا نَقَصَتْ عن أقلِّ مَفاسِد الكَبائِر فهي مِن الصَّغائِر، وإنْ ساوَتْ أدنَى مَفاسِد الكَبائِر أو زادتْ علَيه فهِي مِن الكَبائِر، وأكبَرُ الكَبائِر على الإطلاقِ الكُفرُ والعِياذُ باللّه. وقال بعضُهم: كلُّ ذَنبٍ قُرِنَ به وَعِيدٌ أو حَدٌّ أو لَعنٌ على فاعِلِه فهو ذنبٌ كَبيرٌ، وقيل: الكَبيرةُ ما يُشعِرُ بتَهاوُنِ مُرتَكِبِها في دِينِه. وقال شيخُنا الإمامُ الهرريّ رحمه اللّه تعالى: «مِن أحسَنِ ما قيل في تعريفِ الكبِيرة: كلُّ ذَنبٍ أُطلِقَ علَيه بنَصِّ كِتابٍ أو سُنّةٍ أو إجماعٍ أنّه كَبيرةٌ أو عَظِيمٌ أو أُخبِرَ فيه بشِدّةِ العِقاب أو عُلِّقَ علَيهِ الحَدُّ وشُدِّدَ النَّكيرُ علَيه فهو كَبيرة، وكذا كلُّ ذَنْبٍ وَرَد في القُرءانِ أو الحديثِ أنّ فاعِلَه مَلعُونٌ أو شُبِّهَ فاعِلُه بالكافِر».

(٢) لا يُتصوَّر مِن اللّهِ عزَّ وجلَّ الظُّلمُ، فإنّه المالِكُ للعالَمِ بأَسرِه، يَفعَلُ فيه ما يَشاءُ. قال الفقيه الأصوليّ بدر الدّين الزَّركشيّ في «تشنيف المَسامِع» (٤/ ٤٠٦): أي شرعًا وعقلًا، أمّا شرعًا فلِقَوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ=

ثُمّ إنَّ اللّهَ عزَّ وجلَّ أمرَ نَبِيَّه ﷺ أنْ يُذكِّرَ هؤلاءِ المتكبِّرِينَ عن مُجالَسةِ فُقـراءِ الصّحابةِ قِصّةَ إبليسَ وما أَوْرثَـه الكِبْرُ فقال تعالَى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ﴾ أي واذْكُـرْ يا مُحمّدُ إذْ قُلنا ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ جميعِهـم[١] بأنْ أمرَهُم اللّهُ أنِ

=مِثْقَالَ ذَرَّةٍۢ﴾ [سُـورة النِّسـاء: ٤٠]، وقولِـه تعالَى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[فُصِّلَـت: ٤٦]، وقولِـه ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ [سُـورة هُود: ١٠١] وذلكَ لِحَقيقـةٍ عَمِيَتْ عَنها الأبصـارُ، وقولِه أيضًا: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا ﴾ [سُـورة هُود: ١٠١]، فتَمَدَّح سبحانه وتعالَى بنَفيِ الظُّلمِ عنه، فلا يَجوز زَوالُه عنه كما لا يَجوز نَفيُ ما أثبَتَهُ لنَفسِه مِـن النُّعوتِ والصِّفات، كذلك مـا نَفاهُ عنه مِـن النَّقائِص، وفي الحديثِ الصّحيـح: «**يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمتُ الظُّلمَ عَـلَى نَفسِي**» (أي تنزَّهْتُ عنه)، وأمّا عَقلًا فلِأَنَّ الظُّلمَ إنّما صارَ ظُلمًا لأنّه مَنهيٌّ عنه، ولا يُتَصَوَّر في أفعالِه تعالَى ما يُنهَى عنه، إذْ لا يُتصَوَّر له ناهٍ، ولأنّ العالَمَ خَلقُه ومِلكُه، والمُتصَرِّف في مِلكِه يَسـتحيلُ وَصفُه بالظُّلم، وأيضًا فلا يُتَصَوَّرُ إلّا علَى مَن يُتَصَوَّرُ في حَقِّه الجهلُ لأنّه وَضعُ الشيء في غَيرِ مَوضِعه، وأمّا مَن أحاطَ عِلمُه بالأشياءِ ومواقِعِها فَلا، والمُخالِفُ في هذه المسألةِ القَدَرِيَّةُ قالوا: «إنّ القَدِيمَ يَصِحُّ منهُ الظُّلمُ لكِنْ لا يَظلِمُ لِكَونِه قَبيحًا». قال الشّـيخُ أبو إسـحاقَ: وفي هذَا إسقاطٌ لِمَا يُشيعُونَه عَن أهلِ الحَقِّ أنهم يَنسُبُونَ إليه فِعلَ القَبائح، تعالَى اللّهُ عَن ذلِكَ عُلُوًّا كَبيرًا» اهـ. وتَجويزُ القدَريّة وغيرِهم الظُّلمَ على اللّه كُفرٌ مِنهُم.

(١) الملائكةُ عليهم السّـلامُ كلُّهم أولِياءُ اللّهِ وليسَ فيهم كافِرٌ ولا فاسِـقٌ بل كرَّمَهم اللّهُ وجبلَهُم على طاعَتِه فلا يُخالِفونَ أمرَه طَرفةَ عَينٍ، قال اللّه تعالى: ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝٢٦ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [سُورة الأنبياء: ٢٦-٢٧].

﴿ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ﴾ سُـجود تَحِيّةٍ ويسـتحيلُ أن يكونَ أمرَ عِبادةٍ لآدمَ لأنّ اللّه لا يأمُـر بعبادةِ غـيرِه ولا يأمُر بالكُفـرِ، فتَعيَّن أن يكونَ الأمـرُ للتحيّة والاحترام، فإنّ اللّهَ أرادَ إظهـارَ شرفِ ءادمَ ﷺ فأمرهُم بالسُّجودِ تحيّةً له لأنّه يَخرُج من ذُريّة ءادمَ الأنبياءُ والأولياء، وهذا بمَعنَى سُـجودِ يعقُوب ﷺ وزَوجتِه وأبنائِه ليُوسَف ﷺ تحيّةً واحترامًا كما دَلَّ عليـه قوله تعـالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗا﴾ [سُـورة يُوسُـف: ١٠٠] سُجود تَحِيّةٍ، وجَوازُ ذلكَ مَنسوخٌ في شَريعة نبيّنا محمّدٍ ﷺ فلا يجوزُ أنْ يَسجُدَ الإنسانُ لآخَرَ ولو كان للتَحيّةِ والاحترام[(١)]، وأُمِرَ معَهُم بذلكَ إبليسُ فإنّه كان يَعبُد اللّه مع الملائكةِ ولَم يَكُن ملَكًا قَطُّ بل هـو أبو الجِنّ، ﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾ أي امتثَلُوا لأمرِ اللّهِ فَسـجَدُوا تَحِيّةً لآدَم ﷺ ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ فإنّه لَم يَسـجُدْ ولَم يَكُن مِن الملائكةِ بَل ﴿كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ﴾ وهو أصلُ الجِنّ وأبوهُم، والجِنُّ جِنسٌ مُخالِفٌ للمَلائِكة، ولَم يتوَقّفْ أمرُ إبليـسَ عندَ حَدِّ الامتناعِ عن تنفيذِ أمرِ اللّهِ بل أبَى واسـتكبَر واعترَضَ عـلى اللّهِ والعياذُ باللّهِ - وذلك كُفرٌ - فـإنّ اللّهَ قد أكْفرَه فقال عزَّ وجلَّ:

---

(١) روَى البُخـاريّ في «صحيحِه» وغيرُه عَن عبدِ اللّهِ بن أبي أَوْفَى قال: لمّا قَدِم مُعاذٌ مِن الشّـامِ سجَدَ للنّبيِّ ﷺ (أي سـجُودَ تَحِيّةٍ)، قال ﷺ: «**مَا هَذا يا مُعاذُ؟**» قال: أَتيتُ الشّـامَ فوافَقْتُهم يَسـجُدونَ لأَسـاقِفَتِهم وبَطارِقَتِهم، فـوَدِدتُ في نَفسِي أنْ نَفعَل ذلكَ بِكَ، فقال رسـولُ اللّه ﷺ: «**فَلَا تَفعَلُوا، فَـإِنِّي لَو كُنْتُ ءامِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْـجُدَ لِغَيْرِ اللّهِ** (أي سـجُودَ تَحِيّةٍ) **لَأَمَرْتُ المَـرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا**».

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [سُورة البقرة: ٣٤]، فقد جرَّ إبليسَ الحسدُ إلى الإبايةِ والكِبْرِ ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ أي خرج عن طاعةِ اللهِ مُخالِفًا لأمره عزَّ وجلَّ مُتمرِّدًا مُعْترِضًا(١) حيث قالَ كما أخبرَ اللهُ عن مَقالته: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ [سُورة الإسراء: ٦١]، وقد قضى اللهُ في الأزلِ أن يَصدُر ذلكَ مِن إبليسَ باختيارِه في الوَقتِ المَعلومِ، وحكَم اللهُ أنْ يَكُونَ مآلُ إبليسَ اللَّعينِ العَذابَ الأبديَّ في الآخرةِ وأنّه لا توبةَ له قبلَ ذلكَ، لكِنْ طلبَ إبليسُ مِن اللهِ أنْ يكونَ إمهالُه في الحياةِ إلى نِهايةِ الدُّنيا وأنْ لا يُقبَضَ قبلَ ذلكَ: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝٧٩ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝٨٠ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ۝٨١ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٨٣ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ۝٨٤ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [سُورة ص: ٧٩-٨٤].

---

(١) يجبُ الحذرُ مِن قولِ بعضِ الزّنادِقة: «إنّ إبليسَ رفضَ السُّجودَ لآدمَ لأنّه لا يُريدُ أن يُشركَ باللهِ» والعياذُ باللهِ، فعلَى مُقتَضى قولِ هؤلاءِ المَلاحِدةِ يكونُ اللهُ قد أمرَ الملائكةَ وإبليسَ بالكُفرِ والشِّركِ ويكونُ الملائكةُ قد كفرُوا بالسُّجودِ لآدمَ، مَعاذَ اللهِ، تلكَ مَقالةٌ ظاهرةُ الضَّلالِ. وقد قال بنَحوِ هذه المقالةِ طائفةُ الأيزيديّةِ الذين يَزعُمونَ أنّ أمرَ اللهِ للملائكة وإبليسَ كان على وجهِ الاختبارِ لهُم وأنّه لَم يَنجَحْ في هذا الاختبارِ سِوَى إبليسَ، والعِياذُ باللهِ، فقالوا عنه: «إنّه المُوحِّد الأوّلُ الّذي أبَى أنْ يُشرِكَ باللهِ»، وقد بلَغَ الأمرُ ببعضِ أهلِ هذه الطّائفةِ إلى عِبادةِ إبليسَ نفسه والعياذُ باللهِ.

فائـدة: لقَد أخبَرَنا اللَّهُ تَعالَى في القُـرءانِ الكَرِيم عن حالِ إبلِيسَ وأنّه كان مِن الجِنّ، فلا يجوزُ بعدَ ذلكَ أنْ يُقال إنّه كان مِن الملائكةِ فضلًا عن أن يقال إنّه طاووسُ الملائكة، فكَيفَ يكُون طاوُوسَهم كما يَزعُم بعضُ المُفسّرِيـن الّذين تَبِعُوا الإسرائيليّات الّتي تَنسُـب لابنِ عبّاسٍ رضي اللَّه عنهُمـا ما تَنْبُو الأسـماعُ عن قَبولِه، وابنُ عبّـاسٍ مِنه بَراءٌ. فإبليـسُ لَم يَكُن قَطُّ إلّا مِن الجِنّ بل هُو أبُـو الجِنّ، لكِنّه كان أوّلَ أمرِه يَعبُـد اللَّهَ معَ الملائكةِ، فلَمّا اعترَضَ على اللَّهِ وقـعَ في الكُفرِ فطُرِدَ إلى الأرضِ. ثُـمّ كَيفَ يكُونُ إبليسُ اللَّعِينُ مِـن الملائكةِ الكِرام وقد كفَرَ بـاللَّهِ، والملائكـةُ لا يجوزُ أنْ يَحصُـلَ مِنهُم معصيـةٌ ولا كُفرٌ لأنّ اللَّه قَد عصمَهُم بالعِصمةِ الكامِلـةِ فقال فيهم: ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [سُورة التّحريم: ٦]، وليس هذا خاصًّا بالملائكةِ الزّبانيـةِ الّذين وُكّلوا بتعذِيب الكُفّار في النّار فقَط، بل هو عامٌّ في جميعِ الملائكةِ، ويؤيّدُ ذلكَ قولُ اللَّهِ تعالَى في شـأنِ الملائكةِ جميعًا: ﴿عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ٢٦ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ﴾، وقـد أثنَى اللَّهُ تعالَى عليهم بأنّهم في طاعتِه دائمًا فقال عزَّ وجلَّ: ﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾ [سُورة الأنبياء: ١٩-٢٠]، فهذا القولُ الحقُّ في الملائكةِ.

فلو كان إبليس مَلَكًا لكان اعتراضُه وكُفرُه بأمرِ اللَّهِ، حيث قال: ﴿وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ﴾، وكيف يكُـون مَلَكًا وقد أثبتَ اللَّهُ لإبليسَ الذُرّيّة فقال: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي﴾ ولَو كان كذلكَ لكَانَ في

الملائكةِ إناثٌ وذُكورٌ وتَناسُلٌ وهذا تكذِيبٌ للقُرءانِ العَظِيم والإجماع، قـال اللهُ عزَّ وجلَّ في ذمِّ المُشركِـين: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ﴾ [سُورة الزُخرُف: ١٩]، فاللّهُ تعالَى أثبتَ الذُرِّيّةَ لإبليسَ ونَفاها هو عزَّ وجلَّ ورَسولُه ﷺ عن الملائكةِ[١].

ثُـمّ حذَّر اللّهُ عزَّ وجلَّ عِبادَه في ءاياتٍ كثيرةٍ مِن الافتِتانِ بفِتَنِ إبليسَ وأتباعِـه فقال ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ﴾، كأنّه قِيل: أفبَعْدَما وُجِدَ مِن إبليسَ ما وُجِدَ يَتّخِذُهُ بعضُ العِباد ﴿وَذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ أي وَتتّخِذُونَ أولادَه الكَفرةَ مِن الجِـنِّ وأتباعَه الكَفرةَ مِن الإنسِ ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ أي أنصارًا في الدُّنيا ﴿مِن دُونِى﴾ أي أفتُطِيعُونَهم بدَلَ طاعَتِي ﴿وَهُمْ﴾ أي إبليسُ وذُرِّيَّتُه الكفَرةُ ﴿لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾ كما كان إبليسُ عَدُوًّا لأبيكُم ءادمَ ﷺ.

وقَـد خلَقَ اللّهُ عزَّ وجلَّ إبليسَ مِن غيرِ أَبٍ، وجعَلَ له زوجةً، واختلَفَ العلمـاءُ في كيفيّة تَوالُدِ الجِـنّ فقيل: يَتوالَدُون كمـا يَتوالَدُ بَنو ءادمَ، وقيل: يَبِيضُ أحدُهُم فتَنفلِقُ البيضةُ عن جماعةٍ مِن الجِنّ مُكلّفِينَ مُنذُ نَشأتِهم، وقيل غيرُ ذلك، واللّهُ أعلَمُ.

﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ﴾ أي الكافِرينَ ﴿بَدَلًا ۝٥٠﴾ معناهُ قَبُحَ مِنهُم وضعُهم طاعةَ إبليسَ وذُرِّيّتِه مكانَ طاعةِ اللّهِ.

---

(١) قـال الفَخر الرّازي في تفسـيره (١/ ٨٥) وابن عـادِل الحنبليّ في «اللُّباب» (١/ ١١٦): «اتّفَقُوا على أنّ الملائكةَ لا يأكلون ولا يَشرَبُون ولا يَنكِحُون».

ثُـمّ رَدَّ اللهُ عزَّ وجلَّ على الكافرِين الّذين أشرَكُوا بعبادتِه إبليسَ وذُرِّيَّتِه بـأنّ هؤلاءِ لا يَسـتحِقُّون العبادةَ ولا يصِحُّ لغَيرِه عـزّ وجلَّ الاتّصافُ بالإلهيّةِ ولا يحتاجُ عزَّ وجلَّ إلى أحدٍ مِن خَلقِه فقال تعالَى ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ﴾ أي لم يُشـهِدِ اللهُ إبليسَ وذُرِّيّتَه ﴿خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ ولا شاوَرهُم ولا أحدًا مِن خلقِه في إيجادِها فإنّه عزَّ وجلَّ فعّالٌ لِما يُريد ﴿وَلَا﴾ أي ولَم يُشـهِدْهُم ﴿خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ﴾ معناهُ أنّهُ لم يُشـهِد بعضَهُم خَلقَ بَعضٍ مُسـتعِينًا بهِم علَى الإيجادِ بالمَشُورةِ أو غيرِها، حاشاه، ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ﴾ أي الشّياطِينَ الّذين يُضِلُّون النّاس ولا مُتّخِذًا غيرَهُم ﴿عَضُدٗا ٥١﴾ أي أعوانًا، فاللهُ تعالَى لا يحتاجُ إلى أحدٍ ولا أحدَ يَستحِقُّ العِبادةَ غيرَ اللهِ جلَّ وعَزَّ[1].

﴿وَيَوۡمَ﴾ أي واذكُرْ يومَ ﴿يَقُولُ﴾ اللهُ للكُفّار[2] يومَ القِيامةِ توبيخًا لَهُم: ﴿نَادُواْ شُرَكَآءِيَ﴾ أي مُعبُوداتِكم مِن دُوني ﴿ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ﴾ في الدُّنيا

---

(١) يجبُ التَّحذِيرُ مِن كلامٍ كُفريّ جرَى على لِسـانِ بَعـضِ مُدَّعِي العِلمِ وهو قولُهـم عَن الملائكةِ «أعوانُ اللهِ» وقولُهم عن البشَرِ «أبناءُ اللهِ»، وكِلا القولَين كُفرٌ صَريحٌ، فاللهُ تعالَى لا يحتاجُ إلى أحدٍ، ليسَ له مُعينٌ ولا وَزيرٌ ولا زوجةٌ ولا ولَدٌ ولا والدٌ، سُبحانَه وتعالَى عمَّا يقولُ الكافِرُونَ.

(٢) يَسمَعُون كلامَه الّذي لا يُشبِهُ كلامَ المخلُوقِين بلا حَرفٍ ولا صَوتٍ ولا لُغةٍ فَيزدادُونَ عَذابًا إلى عذابِهم، فإنّهم يَفهَمُون مِن كَلامِ اللهِ تعالى أنّه سـاخِطٌ علَيهِم غَـيرُ راضٍ عنهُم، وسَـخَطُه ورِضاهُ بمعنَى إرادتِـه أنْ يَنتقِمَ مِنهُم ويُعذِّبَهُم.

أنّهم شُركائي ليَمنعُوكم مِن عذَابي، وفي ذلكَ تعجيزٌ لهُم، ﴿فَدَعَوۡهُمۡ﴾ أي فاســتَغاثُوا بهِم ﴿فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ﴾ أي فلَــم يجُيبُوهُم ولَم يَنصُروهم إذْ لا يكونُ ذلكَ ﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُم مَّوۡبِقٗا ٥٢﴾ أي جعَلْنا للأوثانِ والشّياطِينِ المعبودةِ مِن دُونِ اللهِ مع مَن عَبدَها مَكانَ هَلاكٍ مُشــترَكًا بينَهُم وهو جهنَّمُ[١]. ورُوي عن ابنِ عبّاسٍ رضي اللهُ عنهُما أنّ المَوْبِقَ اســمُ وادٍ في جهنَّم.

﴿وَرَءَا﴾ أي ولمّــا رأى ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ أي الكافِرون ﴿ٱلنَّارَ﴾ في الآخِرة وعايَنُوها وهي تَتغيَّظُ علَيهِم[٢] ﴿فَظَنُّوٓاْ﴾ أي أَيقَنوا ﴿أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ أي داخِلُوها وواقِعُون فيها لا محَالةَ ﴿وَلَمۡ يَجِدُواْ﴾ ولا يجِدُون ﴿عَنۡهَا﴾ أي عن النّارِ ﴿مَصۡرِفٗا ٥٣﴾ أي مَعدِلًا ينصرِفُون إليه، لأنّها أحاطَتْ بِهم مِن كُلّ جانِبٍ فلا يَقدِرُون على الهرَب.

﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا﴾ أي بَيَّنَ اللهُ عزَّ وجلَّ ﴿فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ﴾ لِمَصلحَتِهم

---

(١) هــذه الأصنامُ ليسَــتْ مُكلَّفةً ومع ذلــكَ فإنّها تُرمَــى في جهنَّم مع مَن يَعبدُها في الدُّنيا إهانةً لهُم وزيادةً في حَسرَتِهم وعَذابِهم، يقولُ اللهُ تعالى خطابًا للكافِرين: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي الأصنام ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ أي حطَبُها ووَقُودُها.

(٢) أي تَــكاد تميَّزُ جهنَّمُ مِن الغَيظِ عــلى الكافرين، وإنّ اللهَ تعالى يخلُق فيها في بَعضِ الأحيانِ كلامًا وحركَةً فتتكلَّم بقُدرتِه عزَّ وجلَّ وتَكاد تَتمزَّقُ وتتفرَّقُ مِن شِدّةِ التغيُّظِ على الكافرِين وهو ما يَزيدُهم عذابًا إلى عذابِهم.

﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ مِن الأمثالِ الّتي يكونُ بِها الاعتِبارُ لِيَتذكَّرُوا ويَتَّعِظُوا، ومِن جُملةِ ذلكَ ما مرَّ في هذه السُّورةِ من مَثَل الرَّجُلَين الغنيّ والفقِيرِ ومثل الحياةِ الدُّنيا، لكن أكثَر النّاسِ أبَوا إلّا الكُفرَ والجُحودَ للحقِّ ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ أي الكافِرُ ﴿أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا ٥٤﴾ أي أنّ جدلَه - يعنِي خُصومَته في الباطِل ومُماراتَه فيه - أكثَرُ مِن جدَلِ كُلِّ شيءٍ[1].

﴿وَمَا مَنَعَ﴾ يا مُحمّدُ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ أي مُشركِي قومِك ﴿أَن يُؤۡمِنُوٓاْ﴾ باللّهِ وبِما جِئتَهُم بِه مِن الحَقِّ ﴿إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ﴾ أي وقتَ مجِيءِ سبَبِ الاهتِداءِ وهو القُرءانُ والرّسولُ ﷺ ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّهُمۡ﴾ أي وما منعَهُم أنْ يَطلُبوا المَغفِرةَ مِن اللّهِ بالإسلامِ[2] ﴿إِلَّآ﴾ انتظارُهم

---

(١) وصحَّح بعضُ المفسِّرينَ كونَ الآيةِ على العُموم فيدَخُل فيها الكافِرُ والمؤمنُ العاصِي الّذي يُجادِلُ كُلٌّ مِنهُما بالباطِل، ومُجادَلةُ الكافِرِ أدخَلُ في الباطِلِ وأوغَلُ، وقال شيخُنا الإمامُ الهرريُّ رحمه اللّه: «هذا معناهُ أنّ أكثَرَ النّاسِ كَثِيرُو الجدَلِ الّذي لا خيرَ فيه».

(٢) أي بالتخلِّي عن الكُفرِ مع النُّطقِ بالشّهادتَين، ولا يَصِحُّ الإيمانُ والإسلامُ مِمّن أرادَ الدُّخولَ فِيهِ بدُونِ النُّطقِ بالشّهادتَين من قادرٍ بلَفظِ «أشهَدُ أن لا إلهَ إلّا اللّه وأشهَدُ أنّ مُحمّدًا رَسولُ اللّهِ» أو ما يُعطِي معناها كَقولِ «لا رَبَّ إلّا اللّه مُحمّدٌ نَبِيُّ اللّهِ»، وكذلكَ لو نطَقَ بما يُعطِي مَعناهُما بغيرِ اللُّغةِ = = العَرَبيّةِ فإنّه يَصِحُّ ولَو كانَ يُحسِنُ العَرَبيّةَ ونَطَقَ بهِما بغَيرِها. فإذا أرادَ الكافِرُ الأصليُّ أو المُرتَدُّ أن يدخُلَ في الإسلامِ فإنّه يَلزَمُه الإقلاعُ عن الكُفرِ والنُّطقُ بالشّهادتَين، فإذا قالَ قبلَ أن يدخُلَ في الإسلامِ «أستَغفِرُ اللّهَ» لا=

أي ﴿أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ العادةُ التي أجراها اللهُ في هَلاكِ الكُفّار السّابقِينَ بعذابِ الاستِئصال، وقد فعلَ كُفّارُ قُريشٍ ذلك استِهزاءً مِنهُم كما أخبرَ اللهُ عنهم بقولِه تعالَى: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [سُورة الأنفال: ٣٢]، أو أنّهم منعَهُم مِن الإيمانِ انتِظارُهُم أنْ ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ أي عذابُ الآخِرة ﴿قُبُلًا ۝٥٥﴾ أي أنواعًا.

تتمّة: كانَ مُشركو مكّةَ يَطلبُون مِن النّبيّ ﷺ طلَباتٍ قبلَ استِعجالهِم العذابَ، مِن ذلكَ أنّهم طلَبوا مِنه أن يجعَلَ لهم الصّفا ذهبًا وأنْ يُنحّي

= يَنفعُه ذلكَ بَل يَزيدُه إثمًا وكُفرًا لأنّه يُكذّبُ اللهَ تَعالَى بطَلَبِ المَغفرةِ وهُو مُقيمٌ علَى الكُفرِ، وما دامَ الكافِرُ غيرَ مُقلعٍ عَن الكُفرِ وغيرَ مُعتقِدٍ لما صَدَرَ مِنه مِنَ الكُفرِ أنّه كُفرٌ لا يَنفَعُه ولَو تَشهّدَ مائةَ مَرّةٍ لأنّه بعدُ مُقيمٌ على الكُفرِ.

وأمّا قولُ نبيِّ اللهِ نُوحٍ عليه السّلامُ لقَومِه الّذِينَ هُم علَى عِبادةِ الأوثانِ: ﴿ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ [سُورة نُوح: ١٠] فمَعناهُ اطلُبُوا من اللهِ المَغفرةَ بالدُّخول في الإسلامِ بتَركِ عِبادةِ الأصنامِ والإيمانِ باللهِ وحدَهُ والإيمانِ بِي أنّي نبيُّ اللهِ، فَطَلَبُ الغُفرانِ هُنا مَعناهُ بالدّخول في الإسلامِ لأنّ الإسلامَ يمحو اللهُ به الكُفرَ، ولَيسَ المُرادُ أن يَقولُوا: «أستغفرُ اللهَ» أو «ربّ اغفِر لي» أو نَحوَ ذَلكَ وهُم بَعدُ لَم يُسلمُوا بالإقلاعِ عَن الكُفرِ والنُّطقِ بالشّهادَتين، وكلُّ موضعٍ ورَد فيه مِثلُ هذا فمعناه الدُّخولُ في الإسلامِ وليسَ مجرّدَ قولِ: «أستغفِرُ اللهَ».

الجبالَ عنهُم فيزرَعوا، فأنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ على نبيِّه ﷺ: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَ﴾[١] [سُورة الإسراء: ٥٩]

ومعناها لم نُرسِل يا محمّدُ الآياتِ الّتي سألَها قومُك إلّا أنْ كان مَن قَبلَهم مِن الأممِ المكذِّبة قد سألُوا مِثلَ سُؤالِهم، فلمّا ءاتاهُم اللهُ ما سألوه كذَّبوا رُسُلَهم ولَم يُصدِّقوا معَ مجيءِ الآياتِ، فعُوجِلُوا بالعُقوبةِ، فلَم نُرسِل إلى قومِك بالآياتِ لأنّا لو أرسَلْنا بها إليهِم فكذَّبوا بِها عجَّلْنا لهُم العَذابَ كما هي سُنّتنا في الأممِ الأوّلِين.

﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ إلى الأُمَم ﴿إِلَّا مُبَشِّرِينَ﴾ بالثّوابِ لِمَن أطاعَ ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ بالعِقابِ لِمَن عصَى[٢] ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ كقَولِهم استِبعادًا: «أبَعثَ اللهُ بشَرًا رَسُولًا؟!»، وقولِهم للرُّسُل: «ما أنتُم إلّا بشَرٌ مِثلُنا» ونحوِ ذلكَ تعنُّتًا مِنهُم ﴿لِيُدۡحِضُواْ﴾ أي يَفعلُون ذلكَ لِيُبطِلُوا ﴿بِهِ﴾ أي بالجدالِ ﴿ٱلۡحَقَّ﴾ ويُزيلُوه ﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ﴾ أي الكافِرُونَ ﴿ءَايَٰتِي﴾ أي الحُجَجَ الّتي احتجَّ اللهُ بها علَيهِم وكتابَه الّذي أنزلَه إليهِم واتّخذُوا ﴿وَمَآ أُنذِرُواْ﴾ بِه مِن العِقابِ ﴿هُزُوٗا ٥٦﴾ أي سخريًّا يَسخَرُون بِها أي الآياتِ والإنذارِ، وقد أخبرَ اللهُ عنهم بقولِه:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ

---

(١) ومعنى ﴿وَمَا مَنَعَنَآ﴾ فالمنعُ هُنا بمعنَى التّركِ، فاللهُ تعالَى لا يُعجِزُه شيءٌ ولا مانعَ له مِن نفاذِ مشيئتِه أحدٌ.

(٢) ويُقال: مُبشِّرينَ مَن ءامَن بالجنّةِ، ومُنذرِين مَن كفَر بالنّار.

جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [سُورة الفُرقان: ٤-٥].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أي لا أحـد أظلم ﴿مِمَّن ذُكِّرَ﴾ أي وُعِظ ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ أي بالقُـرءانِ ﴿فَأَعْرَضَ﴾ أي تولّى ﴿عَنْهَا﴾ وتركَهـا فلَم يتدبَّرْها ولَم يؤمِنْ بها ﴿وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أي ما عَمِلَه مِن الكُفرِ والمَعاصِي مِن قَبلُ ولَم يَتفكَّرْ في عاقبتِها، ثُمّ بيَّن عزَّ وجلّ أنّه هو الّذي منعَ هؤلاءِ مِن الاهتداءِ فقال تعالى ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أي أغطِيةً كثِيرةً ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ أي تمنعُهـم مِن أنْ يَفهَموا القُـرءانَ على وَجهِه ويؤمنوا بـه و جعلْنا ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي ثِقلًا يمنعُهم مِن سَماعِه سَماعَ قَبولٍ وانتِفاع[1]، ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ﴾ يا محمّدُ ﴿إِلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ وهو الإيمانُ والقُرءانُ ﴿فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا

---

(١) قالتِ المعتزلةُ: لا يُمكِن إجراء هذه الآية على ظاهرِها ولا يُمكِن حَملُ الوَقْرِ على أنّ اللهَ تعالى مَنعَهُم عن الإيمانِ، قالوا: يُسـنَدُ الجَعلُ إلى اللهِ تعالى مجازًا لا حقيقةً ويُسنَد ذلكَ إلى العبدِ حقيقةً لأنّه هو الّذي يُضِلُّ نَفسَه وليسَ للهِ في ذلِكَ فِعلٌ، والعِياذُ باللهِ تعالى مِن هذا الكُفرِ الصّريح. ويكفي في الردّ على ما نحَوا إليه أن يقال: ثبتَ بالبُرهانِ العَقليّ السّاطعِ صِحّةُ القولِ بأنّ الجَعلَ مِن اللهِ عزَّ وجلّ خَلْقًا وتكوينًا، فإنّ العَبدَ الّذي أتى بالكُفرِ لو قيل إنّه قادرٌ على مَنعِ ما قدَّره اللهُ له لكانَ مُغالِبًا للهِ على زَعمِ القائِل بذلك، حاشـا لله، وإنْ قيل: قدَّرَ للعَبدِ أن يَخلُقَ الضّلالة في نَفسِـه، فقَد جعَلوا العبدَ شريكًا للهِ في الخالقيّةِ، وقَد أكفرَ اللهُ عزَّ وجلّ القائلين بذلكَ فقال تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [سُورة الرَّعد: ١٦].

﴿أَبَدًا ٥٧﴾ أي لَنْ يحصُلَ الاهتِداءُ لِمَن كتبَ اللّهُ له المَوتَ على الكُفرِ، وهؤلاء قومٌ مخصُوصون قدَّرَ اللّهُ لهم أنْ يكونوا مِن المطبُوعِ على قُلوبِهم بطابَعٍ لا يَزول مُدّةَ حياتِهم فيُختَمُ لهم بعمَلِ أهلِ الشَّقاوةِ فيمُوتونَ على الكُفرِ والعياذُ باللّهِ.

﴿وَرَبُّكَ﴾ يا محمّدُ هو ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ أي البَليغُ المَغفِرةِ الّذي يَعفُو عَن عِبادِه إذا تابُوا إليه، وتوبةُ الكافِرِ مِن كُفرِه تكُون بالرُّجوعِ عنِ الكُفرِ والدُّخولِ في الإسلام بالنُّطق بالشهادتَين، وللمُسلِم العاصِي بالتَّوبة والرَّجوعِ عن الذنب، ويغفِر لبعضِ المسلمين الذنوبَ بمَحضِ رَحمتِه وفضله وإنْ ماتُوا بلا توبةٍ، ولا يَغفِرُ اللّهُ لِمَن ماتَ على الكُفرِ شيئًا مِن كُفرِه أو مَعاصِيه، وهو عزَّ وجلَّ ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ أي المتّصِفُ بالرَّحمةِ ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم﴾ أي لو شاءَ أنْ يُعجِّل للكُفّارِ العُقوبةَ في الدُّنيا ﴿بِمَا كَسَبُوا۟﴾ مِن الذُّنوبِ وأشَدُّها الكُفر ﴿لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ في الدُّنيا معَ ما يُدَّخرُ لهم مِن العذابِ الشّديدِ الأبديّ في الآخِرة، ولكنّه لم يُعَجِّل لهم العُقوبةَ الآنَ ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ﴾ أي أجلٌ يُؤخّر عذابَهم إليه وهو يومُ القيامةِ ﴿لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ﴾ أي مِن دُونِ موعِد ذلكَ العَذاب ﴿مَوْئِلًا ٥٨﴾ أي مَنجًا حِينَ يَجِيءُ الموعِدُ، وفي هذا دليلٌ على أنّ الكافِرين محرُومونَ مِن رحمةِ اللّهِ يومَ القِيامةِ مُطلقًا[1].

(١) الكافِرُ محرومٌ مِن رَحمةِ اللّهِ في الآخِرةِ لقولِه تعالَى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي أهلُ النّارِ يُنادُون أهلَ الجنّةِ - إمّا أنّهم يرونَهم عِيانًا =

ثُمّ أخبرَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ عمّا فيه تهديدٌ لكُفّارِ قُريشٍ فقال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ أي أهلُ قُرى القومِ السّالِفينَ كعادٍ وثمودَ وغيرِهم ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ بعذابِ استئصالٍ في الدُّنيا ﴿لَمَّا ظَلَمُواْ﴾ أي كفَروا ككفرِ أهلِ مكّةَ ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم﴾ أي لهلاكِهم ﴿مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾ أي أجلًا لم يُجاوِزوه، وأتاهُم عذابُ اللهِ في الوقتِ المعلومِ.

ذِكر قصّةِ مُوسَى ويُوشَعَ عليهِما السّلامُ

= مَعَ بُعدِ المَسافةِ بَين الجَنّةِ والنّارِ في وقتٍ مِن الأوقاتِ وإمّا أنهُم يَسمَعون صَوتَهُم - فيَطلُبون مِن الضّيقِ الّذي هُم فيهِ ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [سُورة الأعراف: ٥٠] أي حَرَّمَ علَى الكافِرين الرِّزقَ النّافِعَ والماءَ المُرْوِيَ في الآخِرةِ فلا يَجِدون ماءً بارِدًا مُرويًا إنَّما يشرَبون الحَميمَ وهو الماءُ المُتَناهي في الحَرارةِ وما يَسيلُ مِن جُلودِ أهلِ النّارِ لأنّهُم أعرَضوا عن الإيمانِ باللَّهِ ورَسولِهِ فكَفَروا وماتُوا علَى الكُفرِ فكانَ جَزاؤُهم عذابًا لا ينقطِعُ. وقالَ تعالَى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي أنّ رَحمةَ اللهِ وسِعَتْ في الدُّنيا المُؤمنَ والكافرَ ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أي سأخُصُّ بها في الآخِرةِ الّذين يجتَنِبون الشّركَ وسائرَ أنواعِ الكُفرِ، معناه الّذي ماتُوا على الإيمانِ، وليسَ معنَى ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾ أنّ اللَّهَ يُقدّرُ الآنَ ما يكُونَ في يومِ القِيامةِ أو أنّه يُغيِّرُ مَشيئتَه، حاشا للهِ، فاللَّهُ مُنزَّهٌ عن التغيُّرِ والحُدوثِ في ذاتِه وصِفاتِه، والتغيُّرُ عَلامةُ الحُدوثِ والعَجزِ، واللَّهُ مُنزَّهٌ عن ذلكَ كُلِّه، وقد شاءَ تعالَى في الأزَلِ بمشيئتِه الأزليّةِ كُلَّ ما يكونُ، فقدَّرَ عزَّ وجلَّ «وقضَى أي حكَمَ» أزلًا مَن يكونُ مِن أهلِ الجنّةِ ومَن يكُون مِن أهلِ النّارِ.

ليُعلَم أنّ سيّدَنا موسَى عليه الصّلاة والسّلام نبيٌّ رَسولٌ وأحَدُ أُولي العَزمِ مِن الرُّسلِ(١)، وهو موسَى بنُ عِمرانَ مِن سِبطِ لاوي ابن نبِيّ اللَّهِ يَعقُوبَ إسرائيلَ علَيهِ السّلامُ. وقَد أنزَل اللَّهُ تعالى علَيه التّوراةَ(٢) كِتابًا بالعِبرانيّةِ وأظهَرَ على يدَيه المُعجِزاتِ الباهِراتِ.

وكان لموسَى ﷺ شــابٌّ يَتبَعُه فيتعلَّمُ مِنه ويَخدُمه(٣) واسمُه يُوشَعُ بنُ نُونٍ(٤) مِن سِبطِ نَبِيّ اللَّهِ يُوسفَ علَيهِ السّلامُ، فلمّا نصَرَ اللَّهُ نَبيَّه موسَى

---

(١) معنــاهُ الّذين بلَغُوا الغايةَ في الصَّبرِ، فكُلّ الأنبياءِ عليهِمُ السّــلامُ ذَوُو صَبرٍ واسعٍ إلّا أنّ أُولي العَزمِ قَد بلَغُوا الغايةَ في الصَّبرِ مِن بَينِهم الأنبياءِ، والخَمسةُ الأُوَلُ الوارِدُون علَى التّرتيب في الحَديث المرفوع: محمّدٌ، وإبراهِيمُ، وموسَى، وعِيسَى، ونُوحٌ علَيهِم وعلى إخوانِهم مِن النّبيّينَ صَلاةٌ مِن اللَّهِ وسلامٌ.

(٢) في التّــوراةِ الأصليّةِ الأمرُ بعِبادةِ اللَّه وحدَه وأن لا يُشرَك به شيءٌ، وفيها ذِكرُ ءاخِــرِ الأنبياءِ محمّدٍ ﷺ وأنّ مِن صِفاته أنّه لا يَجزِي السّــيّئةَ بالسّــيّئةِ بل يَعفُو ويَصفَح، وفيها مِثلُ بعضِ ما جاءَ في القرءان؛ فقد أخرَج ابنُ الضُّرَيسِ عن كعبِ الأحبــارِ رضي اللَّه عنه أنّ فاتحةَ التّــوراةِ الأصليّةِ فاتحةُ الأنعام: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾، وفي التَّوراةِ الأصليّة أيضًا حَدُّ الرّجمِ في الزّنَى، وفيها أنّ سيّدنا عيسَى ﷺ يُدفَن عند النّبيّ محمّدٍ ﷺ، ثُمّ حرَّفَتِ اليهودُ التّوراةَ الصّحيحةَ بعدَ ذلكَ فلَم تَعُد موجودةً في الأرضِ بعد ذلك.

(٣) بضمّ الدّالِ وكَسرِها.

(٤) هو يُوشَعُ بنُ نُون مِن نَسلِ يعقوبَ صلَّى اللَّه عليهِما وسلَّم، وهو نبِيٌّ؛ وليسَ يَقينًــا أنّه مدفونٌ في المنيةِ في شَــمالِ لُبنان. وفي خَبرٍ عليه السّــلامُ أنّه =

ﷺ على القِبطِ[(١)] بمِصرَ وأظهَره عليها معَ بَني إسرائيلَ واستقَرُّوا بها بَعدُ أمرِه اللهُ عزَّ وجلَّ أنْ يُذكِّرَ قومَه نِعمةَ اللهِ، فقامَ فيهِم خَطيبًا بخُطبةٍ بَديعةٍ رقَّتْ لها القلوبُ وذرَفَتْ منها العُيون، فجاءَهُ رجلٌ فقال: هل تَعلَمُ أحدًا أعلَم مِنكَ؟ فقال موسَى: لا[(٢)]، فأوحَى اللهُ عزَّ وجلَّ إلى مُوسى ﷺ: بَلَى عَبْدُنا خضِرٌ، أي خضِرٌ أعلَمُ مِن مُوسَى مِن بعضِ النَّواحِي، فهو يَزيدُ علَى موسَى ببعضِ عُلومِ الكُشوفاتِ، أمّا بعِلمِ الشَّريعةِ فمُوسَى ﷺ يَزيدُ علَى الخَضِر، لكِنْ يُقالُ الخَضِرُ أعلَمُ مِن مُوسَى في بعضِ الأشياء التي ليست هي مِن ضروريّات الدِّين عقيدةً وأحكامًا، إنّما هي بعضُ الحِكَم والكشوفات. فعَتَبَ اللهُ علَى مُوسى ﷺ عتبًا لطِيفًا حيث ترَك

= بَعد وفاةِ هارونَ ثُمّ موسَى عليهِما الصّلاةُ والسّلامُ تولّى يُوشَعُ أمرَ بَني إسرائيلَ، وكان أوّلَ الأنبياءِ فيهِم بعدَ مُوسَى، فَدخَل بهِم بلادَ فِلسطِينَ التّي كانوا قد وُعِدوا بها على لِسانِ موسَى ﷺ في التَّوراةِ، وقام يُوشَعُ ﷺ بأَمره إلى وَفاتِه، فلمّا توُفّي تولّى أمرَهُم قُضاةٌ مِنهُم وبقُوا على ذلكَ مُدّةً طويلةً مِن الزَّمَن، وفي هذه الفترةِ دَبَّ إلى بني إسرائيلَ الوَهَن والضَّعفُ وفَشَتْ فيهِم المعاصي والمُنكَرات ودخلَتِ الوثَنيّةُ وعِبادةُ الأوثانِ والأصنامِ في صفُوفِهم فسَلَّط اللهُ تعالى عليهِم الأُممَ القَريبةَ مِنهُم، فغَزاهم العَمالقةُ والآراميُّون والفِلَسطِينيُّون وغيرُهم.

(١) هو قومٌ سكَنُوا مِصرَ وكانُوا أعداءً لبَني إسرائيلَ، قيل: إنّهُم مِن نَسلِ قِبط ابنِ كَنعانَ بنِ حامِ بنِ نُوحٍ ﷺ، وقيل غيرُ ذلكَ.

(٢) وقولُ موسَى ﷺ هذا ليسَ كذِبًا منه حاشاه، بل هو صِدقٌ منه لأنه أجابَ عن ذلك بِناءً على عِلمه، ولم يكُن موسَى يَعرِفُ الخَضِرَ قبل ذلك ولا عَلِمَ به.

الأفضَلَ وهو قولُ «اللَّهُ أعلَمُ» بدل قولِ: «أنا»، فأَوحَى اللَّهُ إلى موسَى: بل أعلَمُ مِنكَ[(١)] عَبدٌ لي عِندَ مَجمَعِ البَحرَين هو الخَضِرُ.

والخَضِرُ نبِيٌّ كريمٌ على الرّاجِح، وليسَ اسمُه الأصليُّ الخَضِرَ بل هو بَلْيَا ابنُ مَلْكَان، سُمِّي الخَضِرَ لأنّه جلَس ذاتَ مرّةٍ علَى فَرْوَةٍ أي أرضٍ فيها يبَسٌ مُجتمِعٌ فإذَا هي تنقَلِبُ مِن خَلفِه خَضراءَ. وكان عليه السّلامُ في أيّامٍ قبلَ موسَى ﷺ، وكان على شريعةٍ يَحكُم بها قَبله، فلمّا بعَث اللَّهُ موسى ﷺ نَبِيًّا رسولًا وجَبَ على النّاس الّذِين في زمَانِه أن يَعمَلوا بشَرِيعةِ موسَى[(٢)].

---

(١) أي في بعضِ الأمورِ كما سبقَ بَيانُه.

(٢) مِن أصَحِّ الأخبارِ القديمةِ في إثباتِ حياةِ الخَضِرِ ﷺ ما رواه يعقوبُ بنُ سفيان في تاريخه مِن طريقِ رِياح بن عَبيدةَ الباهليّ قال: رأيتُ رجُلًا يُماشي عُمرَ بنَ عبدِ العزِيز رضي اللَّه عنه فسأله عنه فقال له عُمر: إنّي لا أراكَ إلّا رجُلًا صالحًا، ذاك أخِي الخَضِرُ بشَّرَني أنّي سَأَلِي وأَعدِلُ. قال الحافظ العسقلانيّ في «الإصابة»: «قلتُ: هذا أصلَحُ إسنادٍ وقَفتُ عليه في هذا البابِ».
ثُمّ ساقَ الحافظُ أسانيدَ أُخرى وقال: «قال أبو عبد الرّحمنِ السُّلَميُّ في تصنِيفه: سَمِعتُ محمّدَ بنَ عبدِ اللَّهِ الرّازيَّ يقول: سمعتُ بِلالًا الخوّاصَ يقول: كنتُ في تِيه بَنِي إسرائيلَ، فإذا رجُلٌ يُماشِيني فتعجَّبتُ، ثم أُلهِمتُ أنّه الخَضِرُ، فقلتُ: بِحَقِّ الحَقِّ مَن أنتَ؟ - (والحَقُّ مِن أسماءِ اللَّه ومعناهُ الواجبُ الوُجودِ الّذي لا يَجوزُ عليه الفَناءُ) - قال: أنا أخُوكَ الخَضِرُ، فقلتُ: ما تقولُ في الشافعيِّ؟ قال: مِن الأبدال. قلتُ: فأحمدُ بنُ حَنبل؟ قال: صِدّيق، =

فلمّا أُوحِي إلى موسَى بشأنِ الخَضِر قال: يا ربِّ فكَيفَ لي بِهِ؟ فأوحَى اللَّهُ إليه أنْ يأخُذَ معه إلى مجمَعِ البحرَين سمَكَةً فيجعَلَها في مِكْتَلٍ[١]، فحَيثُما فُقِدَتِ السّمكةُ فهنالكَ الخَضِرُ.

﴿ وَإِذۡ ﴾ أي واذكُرْ إذ ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾ يُوشَع ﴿لَآ أَبۡرَحُ﴾ أي لا أزالُ أسيرُ ﴿حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾ أي أصِلَ إليه، ومَجمَعُ البحرَين مُلتقَى بَحرَيْ فارِسَ والرُّومِ ممّا يَلِي المَشرِقَ، وقيل غيرُ ذلكَ[٢]، ﴿أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا ٦٠﴾ يعني أو أسِير حتّى أمضِيَ دَهرًا طويلًا في السّيرِ، فغيَّ بأحَدِ الأمرَين[٣]. والحُقبُ في الأصلِ ثَمانُونَ سَنةً، وقيل غيرُ ذلك[٤].

= قلت: فبِشرُ بنُ الحارث؟ قال: لم يُخلِّف بَعدَه مِثلَه، قلت: بأيّ وَسِيلةٍ رأيتُك؟ قال: ببِرِّكَ لأُمِّك».

(١) أي جِرابٍ يسَعُ خَمسةَ عشَرَ صاعًا أي ستّين مُدًّا.

(٢) قيل: هو ذِراعٌ يَخرُج مِن البَحرِ المُحيط مِن الشَّمالِ إلى الجَنُوبِ في أرضِ فارِسَ مِن وَراءِ أذربيجانَ، وقيل: هو عِندَ طَنْجةَ وسَبْتة حيث يجتمِعُ البَحرُ المُحيط والبحرُ الخارِجُ منه مِن دَبُورٍ إلى صَبا، وقيل: هو بحرُ الأندَلُسِ مِن البحرِ المحيط، وقيل: البحر الأزرق، وقيل: مجمَع بحرِ الرُّوم وبحرِ فارِسَ، وقيل: مُلتقى نهرِ الكُرّ (Mtkvari) والرس (Aras) بأرمِينيَة.

(٣) أي جعلَه غايةً لذلك.

(٤) قيل: سبعُون سنةً، وقال ابنُ زَيدٍ: هو الزّمانُ، وأصلُه في اللُّغة وَقتٌ مُبهَمٌ يقَعُ للقَلِيل والكَثِير. وقيل: الحُقب بضمّ الحاء وسُكون القاف ثمانونَ =

فحمَل موسَى عليه السّلامُ خُبزًا وسَمكةً مالِحةً ميّتةً في المِكتَلِ ومضَيا نحوَ مَقصدِهما، ﴿فَلَمَّا بَلَغَا﴾ أي مُوسَى ويُوشَعُ ﴿مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا﴾ أي مُتلقَى ما بَينَ البَحرَين عِندَ صَخرةٍ ﴿نَسِيَا﴾ أيْ تَركا ﴿حُوتَهُمَا﴾ أي السَّمكَةَ في المِكتَلِ ولَم يَتفقَّدَا أمرَها، ثُمّ وَضَعا رأسَيهِما فَناما. وكان

= سنةً وربّما يَزيدُ عليها، أمّا الحُقُب بضمّتَين فهو الدَّهرُ.

وقد جاء الحُقبُ في القرءانِ الكريم في غيرِ هذه الآيَة وذلك في قولِه تعالى حكايةً عن حالِ أهلِ النّارِ في النّارِ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا﴾ [سُورة النَّبأ: ٢٣] أي أحقابًا لا تنتهي بل تتجدَّدُ، وهذا مِن باب استِعمالِ بعضِ أبْنِيةِ جمُوع القِلّة بمعنَى جمعِ الكَثرةِ. فإذا مضَى حُقبٌ وليَهُ حُقبٌ غيرُه مِن غيرِ أن ينقطِعَ العذاب أو يُخفَّفَ عن أحدٍ مِن الكافرين في النّار، وخالَف في ذلك الدّكتور المصريّ يوسف القرضاويّ مُدّعي العالِميّة القائلُ: «ابنُ تَيمية ذهَب الى القَولِ بِفَناءِ النّارِ وأنا أرتاحُ لهذا القَولِ، وهو اللائِقُ بِرحمَةِ الله، والدّليل على فَناءِ النّارِ قولُ الله ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا﴾»، وكلامُ القرضاويّ هذا ككلامِ ابن تيميةَ تكذيبٌ للنُّصوص الشرعيّة الثابتة وردٌّ لإجماعِ الأُمّة وخرُوجٌ عن اعتقادِ المسلمِين. فإنّ علماء أهلِ السُنّة لَم يختلِفُوا في أنّها أحقابٌ مُتجدِّدةٌ على الكافرين في النّار وأنّها سنواتٌ ممتدّةٌ مُتعاقِبةٌ إلى ما لا نهايةَ له، أمّا الّذي اختلَف عُلماء المسلمِين فيه هو تحديدُ الحُقبِ مِن أحقابِ جهنّم – أي بيانُ الحُقبِ الواردِ في هذه الآيةِ على التّحديد لا الحُقبِ الوارد الّذي في قولِ موسى ﷺ – فذهبُوا في تفسيرِ الحُقبِ في قولِ الله: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا﴾ سبعةَ مذاهبَ بسطَها مع أدِلّتها المفسِّرون كالماوَرديّ «النُكَت والعُيون» (٦/ ١٨٦).

عِندَ هذه الصَّخرةِ عينٌ تُسمَّى عينَ الحياةِ لا تُصيبُ شَيئًا مَيِّتًا إلّا حَيِي بإذنِ اللّهِ، فلمّا أصابَ السَّمكةَ رَوحُ الماءِ وبَردُه اضطَربَتْ في المِكتَلِ وهاجَتْ خارجةً مِنه ﴿فَٱتَّخَذَ﴾ الحوتُ أي السَّمكة ﴿سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ سَرَبٗا ٦١﴾ أي مَسلكًا[1].

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ يعني فلمّا أفاقَا مِن نَومِهما انطلَقا يَمشِيانِ بَقيّةَ لَيلتِهما ويَومِهما مُجاوِزَين موضعَ مَجمَعِ البَحرَين الّذي جُعِل مَوعِدًا لِمُلاقاةِ مُوسَى بالخَضِر عليهِما السّلامُ ألقَى اللّهُ علَى موسَى الجوعَ ليكونَ ذلكَ سببًا في تذَكُّرِه الحوتَ فيَرجِعَ في طلَبِه، ﴿قَالَ﴾ موسَى ﴿لِفَتَىٰهُ﴾ يُوشَع ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ أي طَعامَنا الّذي نَتغذَّى بِه وهو السَّمَكةُ ﴿لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا ٦٢﴾ أي تعبًا وشِدَّةً.

﴿قَالَ﴾ يُوشَعُ لِمُوسَى ﴿أَرَءَيۡتَ إِذۡ أَوَيۡنَآ﴾ أي حِينَ نزَلْنا ﴿إِلَى ٱلصَّخۡرَةِ﴾ ونِمْنا عِندَها وهي مَوضِعُ المَوعِد ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ﴾ أي حَملَه، وقيل: إنّ يُوشَع رأَى ما حصَلَ للسَّمكةِ لكنّه قال: لا أُوقِظُ موسَى، ثُمّ نَسِيَ أنْ

---

(١) وحكي فوقَ ذلكَ أقوالٌ أُخَر، منها ما رُوِي أنّ الحوتَ جعَلَ لا يَمَسُّ شيئًا من البَحرِ إلّا يَبِسَ حتّى يكونَ صَخرةً. وقيل: جعَل لا يَسلُك طريقًا إلّا صار الماءُ جامِدًا، وأصحُّ مِن ذلكَ ما رواهُ الشَّيخانِ وأحمدُ وغيرُهم عن أُبَيِّ بنِ كَعبٍ رضي اللّه عنه عن رسولِ اللّه ﷺ أنّه قال: «**فَأَمْسَكَ اللّهُ**» أي حجَز بقُدرَته «**عَنِ الحُوتِ جِرْيَةَ الماءِ، فَصارَ مِثْلَ الطّاقِ**» وأشارَ ﷺ إلى صِفةِ الطّاقِ، والطَّاقُ ما عُطِفَ مِن الأبنيةِ أي جُعِل كالقَوسِ مِن قَنطَرةٍ وكَوّةٍ.

يُخبِرَه فيما بَعدُ ما جرَى. فاعتَذَر يُوشَعُ قائلًا: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ أي فأنساني أنْ أحمِلَ الحوتَ، ففقَداه ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾﴾ أي يُتعجَّبُ مِنه وهو أنَّ أثَرَ الحُوتِ بَقِي إلى حَيث سـار، أو معناهُ فنسِـيتُ أنْ أُخبرَك بخبَرِه فإنّه حَيَ بإذْنِ اللّهِ ووقَعَ في البَحرِ واتَّخذ مَسلكَهُ فيه وإنّه لأَمرٌ عَجَبٌ.

ورُوِي أنّ الأمرَ العَجَب كان في أنّهما قد أكَلا شيئًا مِن السَّمكةِ، فأحْياها اللّهُ عزَّ وجلَّ على ما هي عليه مِن الهيئة.

فلمّا علِـمَ مُوسَى ﷺ أنّ الحُوتَ ذهـبَ في المـاء وبَقِي أثرُه متّصِلًا إلى حَيثُ سارَ في البحر ﴿قَالَ ذَٰلِكَ﴾ أي فَقدُ الحوتِ في الموضع هو ﴿مَا﴾ أي الّذي ﴿كُنَّا نَبْغِ﴾ أي نطلُبه مِن العلامةِ على وُجودِ الخضرِ، ﴿فَٱرْتَدَّا﴾ أي فرجَـعَ موسَى ويُوشَـعُ ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا﴾ أي طريقِهما الّذي جاءَا مِنه يَقُصّانِ ﴿قَصَصًا ﴿٦٤﴾﴾ أي يَتبّعان ءاثارَهما اتّباعًا حتّى بلَغا الصَّخرةَ الّتي كان عِندَها مِن أمرِ الحوتِ ما كانَ.

﴿فَوَجَدَا﴾ أي فلَمّا وصَلا إلى موضِع الصَّخرةِ وجَدا ﴿عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾ هو نَبِيُّ اللّهِ الخضِرُ بَلْيا بنُ مَلْكانَ عليهِ السّلامُ وكُنيَتُه أبو العبّاس جالِسًا في البحرِ أو مُغطًّى بِثَـوبٍ عند ذلكَ الموضِع ﴿ءَاتَيْنَٰهُ﴾ أي وقد أعطَى اللّهُ عزَّ وجلَّ الخَضِرَ عليه السّـلامُ ﴿رَحْمَةً﴾ أي خاصّةً ﴿مِّنْ عِندِنَا﴾ وهي الوحـيُ والنبُوّة، فهو نبيٌّ على القولِ الرّاجح ولَم يزَل حيًّا لا يُقبَضُ إلّا عِندَ رفعِ القـرءانِ في ءاخِرِ الزّمان، ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا﴾ أي مِن قِبَلِنا

﴿عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ وذلـك بأنْ ألهَمَهُ اللَّهُ وأفاضَ على قَلبِه بعُلومٍ لم يُفِض بها على أحدٍ في زمَانِ موسَى ﷺ.

فائدة: العِلمُ اللَّدُنِّيُّ هو عِلمٌ يُلقِيه اللَّهُ في قُلوبِ مَن يشاءُ مِن أوليائِه بلا اكتِسابٍ مِنهُم. قال شيخُنا الإمامُ الهرريّ رحمه الله: «وهو قِسمانِ: منهُ ما يأتي بغير تفكِيرٍ مِن الوليّ المُلهَم ذلكَ، ومنه ما يأتي معَ الاستِدلالِ لكِن يَصحبُه لُطفٌ ربّانيٌّ، هـذا إذا كانَ من غيرِ النبِيّ، أمّا النَّبِيُّ فالعِلمُ الّذي يُعطاهُ من طَريق الوَهبِ هو نوعٌ مِن الوَحيِ كما أُعطِيَ نبيُّ اللَّهِ الخَضِرُ عليه السّلامُ».

ولا يكون العِلمُ اللَّدُنيُّ لِمَن لَم يتمسَّك بالشّريعة، فمَن كان فاسقًا مُحالٌ أنْ يُؤتَى العِلمَ اللَّدُنِّيّ لأنّ اللَّهَ تعالى يقولُ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ﴾ [سُورة البقرة: ٢٨٢]، فمَن اتَّقى اللَّهَ تعالَى بأنْ أدّى الواجباتِ واجتنبَ المُحرَّماتِ ثُمّ زادَ مِن النَّوافِل فترةً مِن الزّمنِ وصارَ مِن أولياءِ اللَّه فإنّ اللَّهَ قد يُفيضَ على قلبِ هذا الوليّ بِما شاءَ مِن العُلومِ اللّدُنيّةِ الوَهبِيّةِ.

ومِن العُلومِ اللَّدُنّيّةِ عِلمُ تَعبير المَنامِ، ولا يكونُ ذلكَ إلّا لِنَبيّ أو وليّ، وكُلُّ الأنبياءِ عليهِمُ السّلامُ قد أُعطُوا تعبِيرَ المَنامِ وليسَ كُلُّ الأولياءِ كذلكَ، أمّا النبيُّ فلا يُخطِئ في تعبير المَنامِ وأمّا الوليُّ فقد يُخطِئ لأنّه غيرُ معصومٍ وقَد لا يَعِي ما يُكاشَف بِه ويُفاضَ عليه أحيانًا؛ فقد صحّ في الحديثِ أنّ سيّدَنا أبا بكرٍ الصدّيق رضي الله عنه عبّر الرُّؤيا لرَجلٍ رءاها وذلكَ حين استأذَنَ النبيَّ ﷺ بالتَّعبير فأَذِنَ، فقال له رسولُ اللَّه

ﷺ: «أَصَبْتَ بَعْضًا وَأَخْطَأْتَ بَعْضًا»(١).

وقد لا يَعِي الوليُّ ما يُلهَمُه ويُكاشَف به فيُخطِئُ التّعبيرَ والبَيانَ، ولذا قال عُلماءُ الأصولِ: «إلهامُ الوَليّ ليسَ بِحُجّةٍ» معناهُ ليسَ مِن أسبابِ العِلمِ القَطعِيّ ليكُونَ حُجّةً(٢)، وقال الإمامُ الجُنَيد بن محمّدٍ النَّهاوَنْديُّ

(١) ومِمّن شُهر عنه أمرُ تعبير المَنامِ في أُمّةِ محمّدٍ ﷺ الإمامُ المُجتهِدُ الوليُّ الزّاهِدُ محمّدُ بن سِيرينَ رضي الله عنه، ولا يُجزَم بأنّ الكِتابَ الموجودَ في التّعبيرِ المنسُوبَ إليه هو مِن تأليفِه، بَينَ بَين. وقد رُوي أنّه قال في شأنِ بَدءِ أمرِه: رأيتُ في المَنامِ كأنّي دخَلتُ الجامعَ، فإذَا أنا بمَشايخَ ثلاثةٍ وشابٍّ حسَنِ الوَجهِ إلى جانبِهم، فقلتُ للشابّ: مَن أنتَ رحِمَك اللهُ؟ قال: أنا يوسُف، قلتُ: فهؤلاءِ المَشْيَخةُ؟ قال: ءابائي إبراهيمُ وإسحاقُ ويَعقوبُ، فقلتُ: عَلِّمني ممّا علّمَك اللهُ، قال: ففَتحَ فاهُ وقال: انظُرْ ماذا ترَى؟ فقلتُ: أرى لِسانَك، ثُمّ فتح فاهُ فقال: انظُرْ ماذا ترى؟ فقلتُ: لَهاتَك، ثُمّ فتح فاهُ فقال: انظُرْ ماذا ترى؟ قلتُ: أرى قَلبَك، فقال: عَبِّر ولا تَخَفْ، فأصبحتُ وما قُصَّت عليَّ رُؤيا إلّا وكأنّي انظر إليها في كَفّي.

(٢) وكذلكَ رُؤيا الوليّ مَنامًا ليسَت كرُؤيا الأنبياءِ، فرُؤيا الأولياءِ بعضُها مُبشِّراتٌ وبَعضُها غيرُ ذلكَ، أمّا الأنبياءُ فرُؤياهُم وَحيٌ يستَحيلُ أنْ تكونَ مِن تَلاعُبِ الشّيطانِ، وإنّهم يَعُون ما يُلقَى إليهِم لأنّهم كما قال ﷺ: «الأَنْبِياءُ تَنامُ أَعْيُنُهُم وَلا تَنامُ قُلُوبُهُم»، وليسَ معناه أنّ رُؤياهُم كلَّها علَى الظّاهِر دائمًا بل إنّها حيثُ تَقتَضِي التّأويلَ فذلكَ الأمرُ، فقد صَحّ في الحديثِ أنّ رَسولَ اللهِ ﷺ رأى في المَنامِ الدجّالَ يَطوفُ حولَ الكَعبةِ وهو ﷺ أخبرَ أنّ الدَّجّالَ لا يَدخل مكّةَ في الحَقيقةِ. وقد قال شيخُنا الإمامُ =

البَغداديُّ سيِّدُ الطائفةِ الصُّوفِيّة رضي الله عنه: «رُبَّما تَخطُرُ لي النُّكتَةُ[١] مِن نُكَتِ القومِ فَلا أَقبَلُها إلّا بِشاهِدَي عَدْلٍ مِن الكِتابِ والسُنّة»[٢]، ويُروى ذلكَ أيضًا عن أبي سُليمانَ الدّارانيّ رضي الله عنه.

فلَو لَم يَكُنِ الخضِرُ عليه السّلامُ نَبيًّا وكان وَليًّا فقط كما قال بعضِ العُلماءِ الّذين حمَلُوا ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ على معنَى «فَعَلتُه عن إلهامٍ كالّذي يُلهَمُه الوليُّ» كيفَ يُصِحُّ أنْ يُقال: إنّه يُنفِّذُ ما فعلَه مِن قَتلِ الولَدِ ونحوِه بمُجرَّدِ الإلهامِ الّذي يجِدُه الأولياء؟! فالصّوابُ أنّ الخضِرَ ﷺ نَبيٌّ غيرُ رسولٍ مِن أنبياءِ اللهِ كما قدَّمْنا، وقد كانَ قَبلَ سيِّدنا موسَى ﷺ واجتمَع به لكن لا يُعرَف وقتُ بَعثِه على التّحديدِ، ولَا يَزالُ حَيًّا إلى الآنَ ثُمّ يموتُ بعدَ رَفعِ القُرءانِ مِن الأَرضِ في ءاخِرِ الزَّمانِ.

فألقَى موسَى ﷺ السّلامَ على الخضِرِ فردَّ عليه الخضِرُ ثُمّ قال: وأنّى بأرضِكَ السّلامُ[٣]؟ قال: أنا موسَى، قال: موسَى بَني إسرائيلَ؟ قال:

= عبدُ الله الهرريُّ رحمه الله: «رُؤْيا الأَنبياءِ صَحِيحةٌ لأنّه ليسَ فِيها غَبَشٌ فِكريٌّ لِصَفاءِ أرواحِهم».

(١) أي الواردُ وهو الإلهامُ.

(٢) يُنظَر: «التَّقرير والتحبير» لابن الهمام (٣/ ١٤)، و«التَّعريفات» للجُرجانيّ (ص/ ٥٧)، و«كَشف الأسرار» للعَلاء البُخاريّ (٣/ ٣٩٢، ٦٣١)، و«تشنيف المَسامع» للزّركشيّ (٣/ ٣٥٩)، و«الغيث الهامع» لابن زُرعة العراقي (٣/ ٨١٩).

(٣) صحَّ ذلكَ في حديث رواهُ البُخاريُّ ومُسلمٌ وغيرُهما، ومعناهُ على ما قالهُ =

نعـم، ثُـمّ ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ﴾ بلُطفٍ وتواضُـع بالغَين ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ أي جِئـتُ لأَصحبَكَ وأتَّبِعَـك ﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ أي عِلمًا ذا رُشـدٍ، والرُّشـدُ والرَّشَـدُ إصابةُ الحَقّ، فطلَب مُوسَى ﷺ مِن الخَضِر ﷺ أنْ يُعلّمَهُ بعضَ ما خصَّه اللهُ به مِن العِلم.

فقال الخضِرُ: يا موسَى، إنّي علَى عِلمٍ عَلَّمَنِيه اللهُ لا تَعلَمُه، وأنتَ علَى عِلمٍ عَلَّمَكَهُ اللهُ لا أَعلَمهُ، فقـال موسَى: هل أتّبِعُك؟ ﴿قَالَ﴾ الخَضِرُ لِمُوسَى بلُطـفٍ ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾﴾ أي في أُمورٍ خاصّة وليسَ معناه أنّه لا صَبر له بالمرّة، فإنّ موسَى عليه السّـلامُ مِن أُولِي العَزمِ مِن الرُّسُـلِ أي الّذيـن بلَغُوا الغايةَ في الصَّبرِ وبذلـكَ مدحَهُم اللهُ عزَّ وجلَّ وخاطبَ نَبيّه محمّـدًا ﷺ فقال: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [سُـورة الأحقاف: ٣٥]، ورسولُ اللهِ محمّدٌ ﷺ أعلَى الأنبياءِ في الصَّبرِ. ووجهُ قولِ الخَضِرِ عليه السّـلامُ ذلكَ لمُوسَى ﷺ أنّ الخَضِرَ يُباشِرُ بعضَ الأُمورِ نظَرًا إلى باطنِها، وأمّا موسَى عليه السّـلامُ فإنّه يَنظُرُ لها بحسَب الظّاهِر، وليسَ معناهُ أنّ سيّدَنا موسَى كان عَصبِيَّ المِزاجِ كما قال بعضُ الزّنادِقة كسيّد قُطب المِصريّ، حاشا لله، فإنّ اللهَ تعالَى ما بعَثَ نَبيًّا إلّا حَليمًا صَبورًا.

ثُمّ أكّدَ الخضِرُ عليه السّلامُ ذلكَ فقال ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾ أي عـلَى أمرٍ لَا تعلَمُه مِن حيثُ الباطِنُ بل تَراهُ فتُنكِرُه بِناءً على الظّاهِر.

= بعضُ الشُّرّاح أنّها كانت بِلادَ كُفرٍ.

﴿ قَالَ ﴾ موسى ﷺ عِندَئِـذٍ ﴿ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا ﴾ عن الإنكارِ والاعتِراضِ ﴿ وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرًا ٦٩ ﴾ أي ولا أُخالِفُك في أمرِك.

فلَـم يَقُل الخَـضِرُ لِمُوسَى «اتّبِعْني»، بل كلّمه بـأدَبٍ وتواضعٍ أيضًا – وكذلك دأبُ الأنبياءِ ﴿ قَالَ ﴾ لـه ﴿ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي ﴾ أي لكِن إنْ صَحِبْتَني فرأيتَ مِنّي شيئًا قد عَلِمتَ أنّه صحِيحٌ إلّا أنّه خَفِيَ عليكَ وَجهُ فِعلي فيه ﴿ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ ﴾ مِن ذلكَ بأنْ تكونَ أنتَ الّذي تُفاتِحُني بالسُّؤالِ وتُراجِعُني ﴿ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرًا ٧٠ ﴾ أي حتّى أكونَ أنا البادئَ بذِكرِ الأمـرِ فأُبيّنَ لك شـأنَه. وفي ذلك دليلٌ على أنّ أفعـالَ الأنبياءِ عليهم السّلامُ لا تَصدُر عن عبثٍ بل يكونُ لَهم فيها حِكمةٌ وغايةٌ حَميدةٌ.

﴿ فَٱنطَلَقَا ﴾ أي مُوسَى والخَضِرُ عليهِما السّلامُ يَمشِيانَ على شاطِئِ البَحرِ فمَرَّت بِهما سَـفِينةٌ، فكَلَّماهُـم أنْ يَحملوهُما، فحَمَلوهُـا معهُم بغَيرِ عِوَضٍ، فجاءَ عُصفورٌ ووقف على حَرْفِ السَّـفِينةِ، فنَقَر نَقْرةً أو نَقْرتَينِ في البَحـرِ، فقال الخَـضِرُ: يا مُوسَى، ما نَقَصَ عِلمِـي وعِلمُك مِن عِلمِ اللّهِ[1] إلّا كنَقْرةِ هذا العُصفورِ في البَحرِ.

فلَفـظُ النَّقصِ هنا ليسَ على ظاهِرِه، قال الحافظُ النّوويُّ في شرحه على مُسلمٍ: «وإنّما معناه أنّ عِلمِي وعِلمَك بالنّسبةِ إلى عِلمِ اللّه تعالى كنِسبةِ ما نَقَرَه هذا العُصفورُ إلى ماءِ البَحرِ، هذا على التّقريبِ إلى الأفهام».

(١) أي بالنِّسبةِ إلى مَعلومِ اللّه.

ومعناهُ بعِبـارةٍ أُخرى: عِلمي وعِلمُك بالنِّسبة إلى عِلم اللّهِ كلَا شيء، فعِلمُ اللّه واحدٌ ليسَ مُتبعِّضًا ولا مُتجزِّئًا ولا يزِيدُ ولا ينقُص، عِلمُه عزَّ وجلَّ صِفةُ كَمالٍ أزليّةٌ أبديّةٌ يَعلَمُ بها سائِر المعلُوماتِ.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ﴾ وصارتْ في وسَطِ البحرِ أخَذَ الخَضِرُ قدُومًا[١] أو فأسًا فـ ﴿خَرَقَهَا﴾ أي شَقَّها بِقَلع لوحٍ أو لَوحَين مِنها مِن جِهةِ الماءِ، فـ ﴿قَالَ﴾ له مُوسَى: قَومٌ حمَلُونا بِغير عِوَضٍ فعمَدْتَ إلى سَفِينَتِهم فخرَقْتها، ﴿أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا﴾ أي ظاهِرُ الأمرِ مِن الخَرقِ أنّه يؤدِّي إلى غرَقِ السّفينةِ وفيها أهلُها ﴿لَقَدۡ جِئۡتَ﴾ أي أتيتَ بما فَعلَتَ ﴿شَيۡـًٔا إِمۡرٗا ٧١﴾ أي عَظِيمًا هائلًا مِن حيثُ الظّاهِرُ، ولَم يَتبيَّنْ لِمُوسَى بعدُ باطِنُ الأمرِ الّذي جاءَهُ الخَضِرُ وحقيقَتُه، مع أنّ سيّدَنا موسَى يُوقِن أنّ فِعلَ سيّدِنا الخَضِرِ كان لِحكمةٍ ولم يكُن عن عبثٍ بل له في فِعلِه ذلكَ تأوُّلٌ حسَنٌ مَقبولٌ.

فلمّا خرَقَها لَم يَدخُلِ الماءُ السَّفِينةَ مِن جِهةِ الخَرقِ ولا أضرَّ بأحدٍ مِن أهلِها فـ ﴿قَالَ﴾ الخَضِرُ لِمُوسَى ﴿أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ٧٢﴾ أي عَن الإنكارِ والاعتِراضِ بناءً على ظاهِرِ الأمرِ الّذي تَراهُ مِنّي مع خَفاءِ باطِنِه عنكَ، فـ ﴿قَالَ﴾ موسَى للخضِرِ ﴿لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ مِن شَرطِك علَيَّ في مُتابعَتي لكَ ﴿وَلَا تُرۡهِقۡنِي﴾ أي ولا تُحمِّلْني ﴿مِنۡ أَمۡرِي﴾ في اتِّباعِكَ ﴿عُسۡرٗا ٧٣﴾ أي مشَقّةً، مَعناه لا تُعَسّر ولا تُضيّقْ علَيَّ في

---

(١) بتشدِيد الدّال وتخفيفِها.

مُتابعتِي لك بل يَسِّرْها عليَّ بالإِغْضاء.

فَقبِلَ الخَضِرُ عُذرَ مُوسَى وخرَجا مِن السَّـفِينةِ ﴿ فَٱنطَلَقَا ﴾ يمشِـيانِ معًا ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ﴾ مرَّا بغِلْمانٍ يَلعبُون ﴿لَقِيَا ﴾ بينَهُم ﴿غُلَٰمٗا ﴾ حسَـنَ الشّكلِ وَضِيءَ الوَجـهِ(١) فأخـذَه الخَضِر وأضجعه ﴿فَقَتَلَهُۥ﴾ ذَبحًا بالسِـكّين أو بِرَضخِ رأسِه بحجَرٍ أو بضَربِ رأسِه بالجِدارِ، وقيل غيرُ ذلكَ.

﴿قَالَ ﴾ موسَى للخَضِر ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسٗا زَكِيَّةَۢ ﴾ أي لم تُذنِبْ بحسَبِ الظّاهِرِ أو نفسًـا لَم تَبلُغِ الحِنثَ(٢) حتّى يُكتبَ عليهـا ذَنبٌ إذْ كانَ الغُلامُ دُونَ البُلوغِ بحسَـبِ الظّاهِرِ، وكان قتلُكَ له ﴿بِغَيْرِ﴾ قصاصٍ في مُقابلِ قَتلٍ لـ ﴿نَفْسٖ ﴾ أُخرَى، ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـٔٗا نُّكْرٗا ٧٤﴾ أي أمرًا عَجِيبًا لا يَظهَرُ لي باطِنُه.

تنبيـه: لا يجـوزُ على نَبِيّ مِن أنبياءِ اللهِ تعالَى أنْ يَقتُلَ نَفسًـا بغَيرِ حَقٍّ، فـاللهُ عزَّ وجلَّ عَصمَ أنبيـاءَهُ عن الكُفر والكبائِـرِ والصّغائِرِ الّتي تدُلّ عـلى دناءةِ النَّفْسِ، كما أنّه تعالَى لا يأمُرُ مُـوسَى أنْ يتّبعَ عَبدًا يَرتكِبُ الفواسِقَ لِيتعلَّم منه، حاشا.

---

(١) اختلَف المفسّرُون في اسمِ الغُلامِ، فقال البخاريّ: يَزعمُون جيسُور، وقيل: حَيسُـور، وقيل: حَبنُون، وقيل: حَسنُون بالسِّين المُهملَة، وقيل: حَلَبْيُور، وقيـل: حنبْيُـور بالنُّون، وقيل غـيرُ ذلكَ، وقـال أبو حيّـان في «البحر» (٧/ ٢٠٨): «ولَم يَرِد شيءٌ مِن ذلكَ في الحَدِيث».

(٢) أي سِنَّ البلُوغ.

وليُحذَر أيضًا مِن ضَلالٍ قَد وقَع فيه بعضُ النّاسِ حِينَ قالُوا عن مُوسَى عليه السّــلامُ إنّه أســاءَ الظَنَّ في الخَضِر، مَعاذَ اللّهِ أنْ يكونَ ذلكَ، فمَن نَسبَ مِثلَ ذلكَ إلى نَبِيّ مِن الأنبياءِ فقَد كفَرَ والعياذُ باللّهِ.

﴿قَالَ﴾ الخَضِرُ لمُوسَى عليهما السّــلامُ ﴿أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ٧٥﴾ أي عَن الإنكارِ والاعتِراضِ بناءً على ظاهِرِ الأمرِ الّذي تَراه مِنّي، ﴿قَالَ﴾ موسَى ﴿إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۭ بَعۡدَهَا﴾ أي بَعدَ هذه المَرّةِ ﴿فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ﴾ أي فارِقْني ﴿قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا ٧٦﴾ أي أُعْذِرت فيما بَيني وبَينَك[1]، معناهُ وجَدْتَ مِن قِبَلِي عُذرًا في مُفارَقتِكَ لي حيثُ خالَفتُكَ ثلاثَ مرّاتٍ.

﴿فَٱنطَلَقَا﴾ يَمشِــيانِ معًــا ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ﴾ هي أنطاكِيــةُ أو أيلةُ أو غيرُهمــا، وكان ذلــكَ بعدَ غُروبِ ﴿ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا﴾ أي سَــألَا أهلَها الضّيافةَ، ومِن وظِيفةِ المُضِيفِ إكرامُ الضَّيفِ بشىءٍ مِن الطّعامِ والشَّرابِ لا سيّما إذا كان مُسافِرًا، ولكنّ أهلَ هذه القَريةِ كانُوا بُخلاءَ ﴿فَأَبَوۡاْ﴾ أي امتنَعُوا مِــن ﴿أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ أي يُنزِلُوهُما علَيهِم ضُيوفًا ﴿فَوَجَدَا﴾ أي مُوسَى والخَضِرُ علَيهِما السّلامُ ﴿فِيهَا﴾ أي في القَريةِ ﴿جِدَارٗا﴾ أي مُرتفِعًا ﴿يُرِيدُ﴾ أي يَكادُ ﴿أَن يَنقَضَّ﴾ أي يَســقُطَ، وهذا مِــن مَجازِ الكَلامِ لأنّ الجِــدارَ لا إرادةَ له، وهو كقولِك: داري تنظُــرُ إلى دارِ فُلانٍ أي تُقابِلُها، وفي القُــرءانِ مِــن ذلكَ أمثِلــةٌ كقَولِه تعالَى: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾ [سُــورة

(١) أي أنتَ عِندي معذورٌ.

يُوسف: ٨٢] أي أهلَ القَريةِ، وقولِه تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾ [سُورة البقرة: ٩٣] أي حُبَّه حتّى خلَصَ ذلكَ إلى قُلوبِهم[١] ﴿فَأَقَامَهُۥ﴾ أي سَوَّى الخَضِرُ عليه السّلامُ الجِدارَ بِيَدِه وردَّه إلى حالِ الاستِقامةِ[٢].

رُوي أنّهما كانَا قد تَعِبَا وحلَّ بهما مِن مشَقّةِ المَسِير ما حلَّ، ومع ذلكَ فإنّ الخضِرَ عليه السّلامُ أقامَ الجِدارَ وسوّاهُ عَن مَيلِه إلى الاعتِدالِ بمَسحةٍ مِن يَدِه الشّريفةِ مِن غيرِ كَثِير جُهدٍ، وذلكَ معجزةٌ له ﷺ.

فلمّا رأى مُوسَى ﷺ ذلكَ وهُما على حالٍ مِن الحاجةِ إلى الطّعامِ وهو متوفِّرٌ عِندَ أهلِ القريةِ البُخلاءِ إلّا أنّهم أبَوْا أنْ يجُودوا بشيءٍ لهُما، ﴿قَالَ﴾ مُوسَى للخَضِرِ: قومٌ أتَيناهُم فلَم يُطعِمُونا ولَم يُضيِّفُونا، وقد عمَدْتَ إلى حائطِهم المائِلِ فسَوَّيتَه ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ﴾ أي لطلَبْتَ على إصلاحِكَ الجِدارَ ﴿أَجْرًا ۝٧٧﴾ أي جَعْلًا لِسَدِّ الحاجةِ الّتي بنا.

فعندئِذٍ ﴿قَالَ﴾ الخَضِرُ لمُوسَى ﴿هَٰذَا﴾ أي الاعتِراضُ الثّالثُ مِنكَ ﴿فِرَاقُ﴾ أي سببُ الفِراقِ ﴿بَيْنِى وَبَيْنِكَ﴾، لكنّ الخضِرَ عليه السّلامُ أراد قَبلَ مفارقةِ موسَى عليه السّلامُ أن يُبيِّنَ له أوجُهَ ما فعلَه في القَضايا

---

(١) الإشرابُ خَلطُ لَونٍ بلَونٍ، يُقال: أبيضُ مُشرَبٌ حُمرةً إذَا كان يُخالِطُه حُمرةٌ.

(٢) قيل: كان ارتفاعُ الجِدارِ مائةَ ذِراعٍ، وعرضُه خمسِين ذِراعًا، وكان سميكًا لكنّه مائلٌ مُشرِفٌ على السُّقوطِ.

الثّلاثة فقال له: ﴿سَأُنَبِّئُكَ﴾ أي سوف أُخبِرُك ﴿بِتَأْوِيلِ﴾ أي ببيانِ وجهِ ﴿مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾ فتنتظِرَ حتّى أبيّنَه لك مِن غيرِ أن تُفاتِحَني بالسُّؤالِ، فإنّه لمّا خفِيَ على موسَى ﷺ باطِنُ أمرِ القضايا الثّلاثةِ سألَهُ عنها.

قال الخَضِرُ ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ﴾ أي التّي خرَقْتُها ولَم تَغرَق ولا أصابَ أحدًا مِن أهلِها أذًى ﴿فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ﴾ قيل كانتْ لعشَرةٍ مِن الإخوة خَمسةٍ ذوي أمراضٍ مُزمِنةٍ لا يَقدِرُون على العمَلِ والكَسبِ وءاخَرين ﴿يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ بتأجيرِها طلَبًا للكَسبِ، وقيل: كانُوا يَعبُرون بالنّاسِ بالأُجرة، وفيه دلِيلٌ علَى أنّ المسكِينَ وإنْ كان يَملِك شيئًا فلا يَزولُ عنه اسمُ المَسكَنة إذَا لم يَقُم ما يَملِكه بكِفايَتِه، قال الخضِرُ عليه السّلامُ ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ أي أجعلَ السّفِينةَ ذاتَ عيبٍ بنَزعِ ما نزَعتُه منها لئلّا تُغصَب منهُم، ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم﴾ أي أمامَهُم ﴿مَّلِكٌ﴾، معناهُ فعَلتُ ذلكَ صِيانةً لسفِينتِهم عن الضَّياع، فإنّه كانَه أمامَهم مَلِكٌ ظالِمٌ - قيل اسمُه الجُلَنْدَى[1] ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ صالحةٍ غيرِ مَعيبة ﴿غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾ مِن أصحابِها، فخرقْتُها - مع كونِها لَم يَلحقْها غرَقٌ - حتّى لا يأخُذَها المَلِكُ الغاصبُ، فإذَا جاوَزُوه أصلَحُوها وانتفعُوا بها، فقَد اندفَع عنهُم بمجرَّد خرقٍ يُمكِنُ إصلاحُه بلَوحٍ أو لوحَينِ ضَررٌ عظِيمٌ وهو فَواتُ السّفِينةِ كُلِّها.

---

(١) وقيل: هَدَدُ بنُ بَدَد، بفَتحِ الهاءِ والباءِ، وقيل: بضّمِ الهاءِ.

ثُـمّ بَيَّن الخضِرُ لموسَى عليهِما السّـلامُ القضيّـةَ الثّانيةَ فقال: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ﴾ أي الّـذي قتلتُـه ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾[١] وكان هـو كافِـرًا ﴿فَخَشِينَآ﴾ أي خشِيَ الخَضِرُ ﴿أَن يُرْهِقَهُمَا﴾ أي أنْ يَغشَى الغُلامُ والِدَيه ويُكلِّفَهُما ﴿طُغْيَٰنًا﴾ أي ضَـلالًا عن الحقِّ ﴿وَكُفْرًا ۝٨٠﴾ فيُزلِقَهُما بسـببِ حُبِّهما له وعَطفِهما عليه، وكانتْ خَشيةُ الخضِرِ ذلكَ لأنّ اللَّه تعـالَى أعلمَه بطَريقِ الوحـيِ أنّه إنْ بلَغَ هذا الغَلامُ فإنّـه يجُرّ أبوَيه إلى الكُفر وهو يموتُ كافِرًا.

قال الخَـضِرُ: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا﴾ أي أنْ يرزُقَهمـا ﴿رَبُّهُمَا﴾ بدلَ هذا الولَدِ ولَدًا ءاخَـرَ ﴿خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾ أي مِن حيثُ الصَّلاحُ والتَّقوى، فإنّ الأوّلَ كان كافِرًا لا صَلاحَ عِندَه، ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا ۝٨١﴾ أي ويكُون البدَلُ من الغلامِ المبدَلِ منه أقربَ عطفًا ورَحمةً بأبوَيهِ بأنْ يَبرَّهُما ويُشـفِقَ علَيهِما. فرُوِي أنّهما رُزِقا بعدَه ولدًا صالحًا أو بِنتًا مُسلِمةً تزوَّجَها نبيٌّ مِن الأنبياءِ.

ثُمّ بَيَّن الخضِرُ لمُوسَى عليهِما السّلامُ القضيّةَ الثّالثةَ فقال ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ﴾ أي الّـذي كانَ مائِلًا فأقمتُهُ بلا أُجرةٍ ﴿فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ أي القريةِ المذكورةِ سـابقًا[٢]، واليَتيمُ مَـن ماتَ أبوُهُ وهو دُونَ البُلوغِ

---

(١) قيل: اسمُ الأبِ كازيرَ أو سلاسَ، واسمُ الأُمّ سَهوَى أو رَحمة.

(٢) في ذلـكَ دليلٌ على أنّ القريةَ تُطلَق عـلى المدينة لا كما زعَمَ المدعُو «علي منصور الكيّالي» مُدَّعِي الحِذقَ في التّفسِيرِ واللُّغةِ وأنّه استطاعَ أن يجِدَ الفرقَ بـين كلمة «**القرية**» وكلمة «**المدينة**» المذكورتَين في القرءانِ الكريمِ وإنْ =

= كانتا في بعضِ السُّـوَر تتعلَّقانِ بِنَفسِ القِصّة، وهذا الكيّالي - كعادتِه في الإتيـانِ بِمـا لَمْ يُنزلِ اللّهُ به مِن سُـلطانٍ - يُقحِم في دِيـنِ اللّهِ ما ليسَ مِنه ويُخرِج منـه ما ثبتَ فيه قطعًا، فمِن جَهلِه ادّعَاؤه أنّه اسـتنبطَ مِن القرءانِ الكريمِ أنّ «القَريةَ» لا تُسمَّى كذلكَ إلّا إذَا كان سُكّانها مِن تشكيلٍ اجتماعيّ مُنسَجم مُؤتَلِف كالنَّسَب الواحد والعَقيدة الواحِدةِ مثلًا، وأنّ «المدِينَة» لا تُسمَّى كذلكَ إلّا إذَا كان يَسكُنُها مُختلِفو النَّسِيج الاجتماعيّ، فزعَمَ بناءً على ذلكَ أنّه لا بُدَّ أن تكونَ المدينةُ تُطلَقُ في اللُّغةِ على ما هو أكبَرُ مِن القَريةِ مِن حيثُ المِساحةُ وعددُ السُكّان، بانيًا قولَه هذا بزعمِه على أنّ اللّهَ تعالَى سمَّى مكّةَ في القرءان الكريم «القَريةَ» وسـمَّى المدينةَ المنوَّرةَ «المدِينَةَ» مع أنّها كانتْ أصغرَ مِن مكّة مِساحةً وأقلَّ سُكّانًا في العصرِ النبَويّ.

وزادَ احتجاجًـا لمقالَتِه مِن خلالِ الاستِشـهاد على زَعمِـه بقولِ اللّهِ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ﴾ وكان مجـيءُ مُوسَى والخضِر عليهما السّـلامُ في أوّل النّهـار، مع قولِـه تعـالى ﴿وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ﴾ مع أنّ القِصّـةَ واحدةٌ والمدينةَ المذكورةَ هي نفسُـها القريـةُ في الآيةِ الأُولى، قال الكيّـاليُّ: «إنّ السِّرّ في هـذا أنّ أهلَ القريةِ كانوا مُجمِعـين على البُخل، فهذا وصفٌ جامعٌ لَهُم يندرِجُون بسببِه في نسيجٍ واحِدٍ اجتماعيًّا فكان مَسكَنُهم يُسـمَّى قَريةً، وأمّا حِين ذُكِرَ وُجـودُ غُلامَين يَتيمَين ووالِدٍ صالحٍ سُـمّيَتْ مَدِينةً لوجودِ تنوُّعٍ سُـكّانيّ حيـثُ اجتمعَ فيها خـيِّرُون وشرِّيرُون». وهذا الاستنباطُ مِن الكيّالي بعِيدٌ مِن اللُّغة غريبٌ عن مَسلَك أهلِ الفَهمِ والعِلم، وليسَ لمقالَتِه منشأٌ سِوى الوَهم، فقَد نصَّ عُلماء التّفسيرِ واللُّغويُّون كالإمام أبي منصورٍ الماتريديّ في تفسـيره (٧/ ١٩٨) وابن عادلٍ الحنبليّ في اللُّباب (١٢/ ٥٤٨) والجوهريّ في الصَّحاح (١٤/ ٨٦) وابن منظورٍ في اللِّسـان =

﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ﴾ أي تحتَ الجِدار ﴿كَنزٌ لَّهُمَا﴾[(١)] مِن ذهَبٍ وفِضّةٍ، والكَنزُ في لُغةِ العربِ كلُّ شىءٍ مجموعٌ بَعضُه علَى بعضٍ، في بَطنِ الأرضِ كانَ أو علَى ظَهرِها[(٢)]، ويُرادُ بِه غيرُه مع التّقييد كأنْ يُقالَ: «عِندَ فُلانٍ

= (٥/ ١٦٣) والمرتضى الزَّبيدي في التّاج (١٤/ ٩٦): على أنَّ القريةَ تُطلقُ على المدينةِ والمدينةَ على القريةِ، وليس الأمرُ متعلِّقًا بكِبَر القريةِ وصِغرِها، وقال السَّمهوديُّ في «وَفاء الوَفا» (١/ ٢٣) نَقلًا عن بعضِ اللُّغويّين: «العربُ تُسمِّي كلَّ مدِينةٍ صَغُرَت أو كَبُرَت قريةً». فبانَ بذلكَ أنّ الضابِطَ الّذي ابتَدعَه عليّ منصور الكيّالي لا أساسَ لـه مِن الصِحّة وخبَطَ في كلامِه خَبطَ عشواءَ وتَفوَّه بما يَشهَد عليه بالجهلِ المركَّب.
وللكيّالي هذا ضلالاتٌ كثيرةٌ مُكذِّبةٌ لشَرعِ اللهِ – والعِياذُ باللهِ – مِنها: نِسبتُه الجزئيّة والتَّركيب إلى الله والعياذُ باللهِ وأنّه نُورٌ بكثافةِ مائة في المائة كمَثَلِ الّذي ليسَ فِيه تَجاويفُ، وإنكارُه وُجودَ السِّحر حقيقةً، وادّعاؤه أنّ أهلَ الكتابِ اليهودَ والنَّصارَى يدخُلون الجنّةَ، وإنكارُه وجودَ يأجوجَ ومأجوجَ، واشتِراطُه لوُقوعِ الطّلاقِ قَبولَ الزَّوجة، وإنكارُه عذابَ القبرِ. وقد ألَّفنا رسالةً في إثباتِ عذابِ القبرِ أسمَيْناها «**شَرحَ الصَّدرِ في إثباتِ عذابِ القَبرِ**» ورَدَدْنا فيها على هذا الكيّالي وأمثالِه مع كَشفِ بعضِ شُبُهاتِهم الّتي ألقَوها في معرِض إنكارِهم عذابَ القبرِ.

(١) قيل: اسمُ أحدِهما أصْرَمَ والآخرِ صُرَيم مُصغَّرًا.

(٢) قال الإمامُ المجتهِدُ اللُّغويّ المُفسِّر محمّد بنُ جَريرٍ الطبَري رضي اللهُ عنه في تفسيره (١٨/ ٩٠) ما نصه: «المعرُوف مِن كَلامِ العرَبِ أنّ الكنزَ اسمٌ لِما يُكنَز مِن مالٍ، وأنّ كُلَّ ما كُنِزَ فقَد وَقَع عليه اسمُ كَنزٍ» اهـ، ومِثلَه =

كَنزُ عِلمٍ»، ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا﴾ أي والِدُ اليَتيمَين ﴿صَلِحًا﴾ مِن الأتقياءِ[١]، وقد حُفِظا بِسببِ صَلاحِ أبِيهِما[٢]، ﴿فَأَرَادَ﴾ أي شاءَ ﴿رَبُّكَ﴾ بِمَشيئتِه

= قال الخليلُ والأزهَريُّ والجوهريُّ وابنُ سِيدَه وابنُ الأثيرِ والفَيُّوميُّ والمرتضَى الزَّبيديُّ مِن أئمّةِ اللُّغة.

فلا يجوزُ تسميةُ اللهِ بالكنزِ، وفي ذلك تشبيهٌ للهِ بخَلقِه والعِياذُ باللهِ تعالَى، وقد نَصَّ الإمامُ الأستاذُ الفَقيه المتكلِّمُ عبدُ القاهرِ بنُ طاهرٍ أبو منصورٍ البغداديُّ في كتابِه «تَفسيرِ الأسماءِ والصِّفات» على تحريمِ تَسميةِ اللهِ بالكَنزِ الأكبَرِ وكَنزِ الفُقَراءِ ونحوِهما.

وقد أورَدَ بعضُ الأفّاكينَ الكذّابين كلامًا افترَوه علَى النّبي ﷺ زاعمين أنّ ذلك حديثٌ قُدسيٌّ أيضًا، وهو قولُهم: «قال ﷺ: قال اللهُ تعالَى: «كُنتُ كَنزًا مَخْفيًّا فأَرَدْتُ أنْ أُعرَفَ فخَلَقْتُ خَلقًا فعَرَّفْتُهم بِي فَعَرفُوني»، فلَعنةُ اللهِ على مَن افترَى ذلكَ الكلام فإنّه كلامٌ مُصادِمٌ لدِين اللهِ فيه ضَلالٌ وكُفرٌ بتَسميةِ اللهِ كَنزًا وذلكَ تشبيهٌ للهِ بخَلقِه كما سبَق، وفيه قولُهم عن اللهِ «المَخْفِيّ» وهو كُفرٌ أيضًا، لأنّ «المَخفيَّ» اسمُ مَفعولٍ أي غيرُه أخفاه، واللهُ تعالى ليس جسمًا ولا حجمًا لطيفًا ولا كثيفًا، فيَستحيلُ أن يكون محجوبًا خلفَ نحوِ سِتارٍ أو أن يكونَ غيرُه أخفاهُ. ثُمّ بالنّظَرِ إلى السَّنَد فهذا الحديث موضوعٌ مكذوبٌ كما ذكَر ذلك الحافظ الزَّركشيُّ والعَسقلانيُّ والسيُوطيُّ والمحدّث المُلّا عليّ القاري والعَجلُونيّ ومحمد درويش الحوت البيروتيّ والفتَّنيّ وأبو المحاسِن القاوُقجيّ وغيرُهم. وقال الشَّمسُ السَّخاوي في «المقاصد الحسنة» (ص/ ٥٢١): «ليسَ مِن كلام النّبيّ ﷺ، ولا يُعرَف له سنَدٌ صحيحٌ ولا ضعيفٌ».

(١) قيل: اسمُه كاشحُ.

(٢) روَى أبو نُعيمٍ في «الحِلية» (٣/ ٢٨٥) عن مُجاهدٍ قال: «إنّ اللهَ تعالَى =

الأزليّة ﴿أَن يَبۡلُغَآ﴾ أي أنْ يُدرِكَ الغُلامانِ ﴿أَشُدَّهُمَا﴾ أي أنْ يعقِلا ببلُوغِهما ﴿وَيَسۡتَخۡرِجَا﴾ إذا بَلَغا وعقَلا راشِدين ﴿كَنزَهُمَا﴾ مِن تحت الجِدارِ ﴿رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ﴾ بِهما أي نِعمةً منه عليهما، فلذلك أمرَ اللَّهُ الخضِرَ بإقامةِ الجِدارِ المائِلِ، لأنّه لو سقَطَ أُخِذَ مِنهُما الكَنزُ، ولكنَّ اللَّهَ حَفِظَ الكنزَ لليتيمَين بمَشيئته وتقديرِه.

وقد بيّن الخضِرُ عليه السّلامُ لِمُوسَى أنّ الّذي فعلَه في القضايا الثّلاثةِ كان بوحيٍ مِن اللَّهِ إليه فقال: ﴿وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ﴾ أي عن رأيي واجتهادي بل فعَلتُه بأمرٍ من اللَّهِ ووَحيٍ مِنه، ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الأجوبةُ عن القضايا الثّلاثةِ ﴿تَأۡوِيلُ﴾ أي تفسيرُ ﴿مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا ٨٢﴾ فتنتظِرَ حتّى أبيّنَه لكَ مِن غيرِ أن تُفاتِحَني بالسُّؤالِ، وليسَ هذا طعنًا من الخضِرِ بموسَى عليهِما السّلامُ بل هو بيانٌ لِما حصَل مِن مُوسَى بِناءً على ظاهِرِ ما رأى، فحاشَى لسيّدِنا الخَضِرِ أنْ يطعَن في سيّدِنا موسَى، وحاشَى لسيّدِنا موسَى أنْ يَطعَن في سيّدِنا الخَضِر.

فائدة: سبقَتِ الإشارةُ إلى أنّ الخضِرَ عليه السّلامُ نبيٌّ على الرّاجِح عند العلماءِ وأنّه حيٌّ، وهو قولُ الأكثَرين مِن المحقِّقين والمُتَّفَقُ علَيه عِند مشايخ الصُّوفيّة الصادقِينَ وأهلِ الصّلاحِ والمعرفةِ بالحكاياتِ في رُؤيتِه والاجتماعِ به، وقال الشيخُ أبو عمرِو بنُ الصّلاحِ رضيَ اللَّهُ عنه في «فتاويه»: «هو حيٌّ عِندَ جماهيرِ العُلَماءِ والصالحِين والعامّة».

= لَيُصلِحُ بِصَلاحِ العَبدِ ولَدَه ووَلَدَ ولَدِه».

وأمّا استِدلالُ من نفَى جوازَ بقائِه حيًّا إلى الآن بقولِ اللَّهِ تعالى لنبيِّه محمّدٍ ﷺ: ﴿ وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ مِّن قَبۡلِكَ ٱلۡخُلۡدَ ﴾ [سُورة الأنبياء: ٣٤] فاستِدلالٌ في غيرِ محلِّه، ذلكَ لأنّ معنَى الآيةِ أنّ اللَّهَ تعالى لم يشأْ لأحدٍ مِن البشَرِ الّذين كانوا قبلَ محمّدٍ ﷺ ولا ممّن يكونُ بعدَه أن يخلُدَ في الدُّنيا فلا يموتَ، ويؤكِّدُ ذلكَ سببُ نُزولِها وهو أنّ الكُفّارَ كانوا يقولون: «إنّ مُحمّدًا سيموتُ»، فأخبرَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ بأنّ محمّدًا ﷺ يموتُ كما يموتُ كُلُّ حيٍّ كانَ قبلَه وبعدَه، وما يُورِدُه المتمسِّكُون بهذه الآيةِ في غيرِ محلِّه يَلزَمُهم عليه مثلُه في الكلامِ على حياةِ سيِّدِنا عيسى عليه الصّلاة والسّلامُ.

ذِكر قِصّةِ ذِي القرنَين رضي الله عنه

ولمّا سأَلَ حُيَيُّ بنُ أخطبَ وكَعبُ بنُ أسَدٍ وأسبعُ وسمَوْءَلُ مِن اليهودِ رسولَ اللَّه ﷺ عن ذِي القرنَين وشأنِه أو سألَهُ عنه بعضُ مُشركِي قُرَيشٍ بإشارةِ اليهودِ أنزَلَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ في ذلك: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ﴾ علَى وجهِ الامتِحانِ ﴿عَن ذِى ٱلۡقَرۡنَيۡنِ﴾ وهو عبدٌ تقيٌّ وليٌّ صالِحٌ مِن البشَرِ، لم يَكُن نبيًّا ولا ملَكًا، هذا هو الصّحيحُ الّذي علَيه الأكثَرُونَ، وقد روَى عبدُ الرزّاق والطَّبَريُّ وغيرُهما عن أبي الطُّفَيلِ الأحْمَسِيّ عن سيّدنا عليّ رضي اللَّه عنه أنّه قال فيه: «كان عَبدًا صالِحًا، أحبَّ اللَّهَ فأحبَّهُ اللَّهُ تعالَى[1]،

(١) أي كان ذُو القرنَين صادِقَ المُعامَلة مع اللَّهِ، يؤدّي ما وجَبَ عليه ويجتنِبُ ما حَرَّم، فأحبَّهُ اللَّهُ أي جعلَه مِن أوليائِه، فمحبَّةُ اللَّهِ عَبدَه ليسَت مِن قَبِيل =

وناصَحَ للّهِ تعالَى(١) فنَصَحَهُ اللّهُ تَعالَى(٢)».

واختُلِف في اسمِ ذي القرنين على أقوالٍ كثيرةٍ مِنها عبدُ اللّهِ، والإسكَندَرُ(٣)، والصَّعبُ مِن حِميَرِ اليمَنِ(٤)، واختارَ الأخيرَ جَماعةٌ مِن أهلِ الحديثِ والتّفسيرِ والتّاريخِ كالطّبَريّ وابن الجَوزيّ والقُرطبيّ، وهو الّذي رجّحه الحافظُ العسقلانيّ في شرحِه على البُخاريّ.

وروَى الشّيخُ أبو سُليمانَ الخطّابيُّ في شرحِه على البخاريّ أنّ رجُلًا مِن حِمْيَرَ أنشَدَ عِندَ ابنِ عبّاسٍ رضي اللّه عنهُما أبياتًا قالها تُبَّعٌ مَلِك حِميَرَ في مَدحِ ذِي القَرنَين وهي:

= الانفعالاتِ النَّفسانيّة والتغيُّرات والإحساسِ وما أشبَهَ ذلكَ مِن صِفاتِ المخلوقِينَ، لأنّ اللّهَ تعالَى لا يُشبِهُ خَلقَه بأيّ مِعنًى مِن المَعانِي، ومثل ذلك يُقال في الرِّضا في حَقّ اللّه فهو على معنى إرادة الإنعام والإكرام والتوفيق إلى الخير.

(١) أي أخلَصَ في العِبادةِ للّهِ تعالَى. وقد جاءَ في الحديثِ الصّحيحِ المرفوع: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**»، قالُوا: لِمَن؟ قال: «للّه» ومعناها الإيمانُ به ونَفيُ الشّركِ عنه والقِيامُ بطَاعتِه واجتِنابُ مَعصِيَتِه والحُبُّ فِيه والبُغضُ فيه وجِهادُ مَن كَفَر به والاعترافُ بنِعمَتِه والشُّكرُ علَيها بعدَمِ استِعمالِها في مَعصيةٍ وبالثَّناءِ علَيه عزَّ وجلَّ.

(٢) أي أرشَدَه اللّهُ إلى الخيرِ وألْهَمَه الإكثارَ مِن الطّاعاتِ والخَيرات.

(٣) هو غيرُ صاحبِ الإسكندريّة اليونانيّ المقدُونيّ.

(٤) وهو اختيارُ شيخِنا الإمامِ المفسِّر الهرريّ رضي اللّه عنه.

قَدْ كانَ ذُو القَرْنَيْنِ جَدِّي مُسْلِمًا ... مَلِكًا عَلا فِي الأَرْضِ غَيْرَ مُفَنَّدِ[١]
بَلَغَ المَشَارِقَ وَالمَغارِبَ يَبْتَغِي ... أَسْبابَ عِلْمٍ مِنْ كَرِيمٍ مُرْشِدِ
فَرَأَى مَآبَ[٢] الشَّمْسِ عِنْدَ غُرُوبِها ... فِي عَيْنِ ذِي خُلْبٍ وَثأْطٍ[٣] حَرْمَدِ[٤]

فقال ابنُ عبّاسٍ رضي الله عنهما لِمَن عِندَه: يا غُلامُ اكتُبْها.

وأمّا سَببُ تَلقِيبه بذِي القَرنَين فمُختلَفٌ فيه على أقوالٍ كثيرةٍ، منها أنّه ملَكَ الأرض ما بينَ قرنَيِ الشَّمسِ[٥] أي ما بينَ المَشرقِ والمَغرِب[٦].

روى ابنُ أبي شَيبةَ والحاكِمُ عن مجاهدٍ رضي الله عنه قال: «لَم يَمِلكِ الأرضَ كُلَّها إلّا أربعةٌ، مُسلِمانِ وكافِرانِ: فأمّا المُسلِمانِ فسُليمانُ بنُ داودَ وذُو القرنَينِ، وأمّا الكافِرانِ فبُخْتَنَصَّرُ[٧]

---

(١) أي غيرَ مُكذَّب.

(٢) أي ذَهاب، ويُروَى: «مَغارَ».

(٣) الخُلْبُ الطِّينُ والحَمْأة، ويقال: الطِّينُ الصُّلْب. والثَّأْطُ الطِّينُ الرِّخْوُ، قاله الخليلُ.

(٤) الحَرمَدُ الطِّينُ الأسوَدُ، قاله الجوهريّ في «الصَّحاح».

(٥) قَرْنا الشَّمسِ جانِبَاها وهُما المَشرِقُ والمَغرِبُ.

(٦) وهو اختيارُ شيخِنا العلّامةِ الهرريّ رحمه الله.

(٧) هو ملِكٌ كافِرٌ كان بأرضِ العراقِ سلَّطَه اللهُ على اليهودِ فقتلَ مِنهُم سبعينَ ألفًا أو أكثرَ وأسرَ عشَراتِ الآلافِ وخرَّب بيتَ المقدِس الّذي كانُوا فيه وشرَّدَ بقيّتَهُم في البِلاد، سلَّطَهُ اللهُ عليهِم انتِقامًا مِنهُم على جرائمِهِم=

والَّذِي حاجَّ إبراهِيمَ في رَبِّه(١)».

وقد أرشَد اللَّه عزَّ وجلَّ نَبيَّه محمّدًا ﷺ إلى ما يُجيبُ به السّائلِين عن شأنِ ذِي القرنَين فقال: ﴿قُلْ﴾ أي لهم يا محمّدُ في الجَوابِ ﴿سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم﴾ أي سأذكُرُ لكُم ﴿مِّنْهُ﴾ أي مِن حالِ ذِي القرنَينِ ﴿ذِكْرًا ٨٣﴾ أي خبَرًا.

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ﴾ أي قد مهَّدَ اللَّهُ الأسبابَ لذِي القرنَين ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وما يَحتاجُه لِفَتحِ المُدنِ ومُحاربةِ الأعداءِ، وأظهرَ اللَّهُ له الكَراماتِ فسَخَّرَ له السَّحابَ تَحملهُ مِن المَشرق إلى المَغرِب فسَهَّل بذلك عليهِ السَّيرَ في الأرضِ، وذلَّلَ لهُ طرُقَها إذا سارَ فيها، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ يَحتاجُ إليه مِن مُهِمّاتِ مُلكِه ومَقاصدِه المتعلّقة بِسُلطانِه ﴿سَبَبًا ٨٤﴾ أي عِلمًا أو قُدرةً أو ءالةً يَتوصَّلُ بها إلى مَقصُودِه.

= وطُغيانِهم ومِنها قتلُ أحَدِ مُلوكِهم نَبِيَّ اللَّه يحيَى ﷺ بقطعِ رأسِه الشَّريفِ المُبارَك، وذلكَ مِن أشَدِّ الكُفرِ، والعياذُ باللَّهِ تعالَى.

(١) هو نُمرُودُ - بالدال المهمَلة والذّال المُعجَمة - حاكِمٌ كافِر ادَّعى الرُّبوبيّةَ وجادلَ إبراهيمَ ﷺ مُعارِضًا له في إضافةِ الرُّبوبيّةِ إلى اللَّهِ تعالَى وحدَه، قال اللَّه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ [سُورة البقرة: ٢٥٨]، وفي الآيةِ دليلٌ صريحٌ مِن أقوى الأدلّةِ على أنّ الشَّمسَ تَجري فتُشرقُ وتَغيبُ وليستْ ثابتةً وهذا هو الموافق لعشراتِ الآياتِ والأحاديثِ والأدلّةِ العقليّةِ.

وقد خرَج ذُو القرنَين مرّةً في الأرضِ يُريدُ بُلوغَ المَغرب ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾ أي سَـلَكَ طريقًا نحوَ مَقصدِه ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ﴾ أي موضِعَ غُروبِ ﴿ٱلشَّمْسِ﴾ مِـن الجهةِ التي وصلَ إليها مِن الأرضِ عِنـدَ مُنتهَى العِمارةِ في ذلكَ الوقـتِ مِن تلكَ الجهة﴿وَجَدَهَا﴾ أي الشَّـمسَ ﴿تَغْرُبُ﴾ أي فيما ترى عَينُ النّاظِر ﴿فِى عَيْنٍ﴾ مِن الماءِ ﴿حَمِئَةٍ﴾ أي ذاتِ طِينٍ أسـود، لا أنّ الشّـمسَ دخلَتْ في الماءِ حقيقةً، بل حقيقتُها أنّها تَغرُب في الجِهةِ خَلفَ تِلكَ العَينِ مِن الماءِ، وهذا يُشـبِهُ ما نُشاهِدُه مِنها عِندَ غُروبِها في أرضٍ مَلْسـاءَ كأنّها تَدخُل فيهـا، ﴿وَوَجَدَ﴾ ذُو القرنَينِ ﴿عِندَهَا﴾ أي عِنـدَ تلكَ العَينِ ﴿قَوْمًا﴾ كافريـن، ﴿قُلْنَا﴾ أي أوحَى اللهُ إلى نبيٍّ في ذلكَ الزّمانِ أن يُخبِرَ ذا القرنَين بالتّخيير في القَومِ[١] بأنْ يقول له: ﴿يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ﴾ أولئكَ الكافرينَ بأنْ تَقتُلَ مَن لم يَدخُل في الإسلام مِنهُم[٢] ﴿وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾﴾ إنْ لم يُؤمِنوا بأنْ تجتهِدَ في اسـتِمالَتِهم إلى الإيمانِ والهُدى، وكان مع ذِي القَرنَين جُندٌ كثيرٌ وعساكِرُ.

---

(١) قـال أبو حيّان في «البحـر المحيط» (٧/ ٢٢١): «ويَبعُـد ما قاله بعض المتأوّلين إنّه إلهامٌ وإلقاءٌ في رُوْعِه (أي قلبه) لأنّ مِثلَ هذا التّخيير لا يكُونُ إلّا بوَحـيٍ.. وقال عليُّ بنُ عِيسَى: المعـنَى: ﴿قُلنا﴾ يا محمّدُ: قالوا: ﴿يا ذا القرنَين﴾، ثُمّ حُذِفَ القولُ الأوّلُ».

(٢) وهـذا دليلٌ على أنّ إقامةَ الحـدُودِ وقتلَ الكافرين على يَـدِ الحاكِم كانَ في الشّرائِع السـابقةِ أيضًا وليسَ خاصًّا بشريعةِ سـيّدنا محمّد ﷺ، وأمرُ إقامة ذلكَ موكُولٌ إلى الأنبياءِ والخُلَفاءِ والمُلوكِ والسّلاطِين ووُلاة الأمورِ.

﴿قَالَ﴾ ذُو القَرنَـينِ ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾ أكبَرَ الظُّلمِ بارتكابِ الكُفرِ والإقامةِ علَيهِ ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ أي نَقتُلُه إنْ لَم يرجِع عن الكُفرِ ويَدخُل في الإسلام ﴿ثُمَّ يُرَدُّ﴾ هذا الكافِرُ المقتولُ يومَ القِيامةِ ﴿إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ أي إلى جزاءِ رَبِّهِ والعَذابِ الّذي أُعِدَّ له هُنالِكَ ﴿فَيُعَذِّبُهُۥ﴾ اللهُ في الآخرةِ ﴿عَذَابًا نُّكْرًا ۝٨٧﴾ أي فظِيعًا بلِيغًا أَلِيمًا أنكرَ أي أشَدَّ بكثِيرٍ مِن العَذابِ بالقَتلِ الّذي حصَل لَهُ في الدُّنيا[1].

﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ﴾ باللهِ ﴿وَعَمِلَ﴾ عمَلًا ﴿صَٰلِحًا﴾ على حسَبِ ما يقتضِيه الإيمانُ[2] ﴿فَلَهُۥ جَزَآءً﴾ على ذلكَ في الآخِرةِ ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ وهي الجنّةُ، ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا﴾ أي مِمّا نأمُرُ بهِ قولًا ﴿يُسْرًا ۝٨٨﴾ أي ذا يُسرٍ وسُهولةٍ، مَعناه لا نأمرُه بأنْ يَتكلَّفَ ما هو شاقٌّ عليه ولكِن بالسَّهلِ المُتيسِّرِ مِن الزَّكاةِ وغيرِ ذلكَ.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ﴾ ذُو القَرنَـينِ ﴿سَبَبًا ۝٨٩﴾ أي سَلَكَ طرِيقًا يُوصِلُه مِن المغرِبِ إلى المَشرِق، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ﴾ أي موضِعَ طُلوعِ ﴿ٱلشَّمْسِ﴾

---

(١) وفي هذا رَدٌّ على الّذين يُبيحُون الكُفرَ وعِبادةَ غيرِ اللهِ والإشراكَ به وتَركَ الإسلامِ واتّباعَ دِينٍ غيرِه مُحتجّين بما يُسمُّونه «الحرِيّة الفرديّة»، فإنّ في الآيةِ دليلًا واضحًا على التّهدِيدِ البليغِ والوَعِيدِ الشّدِيدِ لِمَن ماتَ على الكُفرِ.

(٢) وهذا دليلٌ على أنّ الإيمانَ شَرطٌ لا بُدّ منهُ لِقَبولِ الأعمالِ الصّالِحةِ وليسَ كما يقولُ بعضُ زَنادِقةِ هذا العَصرِ: «إنّ الكافِرَ إذا أحسَنَ إلى النّاسِ يُدخِلُه اللهُ الجنّةَ»، فقَولُهم هذا تكذِيبٌ للنُّصوصِ الشرعِيّةِ.

مِن الجِهةِ التّي وصلَ إلَيها ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ﴾ مِن جِهةِ المَشرِق ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ هُم الزّنجُ[1] أو غيرُهم ﴿لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا﴾ أي مِن دُونِ الشَّمسِ ﴿سِتْرًا ۝٩٠﴾ معناهُ كانوا في أرضٍ ليسَ لَهُم فيها أبنيةٌ تسترُهم من الشَّمسِ وحَرِّها لأنّها أرضٌ لا يَستقِرُّ فيها البِناءُ، فإذَا طلعَتِ الشَّمسُ دخَلُوا في أسرابٍ لهُم في الأرضِ حتّى تَزُولَ أي تَمِيلَ الشَّمسُ عَنهُم إلى جِهةِ المَغرِب، فإذَا زالَتْ خرَجوا إلى مَعايِشِهم.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي كما بلَغَ ذُو القرنَينِ مَغرِبَ الشَّمسِ فقَد بلَغَ مَشرِقَها أو معناهُ أنّهُ حكَم في الزّنجِ كَما حكَم في القَومِ الّذين في جِهة المَغرِبِ، ﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ﴾ أي لدَى ذِي القَرنَين من العَدَدِ والعُدّة والأسبابِ ﴿خُبْرًا ۝٩١﴾ أي قد عَلِمَ اللهُ عزَّ وجلَّ بعِلمِه الأزليّ مِن قَبلِ وُجودِ العالَمِ بأسْرِه ما يكونُ مِن حالِ ذِي القَرنَين وما معَه مِن الجُندِ والعُدّةِ وءالاتِ الحَربِ وغيرِ ذلكَ مِن الأسبابِ الّتي هيّأَها اللهُ تعالى له.

فائدة: معنَى إحاطةِ اللهِ عِلمًا بمخلوقاتِه كونُه عزَّ وجلَّ عَليمًا بها لا يَغِيبُ عَن عِلمِه شىءٌ مِنها، ولا يجوزُ وصفُه عزَّ وجلَّ بأنّه مُحيطٌ بالعالَمِ بِذاتِه لأنّ الإحاطةَ بالشىءِ ذاتًا مِن أوصافِ الخَلقِ، فلا يكونُ معنَى إحاطةِ اللهِ بالأشياءِ عِلمًا أنّه مُحيطٌ بها بذاتِه مِن الجِهاتِ بالتحَيُّزِ والالْتِفافِ والحُلولِ ونحوِ ذلكَ، هذا هو الحَقُّ، ومَن يَعتقِدُ خِلافَ ذلكَ

---

(١) بكَسرِ الزّاي ويجوزُ فتحُها، واختارَ شيخُنا اللُّغويّ الإمامُ الهرريّ رحمه اللهُ الكَسرَ، وهُم جِيلٌ مِن السُّودانِ جَمع أسود.

فإنّه واقِعٌ في أصرحِ الصَّريحِ مِن الكُفر وإنْ زعمَ أنّه مُسلِمٌ، فاللَّهُ عزَّ وجلَّ مُقدَّسٌ عن أنْ يُوصَف بالتحيُّزِ والحُلولِ في جِهةٍ ومَكانٍ، ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [سُورة الشُّورى: ١١].

ثُمّ أخبرَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ عَن مَسيرِ ذي القَرنَين فقال ﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ﴾ أي ذُو القَرنَين ﴿سَبَبًا ٩٢﴾ أي سَلَك طَرِيقًا ثالِثًا ما بَينَ المَشرِقِ والمَغرِب يُوصِلُه إلى جبلَينِ عظِيمَين مُتقابِلَين، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ﴾ أي وصلَ إلى الموضِعِ الواقِع ﴿بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ﴾ أي الجبلَينِ ﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا﴾ أي عِندَ الجبَلَين ﴿قَوۡمٗا﴾ أي أُمّةً مِن البشَرِ مِن التُّركِ أو غيرِهِم ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا ٩٣﴾ أي لا يَفهمُون غيرَ لُغتِهم أو أنّهُم يَفهمُون غيرَها بمَشَقّةٍ وصُعوبةٍ، وكان يَخرُج على هؤلاءِ قومُ يأجوجَ ومأجوجَ فيَعِيثُون فيهم فَسادًا ويأكلُون الحرثَ والنّاسَ ثُمّ يُعودُون.

ويأجُوجُ ومأجوجُ قبِيلَتان مِن البشَرِ كُلُّهم كُفّارٌ، يُقال إنّهُم مِن نَسلِ ذُرّيّةِ يافِثَ ابنِ سيّدِنا نُوحٍ ﷺ، ومِن عَجِيبِ شأنِهم أنّه لا يمُوت أحَدُهم حتّى يَلِدَ ألفًا مِن صُلْبِه أو أكثرَ كما جاءَ في الحديثِ عنِ النَّبيّ ﷺ، ومِن كَثرةِ عدَدِهم يكونُ البشَرُ يومَ القيامةِ بالنِّسبةِ لهُم كواحِدٍ مِن ألفٍ عددًا، وقَد أخفَى اللَّهُ عزَّ وجلَّ عنّا مكانَهُم وكيفَ يَعِيشُون وماذا يأكلُون وتفاصيلَ هيئتِهم، فلا يَثبُت ما يُروَى فيهِم مِن أنَّهُم قِصارُ القامةِ وءاذانُهم طوِيلةٌ يَنامُون على واحدةٍ ويَتغطَّون بالأُخرى وإنْ كان ذلكَ في بعضِ كُتبِ التّارِيخ، وكذا لا يصحُّ ما يقولُه بعضُ جُهّال

العَصرِ مِن أنّهم أهلُ الصِّين(١).

والثّابِتُ في شأنِهم أنّهم محبُوسون في مَكانٍ مِن الأرضِ مَخفيٍّ عنّا، ثمّ يَخرجُون بعدَ نُزولِ سيِّدِنا عيسَى ﷺ مِن السَّماءِ إلى الأرضِ بِمُدّةٍ في ءاخِرِ الزَّمانِ، وتَحصُل في أيّامِهم مَجاعةٌ في الأرضِ فيمرُّون علَى بُحَيرةِ طبَرِيّةَ(٢) في فِلَسطِينَ فيَشرَبُونها فيَمرُّ ءاخِرُهم فيقولُ: كان هنا ماءٌ، ولا يَتجرَّأُ المُسلِمُون لِحَربِهم، فيَذهَبُ سَيِّدُنا عِيسَى ﷺ والمؤمِنُون إلى

---

(١) أخرَجَ أبو داودَ الطَّيالِسيّ في «المُسنَد» عن عبدِ الله بن عمرٍو عن النّبيّ ﷺ قال: «**إنَّ يَأجُوجَ ومَأجُوجَ مِنْ وَلَدِ ءادَمَ، وإنَّهُمْ لَوْ أُرْسِلُوا عَلَى النّاسِ لأَفْسَدُوا عَلَيْهِمْ مَعايِشَهُمْ، ولَنْ يَمُوتَ مِنْهُمْ أَحَدٌ إلّا تَرَكَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ أَلْفًا فَصاعِدًا، وإنَّ مِنْ وَرائِهِمْ ثَلاثَ أُمَمٍ: تاوِيلَ، وتارِيسَ ومَنْسَكَ**».
قال شيخُنا الإمام الهرريُّ رحمه الله: «مَنسَكُ وتاوِيلُ وتارِيسُ كُفّارٌ، هؤلاءِ لَم يطَّلِع البشَرُ عليهِم إلى الآنَ، الّذي ورَدَ في الحديثِ ذِكرُ وُجودِهم، أمّا أنّهم يَظهَرُون أيّامَ الدجّالِ أو بعدَه فلَم يَرِد، ما ورَد أنّهم يظهَرُون إنّما الرَّسُول ﷺ قال: إنّهم وَراءَ يأجُوجَ ومأجُوج».

(٢) قالَ القَلْقَشَنديّ في «صُبح الأعشَى» (٤/ ١٥٦): «طبَرِيّةُ بفَتحِ الطاءِ المُهمَلةِ والباءِ الموحَّدةِ وكَسرِ الرّاءِ المُهمَلة وفتحِ الياءِ المُثنّاة تحتُ وتشديدِها وهاءٍ في الآخِر، وهي مدينةٌ مِن جُندِ الأُردُنِّ بناها «طبَرِيُّون» أحَدُ مُلوكِ اليونانِ البَطالِسةِ فعُرِفَت به ثُمّ عُرِّبَت طبَرِيّة، والنِّسبةُ إليها طبَرانِيٌّ للفَرقِ بينَها وبَين طَبَرِسْتانَ مِن نَواحِي بلادِ الشَّرقِ حيثُ يُنسَبُ إليها طَبَرِيٌّ». واليُونانُ البَطالِسةُ ذُرِيّةُ بَطْليموسَ المَقدُونِيّ ويُقال لهُم البَطالِمةُ أيضًا.

جبَلِ الطُّورِ بسيناءَ فيَدعونَ اللَّهَ عزَّ وجلَّ ويَستغِيثُون بِهِ مِنهُم ويَتضرَّعُون إليهِ أنْ يُهلِكَهُم، فيُرسِلُ اللَّهُ علَى يأجوجَ ومأجوجَ نَغَفًا[1] يدخُل رقَبةَ كُلِّ واحِدٍ مِنهم فيَرمِيه مَيتًا، ثُمّ يُرسلُ اللَّهُ تعالَى طيُورًا فتَحمِلُ جُثَثَهُم وتَرمِيهم فِي البَحرِ ثُمّ يَنزلُ مطَرٌ يَجرِفُ ءاثارَهُم إلى البحرِ.

وقد ورَد أنّ الرَّسُولَ ﷺ مرَّ بهم ليلةَ الإسراء والمِعراجِ فبَلَّغَهم الدَّعوةَ فأبَوا ولَم يَزالُوا يَتداوَلُون الخبَرَ أنّهُ جاءَهُم رجُلٌ اسمُه محَمّدٌ وأخبَرهُم أنّ اللَّهَ واحِدٌ لا يَجُوزُ أنْ يُعبَد غيرُه، ولكنّهم أبَوا إلّا الكُفرَ فلا يُسلِمُون بل يَمُوتونَ علَى الكُفرِ جميعُهم.

تنبيه: ما يُروَى مِن أنّ سيّدنا ءادمَ ﷺ احتلَم ذاتَ يومٍ وامتزَج مَنِيُّه بالتُّرابِ فلمّا انتبَه مِن النَّومِ أسِفَ على ذلكَ فخرَجَ مِن ذلكَ المَزِيج يأجوجُ ومأجوجُ فهو كلامٌ باطِلٌ لا يصِحُّ، وقد ردَّه القُرطبيّ في تفسيرِه والنوويّ في شرحِه على مُسلِم وبدرُ الدّين العَينِيّ والملّا الكوراني وابن حجَر العَسقلانيّ في شروحِهم على البخاريّ وقالوا: «بدِلالةِ أنّ الأنبياءَ لا يَحتلِمون»، فقد نزَّهَهُم اللَّهُ عزَّ وجلَّ وصانَهُم عن أن يَتلاعَبَ بهِم الشَّيطان في يقظَتِهم كَما في نَومِهم، هذا معَ أنّ أبدانَهُم تنامُ وقلُوبُهم الشَّريفةُ لا تَنامُ. وأمّا ما ذهَب إليه بعضُ الفقهاءِ كالشّهاب الرّمليّ والمُلّا عليّ القاري والشَّبراملّسيّ مِن أنّه يجوزُ على الأنبياءِ الاحتلامُ بمعنَى نُزولِ المنِيّ مِنهُم أثناءَ النَّومِ من غيرِ تلاعُبٍ مِن الشَّيطانِ بل بسبَبِ فَيضِ

(١) هو دُودٌ يكُون في أنوفِ الإبِل والغنَم، قاله ابنُ الأثير في «النّهاية» (٥/ ٨٧).

البدَنِ فهو مَبنيٌّ على أنّ ذلك مِن العَوارِض البشَرِيّة الّتي لا تقدَح فِي النَبيّ ولا تَحُطُّ مِن مَرتَبتِه العَلِيّة فلا يَستحِيلُ ذلكَ علَيهِم، فالكُلُّ مُتَّفِقٌ على أنّ الشيطانَ لا يَتلاعَبُ بِهِم كما يَتلاعَب بعامّة النّاس في المَنامِ.

ومِــن جُملةِ ما مَكَّــنَ اللّهُ ذا القَرنَينِ مِنهُ أنّه فَهِمَ لُغَــةَ القومِ الّذين كانُوا يَلقَــون مِن يأجوجَ ومأجوجَ أذًى كثِيرًا مع كونِ أولئك القَومِ لا يَفهَمُون لُغةَ غيرِهم، وقد عَرَفُوا أنّه ذُو القَرنَين الّذي ملَكَ الأرضَ فشَكَوا إليه ما يجِدُون مِن يأجوجَ ومأجــوجَ الكافرين ﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي في أرضِنــا بالقتــلِ والتَّخريب وإتــلافِ الزُّروع ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ﴾ أي جَعْلًا وأجرًا مِن الأموالِ ﴿أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾﴾ أي حاجِــزًا فلا يَصِلُون إلَينــا، ﴿قَالَ﴾ لهُم ذُو القرنَين ﴿مَا مَكَّنِّي﴾ أي ما جعلَني ﴿فِيهِ رَبِّي﴾ مَكِينًا قادرًا من المُلكِ والمالِ وسائر الأســبابِ ﴿خَيْرٌ﴾ أي أفضَلُ ممّا تُريدُون جَعلَه لِي مِن الجَعلِ والخَراج، ﴿فَأَعِينُونِي﴾ أي لا أريدُ مِنكم المالَ ولكــن أَعِينُونِي ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أي بعُمّالٍ وصُنّاعٍ يُحسِنُونَ البِناءَ وبآلاتٍ لا بُدّ منها في البِناءِ ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ﴾ أي وبَينَ يأجوجَ ومأجوجَ ﴿رَدْمًا ﴿٩٥﴾﴾ أي سَدًّا وحاجِزًا حصِينًا، والرَّدمُ أكبرُ مِن السَدِّ المعهُودِ وأوثَقُ منه.

قالــوا: وما تِلكَ الآلاتُ؟ قــال: ﴿ءَاتُونِي﴾ أي أعطُوني ﴿زُبَرَ﴾ أي قِطَعَ ﴿ٱلْحَدِيدِ﴾ الكبِيرة، فأتَوه بها وبالحطَبِ، فحفَر لأَجلِ الأَساسِ حتّى بلَغ الماءَ ثُمّ جعَلَ الأساسَ مِن الصَّخرِ والنُّحاسِ المُذابِ، ثُمّ صنعَ البُنيانَ

مِن قِطَعِ الحَدِيدِ وبينها الحطَبُ والفحمُ، وهكذا جعَلَ يَبنيه شيئًا فشيئًا ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ﴾ أي جعَلَ ما بينَ ناحِيَتي الجبلَينِ مِن البُنْيان مُساوِيًا لهُما في السَّمْكِ سادًّا ما بينَهُما إلى أعلاهُما أرادَ تَحمِيةَ الحَدِيدِ ليَخلِطَه بالنُّحاسِ المُذابِ فـ ﴿قَالَ﴾ للعَمَلةِ ﴿ٱنفُخُواْۖ﴾ أي بالمَنافِخ في النّارِ الّتي تَخلَّلتِ الحَدِيدَ المَبنِيَّ، فنفَخُوا فيه، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ﴾ أي صيَّرَ الحدِيدَ المنفُوخَ فيه﴿نَارٗا﴾ أي كالنّارِ في الحَرارةِ والهيئةِ ﴿قَالَ﴾ للعمَلةِ المُتولِّينَ أمرَ النُّحاسِ مِن إذابةٍ ونَحوِها ﴿ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا ٩٦﴾ أي أَعطُوني نُحاسًا مُذابًا أُفرِغْهُ علَى الحدِيدِ المُحمَّى، فجعلَتِ النّارُ تأكُلُ الحطَبَ وجعَلَ النُّحاسُ يَسِيلُ بَينَ قِطعِ الحَدِيدِ حتَّى صارَا كالشيءِ الواحِدِ، وأسنَدَ ذُو القرنَينِ أخْذَ النُّحاسِ وإفراغَه إلى نَفسِه لأنَّهُ الآمِرُ بذلكَ، فهو على طريقةِ: «بنَى الأميرُ البَلْدةَ».

ولَم يكُنِ الصَّبُّ مَرَّةً واحدةً فوقَ قِطَعِ الحدِيدِ الكَبِيرةِ بل كان ذُو القَرنَين يأمُر بوضعِ طاقةٍ مِن الزُّبَرِ والحجارةِ ثُمّ يُوقَد علَيها ويُنفَخُ فِيها حتّى تَحْمَى، ثُمّ يُؤتَى بالنُّحاسِ المُذابِ فيُفرَغُ على تِلكَ الطاقةِ المُنضَّدة[1] مِن الحدِيدِ، فإذَا الْتأمَ المجموعُ واشتَدَّ استَأنَفُوا رَصْفَ طاقةٍ أخرَى وهكذا إلى أنْ تَمَّ العمَلُ وصارَ جبلًا صَلْدًا[2] متِينًا ﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ﴾ أي فَما استطاعَ يأجوجُ ومأجوجُ بَعدَ أن حُجِزوا خلفَه ﴿أَن يَظۡهَرُوهُ﴾

(١) أي المُؤلَّفة.

(٢) أي أملَس صُلبًا.

أي أنْ يَعْلُوا السَّـدَّ فيَصِيرُوا فوقَه ويَنزِلُوا مِنه إلى النّاسِ بسَـبَبِ عُلُوِّه ومَلاسَـتِه ﴿وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾ أي ولا استطاعُوا أن يَخرِقُوه مِن أسفَلِه لِسَمْكِه وشِدَّتِه وصَلابَتِه.

ولمّـا فرَغ ذو القَرنَين مِـن بِناء الرَّدم ﴿قَالَ هَٰذَا﴾ أي الـرَّدمُ والقُوّةُ على إنشـائِه والانتِفاعُ بِه في دَفع ضَرَرِ يأجـوجَ ومأجوج ﴿رَحْمَةٌ﴾ أي نِعمةٌ ﴿مِّن رَّبِّى﴾ علَى عِبـادِه ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى﴾ أي دَنا واقترَبَ وقتُ ما وعَدَ به رَبِّي أن يكونَ وهو يومُ القيامةِ وظهَرَتْ علاماتُ دُنُوِّ السّاعةِ الكُبرَى كنُزولِ سـيِّدنا عيسى ﷺ مِن السَّـماءِ وخُروجِ الدَجّـالِ وبُروزِ يأجوجَ ومأجوجَ ﴿جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ﴾ أي صَيَّرَ اللهُ الرَّدْمَ أرضًا مَلْسـاءَ مُسـتويةً ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى﴾ الّـذي وعدَ به عِبادَه مِن دَكِّ الـرَّدْمِ وخُروجِ يأجوجَ ومأجوجَ على النّاسِ قبلَ قِيامِ السّاعةِ وغيرِ ذلك ﴿حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾ كائنًا لا مَحالَةَ، فإنّ اللهَ لا يُخلِفُ المِيعادَ ولا يقَعُ في مُلكِه إلّا ما يشاءُ.

روَى ابنُ حِبّانَ في صحيحِه وأحمدُ في المُسنَدِ والتِّرمذيُّ وغيرُهم عن أبي هُرَيرةَ رضي اللهُ عنه عن رَسـولِ اللهِ ﷺ قال في شأنِ يأجوجَ ومأجوجَ: **«يَحْفِرُونَ فِي كُلِّ يَوْمٍ حَتَّى يَكادُوا أَنْ يَرَوْا شُـعاعَ الشَّـمْسِ فَيَقُولُونَ: نَرْجِعُ إِلَيْهِ غَدًا، فَيَرْجِعُونَ وَهُوَ أَشَـدُّ ما كانَ، حَتَّى إذا بَلَغَتْ مُدَّتُهُمْ وَأَرادَ اللهُ أَنْ يَبْعَثَهُمْ عَلَى النّاسِ[(١)] قالُوا: نَرْجِعُ إِلَيْهِ غَدًا إِنْ شـاءَ اللهُ،**

---

(١) معناهُ حانَ وَقتُ حُدوثِ ما أرادَ اللهُ في الأزلِ بمشيئتِه الأزليّة أنْ يَحدُثَ في الوقـتِ المَعلُومِ، وليس معناهُ أنّ اللهَ يَشـاءُ حُدوثَ هذا في ذلكَ الوقتِ =

فيَرْجِعُونَ إِلَيْهِ كَهَيْئَةِ ما تَرَكُوهُ فَيَحْفِرُونَهُ فَيَخْرُجُونَ عَلَى النّاسِ».

ثُمّ ذكَر اللّهُ عزَّ وجلَّ بعضَ ما يكُون مِن حالِ الخَلقِ أوّلَ القِيامةِ فقال: ﴿وَتَرَكْنَا﴾ أي وجعَلْنا ﴿بَعْضَهُمْ﴾ يَعنِي الإنسَ والجِنَّ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يومَ القِيامةِ ﴿يَمُوجُ﴾ أي يَختلِطُ ﴿فِي بَعْضٍ﴾ لِكَثرتِهم، فيضْطرِبُ الكُفّارُ وعُصاةُ المؤمِنينَ ويدخُل بعضُهم في بعضٍ كدُخولِ المَوجِ في المَوجِ حيارَى مَهمُومِين مَغمُومِينَ مَكرُوبِينَ خائفِينَ كُلٌّ علَى حسَبِ حالِه، ﴿وَنُفِخَ﴾ أي ويَأمُر اللّهُ إسرافِيلَ عليه السّلامُ قَبل بَعثِ الخَلقِ بأنْ يَنفُخَ النَّفْخةَ الثّانيةَ ﴿فِي الصُّورِ﴾ أي القَرنِ لِلبَعثِ ﴿فَجَمَعْنَاهُمْ﴾ أي الخَلائقَ ﴿جَمْعًا ﴿٩٩﴾﴾ في أرضٍ واحدةٍ للحِسابِ والجَزاء. ﴿وَعَرَضْنَا﴾ أي أظهَرْنا وأبرَزْنا ﴿جَهَنَّمَ﴾ بإخراجِ جُزءٍ منها مُتّصِلٍ بها ﴿يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾﴾ فظيعًا هائلًا لِيُشاهِدُوها عِيانًا، وتأتِي بذلكَ الجزءِ مِن جهنَّمَ الملائكةُ فتُبرِزُها للكافرينَ ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ﴾ في الدُّنيا ﴿فِي غِطَاءٍ﴾ أي غِشاءٍ وسِتر ﴿عَن ذِكْرِي﴾ أي عن القُرءانِ إذْ كانُوا عُمْيًا عن الحَقّ ﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾﴾ أي وكانُوا صُمًّا عَن الحَقّ بمعنى أنّهم وإنْ سَمِعَتْ ءاذانُهم الكلامَ الحَقَّ فلَم يَكُونوا يَسمَعُونَه سَماعَ قَبولٍ بسببِ غَلَبةِ الشَّقاوةِ علَيهِم[1].

= الآنَ، فمشيئةُ اللهِ تعالى كسائرِ صفاتِه أزليّةٌ أبديّةٌ ليستْ مُقيَّدةً بزمانٍ ولا يطرأُ عليها تطوُّرٌ ولا تغيُّرٌ ولا تَحدُث شيئًا بعدَ شيءٍ لأنّها صِفاتٌ كاملةٌ.

(١) أي بسبَبِ أنّه قُدِّرَ لهُم أنْ لا يَهتَدُوا.

روى مُسلِمٌ والتّرمذيُّ وغيرُهما عن عبدِ اللّهِ بن عبّاسٍ رضي الله عنهما أنّ رسولَ اللّه ﷺ قال: «يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ(١) يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ(٢)، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا»(٣)، وفي ذلك فُسّر قولُه تعالَى: ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾ [الفجر: ٢٣]، فحِينَ يَراها الكافِرُ يزدادُ ندمًا وتحسُّرًا ويقولُ: ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ [الفجر: ٢٤] أي يا لَيتَني ءامنتُ وقدّمتُ العملَ الصّالِحَ في الدُّنيا لحياتي في الآخِرة، ولكن لا يَدفَعُ عنه النّدَمُ يومئذٍ مِن العذابِ شيئًا، وقد سمَّى اللّهُ عزَّ وجلَّ هذا اليوم يَومَ الحسرةِ فقال: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ [سُورة مريم: ٣٩]، وانقضاؤُه كما قالَ تعالَى: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [سُورة الشُّورى: ٧].

ثُمّ برَّأ اللّهُ عزَّ وجلَّ عِيسَى ﷺ والملائكةَ وعُزَيرًا رضي الله عنهُ مِن عِبادةِ الكَفَرةِ لَهُم فقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَحَسِبَ﴾ أي أفظنَّ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ بِي ﴿أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى﴾ عِيسَى والملائكةَ وعُزَيرًا ﴿مِن دُونِىٓ﴾ أي سِواي ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ أي أيَزعمونَهم أربابًا لَهُم مع أنّ اللّهَ خالِقُ كُلِّ شيءٍ، كلّا، فلا يَنفعُهم أنْ يتَّخِذُوا عبادًا للّهِ أولياءَ لَهُم مِن دُونه، ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا﴾ أي

---

(١) أي بجُزءٍ منها مُتّصِلٍ بها.

(٢) أي سِلسلةٍ تُربَطُ بها ليستْ كسلاسِلِ الدُّنيا.

(٣) والجُملةُ أربعةُ مِلياراتٍ وتِسعُمائةِ مَليُون ملَكٍ.

هَيّأنا[١] ﴿جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ المشركِينَ مِنهم وغيرِ المُشركِين ﴿نُزُلًا ﴿١٠٢﴾﴾ أي مَنزِلًا مُعدًّا ليَخلُدوا فيه مُعذَّبِينَ بِلا تَخفيفٍ إلى ما لا نِهايةَ له.

﴿قُلْ﴾ أي يا محمّدُ للّذين يُجادِلُونك بالباطِل مِن اليَهُودِ والنَّصارى أو كُفّار العرَبِ أو غيرِهم ﴿هَلْ نُنَبِّئُكُم﴾ أي نُخبِرُكم ﴿بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾﴾ أي بالقَومِ الّذين هُم أخسَرُ النّاسِ - والمرادُ بذلكَ الكُفّارُ - ثُمّ بَيّنَ صِفتَهُم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ﴾ أي الّذين كانُوا على الكُفرِ من حيثُ لا يَشعُرون وظنُّوا في أنفُسِهم أنّهم يَسعَون فِيما فيه نَفعُهم، فبَطَلَ عملُهم واجتِهادُهم بالكُلّيّةِ ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ولَم يَكن لَهم حسَنةٌ يومَ القِيامةِ ﴿وَهُمْ﴾ مِن جَهلِهم بِحالهِم ﴿يَحْسَبُونَ﴾ أي يَظُنُّون ﴿أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ أي يأتُونَ بالعمَلِ علَى الوَجهِ المَقبولِ الحسَنِ لينتفِعُوا بأثرِه ولا يَدرُون أنّه هباءٌ مَنثورٌ لا حسَنات لَهُم.

قال ابنُ المُلقِّن الشافعيّ في «التّوضيح بشرح الجامع الصّحيح»: «والآيةُ دالّةٌ علَى أنّ الأُصولَ لا يُعذَر فيها المُتأوِّلُ[٢]» اهـ.

فائـدة: اختُلِفَ في المَعنِيِّين ﴿بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾﴾ فِيما مضَى على

---

(١) فيه دلِيلٌ صريحٌ علَى أنّ جهنّم موجودةٌ مُعدّةٌ لا أنّها تُعدُّ يومَ القِيامةِ كما تقولُ المعتزِلة.

(٢) وفي نُسخةٍ مطبوعةٍ: «المُأوِّل».

أقوالٍ، والّذي جزمَ بهِ الإمامُ المجتهِدُ محمّدُ بن جرير الطبريُّ[١] رضي اللَّه عنه بعدَ سَردِ الأقوالِ ما نَصَّ عليه بقولِه: «والصَّوابُ مِن القولِ في ذلك عِندنا أنْ يُقال: إنّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ عَنَى بقولِه: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾﴾ كُلَّ عاملٍ عملًا يحسَبُه فيه مُصيبًا وأنّه للهِ بفِعله ذلك مُطيعٌ مُرْضٍ، وهو بفِعلِه ذلك للهِ مُسْخِطٌ، وعن طريقِ أهلِ الإيمانِ به جائِرٌ، كالرَّهابنةِ والشَّمامسةِ[٢] وأمثالِهم مِن أهل الاجتهاد في ضَلالتِهم، وهم معَ ذلك مِن فِعلِهم واجتهادِهم باللَّه كفَرَةٌ، مِن أهلِ أيِّ دِينٍ كانُوا».

ثُمّ قال في خِتامِ تفسيرِ الآيتَين: «وهذا مِن أدلِّ الدَّلائِل علَى خطإِ[٣] قولِ مَن زعَم أنّه لا يَكفُر باللهِ أحدٌ إلّا مِن حيثُ يَقصِدُ إلى الكُفر بَعدَ العِلمِ بوَحدانيّتِه[٤]؛ وذلك أنّ اللَّهَ تعالَى ذِكرُه أخبَرَ عن هؤلاءِ الّذين وصَفَ صِفتَهُم في هذه الآيةِ أنّ سَعيَهُم الّذي سعَوا في الدُّنيا ذهَبَ ضَلالًا وقد كانوا يَحسَبُون أنّهُم محُسنُون في صُنعِهم ذلك، وأخبَرَ عنهُم أنّهُم هُم الّذين كفَرُوا بآياتِ ربِّهم. ولو كان القولُ كما قال الّذِين زعَموا أنّه لا يَكفُر

(١) ووافقَه علَيه جَمعٌ مِن المفسِّرين.

(٢) جمع شَمّاسٍ وهو رئيسٌ مِن رؤوسِ النّصارى يحلِقُ وسَط رأسِه.

(٣) الخطأُ في هذا الموضِع هو الكلامُ المُعارِض للشَّرعِ، بدلِيل بيانِ المصنِّف فيما بَعدُ بأنّ القائلين بهذا مُصادِمُون للآيةِ.

(٤) وزَعمُ أنّه «لا يَكفُر باللهِ إلّا مِن قَصدَ الكُفرَ» مُكذِّبٌ للنُّصوصِ الشَّرعيّةِ، وتكذيبُ النُّصوصِ كُفرٌ.

بـالله أحَدٌ إلّا من حَيث يَعلَم لوَجَبَ أنْ يكُـونَ هؤلاءِ القومُ في عمَلِهم الّذِي أخبَرَ اللهُ عنهم أنّهم كانوا يَحسَبُون فيه أنّهم يُحسِنُون صُنْعَه كانوا مُثابِينَ مأْجُورِينَ عليها، ولكِنّ القولَ بخلافِ ما قالوا، فأخبَرَ جَلَّ ثناؤه عنهُم أنّهم باللهِ كفرةٌ، وأنّ أعمالَهم حابِطةٌ» اهـ. كلام الإمامِ الطـبَريّ.

ثمّ أخبرَ اللهُ سبحانه وتعالَى عن حالِ الكافرِين المذكُورين فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي الّذِين وصَفَهُم بالأخسَرِين أعمالًا هُم ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ﴾ أي بدَلائلِ توحِيدِ ﴿رَبِّهِمۡ﴾ مِن القُرءانِ وغيرِه وكذَّبُوا بـ ﴿وَلِقَآئِهِۦ﴾ أي لِقاءِ حِسابِه بَعدَ البَعثِ يومَ القِيامةِ ولقاءِ جَزائه المَوعُودِ وهو الجنّةُ للمؤمنِينَ والنّارُ للكافرِينَ. ولا يَجوزُ حَملُ اللّقاءِ في الآيةِ علَى معنَى المُقابَلة بَين اللهِ وبَين العبدِ لِما فيه مِن نِسبةِ الجِهةِ للهِ، تنَزَّه اللهُ عن ذلكَ تنزُّهًا عظيمًا.

فإنْ قِيلَ: إنّ بعضَ هؤلاءِ مُصدِّقُونَ بيومِ البَعثِ غيرَ أنّهم يَعتقِدُون خِلافَ ما جاءَ به النّبيُّ ﷺ في بعضِ أصولِ الإيمان، فكَيفَ عُدُّوا كافِرِينَ بلِقاءِ الجَزاءِ؟

فالجَوابُ: أنّهُم يَعتقِدُون الجَزاءَ كائنًا على وَفقِ ما يَظنُّون خِلافًا لِما هو الحَقُّ، ألَا ترَى أنّهم يَظنُّون أنّ جَزاءَ مِثلِهم الجنّةُ فقَلَبُوا حقيقةَ الجَزاءِ من حيثُ لا يَشعُرون، ومع ذلكَ فلَم يُعذَرُوا في شيءٍ مِن ذلكَ.

﴿فَحَبِطَتۡ﴾ أي فبَطَلَتْ بسببِ كُفرِهم ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ الّتي عمِلُوها حُبوطًا كُلِّيًا معناهُ لا ثَوابَ لَهُم في شيءٍ مِن أعمالِهم بل تُملَأُ لَهُم يومَ القِيامةِ كِفّةُ

السيِّئاتِ بِما اكتسَبُوا مِن كُفرٍ وإثمٍ وتكُون هي الرّاجحة لا غيرُ[(١)]، وما داموا كذلك ﴿فَلَا نُقِيمُ﴾ أي فلا نَجعَلُ ﴿لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ۝١٠٥﴾ أي لا يكونُ لَهُم هنالك اعتبارٌ ولا قدرٌ ولا منزلةٌ، وقد روَى الشَّيخانِ وغيرُهما عن أبي هُريرةَ رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قالَ: «**إنَّهُ لَيأْتِي الرَّجُلُ العَظِيمُ السَّمِينُ يومَ القِيامَةِ لا يَزِنُ عِندَ اللهِ جَناحَ بَعُوضَةٍ، اقْرَؤُوا:** فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا».

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي حُبوطُ أعمالِهم وخِسَّةُ قَدْرِهم ﴿جَزَآؤُهُمْ﴾ و﴿جَهَنَّمُ﴾ جَزاؤُهم أيضًا، كُلُّ ذلك ﴿بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ﴾ أي بسببِ كُفرِهم واتِّخاذِهم ﴿ءَايَٰتِي﴾ مِن مُعجِزاتٍ وصُحفٍ مُنزَّلةٍ وكُتبٍ سَماويّةٍ أنزَلتُها على الأنبياءِ ﴿وَرُسُلِي﴾ الّذين أرسلتُهم ﴿هُزُوًا ۝١٠٦﴾ أي وَضعِهم ذلِكَ كُلَّه موضِعَ سُخريَةٍ واستِهزاءٍ، فلَم يَنتهُوا عِندَ حَدِّ الكُفرِ بالآياتِ والرُّسلِ بل ازدادُوا كُفرًا فوقَ كُفرِهم باستِهزائِهم بِما عظَّمَ اللهُ.

ولمّا أنذرَ اللهُ عزَّ وجلَّ الكافِرين وبَيَّن عاقبتَهُم ذكَرَ ما أعَدَّ سُبحانَه وتعالَى

---

(١) الكُفّار لا يكُون لهُم ثوابٌ في أيِّ عمَلٍ يَعملُونه ابتِداءً وانتِهاءً، ومِن أين يكُون لَهُم ثوابٌ وقد فقدوا شرطَ القَبُول والصِحّةِ وهو الإيمانُ، وهو الّذي يدُلّ عليه قولُه تعالَى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ [سُورة إبراهيم: ١٨]، وقولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [سُورة الفُرقان: ٢٣].

للمؤمنينَ فقــال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الإيمانَ الشَّرعيَّ ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي الطّاعاتِ ابتغاءَ مَرضاةِ اللهِ ﴿كَانَتۡ لَهُمۡ﴾ في عِلمِ اللهِ قَبلَ أنْ يُخلقُوا ﴿جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ١٠٧﴾ أي مَنزِلًا ومُســتقرًّا حال كَونِهم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ مُنعَّمين إلى مــا لا نِهايةَ له ﴿لَا يَبۡغُونَ﴾ أي لا يتمنَّونَ ولا يَطلُبُون ﴿عَنۡهَا حِوَلٗا ١٠٨﴾ أي تحـوُّلًا إلى غيرِها. وقَد خلَــقَ اللهُ تِلكَ الفَراديسَ وأعدَّها لهُم على وَفقِ عِلمِه ومشيئتِه الأزليَّين، فإذا جاءَ الوَعدُ الحقُّ دخَلُوها ءامنينَ مَسرُورِين.

وليُعلَــم أنّ الجنّةَ طبَقاتٌ، فأدناها أطرافُها، ثُمّ يَليها الوسَــطُ أعلَى من ذلــك، وهكذا إلى أوسَــطِها وأعلاها وأرفَعِها وهو الفِردَوسُ نســأَلُ اللهَ أنْ يَرزُقنــاهُ، فقَــد ثبَــتَ في الصّحِيح عن أبي هُريــرةَ رضي اللهُ عنه أنّ رســولَ اللهِ ﷺ قالَ: «**إنَّ في الجَنَّةِ مِائَةَ دَرجةٍ أَعَدَّها اللهُ لِلْمُجاهِدِينَ في سَــبِيلِ اللهِ، ما بَيْنَ الدَّرجَتَيْنِ كَما بَيْنَ السَّماءِ والأَرْضِ، فَإِذا سَأَلْتُمُ اللهَ فاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ وَأَعْلَى الجَنَّةِ**».

وروَى أبو نُعَيم في «الحِلية» عن كَعبٍ رضي اللهُ عنه قال: «الفِردَوسُ فِيهِ الآمِرُونَ بالمَعرُوفِ والنّاهُونَ عَنِ المُنكَر».

فالجنّةُ مــكانُ النّعيم المُقيــم للمؤمنِينَ، ولكن فيهــا درَجات كثيرة، فأَعلاها الفِردَوسُ الّذي يَنالُه المُتَّقُون والشُّــهداءُ، وهو درَجاتٌ كثيرةٌ أيضًا، وأعلَى النّاسِ درجةً في الجنّةِ الرُّســلُ مِــنَ الأنبياء ثُمّ الأنبياءُ غيرُ الرُّسل ثُمّ الأولياءُ ثُمّ الأمثَلُ فالأمثل.

ولمّا سألَتِ اليَهودُ رسولَ اللهِ ﷺ عن الرُّوحِ جاءَ الجوابُ: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ

عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ أي حقيقتِهـا ﴿قُلِ﴾ لهم يا محمّدُ ﴿ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ أي شيءٌ استأثرَ اللهُ بعِلمِ حقيقتِه ولَم يُطلِعْ عليهِ أحدًا مِن خَلقِه ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [سُورة الإسراء: ٨٥]، فقالت اليهودُ: «إنّه يقولُ: ﴿وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [سُورة البقرة: ٢٦٩] والحِكمةُ التَّوراةُ، ثُمّ يقولُ: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ فكيفَ يجتمِعُ عِلمٌ قليلٌ وخيرٌ كثيرٌ؟!»، فأنزلَ اللهُ تعالَى: ﴿قُل﴾ لهم يا محمّدُ ﴿لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ﴾ مَفروضًا ﴿مِدَادٗا﴾ أي حِبرًا يُستمَدُّ ﴿لِّكَلِمَٰتِ﴾ أي لِكتابةِ ما يَدُلُّ[1] على كَلامِ ﴿رَبِّي﴾ الذاتيِّ الأزليِّ الواحدِ الّذي ليسَ حرفًا ولا صوتًا ولا مُبتدأً ولا مُختتمًا ولا مُتبعِّضًا ولا مُتجزّئًا ولا مُتعاقِبًا ﴿لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ﴾ أي ماؤُه المفرُوضُ حِبرًا لِكتابةِ ما يَدلُّ علَى كلامِ اللهِ الذّاتيّ ﴿قَبۡلَ أَن تَنفَدَ﴾ أي ولا تَنفدُ[2] ﴿كَلِمَٰتُ رَبِّي﴾ أي لا يَفنَى كلامُ اللهِ الذّاتيُّ الواحدُ الّذي هو صِفتُه، والبحرُ المفروضُ حِبرًا يَنفدُ لو كُتِبَ بِهِ ما يَدُلُّ علَى كلامِ اللهِ الذّاتيِّ ﴿وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ﴾ أي بِبَحرٍ مثلِ الأوّلِ ﴿مَدَدٗا ١٠٩﴾ أي حِبرًا يُكتَبُ بِه، لأنّ كلامَ اللهِ الّذي هو صِفتُه الذّاتيّةُ لا حَصرَ لَه ولا انقضاءَ، والبِحارُ المفرُوضةُ مِن المدادِ للكِتابةِ محدودةٌ محصُورةٌ كسائرِ الأجسامِ لأنَّ لها قدرًا مُتناهيًا، ومِثلُ ذلكَ يُقالُ في

---

(١) أي ما هو عِبارةٌ.

(٢) قال الماوَرديّ في «تفسيره» (٤/ ٣٤٤): «ونَفادُ الشَّيءِ هو فَناءُ ءاخِره بَعدَ فَناءِ أوّلِه، فلا يُقال لِمَا فِي جُملَةِ «نَفِدَ»».

سائِرِ صِفاتِ اللّهِ إنّه لا يُحِيطُ بها مخلوقٌ، ومِن بابِ أولَى أنْ يُقالَ: إنّه لا أحدَ يُحِيطُ بمعلوماتِ اللّهِ، وكُلُّ معلوماتِنا بالنِّسبةِ لعِلمِ اللّهِ كلا شيء، ودليلُه: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾، فليسَ التّوراةُ محيطًا بجميعِ المعلُوماتِ وإنْ كان اسمُه الحِكمةَ وقال اللّهُ: ﴿وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ﴾، فهذا أمرُ الرُّوحِ مِن المعلُوماتِ الّتي لم يُطلِعِ اللّهُ عليها أحدًا ولَم يُنزِلْها في كِتابٍ على نبيٍّ مِن أنبيائِه، فذلكَ الجوابُ على اليهُودِ المُتعنِّتين وأمثالِهم.

وقال بعضُ العُلماء: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ﴾ معناه لو كانَ البَحرُ حِبرًا يُكتَبُ بِه معلُوماتُ اللّهِ لَم يُمكِن للكاتِبِ حَصرُها لأنّ معلوماتِ اللّهِ لا نِهايةَ لها، فمعلوماتُه أعمُّ مِن مَقدُوراتِه، فالمقدُوراتُ كُلُّ ما يَقبَلُ العقلُ دُخولَه في الوُجودِ، وأمّا المعلومُ فمِنه أزليٌّ وهو اللّهُ وصِفاتُه الأزليّة، ومنه حادثٌ كالعالَمِ وما فيه، ومِنه ما لا يكونُ كخُروجِ الكافرين مِن النّار، وقد عَلِمَ اللّهُ ذلكَ وعَلِمَ أنّهم لو خرَجُوا ماذا كانُوا فاعلِين، قالَ اللّهُ تعالَى إخبارًا عن حالِ قومٍ كافرِين في الآخِرة: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٧ بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ [سُورة الأنعام: ٢٧-٢٨].

وتكونُ المُناسَبةُ بَين سببِ نُزولِ ءايةِ ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ﴾ المذكُورِ سابقًا وبين الجوابِ الّذي تضمَّنْته الآيةُ على هذا التّفسيرِ الأخيرِ أن يقول لهُم نبيُّ اللّهِ ﷺ ذلكَ على معنَى أنّه ليسَ بمُستَغربٍ أنْ لا أعلَمَ أمرَ الرُّوحِ

لأنّه لَم يَكشِفْ لي رَبّي ذلك، إنّما أنا بشَرٌ مِثلُكم محصورةٌ مَعلُوماتِي فيما علَّمنِي رَبِّي، وكذلكَ التّوراةُ الأصليّةُ التّي هي الحِكمةُ وفيها العِلمُ الكثِيرُ إنّما هي كِتابٌ كسائِرِ الكُتبِ التّي نزَّلَها اللهُ على أنبيائِه لا يكونُ فيها إلّا معلوماتٌ محصورةٌ مُتناهِيةٌ، أمّا اللهُ عزَّ وجلَّ فهو العالِمُ بكلّ شيءٍ وعِلمُه أزليٌّ أبديٌّ يَعلَم بِه سائِرَ المعلوماتِ[1].

وفي روايةٍ أنّ الآيَةَ التّي نزلَتْ حِينَ زعَمَ اليهودُ أنّهم يحتجُّون على النبيّ ﷺ بما سبَقَ ذِكرُه هي قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [سُورة لُقمان: ٢٧] وهي بمعنَى ما مَرَّ.

فائدة: مما يُرَدُّ بِه علَى المُجسّمة القائلِين بأنّ «الكُتبَ المُنزَّلة على

---

(١) من المُقرَّر عِندَ المُسلمِين قاطبةً أنّ اللهَ تعالَى مُتّصِفٌ بأنّه عالِمٌ بكُلّ شيءٍ وهو عزَّ وجلَّ القائِل: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سُورة البقرة: ٢٩]، فلَو صَحَّ لِغَيرِه تَعالَى العِلمُ بكُلّ شيءٍ لَم يكُن معنًى للتمَدُّح بوَصفِه نفسَه عزَّ وجلَّ بالعِلم بكُلّ شيءٍ، تقدَّسَ اللهُ عن ذلكَ. ولقد ابتُلِيَتِ الأُمّة بأقوامٍ يقُولون: «إنّ الرّسولَ يعلَمُ كُلَّ ما يَعلَمُه اللهُ»، وهذا كُفرٌ وضَلالٌ؛ فقد جعلُوا النبيَّ ﷺ مُساوِيًا لله تعالَى في صِفةِ العِلم، ويظُنُّونَ أنّهم بذلكَ يَمدَحُون الرّسُولَ ﷺ، وحُكمُهم في الحَقيقةِ كمَن قالَ: «إنّ الرّسولَ قادِرٌ علَى كُلّ شيءٍ»، فكِلَا الفَرِيقين كُفّارٌ زنادِقةٌ، وسَواءٌ في ذلكَ مَن قالَ: «إنّ الرّسولَ عالِمٌ بكُلّ شَيءٍ بإعلامِ اللهِ له أو بغَيرِ ذلك» فلا مَحِيصَ للقائِل عن الكُفر، فلا أحَدَ يُحِيطُ بالغَيبِ كُلِّه عِلمًا إلّا اللهُ تعالَى، ومَن اعتقَدَ خِلافَ ذلكَ فقد كذَّبَ القُرءانَ والنَّبِيَّ وإجماعَ المُسلمِينَ قاطِبةً.

الأنبيـاءِ كالقُرءانِ هي عينُ كلامِ اللهِ الـذاتِيّ الّذي هو صِفَتُه» أنّه لو أُتِي ببَحرٍ من الحبرِ لكِتابةِ جَميع ما أنزَله اللهُ مِن الكُتب السَّماويّة والصُّحفِ على أنبيائِه لَفُرغَ مِن كِتابَتِها قبلَ أنْ يَنفدَ بَحرُ الحِبرِ، واللهُ تعالى يقُولُ في هذِه الآية: ﴿لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي﴾ فدَلَّ ذلكَ على أنّه لا يصِحُّ أن يكـونَ معنَى ﴿كَلِمَٰتُ رَبِّي﴾ الكلامَ المُنزَّلَ الّذي يُتلَى قُرءانًا ومِن قَبلِه تَوراةً أصلِيّةً وإنجيلًا أصلِيًّا وغيرَها مِن الكُتبِ والصُّحفِ الّتي أنزلَها اللهُ عـلى أنبيائِه، ولفظُ الجمعِ في ﴿كَلِمَٰتُ رَبِّي﴾ للتعظيمِ لا أنّ كلامَ اللهِ الّذي هو صِفَتُه مُتعدِّدٌ مُتبعِّضٌ مُتجزِّئٌ، حاشـا، فـإنّ اللهَ مُتّصِفٌ بصِفةِ الكلامِ الواحدِ الـذاتِيّ الأزليّ الأبديّ الّذي ليسَ حَرفًا ولا صوتًا ولا لُغةً ولا يُشبِهُ كلامَ المخلوقِينَ.

ثُمّ أمرَ اللهُ عزّ وجلَّ نبِيّه ﷺ أن يُجيبَهُم على طريقةِ المُتواضِعين لله عزَّ وجلَّ فقال: ﴿قُلۡ﴾ أي يا محمّدُ هَـؤلاءِ المشركين المجُادلِين ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ أي مِـن حيثُ أنّني تُصِيبُني الأعراضُ البشَرِيّة الّتي لا تقدَح في مَرتبة النُبوّةِ الّتي ءاتـاني اللهُ ولا أدّعِي أنّي ملَكٌ ولكِن فُضِّلت عليكُم بأنّي نبِيٌّ رسـولٌ لله ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ أي خُصِصـتُ بالوَحيِ وأكرمَنِي اللهُ به، ومِن جُملةِ ما أوحَـى إلَيَّ أنْ أُبلِّغكُم ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ﴾ أي خالِقُكم وبارِئُكم ﴿إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾ لا شَريـكَ له في مُلكِه، وهـو اللهُ عزَّ وجلَّ، ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ﴾ أي يؤمِّلُ ﴿لِقَآءَ﴾ ثـوابَ ﴿رَبِّهِۦ﴾ في الآخرة كَرامةً ونَعِيمًا ﴿فَلۡيَعۡمَلۡ﴾ في دُنياهُ لآخِرَته وهـو على الإيمانِ ﴿عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾ أي طاعةً خالصةً للهِ

لا يُريـدُ بها إلّا مَرضاتَه ﴿وَلَا يُشْرِكْ﴾ أي لا يَخلِطْ ولا يُراءِ ﴿بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ﴾ أي بطاعَتِه ﴿أَحَدًۢا ١١٠﴾ معَ اللّهِ بل لِيَصرِفْ نِيّتَه بالعمَلِ إلى أمرٍ واحدٍ وهو طلـبُ رِضَى اللّهِ لا العُجبُ بالنَّفْسِ أو السُّـمعةُ والمَدحُ مِن قِبَلِ النّاسِ فإنّ ذلكَ الرِّياءُ المُسـمَّى الشِّركَ الأصغرَ الّذي لا يُخرِجُ المؤمنَ مِن الإيمانِ ما لَم يَستَحِلَّهُ بل يُوقِعُه في الذَّنبِ الكبيرِ الّذي يَستحِقُّ عليه العذابَ الأليمَ في الآخِرة ما لَم يَتُبْ مِنهُ قَبلَ المَوتِ كما أنّه يَفوّتُ عليه ذلكَ ثوابَ العمَلِ الّذي صاحبَهُ رِياءٌ فلا يُثابُ علَيه بالمرّة مَهمَا بذَلَ مِن المشقّةِ والمالِ.

تـمَّ تفسيرُ سُورةِ الكهفِ بحَمدِ اللهِ ومَنّه وفَضلِه

خاتِمةٌ مُوجزة

هذه خاتِمةٌ في إيجازِ ما اشــتملَتْ علَيه سُــورةُ الكَهفِ الكريمةُ مِن أوّلِها إلى ءاخرِها.

لقَد افتُتِحت السُّــورة بحَمدِ اللّهِ تعالَى وذِكرِ نِعمةِ القُرءانِ الكريم وبَيانِ ما نزَل بالكُفّارِ مِن البأسِ وما كانَ فيه للمُؤمنِين مِن بِشــارةٍ، وما منَحَ اللّهُ المؤمنــينَ مِن النَّعيم الدّائم في الآخِرةِ، وأنذَرَ اللّهُ عزَّ وجلَّ القائلِينَ بنِســبةِ الولَدِ له سُبحانَه وبيَّن شَــناعةَ كُفرِهم، ثُمّ خَفَّف عزَّ وجلَّ عن نَبيّهِ ﷺ بالسُّــلوانِ لِما أصابَه ﷺ مِن الحُزنِ بسَببِ تَعنُّتِ كُفّارِ قَومِه وتكذيبِهم له.

وأَعقبَ ذلك سُبحانَه بالجوابِ عمّا سألَ عنه المُشرِكُون مِن أمرِ أصحابِ الكَهفِ فبسَطَ ذِكرَ قِصَّتِهم مُوضِحًا أمرَهُم ومُثبِتًا قضِيّةَ البَعثِ.

ثُمّ فَصَّل سُــبحانَه وتعالَى خبَرَ الرَّجُلَين صاحِبَي الجَنَّتَين أي البُســتانَين فأخــبَرَ عن جَميل خِصالِ المُؤمــن منهُما وكُفرِ الآخــرِ واغتِرارِه، وقد أفصَحَتِ الآيُ المُخبِرةُ عن خــبَرِ هذا الكافِر بعُجبه بما لَديه مِن مالٍ وأشــجارٍ وثِمارٍ ونحوِ ذلــكَ وتوَهُّمِه البَقاءَ في ذلكَ أبــدًا في مُقابِل تَطلُّعِ صاحبِه المؤمــن إلى ما أعدَّهُ اللّهُ للمؤمنينَ في الآخــرة، فنزَلَ بالمُغترِّ بنفسِــه الكافِرِ برَبِّه صاعِقةٌ على بُســتانِه فأزالَتْ ثِمارَه وأشجارَه ونهرَه

وأمواله وانقلَبَ بُستانُه أرضًا مُحترِقةً فلَم يجِد إلّا النَّدمَ والحسرةَ.

ثُمّ أعقبَ سُبحانَه تلكَ القِصّةَ بضَربِ مثَلِ الحياةِ الدُّنيا لِمَن تبصَّر واعتبرَ وذكرَ شيئًا مِن أحوالِ القِيامةِ لِمَن تدَّبر وتفكَّر، وأَتبعَ ذلكَ بِقِصّة سيّدنا موسَى وسيّدِنا الخَضِر علَيهِما السّلامُ مع ما فِيها مِن العِبَرِ والمواعِظ وبيانِ كَمالِ صِفاتِ الأنبياءِ عليهِمُ السّلامُ.

وذكَرَ الله بعدَ ذلكَ أمرَ ذِي القَرنَين رضي الله عنه جَوابًا لِمَن سألَ رسولَ الله ﷺ عن أمرِه، وفصَّل سُبحانَه خبرَ طوافِ ذِي القَرنَين في الأرضِ وكيفيّةَ حَبْسِه يأجوجَ ومأجوجَ الكافرينَ خَلفَ سَدٍّ صنَعه ذُو القَرنَين بواسِطةِ الفَعَلةِ والآلاتِ الّتي سَخَّرَها اللهُ عزَّ وجلَّ له، وقد اشتملَتْ القِصّةُ على الكثيرِ مِن المواعِظ.

وجاءَ ختمُ السُّورة بالتّخويفِ مِن عذابِ الآخِرة وبيانِ أنّ الكافرين هُم الخاسِرُون الّذين ليسَ لهُم في الآخرةِ إلّا العذابُ ولا يجِدُون هنالِكَ رَحمةً ولا مَلجأً مِن الأهوالِ في أرضِ المحشَرِ فَما بَعدَها إلى استِقرارِهم في النّارِ خالدِينَ فِيها إلى ما لا نِهايةَ له، أجارَنا اللهُ مِنها.

وجاءَ ختمُ الخاتِمةِ بالحثّ على التمسُّكِ بالإيمانِ وعمَلِ الصّالِحاتِ مع اجتِنابِ الرِّياء لأنّه مُحبِطٌ لثَوابِ العمَلِ مُوقِعٌ في الذّنبِ الكبيرِ.

إِتْحَافُ الْمُؤْمِنِينَ

فِى تَفْسِيرِ

سُورَةِ يس

سورة يس: خصائصها وفضائلها

وَقتُ نُزولِ سُورةِ يس

سُورةُ يس مكّيّةٌ عند الجمهور، وحكى أبو سليمانَ الدِّمشقِيُّ أنّها مدنِيّةٌ وقال: وليسَ بالمشهُور. ورُوِي في ءايتَين مِنها أنّهما مدنِيَّتان:

- رُوِي عن ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنهما وقتادةَ أنهُما قالا: إنّها مكّيّةٌ إلّا ءايةً منها ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ فنزلَتْ بعدَ الهِجرة.

- وروَى التّرمذيُّ في «سُنَنِه» عن أبِي سَعيدٍ الخُدريّ رضي الله عنه قال: كانتْ بَنُو سَلِمةَ[١] في ناحيةِ المَدينةِ[٢] فأرادُوا النُّقْلةَ إلى قُربِ المَسجِد فنزَلَتْ هذِه الآية: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ [سُورة يس: ١٢]، فقال رَسولُ الله ﷺ: «إنَّ ءاثارَكُم تُكْتَبُ[٣] فَلَا تَنْتَقِلُوا».

---

(١) بكَسرِ اللّام قبيلةٌ قَحطانيّةٌ معروفةٌ مِن الأنصارِ الخَزرَج، والنِّسبةُ إلَيها سَلَمِيّ بفَتح أوّلَيه، قال الجوهريّ: وليسَ في العرب سَلِمة بكَسرِ اللّام غيرُهم. مِنهُم أبو قَتادة وجابرُ بنُ عبدِ الله رضي الله عنهُم.

(٢) كان بينَهُم وبينَ المَسجد مَسافةٌ بعيدةٌ.

(٣) معناه الْزَمُوا دِيارَكُم فإنّكُم إذا لَزِمتُموها كُتِبَت ءاثارُكُم وخُطاكُم=

ويؤيِّدُ قولَ الجمهورِ بكونِها مكّيّةً أي نزلَتْ قبلَ الهجرةِ ما أخرجه ابنُ مَردويهِ وأبو نُعيمٍ في «الدَّلائِل» عن ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنهما قال: «كان النّبيُّ ﷺ يقرأُ في المَسجِد فيَجهَرُ بالقِراءةِ حتَّى تأذَّى به ناسٌ من قرَيشٍ حتّى قاموا ليأخُذوه، وإذا أيديهم مجموعةٌ إلى أعناقِهم وإذا هُم عُمْيٌ لا يُبْصِرُون، فجاؤوا إلى النَّبِيِّ ﷺ فقالوا: نَنشُدُكَ اللهَ والرَّحِمَ يا محمّدُ، قال: ولَم يَكُن بَطنٌ مِن بُطونِ قُريشٍ إلّا وللنَّبِيِّ ﷺ فِيهِم قرابةٌ، فدَعا النّبيُّ ﷺ حتَّى ذَهَب ذلك عَنهُم فنزَلَتْ: ﴿يسٓ ١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ٣﴾ [سورة يس: ١-٣] إلى قولِه تعالَى: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ١٠﴾ [سُورة يس: ١٠]، قال: فَما ءامَنَ مِن أولئكَ النفَرِ أحَدٌ».

فَضلُ سُورةِ يٰس

أوّلًا: هي إحدَى السُّوَرِ المَثانِي الّتي أُوتِيَها رسولُ الله ﷺ مَكان الإنجيلِ

أخرَجَ الطَّيالسِيُّ مِن حديثِ واثلةَ بنِ الأسقَعِ رضي الله عنه أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «**أُعطِيتُ مَكانَ التَّوْراةِ السَّبعَ الطِّوالَ ومَكانَ الزَّبُورِ المِئِينَ ومَكانَ الإنْجِيلِ المَثانِيَ**» الحديثَ.

والسَّبعُ الطِّوالُ بكسرِ الطاء جَمعُ طوِيلةٍ هي البقَرةُ إلى ءاخرِ براءةَ بجَعلِ

= الكَثيرةُ إلى المَسجِد.

الأنفالِ مع براءةَ واحدةً في العَدِّ، وقيل غيرُ ذلك. والمِئُون كلّ سُورةٍ تَزِيدُ على مائةِ ءايةٍ أو تُقاربُها، وأمّا المَثاني فهي السُّوَرُ التّي تَلِي المئِينَ في تَرتيب المُصحفِ، سُمِّيَتْ بذلكَ لأنّها ثَنَتْها أي ولِيَتْها. وقال الفرّاءُ: هي السُّورةُ التّي ءايُها أقلُّ مِن مائةٍ لأنّها تُثنَّى أي تُكرَّرُ أكثر مِمّا يُثنَّى الطّوالُ والمِئُونَ، وقيل: سُمِّيَتْ بذلكَ لِتثْنِيةِ الأمثالِ فيها بالعِبَرِ والخبَرِ.

ثانيًا: فضيلةُ قِراءَتِها ليلًا بنيّةٍ حسَنةٍ

أخرَجَ الطَّيالِسيّ في «المُسنَدِ» والدّارميّ في «سُنَنِه» عَن أبي هُريرةَ رضي الله عنه وابنُ حِبّانَ في «صحِيحِه» عن جُندبٍ رضي الله عنه أنّ رَسولَ الله ﷺ قال: «**مَن قرأ ﴿يسٓ﴾**[1] **في لَيلَةٍ الْتِماسَ وَجْهِ اللهِ**[2] **غُفِرَ لَهُ**».

ثالثًا: مَزِيّة قِراءَتِها عِندَ المُحتَضَر والمَيّتِ المُسلِم

روى ابنُ حِبّانَ في «صحِيحِه» وغيرُه عن مَعقِل بنِ يَسارٍ رضي الله عنه أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «**اقْرَؤُوا عَلَى مَوْتَاكُم ﴿يسٓ﴾**»[3]، والمَيّت

---

(١) أي السُّورةَ.

(٢) أي ابتغاءَ ثَوابِ اللهِ ومَرضاتِه عزَّ وجلَّ، فاللهُ تعالَى مُنزَّهٌ عن الوَجْهِ الجارحةِ والأعضاءِ ومُشابهةِ شيءٍ مِن خلقِه بأيّ معنًى مِن المَعاني.

(٣) هذا الحديثُ صحّحه بعضُهم كابنِ حِبّانَ، ووجَدَ له الحافظُ العسقلانيُّ شاهِدًا صحِيحًا في «نتائِج الأفكار»، وضعّفه بعضُهم لجِهة السّنَد لكنّه عِندَهم غيرُ شَديدِ الضَّعفِ، ولا يُخالِفُ أصلًا ثابتًا بدَليلٍ شَرعِيّ، =

= ولا يجزمون بثبوته عن النبيّ ﷺ، فهو من قسم الضّعيف الّذي يُباحُ العمَل به في فَضائِل الأعمال كقراءَته عِندَ المُحتضَر المُسلم وبعدَ وَفاته.

قال شيخنا الإمامُ الهرريُّ رضي الله عنه: «فإنْ قِيلَ: أليسَ قال الشافعيُّ: لا تصِلُ القِراءةُ إلى الميّت؟ يُقال لهُم: الشافعِيُّ رضي الله عنه قال إذا لَم يكُن القارئُ عِندَ القبر، أمّا إن كانَ عِندَ القَبرِ فالشافعِيُّ يُقرُّها. ثُمّ أيضًا مُرادُ الشافعِيّ إذا لَم يَدْعُ القارِئُ عَقِبَ قِراءَته أو قَبل القِراءةِ بإيصالِ الثَّواب للميّتِ المسلِم الّذي يُقرأُ له، أمّا إذا دَعا القارِئُ قَبلَ القِراءةِ أو بَعدَها فقال مثلًا: اللهم أَوصِل ثَوابَ ما أقرأهُ أو ثَوابَ ما قَرأتُ إلَى رُوحِ فُلانٍ» المُسلِم، هذا الشافعِيُّ لا يُنكِرُه بل يُقرُّه. ثُمّ الأئِمّة الآخَرُون ما قالُوا: لا تَصِل».

والأدِلّةُ على جَوازِ ذلكَ كثيرةٌ جِدًّا، نذكرُ بعضًا مِنها:

- ما رواه البيهقيّ في «الدَّعواتِ الكبير» وحسَّنه عن العبّاسِ بن محمّدٍ قال: سألتُ يَحيَى بنَ مَعينٍ عن القِراءةِ عِندَ القَبرِ فقال: حدَّثنا مُبشّرُ بنُ إسماعيلَ الحلَبيُّ عن عبدِ الرحمن بنِ العَلاءِ بن اللَّجْلاجِ عن أبيه أنّه قال لِبَنِيه: إذَا أدْخَلتُمُوني قَبري فضَعُوني في اللَّحدِ وقولوا: باسْمِ اللهِ وعلَى سُنّةِ رَسولِ اللهِ ﷺ، وسُنُّوا عليَّ التُّرابَ سَنًّا واقرَؤوا عِندَ رأسِي أَوّلَ البقَرةِ وخاتِمَتها فإنّي رَأيتُ ابنَ عُمرَ يَستحِبُّ ذلِكَ»، وقد أقرَّ الإمامُ أحمدُ رضي الله عنه هذا الأثَرَ وأفتَى النّاس بجَوازِ قِراءةِ القُرءانِ عِندَ قبرِ الميّت.
- وقال السُّيوطيّ في «الفَوز العظِيم» (ص/ ١٢٣): «وأخرَجَ الخلّال في الجامِع عن الشَّعبِيّ قال: كانتِ الأنصارُ إذا ماتَ لَهُم الميّتُ اختلَفُوا إلى قَبرِه يقرؤُون له القرءانَ».
- وقال شمس الدين بنُ أبِي السُّرور المَقدِسيّ (ت ٦٧٦هـ) في رسالته «الكلام على وصول القِراءة للميّت»: «الثّامنُ: أنّ المُسلِمينَ يجتمِعُون في كُلّ =

يُطلَق على مَن كان مُحتضَرًا ومَن فارَقتْ رُوحُه جسدَه ولم يُدفَن بَعدُ ومَن كان في القَبرِ مِن الأمواتِ.

ويؤيِّدُه ما رواهُ أبو الشّيخ في «فَضائلِه» عن أبي ذَرٍّ رضي الله عنه قال:

= مِصرٍ ويَقرؤون ويُهدُون لِموتاهُم ولَم يُنكِرهُ مُنكِرٌ **فكان إجماعًا**».

- وقال ابنُ قُدامةَ المَقدسِيُّ الحنبليّ في «المُغني» (٢/ ٤٢٤): «وقال بعضُهم: إذَا قُرِئ القُرءانُ عِندَ الميّتِ أو أُهدِي إليه ثوابهُ كان الثّوابُ لقارِئه، ويكُون الميِّتُ كأنّه حاضِرُها، فترُجَى له الرَّحمةُ، ولنا ما ذكرناه **وأنّه إجماعُ المُسلمين**، فإنّهم في كُلّ عَصرٍ ومِصرٍ يجتمِعُون ويَقرؤُون القُرءانَ ويُهدُون ثوابَه إلى مَوتاهُم مِن غيرِ نَكيرٍ».
- وقال الحافظ النّوويّ رحمه الله في «المجموع» (٥/ ٢٩٤): «يُستحَبُّ أن يَمكُثَ علَى القبرِ بَعد الدَّفنِ ساعةً (أي وَقتًا) يَدعُو للميّتِ ويَستغفِرُ له، نَصَّ علَيه الشافعِيُّ واتّفَق عليه الأصحابُ قالوا: ويُستحَبُّ أنْ يُقرَأَ عِندَه شيءٌ مِن القُرءانِ، وإنْ ختَمُوا القُرءانَ كان أفضَلَ».
- وقال الدّسوقِيّ المالكِيّ في حاشيتِه على «الشّرح الكبير علَى خليل» (١/ ٤٢٣): «والّذي ذهَب إليه غيرُ واحِدٍ مِن أئِمّتِنا الأندَلُسيّينَ أنّ الميّتَ يَنتفِعُ بِقراءةِ القُرءان الكريم ويَصِلُ إلَيه نفعُه ويَحصُل له أجرُه إذَا وهَب القارِئُ ثوابَه له، **وبه جرَى عمَلُ المُسلمينَ شَرقًا وغَربًا ووَقَفُوا على ذلك أوقافًا واستَمرَّ عليه الأمرُ مُنذُ أزمنةٍ سالفةٍ**. ومِن اللَّطائِف أنّ عِزّ الدّين ابنَ عَبدِ السَّلامِ الشافعِيَّ رُئِي في المَنام بَعدَ موتِه فَقِيل له: ما تَقُول فِيما كُنتَ تُنكِرُ مِن وُصولِ ما يُهدَى مِن قِراءةِ القُرءانِ للمَوتَى؟ فقال: هَيهاتَ، وَجَدتُ الأمرَ علَى خِلافِ ما كنتُ أظُنُّ».

«ما مِن مَيّتٍ[١] يموتُ فيُقرأُ عِندَه ﴿يسٓ﴾ إلّا هوَّن اللَّهُ عليه»[٢].

قال المُحِبُّ الطبَري فقال في «غايةِ الإحكام»: «وأمّا في قِراءةِ ﴿يسٓ﴾ فذلكَ نافِعٌ للمُحتضَر وللمَيّت»[٣].

وأخرَج المَحامليُّ في «أماليّه» مِن حدِيث عبدِ اللَّه بن الزُّبَير رضي اللَّه عنهما: «مَن جعَل ﴿يسٓ﴾ أمامَ حاجةٍ قُضِيَتْ له»، وله شاهِدٌ مُرسَلٌ[٤] عِند الدارِميّ.

وقد روي أنّه لمّا حضَر غُضَيفَ[٥] بنَ الحارِث الكِنْديَّ رضي اللَّه عنه الموتُ حضَره إخوانُه فقال: هل فِيكُم مَن يَقرأُ سورة ﴿يسٓ﴾؟ قال

---

(١) وهو مُسلِم.

(٢) قال شيخُنا الإمامُ الهرريُّ رحمه اللَّه: «هذا ضعِيفٌ يُعمَل به، ويصِحُّ حَملُه على المُحتضَر وغيرِه».

(٣) أخرَجه الحافظُ العسقلانيّ في «نَتائجِ الأفكارِ» بسنَدِه إلى عبدِ اللَّه بنِ المبارَك عن عِيسَى بنِ عُمَر عن طَلحةَ بنِ مُصَرِّفٍ قال: دخلتُ على خَيْثَمةَ - يعني ابنَ عبدِ الرَّحمن - وهو مرِيضٌ فقلتُ: إنّي أراكَ اليومَ صالِحًا، قال: نعم، قُرِئ عِندي القُرءانُ وكان يُقالُ: «إذا قُرِئ عِندَ مَرِيضٍ القُرءانُ وجَد لِذَلك خِفّةً».

(٤) أي روايةٌ مرفوعةٌ بسنَدٍ ءاخَر سقَط مِنها ذِكرُ الصّحابِيّ.

(٥) بالضّاد المُعجَمة ويقال: غُطَيف بالطّاء المُهمَلة. رُوِي عنه أنّه قال: كُنتُ صَبِيًّا أَرمِي نَخلَ الأنصارِ، فأتَوا بِي رَسولَ اللَّه ﷺ فمَسَح رأسِي وقال: «**كُلْ ما يَسقُطُ ولا تَرمِ نَخْلَهُم**» وكانتِ العادةُ أنّ أصحابَ النَّخلِ في ذلكَ الوقتِ في تِلكَ النّواحِي يُبِيحُون للنّاسِ أن يأكُلوا ما يسقُط مِن نخلِهم.

رجُـلٌ مِن القَومِ: نعَم، قال: اقـرَأْ ورَتِّلْ وأنصِتُوا، فقَرَأ ورتَّلَ واسـتَمَع القَـومُ، فلمّـا بَلَـغَ: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٨٣﴾[1] خرَجَتْ نفسُه.

رابعًا: مِن مُجرَّباتِ بعضِ العُلماءِ في خواصِّها

روَى الحاكم في «المُسـتدَرك» عن أبي جعفـرٍ الباقِر محمّدِ بنِ عليّ رضي الله عنهُم قال: «مَن وجَد في قَلبِه قَسـوةً فلْيَكتُبْ ﴿يسٓ﴾[2] في جامٍ[3] بماءِ وَردٍ[4] وزَعفرانٍ ثُمّ يَشرَبُه».

وأخرَج ابنُ الضُّرَيسِ في «فَضائِل القُرءان» عن سَعيدِ بنِ جُبَيرٍ رضي الله عنه أنّه قرأَ علَى رجُلٍ مجنُونٍ سورةَ﴿يسٓ﴾ فبَرِئ»[5].

وأخـرَج أيضًا عن يحيَى بـنِ أبي كَثيرٍ قال: «مَن قَـرَأ ﴿يسٓ﴾إذا أصبحَ لَم يَـزَلْ في فَـرَحٍ حتّى يُمسِيَ، ومَن قرَأَهـا إذا أمسَى لَم يَـزَلْ في فرَحٍ حتّى يُصبِحَ»[6] وقال: أخبرَنا مَن جرَّبَ ذلكَ.

---

(١) وهو ءاخِرُ السُّورةِ.

(٢) أي السُّورةَ كُلَّها.

(٣) أي طَسْتٍ.

(٤) وفي روايةٍ: «بماءٍ».

(٥) قال شيخُنا رحمه الله: «يُعمَل به».

(٦) قال شيخُنا رحمه الله: «ضعِيفٌ يُعمل به».

وقال العلّامـة عفِيفُ الدّين اليافعيّ في «الـدُّرّ النظِيم» فيما جُرِّب في سُـورة ﴿يسٓ﴾: أنّ مَن خافَ مِن سُلطانٍ جائرٍ أو دُعِي لِظَالِمٍ يَقرأ سورة ﴿يسٓ﴾ ثُمّ يقُول: «بِسـمِ اللّهِ الرَّحمنِ الرَّحِيم، بِسـمِ اللّهِ الّذِي لا إلهَ إلّا هوَ الحَيُّ القَيُّومُ، بِسـمِ اللّهِ الّذي لا إلهَ إلّا هُوَ ذُو الجَلالِ والإِكرامِ، بِسمِ اللّهِ الّذِي لا يَضُرُّ معَ اسْـمِهِ شَيءٌ في الأَرضِ وَلا في السَّـماءِ وهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعوذُ بِكَ مِن شَرِّ فُلانِ بنِ فُلانٍ» فإنّه يُكفَى شَرَّه.

وهـذا كُلُّه ليسَ مِمّا ورَد في حديثٍ ثابتٍ عن رسـولِ اللّه ﷺ إنّما مِن مُجرَّباتِ أهلِ الخيرِ الصّالِحين.

تفسير سورة يس

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يسٓ ۝١﴾ اختلف فيها على أقوال؛ فقيل: هو قسم، وقيل: معناه يا إنسان وأريد به محمد ﷺ، وقيل: معناه يا سيد البشر وهو رسول الله محمد ﷺ، وقيل: هو اسم للقرءان الكريم، وقيل غير ذلك.

﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢﴾ أي أقسم بالقرءان ذي الحكمة ﴿إِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٣﴾ أي من جملة الذين أرسلهم الله تعالى إلى عباده، وهو رد على الكفار حيث قالوا: «لست مرسلًا». ولله تعالى أن يقسم بما شاء من خلقه وليس يقسم إلا بما فيه نفع، أما العبد فلا ينبغي له أن يقسم إلا بالله[1].

(١) قضية القسم في القرءان الكريم عظيمة، فقد أقسم الله عز وجل في مواضع بيانًا لشرف المقسم به فقال: ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِى ٱلذِّكۡرِ﴾، وأقسم لبيان تأكيد الأمر فقال ﴿وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾.
وقد أقسم عز وجل بنفسه في القرءان في خمسة مواضع: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٩٣﴾ [سورة الحجر: ٩٢-٩٣]، ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحۡشُرَنَّهُمۡ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ حَوۡلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ [سورة مريم: ٦٨]، ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ﴾=

وإنّك يا محمّدُ ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٤﴾ أي على طريقٍ لا اعوِجاجَ فيه مِن الهدَى وهو الإسلامُ.

﴿تَنزِيلَ﴾ أي قَـد نزّل اللهُ ذلكَ الكِتابَ تنزِيلًا مِنه ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ في مُلكِه الّذي لا يَغلِبُه أحدٌ ولا يمتنِعُ مِنه شيءٌ ﴿ٱلرَّحِيمِ ٥﴾ بخلقِه.

وقد أرسـلْناكَ يا محمّدُ ونزّلنـا عليكَ الكِتـابَ ﴿لِتُنذِرَ﴾ أي لِتُخوّفَ بالنّارِ والعُقوبةِ على المُخالَفةِ والمَعصِيةِ ﴿قَوۡمٗا﴾ مِنَ النّاسِ أشِـدّاءَ ذوي

=[سُورة النِّساء: ٦٥]
﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾ أي أُقسِـمُ [سُـورة المَعارج: ٤٠]، ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾ [سُـورة الذّاريـات: ٢٣]. وأمرَ اللهُ عزّ وجلّ رسـولَه محمّدًا ﷺ في القرءانِ أن يُقسِم بهِ في ثلاثةِ مواضِـعَ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ [سُورة سَبأ: ٣]، ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡ﴾ [سُورة التّغابُن: ٧]، ﴿وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ﴾ [سُورة يونُس: ٥٣].
وقَـد افتُتِحَت سِـتَّ عشرةَ سُـورةً مكّيّةً بالقَسَـم: هي الصّافـاتُ: وهُم الملائكةُ الّذي يَصُفُّون أقدامَهُم للصّلاةِ، والطُّورُ، والنَّجمُ، والمُرسَـلاتُ: وهُم جَماعاتٌ مِن الملائكةِ أرسـلَهُم اللهُ عزّ وجلّ بأمرِه، والنّازِعاتُ: وهُم الملائكـةُ الّذين يَنزِعُون الرُّوح مِن الجسَـدِ نزعًا، والسَّـماءُ ذاتُ البُروجِ، والسَّماءُ والطّارِقُ: وهو النَّجمُ الذي يَبدُو ليلًا، والفَجرُ ولَيالِي شَهرِ المُحرَّمِ العَشرُ أو العَشرُ الأُولَى مِن ذي الحِجّةِ، والشَّـمسُ، واللَّيلُ، والضُّحى، والتِّينُ، والزَّيتونُ، والعادِياتُ: وهي الخَيلُ تَعدُو بالغَزوِ في سَبيلِ اللهِ، والعَصرُ.

منَعةٍ ﴿مَّآ﴾ أي بالشيءِ الّذي ﴿أُنذِرَ﴾ به ﴿ءَابَآؤُهُمۡ﴾ الأقدمُون مِن ولَدِ إسماعيلَ ﷺ ﴿فَهُمۡ﴾ أي فإنّهم قومٌ ﴿غَٰفِلُونَ ٦﴾ عن الإيمانِ والرُّشد.

﴿لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ﴾ أي ثبتَ مِن اللهِ الحُكمُ بالعذابِ الكائنِ ﴿عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ﴾ أي أكثرِ الجِنّةِ والنّاسِ ﴿فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٧﴾ بل يموتونَ على الكُفرِ لأنّ اللهَ شاءَ حُصولَ ذلكَ فلا يُبدَّلُ حُكمُه ولا يتغيَّرُ تقديرُه.

ثُمّ بيَّنَ سببَ تركِ الكافرينَ الإيمانَ فقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا﴾ أي جعلناهُم في تصميمِهم على الكُفرِ وعدمِ انفكاكِهم عنه كحالِ مَن غُلَّتْ أي قُيِّدتْ أعناقُهم بأطواقٍ مِن الحَدِيدِ ﴿فَهِيَ﴾ أي الأغلالُ مُنتهيةٌ ﴿إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ﴾ أي أذقانِ أولئكَ لا تدَعُهم يلتفِتُون إلى الحَقِّ أو يلوُونَ أعناقَهم نحوَه ﴿فَهُم مُّقۡمَحُونَ ٨﴾ أي رافِعُو رُؤوسِهم معَ غضِّ البصرِ عَن الحقِّ وجِهَتِه، وفي ذلكَ كُلِّه تمثيلٌ لِمَنعِهم مِن الإيمانِ بِموانعَ مِن خَلقِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وفي الآيةِ رَدٌّ صريحٌ جَلِيٌّ على المعتزلةِ القدَريّةِ القائلينَ بأنّ الضَّلالةَ في العبدِ مِن خَلقِ العَبدِ نَفسِه والعياذُ باللهِ مِن مَقالتِهم، فقد أضافَ اللهُ عزَّ وجلَّ «الجَعْل» إلى نفسِه فهو خالِقُ ذلك وليسَ غيرُه خالِقًا له، وقولُ المُعتزلةِ ذلكَ كفرٌ لِما فِيه مِن نسبةِ الشُّرَكاءِ للهِ في الخالقيّةِ.

ورُوي عن عِكرِمةَ وغيرِه في سببِ نُزولِ الآيةِ أنّه كان لأبي جَهلٍ صاحِبانِ مِن بَني مَخزومٍ قد تَواصَوا ثلاثتُهم معَ الوَليدِ بنِ المُغيرةِ فيما بينَهُم لَيَقتُلُون محمّدًا ﷺ بزعمِهم، فبَينا رسولُ اللهِ ﷺ قائمٌ يُصلّي إذْ

سَمِعُوا قِراءَته فأرسلُوا الولِيدَ لِيَقتُلَه، فانطلَق حتَّى انتهَى إلى المكانِ الّذي كان يُصلِّي فيه النَّبيُّ ﷺ، فجعَل يَسمَعُ الولِيدُ قِراءَته ﷺ ولا يَراهُ، فانصَرف إلَى قومِه وأعلَمهُم بذلك، فراحَ الولِيدُ مرّةً أُخرَى وأبو جَهلٍ ونفرٌ مِنهُم إلى مَكانِ الصَّوتِ، فلمّا انتهوا إليه سَمِعُوا قِراءَته ولَم يَروهُ، فإذا تقدَّمُوا تُجاهَ الصَّوتِ أكثرَ صارَ الصَّوتُ مِن خَلفِهم، فانصَرفُوا ولَم يَجِدُوا إليه سَبيلًا، فأنزلَ اللّه عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلًا﴾ أي جعلْناهُم بِمَثابةِ مَن كانتْ في أعناقِهم أطواقٌ مِن حَدِيدٍ مُقيَّدةٌ إليها أيدِيهم فهُم ممنُوعون عن أنْ ينالُوا مِن رسولِ اللّه ﷺ.

ثُمّ ذكَر اللّهُ عزَّ وجلّ أنّهُ مَنعَهُم أشَدَّ المَنع مِن الإيمانِ وقَبولِ الحقّ فقال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا﴾ أي منَعْناهُم مِن الإيمانِ بِموانعَ فكانُوا بمَنزِلة مَن سُدَّ طريقُهم مِن بَينِ أيدِيهم ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ فلا يستطيعونَ الخُروجَ من الكُفرِ إلى الإيمانِ كمَثَلِ مَن سُدَّ أمامَه وخَلفَه بالأسدادِ ﴿فَأَغْشَيْنَـٰهُمْ﴾ أي فأعميْناهُم عَن الهُدَى ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩﴾ أي لا يُبصِرُونَ سَبيلَه.

﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ أي يَستوِي تَخويفُك وعدَمُه لِمَن كُتِبَ لَهُ الموتُ علَى الكُفرِ فإنّهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠﴾ لأنّ اللّهَ لَم يَشأْ لَهُم ذلكَ فلَم يَنفعْهُم الإنذارُ بمعنَى أنّه لم يؤثِّر فيهم فيهتَدُوا.

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ أي إنّما يَنفعُ إنذارُكَ يا مُحمّدُ ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ أي القُرءانَ فآمَن به وعَمِلَ بما فِيه ﴿وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي وخافَ اللّهَ في السِرِّ والعَلَنِ ﴿فَبَشِّرْهُ﴾ أي فبَشِّرْ يا مُحمّدُ هذا الّذي فيه الصِّفتَانِ

﴿بِمَغْفِرَةٍ﴾ من اللهِ لِذُنوبِه ﴿وَأَجْرٍ﴾ أي ثَوابٍ مِن اللهِ لهُ في الآخِرةِ ﴿كَرِيمٍ ﴿١١﴾﴾ أي حسَنٍ وهو الجنّةُ لأنّه ءامَن باللّه ورسوله وخشيَ الرحّمن بالغيب، وقد كان ﷺ مُنذِرًا للناسِ كافّةً.

روى الحافظُ ابنُ عساكرَ في تاريخه عن الزُّهريّ قال: دعا عُمرُ بنُ عبدِ العَزيزِ غَيلانَ القدَريَّ(١) فقال: يا غيلانُ، بلغَني أنّك تَكَلَّمُ(٢) في القدَر، فقال: يا أميرَ المؤمنينَ إنّهم يَكذِبُون علَيَّ، قال: يا غيلانُ اقرَأْ أوّلَ

(١) هو غَيْلانُ بنُ مسلِم أو مَروانَ الدِّمَشقيّ. كان أبُوه مِن مَوالِي سيّدنا عُثمانَ رضي اللّه عنه. كان مُفوَّهًا خطيبًا بليغًا لكنّه سلَكَ مسالِكَ الضَّلالةِ والكُفرِ. قال الحافظُ العَسقلانيّ في «لِسان المِيزان» (٤/ ٤٢٤): «وقال ابنُ المبارَك: كان مِن أصحابِ الحارثِ الكذّابِ وممَّن ءامَن بنُبوّته، فلمّا قُتِل الحارثُ قامَ غَيلانُ إلى مَقامِه وقال له خالِدُ بنُ اللَّجلاجِ: ويلَك، ألَمْ تَكُ في شَبيبَتِك تُرامِي النِّساءَ بالتُّفّاحِ في شَهرِ رَمضانَ ثُمّ صِرتَ خادِمًا تَخدُم امرأةَ الحارثِ الكَذّابِ المُتنبّي وتزعُم أنها أُمّ المُؤمنِين، ثُمّ تحوَّلْتَ فصِرتَ زِنديقًا، ما أراكَ تَخرُج مِن هوًى إلّا إلى أشَرَّ منه» لكنّه سلَك في الاعتقادِ مسلَكَ القدَريّةِ القائلِين بأنّ العَبدَ يخلُق فِعلَه، وهذا كُفرٌ وضلالٌ مُبينٌ.

قال أبو الفَتح الشَّهرَسْتاني في «المِلَل والنِّحَل» (١/ ١٤٣): «وكان غَيلانُ يقُول بالقدَر خيرِه وشَرّه مِن العَبدِ، وفي الإمامة إنّها تَصلُح في غَيرِ قُرَيشٍ وكُلُّ مَن كان قائِمًا بالكتابِ والسُّنّة كان مُستحِقًّا لها، وإنّها لا تَثبُت إلا بإجماع الأُمّة. والعجبُ أنّ الأُمّة أجمعَت علَى أنها لا تصلُح لِغيرِ قُرَيشٍ. فقد جمَع غَيلانُ خِصالًا ثَلاثًا: القدَر، والإرجاء، والخُروجَ».

(٢) أي تتكلَّم.

يـس، فقرأ: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾ حتّى أتى على ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلًا﴾ إلى قولِه: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠﴾ فقـال غيلانُ: يا أمـيرَ المؤمنِين، واللهِ لـكأنّي لم أقرأْها قطُّ قبلَ اليومِ، أُشهِدُكَ يا أميرَ المؤمنِين أنّي تائِبٌ مما كنتُ أقولُ في القدَرِ، فقال عُمَرُ: اللهم إنْ كان صادِقًا فثبّته وإنْ كان كاذِبًا فاجعَلْه ءايةً للمُؤمنِين.

فلمَّا وَلَّى قال عمرُ بنُ عبدِ العزيز: اللهم إنْ كان أطاعني بلِسانِه ومِحْنَتُه في قلبِه فأَذِقْه حرَّ السَّـيفِ، فلَم يَتكلَّم غيـلانُ في خِلافةِ عُمرَ بعدَها وتكلَّم في خلافةِ يَزيدَ بنِ عبدِ المَلك في القدَر، فلمّا ماتَ يَزيدُ أرسلَ إليه هشامٌ فقال: أَلَسْـتَ كُنتَ عاهَدتَ اللهَ لِعُمرَ بنِ عبدِ العزيزِ أنّك لا تَكلَّـمُ في شيءٍ من كَلامِـك، قال: أَقِلْني يا أمـيرَ المؤمنِين، قال: لا أقالَـنِي اللهُ إنْ أنا أقلْتُكَ يا عدُوَّ اللهِ، ثُمّ أرسـلَ هشـامٌ في طلَبِ الإمام الأوزاعيّ رضي الله عنه وكان بسـاحِلِ بيروتَ فجـاءَه وناظرَ غَليانَ ثُمّ قال الأوزاعيّ لهشـامٍ في غيلانَ: كافرٌ وربِّ الكَعبـةِ يا أميرَ المؤمنِينَ، فأمَرَ هشامٌ بغَيلانَ فقُطِعَت يَداه ورِجلاه وضُرِبَتْ عُنقُه وصُلِبَ، فقال حِينَ أُمِرَ به: أدركَتْني دَعوةُ العَبدِ الصّالحِ عُمرَ بنِ عبدِ العزيز.

ولمّـا كان في الكفرةِ مَن يُكذِّبُ بالبَعثِ[1] مُسـتبعِدًا له رَدَّ اللهُ عزَّ وجلَّ

---

(١) **البَعثُ**: هو خرُوجُ الموتى مِن القبُورِ بعدَ إعادةِ الجسَـدِ الّذي أكلَهُ التُّرابُ إن كان مِن الأجسادِ الَّتي يَأكلُها التُّرابُ، وأوّلُ مَن يُبعَثُ الأنبياءُ، وأوّلُ مَن يَنشَـقُّ عنهُ القبرُ سَـيِّدُنا محمّدٌ ﷺ، قال اللهُ تعالَى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [سُورة المؤمنون: ١٦].

عليهم فقال: ﴿إِنَّا نَحۡنُ﴾ أي اللَّهُ جلّ جلالُه، ولَفظُ الجَمعِ للتّعظِيم واللَّهُ واحِدٌ لا شريكَ لـه[١]، ﴿نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ للبَعثِ بَعدَ النَّفخةِ الثّانيةِ الّتي يَنفخُها الملَكُ الكرِيمُ إسرافيلُ عليه السّلامُ في الصُّورِ[٢] ﴿وَنَكۡتُبُ﴾ أي ونُحصِي على العِبادِ ﴿مَا قَدَّمُواْ﴾ أي ما سلَف مِنهُم من خيرٍ وشرٍّ في الحياةِ

---

(١) وقد جاء في القرءانِ الكريمِ ألفاظٌ بصِيغةِ الجمعِ للتّعظِيم كقولِه تعالى: ﴿نَّحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡ﴾، ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ﴾ ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا وَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ﴾، ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾، ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞ﴾ ﴿أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾، ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا﴾، ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ﴾، والأمثلـةُ في ذلـك كثيرةٌ جدًّا، وليسَ المرادُ بـ «إنَّا» و«نحنُ» حقيقـةَ الجَمعِ بل هو لَفظٌ يُؤتَى بِه بصِيغةِ الجَمعِ والمُرادُ به التّعظيمُ، وهذا أمرٌ معلومٌ في لُغةِ العرَبِ.

(٢) الصُّور هو بُوقٌ عظِيمٌ. وإسرافيلُ عليه السّلامُ هـو المَلَكُ الّذي خلَقَه اللهُ وجعَلَه مُلْقمًا البُوق مُنذُ خُلِقَ. والصُّورُ يُقالُ له البُوقُ والقَرْنُ والنّاقُور، يَنفُخ فيه إسرافيلُ النَّفخةَ الأُولى عِندَ نِهايةِ الدُّنيا وقِيامِ السّاعةِ علَى الكافرين وموتِ كُلِّ حَيٍّ مِن المخلُوقاتِ إلّا مَن شاءَ اللهُ، فتتقطَّعُ قُلوبُ الكافرين في صُدورِهم فزَعًا ممّا يَسـمَعُون مِن الصَّوتِ، ثُمّ تأتي النَّفخةُ الثّانيةُ عِندَ البَعثِ مِن القُبورِ بَعـدَ أربعِينَ عامًا من النَّفخةِ الأُولى. وقـد ورَد أنّ جَناحًا من أجنحةِ إسرافيلَ مِثـلُ كُلِّ أجنحةِ جبريلَ حَجمًا، لكن لم يَثبُـتْ هذا فلا نَجزِم به، وكذلك لم يَثبُت أنّ إسرافِيلَ يَتضاءَلُ مِن خَشيةِ اللهِ إلى أنْ يَصِيرَ بحَجمِ العُصفورِ.

الدُّنيـا ﴿وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ أي ونحصِي عليهم ءاثارَهُم الّتي أبقَوها والمُحدَثات الـّتي أحدَثُوها، فمِن الحسَـنات عِلمٌ نافعٌ علَّمَه غيرَه ومسـجِدٌ بَناه مِن حلالٍ وشـجرةٌ مُثمِرةٌ غرَسَـها لِينتفعَ بها النّاسُ والدَّوابُّ وغيرُ ذلك مِن وجُوهِ البِرّ، ومِن المُحدَثاتِ السَّـيِّئاتِ تأسـيسُ قوانِين الظُّلمِ والعُدْوانِ واستِحداثُ سُنَنٍ سَيّئةٍ كقَتلِ قابيلَ هابيلَ[(١)] وكتَحريم ابن تيمية شيخِ المُجسّـمةِ شَدَّ الرّحالِ وإنشاءَ السَّـفَر بقَصدِ زِيارةِ قُبورِ الأنبياءِ عليهِمُ السّلامُ والأولياء رضي الله عنهُم، وقد قال قَبَّحَه الله في قَضيّةِ ذلكَ السَّفر: «إنّه سـفَرُ مَعصِيةٍ لا تُجمَعُ فيـه الصّلاةُ ولا تُقصَرُ»[(٢)] وكَسَـنِّ الوهابيّةِ

---

(١) روَى الشَّيخانِ وغيرُهما عن ابن مَسعُودٍ رضي الله عنه أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «**لا تُقْتَـلُ نَفْسٌ**» أي مُؤمِنةٌ «**ظُلْمًا إلَّا كانَ عَـلَى ابْنِ ءادمَ الأَوَّلِ كِفْلٌ**» أي نصيبٌ «**مِن دَمِها لِأَنَّه أَوَّلُ مَن سَنَّ القَتْلَ**».
قال شـيخُنا رحمه الله: «قابيلُ ما تابَ مِن مَعصِيةِ قَتلِ أخيه، ولو تابَ ما كان يُكتَبُ عليه ما يَحدُث مِن القَتلِ الظُّلم بعدَه. أمّا ندَمُ قابيلَ الّذي جاءَ خبرُه في الآية: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ فليسَ ندَمُه توبةً بل كان احتارَ ماذا يَفعَل». وبنحوِ ذلكَ قال أبو الحسَـن الواحـديُّ والماورديُّ والفَخر الـرازيُّ والقُرطبيُّ وأبو السُّعود وغيرُهم في تفاسيرِهم.

(٢) قاله ابنُ تيمية في كِتابه المسمّى «قاعدة عَظيمة في الفَرقِ بَين عِباداتِ أهلِ الإسلام والإيمانِ وعباداتِ أهلِ الشِّركِ والنِّفاق» (ص/ ٩٧-٩٨). ولنا في الرَدِّ عليه رِسالةٌ مُستقِلّةٌ سرَدْنا فيها الأدِلّة الشّرعيّة النّاصِرةَ لمَذهبِ أهلِ=

المجسِّمةِ تكفيرَ المُسلمينَ المتوسّلين والمتبرّكين والمُستغيثِين بالأنبياءِ والأولياءِ بَعد مماتِهم وفي حياتِهم بغَيبَتِهم (١) وكسَنِّهم تَكفيرَ مَن يُعلِّقُ الحِرزَ الّذي فيه ءاياتٌ قُرءانيّةٌ وأسماءُ اللهِ الحُسنَى وغيرُ ذلك مِما هو جائزٌ بإجماعِ المُسلمينَ (٢)، ويَدُلّ على ذلكَ قولُ رسولِ الله ﷺ: «مَنْ سَنَّ في

= السُّنّةِ والجماعةِ هي «إضاءةُ المَنارةِ على صِحّةِ أو حُسنِ حديثِ الزّيارة».

(١) ولنا في الرَدِّ عليهم رِسالةٌ مُفردَةٌ أسمَيناها «**عُمدَة الكلام في أدِلّةِ جَوازِ التبرُّكِ والتوسُّلِ بخَيرِ الأنام**».

(٢) والبِدعُ السيّئةُ الّتي زعمَ مُبتدِعوها أنّها مِن الإسلامِ كثيرةٌ جدًّا، نذكُر منها على وَجهِ التّحذيرِ بدعةَ حزبِ الإخوانِ أتباعِ سيّد قُطب الّذين حكَمُوا بكُفرِ مَن يحكُم بالقانُون الدُّنيويّ الوَضعيّ ولو في قضيّةٍ واحدةٍ كما حكَمُوا بكُفر الرَّعيّةِ الّذين هُم تحتَ الحاكِم الّذي يحكُم بالقانون الوَضعِيّ، وسببُ قولِهم بذلكَ تحريفُهم تفسيرَ قولِ الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَـٰفِرُونَ﴾ فيقول سيّد قُطب في كتابه المُسمَّى «في ظِلال القُرءان» (٢/ ٨٩٨) عِندَ هذه الآيةِ: "بهذا الحَسمِ الصّارِمِ الجازِمِ وبهذا التّعميم الّذي تَحمِلُه «مَن» الشّرطيّةُ وجُملةُ الجَوابِ بحَيثُ يَخرُج مِن حُدودِ المُلابَسةِ والزّمانِ والمَكانِ ويَنطلِقُ حُكمًا عامًّا علَى كُلّ مَن لَم يحكُم بما أَنزَل اللهُ في أيِّ جيلٍ ومِن أيِّ قَبيلٍ. والعِلّةُ هي الّتي أسلَفْنا من أنّ الّذي لا يَحكُم بما أَنزَل اللهُ إنّما يَرفُضُ أُلوهيّةَ الله، فالأُلوهيّة مِن خَصائِصها ومِن مُقتَضاها الحاكِميّةُ التَّشريعيّةُ، ومَن يحكُمُ بغَيرِ ما أَنزَل اللهُ يَرفُضُ أُلوهيّةَ اللهِ وخَصائِصَها في جانِبٍ ويَدَّعِي لِنَفْسِه هو حَقَّ الأُلوهيّةِ وخَصائِصَها في جانِبٍ ءاخَرَ، وماذا يكونُ الكُفرُ إنْ لَم يكُن هو هذا وذاك؟!»، ثُمّ يقول:=

الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شيءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ» وهو حديثٌ صحيحٌ.

﴿وَكُلَّ شَىْءٍ﴾ كائنٍ مِن أعيانٍ وأعمالٍ، خيرٍ أو شرٍّ، إلى نهايةِ الدُّنيا ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾ أي أثبتَ اللهُ ذِكرَه تفصيلًا ﴿فِىٓ إِمَامٍ﴾ أي في أُمِّ الكتابِ ﴿مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾ أي كاشفٍ عن حقيقةِ ما أُثبِتَ فيه وهو اللَّوحُ المَحفُوظ؛

= «والتّأويلُ والتأوُّلُ في مِثلِ هذا الحُكمِ لا يعني إلّا مُحاولةَ تحريفِ الكَلِمِ عن مَواضِعِه».

والصّوابُ في تفسيرِ هذه الآيةِ ما ثبتَ عن سيّدنا عبدِ اللهِ بن عبّاسٍ رضي اللهُ عنه وهو حبرُ الأُمّةِ ومُفسِّرُها الّذي ضمَّه إليه رسولُ اللهِ ﷺ ودَعا له فقال: «**اللّهُمَّ عَلِّمْهُ الحِكْمَةَ وَتَأْوِيلَ الكِتَابِ**» أي تفسيرَ القرءانِ الكريمِ، قال ابنُ عبّاسٍ رضي اللهُ عنه: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ليسَ بالكفرِ الّذي يذهبُون إليه، إنّه ليسَ كُفرًا يَنقُل عن المِلّةِ، كُفرٌ دونَ كُفرٍ» أي مَعصيةٌ كَبيرةٌ تُشبهُ الكُفرَ، وذلك كقتلِ المُسلمِ بغَيرِ حقٍّ الّذي قال فيه رسولُ اللهِ ﷺ: «**سِبابُ المُسلِمِ فُسوقٌ وقِتالُهُ كُفرٌ**» لا يُريدُ به أنّ قِتالَ المُسلمِ للمُسلمِ بغيرِ حقٍّ كُفرٌ يُخرِجُ مِن الدّينِ ما لَم يَستحِلَّهُ الفاعِلُ إنّما المرادُ أنّه ذنبٌ كبيرٌ يُشبهُ الكُفرَ بدليلِ أنّ القُرءانَ الكريمَ سمّى الفِئتَينِ المُتقاتِلتَينِ مِن المُسلمِينَ بغَيرِ حقٍّ مؤمنينَ فقال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾.

فقد روى الإمامُ أحمدُ والترمذيُّ والطَّيالسيّ والبيهقيُّ وغيرُهم عن عُبادةَ ابنِ الصَّامتِ رضي اللَّه عنه قال: سَمِعتُ رسولَ اللَّه ﷺ يقول: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ**[١]**، ثُمَّ قَالَ**[٢]**: اكْتُبْ، فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**».

تنبيه: ما يُروى كَذِبًا في بعضِ كُتب المُبتدِعةِ مِن أنّه حِينَ نزلَ قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ قام أبو بكرٍ وعُمر رضي اللَّه عنهُما وقالا: يا رسولَ اللَّه هو التّوراةُ، فقال: لا، فقالا: فهو الإنجيلُ، فقال: لا، فقالا: فهو القرءانُ، فقال: لا، فأَقبَلَ عليّ رضي اللَّه عنه فقال النّبيُّ: «هو هذا، إنّه الإمامُ الّذي أحصَى اللَّهُ فيهِ عِلمَ كُلّ شيءٍ» فهو **كلامٌ ضَلالٌ وكُفرٌ صُراحٌ مكذوبٌ على رسولِ اللَّه ﷺ**، وواضِعُه زِنديقٌ مُفْترٍ على رسولِ اللَّهِ وعلى دِينِه وعلى أبي بكرٍ وعُمرَ رضي اللَّه عنهُما ومُغالٍ في سيّدِنا عليّ رضي اللَّه عنه، فإنّه يستحيلُ على النّبيّ ﷺ أن يقول عن أحدٍ مِن الخَلقِ: «إنّ فيه عِلمَ كُلّ شيءٍ» حاشا، فرسولُ اللَّه ﷺ أعلَم

---

(١) أي بَعدَ خَلقِ الماءِ والعَرشِ لوجودِ نُصوصٍ تَدُلُّ على أوّليّة الماءِ المُطلَقة على كُلّ شيءٍ وأوليّةِ العَرشِ بعدَ وُجودِ الماءِ، فتكونُ الأوليّةُ المنسوبةُ للقلَم في هذا الحديثِ نِسبيّةً أي هو أوّلُ المخلوقاتِ بالنسبة لجِنسِه أو أنّه أوّلُ المخلوقاتِ بالنسبة لِما يأتي بَعدَه.

(٢) أي أمرَه اللَّهُ عزَّ وجلَّ، وكلامُ اللَّه تعالَى ليس حرفًا ولا صوتًا ولا لغةً ولا يُبتدأُ ولا يُختتم ولا يَتعاقب ولا يتقطَّعُ ولا يُتخيَّل في الأذهان، كلامُه عزَّ وجلَّ صفةٌ له أزليّة أبديّة يُؤمَن بها على ما ذكَرنا ولا يجوزُ تكييفُها.

خَلقِ اللَّهِ بدِينِ اللَّه ولا أحَدَ يَعلَمُ كُلَّ شيءٍ إلّا اللَّهُ، ولا يَقُول أدنَى مُسلِم عن أحَدٍ دُونَ اللَّهِ «إنّه يَعلُم كُلَّ شيءٍ» وإلّا لكانَ القائِلُ مُساوِيًا بَين اللَّهِ وبـيـنَ خَلقِه في صِفةِ العِلم، تنزَّه اللَّهُ عَن ذلكَ، فمِن بابِ أولَى أن يكونَ رسـولُ اللَّه ﷺ مُبرَّأً مِن أنْ يقول كلامًا لا يقولُه به أدنَى مُسـلِمٍ لِفَظاعةِ هذه المَقالةِ وشَـنـاعتِها وتكذيبِها لدِين اللَّهِ عزَّ وجلَّ، وقد أخرَجَ الإمامُ الطبَريّ عن عُقبةَ بن عامرٍ رضي اللَّه عنه أنّ رسـولَ اللَّهِ ﷺ قال: «**ما لِي عِلْمٌ إلَّا ما عَلَّمَني اللَّهُ**»، وقال مُفتِي المدِينة المنوَّرةِ الشّيخُ أحمدُ البَرْزنجيُّ الحُسَينِيُّ السُنّيّ الأشعَرِيُّ: «مَن ساوَى بَين عِلمِ اللَّه وعلم خَلقِه فهو كافر بالإجمـاع». فَمن يقول في نَبِيّ مِن الأنبياءِ: «إنّه يَعلَمُ كُلَّ ما يَعلَمُه اللَّهُ» فهو كافرٌ باللَّهِ، فكَيفَ بِمَن يقولُ ذلك في سيِّدِنا عليّ رضي اللَّه عنه!

قِصّة أصحابِ القَريةِ

قـال اللَّه عزَّ وجلَّ ﴿وَٱضۡرِبۡ﴾ أي واذكُرْ يا محمّـدُ ﴿لَهُم﴾ أي لِقَومِك ﴿مَّثَلًا﴾ قِصّةً عجِيبةً فيها عِبَرٌ ﴿أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ أنْطاكِيَة[1] ﴿إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ١٣﴾ أي الدُّعاةُ المَبعُوثونَ بحَقٍّ مِن قَبل نَبِيّ اللَّه عِيسَى ﷺ.

وفي خبَرِ ذلكَ أنّ سيّدنا عِيسى عليه السّلامُ - كدأْب إخوانِه مِن الأنبياءِ عليهِمُ الصّلاة والسّلامُ - كان ءامِرًا بالمعرُوفِ ناهيًا عن المُنكَر مُعلِّمًا وناشِرًا لدِين الإسـلام، داعِيًا إلى عِبادةِ اللَّه وحدَه وأنْ لا يُشرِكَ بِه وأنّه

(١) مدينة مشهورةٌ تقع غربِيَّ حلَبَ في لواء إسكندرون.

ليسَ لـه ولَدٌ ولا زوجةٌ ولا شريـكٌ ولا مُعِينٌ، ليس مُشـابِهًا لشيءٍ مِن خَلقِه، ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ﴾ أي أرسـلَ عِيسَى ﷺ بأمـرٍ مِن اللّهِ ﴿إِلَيۡهِمُ﴾ أي إلى أهلِ أنطاكِية ﴿ٱثۡنَيۡنِ﴾ مِن تلامِذتِه الحَوارِيّين يَدعُون عبدَة الأوثانِ هنالِكَ إلى الإيمانِ باللّهِ وحدَه وعدمِ الإشراكِ به[1].

فانطلَقَ الرَّجلان نحوَ أنطاكِيةَ، فلَمّا قَرُبا مِن المدِينة رأيا شَـيخًا كبيرًا يَرعَى غُنَيماتٍ له وهو حبِيبُ النَجّار، فسَلّما عليه فقال لهما: مَن أنتُما؟ فقالا: رَسُولا عِيسَى عليه الصّلاةُ والسَّلامُ نَدعُوكُم إلى عبادةِ الرَّحمنِ بدلَ عبادةِ الأوثانِ، فقال لَهُما: أَمعَكُما ءايةٌ؟ أي علامةٌ على صِدقِكما، قالا: نعَم، نَشـفِي المَرِيضَ ونُبرِئُ الأَكْمَه والأَبْرَص بإِذْنِ اللّه، فقال لهما: إنّ لي ابنًا مريضًا مُنذُ سِـنِينَ، قالا: فانطلِقْ بِنا نَطَّلِعْ على حالِه، فأتى بهما إلى مَنزِله فمَسَـحا عليه فقام في الوَقتِ بإذنِ اللّهِ تعالَى صَحِيحًا، ففَشـا الخبَرُ في أَنْطاكِيَة، وشفَى اللّهُ تعالى على أَيدِيهما كثِيرًا مِن المرضَى.

وكان لأهلِ أَنْطاكِيَة في ذلكَ الوقتِ مَلِكٌ مِن الرُّومِ يَعبُد الأصنامَ اسـمُه أنطِيخُس، فبَلغَه خبَرُ الرَّجُلَين فدَعا بهما وقال: مَن أنتُما؟ قالا: رَسُـولا عِيسَى عليه الصَّلاةُ والسَّـلامُ، قال: وفِيمَ جِئتُما؟ قالا: نَدعُوكَ إلى ترك عِبادةِ ما لا يَسـمَعُ ولا يُبصِرُ وإلى عِبادةِ مَن يَسـمَعُ ويُبصِرُ، فقال: ولنا

(١) اختُلِفَ في اسـمَيهِما على أقوالٍ كثيرةٍ، فقِيـلَ: قارُوصُ ومارُوصُ، وقِيل: تُومانُ ومانُوصُ، وقيل: صادِقٌ وصَدوقٌ، وقيل غيرُ ذلك.

إلـه دُونَ ءالهتِنا؟! قالا: إلهُكَ الّذي أوجدَكَ وءالِهَتَك[١]، فقال: قُوما حتَّى أنظُرَ في أمرِكُما، ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ أي الملِكُ وأهلُ أنطاكيَةَ وتَبِعَهُما النّاسُ فأخَذُوهُما وضَربُوهما في السُّـوقِ، وأجمَعَ الملِكُ على قَتلِهما ولَم يُنفِذ ذلك على الفورِ بل حبَسَـهُما، ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ أي قوَّيْنا الرّسـالةَ وشدَدْناها برَسـولٍ ثالثٍ مِن قِبَلِ عِيسَى ﷺ وهو شَـمعونُ، ﴿فَقَالُوٓاْ﴾ أي وكان قولُ الثّلاثةِ لأهلِ أنطاكيةَ ﴿إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ١٤﴾ لِندعُوَكم إلى عبادةِ اللّهِ وحدَه وأنْ لا يُشرَكَ به شىءٌ، وقيل: كان الثّلاثةُ أنبياءَ مِن اللّهِ إلى أهلِ أنطاكيةَ.

ودخَل شَـمعونُ أنطاكيَـةَ مُتنكِّرًا، فجعَل يتقرَّب مِن حاشـيةِ المَلِك حتّى أنِسُـوا به فرفَعُوا خبَرَه إلى المَلِك، فدَعـاه وأنِسَ به وأكرمَه ورَضِيَ عِشرَتَـه، فقال شَـمعونُ ذاتَ يومٍ للملِك: بلَغَني أنّكَ حبَسـتَ رَجُلَين في السِّـجن وضرَبْتَهُما فهَلْ سَمِعتَ قولَهما؟ فقال: حالَ الغضَبُ بيني وبينَ ذلكَ، فدَعاهُما المَلِكُ فقال لهُما شَمعونُ: مَن أرسَلَكُما إلى ههنا؟ قـالا: اللّهُ الّذي خلَقَ كُلّ شىءٍ وليسَ له شَريكٌ، فقال لهُما شَـمعونُ: فَصِفَاه وأَوْجِزا، قالا: إنّه يَفعَلُ ما يَشاءُ ويَحكُم ما يُرِيدُ، فقال شَمعونُ: ومـا ءايَتُكمـا؟ أي علامةُ صِدقِكُما، قـالا: ما تَتمنّاه، فأمَـرَ المَلِكُ عندئذٍ بغُلامٍ مَطمُـوسِ العَينَين ومَوضِعُ عَينَيه كالجَبهةِ ممسـوحٌ، فما زالا يَدعُوَانِ اللّهَ حتَّى انشَـقَّ مَوضِعُ البصَرِ مِـن الغُلامِ وله عَينانِ يُبصِرُ

(١) أي الّتي تزعمُها ءالهةً.

بِهِما، فقال شَمعونُ للمَلِك تبكِيتًا: إنْ أنتَ سألتَ إلهكَ صنَعَ لكَ مِثلَ هذا؟! فقال له المَلِكُ: ليس لي عنكَ سِرٌّ مكتومٌ فإنّ إلهنا الّذي نَعبُده لا يَسمَعُ ولا يُبصِرُ ولا يَضُرُّ ولا يَنفعُ، فقال المَلِك للرَّجُلَين: إنْ قدَرَ إلهُكُما الّذي تَعبُدانِه على إحياءِ مَيّتٍ ءامنّا به، فقالا: إلهُنا قادِرٌ علَى كُلّ شيءٍ، فقال المَلِكُ: إنّ ههنا مَيّتًا قد مات منذُ سَبعةِ أيّامٍ وهو ابنُ دِهْقانٍ[1] وأنا أخَّرْتُه فلَم أَدْفِنه حتَّى يَرجِعَ أبُوه وكان غائبًا، فجاؤوا بالميّت وقد تغيَّر وأَرْوَحَ[2] فجعَلا يَدعُوانِ رَبَّهما علانيةً وشَمعونُ يَدعُو ربَّه سِرًّا، فقام الميّتُ وقال: إنّي مَيّتٌ مُنذُ سَبعةِ أيّامٍ مُشرِكًا فأُدخِلتُ في سَبعةِ أَودِيةٍ مِن النّارِ، وأنا أُحذِّرُكم ما أنتم عليه فآمِنُوا باللهِ، وقد فُتِّحَت أبوابُ السَّماء فأُرِيتُ مِن حيثُ أنا هؤلاءِ الثّلاثةَ[3]، قال المَلِكُ: ومَنِ الثّلاثةُ؟ قال: شَمعونُ وهذانِ، وأشار بِيَدِه إلى صاحِبَيه، فعَجِبَ المَلِكُ مِن ذلك، فلمّا عَلِمَ شَمعونُ أنّ قولَه قد أثَّر في المَلِك أخبَرَه بالأمرِ ودعاهُ إلى الإيمانِ، ولكنّ الآياتِ لَم تَزِدْ أهلَ الكُفرِ إلّا طُغيانًا وتكذيبًا، ﴿قَالُوا۟﴾ أي أهلُ أنطاكية مُكذّبِينَ للثّلاثةِ الدُّعاةِ المُرسَلِينَ ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ مِن غيرِ مَزِيّةٍ لَكُم تختَصُّون

(١) بكَسرِ الدّالِ وضَمِّها، مصروفٌ وغيرُ مصروفٍ، وهو زَعيمُ القَومِ وكبيرُ القَريةِ ومُقدَّمُ أصحابِ الزّراعةِ وهو مُعرَّب.

(٢) أي صارَ ذا رائِحةٍ.

(٣) أي في الجنّة.

بِها علَينا بِما تدَّعُونَ ﴿وَمَآ أَنزَلَ﴾ أي ولَم يُنزِل ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ الّذي تدَّعُونه إلهًا واحِدًا ﴿مِن شَيۡءٍ﴾ مِمّا تدَّعُونه مِن أمرٍ ونَهيٍ ﴿إِنۡ﴾ أي ما ﴿أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ١٥﴾ فيما تزعُمون ﴿قَالُواْ﴾ أي الدُّعاةُ الثّلاثةُ ﴿رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ١٦﴾ بالحُجَج والآياتِ الدالّة على صِدقِ ما جِئناكُم بِه مِن الدَّعوةِ وإنْ كذَّبْتُمونا.

﴿وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ١٧﴾ أي إلّا أنْ نُبَلِّغَ ونُبيِّن لكُم بالحُجَجِ والبَراهِين بأنّ اللّهَ واحِدٌ لا شَرِيكَ له فاعبُدوه ولا تُشرِكُوا به، فإنْ أطَعتُم نِلتُم السَّعادة في الدُّنيا والآخِرة، وإنْ لم تَستجِيبُوا فسَتَعلمُون عاقبةَ أمرِكُم.

وحُبِسَ عن أهلِ أنطاكيةَ المطرُ، وقيل: إنّ الجُذامَ قد انتشَر فِيهم، فـ ﴿قَالُوٓاْ﴾ للمرسَلِينَ ﴿إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡ﴾ أي تشاءَمْنا مِنكم، فما أصابَنا مِن البلاءِ فبسببِكُم، ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ﴾ أي تَسكُتوا عَن مَقالَتِكم الّتي تدَّعُونها دِينًا ﴿لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ﴾ بالحِجارةِ فنَقتُلكم ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم﴾ أي ولَيُصِيبنَّكُم ﴿مِّنَّا﴾ قبلَ أنْ نقتُلَكُم ﴿عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٨﴾ أي مُؤلِمٌ وذلك بأنْ نُحرِّقكُم.

﴿قَالُواْ﴾ أي المُرسَلُون الثّلاثةُ للكفرةِ ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ﴾ أي ما أصابَكُم مِن بَلاءٍ سببُه كُفرُكم وتَكذِيبُكم بالدِّين الحَقِّ ﴿أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ﴾ أي

أمرُكم عجيبٌ، إنْ وَعظْناكُم وذكَّرْناكُم ما فيه خيرٌ لَكُم تشاءَمْتُم بِنا[١]، وليسَ الأمرُ كما تدَّعون، ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ۝١٩﴾ أي مُجاوِزُون الحَدَّ حيث كُنتُم مُشرِكِين ضالِّينَ مُتمادِينَ في العِصيان.

﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ أي مِن طرَفِ أنطاكيةَ ﴿رَجُلٌ﴾ وهو حبيبٌ النَّجّارُ الّذي ءامنَ ﴿يَسْعَىٰ﴾ إلى قومِه بعدَما بَلَغَه أنَّهُم كذَّبُوا الرُّسلَ الثّلاثةَ وقصَدُوا قتلَهُم، فلمّا جاء قومَه خاطبَهُم بأسلوبِ النّاصحِ يُريدُ أنْ يَستَميلَ قُلوبَهُم إلى قَبولِ الحقّ فـ﴿قَالَ﴾ لَهُم ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢٠﴾ فِيما دَعوكُم إليه مِن الحقّ واترُكُوا ما أنتُم عليهِ مِن الباطِل، ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا﴾ أي اتَّبِعُوا هؤلاءِ المُرسلِينَ في أمرِ الدِّين فإنّهُم لا يسألُونَكُم شيئًا مِن أموالِكُم فتَخسَرُوا بل ترْبَحُون في أمرِ دِينِكُم وتبقَى لَكُم أموالُكم فيحصُل لكُم بذلك خيرُ الدُّنيا والآخرة ﴿وَهُم﴾ أي الرُّسل ﴿مُّهْتَدُونَ ۝٢١﴾ أي على هُدًى مِن ربّهِم مُستقِيمُونَ على طريقِ الحقّ، فجعَلَ حَبيبٌ يُكرِّرُ لَهُم ويُرغِّبُهم في اتّباعِ الدِّينِ الحقّ، فلمّا رأوا مِنه ذلك قالوا له: أوَ أنتَ مُخالِفٌ لدِينِنا ومُتابعٌ دِينَ هؤلاءِ؟ فلَم يَخْشَ حبيبٌ قولَ الحَقّ بل صرَّح به وجعَلَ يزيدُ في النُّصحِ لَهُم مُتلطِّفًا بِهِم فقال: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ أي وأيُّ شىءٍ يمنَعُني أنْ أعبُدَ ربِّيَ الّذي خلَقَني ولا أُشرِكَ به شيئًا، وكأنّه قال: وما

(١) ليُحذَر مِن قولِ بعضِ الكفرةِ الّذين يَعتبِرُون تلاوةَ القُرءانِ في بعضِ الأوقاتِ شُؤمًا، فتَراهُم إذا سَمعُوا صوتَ قِراءةِ القُرءانِ قالوا: «أطفِئُوه، الآنَ يموتُ لنا أحَدٌ»، جاعِلِينَ إيّاهُ شُؤمًا مَجلَبَةً للمَكارِه، والعياذُ باللهِ تعالَى.

لَكُم أنتُم أيضًا لا تَعبدُون خالِقَكُم ﴿وَإِلَيْهِ﴾ أي وإلى حِســابِه وجَزائِه ﴿تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾﴾ بعدَ المَوت، ومعناه عاقبةُ أمري وأمرِكُم أنّا نُبعَثُ بعدَ الموتِ ونَصِيرُ إلى حِسابِ اللّهِ لنا فيُجازِينا علَى ما قدَّمْنا في هذه الدُّنيا مِن العمَلِ، فأخرَجَ الكلامَ في صُورةِ النّاصحِ لِنَفسِه تلَطُّفًا بِهم لأنّه يُرِيدُ نُصحَهم، وقد بيَّنَ لهم أنّه إنّما يريدُ لَهُم نَفسَ الخيرِ الّذي اختارَه لِنَفسِه.

ثُـمّ أتبَعَ كلامَه بِمـا فيه تَنفيرٌ لَهُم مِـن عِبادةِ الأصنـامِ وبَيانُ أنّها لا تستَحِقُّ العِبادَةَ، وأخرَجَ الكلامَ على أسلوبِ المُخاطِبِ نَفسَـه لِمَا سبَقَ ذِكرُه فقال: ﴿ءَأَتَّخِذُ﴾ أي كَيفَ أتّخِذُ ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ أي سِوَى خالِقِي ﴿ءَالِهَةً﴾ أعبُدُها مع أنّهـا ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ﴾ أي إنْ يَشـإِ اللّهُ أنْ يُصيبَنِي بِسُوءٍ ومَكرُوهٍ ﴿لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾ أي ليستْ تَدفَعُ عنّي هذه الأصنامُ شيئًا مِن هذا السُّوءِ إذْ لا شَفاعَةَ لها بالمرّةِ ﴿وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾﴾ أي ولا يَستَطِيعُ هؤلاءِ المعبودون مِن دُونِ اللّهِ تَخلِيصِي مِن ذلكَ الضُّرِّ، فإنِ اتَّخَذتُ غيرَ اللّهِ إلهًا ﴿إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ أي انحِرافٍ عَن الحقِّ ظاهِرٍ وخُسرانٍ بَيِّنٍ واضحٍ.

ثُـمّ صرَّح بإيمانِه فقـال لِقَومِـه: ﴿إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ﴾ مالكِكُم وخالِقِكُم وهو اللّهُ ﴿فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾ أي فاسـمَعُوا قَـولِي وأطِيعُوني، فقَد أرشَـدتُكُم إلى الحَـقِّ وبيَّنتُ أنّ العِبادةَ لا تكـونُ إلّا لِمَن خلقَكُم وهو الّذي يُعِيدُكم بَعدَ الموتِ لِيُحاسِبَكُم.

فلمّـا قال ذلكَ وثَبَ قومُه علَيه وَثْبةَ رَجُـلٍ واحدٍ فقتَلُوه، وقيل: رجَمُوه

بالحِجـارةِ حتّى أهلَكوه، وقيـل: حرَّقوه، فمـاتَ على الإيمـانِ فبَشَّرَتْهُ الملائكـةُ ﴿قِيلَ﴾ له ﴿ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَ﴾ فلمّا أفضى إليها ورأى نعيمَها، وقيل: معناهُ استحقَّ الجنّة وبُشّرَ بها فيدخلُها بعدَ البعثِ، ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ أي بِمَغفرةِ رَبّي لي ﴿وَجَعَلَنِي﴾ أي وبأنّه جعلَني ﴿مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٧﴾ بالجنّةِ.

ولمّا فعلَ الكفرةُ بحبيبٍ ذلـكَ - وقِيل إنّهم قتلُوا الدُّعاةَ الثّلاثةَ أيضًا - عَجّلَ اللّهُ لهم العُقوبةَ في الدُّنيا فقال: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا﴾ أي ولَم يُرسِـل اللّهُ ﴿عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾ أي قومِ حبيبٍ الكافرِينَ ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ أي مِن بَعدِ قَتلِهم لهُ ﴿مِن جُندٖ﴾ أي ملائكـةٍ ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ لإهلاكِهم ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ٢٨﴾ أي ولَم يَكُنِ اللّهُ لِيُنزلَ جُنْدًا كثيرًا لإهلاكِ هؤلاءِ الكفَرةِ لأنّه أرادَ أنْ يُعذّبَهُم بواسطةِ ملَكٍ واحِدٍ فقط، ﴿إِن﴾ أي ما ﴿كَانَتۡ﴾ عُقوبَتُهم الّتي أُهلِكـوا بها ﴿إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ صاحَها بهم جبريلُ عليهِ السّـلامُ ﴿فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ٢٩﴾ أي مَيّتُـون سـاكِنُونَ جميعًا مِن فورِهم كالنّارِ تَخمُدُ[1] في الحالِ فَلا يُسمَع لها صوتٌ.

﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِ﴾[2] أي يا حَسرةً مِن الكافرين على أنفُسِهم، فإنّهم يَتحسَّرُون على حالِهم في الآخرةِ أي يَندمُون أشَـدَّ النَّدمِ على ما ارتكبُوا

---

(١) مِن بابِ نصَرَ يَنصُرُ.

(٢) قال شـيخنا رحمه الله: «معناه هـذا شيءٌ يُتحسَّر منه، ليـسَ معناهُ أنّ اللّه يَتحسَّر، حاشا».

مِـن الكُفرِ والعِصيانِ وعلى أنّهـم ﴿مَا﴾ كانَ ﴿يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ﴾ من رُسـلِ اللّهِ في الدُّنيا يَدعُوهم إلى الإيمـانِ ﴿إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ٣٠﴾ أي يَسـخَرُون منه ويُكذِّبُونه. وقال بعضُهم: يجوزُ تفسِـيرُ الحَسرةِ بأنها مِن غيرِهم عليهِم لِتَركِهِمُ الحقَّ وإقامتِهم على الكُفرِ.

وليسَ معنى الآيةِ أنّ اللّهَ تعالَى يَتحسَّرُ على حالِ العِبادِ، حاشـا للّهِ، فاللّهُ سُـبحانَه مُنزَّه عن جميعِ صِفاتِ المخلوقِين، وحقيقـةُ التحسُّرِ انفِعالٌ وتأثُّـرٌ فلا يجوزُ اتّصـافُ اللّهِ به. ومِن أشـنَعِ ما قاله بعـضُ الوهّابيّة المُجسِّمة في كلامِهم على هذه الآيةِ قولُ شيخِهم عبد الرحمن السَّعدِي (ت ١٣٧٦هـ) في تفسِـيره[١] والعياذُ باللّهِ مِن قولِه: «قال اللّهُ مُتوجِّعًا للعِبـاد: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾»، نَعوذُ باللّهِ من هـذا الكُفرِ والضّلالِ المُبِين، فإنّ إضافةَ التوجُّعِ إلى اللّهِ تشبيهٌ صريحٌ للّهِ بخَلقِه.

ولمّا أخبرَ اللّهُ عزَّ وجلَّ عمّا حَلَّ بكُفّارِ أنطاكِيةَ خوَّفَ كُفّارَ مكّة بعَذابٍ كالّذي أصابَ الأُمَمَ الكافرةَ الماضيـةَ ليَعتبِرُوا فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ﴾ أي

---

(١) تفسير السَّعدي، (ص/ ٦٩٥). وهو شيخ ابن عُثَيمين. وقدَ سبق السَّعدِيُّ هذا تِلمِيذَه إلى ذلكَ الكلامِ الفظيعِ، ثُمّ تَبِعه ابنُ عُثَيمين فقال في «مُجموع فَتاويـه» (١/ ١٧٤): «الحديثُ يدُلّ عـلى أنّ للّهِ مللًا، فإنّ ملَلَ اللّهِ ليسَ كمِثـلِ مللِنا نحنُ»، ويقول أيضًـا (١٠/ ٨٢٧): «فالأذيّةُ للّهِ ثابتةٌ ويجِبُ علَينا إثباتُها لأنّ اللّهَ أثبتَها لِنفسِه، فلَسْنا أعلَمَ مِن اللّهِ باللّهِ، ولكِنّها ليسَتْ كأَذِيّةِ المَخلُوقِ». نعوذُ باللّهِ مِن هذه المَقالاتِ الكُفريّةِ الشّنِيعةِ.

ألَم يَعلمُـوا بمعنَى قَد علِمَ كُفّارُ مكّةَ المُكذِّبون برِسـالتِكَ يا محمّدُ ﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا﴾ أي أنّا أهلكنـا ﴿قَبۡلَهُم﴾ أي قبل مجيءِ قومِك كثيرًا ﴿مِّنَ ٱلۡقُرُونِ﴾ أي الأُمَـمِ الماضيةِ(١) كَعادٍ وثَمودَ بسـببِ كُفرِهم وتكذيبِهِمُ الرُّسـلَ ﴿أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ﴾ أي إلى الدُّنيـا ﴿لَا يَرۡجِعُونَ ٣١﴾ أي أفَـلا يَعتبِرُ قومُك يا محمّـدُ بذلكَ. فكأنّه قِيلَ لهُم: انظُـروا لِمَ لا يَرجِعُون تَجِدُوهُم في تصرُّفِ خالِقٍ مالكٍ قادِرٍ، يَرُدُّهم متَى شـاءَ، وقَـد قدَّرَ أنْ يَرُدَّهُم في الآخِرة، وإنّكُم صائرُون إلى مِثلِ حالِهم فانظُروا في أنفُسِـكُم واحذَرُوا أنْ يأتيَكم بسببِ كُفرِكُم عذابٌ يُهلِكُكم وأنتم غافِلُون.

وفي الآيةِ دليلٌ على إبطالِ دَعوى القائلِين بتَناسُخِ الأرواحِ، حيث قالوا: إنّ الرُّوح تُفارِقُ البدَن بالموتِ إلى بدَنٍ ءاخَر، ولا تزالُ تنتقِلُ من بدَنٍ إلى ءاخَـر على مِقدارِ ما كانتْ مُطِيعةً أو عاصيةً، وزعَمُوا أنّ الألَمَ الّذي يَنـزِلُ بالبهيمةِ إنّما هو تعذيبٌ للرُّوحِ المُسـيئةِ الّـتي نُقِلَتْ إلى هذه البهِيمةِ مِن بـدَنٍ ءاخَر فهي تُعذَّب في بدَنِ البهِيمـةِ بما يُصِيبُها مِن مَكـروهٍ، ورأَوا في هـذا تنزِيهًا للهِ عن القولِ بـأنّ اللهَ يُنزِلُ الآلامَ بأحَدٍ

(١) القَـرنُ مِن النّاسِ القومُ المُقترِنُون في زمَنٍ واحدٍ، وقد جاء في القُرءان مُفردًا وجمعًـا. وقيل: القرنُ: القـومُ المُجتمِعُون في زمَنٍ قلَّتِ السِّـنُون أو كَثُرت بدليلِ قَولِ رسولِ الله ﷺ: «**خَيرُ القُرُونِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُم ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُـم**» أي مِن حيثُ الإجمالِ أفضَلُ الأُمّة الصَّحابةُ ثُمّ بعدَهُم التابعُون أهلُ القَرنِ الثاني الهِجريّ ثُمّ بعدَهم أتباعُ التابعِين أهلُ القَرنِ الثّالِث.

ابتـداءً مِن غـيرِ مُجازاةٍ له على جُـرمٍ ارتَكبَه(١)، وكُلُّ هـذه تُرَّهاتٌ(٢) بَسابِسُ(٣) وخُرافاتٌ صَحاصِحُ(٤) مُصادِمةٌ لدِينِ الإسلام، فمِن تنزيهِ اللهِ وتعظِيمِـه أنْ يُقال: «يَفعَـلُ في خَلقِه ما يَشـاءُ، ويَحكُم فيهم بِما يُريد»، ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [سُورة الأنبياء: ٢٣].

﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا﴾ أي ومـا كُلُّ الأُمَمِ إلّا ﴿جَمِيعٌ﴾ أي جميعُهم ﴿لَّدَيْنَا﴾(٥) أي لِحسـابِنا يومَ القِيامةِ ﴿مُحْضَرُونَ ۝٣٢﴾ مَجمُوعُونَ، سـواءٌ كانُوا مِن الأُمَمِ الّتي أُهلِكَتْ بِعَذاب استِئصالٍ في الدُّنيا أو مِن غيرِها.

ثُـمّ بَيَّن اللهُ تعـالَى لِعبادِه ءاياتٍ دالّةً على كَمالِ قُدرتِه وأنّه الّذي سـخَّرَ لَهُم ما في الأرضِ وغيرِها، وبدأ بذِكر الأرضِ لأنّها مُستقرُّهم حَياةً ومَوتًا

---

(١) ومـن أوضحِ الدّلالةِ في الرَّدِّ عليهم أن يُقال لهم: «لو كان الأمرُ كما زَعَمتُم لَم يُبْتلَ نَبِيٌّ، الواقِعُ كذَّبكم، فإنّ القرءانَ قد شـهِدَ بأنّ اللهَ قد ابتلَى أنبياءَه بأنواعٍ مِن البَلاءِ لِيَزيدَهُم ثَوابًا ورِفعةً على صَبرِهم وليكُونوا قُدوةً للنّاسِ في ذلكَ، وقد قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**أَشَدُّ النَّاسِ بَلاءً الأَنْبِياءُ**».

(٢) أي أباطيلُ وأقوالٌ خاليةٌ مِن الطّائِل.

(٣) أي مكذوباتٌ لا أصلَ لها.

(٤) أي باطلة.

(٥) عـلَى مُقتضَى قـولِ الوهابيّة في مَنعِ التأويلِ وإجـراءِ النُّصوصِ على الظّاهِر يكونُ ربُّ العالَمين بزعمِهم في أرضِ المَحشَرِ، تنزّه اللهُ عمّا يقولُ الكافِرُون تنزُّهًا عظِيمًا.

فقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ﴾ أي ودِلالةٌ لِمُنكري البَعثِ على كَمالِ قُدرةِ اللّهِ على إحياءِ المَوتى بَعد فَنائِهم ﴿ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا﴾ أي إحياءُ اللّهِ الأرضَ الميتةَ الّتي لا نَبتَ فيها ولا زَرْعَ بالمطرِ الّذي أنزله مِن السَّماءِ لِيُخرج به زرعها ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا﴾ أي وإخراجُ اللّهِ مِن الأرضِ الّتي أحياها بالمطرِ ﴿حَبًّا﴾ كالحِنْطةِ والشَّعير وغيرِها ﴿فَمِنْهُ﴾ أي مِن هذا الحَبِّ ﴿يَأْكُلُونَ ٣٣﴾ أي يتغذَّون، فإنّ الحَبَّ مُعظَمُ ما يُؤكَل ويُعاشُ به.

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾ أي خلَقَ اللّهُ في الأرضِ الّتي أحياها بعدَ موتِها ﴿جَنَّٰتٍ﴾ أي بَساتِينَ ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾ وخُصَّا بالذِّكرِ لأنّهما من أعلَى الثَّمرِ وأكثَره عِندَ العرَب، ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا﴾ أي وفتَّحَ اللّهُ بقُدرَته في الأرضِ بعضًا ﴿مِنَ ٱلْعُيُونِ ٣٤﴾ أي عُيونِ الماءِ ﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ﴾ أي مِن ثَمرِ ما ذُكِرَ مِن البَساتِينِ الّتي خلَقَها اللّهُ ﴿وَمَا﴾ أي ومِمّا ﴿عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ أي أيدِي النّاسِ مِن الزَّرعِ والغَرْسِ وغيرِه بتَمكِينِ اللّهِ لَهم مِن ذلكَ، فالكُلُّ بخَلقِ اللّهِ عزَّ وجلَّ سواءٌ كان مِمّا دخلَتْ أيدِي النّاسِ فيه أو لا، فالنّاسُ وأيدِيهم والزَّرعُ والثَّمرُ كُلٌّ بإيجادِ اللّهِ وخَلقِه، وهو عزَّ وجلَّ قادرٌ على إيجاد الزَّرعِ مِن غيرِ أنْ يكُون للنّاسِ فيه عمَل، لكنّه تعالَى أجرَى العادةَ في كثيرٍ مِن الأمورِ أن يكونَ النّاس هُم الزّارِعُون له بتقديرِ اللّهِ، فهُم وأفعالُهم أسبابٌ لا يَخلُقون شيئًا، كما أنّ كَثيرًا من الزَّرعِ لا تَصِلُه يدُ إنسانٍ، وأمّا الملائِكةُ فلهُم تصرُّفٌ في ذلك بأمرٍ مِن اللّهِ.

وقيل: ما للنَّفي ومعنَى ﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ أنّ هذا الثَّمرَ الّذي يأكلُون مِنه لَم تَعمَلْه أيدِيهم ولا صُنعَ لهُم فيه ﴿أَفَلَا

﴿يَشۡكُرُونَ ٣٥﴾ اللّهَ على نِعَمِه.

﴿سُبۡحَٰنَ﴾ أي تنــزَّهَ اللّهُ ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ﴾ أي أصنافَ المخلوقاتِ وأنواعَها المُختلِفةَ ﴿كُلَّهَا مِمَّا﴾ أي خلقَ كُلَّ ما ﴿تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ﴾ من أشــجارٍ وثِمارٍ وحُبوبٍ وغيرِها ﴿وَ﴾ خلَقَ ﴿مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ ذُكرانًا وإناثًا ﴿وَ﴾ خلَقَ ﴿مِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ ٣٦﴾ من سائِرِ الخَلقِ أصنافًا وأنواعًا.

﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ﴾ أي ودِلالةٌ لِمُنكِري البَعثِ علَى كَمالِ قُدرةِ اللّهِ على إحياءِ المَوتَى ﴿ٱلَّيۡلُ﴾ فإنّ ضوءَ النّهارِ يُزيلُــه، فإذَا حانَ وَقتُ انقِضاءِ النَّهارِ ﴿نَسۡلَخُ مِنۡهُ﴾ أي يَفصِــلُ اللّهُ بِقُدرَتِه ﴿ٱلنَّهَارَ﴾ عنِ اللَّيلِ فلا يَبقَى مِن ضوءِ النّهارِ شيءٌ، ويَعودُ اللَّيلُ إلى حالِه الّتي كان علَيها قبلَ أنْ يَنسَــخَه ضَوءُ النَّهارِ، ﴿فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ٣٧﴾ أي داخِلُون في الظُّلمة لا يَقدِرُون عــلَى تَبدِيلِها ولا بُدَّ لَهم مِنَ الدُّخول فِيها. يُقــالُ: أظْلَمْنا أي دخَلْنا في الظَّلامِ وأظْهَرْنا أي دخَلْنا في الظُّهر، ومِثلُه أصبَحْنا وأضحَيْنا وأمسَيْنا.

ولمّا ذكَرَ اللّهُ عزَّ وجلَّ اللّيلَ والنّهارَ ذكَر ءايتَهُما فقال: ﴿وَٱلشَّمۡسُ﴾ أي وءايــةٌ لَهُم الشَّــمسُ ﴿تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ﴾ أي لِحَــدٍّ ﴿لَّهَا﴾ مُقدَّرٍ مُؤقَّتٍ تَنتهِي إليه في ءاخِرِ السَّنةِ ثُمّ تستأنِفُه وهكذا إلى ما شاء اللّهُ، وفي الآية دليلٌ صريحٌ على أنّ الشمسَ مُتحرِّكةٌ غيرُ ساكِنةٍ.

ثُمّ إنّ للشَّــمسِ في دَورِها ثَلاثَمائةٍ وستّين مَشرِقًا ومِثلَهُنّ مَغرِبًا، تَطلُع كُلَّ يومٍ مِن مَطلَعٍ وتَغرُبُ مِن مَغربٍ ثُمّ لا تَعُود إلَيهِما إلى العامِ القابِلِ.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الّذي ذُكِر مِن جرْيِ الشَّمسِ على تَقدِيرٍ مُعيَّنٍ ونِظامٍ مُحكَمٍ

تحارُ فيه العُقــولُ ﴿تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ﴾ في مُلْكِه أي الغالِب بِقُدرَتِه على كُلِّ مَقــدُورٍ ﴿ٱلۡعَلِيمِ ٣٨﴾ أي المُحيطِ عِلمًا بكُلِّ شيءٍ، فقهرُ الشَّـــمسِ وتسييرُها بمقادِيرَ معلومةٍ عليه هيِّنٌ، وقد قدَّر مِن أمرِها ما يكونُ على وَفقِ عِلمِه الأزليّ سُبحانَه فكان ما أرادَ.

﴿وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ﴾ أي وءايــةٌ لهم تقديرُ اللهِ للقمرِ في سَــيرِه ﴿مَنَازِلَ﴾ يَســيرُ فيها مِن أوّلِ الشّهرِ إلى ءاخِره، فيُســتَدلُّ بسَيرِه على مُضيِّ الشّهرِ كما أنّ بالشَّــمسِ يُعرَف اللّيل والنَّهار، وتقديرُ اللهِ الأشياءَ جعلُه إيّاها على مَقادِيرَ مخصوصةٍ زَمانًا ومَكانًا وذاتًا وصِفاتٍ، وهذا الأمرُ شــامِلٌ لجميعِ المخلوقــاتِ، قال عزَّ وجــلَّ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾ [سُورة الفرقان: ٢].

ويبقَى القمرُ يسيرُ في منازِله فيَزِيدُ نُورُه ويَنقُص على مَدارِ الشّهرِ، فإذَا كانَ في ءاخِرِ مَنازِلِه دقَّ وتقوَّسَ ﴿حَتَّىٰ عَادَ﴾ أي صارَ ﴿كَٱلۡعُرۡجُونِ﴾ أي شــبيهًا في رأيِ العَين بعِذْقِ النَّخلِ ﴿ٱلۡقَدِيمِ ٣٩﴾ أي العَتيقِ الّذي إذا قَدُمَ[١] صارَ يابِسًا مُتقوّسًا واصفرَّ، فُشبِّهَ القمرُ به حِين يكوُن في بعضِ مَنازِله. والعِذقُ في النَّخلِ كالعُنقودِ في كَرْمِ العِنَب[٢].

---

(١) يُقال: قَدُمَ الشّيءُ بضَمّ الدّال قِدَمًا إذا صارَ قَدِيمًا.

(٢) قال شيخنا رحمه الله: «نهَى الرّسولُ ﷺ عن تَسمِية العِنَب كَرْمًا لا للتّحريم، لأنّ الكَرم صِفةُ الرّجُل الكريم، قال ﷺ: «**لا تُسمُّوا العِنَبَ الكَرْمَ**» فالرّسُول ﷺ أرشَد إلى العدُولِ عنه إلى العِنَب، فقولُ كَرمٍ عن العِنَب خِلافُ الأَولى».

فائدة: يقعُ حَولَ مدارِ القمَرِ ثمانيةٌ وعِشرونَ مجموعةً مِن النُّجوم لِكُلٍّ مِنها اسـمٌ مخصوصٌ، يَنزِلُ القمَرُ في كُلِّ مَنزِلٍ بمعنَى أنّه يُحاذِيها أثناءَ مَسيرِه ليلةً واحدةً، فيَدُور على المنازِل الثمانيةِ والعشرِين دَورةً واحدةً ثم يسْتَتِرُ ليلة الثّامِن والعشرينَ ويَظهَر بعد طُلوع الفَجر إنْ كان الشهر تسـعةً وعشرينَ يَومًا أو يستترُ ليلة التّاسِع والعشرين ويَظهَر بعد فَجرها إنْ كان الشهرُ ثلاثينَ يومًا.

وأسماءُ المَنازِل الثّمانيةِ والعشرين: الشَّرَطانِ[١]، والبُطَيْن[٢]، والثُّرَيّا، والدَّبَرانُ[٣]، والهَقْعةُ[٤]، والهَنْعةُ[٥]، والذِّراعُ[٦]، والنَّثْرةُ[٧]، والطَّرْفُ[٨]،

---

(١) سُمّي بذلك لأنّهما كالعَلامتَين، وهو غيرُ السَّرَطانِ مِن بُروج الشّمس.

(٢) وضبطَه بعضُهم البَطِين، سُمّي بذلك لأنّه بَطنُ الحمَلِ.

(٣) سُمّي بذلك لاستِدباره الثُّرَيّا ووقوعِه وراءَها.

(٤) بسـكُون القاف، سُمّيت بذلك لشبَهِها بهَقْعة الدابّة وهي دائرةٌ تكون عِندَ رِجل الفارِس في جَنْب الدابّة.

(٥) بسـكُون النُّون، سُـمّيت بذلك مِن قولِهم هَنَعْتُ الشيء أي عطَفْتُه وثنيتُ بعضَه على بعضٍ.

(٦) وهي ذِراع كَوكَبة الأسَد.

(٧) بفَتح النُّون وسكُون الثّاء، سُمّيت بذلك لأنّها كالشيء المنثورِ مِن الأسَد.

(٨) بفَتح الطّاء وسكُون الرّاء، سُمّيت بذلك لأنّها عَينا الأسَد.

والجبْهة(١)، والزُّبْرة(٢)، والصَّرْفة(٣)، والعوَّا(٤)، والسِّماكُ(٥)، والغَفْرُ(٦)، والزُّبانى(٧)، والإكليلُ(٨)، والقَلْبُ(٩)، والشَّوْلةُ(١٠)،

(١) بفَتح الجِيم وسكُون الباء، وهي جبهةُ الأسَد.

(٢) بضمّ الزاي وسكُون الباء، سُمّيت بذلك لأنّها زُبْرة الأسَد أي كاهِلُه وهو ما بَين كَتِفَيه.

(٣) بفَتح الصّاد وسكُون الراء، سُمّيَت بذلكَ لأنّ البَرد يَنصرِفُ بسُقوطها، وقيل: لأنّها صَرْفُ الأسَد أي رأسُه مِن قِبَل ظَهرِه.

(٤) بفَتح العَين وتشديد الواو مقصورًا ويُمَدُّ العَوّاء والقصرُ أجوَدُ، سُمّيَت بذلك لانعِطافها والتِوائها، يُقال: عَوَوْتُ الشيءَ أي عطَفْتُه.

(٥) بكَسر السّين وتخفيفِ الميم ويُقال له: السِّماكُ الأعزَلُ وهو غيرُ السِّماكِ الرَّامِح الّذي ليسَ مِن المَنازِل، سُمّيَ بذلك لارتِفاعِه وخُلوّه عن صُورةِ الرُّمحِ وهو مِن قولِهم: سَمَكَ الشيءُ إذا ارتَفع، ومنهُ السَّمْكُ بمعنَى الارتفاعِ.

(٦) بفَتح الغَين وسكُون الفاء، سُمّيَت بذلك لأنّها في طرَف ذنَبِ الأسَد، والغَفْرُ اسمٌ للشّعرِ الكائِن في طرَفِ ذَنَبه.

(٧) بضمّ الزاي وءاخِرُه ألِفٌ مقصورةٌ وتُسمَّى زُبانَى العَقرَب، سُمّيَت بذلك مِن الزَّبْن وهو الرَّفعُ.

(٨) بكَسر الهمزة، سُمّيت بذلك مِن التكلُّل وهو الإحاطةُ فهو ثلاثةُ كواكِبَ مُحِيطةٌ بالعَقرَب.

(٩) بفَتح القاف وسكُون اللّام، سُمّيت بذلك لأنّها قَلبُ العَقرَب.

(١٠) بفَتح الشّين وسكُون الواو، ويُسمّيها الحِجازِيُّون الإبْرةَ، سُمّيت بذلك =

والنَّعائِمُ(١)، والبَلْدةُ(٢)، وسَعْدُ الذابِح(٣)، وسَعْدُ بُلَعَ(٤)، وسَعْدُ السُّعُودِ(٥)، وسَعْدُ الأَخْبِيةِ(٦)، والفَرْغُ المُقدَّم، والفَرْغُ المؤخَّر(٧)، الرِّشاء(٨).

= لأنّها ذنَبُ العَقربِ وهي شائلةٌ أي مُرتفِعةٌ جِدًّا.

(١) بفَتح النُّون، سُمِّيت بذلك تشبيهًا لها بالخَشَبات الّتي تكُون على البئر.

(٢) بفَتح الباء وسكُون اللّام، وهي فَراغٌ في جوّ السَّماء ليسَ فيه كواكبُ، ينزِلُها القَمرُ، سُمِّيت بذلك تشبيهًا لها بالبَلْدة الّتي هي الفُرْجةُ بين الحاجِبَين.

(٣) بفَتح السِّين وسكُون العَين، سُمِّيت بذلك لكونِها كوكبَين مُعترِضَين مِن الشَّمال إلى الجَنُوبِ وفي جَنْبِ الشَّمالِ مِنهُما نَجمٌ خَفيٌّ كأنّه شاةٌ يَذبَحُها السَّعدُ.

(٤) بضمّ الباء وفتح اللّام ممنوعٌ مِن الصَّرف، سُمِّيَت بذلك لأنّها كالفَمِ المفتوحِ الّذي يُريد أن يَبلَعَ شيئًا، وقيل غيرُ ذلك.

(٥) سُمِّي بذلك لِما يحصُل فيه مِن تصويتِ الطُّيور وإيراقِ الشَّجَر وإصابةِ الإبلِ مَرعاها وإدراكِ الوَردِ وسائِر الرَّياحِين وكَمال الزَّرع وما يَعِيشُ به الحَيوان مِن النَّبات. وقد قال بعضُ أهلِ السِّيَر: صاحِبَ وِلادةَ رسولِ الله ﷺ إشراقُ سَعدِ السُّعودِ، وهي ثلاثةُ أنجُمٍ مِن بُرجِ الجَدْيِ أحَدُها لامِعٌ.

(٦) بفَتح الهمزةِ وسكُون الخاء، جَمعُ خِباءٍ، سُمِّيت بذلك لأنّ الهَوامّ المَخبُوءةَ تخرُج عندَ طُلوعِه، وقيل غير ذلك.

(٧) بفَتح الفاء وسكُون الرّاء وبالغَين المُعجَمة، ويقال لهُما فَرغُ الدَّلْوِ المُقدَّمُ والمُؤخَّرُ، سُمِّيا بذلك لأنّ وَقت طلُوعِهما تَنزِلُ الأمطارُ في أرضِ العَرب كثيرًا، وفَرغُ الدَّلوِ صبُّ الماءِ مِنه.

(٨) بكَسر الرّاء، ويقال لَه بَطنُ الحُوت، وهو على هيئة سَمَكةٍ على بَطنِها =

وكانــت مُشرِكُو العرَب في الجاهليّة يعتقِدُون أنّ المطَر والحَرّ والبَرد كُلّه يجيءُ مِن تصرُّف المَنازِل فيقولــون: «مُطِرْنا بنَوء كَذا»، والنَّوءُ مَغِيبُ نَجمٍ مِن المَنازِل جهةَ المَغرب وقتَ الفَجرِ تَزامُنًا مع طُلوعِ مُقابلِه مِن جِهة المَشرِق، فإنّ لِكُلّ مَنزِلٍ ءاخَر يُقابِلُه مِن ساعَتِه مَغرِبًا ومَشرِقًا.

وبعضُ المنازِل نجمٌ واحدٌ كالصَّرْفة، وبعضُها نَجمان كالزُّبْرة، وبعضها ثلاثــة كالإكليل، وبعضها أربعة كالجَبْهة، وبعضها ســتّة وهو البَلْدة، وبعضها سبعة كالثُّريّا، وبعضها تسعة كالنَّعائم، وبعضها إحدى عشْرة وهو الرِّشاء.

وقد أُطلِقَ على القمَرِ ألقابٌ خاصّةٌ بحسَــبِ الشَّــكلِ الّذي يكونُ عليه في هذه المنازل والهيئةِ الّتي يراه عليها النّاظرُ مِن أوّلِ الشّهرِ إلى ءاخرِه، منها: الهلالُ، والطالِعُ، والزِّبْرِقانُ(١)، والغاسِقُ.

﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ﴾ أي لا يستقِيمُ للشّمسِ ﴿أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ﴾ فتجتمعَ معه في وقتٍ واحدٍ فتَطمِسَ نُورَه، ولا يســتقيمُ للقمر ذلك أيضًا فيُطفِئَ ضوءَهــا، ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ أي ولا يدخُل النَّهــارُ على اللَّيل قبلَ انقضائِــه كما أنّه لا يدخُل اللَّيلُ على النهــار قبل انقضائِه بل يَتعاقَبان بتَقدِيــرٍ معلومٍ فلا يَجِــيءُ أحدُهما قَبل وَقتِه، والقمَرُ نَــيِّرٌ على حِيالِه كما

= كَوكبٌ، والحُوتُ في اللُّغة مُرادِفٌ للسَّمك.

(١) بكَسرِ الزاي والراءِ بينَهما باءٌ ساكِنةٌ.

أنّ الشَّمسَ مُنيرةٌ على حِيالِها، فليسَ أحدُهما يَستمِدُّ ضوءَه مِن الآخَر، ﴿وَكُلٌّ﴾ مِن الشَّمسِ والقمَرِ ﴿فِى فَلَكٍ﴾ أي مَدارٍ ومَجرًى ﴿يَسْبَحُونَ ۝٤٠﴾ أي يَسيرُون بانبساطٍ كجريانِ السّابحِ في الماءِ، وقال بعضُهم: «كُلٌّ» السّابقة ترجِع إلى الشَّمس والقمَر والكواكِب.

﴿وَءَايَةٌ﴾ أي ودليلٌ ﴿لَّهُمْ﴾ وعلامةٌ على كمالِ قُدرةِ اللهِ ﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي جعَلَ اللهُ ءاباءَهم الأقدَمِينَ محمُولِينَ[1] ﴿فِى ٱلْفُلْكِ﴾ أي سفينةِ نُوحٍ عليه السّلامُ ﴿ٱلْمَشْحُونِ ۝٤١﴾ أي المملُوءِ بِما فيه مِن ذَواتِ الأرواحِ والأمتِعةِ، فالذُرّيّةُ تُطلَقُ على الآباءِ والأبناءِ، ومُشرِكُو

---

(١) ونظِيرُه قولُه تعالَى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ [سُورة الإسراء: ٣]، وقولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [سُورة الإسراء: ٧٠]، وقولُه أيضًا: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ [سُورة القمر: ١٣]، وفي ذلكَ رَدٌّ على المُجسِّمة الضُّلّالِ مانعِي التّأويل إطلاقًا لأنّهم لَو حمَلُوا الحَمْلَ هُنا على المعهودِ مِن المُماسّةِ والمُباشَرةِ والمُحاذاة لأدّى قولُهم إلى أنّ اللهَ تعالَى يَمَسُّ خَلْقَه، حاشا للهِ وتقدَّس رَبُّنا عن مُشابهةِ الخَلقِ بأيِّ معنًى مِن المَعانِي. وقد صحّ في الحديثِ أنّ نفرًا مِن الأشعرِيّين فيهم أبو مُوسَى رضي اللهُ عنه سألُوا رسولَ اللهِ ﷺ أنْ يُزوّدَهم ما يَركبُونه ويَحمِلُون عليه مَتاعَهُم، فلمّا فعلَ قال ﷺ: «**لَستُ أنا حَمَلْتُكم ولكنَّ اللهَ حَمَلَكُم**» ومعناه كما قال الحافظُ النوويّ في «شرح صحيح مُسلِم» (١١/ ١١٠) نقلًا عن الماوردِيّ: «معناه أنّ اللهَ تعالَى ءاتاني ما حَمَلتُكم عليه، ولولا ذلك لَم يكُن عِندِي ما أَحمِلُكم عليه». واعتقادُ المسلمِينَ قاطبةً أنّ فِعلَ اللهِ عزَّ وجلَّ مُنزَّهٌ عن المُباشَرة والمُماسّةِ.

مكّة المُنكِرُون للبَعثِ مِن نَسلِ بعضِ مَن كان في سفينةِ نُوحٍ عليه السّلامُ، فإنّه لَم يُعقِبْ مِن أهلِ السّفينةِ إلّا أولادُ نُوحٍ الثّلاثةُ سامٌ وحامٌ ويافِثُ(١)، فكُلّ مَن جاءَ مِن البشرِ بعدَ الطُّوفانِ مِن نَسلِ هؤلاءِ الثّلاثةِ، واستدَلَّ بعضُ المُفسّرين لذلك بقولِه تعالى في شأنِ نُوحٍ عليه السّلامُ: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ [سورة الصافّات: ٧٧]، وهو المَروِيّ عن ابنِ عبّاس وقَتادةَ رضي اللّه عنهم، فذكَّرَ اللّهُ العِبادَ نِعمتَه علَيهم بأنّه لولا إنجاؤُه مَن كان في سفينةِ نُوحٍ لَما جاءَ مِن بَعدِهم نسلٌ، ومِن جُملَتِهم كُفّارُ مكّة المُكذِّبونَ بالبَعثِ.

﴿وَخَلَقْنَا﴾ أي وخلَقَ اللّهُ ﴿لَهُم﴾ أي لهؤلاءِ المُشركينَ المُكذِّبين تفضُّلًا مِنه علَيهم ﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ أي مِن مِثلِ ذلكَ الفُلْكِ ﴿مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ وهي السُّفُن الّتي مُكّنُوا مِن ركوبِها بعدَما صارتْ تُصنَع على مِثالِ سفينةِ نُوحٍ عليه السّلامُ، فلَولا خَلقُ اللّهِ الخَشَبَ والحَديدَ وما تُصنَعُ مِنه السُّفُنُ وتمكِينُه النّاسَ مِن صُنعِها ما كان شيءٌ مِن ذلكَ، وقيل: المُرادُ بالمَركوبِ المُسخَّرِ لَهُم على مِثالِ سفينةِ نُوحٍ عليه السّلامُ الإبِلُ، فإنّها سَفائِنُ البَرّ كالفُلْكِ في البَحرِ.

ثُمّ ذكَّرَهُم اللّهُ عزَّ وجلَّ أنّهم وإنْ رَكِبُوا السُّفُنَ فلا حافِظَ لَهُم غيرُه

(١) جاءَ في الحديثِ الّذي رواهُ أحمدُ وأبو يَعلَى وغيرُهما مرفوعًا في شأنِ الشّفاعةِ أنّه يُقالُ لِطالِبيها مِن عُصاةِ المؤمنِين: «**انطَلِقُوا إلَى أَبِيكُم بَعْدَ أَبِيكُم إلَى نُوحٍ**» الحديثَ.

فقال: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾ في البَحرِ أي لو أرادَ اللّهُ وقدَّر في الأزلِ غَرْقَهُم لأغرقَهم ﴿فَلَا صَرِيخَ﴾ أي فلا مُغيث ﴿لَهُمْ﴾ يُغيثُهم ويَدفعُ عنهُم الغرقَ ﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾﴾ أي ولا هُم يُنْجَون مِن الغرق ﴿إِلَّا﴾ مَن لَم يَشإِ اللّهُ أنْ يُميتَهم بالغرقِ فإنه يَمنعُهم من ذلك ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ أي مِن اللّهِ ﴿وَمَتَٰعًا﴾ أي وتَمتيعًا منهُ لَهُم في الدُّنيا ﴿إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾ أي إلى وَقتٍ تَنقضِي فيه ءاجالُهم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ لهؤلاءِ المُشركين باللّهِ المُكذّبين رَسولَه محمّدًا ﷺ: ﴿ٱتَّقُوا۟﴾ أي احذرُوا ﴿مَا﴾ تقدَّمَ ومضَى ﴿بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ أي مِن قَبلِكم مِن العَذابِ الّذي نَزَلَ بالأُممِ الماضيةِ لِكُفرِهم وتكذيبهمُ الرُّسلَ لئلّا يُصيبَكُم في الدُّنيا ما أصابَهُم ﴿وَ﴾ اتَّقُوا ﴿مَا خَلْفَكُمْ﴾ أي ما يأتيكم وهو الآخِرةُ فآمِنُوا باللّهِ ورَسُولِه ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ أي لِتكُونَ لكم الرَّحمةُ مِن اللّهِ إن مُتُّم على الإيمانِ والطّاعةِ لَه[1]، والجوابُ محذوفٌ

(١) وليس معنى ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ أنَّ اللّهَ لا يَعلَم ما يكون مِنهُم وما عاقبةُ أمرِهم، فإنّ اللّهَ عالِمٌ بكُلّ شيءٍ.
قال الزّركشيُّ في «البُرهان» (٤/ ١٥٨): «عسَى ولعلَّ مِن اللّهِ تعالَى واجِبتانِ (أي للثُّبوتِ لأنّ التّرجّي والشكَّ مُحالانِ مِن اللّهِ) وإنْ كانَتا رجاءً وطمَعًا في كَلامِ المَخلوقِينَ؛ لأنّ الخَلقَ هُم الّذين يَعرِضُ لهُم الشُّكوكُ والظُّنون، والبارئُ مُنزّهٌ عن ذلك».
واستَثنَى أبو حيّانَ وغيرُه مِن التحقُّقِ ءايةً أو ءايتَين كقولِه تعالَى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ أي لو شاءَ اللّهُ ذلك لحصَلَ.

والتّقديرُ: وإذَا قِيلَ لهم هذا أعرَضُوا، ويدُلّ على ذلكَ ما بَعدَه.

ثُمّ أخبَرَ عزَّ وجلَّ عَن تعنُّتِهم في الكُفرِ فقال: ﴿وَمَا تَأۡتِيهِم﴾ أي ولَم تَكُن تَجِيءُ هؤلاءِ الكافرين ﴿مِّنۡ ءَايَةٖ﴾ أي مِن حُجّةٍ وعلامةٍ ﴿ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ أي مِن الدّلائِل الّتي أظهرَها اللهُ لَهُم شاهِدةً على توحِيدِه عزَّ وجلّ وصِدقِ رسولِه ﷺ ﴿إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا﴾ أي عن هذه الدّلائِل ﴿مُعۡرِضِينَ ٤٦﴾ أي مُنصرِفِين تارِكِين التفكُّرَ فيها جَحدًا وتَكذِيبًا كما هو دأبُهم وشأنُهم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ﴾ أي قال المُؤمِنون لمُشرِكي مكّة بعدَ أن قطَعُوا إنفاقَهُم عمَّن أسلَم مِن مَوالِيهم والمُستَضعَفِينَ مِن النّاسِ: ﴿أَنفِقُواْ﴾ على المَساكِين ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ﴾ أي أعطاكُم ﴿ٱللَّهُ﴾ أَبوا و﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطۡعِمُ مَن لَّوۡ يَشَآءُ﴾ أي لو أرادَ ﴿ٱللَّهُ﴾ أنْ يرزُقَه ما يَكفِيه ﴿أَطۡعَمَهُۥٓ﴾ أي رَزَقه، فزعَمُوا أنّهُم يُوافِقُون مشيئةَ اللهِ فلا يَسُدُّون كِفايةَ مَن ضَيّقَ اللهُ عليهِ في الرِّزق.

رُوِي أنّ العاصَ بنَ وائلٍ السَّهْمِيَّ مِن رؤوسِ مُشْرِكي مكّة[١] كان إذَا

(١) هو والدُ عمرٍو وهِشامٍ وسيّد بَنِي سَهمٍ في قُرَيشٍ. كان مِن أشَدِّ النّاس عداوةً للنّبيّ ﷺ وللمُسلِمين والعياذُ باللهِ. رُوي أنّه لمّا مات عبدُ اللهِ ولَدُ النّبيّ ﷺ صغيرًا قال العاصُ عن النّبيّ ﷺ: ذاك الأبتَرُ، يعني بذلك أنّ النّبيّ ﷺ مقطوعُ النَّسلِ، فأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ٣﴾ معناه إنّ مُبغِضَك يا محمّدُ هو المقطوعُ الخيرِ والبركة. وقد أهلَكَ اللهُ =

سألَه المسكينُ قال له: اذهَبْ إلى ربِّك فهو أَولَى مِنّي بِكَ، ويقولُ: قد منَعه اللّهُ أفأُطعِمُه أنا؟!

وإذا سَمِعَ المؤمنُون ذلكَ مِن المشركين قالوا لهُم: ﴿إِنْ﴾ أي ما ﴿أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾ أي خطإٍ بَيِّنٍ فيما تقولُون وتعتقِدُونَ في هذا الأمرِ، هذا مع كونِهم ضالِّين عن الإيمانِ باللّهِ ورَسولِه.

ولمّا قِيل للمُشركِين: ﴿ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ صارُوا يستهزِئُون ﴿وَيَقُولُونَ﴾ للمؤمنِين على سبيلِ الاستِبعادِ ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي بقِيامِ السّاعةِ والبَعثِ ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ فيما تَقولُونه.

ولمّا كانتِ نَفخةُ إسرافيلَ عليه السّلامُ الأُولى في البُوقِ أمرًا واقِعًا لا بُدَّ منه جُعِلَ مُنكِرُو القيامةِ السّائلِين عنها سؤالَ استِبعادٍ كالمُنتظِرِ لها، لا سيّما وأنّهُم قالوا للمؤمنِين على سبِيلِ الاستِبعادِ: «متَى تَكونُ السّاعةُ الّتي تَدَّعُون؟» فوقَع السُّؤالُ منهُم على هَيئةِ مَن يَنتظِرُ حُصولَ الشيءِ، فقال اللّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿مَا يَنظُرُونَ﴾ أي ليسَ يَنتظِرُ هؤلاءِ ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ أي النَّفخةَ الأُولى التي يَنفُخها إسرافيلُ عليه السّلامُ في القَرْنِ ﴿تَأْخُذُهُمْ﴾ أي تَعمُّهم بالهَلاكِ فجأةً ﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ أي يتخاصَمُون في أمورِ الدُّنيا مِن بَيعٍ وشِراءٍ ويتكلَّمُون في مَجالسِهم

=عزَّ وجلَّ العاصَ بنَ وائلٍ على الكُفرِ والعياذُ باللّهِ، وذلك أنّه خرَج يومًا على راحلتِه فنزَل في شِعْبٍ فعَرَض لرِجلِه شَوكةٌ دخلَتْ في أَخمَصِه فصارت رِجلُه كعُنُقِ البَعِير ومات بسببِها.

ومُتصرَّفاتِهم فتَأتِيهم السّاعةُ أغفَلَ ما كانوا عَنها، ولا تقومُ إلّا على الكافِرين لأنّه يَسبِقُ ذلكَ الوقتَ وفاةُ جميعِ المؤمنِين في الأرض، فلا يَبقَى إلّا إنسٌ وجِنٌّ كافِرُون وبهائمُ وعليهِم تقومُ السّاعةُ[١].

وقد صحَّ في الحديثِ الّذي رواهُ البُخاريّ وغيرُه عن أبي هُريرةَ رضي اللَّه عنه أنّ رسولَ اللَّه ﷺ قال: «وَلَتَقُومَنَّ السّاعةُ وَقَدْ نَشَرَ الرَّجُلانِ ثَوْبَهُما بَيْنَهُما فَلا يَتَبايَعانِهِ وَلا يَطْوِيانِهِ، وَلَتَقُومَنَّ السّاعَةُ وَقَدِ انْصَرَفَ الرَّجُلُ بِلَبَنِ لِقْحَتِهِ[٢] فَلا يَطْعَمُهُ[٣]، وَلَتَقُومَنَّ السّاعَةُ وَهُوَ يُلِيطُ حَوْضَهُ[٤] فَلا يَسْقِي فِيهِ، وَلَتَقُومَنَّ السّاعَةُ وَقَدْ رَفَعَ أُكْلَتَهُ[٥] إِلَى فِيهِ فَلا يَطْعَمُها».

وإذا جاءَتِ السّاعةُ ﴿فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ تَوۡصِيَةٗ﴾ أي فلا يَقدِرُ الكافِرُون الّذين قامَتْ عليهِمُ السّاعةُ على الإيصاءِ في شيءٍ من الأشياءِ إنْ كانوا فيما بَينَ أهلِيهِم ﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ يَرۡجِعُونَ ٥٠﴾ أي ولا يَقدِرُ مَن

(١) روَى مُسلمٌ في صَحيحِه وابنُ حِبّانَ وغيرُهما عن عبدِ اللَّه بنِ عمرِو بنِ العاصِ عنِ النَّبيِّ ﷺ قال: «**يَبْعَثُ اللَّهُ رِيحًا كَرِيحِ المِسْكِ مَسُّها مَسُّ الحَرِيرِ، فَلا تَتْرُكُ نَفْسًا**» أي من المؤمنين «**فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنَ الإِيمانِ إِلَّا قَبَضَتْهُ، ثُمَّ يَبْقَى شِرارُ النَّاسِ عَلَيْهِم تَقُومُ السَّاعَةُ**».

(٢) أي ناقتِه اللَّبُونِ.

(٣) أي فلا يَشرَبُه.

(٤) بضّم الياء وكَسر اللّام من «**يُلِيط**» أي يُصلِحُه بالطِّين.

(٥) بضّم الهمزة أي لُقمَتَه.

كانُوا مِنهُم خارجًا أن يرجِعُوا إلى أهلِيهم ومَنازِلهم لأنّ الساعةَ لا تُمهلُهم بَل تَبغتُهم الصَّيحةُ فيَمُوتون في أماكنِهم.

ويموتُ بهذه النَّفخةِ ذَوُو الأرواح كلُّهم ومِنهُم الملائكةُ، حتّى إسرافيلُ وجبريلُ وميكائيلُ عليهم السّلامُ، ثُمّ يُميتُ اللّهُ عزرائيلَ[1] عليه السّلامُ بقُدرَتِه[2]، فلا يَبقَى مِن ذَوِي الأرواحِ أحَدٌ إلّا مَن شاءَ اللّهُ له

---

(١) هو ملَكُ الموتِ كما جاءَ ذلكَ في آثارٍ كثيرةٍ، ولكن لمّا حُبّب إلى الوهابيّة مُخالفةُ أهلِ السُنّة والجماعةِ وأُشربُوا في قلوبِهم التشّنيع والتّشغيب على مُخالفِيهم أنكروا تسميةَ ملَكِ الموت بعَزرائيلَ، مع أنّ الّذين اتخَذُوهم أئِمّةً لهُم قائلُون بأنّ ملَك الموت عزرائيلُ:

- فشيخُهم المؤسّس لمذهبِهم الباطِل محمّدُ بنُ عبد الوهّابِ النَّجديُّ يقول في كتابه المسمَّى «أصول الإيمان» (ص/ ١٠١) ط. وزارة الأوقاف السعُودِيّة ما نصُّه: «وقد جاءَ في بعضِ الآثارِ تَسميتُه بعَزرائِيلَ».
- وشيخُهم الأقدمُ في التّجسيم ابنُ تيميةَ يقول في كتابه «مجموع الفتاوى» (٤/ ٢٩٥): «الّذي عليه أكثرُ النّاس أنّ جَميعَ الخَلقِ يمُوتُونَ حتّى الملائِكة وحتّى عَزرائيلُ ملَكُ المَوت».
- وشيخُهم في التّجسيم أيضًا تِلميذُ ابنِ تيميةَ وناشِرُ كُتبِه ابنُ قيّم الجوزيّةِ في كتابٍ له يُسمَّى «مِفتاح دارِ السَّعادة» (٢/ ١٩٣) ما نصُّه: «وعزرائِيلُ وهو قابِضُ الأرواح».

(٢) ما يُروَى مِن أنّ ملَكَ الموت عزرائيلَ عليه السّلام هو يَقبِضُ رُوح نَفْسه فلا يَصِحُّ، وأمّا ما يقولُه بعضُ النّاسِ مِن أنّ عزرائيلَ عليه السّلامُ إذا عاينَ موتَ نَفْسِه قال: «لو كُنتُ أعلَم أنّ ألَم الموتِ هكذا ما قبضتُ =

البقاءَ كخُزّان الجنّةِ والنّارِ[١] وحمَلةِ العَرشِ فلا يموتون، وفي ذلك خلافٌ

= روحَ مؤمنٍ» فنسبةُ ذلكَ إلى عزرائيلَ عليه السّلامُ تكذيبٌ لدِين الله وكتابِه والعياذُ باللّه، فإنّ الله عزَّ وجلَّ أخبرَ في كتابه أنّ الملائكةَ يُنفّذون أوامرَه فيستحيلُ عليهم أنْ يُخالفوا ما أُمِرُوا به، قال اللّهُ تعالى: ﴿وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [سُورة الأنبياء: ٢٧]، وقال أيضًا: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [سُورة السّجدة: ١١]، والمُتوفّي للأمواتِ في الحقيقةِ هو اللّهُ تعالَى، لكنّه عزَّ وجلَّ أوكَلَ عزرائيلَ عليه السّلامُ بقَبضِ الأرواح، فأُضيفَ التوَفّي في هذِه الآيةِ إلى عزرائيل لأنّه المُباشِرُ للعمَل، قاله الفخر الرازيّ وغيرُه، وقد جاءَ إضافةُ التوفّي إلى الله تعالَى في ءاية أُخرَى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ﴾ [سُورة الزُّمر: ٤٢].

تنبيه: ما يذكرُه بعضُ النّاسِ وهو موجودٌ في بعضِ الكُتب مِن أنّه يوجَد شجرةٌ فَرعُها تحتَ العَرشِ مكتوبٌ على كُلّ ورقةٍ مِن أوراقِها اسمُ عَبدٍ من العبادِ وأنّه إذَا حانَ أجَلُ العَبدِ سقطَتْ تِلكَ الورَقةُ الّتي فِيها اسمُه في حِجْرِ ملَكِ المَوتِ فأخذَ رُوحَه في الوَقتِ» فكَذِب لا يصِحُّ مِن ذلك شىءٌ.

(١) الخُزّانُ بضمّ الخاء جمعُ خازنٍ وهو هنا واحدُ الملائكةِ المُوكَلين بوظائف تتعلّق بالجنّةِ أو بالنّار، وخُزّانُ الجنّة غيرُ خُزّانِ النّار، وقد جاءَ ذِكرُ الفريقَين في القُرءان فقال تعالَى في خزنةِ الجنّة: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [سُور الزُّمر: ٧٣]، وقال في خزنةِ النّار: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [سُور الزُّمر: ٧١].

مشهورٌ بين العُلماء.

ثُمّ تمضي بعد تلك النَّفخةِ أربعونَ سنةً ويُنزِلُ اللهُ عزَّ وجلَّ مِن السَّماءِ ماءً يُشبِهُ المَنِيَّ[١] فيَختلِطُ بالتُّرابِ وعَجبِ ذَنَبِ كُلِّ بدَنٍ أكلَه التُّرابُ قَبلُ[٢]، ثُمّ يُعيدُ اللهُ بقُدرَتِه الأبدانَ الباليةَ مِن هذا الخَليطِ ويَرُدُّ علَيها أرواحَها لِيَبعثَها، ﴿وَنُفِخَ﴾ أي ويُحْيي اللهُ إسرافيلَ عليه السّلامُ فيَنفُخُ ﴿فِي ٱلصُّورِ﴾ أي البُوقِ النَّفخةَ الثّانيةَ وهي نَفخةُ البَعثِ ﴿فَإِذَا هُم﴾ أي حِينَ النَّفخِ ﴿مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ أي القُبورِ ﴿إِلَىٰ﴾ المَوقِف لِحسابِ ﴿رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ٥١﴾ أي يُسرِعُون، فمِنهُم مَن يكون منه ذلكَ فرَحًا واستِبشارًا واختيارًا كالأتقياءِ، ومِنهُم مَن يكون مُكرَهًا على ذلكَ مُنقادًا كالكافرين، وذلك أنّهُم حِينَ انشقَّت عنهُم الأرضُ وأُخرِجُوا مِن جَوفِها نادَى إسرافيلُ عليه السّلامُ بصَوتٍ يسمَعُه الخَلائِقُ: «هَلُمُّوا إلى الحِسابِ، إنّ اللهَ يأمُرُكم أنْ تجتمعوا لِفَصلِ القَضاءِ»، قال المفسّرُون:

---

(١) روَى ابنُ أبي شَيبةَ في «المُصنَّف» والطَبَرانيُّ في «المعجَم الكبِير» والحاكِم في «المُستدرَك» والبيهَقيُّ في «الشُّعَب» و«البَعثِ والنُّشورِ» عن ابنِ مسعودٍ رضي اللهُ عنه قال: «يُرسِلُ اللهُ ماءً مِن تَحتِ العَرشِ كمَنِيِّ الرِّجالِ فتَنبُتُ لُحمانُهم وجُثمانُهم كَمَنابتِ الأَرْضِ مِن الثَّرَى»، ثُمّ قرأ ابنُ مسعودٍ رضي اللهُ عنه: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ [سُورة فاطِر: ٩].

(٢) أي إنْ كان مِن الأجسادِ التي تأكُلُها الأرضُ، فأجسادُ الأنبياءِ عليهِمُ الصّلاةُ والسّلامُ وأجسادُ شُهداءِ المعركةِ وبعضِ الأولياءِ لا تأكُلُها الأرضُ.

فذلكَ قَولُ اللَّه تعالى: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [سُورة ق: ٤١].

وإذا بُعِثَ الكُفّار فزِعِين فوقَ فزعِهم الّذي كانتْ تُقاسِيه أرواحُهم بعدَ فناءِ أجسادِهم الّتي عُذِّبَتْ في القَبرِ ورأَوا أوائلَ الأهوالِ عِندَ الخُروج ﴿قَالُواْ﴾ دَهشِين مُتحيِّرين مِن شِدّة الفزَع ﴿يَٰوَيْلَنَا﴾ أي يا هَلاكَنا ﴿مَنۢ بَعَثَنَا﴾ مَن الّذي أنشَرَنا ﴿مِن مَّرْقَدِنَا﴾ أي مِن مَكانِ استِقرارِ أجسادِنا بعدَ الموتِ، فإنّ القبرَ مُستقرُّهم بعدَ الموتِ مع العَذابِ الدائِم علَيهِم رُوحًا وجسَدًا، فلمّا بَلِيَتْ أجسادُهم استمَرَّ العذابُ على الرُّوحِ إلى وَقتِ الإعادةِ والبَعثِ، فليسَ في تسميتِهم ذلك مَرقَدًا دليلٌ على أنّهم كانُوا في راحةٍ بُرهةً مِن الوقتِ فأكثر، ألَا ترَى أنّ المريضَ الّذي استَولَتْ عليه الآلامُ يقولُ وهو في غايةِ القلَقِ والتوجُّع: «أتعذَّبُ في مَرقَدِي» أي مَكانِ استِقرارِ بدَني ولا يُريد أنّه يجِدُ راحةً ألبتّة[1].

---

(١) ليُحذَر مِن المدعو الدكتور علي منصور الكيّالي وقد سبَقَ أنْ حذَّرنا مِن كلامِه الذي فيه تشبيه اللَّهِ بخَلقِه والعياذُ باللَّه، فالحذَرَ مِن كلامِه أيضًا في قولِه تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾، فإنّ هذا الكيالي يزعُم أنّ في هذه الآيةِ دليلًا على عدَم وجودِ عذابِ القَبرِ وأنّ الكافرين يكونونَ في رُقادٍ مُرتاحِين قبلَ قِيام السّاعة، وكلامُه هذا مُصادِمٌ لِصريح النُّصوصِ الشرعيّةِ ومُخالِفٌ لتفسيرِ العُلماء هذه الآية الّذي يعضُد تفسيرَ قولِه تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ أي في القَبرِ قبلَ القيامةِ ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [سُورة غافِر: ٤٦]، =

تتِمّة: مـا رُوي عن أبَيّ بن كعبٍ وابنِ عبّـاسٍ ومُجاهدٍ رضي الله عنهم أنّ البشَر جميعًـا مُؤمنَهم وكافرَهم ينامُونَ نومـةً قبلَ الحَشرِ، فقد قال ابنُ عَطِيّة المُفسِّرُ: هذا غيرُ صحيحِ الإســنادِ، قُلنا: وهو مَردودُ المَتنِ لأنّـه يُعارِضُ نُصوصًا شرعيّةً أثبتَتْ اتصّالَ العذابِ على الكافِرِ وعدمَ انقِطاعِه بُرهةً عنه، قال الله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۖ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ [سُـورة غافـر: ٤٦]، فأثبتَـتِ الآيةُ وُجودَ العذابِ المُتعاقِب على الكافِرين علَى مدارِ الأيّـامِ دُون انقِطاعٍ حتّى يتّصِلَ بنَشرِهـم وحَشرِهم وإدخالِهمُ النّارَ الّتي فيها عذابٌ أشَـدُّ ممّا قاسَوه في القَبرِ، ويَشـهَدُ لذلك التّفسير الحديثُ الصّحيحُ عن عبدِ الله بن عُمرَ رضي الله عنهما أنّ رسـولَ الله ﷺ قالَ: «ألَا إنَّ أحَدَكُم إذا ماتَ عُرِضَ علَيهِ مقعدُهُ بالغَداةِ والعَشيِّ[1]، إنْ كانَ مِن أَهلِ الجَنَّةِ فَمِن أَهلِ الجَنّةِ، وَإن كانَ مِن أَهلِ النّارِ فَمِن أَهلِ النّارِ، حَتَّى يَبعَثَهُ اللّهُ تَعالَى يَومَ القِيامَةِ»، ورُوّينا بالإسناد المتّصل إلى الحافظ العَسـقلانيّ في «الإمتاع» وصحَّحَه هو وأبو عَوانـةَ عن البَراءِ بنِ عازبٍ

= ولـمّا انتشَر كلامُ هذا الكيالِيّ على صفحات الإنترنت وصار له تأثيرٌ كبيرٌ على بعضِ النّاسِ جمَعنا رسالةً مُفرَدةً للرّدِّ على هذا الكيالي الجاهِل المحرِّف لدِين اللهِ وبيَّنّا مذهبَ أهلِ الحقّ في قضيّةِ عذابِ القَبرِ من الكِتابِ والسُّنّةِ والإجماعِ وأسمَيناها «شَرح الصَّدر في إثباتِ عَذابِ القَبرِ».

(١) أي أوّلَ النّهارِ وءاخِرَه.

رضي الله عنه عن رسولِ الله ﷺ قال: «وَيُخْرَقُ لَهُ خَرْقٌ إِلَى النَّارِ فَيَأْتِيهِ مِن غَمِّهَا وَدُخَانِهَا إِلَى يَوْمِ القِيَامَة»، والأحاديثُ في ذلك كثيرةٌ.

وإذا عاينَ الكُفّار ما هُم فِيه ودَعوا على أنفسهم بالوَيلِ والهَلاكِ فَزِعين قائلين مِن الدَّهشة: ما الّذي بَعَثَنا؟ قالتِ الملائكةُ أو أتقياءُ البشَرِ: ﴿هَٰذَا﴾ أي البَعثُ هو ﴿مَا وَعَدَ﴾ أي ما وعدَكُم به ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أنّه كائنٌ لا بُدَّ منه ﴿وَ﴾ الّذي ﴿صَدَقَ﴾ في أمرِه ﴿ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٥٢﴾ الّذين أتوا بوَعدِ اللهِ.

﴿إِن كَانَتْ﴾ أي ما تكونُ نفخةُ البَعثِ التّي ذُكِرَتْ ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ يَصيحُها إسرافيلُ عليه السّلامُ في الصُّورِ ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ أي الأمواتُ مَبعوثُونَ ﴿جَمِيعٌ﴾ أي مجمُوعونَ ﴿لَّدَيْنَا﴾ أي لِحسابِنا في مَوقِفِ القِيامةِ ﴿مُّحْضَرُونَ ۝٥٣﴾ أي مَحشُورُون لا يَتخلَّفُ مِنهُم أحَدٌ.

﴿فَٱلْيَوْمَ﴾ أي يومَ القِيامةِ ﴿لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ﴾ مِن النُّفوسِ البَرّةِ والفاجِرةِ ﴿شَيْـًٔا﴾ مِن الظُّلمِ، فاللهُ يُوفِّي كلَّ نَفْسٍ مؤمِنةٍ أجرَ ما عَمِلَتْ مِن الصّالِحاتِ ولا يُعاقِبُ المُسيئةَ إلّا بِما اكتسَبَتْ مِن السيّئاتِ ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٥٤﴾ أي ولا تُكافَؤُون في الآخرةِ إلّا جزاءَ ما كُنتُم تعمَلُونَه في الدُّنيا.

ثُمّ ذكَرَ اللهُ عزَّ وجلَّ بعضَ صِفاتِ أهلِ الجنّةِ وما هُم فيه هُنالِكَ فقال: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ﴾ أي أهلَ ﴿ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ﴾ أي في الآخرةِ ﴿فِى شُغُلٍ﴾ وأيَّ شُغلٍ أي في شُغلٍ عظِيمٍ ﴿فَٰكِهُونَ ۝٥٥﴾ أي مُتلذِّذُون في النَّعيم، فإنّ

لَهُم الأمنَ والنِّعمةَ والبَسطَ واللَّذّةَ وتَمامَ الرّاحةِ(١).

ولمّا كانتِ النُّفوسُ تَتُوقُ إلى مَعرِفةِ هذا الشُّغلِ جاءَ تَفسيرُ ذلكَ بقولِه تعالَى: ﴿هُمْ﴾ أي أصحابُ الجنّةِ ﴿وَأَزْوَٰجُهُمْ﴾ مِن أهلِ الجنّةِ في الجنّةِ ﴿فِى ظِلَٰلٍ﴾ أي وِقايةٍ مِن الحَرِّ والقَرِّ(٢) ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ أي السُّررِ المُزيَّنةِ المُرخَى عليها السُّتورُ ﴿مُتَّكِـُٔونَ ۝٥٦﴾ يَتنعَّمُون مِن غيرِ نومٍ، فإنّ الجنّةَ لا نَومَ فيها لأنّه لا يكونُ إلّا مِن تعبِ البدَنِ أو الفِكرِ أو كِلَيهما، وهو أخو المَوتِ، والجنّةُ لا تعبَ فِيها ولا مَوتَ.

﴿لَهُمْ فِيهَا﴾ أي لأهلِ الجنّةِ في الجنّةِ ﴿فَٰكِهَةٌ﴾ نَضِيجةٌ حقيقةٌ لا تَنقطِعُ أبدًا ولا مانِعَ لَهم مِن تَناوُلِها(٣)، وبمجرَّد أن تشتهي نفسُ المؤمنِ

---

(١) الأحاديثُ الوارِدةُ في شأنِ أهلِ الجنّةِ ونعيمِهم كثيرةٌ جدًّا، فقد ثبَتَ عن النّبيِّ ﷺ أنّه قال في صِفةِ أهلِها: «**قُلوبُهُمْ عَلَى قَلْبِ رَجُلٍ واحِدٍ، لاَ تَباغُضَ بَيْنَهُمْ وَلاَ تَحاسُدَ، لِكُلِّ امْرِئٍ زَوْجَتانِ مِنَ الحُورِ العِينِ، يُرَى مُخُّ سُوقِهِنَّ مِنْ وَراءِ العَظْمِ واللَّحْمِ**» أي يُرَى ما في داخِل عَظمِ سُوقِهنّ مِن صَفائِهنّ، والسُّوقُ جمعُ ساقٍ.

(٢) أي البَرْد، فلا شَمسَ ولا قَمرَ ولا حرَّ ولا بَردَ ولا مطرَ في الجنّة، إنّما هي مملوءةٌ بالأنوارِ المتلألئة، وفيها علاماتٌ يَعرِفُ أهلُها بها تعاقُبَ الأيّامِ، فنُور الجنّة أكبَر نُورٍ خَلَقهُ اللهُ عزَّ وجلَّ، نُورُها أكبرُ مِن نُورِ الشَّمسِ والقمَرِ وسائِرِ الكواكِب.

(٣) يأكلُون أكلًا حقيقيًّا لكِن لا يَخرُج مِنهُم بولٌ ولا غائطٌ ولا رائحةٌ كريهةٌ. وقد صحّ أنّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**إنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ يَأْكُلُونَ فِيها وَيَشْرَبُونَ**، =

شيئًا مِنها يتدلَّى إليه الغُصنُ فيأخذُ ما يشاءُ مِن غيرِ مشقَّةٍ ويأكُل مِن غـيرِ جُوعٍ، ثُمّ يُخلِفُ اللَّهُ بدلَ المأكولِ غيرَه، ﴿وَلَهُم﴾ فِيها ﴿مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾﴾ أي ما يَتمنَّونَ ويَشـتَهُونَ(١). وقـد طبَعَ اللَّهُ أهلَ الجنّةِ على أنْ لا يَتمنَّى ويَشـتَهِي أحدُهم إلّا ما يَجمُل ويحسُـن طلَبُه، فلا يَتمنَّون ما لا خَيرَ فيه(٢).

= وَلا يَتْفُلُـونَ وَلا يَبُولُـونَ، وَلا يَتغَوَّطُونَ وَلا يَمْتَخِطُونَ»، قالُوا: فَما بالُ الطَّعامِ؟ قالَ: «**جُشاءٌ وَرَشْحٌ كَرَشْحِ المِسْكِ، يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ والتَّحْمِيدَ كَما تُلْهَمُونَ النَّفَسَ**» معناه كما أنّكُم لا تَتعبُون في النَّفَس ولا يشـغَلُكم عن غيرِه، فكذلك لا يَتعَبُ أهلُ الجنّةِ مِن التَّسبيحِ والتّحميدِ وجميعِ الأذكارِ ولا يَشغَلُهم ذلكَ عن النّعيمِ الدائمِ بل يَلْتذُّون بالأمرَين الذِّكرِ والنّعيم.

وأمّـا أوّلُ طَعامِ أهلِ الجنّةِ فيها فهو كما صَحّ عن رسـولِ اللَّه ﷺ أنّه قال: «**وأمّا أَوَّلُ طعامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الجَنَّةِ فَزِيادَةُ كَبِدِ الحُوتِ**».

قال شيخُنا رحمه اللَّه: «الكَبِدُ فيه قِطعةٌ مُعلَّقةٌ، فيه زِيادةٌ، هذه الزِّيادةُ أَلَذُّ ما فِيه، في اللُّغة السَّمكُ الصّغيرُ والكَبيرُ يُقالُ له حُوتٌ».

(١) هو مِن ادَّعَى بمعنَى تمَنَّى، تقُولُ العرَب: ادَّعِ ما شِئتَ أي تَمَنَّ واقتَرِح.

(٢) قال شيخنا رحمه اللَّه: «أهلُ الجنّةِ لهم فيها ما يشاؤون فلا يُصيبُهم فَقرٌ ولا مرَضٌ. الوَلَدُ يُشتهَى في الدُّنيا مِن أجلِ أنّكَ تَستأنِسُ به وتحتاجُ إلى خِدمَتِه لكَ إذا كَبِرتَ تقولُ: «إذا كَبِرتُ هو يقُوم بخِدمَتي ويكفِيني ويَرعاني»، هناكَ في الجنّةِ لا تَحتاجُ، لا تَخافُ فقْرًا ولا مرَضًا ولا وَحشَة، فلا يَشتَهُون الولَد ومع ذلكَ فإنّ لَهُم الجِمـاعَ الحَقِيقِيَّ، يُجامِعُ المؤمِنُ كُلَّ يومٍ مائةَ عَذراءَ ولا مَنِيَّ هنالِكَ. كذلك لا يَشـتَهِي أحَدٌ مِن أهل الجنّـةِ أن يكون له كَلبٌ، أهلُ=

ويدخل عليهم الملائكةُ الكرامُ ﴿سَلَٰمٌ قَوۡلٗا﴾ أي ويُسلّمون عليهم يُحيُّونَهُم بالقولِ بأمرٍ[1] ﴿مِّن رَّبّٖ﴾ أي مالكٍ لَهُم ﴿رَّحِيمٖ ٥٨﴾ بهم حيثُ أكرَمَهُم بالجنّة تفضُّلًا مِنهُ ورحمةً.

أمّا الكافِرون فلا يُقالُ لَهُم قولٌ يَسُرُّهم، فإذا حُشِرَ النّاسُ يومَ القِيامةِ وُبّخَ الكافِرُون أشدَّ توبيخٍ ﴿وَ﴾ قِيل لَهُم ﴿ٱمۡتَٰزُواْ﴾ أي تميَّزُوا وانفرِدُوا ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ عن المؤمنِين ﴿أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٥٩﴾ وكُونوا علَى حِدةٍ. وقال بعضُ المفسّرِين: معناهُ انفرِدوا عن المؤمنِين الصالحِين، فإنّه يُحشَر في بعضِ المواقِف قِسمٌ مِن أهلِ الكبائِر مِن المؤمنِينَ معَ الكافِرين كتارِكِ الصّلاةِ[2] إلّا مَن عفى اللّهُ تعالى عنهُ مِن عُصاةِ المؤمنِين[3].

= الدُّنيا لِنَفعِ الكلبِ يَشتَهُونه، أمّا أهلُ الجنّةِ فلا يَشتهُونَ إلّا الشيءَ الحسَن، لا يَشتَهُونَ التُّتن التَّنْباكَ أي السّيجارة، كثِيرٌ مِن النّاسِ ابتُلوا بها في الدُّنيا».

(١) وهو التّفسيرُ الّذي ذكرَه الإمامُ أبو منصورٍ الماتريديّ رضي اللّه عنه واختارَه شيخُنا الإمامُ الهرريُّ رحمه اللّهُ.

(٢) فقَد روَى ابنُ حِبّانَ في «صحِيحه» وأحمدُ في «مُسنَدِه» وغيرُهما أنّ رسولَ اللّه ﷺ ذكرَ الصّلاةَ يومًا فقالَ: «**مَنْ حافَظَ علَيْها كانَتْ لَهُ نُورًا وبُرْهانًا ونَجاةً يَوْمَ القِيامَةِ، ومَنْ لَمْ يُحافِظْ علَيْها لَمْ يَكُنْ لَهُ بُرْهانٌ ولا نُورٌ ولا نَجاةٌ، وكانَ يَوْمَ القِيامَةِ مَعَ قارُونَ وهامانَ وفِرْعَوْنَ وأُبَيِّ ابنِ خَلَفٍ**».

(٣) يوجَدُ قِسمٌ مِن أهلِ الكبائِرِ مِن المؤمنِينَ لا يُعفَونَ مِن العذابِ بالمرّةِ كالمُبتَدِعِ في الاعتِقادِ الّذي لم يَبلُغ حَدَّ الكُفرِ، هذا لا بُدّ أنْ يُعذَّبَ لقولِ رسولِ اللّه ﷺ: «**كُلُّهُمْ في النّارِ إلّا واحِدَةً، ما أنا عَلَيْهِ وأَصْحابِي**»، =

= كما أنّ هذا البدعيّ قد حُرِمَ من الثّواب فيما يأتيه في الدُّنيا من العِباداتِ حالَ إقامتِه على بِدعتِه الاعتِقاديّةِ التّي لم تَبلُغْ به حَدَّ الكُفر، وذلك لحديث رسولِ الله ﷺ: «أَبى اللهُ أَنْ يَقبَلَ عَمَلَ صاحِبِ بِدْعَةٍ حَتَّى يَدَعَ بِدْعَتَهُ» رواه ابنُ ماجهْ وحسَّنَه السُّيوطِيُّ وغيرُه. قال شيخنا رحمه الله: «معناهُ لا يَقبَلُ اللهُ لهُ أيَّ عمَلٍ مِن الحسَناتِ حتّى يدَعَ تِلكَ البدعةَ الاعتِقاديّةَ غيرَ المُكفِّرةِ ويعُود إلى السُّنّة أي طريقةِ النّبيِّ ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، فبِذلكَ يُعلَم أنّ البدعةَ الاعتِقاديّةَ أشَدُّ من البِدعةِ العمَليّة».

وقال المُناوي في «فَيضِ القَديرِ» (١/ ٧٢): «كما أنّ عمَلَ المُبتدِع غيرُ مَقبولٍ فذَنبُه غيرُ مغفورٍ»، ثُمّ قال: «والكلامُ كلُّه في مُبتدِعٍ لا يُكفَّرُ ببدعَتِه، **أمّا مَن كُفِّر بها كمُنكِرِ العِلمِ بالجزئيّاتِ وزاعمِ التّجسِيمِ أو الجِهةِ أو الكَونِ أو الاتِّصالِ بالعالَمِ أو الانفصالِ عنه** فلا يُوصَف عمَلُه بقَبولٍ ولا رَدٍّ لأنّه أحقَرُ مِن ذلكَ».

قال الشيخُ عبد الغنيّ النابلسيّ رحمه الله في «الحديقة النَّدِيّة» (ص/ ٣٠٨): «وقد يكونُ عمَلُه (أي عمَلُ المُبتدِع الّذي لم يُكفَّر ببدعَتِه) صحيحًا مِن جِهة استيفاءِ شُروطِه ولكنّه غيرُ مَقبولٍ عِندَ الله تعالى لتدَنُّسِه بشُؤمِ البدعةِ وقبح عملها وذلك مدارُ ارتكابه لتِلكَ البِدعةِ ما دام مُصِرًّا على فِعلِها».

قال أبو بكر الخُوارزميُّ (ت ٣٨٣هـ) في «مُفيد العُلوم ومُبيد الهُموم» (ص/ ٦٨، ٣٨٧): «ولا تُجالِس المُبتدعِين ولا تواصِلْهم ولا تُصاحِبهم ولا تغترَّ بعبادتِهم فإنّ عِبادةَ المُبتدِعة كتَكبِير الحارسِين لا ثوابَ له. قال مالكٌ رضي الله عنه: عِباداتُ المبتدِعة كتَكبِير الحارِس لا أجرَ ولا ثوابَ». يُريد بتكبِير الحارِس أنّ الحارِسَ إذا رأى سوادًا من بَعيدٍ كبَّر ليُشعِر اللِّصَّ أنّه صاحٍ لا يُريدُ بذلكَ العِبادةَ والأجرَ في التّكبِير.

ولمّـا أُمِرَ الكُفّـارُ بالتنَحّي قال اللّهُ لهـم[١]: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ﴾ أي ألم ءامُرْكُـم وأبلّغْكُم ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ على ألسِـنةِ الأنبيـاءِ ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ وتُطيعُوه فيما يُوَسوِسُ ويُزيّنُ لكُم مِن معصيةِ اللّهِ ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي الشَّيطانَ ﴿لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠﴾ أي بَيّنُ العَداوة ظاهِرُها، وقد أبانَ عن عَداوَتِه ابتِداءً بامتِناعِه مِن السُّـجودِ تحيّةً لأبيكُم ءادمَ ﷺ - حِين أمرَهُ اللّهُ بذلكَ - حسَدًا منهُ لآدمَ علَى ما أعطَى اللّهُ ءادمَ ﷺ من الكَرامةِ وكَان إبليسُ سَببًا في خُروجِ ءادمَ وحوّاءَ عليهِما السّلامُ من الجنّةِ[٢].

(١) كلامُ اللّهِ عزَّ وجلَّ أزليٌّ أبديّ لا يُبتدأ ولا يُختَتمُ ولا يتقطّع ولا يَتتابَعُ ولا هو حـرفٌ ولا صـوتٌ ولا لغةٌ، كلامُه صِفةٌ له كسـائِر صِفاتِه عزَّ وجلَّ، وهو يُكلّـمُ العبادَ وهُم محشُـورون يومَ القِيامةِ - واللّهُ عـزَّ وجلَّ لا مَكانَ له ولا جهةَ - فيُسمِعُهم كلامَه الّذي لا يُشبِهُ كلامَ العالَمين، فيَفهَم كُلُّ عَبدٍ مِن كلامِ اللّهِ السُّـؤالَ عن أفعالِ العبـدِ وأقوالِه واعتِقاداتِه الّتي كانتْ في الدُّنيا، ويُنهِي اللّه عزَّ وجلَّ مُحاسَبتَهُم في وقتٍ قَصيرٍ مِن موقِفٍ مِن مواقِف القِيامة الخَمسِـينَ. فلَو كان حِسابُ اللّهِ لِخَلقِه مِن إنسٍ وجِنّ بالحَرفِ والصَّوتِ ما كان يَنتهي مِن حسـابِهم في مائةِ ألْف سنَةٍ، لأنّ الخَلقَ كَثيرٌ، ولكانَ إبليسُ وَحدَه يأخُذ حِسـابُه وقتًا كثِيرًا، وعلَى مُقتضَى مَذهبِ المُجسّـمة القائلِين بـأنّ كلامَ اللّهِ حـرفٌ وصوتٌ لا يكون اللّهُ أسرعَ الحاسِـبينَ بل يكونُ أبطأَ الحاسِبين واللّهُ عزَّ وجلَّ يقُول: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي إلى حِسابِه يومَ القِيامةِ ﴿مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ [سُورة الأنعام: ٦٢].

(٢) ونبُوّة سيّدِنا ءادمَ ﷺ ورسالَته ثابِتةٌ بالنَص الشَّرعيّ والإجماعِ.

﴿وَ﴾ألَمْ ءامُرْكُم وأبلّغْكُمْ على ألسنةِ الأنبياءِ﴿أَنِ ٱعۡبُدُونِي﴾ أي أطِيعُوني ووَحِّدُوني ولا تُشرِكُوا بِي شــيئًا، ﴿هَٰذَا﴾ الّذي أُمِرتُم بِهِ وهو الإســلامُ ﴿صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٦١﴾ أي هو الطَّريقُ القويمُ ولا استقامةَ لطريقٍ غيرِه.

ثُــمّ يُزادُ في توبيــخِ الكُفّارِ يــومَ القِيامةِ فيُقــالُ لَهُم: ﴿وَلَقَدۡ أَضَلَّ﴾ الشَّــيطانُ ﴿مِنكُمۡ﴾ يا بَني ءادمَ ﴿جِبِلّٗا﴾ أي خَلْقًا ﴿كَثِيرًاۖ﴾ عن الحقّ ﴿أَفَلَمۡ تَكُونُواْ﴾ أيُّهــا الكافــرُون ﴿تَعۡقِلُونَ ٦٢﴾ أي تُعمِلُون عُقولَكُم في مَصيرِ مَن يُطيعُ الشَّيطانَ ويَعصِي اللَّهَ بَعد أن أدركتُم ما كان مِن هَلاكِ الأُمَمِ الماضيةِ في الدُّنيا بالعَذابِ بسبَبِ طاعتِهم الشّيطانَ.

ثُمّ يُدْنَــى الكافِرُون مِن جهنَّمَ - أجارَنا اللَّهُ مِنها - ويُخرَج لَهُم منها جزءٌ مُتّصِلٌ بها مُرتفِعٌ مُظلِمٌ لَه ســبعونَ ألفَ سِلســلةٍ غَليظةٍ يَجُرُّ كُلَّ سلسلةٍ مِنها ســبعُونَ ألفَ ملَكٍ، ويَخلُق اللَّهُ لهذا الجُزءِ مِــن النّارِ عَينَينِ تُبصِران ولِســانًا فَصِيحًا يَنطِقُ فتُبصِرُ الكافِرين وتَنطِقُ فتقولُ: «وُكِّلتُ بِكُلِّ مَن جعَــلَ معَ اللَّهِ إلهًا ءاخَرَ»[(١)]، وتذكُــرُ طائفةً مِن الكافِرينَ غيرَهُم، فتَقُول الملائكةُ للكافِرينَ: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٦٣﴾ أي تُحذَّرُون في الدُّنيا مِنها علَى كُفرِكُم باللَّهِ وتَكذيبِكُم رُسـلَه فكُنتُم بها تُكذِّبُون[(٢)]،

---

(١) جاءَ في الحديثِ المرفوعِ الّذي أخرجَه أحمدُ وأبو يَعلَى والتّرمذيّ وقال: هَذا حدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ.

(٢) وجاءَ في أثرٍ عنــدَ ابنِ المُبارَك وأبي عَوانةَ وحسَّــنه الحافظانِ البُوصِيريّ في «الإتحــافِ» والعســقلانيّ في «المَطالِــب» موقوفًــا عــلى ابــنِ عبّــاسٍ =

﴿ ٱصۡلَوۡهَا ﴾ أي ادخلُوها ﴿ٱلۡيَوۡمَ ﴾ أي في الآخرةِ فاحترِقوا بحرِّها وقاسُوا بَرْدَها ﴿ بِمَا ﴾ أي جزاءً لأنّكم ﴿كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٦٤﴾ في الدُّنيا.

وإذا أُخبروا بدخُولِهِم النّار بسببِ كُفرِهم غلَب عليهم الخَوفُ والفزَعُ وقالُوا مِن الاضطِرابِ دَهشِين فزِعين: ﴿ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ ﴾ [سُورة الأنعام: ٢٣]، ثُمّ يقولُ الكافِرُ: «لا أُجيزُ[1] على نَفْسِي إلّا شاهِدًا منّي، فيقال لَهُ: كفَى بنَفسِكَ اليومَ وبالملائكةِ الكِرامِ الكاتبِينَ عليكَ شُهودًا، ﴿ ٱلۡيَوۡمَ ﴾ أي وعندَئذٍ ﴿نَخۡتِمُ ﴾ أي يَختِمُ اللَّهُ ﴿عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ ﴾ بقُدرَته[2] فيَمنعُهم مِن الكلامِ فيُسكَتُون ﴿وَ﴾ يُقالُ لأيدِيهِم وأرجُلِهم: انطِقي فـ﴿تُكَلِّمُنَآ﴾ أي ويأمُرُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ غيرَ لِسانِهِم مِن أعضائِهم فتَتكلَّمُ ﴿أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ ﴾ عليهم ﴿ أَرۡجُلُهُم ﴾ وغيرُها بكلامٍ بَيِّنٍ ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٦٥﴾ مِن الكُفرِ والمَعاصِي فيَزدادُون خِزيًا وندَمًا حيثُ إنّ أعضاءَهُم الّتي كانت عَونًا لهُم على الحَرامِ في الدُّنيا صارتْ شاهِدةً علَيهِم في موقِفِ القِيامةِ.

ثُمّ يُفكُّ عن العَبدِ الخَتمُ الّذي علَى فَمِهِ فيُخلَّى بينَه وبينَ الكلامِ فيقولُ

= رضيَ اللَّه عنهُما في الكلامِ علَى العُنقِ الّذي يَخرُج مِن جهنَّم مُتّصِلًا بها: «فيلتَقطُهم مِن الصُّفوفِ لَقْطَ الطَّيرِ حَبَّ السّمسِمِ فيَجلِسُ بِهِم في جَهنَّم».

(١) أي لا أقبَلُ.

(٢) وفِعلُ اللَّهِ ليس بالمُباشَرةِ والمُماسّةِ بل هو خَلقٌ وإيجادٌ لا كفِعلِ المخلوقِينَ.

لأعضائِـه الّتي شَـهِدَتْ عليه: «بُعْـدًا لَكُنَّ وسُـحْقًا(١)، فعَنكُنَّ كُنتُ أُناضِلُ(٢)».

وروى أحمدُ والطّبرانيُّ وحسَّنَه الحافظ النُّور الهيثَميُّ مِن حديثِ عُقبةَ بنِ عامرٍ رضي الله عنه أنّ رسـولَ الله ﷺ قال: «إنَّ أوّلَ عظمٍ مِنَ الإنْسـانِ يَتكلَّمُ يومَ يُختَمُ علَى الأفْواهِ فخِذُهُ مِنَ الرِّجْلِ الشِّمَالِ».

وَتشهدُ عليهِم جُلودُهم أيضًا بما كانوا يَرتكِبُون مِن السيّئاتِ في الدُّنيا فيقولُون كما أخـبَرَ الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ١٩﴾ أي يُسـاقُونَ ويُدفَعُون تُجـاهَ النّارِ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾ ولَم يَدخلُوهـا بَعـدُ ﴿شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٠ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [سُورة فُصِّلَتْ: ١٩-٢١].

ثُمّ يُؤتَى بالموضِعِ مِن الأرضِ الّذي عَمِلَ عليه الكافِرُ السيّئاتِ والذي عَمِلَ عليه المؤمن الحَسَناتِ والذي عمِلَ المسلِمُ مِن أهل الكبائِر عليهِ الحسَناتِ والسيّئاتِ، فيَشهَدُ كُلُّ موضعٍ لكُلّ أحَدٍ بما عَمِلَ عليه خيرًا كانَ أو شرًّا، كما أنّ بعضَ عُصاةِ المسـلمين تَشهَدُ عليهِم أعضاؤُهم بمـا ارتكَبُوا مِن المعاصِي، أمّا مَـن كان مؤمنًا مِن أهلِ الكبائِرِ وتابَ

(١) أي هَلاكًا.
(٢) أي أُدافِعُ وأُجادِلُ.

قبـل الموتِ فإنّ أعضاءَه والأرضَ لا تَشهَدُ عليه بما كان يَعمَلُ قَبل تَوبَتِه مِن الذُّنوبِ.

وشَهادةُ الأرضِ على العبدِ ثابتةٌ مِن تفسيرِ النَّبيّ ﷺ لقولِ اللَّهِ تعالى حكايةً عن حالِ الأرضِ يومَ القيامةِ: ﴿يَوۡمَئِذٖ تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا ٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوۡحَىٰ لَهَا﴾ [سُورة الزَّلزلة: ٤-٥] أي لأنّ اللَّه تعالى أمرَها بذلكَ. قال أبو هُريرةَ رضي اللَّه عنه: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: أَتَدْرُونَ مَا أَخْبَارُهَا؟ قالُوا: اللَّهُ ورَسولُه أعلَمُ، قالَ: «فَإِنَّ أَخْبَارَهَا أَنْ تَشْهَدَ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ أَوْ أَمَةٍ[1] بِمَا عَمِلَ عَلَى ظَهْرِهَا أَنْ تَقُولَ: عَمِلَ كَذَا وَكَذَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا، فَهَذِهِ أَخْبَارُهَا» وهو حديثٌ صحيحٌ رواه ابن حِبّانَ والتّرمذيُّ وغيرُهما.

وقد أوصَى رسولُ اللَّهِ ﷺ بعضَ الصّحابيّاتِ رضي اللَّه عنهُنَّ قائلًا لهُنّ: «عَلَيكُنَّ بالتَّسبيحِ وَالتَّهليلِ وَالتَّقْدِيسِ وَاعقِدْنَ بالأَنامِلِ فَإِنَّهُنَّ مَسْؤُولَاتٌ مُسْتَنطَقَاتٌ» أي أنّ اللَّه يُعطِي الأنامِلَ يومَ القِيامةِ قُوّةَ النُّطقِ فتَنطِقُ شاهدةً للمُؤمنِ الّذي سَبّحَ بلِسانِه فعقَدَ بِها[2].

وقَد روَى التّرمذيُّ مِن حديثِ ابنِ عبّاسٍ رضي اللَّه عنهُما وحسَّنَه أنّ رَسولَ اللَّهِ ﷺ قال: «لَيَبْعَثَنَّ اللَّهُ هَذَا الرُّكْنَ» وفي روايةٍ: «الحَجَرَ[3] يَوْمَ

---

(١) أي أُنثَى.

(٢) أي عقَدَ بأنامِلِه وضبَطَ المعدودَ بعُقَدِ الأصابعِ.

(٣) أي الأسوَدَ.

الْقِيَامَةِ لَهُ عَيْنَانِ يُبْصِرُ بِهِمَا وَلِسَانٌ يَنْطِقُ بِهِ يَشْهَدُ لِمَنِ اسْتَلَمَهُ بِحَقٍّ» أي للمؤمِن الّذي لَمسَه بنِيّةٍ حسَنةٍ كالاقتداءِ بالنّبيّ محمّدٍ ﷺ.

فائدة: روى الشّيخانِ عَن عبدِ اللهِ بن سَرْجِسَ[1] قال: رأيتُ الأَصلَع[2] - يعني عُمرَ بنَ الخطّابِ رضي الله عنه - يُقبِّلُ الحجَرَ ويقولُ: «واللهِ إنّي لَأُقَبِّلُكَ وإنّي أعلَمُ أنّكَ حجَرٌ وأنّكَ لا تضُرُّ ولا تنفعُ، ولَوْلا أنّي رأيتُ رَسولَ الله ﷺ قبّلَكَ ما قبّلْتُكَ».

ثُمّ بيّنَ سُبحانَه وتعالَى أنّ إذهابَ الأبصارِ بقُدرَته كما أنّ إذهابَ البَصائرِ[3] كذلكَ فقال مُخاطِبًا مُشرِكي مكّةَ مُهدِّدًا لهُم: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ﴾ أي لو شِئنَا في الأزَلِ بمشيئتِنا الأزليّة ﴿لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ أي أذْهَبْناها بحيث لا يبدُو لها جَفنٌ ولا شَقٌّ، فالطَّمسُ إذهابُ الشيءِ وأثرِه جُملةً حتّى كأنّه لم يكُن، أو المعنَى أعمَيناهُم مع بَقاءِ العُضوِ، ﴿فَٱسْتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ﴾ أي وإذَا أعمَيناهُم فأرادُوا سُلوكَ الطَّريقِ الواضحِ المألوفِ لَهُم ﴿فَأَنَّىٰ﴾ أي فكَيفَ ﴿يُبْصِرُونَ ۝٦٦﴾ وقد أعمَيْنا أعيُنَهُم.

---

(١) هو صحابِيٌّ جليلٌ رضي الله عنه، شرّفَه اللهُ عزَّ وجلَّ بأنْ لَقِيَ رسولَ الله ﷺ وأكَلَ معَه خُبزًا ولَحمًا، ورأى خاتَمَ النبوّة الشّريفَ بينَ كَتِفَي النّبيّ ﷺ ووَصفَه للصّحابةِ رضي الله عنهُم، وقد استغفَرَ له النّبيُّ ﷺ.

(٢) قال القاضي عِياضٌ في «الإكمال» (٤/ ٣٦٤): «فيه جوازُ ذِكرِ الرّجُل بما فيه ممّا لا يَكرَهُه إذا لَم يُقصَد بِه النَّقصُ والغَضُّ منه».

(٣) أي إذهابَ استِقامةِ القلُوب.

وهدَّدهُم عزَّ وجلَّ بقولِه أيضًا: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ﴾ أي لو أرَدْنا بمشيئتِنا الأزليّة ﴿لَمَسَخْنَٰهُمْ﴾ وهُم كائِنُون ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾ أي في أماكنِهم فبَدَّلْنا صُورتَهم مِن صُورةِ الإنسانِ إلى صُورةِ القِرَدةِ والخَنازِيرِ(١) أو صَيَّرناهُم حِجارةً ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مُضِيًّا﴾ أي فلَم يَقدِرُوا على المُضِيّ إلى الأمامِ ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ ٦٧﴾ إلى الوَراء بل يَلزَمُون حالًا واحِدًا لا يَتغيَّرُون عنه تقدُّمًا ولا تأخُّرًا، وقيل: معناهُ إذا مُسِخُوا لَم يَقدِرُوا على الذَّهابِ ولا الرُّجوعِ.

---

(١) وقَد أثبتَ اللهُ عزَّ وجلَّ حُصولَ المَسخِ في بَني إسرائيلَ فقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [سُورة البقرة: ٦٥] ومعناه حكَم اللهُ فِيهم وقضَى أن يكُونوا قِردةً خاسئينَ فصيَّرَهُم كذلكَ.

روَى الطَّيالِسيّ في «المُسنَد» والحاكِمُ في «المُستدرَك» عن أبي أُمامةَ رضي الله عنه أنّ رسولَ ﷺ قال: «**يَبيتُ قَومٌ مِن هَذهِ الأُمّةِ عَلَى طُعْمٍ وَشُرْبٍ وَلَهْوٍ وَلَعِبٍ فَيُصْبِحُونَ قَدْ مُسِخُوا قِرَدَةً وَخَنازِيرَ**».

وروَى مُسلِمٌ في «صحِيحِه» والطَّيالِسيّ وأحمَدُ في «المُسنَد» واللَّفظُ لمُسلِم عن ابن مسعودٍ رضي الله عنه أنّ رَجُلًا قال: يا رَسولَ اللهِ، القِرَدةُ والخنازيرُ هي مِمّا مُسِخَ؟ فقالَ النَّبيُّ ﷺ: «**إنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ لَمْ يُهلِكْ قَوْمًا أَوْ يُعذِّبْ قَوْمًا فَيَجْعَلَ لَهُمْ نَسْلًا، وإنَّ القِرَدةَ والخَنازِيرَ كانُوا قَبلَ ذَلِكَ**».

وروَى البَزّار بسنَدٍ ضعيفٍ عن عائشة رضي الله عنها قالتْ: «ما زِلْنا نَسمَعُ إسافَ ونائِلةَ، رجُلٌ وامرأةٌ مِن جُرهُم زَنَيا في الكَعْبةِ فمُسِخا حَجَرَين».

وجُرْهُم أبو قَبيلةٍ وهو جُرهُمُ بنُ قَحْطانَ أخُو يَعرُب.

ثُمّ ساقَ حُجّةً أُخرى على مُنكِري البَعثِ فقال عزّ وجلّ: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ﴾ أي ومَن نجعلْ عُمرَه مَديدًا في الدُّنيا[1] ﴿نُنَكِّسْهُ﴾ أي نَقلِبْ حالَه ﴿فِي ٱلْخَلْقِ﴾ أي في خِلقَتِه بِردِّه إلى أرذلِ العمرِ شِبهَ الصَّبيّ في أوّلِ أوانِه، فنُضعِفُه بَعد قُوّتِه[2] ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ ٦٨﴾ أي أفلا ينظرون بعُقولِهم نظرَ تدبُّرٍ واعتبارٍ وتفكّرٍ فيوقِنُوا بأنّ الخالِقَ الّذي قدرَ على تصريفِ أحوالِ الإنسان قادرٌ علَى بَعثِه بَعد الموتِ.

رُوي أنّ كُفّارَ قُريشٍ قالُوا: محمّدٌ شاعرٌ وما يقولُه شِعرٌ، ففضَحَ اللهُ عزّ وجلّ كذِبَهُم وأنزلَ: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ أي ولَم يُعلّم اللهُ عزّ وجلّ محمّدًا ﷺ ﴿ٱلشِّعْرَ﴾ فلَم يكُن شاعِرًا ﴿وَمَا يَنۢبَغِي﴾ أي ولا يَصلُح ﴿لَهُۥٓ﴾ ذلكَ ولا يليقُ بحالِه بل جعَلَه اللهُ أُمّيًا لا يَقرأُ المكتوبَ ولا يَكتُب لِتكُونَ الحُجّةُ أثبتَ على الكافرِين والشُّبهةُ أدْحضَ، فأُمّيّتُه ﷺ دليلٌ على نُبوّتِه لأنّه ﷺ معَ كونِه أُمّيًا فقد جمَعَ عِلمَ الأوّلين والآخِرين، فالأُمّيّةُ في حقّه مُعجِزةٌ وفي حقّنا عَجزٌ.

---

(١) يُقال: عُمِّرَ بضمّ العَين فهو مُعمَّرٌ بفتحِها أي ممدودٌ له في عُمرِه.

(٢) قال اللهُ تعالَى: ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ الآيةَ [سُورة الحَجّ: ٥] معناه بعضُ النّاسِ إذا كَبِرُوا في السِّنّ يَخرَفُون، وقد علّمَ رسولُ اللهِ ﷺ أُمّتَه في ذلكَ دُعاءً فقال: «اللّهُمّ إنّي أعوذُ بكَ مِنَ الجُبْنِ، وأعوذُ بكَ مِنَ البُخلِ، وأعوذُ بكَ مِنْ أنْ أُرَدَّ إلَى أَرْذَلِ العُمرِ» الحديث.

فليسَ القُرءانُ بشِعرٍ ﴿إِنۡ هُوَ﴾ أي وما هو ﴿إِلَّا ذِكۡرٞ﴾ مِن اللّهِ عز وجلَّ يَعِظُ بِه الإنسَ والجنَّ ويُذكِّرُهم ﴿وَقُرۡءَانٞ﴾ كِتابٌ سَماويٌّ ﴿مُّبِينٞ ٦٩﴾ أي بَيِّنٌ واضِحٌ لِمن تأمَّلَه وتدبَّر فيه على الوَجهِ الصّحِيح، يُقرأ ويُتلَى تعبُّدًا وتدبُّرًا ويُنال بذلك الثَّوابُ العظيمُ، ويُعرَف بهِ الحلالُ والحَرامُ والحدودُ وغيرُ ذلكَ.

وقد أنزل اللّهُ عزَّ وجلَّ هذا القُرءانَ ﴿لِّيُنذِرَ﴾ به ﴿مَن كَانَ﴾ مؤمنًا ﴿حَيّٗا﴾ أي حيَّ القَلبِ يتدبَّرُ ويتفكَّرُ ﴿وَيَحِقَّ﴾ أي وليَثبُتَ بالقُرءانِ ﴿ٱلۡقَوۡلُ﴾ أي الحُجّةُ ﴿عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧٠﴾ إذْ جاءَهُم الرّسولُ ومعَه الكِتابُ فلَم يُؤمِنُوا فاستحَقُّوا العذابَ.

تَتِمّة: جاء في ءاثارٍ عِدّةٍ مرفوعةٍ وموقوفةٍ أنّ النّبِيّ محمّدًا ﷺ كان يَتمثَّل بكلامٍ لِغَيره، بيتٍ أو بيتَين من الشّعر، ممّا فِيه حِكمةٌ ومَوعِظةٌ، وليسَ معناه أنّه ﷺ كان يُنْشِئُ مِن عِندِه شِعرًا، فمَن تَمَثَّل ببَيتٍ أو بَيتَينِ لِغَيرِه لا يُسمَّى شاعِرًا إنّما الشاعِرُ الّذي يَقصِدُ الشّعرَ أي يَصنَعُه ويُنشِئُه مِن نَفسِه بإعمالِ الفِكرِ والتأمُّلِ ويأتِي بِه مُوافِقًا لِقواعِدِ الشّعرِ.

فمِمّا تمَثَّل به ﷺ مِن كلامِ غيرِه كلامُ النّابغةِ[1] : «هَلْ أَنْتِ إِلَّا إِصْبَعٌ دَمِيتِ، وَفِي سَبِيلِ اللّهِ مَا لَقِيتِ»، تمَثَّل به ﷺ حِين دَمِيَتْ إصبَعُه الشّرِيفةُ في بعضِ المغازِي، وقد يَخرُج منه ﷺ الكلامُ موزونًا مِن غيرِ

---

(١) هو شاعِرٌ جاهِلِيٌّ كانت تُضرَبُ له قُبّةٌ مِن جلدٍ أحمرَ بِسُوقِ عُكاظٍ فتَقصِدُه الشُّعراءُ كحسّانٍ والخَنساءِ والأعشى فيعرِضُون عليه أشعارَهم.

أن يُريدَ بِه شِعرًا كالّذي حصَلَ مِنه ﷺ في غزوةِ حُنَينٍ حِينَ كان يركَبُ بَغلته البَيضاءَ وأبو سُفيانَ بنُ الحارِث(١) ءاخذٌ بلجامِها ورسولُ اللّه ﷺ يقول: «أنا النَّبِيُّ لا كَذِب، أنا ابْنُ عَبدِ المُطَّلِب»، فإنّه وإن خرَجَ منه ﷺ موزُونًا إلّا أنّه لَم يُرِد بِه الشِّعرَ، ألا ترى أنّ قولَه تعالَى: ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ﴾ [سُورة سبأ: ١٣] لا يجوزُ أن يقال فيه إنّه شِعرٌ وإنْ رأى فيه بَعضُهم أنّه مِن الكلامِ المَوزُونِ.

فإن قيل: كَيفَ يقال إنّه ﷺ يتمثَّل بِشعرِ غيرِه مع أنّ اللّهَ تعالى يقولُ: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ [سُورة الشّعراء: ٢٢٤].

قلنا: قال أهلُ التّفسِير: أرادَ بالآيةِ شُعراءَ الكُفّار الّذِين كانوا يهجُون النّبِيَّ ﷺ كعَبدِ اللّهِ بنِ الزِّبَعْرَى السَّهمِيّ(٢) وهُبَيرةَ بنِ أَبِي وَهبٍ المَخزُومِيّ ومُسافِع بنِ عبدِ مَنافٍ وأبِي عَمرو بنِ عبدِ اللّه الجُمَحِيّ وأُمَيّةَ بنِ أبِي الصَّلْتِ الثقفِيّ تكلَّمُوا بالكَذِب والباطِل وقالوا: «نحن نقُول مِثلَ ما يقُول محمّدٌ» فأنشَؤوا الشِّعرَ، فاجتمَع إليهم غُواةُ قَومِهم يَسمعُون أشعارَهم حِين يهجُون النَّبِيَّ ﷺ وأصحابَه أي يَطعنُون فيهم، وكان غُواةُ قَومِ أولئكَ الشُّعراء يَرْوُون عنهُم قولَهم الخبيث فذلكَ معنى

---

(١) هو الصحابِيُّ الجليلُ رضي اللّه عنه وابنُ عَمّ النّبِيّ ﷺ وأخُوه مِن الرَّضاعِ، أرضعَتْهُما حَلِيمةُ السَّعدِيّةُ، وكان أبو سُفيانَ شبِيهًا بالنّبِيّ ﷺ في الشَّكلِ. تأخَّر إسلامُ أبِي سُفيانَ حتّى فَتحِ مكّةَ، ثُمّ شَهِدَ معَ النَّبِيّ ﷺ غزوَتَي حُنَينٍ والطّائِف، وتُوُفّيَ رضي اللّه عنه بالمدِينة في خلافةِ سيّدنا عُمَر رضي اللّه عنه.

(٢) قَبلَ أنْ يُسلِمَ.

قولـه تعالى: ﴿يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ أي الـرُّواةُ الّذِين يَـرْوُون هِجاءِ النّبِيّ والمُسـلِمِينَ على سـبِيلِ الرِّضى بذلكَ، وقيل: الغاوُون همُ الشّياطِينُ، وقيل: السُّفهاءُ الضالُّون.

ويُقال في الجوابِ أيضًا: تبِعتِ الآيةَ ءايةٌ أُخرى في نَفسِ السُّـورةِ بَينَّتِ المُسـتَثنين وهو قولُه تعالَى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ﴾.

روَى الطـبَرِيّ وابنُ أبِي حاتِمٍ مِـن طَرِيقِ العَوفِيّ عن ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنهما قال: تَهاجَى رَجُلان على عَهدِ رَسولِ الله ﷺ، أحَدُهما مِن الأنصار والآخَر مِن قَومٍ ءاخَرِين، وكان معَ كُلّ واحِدٍ مِنهُما غُواةٌ مِن قَومِه وهُم السُّفهاء، فأنزَلَ اللهُ تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ الآياتِ.

وروَى الطبَرِيّ والحاكِمُ عن أبِي الحسَنِ البرّادِ قال: لمّا نزلَتْ ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ الآيتَـين جاءَ عبـدُ الله بنُ رَواحةَ وكَعـبُ بنُ مالكٍ وحَسّـانُ بـنُ ثابـتٍ رضي الله عنهم فقالـوا: يا رسـولَ الله، واللهِ لقَد أنـزَلَ اللهُ هذه الآيةَ وهو يَعلَم أنّا شُـعراءُ، هَلَكنـا، فأنزلَ اللهُ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الآيــةَ، فدَعاهُـم رَسـولُ الله ﷺ فتَلا عليهِـم: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ حتّى بلَغَ ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ قال: «أنْتُـم»، ﴿وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ قال: «أنْتُم»، ﴿وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ قال: «أنْتُم».

وأما ما يُروى عن مَسرُوقٍ[(١)] مِن أنه تَمثَّل بأوّلِ بَيتِ شِعرٍ ثُمّ سَكَت فقِيل له: لِمَ سكَتَّ؟ قال: أخافُ أنْ أجِدَ في صَحِيفَتي شِعرًا، وما يُروَى عن ابنِ مَسعُودٍ: «الشِّعرُ مَزامِيرُ الشَّيطانِ»، فقد قال الإمامُ الحافظ المجتهِدُ ابنُ جريرٍ الطَبَرِيُّ: «وهذه أخبارٌ واهِيةٌ، والصّحِيحُ في ذلك أنّه عليه الصّلاةُ والسّلامُ كان يَتمثّل أحيانًا بالبَيتِ فقال: «**هَلْ أَنْتِ إِلَّا إِصْبَعٌ**» إلى ءاخِره، وقال: «**أَصْدَقُ كَلِمةٍ قَالَها الشّاعِرُ**» تَمثَّل ﷺ بأوّلِ البَيتِ[(٢)] وتَركَ ءاخِرَه[(٣)]. وقالت عائِشةُ رضي الله عنها: كان النّبِيُّ

(١) هو مَسرُوقُ بنُ الأجدَعِ الوادِعيُّ التّابعِيُّ الكُوفيُّ المُفتي الفقيه المُحدِّث.

(٢) هو قولُ لبيدٍ: «ألا كُلُّ شَيءٍ ما خَلا اللّهَ باطِلُ» أي كُلّ موجود سِوى الله يجوزُ عليه الفَناءُ لذاتِه عقلًا، أمّا اللّهُ عزّ وجلّ فلا يجوزُ عليه الفَناءُ أو التغيُّرُ شرعًا وعقلًا.

(٣) وهو قولُ لَبِيدٍ في الشَّطرِ الثاني مِن البَيت: «وَكُلُّ نَعِيمٍ لا مَحالَةَ زائِلُ» وهو إطلاقٌ لا يصِحُّ لأنّ نَعِيمَ الجنّةِ يَستحِيلُ أنْ يَفنَى.
قال البَدرُ العَينيّ في «المَقاصِد النّحويّة» (١/ ١١٩): «إنّما قال ذلكَ قَبلَ أنْ يُسلِمَ، فيُمكِنُ أنْ يكُونَ اعتِقادُه ذلك الوَقتَ أنّ الجنّةَ لا وُجودَ لها، أو كان يَعتقِدُ وُجودَها ولكِن لا يَعتقِدُ دَوامَها».
وروَى الحافظانِ البيهقيّ في «الدّلائل» (٢/ ٢٩٢) والعَسقلانيُّ في «الإصابة» (٤/ ٣٨١) مِن طريقِ ابنِ إسحاقَ أنّ عُثمانَ بنَ مظعونٍ رضي الله عنه كان في قومٍ مِن قُريشٍ وفيهم لَبِيدُ بنُ رَبِيعةَ العامريُّ ولَم يكُن أسلَم بعدُ، فأنشَد لبِيدٌ: «ألا كُلُّ شَيءٍ ما خَلا اللّهَ باطِلُ» فقال عُثمانُ: صدَقت، فقال لبِيدٌ: «وَكُلُّ نَعِيمٍ لا مَحالَةَ زائِلُ»، فقال له عثمانُ: كَذبتَ، نَعِيمُ الجنّة لا يزُولُ =

ﷺ يتمثَّل مِن الشِّعر: «**وَيَأْتِيكَ بالأَخْبارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ**»، وكان عامِرُ بنُ الأكوَعِ يَحْدُو بالشِّعرِ بِحَضرتِه المُشرَّفة[1] وقال: «**مَنْ هَذا السَّائِقِ؟**»، قالوا: عامِر، فقال: «**يَرْحَمُهُ اللّٰهُ**»» اهـ. كلامُ ابنِ جَريرٍ فيما نقلَه عنه الحافظ ابنُ بطّالٍ المالكيُّ في «شرح البُخاريّ».

ثُمّ إنّه لا يُذَمُّ الشِّعرُ مُطلَقًا، فكيفَ يُذَمُّ ومنه ما فِيه الثَّناءُ على اللّٰهِ وتنزيهُه والصّلاةُ على النّبِيّ ﷺ وغيرُ ذلكَ ممّا هو محبوبٌ شَرعًا. قال ابنُ المُلقِّن الشافعِيّ: «الشِّعرُ والرَّجَزُ والحُداءُ[2] كَسائِرِ الكَلامِ، فما كان فيه ذِكرُ تَعظِيم الربِّ ووَحدانيّتِه وقُدرَتِه وإيثارُ طاعتِه وتَصغيرُ الدُّنيا والاستِسلامُ له تعَالَى كنَحوِ ما أوردَه البخارِيّ في الباب[3] فهو حسَنٌ مُرغَّبٌ فيه، وهو الّذي قال فيه عليه السّلامُ: «**إِنَّ مِنَ الشِّعْرِ حِكْمَةً**»، وما كان منه كذِبًا أو فُحشًا فهو الّذي ذَمَّه اللّٰهُ ورَسولُه. وقال الشافعِيّ رضي اللّٰه عنه: الشِّعرُ كَلامٌ: حسَنُه كحسَنِ الكَلامِ، وقَبِيحُه كقَبيحِه. قلتُ: وهو حديثٌ مَرفوعٌ[4]، وسَماعُ الحُداءِ ونَشِيد الأعرابِ لا بأسَ

= أبدًا، فغضِبَ لبيدٌ وقام سَفِيهٌ مِنهُم إلى عُثمانَ فلَطَم عَينَه فاخضَرَّتْ.

(١) يعني عِندَ حُضوره ﷺ وفي مَكانه.

(٢) بضَمّ الحاء وكسرِها وهو الإنشادُ الّذي تُساقُ بِه الإبِلُ.

(٣) أي بابِ ما يَجُوز مِن الشِّعرِ والرّجز والحُداءِ وما يُكرَه مِنه.

(٤) لفظُه عِندَ الطّبرانِيّ مرفوعًا: «**الشِّعْرُ بِمَنْزِلَةِ الكَلامِ، فَحَسَنُهُ كَحَسَنِ الكَلامِ، وقَبِيحُهُ كَقَبِيحِ الكَلامِ**»، وقد حسَّنَ إسنادَه الحافظ النوويّ في =

به(١) فإنّ الشارعَ(٢) قد سَمِعَه وأقرّه ولم يُنكره» اهـ. كلامُ ابنِ المُلقِّن.

قلتُ: وكذلك حديثُ حسّانَ حين أمره النّبيُّ ﷺ أنْ يهجُوَ الكُفّارَ بشِعرِه: «**اهْجُهم ورُوحُ القُدُسِ مَعكَ**(٣)»، وهو دليلٌ لأهلِ السُنّةِ على حُصولِ المَددِ مِن ملَكٍ أو وليّ مِن البشرِ بإذْنِ اللّهِ، وكذلكَ ما رواهُ البَزّارُ والنَّسائيُّ عن أنسٍ رضي الله عنه قال: قَدِمَ رَسولُ الله ﷺ المدِينةَ مِن بعضِ مَغازِيه أو أسفارِه، فإذَا سُودانُ المدِينةِ يزْفِنُون(٤) بَين يدَيهِ ﷺ: «جاءَ محمّدٌ رجُلٌ صالِحٌ»، فلَم ينهَهُم رَسولُ اللّهِ ﷺ، وكذلك

= «الأذكار» مِن طريقِ أبي يَعلَى (ص/ ٥٩٤) والحافظُ النُّور الهيثَميّ في «المَجمَع» مِن طريقِ الطبَرانيّ (٨/ ١٢٢).

(١) أي ما لَم يُخالِف الشَّرعَ.

(٢) يعني النّبيَّ ﷺ، وإطلاقُ الشّارع عليه ﷺ مِن بابِ المَجازِ لأنّه المُبلِّغُ عن اللّهِ أوامِرَه ونواهِيَه، وأمّا إطلاقُ الشارِعِ على اللّهِ فهو مِن بابِ الحقِيقةِ ومعناهُ الّذي شرَعَ الدّينَ للعبادِ، قال اللّه عزَّ وجلَّ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ [سُورة الشُّورى: ١٣]، والدِّينُ في الآيةِ هو دِينُ الإسلامِ الّذي رضِيَه اللّه لِعبادِه وأمرَهُم باتّباعِه وعليه كان جميعُ الأنبياءِ وإليه دعَوا.

(٣) أي رُوح الطُّهر جِبريلُ عليه السّلامُ يُمِدُّكَ بمدَدٍ بإذْنِ اللّهِ ويَنفَحُكَ.

(٤) أي يَرقُصونَ رقصًا غيرَ مُحرَّمٍ.

قولُه ﷺ لِـكُلِّ مِن العبّاسِ[١] وللنّابغةِ الجَعْـدِيّ رضي الله عنهما حِين مدحَـه كُلٌّ مِنهما: «**قُـلْ لا يَفْضُضِ اللهُ فاكَ**»[٢]، فلقَـد رُئِي النّابغةُ شيخًا كبِيرًا ولَم يَسقط له سِنٌّ[٣].

ثُـمّ إنّ اللهَ تعالَى لمّا ذكَر دلِيلًا مِن الآفـاقِ على وُجوبِ إفرادِه بالعبادةِ قال عزَّ وجـلَّ: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ أي أوَلَم يَنظُرْ هؤلاءِ المُشرِكُونَ نظَرَ اعتِبار

---

(١) والرّوايةُ الواردةُ في العبّاسِ مِن طريقِ يَعلَى بنِ الأشدَقِ وهو ضعيفٌ، لكن قال الحافظ العسقلانيّ في «الإصابة» (٦/ ٣١١): «قال أبو نُعَيم: رواه عن يَعلَى جَماعةٌ منهم هاشِـمُ بنُ القاسِـم الحرّانيُّ وأبو بَكرٍ الباهلِيُّ وعُروةُ العِرْقِيّ لكنّه تُوبِعَ».

(٢) قال ابـن الأثـير في «النّهاية» (٣/ ٤٥٣): «أي لا يُسـقِطِ اللهُ أسـنانَك. وتقدِيرُه: لا يَكسِرِ اللهُ أسنانَ فِيكَ».

(٣) قال الحافظ العسـقلانيّ في «الإصابة» (٦/ ٣١٠): «وقال أبو عُبيدةَ معمَر ابنُ المُثنّى: كان النابِغةُ مِمّن فكَّر في الجاهليّة (أي استدَلَّ بالعَقلِ علَى وُجودِ اللّهِ)، وأنكَر الخمرَ والسُّـكرَ، وهَجـرَ الأزلامَ، واجتَنَب الأوثانَ، وذَكَر دِينَ إبراهيمَ (أي دِينَ الإسلامِ)، وهو قائلُ القصيدة الّتي فيها: [المُنسرِح]

الحَـمْـدُ للهِ لا شَرِيـــكَ لَـهُ   مَـنْ لَمْ يَقُلْها فَنَفْسَهُ ظَلَما

والأزْلامُ هــي القِداحُ الّتي كانتْ في الجاهلِيّــة علَيها مكتوبٌ الأمرُ والنَّهيُ: افعَـلْ ولا تَفعَـلْ، كان الرّجُل مِنهُم يَضعُها في وعاءٍ له، فإذَا أرادَ سـفَرًا أو زِواجًـا أو أمرًا مُهمًّا أدخَلَ يدَه فأخرَجَ مِنهـا زَلَمًا، فإنْ خرَجَ الأمرُ مضَى لِشَأنِه، وإنْ خرَجَ النَّهيُ كَفَّ عنه ولَم يَفعَلْه.

وتفكُّرٍ ﴿أَنَّا خَلَقْنَا﴾ أي أوجدْنا ﴿لَهُم مِّمَّا﴾ أي مِن جُملةِ ما ﴿عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ أي أوجَدْنا بقُدرَتِنا ﴿أَنْعَـٰمًا﴾ ملَّكْناهُم إيّاها، ولا يَقدِرُ غيرُنا على إبرازِ شيءٍ مِن العدَمِ إلى الوُجودِ(١)، والأنعامُ المواشِي الّتي خلَقَها اللهُ للنّاس، ﴿فَهُمْ﴾ أي فهؤلاءِ المُشرِكُون ﴿لَهَا﴾ أي للأنعامِ ﴿مَـٰلِكُونَ ۝٧١﴾ بتَمليكِ اللهِ لهُم إيّاها يَتصرَّفُونَ فيها تَصرُّفَ المُلّاكِ، ولو شاءَ اللهُ لمنَعَهُم مِن ذلك. وخُصَّتِ الأنعامُ بالذِّكرِ دُونَ غيرِها - وإنْ كانَ الخَلقُ كُلُّه للهِ - لأنّ النَّعَمَ أكثرُ أموالِ العرَب؛ وقد ملَكَها المُؤمِنُون مِنهُم والمشرِكُون.

تنبيه: لا يجوزُ حملُ قولِه: ﴿عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ على معنَى أنّ للهِ أعضاءً

---

(١) قال أبو حيّان في «البَحرِ المحيط» (٩/ ٨٢): «والبارِئُ تعالَى مُنزَّهٌ عن اليَدِ الّتي هي الجارِحةُ وعن كُلِّ ما اقتضَى التّشبيهَ بالمُحْدَثات».
وقال أبو حفص بنُ عادِلٍ (ت ٧٧٥هـ) أحدُ فُضلاءِ الحَنابلةِ في تفسيرِه «اللُّباب» (٧/ ٤٢٨): «قالت المجسِّمة: اسمُ اليَدِ موضوعٌ لهذا العُضوِ، فحَمْلُه على شيءٍ ءاخَر تَركٌ لِلُّغة، وإنّه لا يجوز. والجوابُ عنه أنّه تعالَى ليسَ بجِسمٍ لأنّ الجِسمَ لا يَنفكُّ عن الحَرَكةِ والسُّكونِ وهما مُحْدَثان، وما لا يَنفكُّ عن المُحْدَث فهو مُحْدَث، ولأنّ كلَّ جِسمٍ فهو مُتَناهٍ في المِقدار، وكلُّ ما كان مُتناهيًا في المِقدارِ فهو مُحدَثٌ، ولأنّ كُلَّ جِسمٍ فهو مؤلَّفٌ من الأجزاءِ، وكلُّ ما كان كذلك افتقَرَ إلى ما يُؤلِّفُه ويُركِّبُه، وكلُّ ما كان كذلكَ فهو مُحْدَث، فثبَتَ بهذِه الوُجوهِ أنّه يَمتنِعُ كونُه تعالَى جِسمًا، فيَمتنِعُ أن يكُونَ عُضوًا جِسمانيًّا».

وجَـوارِحَ يُوجِدُ بِها المخلُوقاتِ، حاشـا لله، فاللَّهُ مُنـزَّه عن أن يكونَ جِسـمًا ومُشابِهًا لشيءٍ مِن الخَلقِ، وهو تعالَى مُقدَّسٌ عن أنْ يكونَ فِعلُه بالمُباشَرةِ والمُماسّـةِ، هذا اعتقادُ المُسـلمِينَ قاطبةً، ومَن خالفَ في ذلكَ كان كافِرًا باللَّهِ وإنْ زعمَ أنّه مُسلِمٌ.

ثُـمّ ذكَّرهُم اللَّهُ عزَّ وجلَّ نِعمتَـهُ عليهِم وأنّه ملَّكهُـم الأنعامَ المُذلَّلة فقـال: ﴿وَذَلَّلْنَاهَا﴾ أي وزدناهُـم نِعمةً بأنْ صيّرنا تِلـكَ الأنعامَ الّتي ملَكُوها مُنقادةً ﴿لَهُمْ﴾ مُسَـخَّرةً ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ أي ما يُركَبُ ويُحمَل عليه الأثقالُ ويُسـافَرُ به إلى النّواحِي البعِيدةِ كالإبلِ فإنْ شاؤُوا انتفعُوا بِها في ذلكَ، ﴿وَمِنْهَا﴾ ما ﴿يَأْكُلُونَ ۝٧٢﴾ لَحمَه.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا﴾ أي في الأنعـامِ ﴿مَنَافِعُ﴾ غيرُ ما مرَّ ذِكرُه، فإنّ لهم انتِفاعًا في أصوافِها وأَوبارِها وأَشعارِها وجُلودِها وعِظامِها ونَسلِها ﴿وَمَشَارِبُ﴾ أي مِن ألْبانِها ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ ۝٧٣﴾ اللَّهَ الخالِقَ بأنْ يُؤمِنُوا به ويترُكوا الإشراكَ ويُطِيعُوه.

فائدة: تَفكَّر بعضُ المفسِّرين في قولِه تعالَى ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ فقالُوا: معناهُ بعضُ هذهِ الأنعامِ يُركَب كالإبِلِ وبَعضُه لا يُركَبُ كالبقَر. وقد صحَّ في الحديثِ الّذي رواهُ الشَّيخانِ وغيرُهما عن أبي هُريرةَ رضي اللَّه عنه أنّ رسولَ اللَّه ﷺ قال: «**بَيْنَمَا رَجُلٌ رَاكِبٌ عَلَى بَقَرَةٍ التَفَتَتْ إِلَيْهِ، فَقَالَتْ: لَمْ أُخْلَقْ لِهَذَا، خُلِقْتُ لِلْحِرَاثَةِ**»، قال ﷺ: «**ءامَنْتُ بِهِ**[1] **أَنَا**

(١) أي صدَّقتُ به، وذلكَ مِنَ الأخبارِ الّتي أُطلِعَ عليها رسولُ اللَّه ﷺ.

وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ[١]»، ولَم يَكُونا حاضِرَين معه ﷺ في ذلك المجلِس.

ولمّا كان الواجبُ طاعةَ اللهِ وعدمَ الإشراكِ بهِ بيّنَ سُبحانَه وتعالَى أنّ الكافرين الّذين أنعمَ عليهم سُبحانَه بما سبَقَ ذِكرُه مِن أصنافِ النِّعَمِ لَم يُقْبِلُوا إلى الإيمانِ باللهِ وطاعَتِه بل طلَبُوا العونَ بزَعمِهم مِن الأصنامِ قال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَٱتَّخَذُواْ ﴾ أي واتَّخَذَ المُشرِكون لأنفُسِهم ﴿مِن دُونِ﴾ أي غيرَ ﴿ٱللَّهِ﴾ معبُوداتٍ بباطِلٍ ﴿ءَالِهَةً﴾ مزعومةً لهُم وهي في الحَقيقةِ أصنامٌ يَصنعونَها بأيديهم، وقد فعَلُوا ذلكَ ﴿لَّعَلَّهُمۡ يُنصَرُونَ ٧٤﴾ أي راجِينَ نُصرةَ الأصنامِ الّتي عبَدُوها لجِهةِ أنْ تَدفعَ عنهُم عذابَ اللهِ أو أنْ تنصُرَهُم إذا أحزَنَهُم أمرٌ على زَعمِهم.

فَرَدَّ اللهُ تعالَى علَيهِم وبَيَّنَ للنّاسِ أنّ هؤلاءِ الأصنامَ ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَهُمۡ﴾ أي لا يَقدِرُون على أنْ يَنصُرُوا عابدِيهِم إذا أرادَ اللهُ بالكافرين العذابَ، بل وإنّ الأصنامَ لا تَملِكُ لنَفسِها نفعًا ولا ضَرًّا فكيفَ تَنفعُ عابدِيها؟! ومعَ أنّها لا تَقدِرُ على دَفعِ العذابِ عنهُم فإنّ المُشرِكينَ يُعظِّمُونَها ﴿وَهُمۡ لَهُمۡ﴾ أي للأصنامِ في الدُّنيا ﴿جُندٞ﴾ أي بِمَثابةِ الجُندِ ﴿مُّحۡضَرُونَ ٧٥﴾ يَحضُرُونَها مُتعصِّبِين لها عاضِبِين لأجلِها مُدافِعِين عَنها، وفي مُقابِل ذلكَ لا تَستطِيعُ لهُم نَصرًا ولا تَسُوق إلَيهم خيرًا.

---

(١) قال الحافظ العسقلانيّ في «الفتح» (٦/ ٥١٨): «هو محمولٌ على أنّه كان أخبرَهُما بذلكَ فصدَّقاه أو أطلَقَ ذلك لِما اطّلَعَ علَيه مِن أنّهما يُصدِّقانِ بذلكَ إذا سَمِعاه ولا يَتردَّدان فيه».

وقيل: معنى ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ۝٧٥﴾ أنّ المُشركين يومَ القِيامةِ مُشيَّعون إلى النّارِ معَ الأصنامِ الّتي عبدُوها، فتُقذَفُ الأصنامُ في النّارِ معَ مَن عَبدَها إذلالًا لَهم وبيانًا أنها لم تُغنِ عنهم مِن اللهِ شيئًا، يقولُ اللهُ تعالَى: ﴿إِنَّكُمْ﴾ أيها المُشركون ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ مِن الأوثانِ ﴿حَصَبُ﴾ أي وَقودُ ﴿جَهَنَّمَ﴾ [سُورة الأنبياء: ٩٨]، وجهنَّمُ دائمةُ الاتّقادِ لا تنطفِئُ أبدًا وتَزدادُ بأَهلِها اتّقادًا كما دلَّ عليه صريحُ قولِه تعالَى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [سُورة البقَرة: ٢٤]، وقولِه أيضًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ [سُورة ءال عِمران: ١٠].

فائدة: روَى الطبَرانيّ في «المعجَم الكبير» والحاكمُ في «المُستدرَك» والضِّياءُ المَقدسِيّ في «الأحاديثِ المُختارةِ» وحسَّنه الحافظُ العسقلانيّ عن عِكرمةَ عن ابنِ عباسٍ رضي اللهُ عنهما قال: جاءَ عبدُ اللهِ بنُ الزِّبَعْرَى[1]

---

(١) أي قبلَ إسلامِه. كانَ مِن أعيانِ قُرَيشٍ في الجاهليّة ومِن فحُولِ الشُّعراء، وكان يُهاجي المُسلمينَ بشدّةٍ ثُمّ أسلَمَ عامَ الفَتح وحَسُن إسلامُه، وله أشعارٌ يَعتذِرُ فيها إلى رسولِ اللهِ ﷺ عمّا سبَق منهُ كقَولِه:

إنّي لَمُعتَذرٌ إلَيكَ مِنَ الّذي ... أَسْدَيْتُ إذْ أَنا في الضَّلالِ أَهِيمُ
فاليَومَ ءامَنَ بالنَّبِيّ مُحمَّدٍ ... قَلبي وَمُخطِئُ هَذِهِ مَحرُومُ
وَلَقَدْ شَهِدْتُ بأَنَّ دِينَكَ صادِقٌ ... حَقٌّ وأَنّكَ في العِبادِ جَسِيمُ(*)
واللهُ يَشهَدُ أَنَّ أَحمَدَ مُصطَفَى ... مُستَقبَلٌ في الصّالحِينَ كَرِيمُ

(*) جَسِيمٌ: عَظِيمُ الشّأنِ.

إلى النّبيّ ﷺ فقال: يا محمّدُ، تزعُم أنّ اللهَ أنزلَ عليك ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾؟ قال: «نعم»، قال: فقد عُبِدَتِ الشّمسُ والقمرُ والملائكةُ وعيسى وعُزيرٌ، فكلُّ هؤلاءِ في النّارِ مع ءالهتنا؟! فنزلتْ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾[1]، ونزلتْ: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾[2] إلى قوله: ﴿خَصِمُونَ﴾[3].

---

(١) أي قضى اللهُ في الأزلِ وشاءَ بمشيئتِه الأزليّة أنْ يكونَ لِصالحي المؤمنين السّعادةُ الأبديّةُ في الآخرة مِن غيرِ سابقِ عذابٍ.

(٢) بكسرِ الصّاد من ﴿يَصِدُّونَ﴾ ومعناهُ يَضجُّونَ مِن المثَلِ، وقُرِئ في السّبعِ بضمّ الصّاد أي يَصُدُّون عن أمرِك.

(٣) قال إمامُ الهُدى أبو الحسنِ الأشعريُّ رضي اللهُ عنه في «رسالةِ استحسان الخوضِ في عِلم الكلامِ» ما نصُّه: «وأما أصلُنا في استدراكِنا مُغالَطةَ الخُصوم فمأخوذٌ مِن القُرءانِ مِن قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ إلى قوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾؛ فإنّهُ لَمّا نزَلت هذه الآيةُ بَلَغ ذلك عبدَ اللهِ بنَ الزِّبَعْرَى وكان جدِلًا خصِمًا فقال: خَصَمتُ محمّدًا وربِّ الكَعبةِ، فجاء إلَى النّبيِّ ﷺ فقال: يا محمّدُ ألَستَ تزعُم أنّ عِيسَى وعُزيرًا والملائكة عِبادٌ صالحُونَ؟ قال: أجَل، قال: فإنّ النّصارَى تَعبُدُ عيسَى، وطائفةٌ مِن اليَهُودِ تَعبُدُ عُزيرًا، وهذا بَنو لُحَيٍّ تَعبُدُ الْمَلائِكةَ، فيَجبُ أن يَكُونوا حَصَبَ جهنَّمَ، فسَكتَ النّبيُّ ﷺ لا سُكوتَ عِيٍّ ولا مُنْقطِعٍ بل تعجُّبًا مِن جهْله لأنه ليسَ في الآيةِ ما يُوجِبُ دُخولَ عيسَى وعُزَيرٍ والملائكةِ فيها لأنّه قال: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ ولَم =

ثُمّ أنزلَ اللّهُ عزَّ وجلَّ ما فيه تخفِيفٌ عن نَبِيّه محمّدٍ ﷺ مِمّا يجِدُه النّبِيّ ﷺ بسببِ تكذِيب كُفّارِ مكّةَ له فقال: ﴿فَلَا يَحۡزُنكَ﴾ أي وإذا كانَ هذا حالَهم فلا يحزُنْكَ يا محمّدُ ﴿قَوۡلُهُمۡ﴾ مِن الكُفرِ وإنْ كُنتَ تكرَهُه، ﴿إِنَّا نَعۡلَمُ﴾ أي اللّهُ يعلَمُ ﴿مَا يُسِرُّونَ﴾ أي يُخفُونَ في ضمائِرِهم مِن التّكذِيبِ ﴿وَمَا يُعۡلِنُونَ ٧٦﴾ مِن عِبادةِ الأصنامِ أو ما يُفصِحُون بِه مِن الأذَى بألسِنتِهم عَلانِيةً، لا يَخفَى علَى اللّهِ شيءٌ.

وليُتنبَّه إلى أنّ الوقفَ على ﴿قَوۡلُهُمۡ﴾ تامٌّ، فيُوقَفُ علَيها ثُمّ يُبتدأُ بِما بعدَها لأجلِ أنْ لا يَتوهَّمَ سامِعٌ أنّ الآتِيَ مِن الكلامِ هو قولُ المُشركِين، فليسَ مِن قولِهم: «إنّا نَعلَمُ ما يُسِرُّونَ وما يُعلِنُون» بل هو خِطابُ اللّهِ عزَّ وجلَّ لنبيّهِ ﷺ.

ثُمّ أنزلَ اللّهُ عزَّ وجلَّ الآياتِ الآتيةَ إلى ءاخِرِ السُّورة براهِينَ على البَعثِ والحَشرِ في القِيامةِ فقال تعالَى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ﴾ أي يعلَم ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ المُنكِرُ

= يَقُل: «وكُلُّ ما تَعبُدون مِن دُون اللّهِ»، وإنّما أرادَ ابنُ الزِّبَعْرى مُغالَطةَ النّبِيّ ﷺ ليُوهِم قومَه أنّه قد حاجَّهُ، فأنزلَ اللّهُ عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ يعني مِن المعبُودِين ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾ فقرأَ النّبِيُّ ﷺ ذلك فضَجُّوا عند ذلِكَ لِئلّا يَتبيَّنَ انقطاعُهم وغلَطُهم فقالوا: أءالِهتُنا خيرٌ أم هو؟! يعنُون عيسَى، أرادُوا مُغالَطةَ رسولِ اللّهِ ﷺ فقالَ اللّهُ سُبحانَه: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ﴾؛ لأنّه لو قال: «عِيسَى خيرٌ» فقد أثبتَ لآلهتِهم خيْرِيّةً، فقال سُبحانَه: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ﴾، وهذا نَصٌّ علَيه علَى مُجادَلتِهم ومُجادَلتِه إيّاهُم بالوَحيِ وما علَّمَهُ اللّهُ إيّاه».

للبَعـثِ ﴿أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ﴾ أي أنّ اللّهَ خلَقَـه بأنْ أخرَجَه مِـن العدَمِ فصيَّرَه موجُودًا ﴿مِن نُّطۡفَةٖ﴾ قَليلةٍ هي مُنعقِدُ مَنِيّ الرّجُلِ بمَنِيّ المرأةِ في رَحِمِها ﴿فَإِذَا هُوَ﴾ بَعدَما كان نُطفةً رجلٌ مُفوَّهٌ مِنْطِيقٌ[1] ﴿خَصِيمٞ﴾ أي شَديدُ الخصُومةِ والجِدالِ بالباطِلِ ﴿مُّبِينٞ ٧٧﴾ أي مُعرِبٌ مُفصِحٌ عمّا في نَفسِه.

وأمْـرُ هذا المُخاصِم المُجادِل في قضيّةِ البَعثِ عجيبٌ، فإنّه معَ عِلمِه بمَبـدَأ وُجودِه يَتصـدَّى ويُجادِلُ لإبطالِ الحقِّ الّـذي يزعمُه باطِلًا ولا يَتفكَّرُ في بَـدءِ خَلقِه وأنّه مِن نُطفةٍ قَليلةٍ وأنّ الخالِقَ الّذي أنشـأَهُ مِن هذه النُّطفةِ بَعدَ عدَمٍ قادِرٌ على إعادَتِه بعدَ فَنائِه.

روَى الحاكِمُ في «المُسـتدرَك» وغـيرُه أنّ أُبَيَّ بنَ خلَفٍ الجُمَحِيَّ[2] عدُوَّ اللّهِ خاصَـمَ النّبِيَّ محمّـدًا ﷺ وجادلَه مُنكِرًا للبَعثِ ثُـمّ أتاه بعَظمٍ قد رَمَّ[3] ففتَّه بيَدِه وقال: يا محمّدُ، أيَبعَثُ اللّهُ هذا بعدَما أرَمَّ؟! فقال النّبِيُّ

---

(١) أي بلِيغُ الكَلامِ.

(٢) هو أحدُ رؤوسِ قُريشٍ وكِبارِ زُعمائِهم، وهو أخُو أُميّةَ بنِ خلَفٍ عُدُوّ اللّه. وفي الخَبرِ الّذي رواهُ ابنُ إسـحاقَ أنّ أُبَيّ بنَ خلَفٍ كانَ يلقَى رَسولَ اللّه ﷺ بمكّةَ فيقولُ: يا محمّدُ، إنَّ عِندي العَوْذَ فرَسًـا أَعلِفُه كلَّ يوم فَرَقًا مِن ذُرَةٍ أقتُلُـكَ علَيه، فيقولُ النّـبِيُّ ﷺ: «أَنَا أَقْتُلُكَ إِنْ شَـاءَ اللّهُ»، فلَمّا رجعَ إلى قُريـشٍ مِن المَعركةِ يومَ أُحُدٍ وقد خَدَشَـه ﷺ في عُنُقِه خَدْشًـا غيرَ كَبِيرٍ احتقَـنَ الدّمُ فقال: قتلَنِي واللّهِ محمَّدٌ، فقالوا له مُسـتَهزِئِينَ به: ذَهَـبَ واللّهِ فُـؤادُكَ، واللّهِ ما بكَ مِن بأسٍ، قال: إنّه قد كانَ قالَ لي بمَكّةَ: أنا أَقتُلُكَ، فوَاللّهِ لو بَصقَ علَيَّ لقتَلَنِي. فماتَ عدُوُّ اللّهِ بسَرِفٍ وهُم راجِعُون إلى مكّةَ.

(٣) أي بَلِيَ، يُقالُ: رَمَّ العَظمُ وأرَمَّ.

ﷺ «نعـم، يبْعثُ اللهُ هذا، يميتُك ثُمَّ يحْييك ثُمَّ يُدْخِلُك نارَ جهنَّم»، فنزلَتِ الآياتُ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ إلَى ءاخِرِ السُّورة.

﴿وَضَرَبَ لَنَا﴾ المُكذِّبُ بالبَعثِ ﴿مَثَلًا﴾ في إنكارِ البَعثِ بالعَظمِ البالي حِينَ فتَّهُ بيَدِه وتعجَّبَ مِمَّن يقُولُ: إنَّ اللَّهَ يُحْييه، ﴿وَنَسِىَ﴾ هذا الجاحِدُ ﴿خَلْقَهُۥ﴾ أي أوّلَ خَلْقِه وبَـدءَ أَمرِه فـ﴿قَالَ﴾ على طريقِ إنكارِ البَعثِ واستِبعادِه ﴿مَن يُحْيِ﴾ أي مَن يَرُدُّ ﴿ٱلْعِظَٰمَ﴾ الميّتةَ إلى حالِها الأوّلِ ﴿وَهِىَ رَمِيمٌ ٧٨﴾ أي بعدَ أنْ صارَتْ باليةً أشدَّ البِلَى، والمرادُ بإحياءِ العِظامِ إعادتُها إلى ما كانت علَيه رَطْبةً في بدَنٍ ذِي شُعورٍ وإحساسٍ.

﴿قُلْ﴾ يـا محمّدُ لمُنكِري البَعثِ ﴿يُحْيِيهَا﴾ أي يُعِيدُ العِظامَ الباليةَ إلى حالِها الأوّلِ اللهُ خالِقُها ﴿ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ﴾ أي خلَقَها ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ بعدَ عدَمٍ ولَم تكُ شيئًا، فكذلكَ يُعِيدُها وإنْ لَم يَبْقَ مِنها شىءٌ، ﴿وَهُوَ﴾ أي اللهُ ﴿بِكُلِّ خَلْقٍ﴾ أي ابتِـداءٍ وإعـادةٍ وتفاصيلِ ذلكَ ﴿عَلِيمٌ ٧٩﴾ لا يَصعُب علَيهِ بَعثُ الأجسادِ بعدَ فَنائِها.

ثُمّ زادَ في البَيانِ وأخبرَ عزَّ وجلَّ عَن بعضِ عَجِيبِ مَصنُوعاتِه ليَعتبِرُوا ويَرشُـدوا فقال: ﴿ٱلَّذِى﴾ أي مُحيي العِظامِ هو الخالِـقُ الواحِدُ القادِرُ الّـذي ﴿جَعَلَ﴾ أي خَلقَ وأخرَجَ ﴿لَكُم﴾ أي لمَنفعَتِكُم ﴿مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ﴾ الرَّطْبِ المُشتمِلِ على الماءِ كالمَرْخِ والعَفارِ ﴿نَارًا﴾ مُحرِقةً، والمَرْخُ والعَفارُ شجَرانِ مَوجُودانِ في أغلَبِ بَوادِي العرَب، يُقطَع مِنهُما

غُصْنانِ كالمِسْواكَينِ وهما أخضرانِ يَقطُر منهُما الماءِ، فيُسْحَقُ المَرْخُ وهو الذَّكَرُ والأعلَى بالعَفارِ وهو الأُنثَى والأسفَلُ فتَنقدِحُ النّارُ بإذنِ اللّهِ تعالَى ويرَاها مُنكِرُو البَعثِ وغيرُهم[1]، ﴿فَإِذَآ أَنتُم﴾ أيُّها المنكِرُون للبَعثِ ﴿مِّنۡهُ﴾ أي مِن الشَّجرِ الرَّطبِ ﴿تُوقِدُونَ ٨٠﴾ النّارَ بقَدْحِ غُصنٍ بآخرَ رَطْبَين، فاللّهُ القادرُ على إيجادِ النّارِ من الشجَرِ الأخضَرِ مع ما فِي هذا النَّباتِ مِن المائيّة المضادّةِ للنّارِ، لا يُعجِزُه إعادةُ الرُّطوبةِ إلى العِظامِ الّتي طرأَتْ عليها اليُبوسةُ، كما أنّه لا يُعجِزُه خَلقُ الأجسادِ الفانيةِ مِن تُرابٍ.

فالإعادةُ والإفناءُ بخَلقِ اللّهِ لا يُعجِزُه شيءٌ عن ذلكَ، وما جاءَ في قولِ اللّهِ تعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِ﴾ [سورة الرُّوم: ٢٧] فمعناهُ هيِّنٌ عليه، فليسَ فِعلٌ أيسَرَ عليه مِن فِعلٍ، فإنّه تعالَى يُوجِدُ ويُعدِمُ ما يشاءُ بقُدرةٍ واحدةٍ أزليّة أبديّةٍ ولا يَلحقُه مشقّةٌ ولا تعَبٌ سُبحانَه، فكُلّ إيجادٍ وإعدامٍ بالنِّسبةِ إلى اللّهِ سواءٌ، فخَلقُه

---

(١) وقد شاهَد مُنكِرُو البَعثِ ما هو نَظيرُ ذلكَ مِن عَجيبِ الأُمورِ كالنَّعامةِ، فإنّها كانتْ مِن الحيواناتِ المَعرُوفةِ عِندَ العربِ، وقد شاهَدُوا مِن أمرِها أكلَ الجمرِ

قال الدَّميريُّ في «حياة الحيوان الكُبرى» (٢/ ٤٨٦): «وتبتلِعُ الجمرَ فيكونُ جَوفُها هو العاملَ في إطفائه ولا يكُون الجَمرُ عاملًا في إحراقِه، وفي ذلك أعجُوبتان: إحداهُما التغذّي بما لا يُتغذّى به، والثانيةُ الاستمراءُ والهضمُ، وهذا غيرُ مُنكرٍ لأنّ السَّمَندَل يَبيضُ ويُفرِّخُ في النّار».

للعَرشِ كخَلْقِه للذَّرّ.

ثُـم ذكَر اللَّهُ عزَّ وجلَّ لهُم دليلًا ءاخر على البَعثِ فقال تعالَى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ السَّبعَ وما فيها مع عِظَمِ حَجمِها ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ التي أنتُم عليها ومِثلَها سِتًّا مِن الأرضِين تَحتَها(١) وما فيها معَ كِبَرِ مِساحتِها ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ أي أمثـالَ المُنكرِيـن للبَعثِ مرّةً أُخرَى بأنْ يُعِيـد أبدانَهم يومَ البَعثِ كما كانتْ وهُم بالنِّسـبةِ للسّـماواتِ والأرضِـينَ في الحَجـمِ والصِّفاتِ في غايةِ القِلّـةِ، ﴿بَلَىٰ﴾ أي اللَّهُ وَحدَه القـادِرُ علَى ذلِك ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ﴾ أي الّذي يَخلُق خلْقًا بَعدَ خَلْقٍ على ما شـاءَ ﴿ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ أي التّامُّ العِلمِ، العالِمُ بكُلّ المعلُوماتِ، فهو عزَّ وجلَّ قادِرٌ علَى إحياءِ الموتَى كما يَشاءُ وَفقَ عِلمِه سُبحانَه.

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ﴾ أي شـأنُه ووَصفُهُ سُـبحانَه أنّـه ﴿إِذَآ أَرَادَ﴾ في الأزلِ بمَشـيئتِه الأزليّةِ ﴿شَيْـًٔا﴾ أي إحداثَ شيءٍ بقُدرَتِه الأزليّةِ وَفقَ عِلمِه الأزليّ ﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن﴾ أي أن يُكوّنَـه ﴿فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ ما أرادَ اللَّهُ وُجودَه، ومعنَى ذلك أنّ اللَّهَ يُوجِدُ ما شـاءَ مِن الموجُوداتِ علَى حسَب ما أرادَهُ في الأزَلِ بلا تعَبٍ ولا مشَـقّةٍ في الوقتِ الّذي قُدّرَ للموجُودِ أنْ

---

(١) قـال اللَّهُ عـزَّ وجـلَّ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [سُورة الطلاق: ١٢] وقال كَعبٌ: وفي كلِّ أرضٍ مِثـلُ ما على هذه الأرضِ إلّا البشَرَ، قـال اللَّهُ عـزَّ وجـلَّ: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [سُورة طه: ٥٥].

يُوجد فيه مِن غَيرِ تَجدُّدِ مَشيئةٍ لله، لأنّ حُدوثَ الصِّفةِ يَستلزِمُ حُدوثَ الذّاتِ، ففي الآيةِ دليلٌ على سُرعةِ الإيجادِ.

وليسَ المعنَى أنّ اللهَ كُلّما خَلَق شيئًا قال له: كُنْ، كُنْ كُنْ، وإلّا كانَ معنَى ذلكَ أنّ اللهَ كُلَّ الوَقتِ يقُولُ: كُنْ، كُنْ كُنْ، وهذا مُستحِيلٌ عَقلًا وشرعً، فإنّ اللهَ عزَّ وجلَّ يَخلُق في اللَّحظةِ الواحدةِ ما لا يَدخُل تَحتَ الحَصرِ، ولأنّ «كُنْ» لغةٌ عربيّةٌ واللهُ تعالَى كان موجودًا في الأزَلِ قَبلَ اللُّغاتِ كُلِّها وقبلَ أصنافِ المخلوقاتِ جميعِها وقبلَ العالَمِ بأَسرِه، وكلامُه عزَّ وجلَّ ليسَ ككَلامِ المتكلّمين، وذلك هو المفهومُ مِن صَريح قولِ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾، وأمّا على قولِ المُشبّهة المجسّمة الكافرينَ القائلينَ بأنّ كَلامَ اللهِ حَرفٌ وصَوتٌ يَلزَم أنْ يكُونَ اللهُ ساكِتًا قَبلُ ثُمّ صارَ مُتكلّما، وهذا مُحالٌ عقلًا وشرعًا، فإنّ هذا الّذي ادَّعوه شأنُ البشَرِ وغيرِهم مِن المخلوقاتِ، وقد قال أهلُ السُّنّةِ والجَماعةِ: «لو كان يَجوزُ علَى اللهِ أنْ يَتكلَّمَ بالحرفِ والصَّوتِ لجازَ علَيه كلُّ الأعراضِ أي الأوصافِ الحادِثةِ من الحَركةِ والسُّكونِ والبُرودةِ واليُبوسةِ والألْوانِ والرَّوائحِ والطُّعومِ وغيرِ ذلك، وهذا مُحالٌ على اللهِ، فهو سُبحانَه وتعالى لا يُشبِهُ شيئًا مِن المخلُوقاتِ، ولَزِمَ مِن قولِهم أيضًا أنْ تكون الحُروفُ والأصواتُ أزليّةً، وفي ذلك جَعلٌ للمَخلُوقِ كالخالِقِ لأنّ المخلُوقَ يَتكلَّم بِحَرفٍ وصَوتٍ، وكلامُ الخالِق ليسَ بِحَرفٍ ولا صَوتٍ ولا لُغةٍ ولا يُشبِهُ كلامَ المخلُوقِين.

ثُـمّ لَو كانَ قولُ «كُن» مَخلوقًا بقولِ «كُـنْ» غيرِه لافتقرَ كُلّ «كُنْ» على قـولِ القائِل بذلكَ إلى «كُنْ» قَبلَه وهكذا لا إلَى أوّلَ، وذلك مُمتنعٌ عقلًا لأنّه مُؤدٍّ إلى التّسلسُـلِ في جِهةِ الماضي وهو مُحـالٌ، ويُفضي أيضًا إلى القَولِ بعدَمِ وُجودِ المخلُوقاتِ أصلًا، كما أنّه يُفضِي إلى نِسبةِ العَجزِ للهِ عن إيجادِ مَخلُوقٍ إلّا مِن مَخلُوقٍ ءاخر، والعِياذُ باللهِ، وكلُّ ذلكَ مُحالٌ، وما أدّى إلى المُحالِ مُحالٌ.

ويُقال لهُم أيضًا: إنْ قُلتُم: إنّه تعـالَى مُتكلّمٌ بالحرَفِ والصَّوتِ وبلَفظِ «كُـنْ» للإيجادِ، فذلكَ يَقتضِي أنْ يكُون مُتكلِّمًـا بالكاف قبلَ النُّون، فيَكـونُ على زَعمِكُم مُتكلِّمًا بالكافِ والنُّـونُ بَعدُ مَعدُومةٌ، وإذَا تَكلَّم بالنُّـون بَعد الكاف فقد وُجِـدَتِ النُّونُ وصارَتِ الـكافُ مَعدُومةً[1]، ومَـن كانت هذه صِفتُه لا بُدَّ أنْ يكُون مَخلُوقًا، فبَطَلَ بما سُـقْناه مِن الأدِلّة العَقلِيّة ادّعاءُ المشـبّهةِ الوهّابيّةِ وأسـلافِهم أنّ كلامَ اللهِ حُروفٌ أزليّةٌ بِدَليل أنّ الحرُوفَ كُلَّها ليسَـتْ إلّا حادِثةٌ، فلَزِمَهُم ما لَزِمَ القائِلَ المدَّعِيَ قِيامَ حوادِثَ باللهِ عزَّ وجَلَّ، وكِلا القَولَين كُفرٌ وضَلالٌ مُبينٌ[2].

---

(١) قال شيخُنا رحمه الله: «ما يقُوله بعضُ النّاسِ: «سُبحانَ مَن أمرُه بَينَ الكافِ والنُّونِ» كلامٌ فاسِـدٌ لا هو قُرءانٌ ولا حَديـثٌ ولا هو كلامُ أهلِ العِلم، لا يجوزُ قولُه لإيهامِه أنّ اللهَ يَتكلّم بكَلامٍ مُتعاقِبِ الحرُوفِ».

(٢) وقد نَقل الإجماعَ على كُفرِ مَن شـبَّه كلامَ اللهِ بـكَلامِ الخَلقِ الإمامُ أبو بكرٍ الصِّقليُّ في كتابه «مسألةِ الشّارعِ في القُرءان».

﴿فَسُبْحَٰنَ﴾ أي فتنزَّه اللهُ عمّـا لا يَجوزُ عليهِ وتقدَّس ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ﴾ أي تحـت تصرُّفِه ﴿مَلَكُوتُ﴾ أي مِلْـك ﴿كُلِّ شَىْءٍ﴾ بمعنَى أنّه المالِكُ لـكُلّ شيءٍ والمتصرّفُ فيه بِما يَشـاءُ، واليَدُ بمعنى العُضوِ والجارِحةِ لا تَجـوزُ عقلًا ولا شرعًا على اللهِ عزَّ وجلَّ، ﴿وَإِلَيْهِ﴾ أي وإلى حِسـابِ اللهِ وجَزائِه أيُّها النّاسُ ﴿تُرْجَعُونَ ٨٣﴾ أي تُردُّون بَعد المَوتِ يومَ القِيامةِ.

تمَّ تفسيرُ سُورةِ يـس بحَمدِ اللهِ ومَنِّه وفَضلِه

خاتِمةٌ مُوجزة

هذه خاتِمةٌ في إيجازِ ما اشـتَملَتْ علَيه سُورةُ يس الكريمةُ مِن أوّلِها إلى ءاخِرِها.

لقَد افتُتِحَت السُّورة بقَسَمٍ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ بأنّ محمّدًا ﷺ رسولٌ كريمٌ أرسلَه عزَ وجلّ لِيدعُوَ النّاس إلى صِراطِ الحقِّ وطريقِ النَّجاةِ وذلك بأنْ يُؤمِنُوا باللهِ ولا يُشرِكوا به شيئًا وأن يَنتهُوا بنواهِيه ويأتَمِرُوا بأوامرِه.

ثُمّ أنذَر اللهُ عزَّ وجلَّ الكافرين المُصِرِّين على تكذِيب رسـولِ اللهِ ﷺ وإنـكارِ البَعثِ، وبَشَّرَ المؤمنِينَ بالأَجرِ الكريم مِنـهُ تعالَى، وأكّدَ عزَّ وجلَّ على أنّ أعمالَ العِبادِ تُحصَى عليهِم في صُحفِهِم لِيُجازَوا علَيها يومَ القيامةِ.

وأَعقبَ جلَّ جَلالُه ما سـبَقَ ذِكرُه بقِصّةِ أصحابِ القريةِ الّذين كذَّبُوا الدُّعاةَ المُرسَـلِين إليهِـم يَدعُونَهُم إلى التَّوحِيد وتَـركِ الإشراكِ، وذكَر قِصّةَ الرّجُلِ الّذي ءامَنَ مِن أهلِ القَريةِ وحثَّهُم على اتّباعِ ما جاءَهُم بهِ الدُّعـاةُ إلى التّوحِيد، فأَبَى الكافِرُون إلّا التّكذِيبَ والإصرارَ على الكُفرِ، فَسلَّطَ اللهُ عزَّ وجلَّ عذابًا مُهلِكًا؛ صاحَ بِهم جبريلُ عليه السّلامُ صَيحةً واحِدةً فماتُوا مِن فَورِهم.

ثُمّ ذكَرَ اللهُ تعالَى أنّه سَخَّر للنّاسِ المصنُوعاتِ الكثِيرةَ وعدَّدَ لهُم بعضَ

ما أنعَـمَ بِهِ عليهِم كإحيائِه الأرضَ الميتـةَ وخَلْقِه منها ما يَصلُح لهُم ولِدوابِّهم، وتَسـخِيرِه الشَّمسَ والقمرَ واللّيلَ والنّهارَ بِما فيه نَفعُ النّاسِ وانتِظامُ أُمورِ معِيشـتِهم، وذكَّرَهُم بتَسـخِيرِه بعضَ ما يَركبُونَه لِقضاءِ حوائجِهم كالسَّـفِينةِ الّتي يدخلُون بها لُجّةَ البَحـرِ وأنّهُ هو الّذي يُنجِي مَن يَشاءُ مِن الغرَقِ ويُهلِكُ مَن يَشاءُ.

وكَـرَّرَ عزَّ وجلَّ التّحذِيـرَ مِن التّكذِيبِ بالبَعثِ وبَـيَّنَ جزاءَ الكافِرين الجاحدِين له، وبَشَّرَ المؤمنِين بالجنّةِ، وأوعَد الكافرِين النّارَ وأنَّ الأصنامَ الّـتي عبَدُوها تُرمَى في النّارِ مَعهُم إهانةً لهُم، وخوَّفَهُم أيضًا بذِكرِ أنواعٍ مِن العذابِ الّتي تكونُ للكافِرينَ في الآخِرةِ.

وأعقَبَ ذلكَ بذِكرِ أنّ محمّدًا ﷺ لَم يَكُن شـاعِرًا ولا جاءَ بالشِّـعرِ بل بالقُرءانِ الكريمِ الّذي فيه إنذارٌ وتبشيرٌ.

ثُـمّ ذكَّرَ عزَّ وجـلَّ مُنكِري البَعثِ بعضَ ما أنعَمَ بِـهِ عليهِم كالدَّوابِّ المُسخَّرةِ لهُم للانتفاعِ برُكوبِها ولَبَنِها ولَحمِها وغيرِ ذلكَ.

وجاءَ ختمُ السُّـورةِ ببَيانِ عاقبةِ المُشركِـين وأنّ الأصنامَ لا تُغنِي عنهُم مِن اللّهِ شيئًا، ثُمّ ذكَّرَ عزَّ وجلَّ الإنسانَ بكَونِه مخلوقًا مِن نُطفةٍ وأنّ اللّهَ الّذي صوَّرَه مِن ذلكَ قادرٌ على إعادتِه بعدَ فَناءِ الجسَدِ.

وجاءَ ختمُ الخاتِمةِ في الثّناءِ على اللّهِ عزَّ وجلَّ والكلامِ على قُدرتِه على كُلِّ شيءٍ وعِلمِه بكُلِّ المعلوماتِ وأنّه يخلُقُ ما يشاءُ بِلا تَعَبٍ ولا مشَقّةٍ وأنّه المُتصرِّفُ في العالَمِ بِما يَشاءُ.

فَتْحُ المَنَّانِ

فِى تَفْسِيرِ

سُورَةِ الرَّحْمٰنِ

سُورة الرَّحمٰن: خَصائصُها وفَضائِلُها

وَقتُ نُزولِ سُورةِ الرَّحمٰن

سُورةُ الرَّحمٰن مُحكَمةٌ ليسَ فِيها ناسِخٌ ولا مَنسوخٌ، وهي مِن السُّوَر المُختلَف في كونِها مكّيّةً أو مدَنيّة، فرُوي عن السيّدة عائشةَ والحسَنِ البِصريّ وعِكرمةَ وعَطاءٍ ومُجاهِدٍ وسُفيانَ بن عُيينة أنّها مكّيّةٌ أي نزلَتْ قبلَ الهِجرة، وهو الّذي صوَّبه الحافظُ السُّيوطيّ في «الإتقان»، ويدُلُّ على كونِها مَكّيّةً ما رواه الترمذيُّ في «سُننه» والحاكم في «المُستدرك»[١] عن جابرٍ رضي الله عنه قال: خرَجَ رَسولُ الله ﷺ على أصحابه فقرَأَ عليهم سُورةَ الرَّحمن مِن أوّلها إلى ءاخِرِها فسكَتُوا، فقال: «**لَقَدْ قَرَأْتُهَا عَلَى الجِنِّ لَيْلَةَ الجِنِّ**»[٢] **فَكَانُوا**

(١) قال الحافظ الهَيثميّ في «مجمع الزّوائد» (٧/ ١١٧): «رواه البَزّار عن شَيخه عَمرو بن مالكٍ الرّاسبِيّ، وَثّقه ابنُ حِبّانَ وضعَّفه غيرُه، وبَقيّةُ رِجاله رِجالُ الصّحيح».

(٢) هي اللّيلةُ الّتي جاءَ فيها وُفودٌ مِن الجِنّ رَسولَ الله ﷺ فتعلّموا مِنه ثُمّ ذَهَبُوا إلى قَومِهم ليُعلّمُوهم الدّينَ ويُنذِرُوهم، قال الله تعالَى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ۝٢٩﴾ [سُورة الأحقاف: ٢٩].

أَحْسَـنَ مَرْدُودًا مِنكُم[١]، كُنتُ كُلَّمَا أَتَيتُ عَلَى قَولِه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[٢] قالُوا: لا بِشَيءٍ مِنْ نِعَمِكَ رَبَّنَا نُكَذِّبُ، فَلَكَ الحَمْدُ».

وأصرَح مِن ذلكَ في الدِّلالةِ على كونِها مَكِّيّةً ما أخرَجه أحمدُ في «مُسنَدِه» بسندٍ جيّدٍ عن أسماءَ بنتِ أبي بَكرٍ رضي الله عنهما قالت: «سَمِعتُ رَسولَ الله ﷺ وهو يُصلِّي نَحوَ الرُّكْنِ قبلَ أنْ يَصْدَعَ بِما يُؤْمَرُ[٣] والمُشرِكُونَ يَسمَعُونَ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾».

ورُوي عن ابنِ عبّاسٍ وقَتادةَ رضي الله عنهم أنّها مكّيّةٌ إلا ءايةً واحدةً ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فإنها مدَنيّةٌ أي نزلَتْ بعدَ الهِجرة.

وروَى عطاءُ بنُ أبي مُسلِم عن ابنِ عبّاسٍ ونافعُ بنُ أبي نُعَيمٍ وكُرَيبٌ أنّها مَدنيّةٌ ولكنّها مِن المدنيّ الشّبيه بالمَكّيّ خِطابًا ومَوضوعًا، وأنّها نزلَتْ

(١) أي كانَ جوابُهم أحسَنَ مِن جوابِكُم في ذلكَ.

(٢) الخِطابُ للمُكذِّبينَ مِن الثّقَلَين، والآلاءُ النِّعَمُ.

(٣) أي قَبلَ أن يأتِيَه الأمرُ بأنْ يَخرُجَ إلى مَواسِم اجتِماعِ النّاسِ ليَدعُوهم إلى دِينِ الإسلامِ علانيةً، فكانَ ﷺ قبلَ ذلكَ يَقتَصِرُ على قَدْرٍ مُعيَّنٍ في أماكِنَ مُعيَّنةٍ مِن غيرِ أن يَذهَبَ إلى مواسِمِ اجتِماعِ النّاس، وكان يَدعُو علَى حسَبِ المصلَحةِ، وقد تَمكَّنَ ﷺ بهذه الطَّرِيقة مِن أنْ يُدْخِلَ أناسًا كَثِيرِينَ في الإسلامِ، وكان الذين يُسلِمُونَ يَكْتُمُونَ إسلامَهُم عن المشركِين مَخافةَ أنْ يُقتَلُوا إنْ أَظْهَرُوا ذلكَ، ثُمّ أنزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ على نَبِيِّه ﷺ: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾ أي أَظهِرْهُ واجهَرْ بِه يا مُحمَّدُ ولا تُقاتِلْهُم، ثُمّ نُسِخَ النَّهيُ عن ابتِداءِ الكُفّارِ بالقِتالِ بآيةِ السَّيفِ فأُبِيحَ لَه ﷺ وللمُسلِمِينَ قِتالُهم.

بعدَ سُورةِ الرَّعدِ كما قال علَم الدّين السَّخاويّ في «جمال القُرّاء».

وبِناءً علَى القولِ بأنّها مكّيّةٌ فقد نزلَتْ بعدَ سُورةِ الرَّعدِ وقبلَ سُورةِ الحِجْرِ، لكنّ ترتيبَها في المُصحَف بعدَ القمَرِ وقبلَ الواقعةِ توقيفيٌّ.

مُناسَبةُ السُّورةِ لِمَا قَبلَها

أمّا مُناسبةُ مجيءِ سُورةِ الرَّحمٰنِ بعدَ سُورةِ القمَرِ في تَرتيب المُصحفِ توقيفًا أنّه لمّا اشتمَلتْ سُورةُ القمَرِ علَى ذِكرِ مُعجزةٍ باهِرةٍ لنبيّنا محمّدٍ صلى الله عليه وسلم وهي انشقاقُ القمَر بقُدرةِ اللّهِ عزَّ وجلَّ، افتَتَح سُورةَ الرَّحمنِ بذِكر أعظَمِ المُعجِزاتِ الّتي أعطاها لنبيّه محمّد وهي القرءانُ العظِيمُ، وبيَّن عزَّ وجلَّ في سُورة الرَّحمنِ أنّه لا يُعجِزُه شيءٌ، كما فصَّل القولَ بذِكرِ مصنوعاتٍ عجيبةٍ خَلقَها سُبحانه وجعلَها دليلًا على كَمالِ قُدرَته كسائِر صِفاته الذاتيّة.

وأمّا مُناسَبةُ أوّلِ السُّورةِ لِآخرِ سُورةِ القمَر أنّ هذه الأخيرة خُتِمَت بوَصفِ الله عزَّ وجلَّ نَفْسَه بقولِه: ﴿مَلِيكٍ مُّقْتَدِرِۭ﴾ أي قادِرٍ على كُلِّ شيءٍ لا يُعجِزُه شيءٌ، وافتُتِحَت بَعدَها سُورة الرَّحمنِ بقولِه تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ١﴾ وفي ذلك وَصفٌ لله عزَّ وجلَّ أيضًا.

فَضلُ سُورةِ الرَّحمن

لَم يَثبُت شيءٌ ممّا رواه المحدِّثون في كُتبِهم في فَضلِ سُورةِ الرَّحمنِ خاصّةً سِوَى كونِها مِن سُوَرِ المفصَّلِ، كما قال الفَيرُوزءابادي في «البَصائِر».

والمُفصَّلُ سُورٌ خُصَّ بها رسولُ اللهِ ﷺ دُونَ سائِرِ الأنبياءِ عليهمُ الصّلاةُ والسّلامُ؛ أخرَجَ الطَّيالسِيُّ مِن حديثِ واثلة بنِ الأسقَعِ رضي اللهُ عنه أنّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**أُعطِيتُ مكانَ التَّوراةِ السَّبعَ الطِّوالَ ومكانَ الزَّبُورِ المِئِينَ ومكانَ الإنْجيلِ المَثانيَ وفُضِّلْتُ بالمُفَصَّلِ**».

والسَّبعُ الطِّوالُ بكَسرِ الطاءِ جَمعُ طوِيلةٍ هي البقَرةُ إلى ءاخرِ براءةَ بجَعلِ الأنفالِ مع براءةَ واحدةً في العَدِّ، وقيل غيرُ ذلك. والمِئُون كلُّ سُورةٍ تَزِيدُ على مائةِ ءايةٍ أو تُقارِبُها، وأمّا المَثانِي فهي السُّورُ الّتي تَلِي المئِينَ في ترتِيبِ المُصحَفِ، سُمِّيَتْ بذلكَ لأنّها تَتْلُوها أي ولِيَتْها. وقال الفَرّاءُ: هي السُّورةُ الّتي ءايُها أقلُّ مِن مائةٍ لأنّها تُثَنَّى أي تُكرَّرُ أكثَر ممّا يُثنَّى الطِّوالُ والمِئُونَ، وقيل: سُمِّيَتْ بذلك لِتَثْنِيةِ الأمثالِ فيها بالعِبَرِ والخَبَرِ. والمُفَصَّلُ ما وَلِيَ المَثانِيَ مِن قِصارِ السُّوَرِ[1]، سُمِّيتْ بذلكَ لِكَثرةِ الفَصلِ بَينَ سُوَرِها بالبَسمَلة، وقيل: لِقلّةِ المَنسُوخِ منها ولِهذا تُسمَّى المُحكَمَ كما روَى البُخاريّ في «صحيحِه» عن سعيدِ بنِ جُبَيرٍ رضي اللهُ عنه قال: «إنَّ الّذي تَدْعُونَه المُفصَّلَ هو المُحكَمُ، وءاخِرُه

(١) أي قِصارٌ بالنّسبةِ لما قبلَها، وإلّا ففي المُفَصَّلِ طِوالٌ وأوساطٌ وقِصارٌ؛ فطِوالُه إلى النّبأ، وأوساطُه من النّبأ إلى الضُّحى، وقِصارُه مِن الضُّحَى إلى ءاخرِ القُرءانِ. ويُكرَه تنزيهًا أن يُقالَ: «سُورةٌ صغيرةٌ» بل يُقالُ: «مِن قِصارِ السُّوَرِ»، كما كَرِه ابنُ سِيرينَ أن يُقالَ: «سُورةٌ خفيفةٌ» ولكن يُقالُ: «سُورةٌ يَسِيرةٌ».

سُورةُ النّاسِ بلا نِزاعٍ(١)».

ورُوي في سُورةِ الرَّحمنِ أحاديثُ ضعِيفةٌ كالّذي أخرجَه البَيهقِيُّ في «الشُّعَب» مِن حديث علِيٍّ رضي الله عنه مَرفُوعًا: «لِكُلِّ شىءٍ عَرُوسٌ، وعَرُوسُ القُرءانِ [سُورَةُ] الرَّحمنِ»، فقد رمَز له الحافظُ السُّيوطيّ في «الجامعِ الصّغير» بالضَّعفِ، وقال شيخُنا الحافظُ الهرريّ رحمه الله: «هذا الحديثُ ليسَ صحيحًا»، ففي السّنَدِ أحمدُ بنُ الحسَنِ المعروفُ بِدُبَيسٍ المُقرِئِ الخيّاطِ الّذي قال فيه الدارَقُطنِيّ: ليس بثِقةٍ، وقال الخطِيب: مُنكَر الحدِيث.

مِن مُجرَّباتِ بعضِ العُلماءِ في خَواصِّها

ذكَرَ العلّامة عفِيفُ الدّين أبو محمّدٍ اليافعيّ الشافعيّ اليمَنِيّ المكّي في «الدُّرّ النظِيم» فيما جُرِّب في سُورة الرَّحمن:

- أنّ مَن كتَبها يومَ الجمُعةِ وعلَّقَها علَيهِ أَمِنَ مِن الرَّمَد.
- وإنْ كُتِبَت ومُحِيَت بماءٍ طاهِرٍ وشَرِبَه مَن بِهِ مرَضُ الطِّحالِ فإنّه يتَعافَى بإذنِ اللهِ.
- وإنْ كُتِبَت على حائطِ بَيتٍ مُنِع مِنهُ الهَوامُّ.

وليسَ هذا ممّا ورَد في حديثٍ ثابتٍ عن رسولِ اللهِ ﷺ إنّما هو من مُجرَّباتِ أهلِ الخيرِ الصّالحين.

---

(١) واختُلِف في أوّلِ المُفصَّلِ على أقوالٍ كثيرةٍ، فمِنهُم مَن قال: سورةُ ق، وءاخَرُون الحُجُرات، وغيرُهم سُورةُ محمّد ﷺ.

تفسير سُورة الرَّحمٰن

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

افتُتِحَت السُّـورةُ بتَعدادِ بعضِ نِعَـمِ اللّهِ عزَّ وجلَّ على عِبادِه فقال جَلَّ وعَزَّ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ١﴾ أي الكَثِيرُ الرَّحمةِ بالمُؤمنينَ والكافرينَ في الدُّنيا وبالمُؤمنــينَ في الآخرةِ[1]، وذلكَ وَصفٌ خاصٌّ باللّهِ لذلكَ فإنّ اسـمَ «الرَّحمٰنِ» لا يجوزُ إطلاقُه على غيرِ اللّهِ[2].

وحُكِي في سبَبِ نُزولِ هذه السُّورةِ أقوالٌ ثلاثةٌ:

---

(١) أمّـا الكافِرُ فَلا رَحمةَ له بَعدَ المَوتِ أبدًا، فإنّه إذَا جاءَ أجَلُه حضَرَتْه ملائكةُ العَذابِ، وله في القبرِ عذابٌ بالرُّوحِ والجسَـدِ، فإذَا فَنِيَ جسَدُه دامَ العذابُ على الرُّوحِ، ثُمّ يُعاد جسَـدُه لِلبعثِ يـومَ القِيامةِ فيُعذَّبُ في أرضِ المَحشَرِ بالرُّوحِ والجسَـدِ إلى أنْ يُلْقَى في جهنَّمَ في العذابِ المُستمرّ الأبديّ الّذي لا يَخِفُّ ولا يَنقطِعُ أبدًا.

(٢) ذكَر بعضُ العُلماءِ مِن خواصّ هذا الاسـمِ الشّرِيفِ أنّه مَن أكثرَ مِن ذِكرِه أو حمَلَ الاسمَ معه مكتوبًا صُرِف عنه الأذَى، ومَن ذكَرَ اللّهَ به مائةَ مرّةٍ بَعدِ كلّ صَـلاةٍ مُختلِيًا خَرَج مِن الغَفلةِ والنّسـيانِ، وأنّ مَن كَتَبَ بزَعفرانٍ فيه مِسـكٌ: «يا رحمٰنَ كُلِّ شيءٍ وراحِمَه» ودفَن المكتـوبَ في موضعٍ طاهرٍ مِن بَيتِ مَن أخلاقُه شَرِسـةٌ ضَيّقةٌ تَتبدَّل ويَظهَـرُ فيه الحَياءُ والرَّحمةُ والعَطفُ والمَسْكَنةُ، نقلَه عبد الرّؤوف المُناويّ عن بعضِ المَشايخ.

الأوّلُ: أنّه لمّا نزَلَ قولُه تعالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [سُورة الفُرقان: ٦٠]، قال الكافِرُون: ما نَعرِفُ الرَّحمنَ، فنزَلَتْ: ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢﴾.

والثّاني: أنّه لمّا قال الكافِرُون: إنّما يُعلِّمُه بشَرٌ، يَعنُون بذلكَ النّبيَّ ﷺ جاحدِين أنْ يكونَ القُرءانُ بِوَحيٍ مِن اللهِ، أكذَبَهم اللهُ تعالَى وأنزلَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢﴾.

والثّالث: وهو على القولِ بأنّها مدَنيّةٌ، أنّه لمّا جاءَ سُهَيلُ بنُ عَمرٍو(١) مُوفَدًا مِن مُشرِكي مكّةَ لعَقدِ صُلحِ الحُدَيبيةِ مع المُسلِمين قال للنّبيِّ ﷺ: هاتِ اكتُبْ بينَنا وبينَكم كِتابًا، فقال النَّبيُّ ﷺ لِعَليٍّ رضي اللّٰه عنه: «اكْتُبْ: بِسمِ اللهِ الرَّحمٰنِ الرَّحِيم»، فقال سُهَيلٌ: أمّا الرَّحمٰنُ فواللّٰهِ ما أَدرِي ما هو، ولَكِنِ اكتُبْ: باسْمِك اللهم، فنزَلَتْ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢﴾.

ومِن رَحمةِ اللهِ تعالَى بِالنّاسِ أنْ ﴿عَلَّمَ﴾ أي علَّمَهُم ﴿ٱلْقُرْءَانَ ۝٢﴾ بواسِطةِ رسولِه محمّدٍ ﷺ، وتعلَّمهُ محمّدٌ ﷺ مِن جِبريلَ علَيهِ السّلامُ، فأَنعمَ اللهُ عزَّ وجلَّ بذَلِكَ علَيكُم إذْ بَصَّرَكُم بِالقرءانِ ما يُرضي رَبَّكم وعرَّفَكم بِهِ ما يُسخِطُه(٢)، وذلكَ لِتُطيعُوه باتِّباعِكُم ما يُرضيه عَنكم

(١) وذلك قبل أن يُسلِم، وقد أسلَم رضي اللّٰه عنه قُبَيل فتحِ مكّةَ أو يومَه.

(٢) رِضَى اللّٰهِ عنِ العبدِ المؤمنِ معناهُ إرادةُ اللّٰهِ الإنعامَ على العبدِ وإكرامَه كما=

وتجنُّبكم ما يُسخِطُه عليكم، فإذا فَعَلتُم ذلكَ فقَد أُثِبتُم بِمَنِّه عزَّ وجلَّ جَزيلَ الثّوابِ مِنه، ونَجوتُم برَحمَتِه مِن أَليم عِقابِه.

وبَدأ عزَّ وجلَّ بذِكرِ القُرءانِ الكريم لأنّه نِعمةٌ مُوصِلةٌ إلى السّعادةِ الأبديّةِ لِمَن عَمِلَ بما فِيه مِن الأوامِر والنّواهِي، ثُمّ ثَنَّى عزَّ وجلَّ بالامتِنانِ على عِبادِه أنّه خالِقُهم فقال تعالَى: ﴿ خَلَقَ ﴾ أي اللّهُ ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ ٣﴾ وجعَلَ مبدأَ الجِنسِ البشَريّ ءادمَ نَبِيَّ اللّهِ ورسولَه ﷺ، وسيأتي الكَلامُ على بَدءِ خَلقِه.

﴿عَلَّمَهُ﴾ أي علَّمَ اللّهُ الإنسانَ ﴿ٱلۡبَيَانَ ٤﴾ أي النُّطقَ ليُعرِبَ هذا الإنسانُ عمّا في نَفسِه، ولَم يَجعَلِ اللّهُ النُّطقَ مَحصُورًا بلُغةٍ واحدةٍ بل هي لُغاتٌ كثيرةٌ أَلهَمَها اللّهُ تعالَى أبا البشَرِ ءادمَ ﷺ وأفاضَ بها عليهِ، ويَشهَدُ لذلكَ قولُ اللّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ﴾(١) [سُورة البقرة: ٣١]، ويُفسِّرُها على النَّحوِ الّذي ذكَرْنا ما رواهُ البُخاريّ في «صَحيحِه» عن أنسٍ رضِيَ اللّهُ عنه عن رسولِ اللّهِ ﷺ أنّه ذكَرَ الشّفاعة

= فسّره بعضُ الأشاعرة، وسخَطُ اللّهِ على العبدِ إرادتُه مُعاقبتَه والانتِقامَ منه، وليسَ رِضاه عزَّ وجلَّ وسخَطُهُ بالانفعالِ النَّفسانيّ وغلَيانِ الدَّمِ ونحوِها مِن صِفاتِ المَخلوقاتِ، فاللّهُ لا يُشبِهُ المخلوقاتِ بأيِّ معنًى مِن المَعاني.

(١) قال أبو بكرٍ الجَصّاصُ في «أحكام القرءان» (١/ ٣٦): «وهذه الآيةُ تدُلُّ علَى أنّ أُصولَ اللُّغاتِ كُلَّها توقيفٌ مِن اللّهِ تعالَى لآدمَ عليه السّلامُ على اختِلافِها، وأنّه علَّمَه إيّاها بِمَعانِيها».

يومَ القِيامةِ وأنّ بعـضَ المؤمنِين يُخاطبُونَ ءادمَ ﷺ عادِّينَ بعضَ نِعَمِ اللّهِ علَيهِ فيقولُونَ له: «وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيءٍ»(١) أي بكلّ اللُّغاتِ(٢).

ولمّا ذكَر اللّهُ عزَّ وجلَّ إنعامَه على الإنسانِ بتَعليمِه البَيانَ، أَعقبَ ذلكَ بامتِنانِه عـلى العِبادِ بإيجادِه الشَّـمسَ والقمَرَ وما فيهمـا مِن المَنافِعِ العَظِيمـةِ للأرضِ وأهلِها فقال تعـالَى: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ﴾ أي يجرِيانِ

---

(١) ورَوى الإمامُ محمّد بنُ جريرٍ الطبَريّ في «جامعِ البَيان» (١/ ٤٢٨) بسندِه المتّصِـل إلى الضحّاكِ عن ابنِ عبّاسٍ رضي اللّه عنهُما قال: «عَلَّمَ اللّهُ ءادمَ ﷺ الأَسْـماءَ كُلَّها، وهِيَ هذِه الأسـماءُ التي يَتعارَفُ بها النّاسُ: إنسـانٌ، ودابّةٌ، وأَرضٌ، وسَهلٌ، وبَحرٌ، وجبَلٌ، وحِمارٌ، وأشباهُ ذلكَ مِن الأُمَمِ وغَيرِها»، ورَوى نحوَه عن سعيد بن جُبَيرٍ ومُجاهدٍ وقتادةَ رضي اللّه عنهُم.

(٢) قال أبو الحسَـنِ الواحِديّ في «التّفسـيرِ البَسـيط» (٢/ ٣٤٤): «قال ابنُ عبّـاسٍ ومُجاهِـدٌ وقتـادةُ والضَحّاكُ: عَلَّمه اسـمَ كُلِّ شيءٍ حـتّى القَصْعةَ والمِغْرَفـةَ، وظاهِـرُ اللّفظِ يَدُلّ على هذا وعلى أنّه عَلَّمَـه جَميعَ اللُّغاتِ لأنه قال: ﴿ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾، فما وقَع علَيه الاسمُ بأيِّ لُغةٍ كانَ داخِلٌ تحتَ هذا الإطلاقِ، على أنّه قد قالَ جَماعـةٌ مِن أهلِ التّأويل: إنّ اللّهَ تعالَى علَّم ءادمَ جَميـعَ اللُّغاتِ، ثُمّ إنّ أولادَهُ تكلَّمَ كلُّ واحدٍ منهُم بلُغةٍ أُخرى، فلمّا تفرَّقُوا في البلادِ اختصّ كلُّ فِرقةٍ منهُم بلُغةٍ، فاللُّغاتُ كُلُّها إنّما سُمِعَت مِن ءادمَ ﷺ وأُخِذَت عنه».

وقد جعلَ عزَّ وجلَّ كُلَّ نَبِيٍّ مرسلًا بلُغةِ قومِه فقال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾ [سُورة إبراهيم: ٤].

مُتعاقِبين ﴿بِحُسۡبَانٖ ٥﴾[(١)] أي بحِســابٍ دقِيقٍ مُنظَّــمٍ مُقدَّرٍ لهُما لا يَختلِــفُ ولا يَضْطَرِبُ، تنزِلُ الشَّــمسُ في بُروجِها والقمَــرُ في مَنازِله، ويَنتظِمُ بذلكَ كثيرٌ مِن أمورِ الأرضِ وأهلِها وتَختلِفُ الفُصولُ والأوقاتُ ويُعلَمُ حِسابُ السِّنِينَ.

ولمّا ذَكَر تعالَى بعــضَ الآياتِ[(٢)] العُلوِيّة ذكَــرَ في مُقابِلِها بعضَ الآثارِ السُّفلِيّة فقال: ﴿وَٱلنَّجۡمُ﴾ وهو النَّباتُ الّذي ليسَ له ساق قويٌّ كالحِنطةِ والبُقولِ أو ما يَمتَدُّ ويَنبَسِطُ على الأرضِ وليسَ له ساقٌ كالبِطِّيخِ والقَرعِ[(٣)] ﴿وَٱلشَّجَرُ﴾ وهو ما له ســاقٌ قويٌّ كِلاهُما ﴿يَسۡجُدَانِ ٦﴾ أي يَنْقادانِ للّهِ عــزَّ وجلَّ لا يَخرُجانِ عن مَشــيئتِه كســائِرِ المَخلُوقاتِ، فهُما تحتَ تصرُّفِه عزَّ وجلَّ يَفعَلُ بِهِما ما يَشــاءُ؛ يُبقِيهِما إلى الوقتِ الّذي يَشــاءُ ويُغيِّرُ فيهِما ما يُرِيدُ[(٤)]، وفي ذِكرِه عزَّ وجلَّ لَهُما بَيانٌ أنّه هو المتصرِّفُ في الآياتِ السُّــفلِيّةِ كما أنّه المتصرِّفُ في الآيــاتِ العُلوِيّةِ، فالعُلويّاتُ

---

(١) الحُسْــبانُ بضمِّ الحاءِ مِن قولِهم: حَسَــبَ كذا - مِن بابِ نصَرَ - حِســابًا وحُسْبانًا إذَا عدَّه، وأمّا الحِسْبان بكسرِ الحاءِ فمَصدَرٌ بمعنَى الظَّنِّ مِن قولِهم: حَسِبَ يَحسَبُ مِن بابِ عَلِمَ.

(٢) أي العَلامات.

(٣) وبالوجهَين فسَّرها شيخُنا شيخ الإسلام الفقيه اللُّغويّ الهرريّ رحمه اللّٰه تعالى.

(٤) قال اللّٰهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾ [سُورة ءال عِمران: ٨٣] أي انقادَتْ لمشيئَتِه.

والسُّفليّاتُ كُلُّها مُنقادةٌ للّهِ تحتَ مشيئتِه؛ فصُدورُ العِصيانِ مِن العاصِي لَم يَكُن إلّا بقُدرةِ اللّهِ ومشيئتِه وتَقديرِه وعِلمهِ لا بمحبّتِه ولا برِضاهُ[1].

ثُمّ ذكَر عزَّ وجلَّ مرّةً أُخرى بعضَ مصنوعاتِ العالَمِ العُلويّ فقال تعالَى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾ أي خَلَقَ اللّهُ السّماءَ بِقُدرَتِه مَرفُوعةً بغيرِ مُماسّةٍ مِنه ولا مُباشَرةٍ كسائرِ أفعالِه تعالَى[2]، وقد جعلَها اللّهُ منبسِطةً في الهواءِ بِلا عُمُدٍ تَحمِلُها مِن أسفَلَ ولا سلاسِلَ تَرفعُها مِن أعلَى، وجعَلَها أيضًا مَهبِطَ الرَّحماتِ، ومَسكَنَ الملائكةِ الكِرامِ، ومكانَ نُزولِ الوَحيِ على الأنبياءِ عليهِمُ الصّلاةُ والسّلامُ، فليسَتِ السّماء مَسكنًا للّهِ عزّ وجلَّ سُبحانَه، فإنّه خالِقُ المَكانِ فلا يَحتاجُ إليه، بل هو موجودٌ أزلًا وأبدًا بلا كَيفٍ ولا مَكانٍ.

---

(١) الخَيرُ الذّي يَحصُلُ كُلُّه بِمَشيئةِ اللّه وتَقديرِه وعِلمِه ومَحبَّتِه ورِضاهُ، والشَّرُّ يَحصُلُ بمَشيئةِ اللّه وتَقديرِه وعِلمِه لا بمَحبَّتِه ورِضاهُ، فاللّهُ خلَقَ إيمانَ المُؤمِنِ ويُحِبُّهُ مِنهُ ويَرضاهُ، وخلَقَ كُفرَ الكافِرِ لَكن لا يُحِبُّهُ ولا يَرضَى بِهِ، قالَ تعالَى: ﴿وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَ﴾ [سُورة الزُّمَر: ٧].

(٢) وقولُ الوهّابيّة: «هو في السّماءِ أو فَوقَها بذاتِه» والعياذُ باللّهِ محجُوجُون فيه بأدِلّةٍ عقليّةٍ وشرعيّةٍ كثيرةٍ، مِنها أن يقال لهُم: فإنّكُم تزعُمون أنّهُ كان مُنخفِضًا ثُمّ ارتفَعَ بعدَ رَفعِه للسّماءِ؟! فنقَضُوا بذلكَ أصلَهُم وهو أنّ جهةَ العُلوّ للتّعظِيم بخِلافِ جهةِ السُّفلِ، والحقُّ الذي عليه المُسلِمُون قاطبةً أنّ اللّه عزَّ وجلَّ موجودٌ أزلًا وأبدًا بلا كيفٍ ولا مَكانٍ، لَم يَلحقه تغيُّرٌ في ذاتِه أو صِفاتِه عزَّ وجلَّ، سُبحانَه وتعالَى عمّا يقولُ الكافِرُون تنزُّهًا عظِيمًا.

فائدة: نقلَ الإمامُ البَيهقيُّ عن الإمامِ أبي سُليمان الخطّابيّ رحمه الله قوله: «إذا تأمَّلت هيئةَ هذا العالَمِ ببَصرِك، واعتبَرْتَها بفِكرِك، وجدْتَه كالبَيتِ المَبنِيّ المُعَدّ فِيه جميعُ ما يحتاجُ إلَيه ساكِنُه مِن آلةٍ وعَتادٍ، فالسَّماءُ مَرفُوعةٌ كالسَّقفِ، والأَرض مَبسُوطةٌ كالبِساطِ، والنُّجُومُ مَنضُودةٌ[١] كالمَصابيحِ، والجواهِرُ مَخزُونةٌ كالذَّخائِرِ، وضُرُوبُ[٢] النَّباتِ مُهيَّأةٌ لِلمَطاعِمِ[٣] والمَلابِسِ والمَآربِ[٤]، وصُنُوفُ[٥] الحَيَوانِ مُسَخَّرةٌ لِلمَراكِبِ، مُستعمَلةٌ فِي المَرافِقِ، والإنسانُ كالمُملَّكِ لِلبَيتِ المُخَوَّلِ ما فِيه، وفِي هذا دلالةٌ واضِحةٌ علَى أنَّ العالَمَ مَخلُوقٌ بتَدبِيرٍ وتَقدِيرٍ ونِظامٍ، وأنَّ لهُ صانِعًا حَكِيمًا تامَّ القُدرةِ بالِغَ الحِكمةِ».

ونَبَّه اللّهُ عزَّ وجلَّ بإفرادِه ذِكرَ السَّماءِ علَى عِظَمِ خلقِها، ويُفهَمُ مِن تصرِيحِه برَفعِها بعضُ ما يُرادُ التّنبِيهُ علَيهِ مِن النِّعَمِ كجرَيانِ الرِّيحِ بينَها وبَينَ الأرضِ كَيما يَتروَّح الخَلقُ وتَمتدّ الأنفاسُ، وكانَتِ المَسافةُ بينَها وبينَ الأرضِ خَمسَمائةِ عامٍ، كذلكَ حِفظُه عزَّ وجلَّ لَها مِن السُّقوطِ على ما تَحتَها مِن نِعَمِه تعالى على خَلقِه.

---

(١) أي مُهيَّأةٌ.

(٢) أي أنواعُ.

(٣) أي المَآكِلِ.

(٤) أي الحَوائِجِ.

(٥) أي أنواعُ.

﴿وَوَضَعَ﴾ أي وشرَعَ اللّهُ عزَّ وجلَّ ﴿ٱلْمِيزَانَ ۝٧﴾ أي العَدلَ بينَ خلقِه وأمرَ به علَى وَفقِ ما جاءَ في الشّرعِ الّذي أنزلَه على رسولِه ﷺ ﴿أَلَّا﴾ أي لِئلّا ﴿تَطْغَوْا﴾ أي لا تَعتَدُوا ولا تَتجاوَزُوا الحُدودَ والإنصافَ ﴿فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨﴾ أي في العَدلِ وذلكَ بأنْ تجُورُوا وتَظلِموا، فعُبّرَ عن العَدلِ في الآيةِ بالمِيزانِ، أمّا الآلاتُ المُعدّةُ للوَزنِ فمُندَرِجةٌ في العَدلِ لأنّها ءالَتُه.

ثُمّ أكّدَ سبُحانَه وتعالَى على العمَلِ بالعَدلِ فقال: ﴿وَأَقِيمُوا۟﴾ أي قَوِّمُوا أيُّها العِبادُ ﴿ٱلْوَزْنَ﴾ الّذي تَزِنُونَه ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ أي بالعَدلِ مُستقِيمًا ﴿وَلَا تُخْسِرُوا۟﴾ أي ولا تَنقُصُوا ﴿ٱلْمِيزَانَ ۝٩﴾ أي الوَزنَ إذا وَزنتُم للنّاسِ فَتظلِمُوهُم فإنّ ذلكَ مِن الخِيانةِ في الفِعلِ وذلك عند اللّهِ عظِيمٌ.

فائدة: قد يكونُ التّفاوُتُ الحاصِلُ بسبَبِ تعمُّدِ نُقصانِ الكَيلِ والوَزنِ قلِيلًا، ولكنّ الوَعِيدَ عليه شَدِيدٌ عظِيمٌ، والآياتُ في ذلكَ كثيرةٌ، لا سيّما وأنّ جَميعَ النّاسِ مُحتاجُون إلى المُعاوَضاتِ الماليّةِ كالبَيعِ والشّراءِ ونَحوِهِما، فوجَبَ على العاقِلِ الاحتِرازُ مِن ارتِكابِ جُرمِ البَخْسِ في الكَيلِ أو الوَزنِ أو غيرِهِما، وما أعظَمَ شَريعةَ الإسلامِ؛ فإنّها قَد حَفِظَت علَى النّاسِ حُقوقَهُم، فرُبّما يكُونُ المرءُ غافِلًا عن الاهتِداءِ إلى حِفظِ مالِه فيَبخَسُه البائعُ شيئًا مِنهُ، فبالَغَ الشّارِعُ في التحذيرِ مِن التَّطفِيفِ

والنُّقصـانِ وأَوْعَد على ذلكَ العذابَ الشّـدِيدَ والويـلَ[١] رَدعًا عن أن يُلطِّخَ المرءُ نَفسَـه بالخيانةِ لا سـيّمَا في أكلِ ذلكَ المِقدارِ الّذي رُبّما يكونُ حقيرًا في جانِب ما يأخذُه المُشترِي مِن بضاعةٍ كثيرةٍ.

ولمّا كانَ الاحتِياطُ مطلوبًا رغَّبَ الشـارِعُ في التكرُّمِ عِندَ البَيعِ والشِّراءِ؛ فقد روَى بعضُ أصحابِ السُّـنَنِ وابنُ حِبّانَ في «صحيحِه» عن سُويدِ ابنِ قَيسٍ رضي الله عنه قال: جَلَبتُ أنا ومَخْرَفةُ العَبْديُّ بَزًّا[٢] مِن هَجَرَ[٣]، فأتَانـا رَسـولُ اللَّهِ ﷺ ونَحنُ بمِنًى ووزّانٌ يَزِنُ بالأَجْرِ[٤]، فاشـترَى مِنّا سَراوِيلَ فقالَ لِلوزّانِ: «**زِنْ وَأَرْجِحْ**» مَعناهُ كَمِّل وَزِدْ تكرُّمًا[٥].

---

(١) قـال الله تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ٣﴾ [سُـورة المُطفِّفِـين: ١-٣] فأوعَدَ اللهُ عزَّ وجلَّ الّذين يَخونُونَ النّاسَ في الكَيلِ والوزنِ والذَّرعِ والعدَدِ وذلك مِن كبائِرِ الذُّنـوبِ، فهؤلاءِ الخَوَنـةُ إذَا اكتَالوا على النّاسِ يأخـذونَ حُقوقَهم مِنهُم كامِلةً، وإذَا كالُوا أو وزَنُوا لِغَيرِهم في بَيعٍ ونَحوِه ينقصُونَ فيَبخَسُـونَ النّاس حقُوقَهُم.

(٢) نوعٌ مِن الثِّيابِ.

(٣) إن حُمِلَت على هجرِ البَحرَينِ فهـي مَصروفةٌ، وإنْ حُمِلَت على هَجَرَ القريبةِ مِن المدينة فهي ممنوعةٌ مِن الصَّرفِ وإليها تُنسبُ القِلالُ الّتي كانت تُصنع بِها وجاء ذِكرُها في الأَثَر.

(٤) أي بالأُجرةِ.

(٥) أي تبرُّعًا لا وُجوبًا.

وقال الإمامُ أبو بكرِ بنُ العربيّ المالكيّ رحمه الله: «الرُّجْحانُ في الوَزنِ مِن الـورَعِ الظّاهِرِ الفَضلِ، فإنّ التّطفِيفَ حَرامٌ، والعَدلَ قِسـطٌ، والتّحرّيَ فيه طوِيلٌ أو مُشعَّبٌ[١]، والرُّجْحانُ يَقطَعُه ويُظهِرُ الفَضلَ»[٢].

وقد صحَّ فيما رواهُ الترمذيُّ عن ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنهُما موقوفًا أنّه قالَ لأصحـابِ المِكْيالِ والمِيزانِ: «إنّكُم قَد وُلّيتُم أَمْرَين هَلَكَتْ فِيه أُمَمٌ سالِفَةٌ قَبلَكُم»[٣].

ولمّا ذَكرَ اللهُ عزَّ وجلَّ بعـضَ نِعَمِه الدالّةِ علَى كَمالِ قُدرَتِه وأنّه وَحدَه الّذي جعَلَ السّـماءَ مرفوعةً بلا عُمُدٍ ذكَـرَ مُقابِلَها وهو الأرضُ فقال تعـالَى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا﴾ أي جعلَهـا عـلى صِفَتِها الّتي هـي عليها ﴿لِلۡأَنَامِ ١٠﴾ أي لِسُـكنَى كُلِّ مَـن علَيهـا مِـن ذَواتِ الأرواحِ[٤]

---

(١) أي تحـرّي إيقاعِ الوَزنِ أو الكَيلِ مُطابِقًا لطلَبِ المُشـتري محُوجٌ إلى تدقيقٍ شديدٍ في بعضِ الأحيانِ.

(٢) ومِـن ورَعِ بعضِ التُّجّارِ المُسـلمِين أنّهـم لا يُدخِلُون وَزنَ الـورَقِ والعُلبةِ ونحوِهمـا ممّا يُوضَع فيه المَبِيع كالسُّـكّرِ والحَلْواءِ مِن أجـلِ أن يَكُونَ الوَزنُ المُباعُ صافِيًا.

(٣) ورُوِي بسنَدٍ ضعيفٍ مرفوعًا عند التّرمذيّ أيضًا.

(٤) تفسِـيرُ الأنامِ بذَواتِ الأرواحِ هُنا هو الّذي ذهبَ إليه كثيرٌ مِن المفسّرين وهو مَرويّ عن ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنهُما، ورُوِي عن الحسَن البَصريّ رضي الله عنه أنّ المُرادَ الإنسُ والجِنُّ.

وانتِفاعِهِم بِما فيها، فوضعَها[١] هنا معناه خلقَها[٢].

وأعقَبَ عزَّ وجلَّ بذِكرِ بعضِ نِعَمِه للأنامِ في الأرضِ فقال تعالَى: ﴿فِيهَا﴾ أي في الأرض ﴿فَٰكِهَةٌ﴾ أي أنواعٌ كثيرةٌ مِمّا يُتفكَّهُ به[٣] مِمّا تَطِيبُ به النَّفسُ ﴿وَٱلنَّخۡلُ﴾ أي وفيها النَّخلُ أيضًا ﴿ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ١١﴾ أي صاحِبةُ الغِلافِ الّذي يكُون فِيه الثَّمرُ أوّلَ ظُهورِه، فالأكمامُ جَمعُ كِمٍّ[٤] وهو وِعاءُ الثَّمَر.

وخَصَّ النَّخلَ بالذِّكرِ لشرَفِه بينَ الفاكِهةِ ومَزِيدِ فائدتِه علَيها إضافةً إلى

(١) قال أبو العباس أحمد زَرُّوقٌ الفاسي المالكي (ت ٨٩٩هـ) في «تحفة المُريد» (ص/ ٥٥): قال أبو بكرٍ الصدِّيقُ رضي الله عنه: «كيف تَحُدُّه الأماكِنُ وهي وَضْعُه، وكيفَ تَحُدُّه العُقولُ وهي صُنْعُه» اهـ.

(٢) وجاء في بعضِ التّفاسيرِ أنّ معنى ﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا﴾ جعلَها على الماءِ، لكن قال الإمامُ المفسّرُ المُحقّقُ الهرريُّ رحمه الله: «القولُ بأنّ الأرضَ موضوعةٌ على الماءِ غيرُ صحيحٍ، وفي بعضِ الآثارِ أنّ الأرضَ موضوعةٌ على صَخرةٍ وهو غيرُ صحيحٍ أيضًا، والتّفسيرُ الصّحيحُ خلَقَها للأنامِ لِيَعِيشُوا على ظَهرِها».
فما رَواهُ البَزّارُ عن ابن عُمرَ رضي الله عنهما عنِ النّبيِّ ﷺ أنّه سُئِل فقيل لَه: أرأيتَ الأرضَ على ما هِيَ؟ فقال: «الأَرْضُ علَى المَاءِ» حديثٌ غيرُ ثابتٍ، ضعَّفه الحافظ نُورُ الدّين الهَيْثَميُّ في «مجمع الزّوائد» (٨/ ١٣١).

(٣) أي مِمّا يُؤكَلُ زِيادةً علَى الطّعامِ المُعتادِ.

(٤) بكَسرِ الكافِ.

أنّ العربَ أَلِفَتْه لِكَثرتِه في بِلادِهم[١]، يُتّخَذ مِن خُوصِها[٢] السِّلالُ[٣]، ومِن لِيفِها الحِبالُ، ومِن جَريدِها سُقُفُ البُيوتِ، والأحاديثُ الوارِدةُ في ثمَرِها كثِيرةٌ[٤].

---

(١) قال الفخر الرازيّ في «التفسير الكبير» (٢٩/ ٣٤٥) فيما يَظهَرُ مِن الحِكمةِ في تَنكيرِ الفاكهةِ وتَعريفِ النَّخلِ في الآية: «هو أنّ الفاكِهةَ على ما بَيَّنّا ما يُتفكَّهُ به وتَطِيبُ به النَّفسُ، وذلك عِندَ كُلِّ أحَدٍ بحَسَبِ كُلِّ وَقتٍ شىءٌ؛ فمَن غَلَب عليه حَرارةٌ وعطَشٌ يُريدُ التفكُّهَ بالحامِض وأمثاله، ومِن النّاسِ مَن يُريدُ التَفكُّهَ بالحُلوِ وأمثالِه، فالفاكِهةُ غيرُ مُتعيِّنةٍ فنَكَّرَها، والنَّخلُ مُعتادٌ مَعلومٌ فعرَّفَه. وكذلكَ النَّخلُ وَحدَهُ نِعمةٌ عَظيمةٌ تعلَّقَت به منافِعُ كَثيرةٌ، أمّا الفاكِهةُ فنَوعٌ مِنها كالخَوخِ والإجّاصِ مثَلًا ليسَ فِيه عَظِيمُ النِّعمةِ كما في النَّخلِ» اهـ. بتصرُّف يَسيرٍ.

(٢) أي ورَقِها، أمّا السَّعفُ فأغصانُ النّخلِ ما دامتْ بالخُوصِ، فإنْ جُرِّدَ عنه الخُوصُ فالجَرِيدُ.

(٣) جمعُ سَلَّةٍ.

(٤) ثبَتَ في «الصّحيحَين» وغيرِهما عن سَعدِ بنِ أبي وَقّاصٍ رضي اللَّه عنه أنّ رسولَ اللَّه ﷺ قال: «**مَنْ تَصبَّحَ كُلَّ يَومٍ سَبعَ تَمَراتٍ عَجوَةً لَم يَضُرَّهُ في ذلكَ اليَوْمِ سُمٌّ ولاَ سِحرٌ**»، وقد خصَّتِ الرِّوايةُ الأُخرَى العَجوةَ بالمدينةِ ولَفظُه: «**مَنْ أَكَلَ سَبعَ تَمَراتٍ عَجوَةٍ مِنْ بَيْنِ لابَتَيِ المَدينَةِ عَلَى الرِّيقِ لَمْ يَضُرَّهُ يَوْمَهُ ذَلِكَ شَىءٌ حَتَّى يُمْسِيَ**».

قال شيخ الإسلام المُحقِّقُ المُفسِّر عبدُ اللَّهِ الهرريُّ رحمه اللَّه: «عَجوةُ المَدينة علامَتُها أنّ فِيها خُطوطًا بيضًا، وهذا التَّمرُ فِيه سِرٌّ، فيه برَكةٌ وهو أحسَنُ مِن كُلِّ التُّمور، والسِّرُّ الوارِدُ في الحديثِ خاصٌّ بِما يَنبُتُ بالمَدينةِ=

﴿وَٱلۡحَبُّ﴾ أي وفي الأرضِ أيضًا الحبُّ الّذي يُقتاتُ بِه كالحِنطةِ والشّعِير ﴿ذُو ٱلۡعَصۡفِ﴾ أي وهذا الحَبُّ ذُو ورَقٍ وقِشرٍ ونحوِهما ممّا ييْبَس وتَعصِفُه الرِّياحُ غيرَ أنّه صالِحٌ علَفًا للبَهائِم، فامتَنَّ اللَّهُ عزَّ وجلَّ على النّاسِ بما جعلَه في الأرضِ قُوتًا لَهم ولِدوابِّهم، ﴿وَٱلرَّيۡحَانُ ١٢﴾ أي وفي الأرضِ الرَّيحانُ أيضًا وهو المشمُومُ أو هو الرِّزقُ في لُغةِ حِميرَ[1]، وقد رُوي عن ابنِ عبّاسٍ رضي اللَّه عنهما قال: «كلُّ رَيحانٍ في القُرءانِ فهو رِزقٌ».

وقد تكرَّرتِ الآيةُ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ في هذه السُّورةِ العظِيمةِ في أحَدٍ وثلاثِينَ موضِعًا:

– الثّمانِيةُ الأُولَى مِنها عَقِيبَ ءاياتٍ فيها تَعدادُ عَجائِب مصنُوعاتِ اللَّهِ جلَّ جلالُه ومَبدإِ الخَلقِ ومَعادِهِم.

– ثُمّ سَبعةٌ مِنها عَقِيبَ ءاياتٍ فيها ذِكرُ النّارِ وشَدائِدِها، أجارَنا اللَّهُ مِنها.

=ما بَينَ الحَرَّتَينِ، الحَرَّةِ الشّرقِيّةِ والحَرّةِ الغربِيّة، أمّا ما ينبُت في غيرِ ذلك ليسَ فيه ذلكَ السِّرُّ».

(١) روَى البُخاريّ في «صحِيحِه» وغيرُه أنّ رسولَ اللَّه ﷺ قال في سِبطَيهِ الحسَنِ والحُسَينِ رضي اللَّه عنهُما: «**هُما رَيحانَتايَ مِنَ الدُّنيا**»، فذهَب البَدر العَينيّ والشّمس الكرمانيّ والقسطلّانيّ والملّا القاري أنّ معناه: هُما مِمّا رزقَني اللَّه في الدُّنيا أو أرادَ بالرَّيحانِ المَشمُومَ أي أنّهما مِمّا أكرمَني اللَّهُ به لأنّ الأولادَ يُشَمُّون ويُقبَّلُون فكأنّهم مِن جُملةِ الرَّياحِين.

- ثُمّ ثَمانِيةٌ في وَصفِ جِنانِ الآخِرة وأَهلِها.
- ثُمّ ثَمانِيةٌ أُخرَى عِند ذِكر الجنّتَين الخاصّتَين بعِبادِ اللهِ المتّقِينَ[1].

وقَد تكرَّرت هذه الآيةُ تقرِيرًا للنِّعَم الّتي أنعَم اللهُ عزَّ وجلَّ بِها على الأنامِ، وفُصِل بَينَ كُلِّ نِعمتَين بها تنبِيهًا للسّامِع وتقرِيرًا له بالنِّعمة، أَلَا ترَى أنّه إذا أنكرَ إحسانَك امرُؤٌ وجَحدَه عِنادًا قُلتَ له[2] كَفًّا له عمّا هو فيه[3]: أَلَم تكُن مُحتاجًا فأعطَيتُك كذا؟ أفتُنكِرُ ذلكَ؟ أَلَم تأتِني يومَ كذا

(١) يكُون لِكُلّ تَقِيّ مِن عِبادِ اللهِ ضِعفُ ما لِمَن هو دُونَ التّقِيّ مِن أهلِ الجنّةِ.

(٢) أي مِن غيرِ كِبرٍ.

(٣) قال العلّامة الزّاهِد شيخنا الهرريّ رحمه الله: «مِن الذُّنوبِ الكَبائِر المَنُّ بالصَّدَقةِ وهو مُبطِلٌ لثَوابِها، وذلك أنْ يكُون أحسَنَ إلى شخصٍ بأنْ تصدَّق على فقِيرٍ أو أقرَضَ مُحتاجًا فقَضَى له حاجتَه ثُمّ مَنَّ بذلكَ عليه أي ذَكَر ذلك بقَولِ: «أَلَم أفعَل لكَ كذا يومَ كذا» لِيَكسِرَ قلبَه، ويكُون أشَدَّ إذا مَنَّ عليه بَين النّاسِ. أمّا إذا لَم يكُن على وجهِ كَسرِه وإيذائِه فلَيسَ حَرامًا كأنْ كان يَتحدَّث معَه فجرَى على لِسانِه ذِكرُ ما عَمِل معَه مِن المعرُوفِ لا على وَجهِ كَسرِه وإيذائِه بل لِغَرَضٍ مِن الأغراضِ الصّحِيحة فإنّ ذلك ليسَ بِذَنبٍ».

ودليلُ تحريم المَنّ بالصّدَقة مِن الكتابِ العزيزِ قولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ الآيةَ [سُورة البقرة: ٢٦٤]، ومِن الحديثِ ما رواهُ النَّسائيُّ وغيرُه أنّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنَّانٌ**» أي لا يدخلُها مع الأوّلين إنْ مات مؤمِنًا غيرَ تائبٍ من ذَنبِ المَنِّ بالصّدَقةِ.

فأعطيتُـك كذا؟ أفتُنكِرُ ذلـكَ؟ فالتّكرِيرُ في مِثل هذا له وَقعٌ في نَفْسِ السّامِعِ، وذلك كقولِ القائِل: [مشطُور الرّجَز]

كَمْ نِعْمَةً كانَتْ لَكُمْ كَمْ كَمْ وَكَمْ

ويَحسُـن مِن اللَّهِ عَزَّ وجَلَّ امتِنانُه علَى عِبادِه وتذكِيرُهم بِبَعضِ ما أنعَمَ بِه علَيهِم.

وقالَ بعضُ العُلماء: في تكرِير ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ طَردٌ للغَفلةِ وتأكِيـدٌ للحُجّةِ، وذهَب غيرُهم إلى أنّه لمّـا كانتِ النِّعَمُ المذكورةُ في السُّورةِ مُختلفةً كُرِّر ذلكَ مع كُلِّ نِعمةٍ.

ولمّا ذكَر اللَّهُ سُـبحانَه بعضَ الأجرامِ الكَبيرةِ مِن مصنُوعاتِه كالسّماءِ والأرضِ ذكَـرَ ما هو أصغَرُ حَجمًـا وأضعفُ بِنيةً وقُـوّةً فقال تعالَى: ﴿خَلَقَ﴾ أي أوجَـدَ اللَّهُ وَحدَه بِقُدرَتِـه ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ الأوّلَ ءادَم ﷺ ﴿مِن صَلْصَٰلٍ﴾ أي طِـينٍ يابِـسٍ لَم تُصِبْهُ نـارٌ وله صَلْصَلـةٌ[(١)/(٢)] ﴿كَٱلْفَخَّارِ ١٤﴾ أي كالطِّين المَطبُوخِ بالنّار في يُبسِـه وهو الخزَفُ، وءادمُ ﷺ أبُو البَشَرِ نَبِيٌّ رسولٌ بالإجماعِ.

---

(١) هو صَوتُه إذَا نُقِر.

(٢) أمّا ما جاء في بعضِ كُتبِ التّفسير واللُّغةِ مِن قولِ مُجاهِدٍ وأبي عُبَيدٍ وغيرِهما: «الصَّلصـالُ الطِّينُ المُنتِنُ الرّائحةِ» فالمـرادُ به المعنَى اللُّغويّ لا أنّ الطِّينَ الّذي سُوِّي منه آدمُ عليه السّلامُ كان مُنتِنًا قبل ذلك.

تنبيه: كان ءادمُ ﷺ جميلَ الشَّكلِ والصَّوتِ كسائرِ الأنبياءِ، وكان طُولُه ستّين ذِراعًا في سَبعةِ أذرُع عَرضًا، ولم يكُن عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ قَبيحَ الشَّكلِ كما يُروِّجُ لذلكَ بعضُ أعداءِ الإسلامِ؛ فلَم يَكُن يُشبهُ القُرودَ ولا مُحْدَوْدِبَ الظَّهرِ ولا كان يَمشي في الطُّرقاتِ عاريًا كما زعمَ صاحِبُ النظَرِيّةِ الفاسِدةِ الكاسِدةِ «تَشارْلز دارْوين» وتابِعُوه، بل ءادمُ ﷺ نَبيٌّ رسولٌ كريمٌ داخِلٌ في الحدِيثِ المَرويّ مرفوعًا: «مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا حَسَنَ الوَجْهِ حَسَنَ الصَّوتِ، وَكانَ نَبِيُّكُم أَحْسَنَهُم وَجْهًا وَأَحْسَنَهُم صَوْتًا» رواه الترمذيُّ في «الشَّمائِل» وعنهُ الحافظُ في «الفتحِ» في مَعرِضِ الاستِشهادِ به.

فصلٌ في خَلقِ سيِّدنا ءادمَ ﷺ

قد جاءَ في خَلقِ ءادمَ ﷺ أحاديثُ مرفوعةٌ كالّذي أخرجَه أبو داودَ والترمذيّ وابنُ حِبّانَ وغيرُهم عن أبِي موسَى الأشعريّ رضي الله عنه أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ تَعالَى خَلَقَ ءادَمَ مِنْ قَبْضَةٍ**[1] **قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الأَرْضِ**[2]»،

---

(١) أي مِن تُرابٍ مأخوذٍ مِن الأرضِ بقَبضة الملَك.

(٢) معناهُ قبضَها الملَكُ الكريمُ بأمرِ الله عزَّ وجلَّ، أمّا القبضُ بمعنَى المُباشَرةِ والإمساكِ والمُماسّةِ فمُستحيلٌ على اللهِ عزَّ وجلَّ، وأمّا إنْ قيل: قَبضَ اللهُ رُوحَ فُلانٍ فَمعناه أَمرَ ملَكَ الموتِ بِقَبضِ رُوحِه، وكذلكَ جاءَ في الكِتابِ العزيزِ قولُ الله تعالَى: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ﴾ ومعناهُ يُقتِّرُ الرّزقَ على عِبادِه ويُوسِّعُه عليهِم كما يَشاءُ لحِكمةٍ، وكذلك قولُه تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا =

فَجَاءَ بَنُو ءادَمَ(١) **عَلَى قَدْرِ الأَرْضِ، فَجَاءَ مِنْهُمُ**(٢) **الأَحْمَرُ وَالأَبْيَض وَالأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ**(٣)**، وَالسَّهْلُ وَالحَزْنُ**(٤) **وَالخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ**(٥)»، قال التّرمذيُّ: حديثٌ حسَنٌ صحيحٌ.

وفي تفصِيل خبَرِ خَلقِ ءادمَ ﷺ أنّ اللّه عزَّ وجلَّ أمرَ ملَكًا مِن مَلائكتِه(٦) بأنْ يأخُذَ مِن جميعِ ألوانِ التُّرابِ، أسوَدِها وأبيَضِها وأحمَرِها وما بَينَ ذلك، ومِن سَهلِها وحَزْنِها(٧)، مِن كُلّ ذلك أخَذ هذا الملَكُ ثُمّ رفع

= قَبْضَتُهُ﴾ أي الأرضُ وما فِيها مملوكةٌ له وتحتَ تصرُّفه يَفعَلُ بها ما يَشاءُ بقُدرتِه، وهو عزَّ وجلَّ مُنزَّهٌ عن الأعضاءِ والجِسميّةِ وعن مُماثَلةِ المخلوقاتِ بأيِّ معنًى مِن المَعاني.

(١) أي وكُلُّهم كانوا مِن نَسلِ ءادمَ ﷺ، أمّا ما يقولُه بعضُ العصريّين مِن أنّه كان قبلَ ءادمَ أبي البشَرِ ألْفُ ألْفِ ءادمَ أو أكثَرُ فهو مردودٌ ومكذوبٌ على الإمام محمّدٍ الباقِر بن عليّ بنِ الحسَين بنِ عليّ رضي اللّه عنهُم.

(٢) أي في اللَّونِ.

(٣) أي وما هو بينَ تلكَ الألوانِ.

(٤) أي جاء مِنهُم مَن هو ليِّنُ الطَّبعِ ومَن هو غَليظُ الطَّبعِ.

(٥) أي ومِنهُم مَن هو سَيِّئُ الخُلُقِ ومَن هو حسَنُ الخُلُقِ.

(٦) يحتمِل أن يكون عزرائيلَ عليه السّلامُ كما صُرِح به في بعضِ الآثار، وهو الّذي رواهُ البيهقيّ في «الأسماءِ والصِّفات» من طريقِ السُّدّيّ.

(٧) أي الأرضِ القاسِية اليابِسة الصُّلْبةِ ومِن ضِدّها الأرضِ الرِّخوة.

هـذا التُّرابَ بأمرِ اللهِ إلى الجنّةِ فعُجِن بماءِ الجنّةِ، ثُمّ ظَلَّ زمانًا طِينًا[(١)] إلى أنْ حوَّلَـه اللّهُ تعـالى بِقُدرَتِه إلى صَلْصالٍ أي تـرابٍ يابسٍ صُلبٍ كالفَخّـار، ثُمّ حَوَّلَه عزَّ وجلَّ بِقُدرَتِه إلى بـدَنٍ مِن لَحمٍ ودَمٍ وجعَلَ فيه الرُّوحَ بعدَ أنْ كانَ هيكَلًا مُنبسِطًا في أرضِ الجنّةِ، وكانَ آدمُ عليه السّلامُ آخِرَ الأنواعِ خَلْقًا يومَ الجُمعةِ في ءاخِرِ ساعةٍ مِن ساعاتِ اليومِ فيما بَين العَصرِ إلى اللَّيلِ.

وقـد جاءَ في الحديثِ الّـذي رواهُ ابنُ حِبّـانَ في «صحيحِه» والتِّرمذيُّ والنَّسائيُّ عن أبي هُريرةَ رضي اللّه عنه أنّ رسولَ اللّه ﷺ قال: «**لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ ءادَمَ وَنَفَـخَ فِيـهِ الرُّوحَ عَطَـسَ[(٢)] فَحَمِدَ رَبَّهُ بِـإِذْنِ اللَّهِ لَهُ فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ**» الحديثَ.

فائدة: جاءَ في الكِتابِ الكريم سِـتُّ عباراتٍ في بدءِ خَلقِ سيّدِنا ءادم ﷺ، فقال عـزَّ وجلَّ: ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [سُـورة ءال عِمران: ٥٩]، وقال جلَّ جلالُـه: ﴿خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا﴾ [سُـورة الفرقان: ٥٤]، وقال تعالَى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ [سُورة السَّـجدة: ٧]، وقال أيضًا: ﴿مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [سُورة المؤمِنُون: ١٢]، وقال: ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [سُـورة الصافّـات: ١١]، وقال سُـبحانَه: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي

---

(١) في أثَرٍ عِندَ أبي الشَّيخ بن حَيّانَ في «العظَمة» أنّه بقِيَ أربعِينَ سنَةً، وعندَ ابنِ عساكِرَ في «تارِيخِه» أنّه مَكثَ أربعِينَ يومًا.

(٢) أي ءادمُ ﷺ.

خَلِقُ بَشَرًا مِّن صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [سُورة الحِجر: ٢٨]، والجَمعُ بينَ ذلكَ كُلِّه - مع اختِلافِ العِباراتِ - أنّ اللّهَ تعالَى خلقَ الأرضَ مِن الماءِ الأوّلِ الّذي قال فيه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ [سُورة الأنبياء: ٣٠] أي بلا واسِطةِ شيءٍ ءاخرَ بل خَلَقَ اللّهُ عزَّ وجلَّ مِن الماءِ الأرضَ، ثُمّ خلَقَ جسَدَ ءادمَ ﷺ مِن تُرابِ الأرضِ المعجون بماء الجنّة؛ فجعَلَ اللّهُ ذلكَ التُّرابَ طِينًا لازِبًا أي رِخوًا مُتَماسِكًا يَلصَقُ بعضُه ببَعضٍ، ثُمّ صَيَّرَ الطِّينَ اللّازِبَ حَمَأً مَسنُونًا أي طِينًا مُتغيّرًا إلى حالةٍ أُخرَى، ثُمّ جعَلَه يابِسًا فصارَ صَلْصالًا كالطِّينِ المَطبُوخِ بالنّارِ في يُبسِه.

فائدة: لقَد أخبرَنا اللّهُ عزَّ وجلَّ في القرءانِ الكريم أنّه عاقبَ المُخالفِينَ أمرَه أصحابَ السَّبتِ مِن بَني إسرائيلَ بأنْ مَسَخَهُم قِردةً وخنازيرَ وكانُوا نَحوَ سَبعِينَ ألْفاً، ولَم يَمكُثُوا أحياءً أكثرَ مِن ثَلاثةِ أيّامٍ. وكانُوا لا يأكُلُون ولا يَشرَبُون خِلالَها، فماتُوا ولَم يَتناسَلُوا وقد أَضحَوا عِبرةً بالِغةً لِمَن رءاهُم وعَرَف قِصَّتَهم ولِمَن أتَى بَعدَهم، قالَ اللّهُ تعالَى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾ [سُورة البقرة: ٦٥]، وفي هذا رَدٌّ على نظَرِيّة «دارْوِين» الفاسِدةِ الكاسِدةِ الّتي فيها أنّ الإنسانَ أصلُه قِردٌ ثُمّ تطوَّرَ وترَقَّى حتّى صارَ على ما هو عليه، والعِياذُ باللّهِ، فلو كانَ الإنسانُ قِردًا أينَ تَكُون الإهانةُ والمُعاقَبةُ في مَسخِ المُخالفِينَ مِن بَني إسرائيلَ قِردةً على ما هو مذكورٌ في الآيةِ؟!

ولمّا ذكَرَ اللّهُ عزَّ وجلَّ بَدْءَ خَلْقِ الإنسانِ أعقبَهُ بذِكرِ أمرِ الجِنِّ فقال:

﴿وَخَلَقَ﴾ أي اللَّهُ وحدَه أوجدَ بِقُدرَتِه ﴿ٱلْجَآنَّ﴾ أي أباهُم إبليسَ[١] ﴿مِن مَّارِجٍ﴾ أي لَهَبٍ ﴿مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾ صافٍ مِن الدُّخانِ يَعلُوها، مُختلِطًا بعضُه بِبَعضٍ أحمرَ وأصفرَ، يُقال: مَرجَتِ النّارُ إذا الْتَهَبَتْ.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾﴾ أيُّها المكذِّبُون مِن الثَّقلَين، وقد تقدَّم تفسيرُها، ويُندَب عِندَ سَماعِ هذه الآيةِ قولُ: «**لا بِشَيءٍ مِن نِعَمِك رَبَّنا نُكَذِّبُ، فلَكَ الحَمدُ**»[٢].

هو أي اللَّهُ ﴿رَبُّ﴾ أي مالِكُ وخالِقُ ﴿ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ أي مَشرِقِ الشّمسِ في الصَّيفِ ومَشرِقِها في الشّتاءِ، وهي مَشارِقُ كثيرةٌ بعضُها في الصَّيفِ وبعضُها في الشّتاءِ، تطلُع الشّمسُ كُلَّ يومٍ من مَشرقٍ لا تعودُ فتَطلُع مِنه إلّا في العامِ القابِل.

﴿وَ﴾ هو أي اللَّهُ ﴿رَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾﴾ أي مَغرِب الشّمسِ في الصَّيفِ ومَغرِبِها في الشّتاءِ، وهي مَغارِبُ كثيرةٌ بعضُها في الصَّيفِ وبعضُها في الشّتاءِ، تَغرُبُ الشّمسُ كُلَّ يومٍ من مَغرِبٍ لا تعودُ فتَغرُب مِنه إلّا في العامِ القابِل.

---

(١) لا يصحّ قولُ بعضِ المفسّرين: «الجانُّ هو اسمُ أبي الجنّ، وإبليسُ اسمُ أبي الشَّياطِين»، فإبليسُ أبو الجنّ كُلّهِم، الجنّ المؤمن والكافِر، والكافِرُ منهم يقال له: شَيطانٌ.

(٢) سبَقَ ذِكرُ الحديثِ الوارِدِ في ذلكَ أوّلَ التّفسِيرِ عِندَ ذِكرِ خصائِصِ السُّورةِ وفَضائِلِها.

فائدة: قَد جعَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ للشّمسِ مسِيرًا مُنتظِمًا على مدَارِ الأيّامِ، فعِندَ طُلوعِ الشّمسِ مِن أخفَضِ مَشارِقِها في الشّتاءِ يكون أقصَرُ نهارٍ في السّنةِ(١)، فإذَا طلَعتْ من ذلكَ المَشرِق لَم تزَل بَعدَ ذلِكَ ترتفِعُ كُلَّ يومٍ في المَطلَعِ بأنْ تَطلع كُلَّ يومٍ مِن مَطلعٍ فَوقَ مَطلَعِ الأمسِ مُتّجِهةً نحوَ مَشارِقِ الصَّيفِ، فإذا توسَّطَتِ المَشرِقَينِ استوَى اللَّيلُ والنّهارُ في الرَّبيعِ، وتَستمِرُّ ارتفاعًا في المَشارِقِ حتّى تَبلُغَ مَشرِقَ الصَّيفِ الّذي هو غايَتُها في الارتفاعِ، فإذَا بلَغتْه كان ذلكَ أطولَ نهارٍ في السّنةِ، فتَرجِعُ في اليومِ التّالي في انحِدارٍ هكذا كُلَّ يومٍ نحوَ مَشرقِ الاستِواءِ، فإذَا بلَغَتْهُ استوَى اللَّيلُ والنّهارُ في الخَريفِ، وتَستمِرُّ انحدارًا في المَشارِقِ حتّى تَبلُغَ مَشرِقَ الشّتاءِ الّذي هو غايَتُها في الانحِدارِ، وهكذا كلَّ عامٍ إلى أنْ يأتِيَ اليومُ الّذي تُشرِقُ فيه مِن مَغرِبِها وذلكَ مِن ءاخِرِ العلاماتِ الكُبرَى على قُربِ نِهايةِ الدُّنيا ودُنُوِّ يومِ القِيامةِ.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٨﴾ أيُّها المكذِّبُون مِن الثَّقلَين، أبالنِّعَمِ الّتي جعَلَها اللهُ لَكُم مُسبَّبةً عن وُجودِ مشارِقَ ومَغارِبَ؟!

ولمّا ذكَر اللهُ عزَّ وجلَّ بعضَ نِعَمِه الّتي جعلَها لعبادِه في البرِّ أعقَبها ببعضِ نِعَمِه عليهِم في البَحرِ فقال: ﴿مَرَجَ﴾ أي أرسَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ ﴿ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ البَحرَ المِلحَ والبَحرَ العَذبَ(٢) من مَنابعِهما وخلّاهُما ﴿يَلْتَقِيَانِ ۝١٩﴾ أي

---

(١) أي بالنِّسبةِ للبُلدانِ الواقعةِ وسطَ الأرضِ.

(٢) أي النَّهر.

مُتجاوِرَين مُتلاصِقَين مِن غيرِ تَداخلٍ بينَهُما مع أنّ العَينَ لا ترَى فاصِلًا إلّا أنّه ﴿بَيْنَهُمَا﴾ أي المائِين ﴿بَرْزَخٌ﴾ أي حاجِزٌ بقُدرةِ اللّهِ يَمنَعُهما من التّداخُلِ فـ﴿لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾﴾ أي لا يَتعدَّى أحَدُهما حُدودَه الّتي حدَّها اللّهُ له، فالماءُ المِلحُ مُنفرِدٌ بِمُلوحَتِه، والماءُ العَذبُ مُنفرِدٌ بعذُوبَتِه، وليسَ ذلكَ على اللّهِ بعَزيزٍ، فقد جعَلَ السّماءَ مرفوعةً بِغيرِ عُمُدٍ، وذلكَ أعجَبُ مِن أمرِ البحرَين، فتبارَكَ اللّهُ ربُّ العالمِينَ.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾﴾ أيُّها الجاحِدُون من الثّقلَين، أبِالنِّعَمِ الّتي جعلَها اللّهُ لكُم مُسبَّبةً عن مَرْجِ البَحرين؟!

﴿يَخْرُجُ﴾ بقُدرةِ اللّهِ عزَّ وجلَّ ﴿مِنْهُمَا﴾ أي مِن البَحرِ المِلح والبَحرِ العَذبِ ﴿ٱللُّؤْلُؤُ﴾ وهو كِبارُ الجَواهِرِ ﴿وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾ وهو صِغارُها، وقيل: العكسُ، وقيل: المَرجانُ حَجَرٌ أحمَرُ، وقيل: حجَرٌ شَديدُ البَياضِ، وقيل غيرُ ذلكَ.

واختُلِفَ في تفسيرِ إسنادِ الخُروجِ إلى البَحرَين مجازًا[1] مع أنّ الّذي اعتادَه النّاسُ خروجُ اللُّؤلؤِ والمَرجانِ مِن البَحرِ المالِحِ، والّذي ذهَبَ إليه جمهورُ المفسّرين أنّه لـمّا كانَ اللُّؤلؤُ والمَرجانُ يَخرُجانِ من البَحرِ المِلحِ عِندَ التِقاءِ مِياهِ الأنهارِ والمِياهِ العَذبةِ بالبَحرِ المِلحِ لا سيّما ماءُ المطَرِ إذا أصابَ البَحرَ المِلحَ، ناسبَ إسنادُ الخُروجِ إلَى البَحرَين،

(١) إذا قُلنا: «أخرجَتِ الأرضُ النّباتَ والبِحارُ الجَواهِرَ» فهو إسنادٌ مجازيٌّ، لأنّ الّذي يَخلُقُ ذلكَ ويُخرِجُه مِن الأرضِ والبَحرِ بقُدرَتِه هو اللّهُ عزَّ وجلَّ.

وهذا مَشهُور عِندَ الغوّاصينَ كما قال أبو حيّانَ.

فإنْ قيل: أكثَرُ ما يكونُ استِخراجُ اللُّؤلؤِ في البَحرِ الملح لا في مُلتقَى البَحرَين، فالجوابُ كما ذكر بعضُ المفسِّرين أنّ تَولُّدَ اللُّؤلؤِ في الصَّدَفِ يكونُ في مُلتقَى الماءِ المِلحِ بالماءِ العَذبِ بقُدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، ثُمّ يَدخُل الصَّدَف في جهةِ الماءِ المِلحِ بعدَ انعقادِ الدُرّ فِيه فيَثقُل ذلكَ الصَّدَفُ هناكَ فلا يُمكِنُه الدُّخولُ في الماءِ العَذبِ، فيَستخرِجُه النّاسُ مِن الماءِ المِلح[١].

وقد صارَ معروفًا اليومَ وُجودُ اللّآلِئ الطبيعيّة في المِياه العَذبةِ في بعضِ البُحيراتِ والأنهارِ، وليسَ ذلكَ بعَجيبٍ عند الغوّاصِينَ وأهلِ الاختِصاصِ لا سيّما مع وجودِ الآلاتِ الحديثةِ للغَوصِ والتّنقيبِ.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢٣﴾ أيُّها الجاحِدُون من الثَّقلَين، أَبِما أنعمَ اللّهُ بِه علَيكُم فِيما أخرجَ لكُم مِن مَنافِعِ هذَين البَحرَين؟!

ولمّا كانَ النّاس هُم المباشِرين بِناءَ السُّفنِ والمُنشِئِين لَها، امتنَّ اللّه تعالَى عليهم بأنّه خالِقُ ذلكَ ومالِكُه على الحقيقةِ ومُدبِّرُه فقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَهُ﴾ أي ولِلّه مِلكًا وخلْقًا ﴿ٱلْجَوَارِ﴾ أي السُّفنُ الكِبارُ[٢] ﴿ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾[٣] أي المصنُوعاتُ المُحدَثاتُ المُسخَّراتُ أو المرفُوعاتُ

(١) أي النَّهرَ.

(٢) أي والصِّغارُ كذلكَ مِلكُه عزَّ وجلَّ وخَلقُه.

(٣) وقرأ الإمامُ حمزةُ وشُعبةُ عن الإمام عاصِمٍ بكَسرِ الشِّين في ﴿ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾=

الـشّراعِ الجارِيات ﴿فِى ٱلْبَحْرِ﴾ حـالَ كونِها ﴿كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾﴾ أي كالجبالِ العالِياتِ شـاهِقاتٍ مُنتصِباتٍ على وَجهِ الماءِ، فشُبِّهتِ السُّفُنُ الكِبارُ في البَحرِ بالجِبالِ في البَرِّ.

فائـدة: أُطلِـقَ لَفظُ الجارِيةِ بمعنَى السَّـفِينةِ في القُـرءانِ العزيزِ في ثلاثةِ مواضعَ؛ مِنها الموضِعُ الّذي سبَق في سُورة الرّحمنِ هنا، ومِنها قولُه تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ أي ارتفَـعَ وقتَ الطُّوفانِ الكبيرِ زمـنَ نُوحٍ ﷺ وصارَ مُرتفِعًا علَى أعلَى جبَلٍ في الدُّنيا خَمسةَ عشَرَ ذِراعًا ﴿حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [سُورة الحاقّة: ١١] أي سخَّرْنا لآبائِكُم أن يكونُوا محمُولِين بالسفينةِ(١)، وكذلكَ

=ومعناها السُّفنُ الرافِعاتُ الشّراعَ أوِ اللّاتِي يُنشِئنَ الأَمواجَ بجَرَيهِنّ أو اللّاتي تُنشِئُ السَّفرَ إقبالًا وإدبارًا.

(١) ولا يجوزُ أن يكونَ معنَى ﴿حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ أنّ اللهَ كان مُماسًّـا لخَلقِه مُباشِرًا لحَملِهِـم كحَملِ الواحِدِ مِنّا حَمُولةً، حاشـا لله، ففِعـلُ اللهِ عزَّ وجلَّ ليسَ بالمُباشَرةِ ولا بالمُماسّـةِ بل ذلكَ كُلُّه بقُدرَتِه عزَّ وجلَّ، يُحدِثُ ويُعدِمُ ما يَشاءُ بقُدرَتِه الأزليّةِ مِن غيرِ أن يَلحقَهُ تغيُّرٌ في ذاتِه أو في صِفةٍ مِن صفاتِه. وقَد صَحّ في الحديثِ الذي رَواهُ الشَّيخانِ وغيرُهما أنّ جَماعةً مِن الأشعريّين قـومِ أبي مُوسَى رضي اللّه عنه جاؤوا النَّـبيَّ ﷺ يَطلُبون مِنهُ أنْ يُعينَهُم بشىءٍ مِن الإبلِ ونَحوِها يحمِلُهم وأمتِعتَهُم، فقال رسـولُ اللّهِ ﷺ: «**ما عِنْدِي مَا أَحْمِلُكُـمْ عَلَيْـهِ**»، ثـمّ أُتِي ﷺ بإبِـلٍ فقـالَ: «**أَيْـنَ الأَشْـعَرِيُّونَ؟ أَيْـنَ الأَشْـعَرِيُّونَ؟**»، فلَمّا جاؤُوه أعطاهُم خَمسًا مِن الإبلِ وقال لهُم: «**إِنِّي لَسْتُ أَنَا حَمَلْتُكُمْ، وَلَكِنَّ اللّهَ حَمَلَكُمْ**» ومعنَى ذلكَ أنّ اللّهَ ساقَ إليَّ ما حُمِلْتُم عليهِ ولَـولا ذلكَ لَم يَكُن عِندِي ما أَحمِلُكم عليه، ففِعْلُ اللّهِ عزَّ وجلَّ مُنزَّهٌ عن =

قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا﴾ [سُورة الذّاريات: ٣] يعني السُّفنَ تجري بواسطةِ الرّياحِ في الماءِ جريًا سهلًا ليّنًا ، وقد أقسَمَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ بها لِما فيها مِن نفعٍ عظيمٍ للخلقِ، ولِلّهِ تعالى أنْ يُقسِمَ بما شاءَ مِن خلقِه وليسَ يُقسِمُ إلّا بما فيه نفعٌ، أمّا العبدُ فلا ينبغي له أنْ يُقسِمَ إلّا باللّهِ[1].

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾﴾ أيُّها الجاحِدُون مِن الثَّقلَين، أبِما أنعمَ اللَّهُ عليكُم بإجراءِ السُّفُنِ المُنشَئاتِ في البَحرِ جاريةً بمَنافعكم؟!

ولمّا أخبرَ اللَّه عزَّ وجلَّ أنّه خالِقُ السّماواتِ والأرضِ وما فِيهما، وأنّه الّذي أنعَمَ على الأنامِ بصُنوفِ النِّعَمِ، صرَّح بأنّه عزَّ وجلَّ وحدَه المُنفرِدُ بإفْناءِ الخَليقةِ فقال تعالَى:

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا﴾ أي علَى الأرضِ[2] مِن جِنٍّ وإنسٍ وغيرِهما مِن ذوي الأرواحِ ﴿فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾ أي هالِكٌ بالموتِ، فلا يُشترَطُ في حُصولِ الفناءِ للفانِي أنْ تزولَ ذاتُه وتتلاشَى، فالأنبياءُ عليهم السّلامُ يَفنَون في الدُّنيا بمعنَى أنّهم يَموتُون لكنَّ أجسادَهم لا تبلَى لأنّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ منعَ الأرضَ

= المُباشَرةِ ومُشابَهةِ فِعلِ المخلُوقِينَ، هذا هو اعتقادُ المُسلمِين قاطبةً، ومَن خالَفَ في ذلكَ اعتِقادًا أو قولًا لَم يَكُن مِن المُسلمِين.

(١) وقد أفرَدْنا فصلًا في تفسيرِ سُورةِ يس في بيانِ قضيّةِ القسَمِ في القرءانِ الكريمِ، فلتُنظَر.

(٢) قال الإمامُ النَّحويّ محمّدُ بن مالكٍ رحمه اللَّه في «شرح التّسهيل» (١/ ١٥٨): «الضّميرُ للدُّنيا وإنْ لَم يُجرَّد ذِكرُها في هذه السُّورةِ، لأنّ ما جرَى ذِكرُه هو بَعضُها، والبَعضُ يَدُلّ على الكُلّ».

مِن أنْ تُبلِي أبدانَهم الشّرِيفةَ.

فقد ثبَت في الحديث الّذي رواهُ ابنُ حِبّانَ في «صحيحِه» وأحمدُ في «مُسنَدِه» وبعضُ أصحابِ «السُّنَنِ» عن أَوْسِ بنِ أَوْسٍ رضي اللَّه عنه أنّ رسولَ اللَّه ﷺ قال: «**إِنَّ مِنْ أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ**[١]، **فِيهِ خُلِقَ ءادَمُ، وَفِيهِ قُبِضَ**[٢]، **وَفِيهِ النَّفْخَةُ**[٣]، **وَفِيهِ الصَّعْقَةُ**[٤]، **فَأَكْثِرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ فِيهِ، فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ**

---

(١) قال شيخُنا العلّامةُ الحافظُ الهرريّ رحمه اللَّه: «قولُه عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ: «إِنَّ مِنْ أَفْضَلِ أَيَّامِكُم يَوْمَ الجُمُعَةِ» هو لِبيانِ أنّ هُناكَ أيّامًا فاضلةً غيرَ يوم الجمُعةِ، كعَشرِ ذي الحِجّةِ الأُولى، هذه الأيّامُ كلُّها لها فَضلٌ عِندَ اللَّهِ تعالَى، عمَلُ البرّ والإحسانُ في هذه الأيّامِ يَزكو ويَزيدُ علَى ما سِواه، لذلك قال رَسولُ اللَّه ﷺ: «مَا مِنْ أَيَّامٍ العَمَلُ فِيهَا أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ عَشرِ ذِي الحِجَّةِ» رواه الطبَرانيُّ وابنُ حِبّانَ».
والجُمعةُ أفضَلُ أيّامِ الأُسبوعِ وهو يومُ عِيدٍ للمُسلِمين، فقد روَى ابنُ ماجه في «سُنَنِه» عن ابنِ عبّاسٍ رضي اللَّه عنهما أنّ رسولَ اللَّه ﷺ قال: «إِنَّ هَذَا يَوْمُ عِيدٍ جَعَلَهُ اللَّهُ لِلْمُسْلِمِينَ، فَمَنْ جَاءَ إِلَى الْجُمُعَةِ فَلْيَغْتَسِلْ» الحديثَ.

(٢) أي توفّاهُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ.

(٣) أي النَّفخةُ الأُولى الّتي يَنفُخُها إسرافيلُ عليه السّلامُ في البُوقِ فيَمُوتُ كُلُّ ذَواتِ الأَرواحِ مِن إنسٍ وجِنٍّ وملائكةٍ وغيرِهم إلّا مَن شاءَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ له البَقاءَ، قال اللَّه تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [سُورة الزُّمَر: ٦٨].

(٤) أي النَّفخةُ الثانيةُ الّتي يَنفُخُها إسرافيلُ عليه السّلامُ في البُوقِ، وذلك بعدَ =

مَعْرُوضَــةٌ عَــلَيَّ»، قالُوا: وكَيفَ تُعرَضُ صَلاتُنا عَلَيــكَ وقد أَرَمْتَ[(١)]، فقــال ﷺ: «**إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَــلَّ حَرَّمَ عَلَى الأَرْضِ**[(٢)] **أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَــادَ الأَنْبِياءِ**».

وقال الآمديّ في «أبكار الأفكار» (٣/ ٣٧٤): «أمّا قولُه تعالَى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ فقَد قال المُفسِّرون: المُرادُ بِه أنّ كُلَّ حيّ مَيّتٌ، ولا يَلزَمُ مِن ذلك فَناءُ الجَواهِر وعَدمُها فِي نَفسِها».

قُلتُ: ويؤيّدُ ذلكَ أنّ عَجبَ الذَّنَبِ[(٣)] عظمٌ صغِيرُ الحَجمِ جِدًّا[(٤)]، فهو

= أنْ يُحيِيَــه اللهُ بقُدرَتِه، وعِندَ هذه النَّفخَــةِ يُبعَثُ النّاسُ مِن قُبورِهم إلى أرضِ المَحشَرِ والمَنشَرِ، وبينَ النَّفخةِ الأولَى والثّانيةِ أربعُون عامًا.

(١) أي بَلِيتَ. ولَم يَكُنِ السّائلُونَ قد سَمِعُوا قبلَ ذلكَ الوقتِ أنّ الأنبِياءَ عليهِمُ الصّلاةُ والسّلامُ لا تَبلَى أجســادُهم بعدَ مَوتِهم، فبَعدَما عرَفُوا لَم يعُودُوا إلى ذلِكَ، ويؤكّدُ ذلكَ أنّ رســولَ اللهِ ﷺ قــالَ: «**الأَنْبِيَاءُ أَحْيَــاءٌ فِي قُبُورِهِمْ يُصَلُّونَ**» رواهُ أبو يَعلَى والبَزّارُ. وإذَا كانَ النّبِيُّ مِن الأنبياءِ عليهِمُ السّــلامُ لا يأكُلُه التُّرابُ بَعدَ مَوتِه فكَيفَ يأكُلُه الدُّودُ في حَياتِه كما يَفترِي اليَهودُ على ســيّدِنا أيُّوبَ علَيه السّــلامُ؟! حاشــا، فالأنبياءُ مُنزَّهُونَ عن أنْ يُصِيبَهُم مَرضٌ مُنفِّرٌ.

(٢) أي مَنعَها.

(٣) عَجْبُ الذَّنَب بفتح العَين وهو المَشْــهورُ، وحكَى ابنُ سِيدَه ضَمَّها أيضًا، ويقال له أيضًا: عَجْمُ وعُجْمُ الذّنَب بفَتح العَينِ وضمِّها مع المِيم.

(٤) والعَجْبُ عَظمٌ صغِيرٌ قَدرُ رُبعِ حَبّةِ سِمْسِمٍ، موضِعُه فِي الذَّنَبِ، والذَّنَبُ =

مِن جُملةِ بدَنِ الإنسانِ، ومع ذلكَ فإنّ اللهَ عزَّ وجلَّ شاءَ له البَقاءَ[١]، فلَا يَصِحَّ حَملُ الفَناءِ في الآيةِ علَى زَوالِ ذَواتِ جميعِ ذِوي الأرواحِ[٢] ولا علَى زوالِ جميعِ أجزاءِ الآدميّين الّذين أكَلَ التُّرابُ أبدانَهم.

فكُلُّ حيٍّ شاءَ اللهُ له المَوتَ فإنّه يموتُ ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ﴾ أي ذاتُ ﴿رَبِّكَ﴾ الّذي لا يُشبِهُ الذّواتِ، وبعبارةٍ أُخرَى يُقالُ: يَبقَى اللهُ الحيُّ الّذي لا يَموتُ الأزليُّ الأبديّ المتّصِفُ بصِفاتِ الكَمالِ الأزليّةِ الأبديّةِ، فهو عزَّ وجلَّ ﴿ذُو ٱلۡجَلَٰلِ﴾ أي المّتصِفُ بعِظَمِ الشّأنِ والّذي يَستحِقُّ أنْ يُجَلَّ فلا يُجحَدَ ولا يُكفَرَ به ﴿وَٱلۡإِكۡرَامِ ٢٧﴾ أي ذُو الإكرامِ، ومعناهُ المُحسِنُ إلى عِبادِه مِن غيرِ وُجوبٍ علَيهِ[٣].

= مِن الإنسانِ أسفَلُ ظَهرِه عِندَ الصُّلبِ فوقَ ما بَينَ الألْيَتَين، ويُقالُ: للذَّنَبِ أو لِعَجْبِه عُصْعُصٌ، وليسَ يَبلَى عَجْبُ الذَّنَبِ ولَو وُضِعَ في نارٍ شَديدةٍ.

(١) روَى الإمامُ مالكٌ في «الموطّأ» وأحمدُ في «مُسنَدِه» ومُسلِمٌ في «صحيحِه» وغيرُهم عن أبي هُريرةَ رضيَ اللهُ عنه أنّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**كُلُّ ابنِ ءادَمَ يأكُلُهُ التُّرابُ إلّا عَجْبَ الذَّنبِ، مِنْهُ خُلِقَ وَفِيهِ يُرَكَّبُ**» معناهُ رُكِّبَ بدَنُ الإنسانِ علَيهِ أوّلَ أمرِه في بَطنِ أُمِّه ثُم علَيهِ يُعادُ قُبيلَ البَعثِ إنْ كانَ جسَدُه ممّن يأكلُه التّرابُ.

(٢) وذلكَ لاستِثناءِ الأنبياءِ وشُهداءِ المَعركةِ وبعضِ أولياءِ اللهِ أيضًا.

(٣) وقد منَّ اللهُ الكريمُ علَينا بأنْ صَنّفنا كِتابًا موسُوعِيًّا مِن خَمسِ مجلّداتٍ =

فصل في إثباتِ ما فسَّرْناهُ مِن معنى الوَجهِ في الآيةِ السّابقةِ

اتّفقَ المُسلِمُون على أنّه لا يجوزُ عقلًا ولا نقلًا أنْ يكُون الوجهُ المُضافُ إلى اللهِ في الآيةِ السّابقةِ بمعنَى العُضوِ، وذلك لِقيامِ صريحِ الدّليلِ العقليّ وصحيحِ النَّقليّ على أنّ اللهَ عزَّ وجلَّ ليسَ جسمًا ولا عرَضًا ولا يُشبهُ الأجسامَ ولا الأعراضَ مِن أيِّ حَيثيّةٍ مِن الحيثيّاتِ، ويدُلُّ على صِحّةِ توجيهِنا لِلَفظِ «الوَجهِ» بِمَعنَى الذّاتِ الوارِدِ في قولِه تعالى: ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ﴾ أُمورٌ، منها:

الأوّل: لَم يَختلفِ القُرّاء في رَفعِ «ذُو» نَعتًا لـ «وَجْهُ»[1]، وليسَ لَفظُ «وَجهُ» هُنا صِفةً لأنّ الصِّفةَ لا تُوصَفُ بصِفةٍ أُخرَى، فتعيَّنَ حَملُ «وجهُ» هنا على معنَى «ذاتُ».

الثّاني: أنّه لو كانَ الوجهُ في الآيةِ بمعنَى العُضوِ[2] لَلَزِم أنْ يكونَ له

= في شَرحِ كِتابِ أبي منصورٍ البَغداديِّ رحمه اللهُ في الأسماءِ والصِّفاتِ أسمَيْناه «شَوارِقَ الأنوارِ الواضِحاتِ علَى تفسيرِ الأسماءِ والصِّفاتِ»، وكِتابُ أبِي منصورٍ «تَفسيرُ الأَسماءِ والصِّفاتِ» أجمَعُ كِتابٍ أُلِّفَ في عقيدةِ أهلِ السُّنّةِ والجماعةِ.

(١) يُنظَر: تفسير القُرطبيّ (١٧/ ١٩٣).

(٢) يقول شيخُ الوهّابيّة محمّد بن صالح العثيمين (ت ١٤٢١هـ) في كتابه المسمَّى «فَتح رَبِّ البَريّة» (ص/ ٦٧): «مذهبُ أهلِ السُنّةِ والجَماعةِ أنّ للهِ وجهًا حَقيقيًّا يَليقُ بِه». ومعنَى قولِ هذا الوهابيّ «حقيقيًّا» أنّه صُورةٌ =

جسَدٌ[١] وأنْ يفنى جَميعُ الجسَدِ إلّا الوجه[٢].

الثّالِث: أنّ قولَه تعالَى: ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ ظاهِرُه يَقتضِي وَصفَ الوَجهِ بالجَلالِ والإكرامِ، ومَعلومٌ عِندَ أهلِ الحقّ أنّ الموصُوفَ بالجَلالِ والإكرامِ هو اللّهُ عزّ وجلّ، فالوَجهُ في الآيةِ مُفسَّرٌ بالذّاتِ أي ذاتِ اللّهِ.

فإنْ قيل: لِمَ ذُكِرَ الوَجهُ ولَم يُقل: «وَيبقَى ربُّك»؟

فالجوابُ - كما قال بعضُ المفسّرين والمتكلِّمين مِن أهلِ السُّنّةِ[٣]

= حقيقيّةٌ، والعياذُ باللّهِ مِن الكُفرِ، فكيفَ يزعمُونَ أنّهم حَنابلةٌ وهُم يُخالِفون الإمامَ أحمدَ رضي اللّهُ عنه في أصلِ العقيدةِ، فقد قال الإمامُ أحمدُ في وَصفِ اللّهِ تعالَى: «هوَ لا كالصُّورِ المُصوَّرةِ والأَعيانِ المُخطَّطةِ».

(١) لأنّهم لمّا جَوّزُوا عليه العُضوَ فقد جوَّزُوا عليه جميعَ الأعضاءِ وجَعلُوا له أمثالًا مِن خَلقِه، والقاعِدةُ أنّ «المُتَماثِلاتِ تَستَوي في ثلاثةٍ: فيما يجِبُ لها عقلًا وهو الحدوثُ، وما يجوزُ عليها كالعدَمِ، وما يستَحيلُ عليها كالقِدَمِ غيرِ الزَّمانيّ».

(٢) ظهَرَ في القرنِ الثّاني الهِجريّ رجُلٌ يُدعَى بَيانَ بنَ سَمْعانَ التّميميَّ (ت ١٢٠ هـ) مِن بلادِ نَجدٍ، أسّسَ مذهبًا في التّجسيمِ والعِياذُ باللّهِ وسُمّيَ أصحابُه البَيانيّة وقالُوا: إنّ اللّهَ علَى صُورةِ الإنسانِ ويَهلِكُ كُلُّه إلّا وجهَه، والعِياذُ باللّهِ تعالَى، فإنّ ذلك مِن أشنَعِ الكُفرِ.

(٣) كالقُرطبيّ في «تفسيره» (١٥/ ٢٢٨)، والفَخرِ الرّازي في «أساس التّقديس» (ص/ ٩٥)، والبَدرِ الزّركشيّ في «البُرهان» (٢/ ٨٦)، والسُّيوطيّ في «مُعتَرَك الأقران» (١/ ١١٤).

- المُرادُ مِن ذِكرِ الوجهِ على معنَى الذّاتِ التّأكِيدُ، ومِثلُ ذلكَ سائغٌ في اللُّغة مُستعمَلٌ؛ ألَا ترَى أنّهُ يُقالُ: «وَجهُ هذا الأمرِ كَذا وكَذا، ووَجهُ هذا الدّلِيل كَذا وكَذا» ويُرادُ مِن ذلكَ الأمرُ نَفسُه والدّلِيلُ نَفسُه.

فائدة: جاءَ في قولِ اللّهِ تعالَى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ نَوعٌ مِن البَلاغةِ[1] يُسمَّى «الافتِنانَ» وهو الإتيانُ في الكلامِ بفَنَّينِ مُختلِفَين كالجمعِ بَين التّمدُّحِ والتّعزِيةِ؛ فإنّه عزَّ وجلَّ عَزَّى الخَلقَ بفَنائِهم وتَمدَّح بالبَقاءِ بَعدِ فَنائِهم ووصَف نَفسَه بأنّه ذُو الجَلالِ وذُو الإكرام، كُلّ ذلكَ في عَشرةِ ألفاظٍ.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾﴾ أيُّها الجاحِدُون مِن الثَّقلَين.

فإنْ قِيل: أيُّ نِعمةٍ أفادَ عنها قَولُه تعالَى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾؟

فالجوابُ: أنّ انتِقالَ المُؤمنِ مِن البَلاءِ والهُمومِ في الدُّنيا إلى الرّاحةِ والسُّرورِ في الآخِرة نِعمةٌ وأيُّ نِعمةٍ مِن اللّهِ عزَّ وجلَّ يُنعِمُ بها على عِبادِه المؤمنِينَ.

ولمّا ذَكر عزَّ وجلَّ أنّه وَحدَه الّذي خلَقَ المخلُوقاتِ بَيَّن أنّ الجمِيعَ مُفتقِرُون إليه تعالَى فقال: ﴿يَسْأَلُهُ﴾ أي يَسألُ اللّهَ عزَّ وجلَّ ﴿مَن﴾

---

(١) الّذي يُوصَفُ بالبَلاغةِ وأسالِيبِها هو اللّفظُ المنزَّلُ الّذي يتلُوه المؤمنُون في المُصحَفِ والذي هو عِبارةٌ عن كلامِ اللّهِ الذاتِيّ الّذي هو صِفتُه، أمّا صِفةُ اللّهِ عزَّ وجلَّ فليست حَرفًا ولا صوتًا ولا مُؤلَّفةً مِن ألفاظٍ.

أي كُلُّ مَن ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ فمِنهُم مَن يَسألُونه حاجَاتِهم بلِسانِ المَقالِ، ومِنهُم مَن يَسألُونَه بلِسانِ الحَالِ لافتِقارِ الجميعِ إليهِ.

﴿كُلَّ يَوۡمٍ﴾ أيْ وَقتٍ ﴿هُوَ﴾ أي اللّهُ عزَّ وجلَّ ﴿هُوَ فِي شَأۡنٖ ٢٩﴾ يُمضِيه، فالوَقتُ عائدٌ على الأثَرِ والحادِث الّذي يُحدِثُه اللّهُ في خَلقِه، ووُجودُ اللّهِ عزَّ وجلَّ أزليٌّ أبديٌّ ليسَ زمانيًا، لأنّه سُبحانَه كان قبلَ الزَّمانِ والمَكانِ وهو خالِقُهما ولَم يَزلْ بعدَ إيجادِهما بلا مَكانٍ ولا زَمانٍ.

وخَيرُ ما يُفسَّرُ بِهِ ذلكَ ما رواهُ أبو الدَّرداءِ رضي اللّه عنه عن رسولِ اللّه ﷺ في تفسيرِ ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ قال: «**مِنْ شَأْنِه أَنْ يَغْفِرَ ذَنْبًا، وَيُفَرِّجَ كَرْبًا، وَيَرْفَعَ قَوْمًا، وَيَخْفِضَ ءاخَرِينَ**» رواهُ البُخاريّ وابنُ ماجهْ وابنُ حِبّانَ واللّفظُ له.

فمِن مَجموعِ ما سبَقَ يُقال في الآيةِ: معناهُ أنّ اللّهَ عزَّ وجلَّ يَتصَرَّف في مَلكُوته تَصرُّفًا يَظهَرُ أثَرُه كُلَّ يومٍ؛ مِن خَلقٍ ورِزقٍ وإحياءٍ وغيرِ ذلكَ مِمّا لا يُحصِيهِ إلّا اللّهُ تعالَى، ومع ذلكَ فإنّه لا يَشغَلُه عزَّ وجلَّ شَأْنٌ عن شَأْنٍ، بل يُنفِذُ بقُدرَتِه ما قدَّر أنْ يكُون ممّا سَبق في عِلمِه الأزليّ وَفقَ مَشيئتِه الأزليّة.

وقَد تفنَّنَ العُلماءُ والمفسِّرون والمتكلِّمُون والصُّوفيّةُ الصادِقُونَ مِن أهلِ السُّنّةِ في شَرحِ قولِه تعالَى: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ بأساليبَ أنيقةٍ، وعِباراتٍ رَشيقةٍ، ومن ذلكَ قولُ الإمامِ مُحيي الدّين بنُ عربِيّ الدِّمَشقيّ رضي اللّه عنه ونصُّه: «مَن أَدْرَك مِن نَفْسِه التّغيُّرَ والتّبديلَ في كُلِّ نَفَسٍ

فهو العالِمُ بقولِه تعالى: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾»[١]، ومعناهُ مَن أيقَنَ بأنّ اللّه عزَّ وجلَّ هو الّذي يَتصرَّف في الخَلقِ بِما يَشاءُ فيُحدِثُ ويُعدِمُ بقُدرَتِه الأزليّةِ في كُلِّ لحظةٍ ما شاءَ فهذا المُوقِنُ حقًّا العارِفُ بمعنَى الآيةِ.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٣٠﴾ أيُّها الجاحِدُون من الثَّقلَينِ مع أنّكم تُعايِنُون ما أنعمَ اللّهُ به علَيكمُ وعلى غيرِكُم مِن غيرِ وُجوبٍ عليهِ سُبحانَه.

لطيفة: روَى القُرطبيّ في «تفسيره» وغيرُه أنّ بعضَ الأُمراءِ سألَ وَزيرَه عن قولِ اللّهِ تعالى: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ فلَم يَعرِف الوزيرُ مَعناها واسْتَمْهَلَه إلى الغَدِ ثُمّ انصرَف كَئيبًا إلى مَنزِله، فرءَاهُ غُلامٌ أسوَدُ له فقال: يا مولايَ أخبِرني ما شأنُكَ لعلّ اللّهَ يُسهِّلَ علَى يدَيّ؟ فأخبَرَه فقال الغُلامُ: عُدْ إلى الأَمِير فأعلِمْهُ أنِّي أُفسِّرُها له، فدَعاه فقال الغُلامُ: أيُّها الأمِيرُ، شأنُه أنْ يُولِجَ اللَّيلَ في النَّهارِ، ويُولِجَ النَّهارَ في اللَّيلِ، ويُخرِجَ الحيَّ من المَيّتِ، ويُخرِجَ المَيّتَ مِن الحَيِّ، ويَشْفِيَ سَقِيمًا، ويُسْقِمَ سَلِيمًا، ويَبْتَلِيَ مُعافًى، ويُعافِيَ مُبْتَلًى، ويُعِزَّ ذَليلًا، ويُذِلَّ عَزِيزًا، ويُفقِرَ غَنِيًّا، ويُغْنِيَ فَقِيرًا، فقال لـه الأمِيرُ: فرَّجتَ عَنِّي فرَّجَ اللّهُ عَنكَ، ثُمّ أمَرَ الوزيرَ بخَلعِ ثِيابِ الوَزارةِ عنه وأنْ يَكسُوَها الغُلامَ، فقال الغُلامُ للوَزِيرِ: يا مَولايَ، هذا من شأنِ اللّهِ تعالَى[٢].

---

(١) ذكرَه ابنُ العمادِ الحنبَليّ في «شذَراتِ الذهَب» (٧/ ٣٤٢)، وعبد الرؤوف المُناويّ في «الكَواكِب الدُّرّيّة» (ص/ ٢٣).

(٢) أي هذا الحاصِلُ أثَرُ فِعلِ اللّهِ عزَّ وجلَّ فِيَّ.

فائـدة: رُوّينا في كِتـاب «الدُّعاء» للحـافظِ الطـبَرانيّ رحمه اللّٰه عن أبي عَبدِ اللّٰهِ الرَّقاشِيّ أنّ سُلَيمانَ بنَ عبدِ المَلِك أخافَ رجُلًا فطلَبَه لِيَقتُلَه، فهَـرَب الرّجُل مِن عِندِه، فجعَلَ رِجاله يَطلُبُونَه ولا يَظفَرُون بِه، فهَرَب الرّجُـل فجعَل لا يأتِي بَلْدةً إلّا قِيلَ له: قد كُنتَ تُطلَبُ ههنا، فلَم يَجِد أحَـدًا يُؤويه، فلمّا طـالَ علَيه الأمرُ وخَشِيَ أنْ لا يُفلِتَ من سُـلَيمانَ قال: ما أجِدُ شـيئًا خيرًا مِن أنْ أذهَبَ إلى بِلادٍ ليسَ له فيها سُـلطةٌ، فبَينَا هو في صَحراءَ ليسَ فيها شـجَرٌ ولا ماءٌ إذَا هو برَجُلٍ يُصلِّي، قال: فَخِفْتُـه وقلتُ: هذا يَطلُبُني، قال: ثُمّ رَجعتُ إلى نَفْسِي فقُلتُ: واللّٰهِ ما معَـه راحِلةٌ ولا دابّةٌ ولا قِرْبةٌ(١)، قال: فكأنِّي ءانَسْـتُ فقَصَدتُ نَحوَه، فلمّا صِرتُ بينَ كَتِفَيه رَكَع ثُمّ سـجَدَ وسـلَّم ثُمّ الْتَفَـتَ إلَيّ وأنا قائمٌ فقـال: «لعَلَّ هـذا الطّاغِيَ أخافَـكَ»، قُلتُ: أجَل يَرحَمُـكَ اللّٰهُ، قال: «فَما يَمنَعُكَ مِن السَّـبعِ»، قُلتُ: يَرحَمُكَ اللّٰهُ وما السَّـبْعُ؟ فقال: «قل: سُـبحانَ الواحِدِ الّذي ليسَ غيرَه إلٰهٌ، سُـبحانَ القَدِيـمِ الّذي لا بادِئَ لـه(٢)، سُـبحانَ الدّائِم الّذي لا نَفادَ له(٣)، سُـبحانَ الّذي كُلَّ يومٍ هو في شـأْنٍ، سُبحانَ الّذِي يُحْيِي ويُمِيتُ، سُـبحانَ الّذِي خَلَقَ ما يُرَى وما

---

(١) القِرْبةُ بكَسرِ القافِ وِعاءُ السّقاء.

(٢) أي مُوجودٌ أزَلًا فلا بدايةَ لِوُجوده.

(٣) أي لا نِهايةَ لِوُجُوده.

لا يُرى، سُبحانَ الّذي عَلِمَ كُلّ شيءٍ بغَيرِ تَعليمٍ[١]»، ثُمّ قال: «قُلْها»، قال: فقُلتُها وحَفِظتُها، فألْقَى اللّهُ عزَّ وجلَّ في قَلبِي الأَمْنَ ورجَعتُ مِن طَريقِي الّذي جِئتُ مِنه، فالْتَفتُّ فلَم أرَ الرّجُلَ، فقُلتُ: لآتِيَنَّ بابَ سُليمانَ بن عبدِ المَلِك، فقرَأتُ الكلماتِ السّبعَ ودخَلتُ عليه وإنّه لعَلَى فِراشِه، فما غدا أنْ رءانِي فاستَوَى على فِراشِه ثُمّ أوْمَأَ إلَيّ أنْ أدنُوَ حتّى قعَدتُ معَه علَى الفِراشِ، ثم قال: سَحَرْتَنِي؟! وساحِرٌ أيضًا مع ما بَلَغَني عَنكَ؟! فقلتُ: واللّهِ يا أميرَ المؤمنين ما أنا بساحِرٍ ولا أعرِفُ السّحَرَةَ ولا سَحَرْتُكَ، فأخبَرَه الرّجُل بقِصّتِه وخَوْفه وأمره كُلّه وما كانَ فيه، فقال له سُلَيمانُ: الخَضِرُ واللّهِ الّذي لا إله إلّا هُوَ علَّمَكَها، اكتُبوا له أمانًا وأحسِنُوا جائِزتَه واحمِلُوه إلى أَهلِه.

ولمّا عَدّدَ اللّهُ عزَّ وجلّ بعضَ نِعَمِه على عِبادِه وذَكّرَهُم بأنَّ الدُّنيا وما فيها لا يَدُوم بل هِيَ إلَى زوالٍ، نَبّهَهُم إلَى أنّ يومَ الحِسابِ ءاتٍ حَيثُ يَلقَى كلُّ عامِلٍ جزاءَ ما عَمِلَ، فقال تعالى: ﴿سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ﴾ أي سنُحاسِبُكم ﴿أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ٣١﴾ الإنسُ والجِنُّ فنُعاقِبُ أهلَ المَعاصِي، ونُثِيبُ أهلَ الطّاعةِ، واللّهُ عزَّ وجلَّ لا يَشغَلُه شأنٌ عن شأنٍ، قال الإمامُ البُخاريّ رضي اللّه عنه في «صحيحِه»: «لا يَشغَلُه شيءٌ عن شَيءٍ، وهو[٢] مَعروفٌ في كلامِ العرَب يُقالُ: «لأتفرَّغَنّ لكَ» وما به شُغلٌ».

---

(١) أي هو عالِمٌ لِكُلّ شيءٍ مِن غيرِ أنْ يحدُثَ لَهُ عِلمٌ.

(٢) أي التّعبيرُ بذلك.

وسُــمّيَ الثّقلانِ بذلك لأنّهما ثَقَــلُ الأرضِ أي محمُولُها أحياءً وأمواتًا، والنُّونُ في ﴿سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ﴾ للتّعظيم، واللّهُ عزَّ وجلَّ واحدٌ لا شَريكَ له.

والتّفسِــيرُ الّذي ذكَرناه في مَعنَى الآيةِ هو الّذي أطبَقَ علَيه المفسّرُون، وزادَ بعضُهم بأنّ في الآيةِ تَهدِيدًا ووعِيدًا بالغَينِ للمُكذِّبين، وإخبارًا من اللّهِ عزَّ وجلَّ بأنّه يُحاسِبُ العِبادَ.

تنبيــه: ذهَب بعــضُ المفسّرين إلى التّعبِير في تفسِــير ﴿سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ﴾ بقولِ: «ســنَقصِدُ إلى حِســابِكُم» وهي عِبارةٌ قبيحةٌ في هذا الموضِع، فلَو قِيل: «أرادَ اللّهُ حِســابَهُم» لَم يَكُن فيه محظورٌ لأنّه لا يُوهِم أنّ إرادة اللّهِ حِســابَهُم حَصلَتْ له وقتَ حَشرِ الثَّقلَينِ بخلافِ التّعبِيرِ بـ «قصَدَ» في حَقِّ اللّهِ فإنّه مُوهِمٌ ممنوعٌ استعمالُه.

ولذلكَ أصلٌ عندَ الأشاعرةِ في المنعِ لا سيّما عندَ الإمامِ أبي الحسَن رضي اللّه عنه، فقَد قالَ الإمامُ الأســتاذُ أبو بكر محمَّد بن الحسَن بنُ فُورَكَ في كتابه «مُجرَّدِ مَقالاتِ الشّــيخِ أبِي الحسَــنِ الأشعريّ» ما نصُّه: «وكذلك كان يَمنَــعُ[1] وَصفَهُ عزَّ وجلَّ بأنّه عازِمٌ أو قاصِدٌ وإنْ كان عَنَى[2] بذلِكَ معنَى الإرادةِ وقد وَصفَه بها على الحقِيقةِ[3]، لأجْلِ فَقْدِ التَّوقِيفِ فيه».

---

(١) يعني الإمامَ أبا الحسَنِ الأشعريَّ رضي اللّه عنه.

(٢) أي مُطلَقُ الوَصف.

(٣) أي وأرادَ الواصِفَ بذلكَ الصِّفةَ الواجبةَ للّهِ عزَّ وجلَّ.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾﴾ أيُّها الجاحِدُون مِن الثَّقلَين أَبِتحذِيرِ اللهِ لَكُم مِمّا يُؤدِّي إلى سُوءِ الحِسابِ[١].

وقد اعتَرَض بعضُ المُلحدِين على أنّ الآلاءَ إنْ كانتِ النِّعمَ فما سبَقَ الآيةَ الأخِيرةَ مِن الكلامِ تخويفٌ بالحِسابِ، قالوا: فلا يَدُلُّ ذلك على النِّعمةِ، والجوابُ أنّ مَنْ أنذَرك وخوَّفَك مِن عاقِبةِ ما تَصيرُ إلَيهِ فقد أَنعَمَ علَيك.

ثُمّ ذكَرَ اللهُ عزَّ وجلَّ أنّه لا مَفرَّ لأحَدٍ يومَ القِيامةِ مِن أنْ يُجازَى بِما عَمِلَ في الدُّنيا فقال تعالَى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ﴾ أي يا جَماعةَ ﴿ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ قد أحاطَتْ بِكُم الملائكةُ سَبعةَ صُفوفٍ في ذلكَ اليومِ، ﴿إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ أي لو كُنتُم تَستطِيعُون ﴿أَن تَنفُذُواْ﴾ أي تَخلُصوا مِمّا أنتُم فيه بأنْ تَسلُكوا بأبدانِكُم خارِجِينَ ﴿مِنۡ أَقۡطَارِ﴾ أي مِن نَواحِي ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ مِن غيرِ مانِعٍ يَمنَعُكُم ﴿فَٱنفُذُواْۚ﴾ أي فاخرُجُوا، وهو أمرُ تَعجِيزٍ، ﴿لَا تَنفُذُونَ﴾ أي لا أحَدَ يَستطِيعُ أنْ يَنفُذَ في ذلكَ اليوم مِن المحصُورِين ﴿إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴿٣٣﴾﴾ أي بِحُجّةٍ أي بإذْنٍ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ[٢]، فالأتقياءُ

---

(١) أي مُحاسَبةِ العبدِ بما يَسُوؤُه ويُزعِجُه، فإنّ الّذي يُشدَّدُ عليه الحِسابُ لا يكونُ في سُرورٍ وراحةٍ، وأمّا مُحاسَبةُ اللهِ العبدَ فليسَ شيئًا سَيِّئًا مِنه عزَّ وجلَّ.

(٢) قال شيخُنا رحمه الله: «معناهُ إنِ استطَعتُم أنْ تَخلُصوا مِمّا أنتُم فيه، هذا في بعضِ النّاسِ؛ بعضُ الناسِ يَكُونونَ مَحصُورِينَ مِن قِبَلِ الملائكةِ، أمّا الأتقياءُ فتحتَ ظِلِّ العَرشِ.=

يكُونونَ فِي ظِلِّ العَرشِ ءامِنون، وأمّا الكافِرُونَ فلا خُروجَ لهُم مِن أرضِ المحشَرِ إلّا إلى جهنَّمَ الّتي تَقذِفُهُم الملائكةُ فيها فيُحبَسُون داخلَها مُعذَّبين كُلَّ الوقتِ أنواعًا مِن العذابِ كثيرةً لا تَنقطِعُ لَحظةً ولا تَخِفُّ بُرهَةً إلى ما لا نِهايةَ له، ﴿فَكُبۡكِبُواْ فِيهَا هُمۡ وَٱلۡغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبۡلِيسَ أَجۡمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [سُورة الشُّعَراء: ٩٤-٩٥].

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾﴾ أيُّها الجاحِدُون مِن الثَّقلَينِ، أَبِتَحذِيرِ اللهِ لَكُم مِمّا يُوصِل إلى سُوءِ العاقِبَةِ.

ثُمّ أوعَدَ اللهُ عزَّ وجلَّ الكافرِينَ بعضَ ما يَكُون لَهُم مِن العَذابِ في الآخِرة فقال تعالَى: ﴿يُرۡسَلُ﴾ أي يُسلَّطُ ﴿عَلَيۡكُمَا﴾ أيُّها الجاحِدُون مِن الثَّقلَينِ حِينَ خُروجِكُم مِن القُبورِ وأنتُم تُساقُون إلى أرضِ المحشَرِ

= يومَ القِيامةِ ينزِلُ مَلائكةُ السّماءِ بِكَثرةٍ علَى خِلافِ عادَتِهم لأنّ ذلكَ اليومَ يومٌ عَظيمٌ، يَصُفُّون سبعةَ صُفوفٍ والإنسُ والجِنُّ في الوسَط، ولا أحدَ يَستطيعُ أنْ يَنفُذَ مِن ذلكَ المَكانِ لا بِطَريقِ البَرِّ ولا بطَريقِ الجَوّ، لا أحد يَستطيعُ أنْ يَنفُذَ إلاّ بِسُلطانٍ، والسُّلطانُ هو الحُجّة، بِحُجّةٍ مِن اللهِ أي مَن أَذِنَ اللهُ له.
هذه الآيةُ تَدُلّ علَى الّذين كَتَبَ اللهُ لَهُم الدَّرجاتِ العُلَى. وقَولُ مَن يَقُولُ: «السُّلطانُ هنا العِلمُ أي الدُّنيويّ» هذا جَهلٌ، هؤلاءِ حرَّفُوا تفسيرَ القرءانِ ماذَا يَعرِفُون مِن خَلْقِ اللهِ؟! السَّماءُ الدُّنيا لا يعرِفُونها، وصَلُوا إلى ما فَوقَنا إلى حَدٍّ ما. هؤلاء جُهّالُ الجُغرافِيّينَ ومَن يُصدِّقُهم يُؤوِّلُ ءاياتٍ قُرءانِيّةً على هَواهُ لِيُطبِقَها علَى الجُغرافيا، الآياتُ الّتي هِيَ صَرِيحَةٌ يُرِيدُون أنْ يَجعَلُوها تابِعةً للجُغرافيا».

﴿شُوَاظٌ﴾ أي لهبٌ ﴿مِّن نَّارٍ﴾ خالِصٌ لا دُخانَ له ﴿وَنُحَاسٌ﴾ أي دُخانٌ لا لهَبَ له، وقيل: هو نُحاسٌ مُذابٌ يُصبُّ مِن فوقِ رؤوسِهم، والشُّواظُ والنُّحاسُ المُرسَلانِ إمّا أنْ يُسلَّطَا علَيهم معًا مِن غيرِ امتِزاجِ أحَدِهما بالآخَرِ أو أنّه يُرسَلُ عليهِم هَذا مَرّةً وهَذا مرّةً ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ ۝٣٥﴾ أي فلا تَقدِرانِ علَى الامتِناعِ مِمّا يُرسَل علَيكُم مِن العَذابِ.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٦﴾ أيُّهـا الجاحِدُون مِن الثَّقلَينِ، أبإنْذارِ اللهِ لَكُم في الدُّنيا قَبلَ بُلوغِ الآخِرَةِ.

لطيفة: روَى أبو نُعَيمٍ في «الحِليَةِ» عـن بعضِ الزُهّادِ قال: بَينَما نحنُ نُصلِّي ذاتَ يومٍ الغَداةَ خَلفَ الإمامِ ومعَنـا عليُّ بنُ فُضَيلِ بنِ عِياضٍ فقـرأَ الإمامُ: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾، فلمّا سـلَّمَ الإمامُ قلتُ: يا عليُّ أما سَمِعتَ ما قرأَ الإمامُ؟ قال: ما هو؟ قلتُ: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ و﴿حُورٞ مَّقۡصُورَٰتٞ فِي ٱلۡخِيَامِ﴾، قال: شغَلَني ما كان قَبلَها: ﴿يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ فَلَا تَنتَصِرَانِ ۝٣٥﴾.

ولمّـا ذكَر اللهُ عزَّ وجلَّ بعضَ ما يكُون مِـن العَذابِ يومَ القِيامةِ أعقَبَه ببَعـضِ المَظاهِرِ العَجيبةِ الّتي تكونُ ذلكَ اليومَ قال تعالَى: ﴿فَإِذَا﴾ أي فَما أعظمَ الهَـولَ(١) ﴿ٱنشَقَّتِ﴾ أي انصدَعَتِ ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾ يومَ القِيامةِ

---

(١) والتعَجُّـبُ مِن صفاتِ العبدِ، وحقيقتُه مُسـتحيلةٌ عـلى اللهِ، وقد جاء في الحديـثِ المرفوعِ: «**عَجِبَ ربُّنَا عَـزَّ وجَلَّ مِنْ قَوْمٍ يُقَـادُونَ إلَى الجَنَّةِ في السَّلاسِـلِ**» معناه رحِمَهُم اللهُ، ومعنى كونِهم يُقادُون إلى الجنّةِ بالسَّلاسِلِ =

وانفَـكَّ بعضُهـا عـن بعـضٍ ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً﴾ أي مُحمَرّةً مِثـلَ الوَردِ ﴿كَالدِّهَانِ ٣٧﴾ أي كالجِلدِ الأحمرِ. وقال بعضُهم: معناهُ تصِيرُ حَمراءَ كالـوَردِ في اللّونِ، وكالدُّهـنِ(١) والفِضّةِ الذّائبةِ في الهَيئـةِ. وقيل: إنّها تَتلـوَّنُ ذلكَ اليومَ بألوانٍ؛ فتارةً تكون حَمراءَ وتـارةً صفراءَ وتارةً زَرقاءَ وتارةً خَضراءَ، وذلك مِن شِـدّة الأمرِ وهَولِ يومِ القِيامةِ العَظِيم، اللهمَّ فبِحُرمةِ القُرءانِ الكَريم نَجّنا مِن الهَولِ العَظِيم.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٣٨﴾ أيُّها الجاحِـدُون مِن الثّقلَينِ، أَبتَحذيرِ اللهِ لَكُم مِن الإقبالِ على الشَّرِّ وتخويفِهِ إيّاكُم بسُوءِ العاقبةِ.

فائدة: إذا كان يومُ القِيامةِ تكسَّرَتِ السّماواتُ بصَوتٍ مَسموعٍ وصارَ فيهـا فتَحاتٌ بعدَ أن كان فيها أبوابٌ، ثُمّ تكونُ الملائكةُ على أطرافِها وتُلَـفُّ لَفًّا فتُوضَعُ في الجنّةِ، قـال اللّه تعالى: ﴿وَانشَقَّتِ السَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ١٦ وَالْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا﴾، وقـال أيضـا ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَآءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ أي تُطوَى بقُـدرَةِ اللّهِ(٢) بعدَ تكسُّرِها كما تُطوَى

= أنّهم يُسـاقُون إلى الإسـلامِ أي كثيرٌ مِنهُم أوّلَ الأمرِ يُجبَرُون ثُمّ قُلُوبُهم تَثبُتُ علَى ذلكَ فيقوَى إيمانُهم.

(١) والدِّهانُ جمعُ دُهنٍ.

(٢) أمّا الطَّيُّ لَها بمعنَى مُباشَرةِ ذلكَ بالإمساكِ والمُماسّةِ ونحوِ ذلكَ فمُستحِيلٌ على اللّهِ عزَّ وجلَّ، فهو تعالَى يُوجِدُ ويُعدِمُ ما شـاءَ بقُدرَتِه الأزليّةِ لا كفِعلِ المخلُوقِينَ، وفي الآيةِ رَدٌّ على الوهّابيّةِ المتمسّـكِين بظاهِرِ المُتشـابِهاتِ، فإنّه على زَعمِهم تَنطوِي السّماءُ على اللّهِ، والعِياذُ باللّهِ.

الصّحيفةُ علَى مَكتُوبِها ثُمّ تُوضَع في الجنّة[(١)]، وقِيل: السِجِلُّ اسمُ مَلكٍ في السّماءِ يَكتُب أعمالَ العِبادِ إذَا رُفِعَت إلَيه.

ثُمّ ذكَرَ عزَّ وجلَّ ما يكونُ في بعضِ مَواقفِ القِيامةِ فقال: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ﴾ أي فيَومَ إذْ تتشَقّقُ السّماءُ وتحصلُ الأهوالُ يكونُ في المواقِفِ موقِفٌ ﴿لَّا يُسۡـَٔلُ﴾ فيه ﴿عَن ذَنۢبِهِۦٓ﴾ الّذي لَم يَتُبْ منه ﴿إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ ٣٩﴾[(٢)]، ويُسألُون في موقِفٍ ءاخَر.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٤٠﴾ أيُّها الجاحِدُون مِن الثَّقلَين، أبِتَخوِيفِ اللّهِ لَكُم مِن عاقِبةِ مُخالَفةِ أمرِه.

﴿يُعۡرَفُ﴾ أي يُميَّزُ ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ أي الكافِرُون يومَ القِيامةِ ﴿بِسِيمَٰهُمۡ﴾ أي بعَلاماتِهم كسَوادِ وجُوهِهم وزُرْقةِ عُيونِهم وغيرِهما، كما أنّ المتّقِينَ يُعرَفُون بسِيماهُم مِن بياضِ الوَجهِ وإشراقِه وتَبسُّمِه وغيرِ ذلكَ، ﴿فَيُؤۡخَذُ﴾ أي فتأخذُ الملائكةُ ﴿بِٱلنَّوَٰصِي﴾ أي بنَواصِي الكافرِين ﴿وَٱلۡأَقۡدَامِ ٤١﴾ أي وأقدامِهم، والنّاصيةُ مُقدَّمُ الرّأس. فتَسحَبُ الملائكةُ الكافرِينَ وتَجعَلُ أقدامَهُم مَضمُومةً إلى مُقدَّمِ رُؤوسِهم ثُمّ تكسِرُ ظُهورَهُم كما يُكسَر

(١) قال شيخُنا العلّامة الهرريّ رحمه الله: «لَم يَرِد في الحدِيث أنّ السّماوات تُوضَع في الجنّة ولكِنْ أقرَبُ ما يُقال إنّها تُطوَى وتُوضَعُ في الجنّة».

(٢) قال شيخُنا المجدِّد المفسّر الهرريّ رحمه الله: «في قِسمٍ مِن أقسامِ يومِ القِيامةِ لا يُسأَلُ أحَدٌ عَن ذَنبِه، يُترَكُون سُكوتًا قَدْرَ ألفِ سَنةٍ والشّمسُ واقفةٌ في الفَضاءِ إذْ لا شُروقَ ولا غُروبَ في ذلكَ اليومِ».

الحطَبُ وتُلقِيهم في النّار[١]. وقيل: معناهُ يُسحَبُ بَعضُهم بالنّواصِي وبَعضُهم بالأقدامِ ثُمّ يُلقون في النّارِ مُكبّين على وُجوهِهم.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٢﴾ أيُّها الجاحِدُون مِن الثّقلَينِ، أبإرْسالِ اللهِ المواعِظَ والزَّواجِرَ.

وتقُول الملائكةُ للكافِرينَ على سَبيل التّوبيخِ والتّأنِيب[٢] والتّحقِير والتّصغِير ﴿هَٰذِهِۦ﴾ النّارُ الّتي تُكبُّون فيها ﴿جَهَنَّمُ﴾ فإنّها حاضِرةٌ، وهي ﴿ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٤٣﴾ أي كُنتُم تُكذِّبُون بها أيُّها الكافِرُون، ولا جُرمَ أعظَم مِن الكُفرِ، فمِنهُم مَن كان يَنفِي وُجودَها أو يدّعِي أنّها ليسَتْ لمِثلِه، وها قَد انتهَى أمرُهم إلى أنّهُم دخلُوها وهُم ﴿يَطُوفُونَ﴾ أي يتقلّبُونَ في النّارِ ويَسعَونَ ﴿بَيْنَهَا﴾ أي بينَ عَذابِ الحرِيقِ فيها ﴿وَبَيْنَ حَمِيمٍ﴾ أي ماءٍ حارٍّ ﴿ءَانٍ ۝٤٤﴾ أي بالغٍ مِن الحَرارةِ الغايةَ، فإنّهُم إذا استَغاثُوا مِن شِدّة الحرِيقِ بشَرابٍ سُقُوا حمِيمًا فقطّعَ أمعاءَهم حتّى تخرُجَ مِن أدبارِهم، ثُمّ تُعادُ أمعاؤُهم في أجوافِهم ليكُونَ العَذابُ أبلَغَ،

(١) روَى البيهقيّ في «البَعث والنُّشُورِ» عن مُجاهِدٍ عن ابن عبّاسٍ رضي اللهُ عنهُم في قولِه تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ۝٤١﴾ قال: «يُجمَعُ بَينَ رأسِه ورِجلَيه ثُمّ يُقصَفُ كما يُقصَفُ الحطَبُ».

(٢) وهو المُبالَغةُ في التّوبِيخ والتّعنِيف، قالهُ الزّبِيديّ في «تاج العَرُوس» (٢/ ٣٢).

وتضرِبُهـم الملائكةُ بِمَقامِـعَ مِن حَدِيدٍ[(١)] فتَنفتِحُ رُؤوسُـهم فيُصَبُّ مِن فوقِها الحمِيمُ حتّى يَخلُص إلى أجوافِهم فيَسْـلُت ما فيها ويَنفُذُ مِن كعُوبِ أقدامِهم، نعُوذُ باللّهِ مِن عذابِ جهنَّمَ.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٤٥﴾ أيُّها الجاحِدُون مِن الثَّقلَين، أبِما يَنفَعُ فيه الإنذارُ مِن تَرغِيبٍ في خيرٍ وتَنفيرٍ مِن شَرٍّ.

لطيفة: رُوي عن يَزِيد الرَّقاشِيّ رضي اللّه عنـه أنّ بعضَ النّاسِ عاتبَه مِـن كَثرةِ بُكائِه مِن عَذابِ النّارِ، فقال يَزِيدُ: أمَا تَقرأُ ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾؟ أما تَقـرأُ: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾؟ فقرَأَ حتّى بَلَغَ ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ وجعَل يَجُولُ في الدّارِ ويَصرُخ ويَبكِي حتّى غُشِيَ علَيه[(٢)].

تنبيـه: يجِبُ الحذَر والتّحذير مِن قـولٍ يَلهَجُ بِه بعضُ الزّنادِقةِ مُدَّعِي الصُّوفيّة - والصّوفيّةُ الحقّةُ مِنهُم بَراءٌ - فإنّهم يزعمُون أنّ جهنّم مكانٌ للعِلاجِ كالمُستشفَى، ومِن أولئكَ الزّنادِقةِ المُكذِّبين للدِّين رجُلٌ يُدعَى «محمد أمين شَـيخُو» (ت ١٣٨٤ هـ) سَمّاه أتباعُه «العلّامةَ الإنسانِيَّ» ومـا هو في الحقيقةِ إلّا زِنديـقٌ مُكذِّبٌ للّهِ ورسـولِه ودِينِه، فإنّه يقول

(١) جمعُ مِقمَعٍ وهي مِطرَقةٌ يُضرَبُ بِها الكُفّارُ في النّارِ.
(٢) وقد صنَّف بعضُ العُلماءِ رسـائِلَ فِيمَن ماتَ مِن سَـماعِ القرءانِ ككتابِ «قَتلَى القُرءانِ» لأبي إسحاقَ الثَّعلَبِيّ.

في كتابِه المسـمَّى «تأويل جُزءِ تبارَك» (ص/ ٢٣٣): «﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ من رَحمتِه بهذا الإنسانِ لا يَترُكه حنانًا منه عليه لِيَعُود إلى الحقّ ويَسعَدَ، فاللهُ يقول: نحن لا نَترُكه سُدًى، حَضَّرنا له ﴿سَلَٰسِلَاْ﴾ يُقيِّدُ بها، سِلسلةً مِن عِلاجاتٍ في الدُّنيا والقَبرِ والآخرةِ، مِثلُ المَريضِ الّذي بالمُستشفَى، وكلُّ هذه العِلاجاتِ مِن رحمةِ اللهِ سبحانه وتعالَى»، نعوذُ باللهِ مِن هذا الكُفرِ الصّريحِ[1].

ولمّا عـدَّدَ اللهُ عزَّ وجلَّ جُملةً كثـيرةً مِن النِّعَم الدُّنيويّـةِ الّتي أنعَمَ بها

(١) ولمحمّد أمِين شيخُو هذا انحِرافاتٌ كثيرةٌ وكُفريّاتٌ عَجيبةٌ؛ منها نَفيُه أن يكـونَ اللهُ عالِمًا بالشيء قبلَ حدُوثِه، وقولُه بأنّ اللهَ شـاءَ السّـعادةَ لجَميعِ الخَلقِ ولكنّ بعضَهُم خالَفُوه فصارُوا أشـقياءَ كفَرةً، وهذا تكذيبٌ صريحٌ للقُرءان والحديث والإجماع. وقَد نشَر دَعوَته مِن بَعدِه شـخصٌ يُدعَى «عبدَ الهـادي الباني» (ت ١٤٣٣ هـ) ومحمّد راتب النابلسيّ وكِلاهُما مِن المعتزِلة ولهما كُفريّاتٌ زائدةٌ على أعاجِيبِ شَـيخِهما، فإنّ البـانيَ كَفَّر المرأةَ الّتي تَكشِـفُ وَجهَها أمامَ الأجانِب، نعوذُ باللهِ مِن مَسـخِ القُلوبِ، وقال أيضًا: «رُوحوا اغسِـلُوا أيدِيَكُـم مِن عَقيدةِ القَضـاءِ والقدَرِ الّتي عَقيـدةُ اليَهُودِ والنَّصارَى أحسَنُ مِنهَا»، نعوذُ باللهِ مِن هذا الكُفرِ المُبِين، وأمّا النابلسيّ = =المعتزِليّ فضلالاتُه أوسعُ مِن أن نَحصُرَها في حاشيةٍ، لذا صنَّفْنا في الرَّدِّ عليه رسـالةً أسـمَيناها «**الرَّدّ العِلميّ على ضَلالاتِ محمّد راتِب النّابُلسيّ**». وقَد قال بنَحوِ مَقالةِ محمد أمِين شيخُو بعضُ الزَّنادِقة فقالوا: «جهنَّمُ مَكانُ طَبابةٍ وليسَ مَكانَ تَعذِيبٍ» وهذا كُفرٌ، وحرَّفُوا تفسِـيرَ قولِ الله تعالَى: ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ فقالوا: معناهُ شديدُ التعقُّبِ، وهذا مُخالِفٌ لإجماعِ المفسّرين.

عـلى الثَّقلَين ذكَر نِعمَه الأُخرَويّة على المؤمنين، فبدأ بذِكر ما للأتقِياءِ خاصّةً فقالَ تعالَى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ﴾ أي الوُقوفَ لِحساب ﴿رَبِّهِۦ﴾ يومَ القِيامةِ ﴿جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ جزاءً مِن اللهِ، وذلكَ بأنْ عَمِلَ هذا العبدُ في الدُّنيا بمُقتضَى خَشيتِه مِن اللهِ عزَّ وجلَّ بأداءِ الواجباتِ وتَركِ المُحرَّماتِ سِرًّا وعلانيةً فإنّ له جنّةً مِن ذهَبٍ وجَنّةً مِن فِضّةٍ، فيكونُ للمُتّقي في الجنّةِ ضِعفُ ما لِمَن دُونَه، جنّتانِ له خاصّةً، وهِي جِنانٌ كثيرةٌ.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾﴾ أيُّهـا الجاحِدُون مِـن الثَّقلَينِ، أبإثابةِ اللهِ الطّائعَ بالنّعيم في الآخرة.

فليسَ معنَى ﴿خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ أنّ اللهَ عزَّ وجلَّ يكونُ في مَكانٍ يومَ القِيامةِ والعبدُ عِندَه، حاشا لله، بل معناها خَوفُ العَبدِ من اللهِ وخشيَتُه حِسابَه، فـاللّهُ تعالَى موجودٌ أزلًا وأبدًا بلا كيفٍ ولا مَكانٍ ولا جِهةٍ، هذا اعتقادُ المُسلمِينَ قاطِبةً، ومَن شَذَّ فقد شَذَّ إلى النّارِ.

وقد شُـهر عِندَ العُلماءِ التّعبيرُ عن حِسابِ يومِ القِيامةِ بـ «الوُقوفِ بَين يَدي اللهِ»، ومعناه وُقوفُ العبدِ للمُحاسَبةِ يومَ القِيامةِ، وليسَ المعنَى أنّ اللّهَ تعالَى يكُون في موقـفِ القِيامةِ أو غيرِه من الأماكِنِ ولا أنّ له يَدَينِ بمعنَى الأعضاءِ تُحاصِرُ العبدَ وتُحيطُه، تقدَّسَ اللهُ عن أوصافِ الخَلقِ.

وقد أُثِر في تفســيرِ هذه الآيةِ الكريمةِ عن السّــلَفِ عِباراتٌ كثيرةٌ؛ منها ما رواهُ البيهقيّ في «البَعثِ والنُّشور» عن ابنِ عبّاسٍ رضي اللهُ عنهُما أنّه قال في قولِه تعالى ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾: «يقُول: خاف ثُمّ اتّقى،

فالخائِفُ مَن لَزِمَ طاعةَ اللّهِ وتَرَك مَعصِيَتَه».

وروَى أبـو نُعيمٍ في «صِفة الجنّة» عن الضحّاكِ رضي اللّه عنه قال: «مَن خاف اللّهَ تعالَى في السِّرّ والعَلانيةِ وراقبَ اللّهَ بعمَله كُلّه[١]، فما كانَ من خَـيرٍ أرْضاهُ إلى اللّهِ عزَّ وجلَّ لا يُحِبُّ أنْ يُطْلِعَ عليه أحَدًا[٢]، وما عَرَض مِن رُكوبِ مُحرَّمٍ ترَكه مِن خَشيةِ اللّهِ عزَّ وجلَّ فلَهُ جنّتانِ».

روَى البيهقيّ في «شُعَب الإيمانِ» عن الحسَن البِصريّ رضي اللّه عنه قال: كان شـابٌّ علَى عَهدِ عُمـرَ بنِ الخطّابِ رضي اللّه عنه يُلازِمُ المَسـجِدَ والعِبادةَ، فعَشِـقَته جاريةٌ فأتَتْهُ في خَلوةٍ فكلَّمَته، فحَدَّثَ نَفسَه بذلك فشَهَقَ شَهْقةً فغُشِيَ علَيه، فجاءَ عَمٌّ له فحمَلَه إلى بيتِه، فلَمّا أفاقَ قال: يـا عَمّ انطَلِقْ إلى عُمرَ فأَقرِئْه مِنّي السّـلامَ وقُل لـه: ما جزاءُ مَن خافَ مَقامَ رَبِّه؟ فانطَلَقَ عَمُّه فأخبَرَ عُمرَ وقد شَهقَ الفتَى شَهْقةً أُخرَى فماتَ منهـا، فوقَفَ علَيـه عمَرُ فقال: «لكَ جنّتانِ، لـكَ جنّتانِ». وفي روايةٍ عِنـدَ ابنِ الجـوزيّ في «ذَمّ الهوَى» أنّ عُمـرَ رضي اللّه عنه وقفَ عِندَ قَبرِ الفتَى فَنادَى: «يا فُلانُ، ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾»، فأجابَه الفتَى مِن داخِلِ القَبرِ: قد أَعْطانِيهِما رَبِّي يا عُمَر.

ثُمّ وصـفَ اللّهُ عزَّ وجلَّ الجنّتَـينِ بذِكرِ بعضِ ما فِيهمـا فقال تعالَى:

---

(١) المراقَبةُ للّهِ معناها استِدامةُ الخَوفِ مِن اللّهِ تَعالَى بالقَلبِ وذلكَ بتَجنُّبِ ما حَرَّمَه اللّهُ وتجَنُّبِ الغَفلةِ عن أداءِ ما أوجَبَه عزَّ وجلَّ.

(٢) أي فِيما لا مَصلَحةَ مِن إظهارِه.

﴿ذَوَاتَآ﴾ أي ولِمَـن خَشِيَ اللّهَ عزَّ وجلَّ فاتّقاهُ جـزاءٌ في الآخِرةِ جنّتانِ ذَواتَا أي صاحِبتَا ﴿أَفۡنَانٖ ٤٨﴾ أي أغْصانٍ مُسـتقيمةٍ طُولًا، مِنها تمتَدُّ الظِّلال، وهي مُورِقةٌ مُثمِرةٌ، والأفنانُ جمعُ فنَنٍ.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٤٩﴾ أيُّهـا الجاحِدُون مِن الثَّقلَينِ، أبنَعِيمٍ أعدَّهُ اللّهُ عزَّ وجلَّ للطّائعِينَ في الآخِرة.

ثُمّ إنّه ليسَ في أشـجارِ الجنّةِ ما يَيْبَسُ أو يَنكسِرُ بل هي أشـجارٌ باقيةٌ إلى ما لا نِهايةَ له، لا يَفسُـد لَونُها بل ناضِرةٌ حسَنةُ المَنظرِ على الدّوامِ، وكُلُّ شـجَرةٍ في الجنّةِ سـاقُها مِن ذهَب؛ فقد روَى الترمذيُّ في «سُنَنِه» عن أبي هُريرةَ رضي اللّه عنه أنّ رسولَ اللّه ﷺ قال: «**ما في الجَنَّةِ شَجرَةٌ إلّا وَساقُها مِنْ ذَهَبٍ**».

وروَى الحاكِـمُ في «المُسـتدرَك» عـن ابـنِ عبّـاسٍ رضي اللّه عنهُمـا قـال: «نَخـلُ الجنّـةِ جُذوعُها زُمُـرُّدٌ أخـضَرُ[١]، وكَرانيفُهـا[٢] ذهَبٌ أحمَرُ، وَسَـعَفُها[٣] كِسْـوةٌ لأهلِ الجنّةِ[٤]، مِنهـا مُقطَّعاتُهم[٥] وحُلَلُهم،

(١) ولا يُعـارِضُ ذلكَ كـونَ أصلِ جِذعِها ذهبٌ جمعًا بـينَ هذا وبينَ حديثِ التّرمذيّ السّابق.

(٢) جمع كِرْنافةٍ وهي أصلُ السَّعفةِ العريضُ المُلتصِقُ بجُذوعِ النَّخلة.

(٣) أي أغصانُها.

(٤) أي مِن جُملةِ ما لَهم مِن الثِّياب.

(٥) المُقطَّعاتُ بُرودٌ عليها وَشْيٌ مُقطَّعٌ، والوَشْيُ النَّقشُ والعَلامةُ.

وثَمرُها أَمْثالُ القِلالِ[١] أو الدِّلاءِ[٢]، أشَدُّ بَياضًا مِنَ اللَّبَنِ، وأَحلى مِنَ العَسَلِ، وأَلْيَن مِن الزُّبْدِ، ولَيسَ لَها عَجْمٌ[٣]»[٤]، وبنَحوِه أخرجَه ابنُ أبي شَيبةَ مِن كلامِ الحسَنِ البصريّ رضي اللَّه عنه.

وقَد روَى ابنُ حِبّانَ في «صحِيحِه» وأحمدُ في «المُسنَد» وغيرُهما أنّ سيّدَنا إبراهيمُ ﷺ قال لسيّدنا محمّد ﷺ ليلةَ المِعراجِ: «**يا مُحَمَّدُ مُرْ أُمَّتَكَ أَنْ يُكْثِرُوا غِراسَ الْجَنَّةِ، فَإِنَّ تُرْبَتَها طَيِّبَةٌ، وَأَرْضَها واسِعَةٌ**»، فَقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِإبْراهِيمَ ﷺ: «**وَما غِراسُ الْجَنَّةِ؟**» قالَ: «**لا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلّا بِاللَّهِ**».

﴿فِيهِمَا﴾ أي في الجنّتَينِ المذكورتَينِ ﴿عَيْنَانِ﴾ أي عَينا ماءٍ زُلالٍ[٥] ﴿تَجْرِيَانِ ۝٥٠﴾ خِلالَهُما، رُوي عن الحسَنِ البصريّ رضي اللَّه عنه أنّ إحداهُما تُسمَّى السَّلْسبِيلَ[٦] والأُخرى التَّسنِيمَ[٧].

---

(١) جَمع قُلّةٍ وهي الجَرّة العظِيمةُ.

(٢) جَمع دَلوٍ يعنِي العظِيمَ مِنه.

(٣) جَمع عَجمةٍ أي النَّواةُ.

(٤) قال الحاكم: «هذا حديثٌ صحيحٌ على شَرطِ مُسلِمٍ».

(٥) أي عَذبٍ.

(٦) قال اللَّهُ تعالى: ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ [سُورة الإنسان: ١٨].

(٧) قال اللَّهُ تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ۝٢٧ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [سُورة المطفّفِين: ٢٧-٢٨].

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥١﴾ أيُّهـا الجاحِدُون مِن الثَّقلَين، أبنَعِيمِ اللَّه عزَّ وجلَّ للطّائعِينَ في الآخِرة.

﴿فِيهِمَا﴾ أي في الجنّتَـينِ المذكُورتَـين ﴿مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ۝٥٢﴾ أي نَوعانِ، وكلاهُما حُلوٌ يُستلَذُّ به.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٣﴾ أيُّها الجاحِدُون مِن الثَّقلَين، أَبِما أَنعَمَ اللَّهُ بِه علَى أهلِ طاعتِه في الآخِرة.

ولمّا ذكَرَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ بعضَ طَعامِ أَهلِ الجنّتَينِ أعقبَه بذِكرِ فِراشِهم فقال تعالَى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ أي يتنعَّمُون مُتّكئِينَ[1] بهيئةِ المُتمكِّنِ المُسـترِيح ﴿عَلَىٰ فُرُشٍ﴾ أي فُرُشِـهم جمعِ فِراشٍ وهو ما يُفرَشُ ويُبسَط ﴿بَطَآئِنُهَا﴾ جمـعِ بِطانةٍ والمرادُ مـا يُواجِهُ الأَرضَ مِـن الفِراشِ ﴿مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ أي حَريرٍ غَليظٍ، وإذا كانـتِ البَطائِنُ كذلكَ فما ظنُّكم بالظّواهِر، حُكي عن ابن مَسعودٍ رضي اللَّه عنه.

وقال بعضُ المفسّرين: أمّا أهـلُ الدُّنيا فلا يَجعلُون البطائِنَ كالظّواهِرِ لأنّ غرَضَهم إظهارُ الزِّينة، والبَطائنُ لا تظهَرُ، أمّا في الآخِرة فكُلُّ ما في الجنّةِ لتنعيمِ أهلِها فتكون البَطائِنُ والظّواهِرُ مُزَيَّنةً أحسنَ الزِّينةِ.

---

(١) الاتّكاءُ التّحامُل علَى الشيء، واتّكاءُ أهلِ الجنّةِ عن راحةِ جِسـمٍ وخلُوّ قلبٍ مِن المنغّصات، وذلك باعِثٌ على الجلوسِ جلسـةَ المتنعِّمِ الّذي لا يَخشَى زَوالَ نَعيمِه.

﴿وَجَنَى﴾ أي وما يُجنَى(١) مِن ثمرِ ﴿ٱلْجَنَّتَيْنِ﴾ المذكُورتَين ﴿دَانٍ ﴿٥٤﴾﴾ أي قَريبٌ يَنالُه القائِمُ والقاعِدُ والمُتّكِئُ ولا يَرُدُّ يدَهُ عن الثمرِ شَوكٌ أو مانِعٌ، فإنّه إذا اشتهَى شيئًا مِن ثَمرِها تَدلَّى الغُصنُ بثمَرِه إليه فيأكُل مِنهُ ما يَشاءُ مِن غيرِ عَناءٍ أو كَدٍّ، فلا يَنتظِرُ موسمًا ولا نَوبَةً، ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [سُورة الواقعة: ٣٣]، فإذا أَكَلَ عادَ الغُصنُ كما كان ويُنبتُ اللهُ مَكانَ الثّمرةِ المُجتَناةِ غيرَها، وكذلكَ حالُ شجَرِ الجنّةِ كُلِّه.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾﴾ أيُّها الجاحِدُون مِن الثَّقلَينِ، أبِهذه النِّعَمِ الّتي تكونُ للطّائِعِ في الجنّة.

ثُم ذَكَر اللهُ عزَّ وجلَّ بعضَ أوصافِ النّساءِ اللّائي يكُنّ في الجنّةِ للطّائعِينَ فقال تعالَى ﴿فِيهِنَّ﴾(٢) أي ولِصاحبِ الجنّتَينِ المذكُورتَينِ فِيهما نِساءٌ ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ أي غاضّاتُ الأَعيُنِ قَصَرْنَ طَرْفَهُنّ على أزواجِهِنّ فَلا يَنظُرْنَ إلى غَيرِهِم ولا يُرِدْنَ سِواهُم.

ومِن صِفةِ أولئكَ النِّسوةِ أنّه ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾ أي لَم يُجامِعهُنّ ﴿إِنسٌ قَبْلَهُمْ﴾ أي قَبلَ هؤلاءِ الطّائعِينَ الّذين كُنَّ لَهم ﴿وَلَا﴾ جامَعهُنّ مِن قَبلُ ﴿جَآنٌّ ﴿٥٦﴾﴾ أيضًا، وفي الآيةِ دليلٌ على أنّ الجِنَّ يُجامِعُ كما يُجامِعُ الإنسُ.

---

(١) أي يُتَناوَلُ مِن الشّجَرِ.

(٢) قال الزّجّاجُ: «وقال «فِيهِنّ» ولَم يَقُل «فِيهِما» لأنّه عنَى الجنّتَينِ وما أعدَّ لصاحبِهِما مِن النّعِيمِ».

واختلَف أهلُ التّفسيرِ في المرادِ بالنّسوة هُنا؛ فقال بعضُهم: هُنّ الحُورُ لَمْ يَطمِثْهُنّ أحَدٌ مُنذُ خُلقنَ، وقال غيرُهم: هُنّ زوجاتُهم المؤمناتُ مِن نساءِ الدُّنيا لَمْ يَقربْهُنّ بعدَ إنشائهِنّ خَلْقًا ءاخرَ أحَدٌ.

فائدة: استدَلَّ بعضُ العُلماءِ بهذه الآيةِ على أنّ الجِنّيَّ المؤمِنَ يَدخلُ الجنّة ويُنعَّمُ فيها كالإنسيّ، كُلٌّ على حسَبِ درَجتِه، خِلافًا للقَولِ الباطِلِ الّذي ذهبَ إليه بعضُهم مِن أنّ مآلَ الجِنّ المؤمِنينَ بعدَ الحِسابِ إلى الفَناءِ وأنّهم لا يَدخلُون الجنّة.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٧﴾ أيُّها الجاحِدُون من الثَّقلَين، أبِهذه النِّعَمِ الّتي أعدَّها اللّهُ للطّائِعينَ في الجنّة.

ثُمّ ذكَرَ اللّهُ عزَّ وجلَّ بعضَ أوصافِ تِلكَ النِّسوةِ فقالَ تعالَى: ﴿كَأَنَّهُنَّ﴾ أي كأنّ هؤلاءِ القاصِراتِ الطَّرفِ اللّواتي هُنّ في هاتَينِ الجنّتَينِ في صَفائِهِنّ ﴿ٱلْيَاقُوتُ﴾ الّذي يُرى السِّلكُ الّذي فِيه مِن وَرائِه إذا استُضِيءَ(١)، فكذلكَ يُرَى مُخُّ عَظمِ سُوقِهِنّ(٢)

---

(١) أي سُلِّطَ عليه ضوءٌ.

(٢) السُّوقُ جمعُ ساقٍ، والمعنى أنّ الواحدةَ مِنهُنّ مِن شِدّةِ صَفاءِ لحمِ ساقَيها يُرَى ما في جوفِ عَظمِها مِن سائلٍ شَبيهٍ بالدُّهن، وهذا بيانٌ لشِدّة صَفاءِ جِلدِها ولَونِها.
قال شيخُنا رحمه اللّه: «لا يَشمئزُّ النّاظرُ إليها، كأنّها جوهَرةٌ، كلُّ جِسمِها كأنّه جوهَرةٌ».

مِن وَراءِ أجسامِهنّ[١]، ﴿وَٱلْمَرْجَانُ ۝٥٨﴾ أي وكأنّهنّ في حُسنهنّ وشِدّةِ بَياضِهنّ المَرجانُ. والياقوتُ حجرٌ معروفٌ، والمَرجانُ صِغارُ اللُّؤلؤِ وهي أشَدُّ بَياضًا وضِياءً مِن الكِبارِ بكَثيرٍ.

وقد بيّن اللّهُ عزّ وجلّ في الآياتِ السّابقةِ في وصفِ تلكَ النّسوةِ ثلاثةَ أُمورٍ: عِفّتَهُنّ وخُلوصَهُنّ عن الرَّغبةِ بغَيرِ أزواجِهِنّ، وجَعلُ اللّهِ لهُنّ خالِصاتٍ لأزواجِهِنّ لَم يَكُنّ مِن قبلُ لِغَيرِهم ولا يَكُنّ بعدُ إلّا لهُم، وشِدَّةَ جَمالِهِنّ المُنبِئِ عنه بُلوغُ صَفاءِ لَونِهِنّ الغايةَ[٢].

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٩﴾ أيُّها الجاحِدُون مِن الثَّقلَينِ، أبِما أنعَمَ اللّهُ على المؤمنِينَ مِن نِساءٍ يَستمتِعنَ بهِنّ في الجنّةِ[٣].

---

(١) روى الترمذيُّ في «سُنَنِه» عن عبدِ اللّهِ بنِ مسعودٍ رضي اللّهُ عنه عنِ النّبيِّ ﷺ قال: «**إنَّ المَرأةَ مِنْ نِساءِ أهْلِ الجَنَّةِ لَيُرى بَياضُ ساقِها مِن وَراءِ سَبْعينَ حُلَّةً حَتَّى يُرَى مُخُّها، وَذلِكَ بِأنَّ اللّهَ يَقُولُ: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾، فَأمّا الياقُوتُ فإنَّهُ حَجَرٌ لَوْ أدْخَلْتَ فِيهِ سِلْكًا ثُمَّ اسْتَصْفَيْتَهُ لأُرِيتَهُ مِن وَرائِهِ**»، ورُوِي عن ابنِ مسعودٍ موقوفًا وهو أصَحُّ كما نصَّ على ذلك عددٌ مِن الحُفّاظِ كالزّينِ العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (٦/ ٢٧٧٣).

(٢) روى البُخاريّ في «صحيحِه» عن أنسٍ رضي اللّهُ عنه أنّ رسولَ اللّهِ ﷺ قال: «**وَلَوْ أنَّ امْرَأةً مِنْ أهْلِ الجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إلَى أهْلِ الأَرْضِ لَأَضاءَتْ ما بَيْنَهُما، وَلَمَلأَتْهُ رِيحًا، وَلَنَصِيفُها عَلَى رَأْسِها خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيا وَما فِيها**».

(٣) وقد أنكرَ بعضُ الملاحِدةِ والزّنادِقةِ وجودَ جِماعٍ حقيقيٍّ في الجنّةِ وحُورٍ عِينٍ، ومِن أولئكَ المدعو «علي منصور الكيّالي» الّذي عُرِف عنه =

فائدة: إنّ للمؤمنِ في الجنّةِ جِماعًا حقيقيًّا لكن لا إنزالَ لِمَنِيّ ونحوه هُنالِكَ ولا يحصُل مِن الجِماعِ في الجنّةِ تعَبٌ أو فُتورٌ كحالِ الدُّنيا، وكُلَّما أتَى الرَّجُل امرأتَــه فيها بجِماعٍ وجدَها عَذراءَ، ومع ذلكَ فلا يكونُ جِماعُها بالتَّدمِّي أو الألَمِ، لأنّ الجنّةَ دارُ النّعِيم والرّاحةِ والتمتُّعِ بما أعدَّ اللهُ لأهلِها فيها.

وقَد روّينا في «مُســنَدِ أبي يَعلَى» «والبَعثِ» للبيهقيّ عن ابنِ عبّاسٍ رضي اللهُ عنهُمــا قال: قِيلَ: يا رَســولَ اللهِ، أنُفْضِي إلَى نِســائِنا في الجنّةِ كما نُفْـضِي إليهِنّ في الدُّنيا؟ فقــال ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّــدٍ بِيَدِهِ**[1] **إِنَّ الرَّجُلَ لَيُفْضِي بِالْغَدَاةِ الْوَاحِدَةِ إِلَى مِائَةِ عَذْرَاءَ**»[2].

= مِــن الكُفرِيّاتِ والضّلالاتِ ما يَقشــعِرُّ منه جُلودُ الّذين ءامَنُوا؛ مِن ذلكَ تَشــبيهُه اللهَ تعــالَى بالنُورِ الكثِيــفِ، زاعِمًا بأنّ الدليلَ عــلَى ذلك قول اللهِ تعالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾، فيقولُ الكيّالي: «والصّمَدُ هو ما لا جوفَ له، فلمّا كان نُورًا على نُورٍ عرَفْنا أنّ اللهَ نُورٌ متكاثِفٌ مائةً في المائةِ مِن غيرِ فَراغٍ بينَ طَبقــاتِ النُّورِ»، والعِياذُ بــاللهِ مِن هذا الكُفرِ الشّــنيع. ومِن ضَلالاتِ هذا الرّجُلِ أيضًا إنكارُه عذابَ القَبرِ وتحريفُه تفسِيرَ الآياتِ في ذلكَ، وقد مَنَّ اللهُ علَينا بأنْ أفرَدْنا رِســالةً ردَدْنا فيها علَيه وعلى أمثالِه مع بَسطِ أدِلّةِ المُسلمينَ في هذه القضيّة، وأسمَيناها «**شَرْح الصّدرِ في إثباتِ عذابِ القَبر**»، فلتُنظَر.

(١) أي أَحلفُ باللهِ الّذي نفسِي تحتَ مَشــيئَته وتَصرُّفه، واللهُ مُنزَّهٌ عن الجارِحةِ والعُضوِ.

(٢) قال الحافظ البُوصِيريّ في «إتحاف الخِيَرة» (٨/ ٢٣٧): «رواه أبو يَعلَى بسنَدٍ ضَعِيــفٍ لِضَعف زَيدٍ العَمّيّ، وله شــاهِدٌ مِن حديــثِ أبي هُريرةَ رواه =

ورُوِّينا أيضًا في «صحيح مُسلِمٍ» عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه أنّ رسولَ اللَّه ﷺ قال: «إنَّ أَوَّلَ زُمرَةٍ تَدخُلُ الْجنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمرِ لَيلَةَ الْبَدْرِ، والَّتي تَليهـا عَلَى أَضوَإِ كَوكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّماءِ، لِكُلِّ امْـرِئٍ مِنْهُمْ زَوْجَتانِ اثْنَتانِ يُرَى مُخُّ سُوقِهِما مِنْ وَراءِ اللَّحْمِ[(١)]، وما فِي الْجَنَّةِ أَعْزَبُ».

ثُـمّ بيَّن اللَّهُ عزَّ وجلّ بأيِّ سـببٍ جُوزِي المتّقُـون بالنّعِيمِ العظِيمِ في الجنّة فقال تعالى: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ أي هل ثوابُ مَن خَشِيَ اللَّهَ فأحسَنَ العمَلَ في الدُّنيا ﴿إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ٦٠﴾ أي إلّا أنْ يُحسِنَ اللَّهُ إليهِ في الآخِرة بأنْ يُجازِيَه على حُسنِ صنيعِه في الدُّنيا.

قال الحافظُ أبو الفرَجِ عبدُ الرَّحمنِ بنُ الجوزيّ رحمه اللَّه: «فالإِحسانُ من العَبدِ في الدُّنيا قولُ لا إله إلَّا اللَّهُ[(٢)]، والإحسانُ من اللَّهِ في الآخِرة الجنّةُ، فمَن أحسَـنَ الرِّضَى عن اللَّهِ[(٣)] جَلَّ ثَناؤه جازاهُ اللَّهُ بالرِّضَى عنه، فقابَلَ الرِّضَى بالرِّضَى، وهذا غايةُ الجَزاءِ ونِهايةُ العَطاءِ».

ورُوِّينـا في «الأدَب المُفـرَد» للبُخـاريّ عن الإمام محمّـدِ بنِ عليّ ابن

= البَزّارُ بإسنادٍ صحيحٍ».

(١) سبَق شرحُه قريبًا.

(٢) أي مع «محمّدٌ رَسـولُ اللَّهِ» واعتِقادِ معناهُما وتجنُّبِ مـا يُضادُّهما أو يُضادُّ إحداهُما.

(٣) بمعنَى التّسـليم له وتركِ الاعتِراضِ علَيه، وذلـكَ واجِبٌ على كُلِّ مُكلَّفٍ، فمَنِ اعتَرَضَ على اللَّهِ عزَّ وجلّ فقد كفَر، والعِياذُ باللَّه.

الحنفيّة رضي الله عنهم أنّه قال عِند الآيةِ ﴿ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴾: «هي مُسْجلةٌ[1] لِلبَرّ والفاجرِ» فمعناهُ أنّ الكافِرَ يجزى بإحسانِه في الدُّنيا لأنّه ليسَ له ثوابٌ ولا حُسنَى في الآخِرة، ودليلُ هذا الأخيرِ قولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ﴾ [سورة الفُرقان: ٢٣]، والدّليلُ على أنّ الكافِرَ يجزى في الدُّنيا على أعمالِ الخيرِ الّتي يعمَلُها ما جاء مِن قولِ رسولِ الله ﷺ: «**وأمّا الكافِرُ فيُطعَمُ بِحَسَناتِهِ في الدُّنيا**[2]**، حتّى إذا أفضى إلى الآخِرةِ لم يكُنْ لهُ حسنةٌ يُعطَى بها خيرًا**»، وأمّا المؤمِنُ فإنّه يُجزى في الآخِرة الحُسنى مهمَا قاسَى قبلَ ذلك.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٦١ ﴾ أيُّها الجاحِدُون من الثَّقلَين، أبإنعامِ اللهِ عليكُم في الدُّنيا وإحسانِه إليكم.

ولمّا ذكرَ اللهُ عزَّ وجلَّ الجنّتَين اللّتَين أُعِدّتا للمُتّقين الّذين يخشون ربَّهُم، أَعقَبَ ذلك بذِكر ما يكونُ لِمَن هم دُونهُم في الطّبَقةِ مِن الّذين يخشون

---

(١) أي مُطلَقةٌ بمعنَى شامِلةٍ.

(٢) معناهُ بالأعمالِ الحسَنةِ ظاهِرًا، فيُجازَى فيها على ما فعلَه مِن الأعمالِ الّتي لا تحتاجُ لنيّةٍ بنحوِ توسعةٍ لرزقِه ودفعِ مُصيبةٍ من غيرِ أنْ يُثابَ على ذلكَ بالمرّةِ، لا في الدُّنيا ولا في الآخِرةِ.
قلتُ: وتقييدُ المُناويّ بما لا يحتاجُ إلى نيّةٍ مُهِمٌّ، إذ الكافِرُ لا تصِحُّ منه نيّةُ العِبادةِ، لأنّ مِن شرطِ قَبولِ العمَلِ الصّالِح عِندَ اللهِ الإسلامُ.

ربّهم فقال تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا﴾ أي وأدنى مِن الجنَّتَينِ المذكورتَين رُتبةً ﴿جَنَّتَانِ ۝٦٢﴾ أي هاتانِ لِكُلِّ واحِدٍ مِن أهلِ هذه الطَّبَقةِ.

وقد فسَّرَ هذه الآيةَ الإمامُ البُخاريّ رضي الله عنه في «صحِيحِه» بما صَحَّ مِن حديثِ أبي مُوسَى الأشعريّ رضي الله عنه أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «**جنَّتانِ مِن فِضَّةٍ ءانِيَتُهما وما فِيهِما، وَجنَّتانِ مِنْ ذَهَبٍ ءانِيَتُهما وَمَا فِيهِما**» الحديث.

وأخرجَ ابنُ أبي شَيبةَ في «مُصنَّفِه» والحاكِمُ في «المُستدرَك» وصحَّحَه عن أبي مُوسَى رضي الله عنه أنّ رسولَ الله ﷺ قال في تفسيرِ الآيةِ: «**جنَّتانِ مِن ذَهَبٍ لِلسَّابِقِينَ، وَجنَّتانِ مِن فِضَّةٍ لِلتَّابِعِينَ**» أي لِمَن تَبِعُوا السّابقِينَ بإحسانٍ.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦٣﴾ أيُّها الجاحِدُون مِن الثَّقلَين، أبِمَا أعَدَّ اللهُ لِعبادِه الصّالحِين مِن النّعِيم في الجنّة.

ثُمّ وَصَفَ اللهُ عزَّ وجلَّ هاتَينِ الجَنَّتَينِ الأُخرَيَين فقال تعالَى: ﴿مُدۡهَآمَّتَانِ ۝٦٤﴾ أي خَضْراوانِ يَمِيلُ لَونُهما مِن شِدّة الخُضرةِ إلى الدُّهْمَةِ أي السَّوادِ في عَينِ النّاظِرِ لا سيّما إذا رُئِيَتا مِن بُعدٍ.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦٥﴾ أيُّها الجاحِدُون مِن الثَّقلَين، أبِالجِنان الّتي أعَدَّ اللهُ لِعبادِه المؤمنِين، فالّذي خلَقَ البَساتِينَ في الأرضِ ترونَها وهو الله تعالَى، قادرٌ على إيجادِ ما هو أعظَمُ مِنها بكثيرٍ وعلى صِفةٍ

أحسَن مِنها، أفتَجحَدُون ما يُصحّحُ العَقلُ وُجودَه؟!

فائدة: تقولُ العرَبُ لِكُلّ أخضَرَ سَوادًا وللسَّوادِ أخضَرَ، فيُقال لِلَّيلِ المُظلِم أخضَرُ، ومِن ذلكَ تسمِيَتُهم «سَوادَ العِراقِ»[١] وهي قُراها ومَزارِعُها المَلآى بالزُّروعِ والنَّخيلِ والأشجارِ، وقد افتتَحها المُسلِمُون علَى عَهدِ سيّدنا عُمَر بنِ الخطّابِ رضي اللّٰه عنه. وكان النّاسُ إذا خرَجُوا مِن جَزيرة العرَبِ الّتي لا زَرعَ فيها ولا شجَر ظَهرَتْ لهُم خُضرةُ الزَّرعِ والأشجارِ أوّلَ تِلكَ القُرَى مِن أرضِ العراقِ فسمَّوها سَوادًا.

وكذلكَ تَصِفُ العرَبُ الرّجُلَ المِعطاءَ السَّخيَّ بالأخضَرِ، كما قال الفَضلُ بنُ العباسِ رضي اللّٰه عنهما:

---

(١) قال ياقوتُ الحَمْويّ في «مُعجَم البُلدان» (٣/ ٢٧٢): «وحَدُّ السَّوادِ من حَديثَةِ - بفتح الحاء وكسر الدّال - المَوصِل طُولًا إلى عَبّادانَ، ومِن العُذَيبِ بالقادسيّةِ إلى حُلوانَ عَرضًا».
وقَد جرَى لِسَوادِ العِراقِ حُكمٌ خاصٌّ، وذلكَ أنّه لمّا افتُتِحَت بالجِهادِ وأُخرِجَت مِن أيدِي المَجُوسِ قَسمَها سيّدُنا عمرُ رضي اللّٰه عنه بَين النّاسِ فاستَغَلُّوها سنتَينِ أو ثَلاثًا، ثُمّ رأَى أنّهُم قد اشتغَلُوا بالأرضِ عن الجِهادِ، فسأَلَهُم أنْ يَرُدُّوا علَيه، فمِنهُم مَن طابتْ نَفسُه بالرَّدِّ بغَيرِ عِوَضٍ ومِنهُم مَن لَم تَطِبْ نَفسُه إلّا بعِوَضٍ، ثُمّ وقَفَها عُمَرُ رضي اللّٰه عنه علَى المُسلِمينَ= = وءاجَرَها مِمّن هي في يَدِه علَى كُلّ نَوعٍ مِن الغَلّاتِ أُجرةً مَعلُومةً لا إلى غايةٍ، وعلَى هذا قضَى الشافعيّةُ أنّه لا يَجُوزُ بيعُها ولا هِبَتُها ولا رَهنُها وإنّما تُنقَلُ مِن يَدٍ إلى يَدٍ وما يُؤخَذُ مِن الخَراجِ فهُوَ أُجرةٌ.

وأنـا الأَخْضَـرُ مَـنْ يَعْرِفُـنِي أَخْضَـرُ الجِلْدَةِ في بَيْتِ العَرب

﴿فِيهِمَا﴾ أي في هاتَـين الجنّتَين الأُخريين ﴿عَيۡنَانِ نَضَّاخَتَانِ ٦٦﴾ أي فيّاضتانِ فوّارتانِ بالماءِ العذبِ لا يَنقطِعان.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٦٧﴾ أيُّها الجاحِدُون من الثّقلَين، أبجنانٍ فِيها عُيونُ ماءٍ فوّارةٌ وأنتم تشربُون مِن عُيونِ الدُّنيا[1]، وكِلا النَّوعَين مِن خَلقِ اللَّهِ الواحِدِ الأحَد، فلِأيِّ شيءٍ تجحَدُون؟!

﴿فِيهِمَا﴾ أي في الجنّتَـينِ الأُخرَيَـينِ ﴿فَٰكِهَةٞ﴾ من أنـواعٍ كثيرةٍ ﴿وَنَخۡلٞ وَرُمَّانٞ ٦٨﴾ أي شجرُهما المُثمِران.

فائدة: اختلفَ العُلماءُ في ذِكرِ النَّخلِ والرُّمّانِ معطُوفَيْن على الفاكِهة:

- فذهَـبَ الجمهورُ مِن المفسّرِين واللُّغويّين إلى أنّ ثمرَ النَّخلِ والرُّمّانِ مِـن أنواعِ الفاكِهةِ عِندَ العرَبِ، وإنّما عُطِفَـا وفُصِّلا في الذِّكرِ تَنبِيهًا عـلَى فَضلِهِما وشرَفِهما عـلى غيرِهما مِن الفَواكِهِ، فـإنّ ثَمرةَ النَّخلِ فاكِهـةٌ وغِـذاءٌ، وثمرةُ الرُّمّـانِ فاكِهـةٌ ودَواءٌ، وهذا كمـا في الآيةِ: ﴿مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوّٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ ٩٨﴾ [سُـورة البقرة: ٩٨] فخصَّ كُلًّا مِن جبرائِيلَ

---

(١) قـال اللّهُ تعـالَى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ﴾ [سُـورة الزُّمَر: ٢١].

ومِيكائِيلَ بالذِّكرِ وإنْ كانَا مِن جُملةِ المَلائكةِ لِشرَفِهما وفَضلِهما على غيرِهما مِن الملائِكة(١) ولِبَيانِ أنّ شَتمَ الواحدِ مِن الملائكةِ كُفرٌ.

- وذهَبَ بعضُ المفسّرين واللُّغويّين إلى أنّ النَّخلَ والرُّمّانَ ذُكِرَا مُنفرِدَين لأنّهما ليسَتا مِن الفاكِهة، واحتجُّوا بذلكَ لمذهبِ أبي حنيفةَ رضي الله عنه فِيمَن حلَفَ لا يأكُل فاكِهةً فأكَلَ رُمّانًا أو تمرًا أنّه لا يَحنَثُ في يَمِينه.

والمذهَبُ الأوّلُ مُقدَّمٌ وعليه الجُمهورُ كما ذَكَرنا، وقد قال الحافظ ابنُ الجوزيّ في «زادِ المَسير»: «وقال الأزهريّ: ما عَلِمتُ أحدًا مِن العرَب قالَ في النَّخيلِ والكُرومِ وثمارِها إنّها ليسَتْ مِن الفاكِهة، وإنّما قالَ مَن قالَ لقِلّةِ عِلمِه بكَلامِ العرَب، فالعرَبُ تذكُر أشياءَ جُملةً ثُمّ تَخُصُّ شَيئًا منها بالتَّسميةِ تَنبيهًا علَى فَضلٍ فِيه، كقَولِه: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ ٩٨﴾ فمَن قال: ليسَا مِن المَلائكةِ كفر، ومَن قالَ: ثَمرُ النَّخلِ والرُّمّانِ ليسَ مِن الفاكِهةِ جهلَ» اهـ.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٦٩﴾ أيُّها الجاحِدُون مِن الثَّقلَين، أبِجنانٍ فِيها للطّائعِينَ طيّبُ الطّعامِ وما تَشتَهِيهِ الأنفُسُ وتَلَذُّ الأعيُن.

---

(١) قال شيخُنا رحمه الله: «المَراتِبُ مِن حيثُ الأَولويّةُ في الملائكةِ: جبريلُ ثُمّ مِيكائِيلُ ثُمّ إسرافِيلُ ثُمّ عزرائِيلُ، ويُضافُ إلَيهم حمَلَةُ العرشِ ثُمّ مَالِكٌ خازِنُ النّارِ ورِضوانٌ خازِنُ الجنّةِ كذلِكَ خُزّانُ السَّماواتِ السَّبع».

ثُمّ ذكَرَ اللّه عزَّ وجلَّ أنّ في هذه الجِنانِ التّي دُونَ الأُولَيَين أيضًا حُورٌ لذُكورِ المؤمنِيَن[١] فقال: ﴿فِيهِنَّ﴾ أي في الجنَّتَين الأُخرَيَين نِسـاءٌ ﴿خَيۡرَٰتٌ﴾ في أخلاقِهنَّ فاضِـلاتٌ ﴿حِسَانٞ ٧٠﴾ في وُجوهِهنّ وخِلقَتِهنّ، ويُقال لُغةً: خَيْرات وخَيِّراتٌ، والخَيْرةُ مِن الأمرِ المُستَحسَنُ منهُ.

ورُوِّينـا في «المُعجَم الأوسَـط» و«الصّغِير» للطـبَرانيِّ وفي «المُختارةِ» للضِّياءِ عن ابنِ عُمرَ رضي اللّه عنهُما أنّ رسولَ اللّه ﷺ قال: «**إنَّ أزْواجَ أَهْلِ الجَنَّةِ لَيُغَنِّينَ أزْواجَهُنَّ بأَحْسَـنِ أصْواتٍ سَـمِعَها أَحَدٌ قطُّ، إنَّ مِمّا يُغنِّينَ بهِ: نَحْنُ الخَيْراتُ الحِسـان، أزْواجُ قَـومٍ كِرام، يَنْظُرْنَ بِقُرَّةِ أعْيان. وإنَّ مِمّـا يُغنِّينَ بِهِ: نَحْنُ الخالِداتُ فلا يَمُتْنَه، نَحْنُ الآمِناتُ فلا يَخَفْنَـه، نَحْنُ المُقِيماتُ فَلا يَظْعَنَّـه**[٢]»، أخرَجه الحافظ النُّورُ الهَيثميّ في «المَجْمَع» وقال: «رِجالُه رِجالُ الصّحِيح».

وروَى ابـنُ أبي الدُّنيـا في «صِفة الجنّة» عن ابنِ مسـعودٍ رضي اللّه عنه قال: «لِكُلِّ مُسلِمٍ خَيْرةٌ، ولِكُلِّ خَيْرةٍ خَيمَةٌ، ولِكُلِّ خَيمةٍ أربَعةُ أبوابٍ، تَدخُـلُ علَيها كلَّ يومٍ مِن كُلِّ بابٍ تُحفةٌ وهَديّـةٌ وكَرامةٌ لم تَكُن قبلَ

---

(١) أمّا المؤمِنةُ الّتي تَدخلُ الجنّةَ مِمن لَم تَكُن قد تزوَّجَتْ في الدُّنيا فيُزوِّجُها اللّهُ رَجُلًا مِن مُؤمني أهلِ الجنّةِ، ولا يوجَدُ للمرأةِ هُناكَ رَجُلٌ غيرُ زَوجِها.

(٢) أي لا يَنتقِلنَ عن الجِنانِ إلى غيرِها، والهاءُ في الأفعالِ الثّلاثةِ للسَّكت.

ذلـك، لا مَرِحاتٌ[١]، ولا ذَفِراتٌ[٢]، ولا سَـخِراتٌ[٣]، ولا طَمّاحاتٌ، حُورٌ عِينٌ كأنّهنّ بَيْضٌ مكنُونٌ[٤]».

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٧١﴾ أيُّهـا الجاحِدُون من الثَّقلَينِ، أبإثابةِ اللَّهِ في الآخرةِ المُحسنَ مِن عِبادِه.

﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ﴾[٥] أي مَصُونـاتٌ مَسـتُوراتٌ ﴿فِى ٱلْخِيَامِ ٧٢﴾ والخَيمةُ هُنالِـك دُرّةٌ مُجوَّفةٌ، قاله ابن عبّاسٍ رضي اللَّه عنهما وزادَ بأنّها فَرسَخٌ في فرسخٍ، لها أربعةُ ءالافِ مِصْراعٍ[٦] من ذهَبٍ.

وقَـد ثبتَ في «الصّحِيحَين» وغيرِهما عن أبي مُوسَى الأشـعريّ رضي اللَّه عنه أنّ رسولَ اللَّه ﷺ قال: «**الخَيمَةُ دُرَّةٌ مُجَوَّفَةٌ طُولُها فِي السَّماءِ ثَلاثُونَ**

---

(١) مِن المرَح، معناه لا مُتكبّراتٌ ولا يَفعلنَ فِعلَ خفيفاتِ العَقل.

(٢) الذَّفِرةُ والدَّفِرةُ هي المرأةُ التّي تبقَى في ثَوبِ العمَلِ والخِدمةِ لا تُنظِّفُ نَفسَها، وليسَ في الجنّة عمَلٌ ولا مشَـقّةٌ، لا للرِّجالِ ولا للنِّسـاءِ، لأنّ الجنّةَ دارُ تلَذّذٍ وتَنعُّمٍ وسُرورٍ وسَعادةٍ، لكن جعَل اللَّهُ فِيها للمُؤمنِين خدَمًا، قال اللَّهُ تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ [سُورة الإنسان: ١٩].

(٣) أي لا يَهزَأنَ بغيرِهنّ.

(٤) أي مَصُوناتٌ مِن الشَّوائِب كما أنّ البَيضَ يُصانُ من عَبثِ الأيدِي.

(٥) الحُورُ جمعُ حَوْراءَ وهيَ الشَّديدةُ بَياضِ العَينِ الشَّديدةُ سَوادِها.

(٦) أي دَرفَةِ بابٍ.

مِيلًا[١]، فِي كُلِّ زاوِيَةٍ مِنْها لِلْمُؤْمِنِ أَهْلٌ[٢] لا يَراهُمُ الآخَرُونَ».

رُوِّينا في «صَحِيح ابنِ حبّان» و«مُسنَدِ أبِي يَعلَى» عَن أَبِي سَعِيدٍ الخُدرِيِّ رضي اللّٰه عنه أنّهُ قالَ: قالَ رَسولُ اللّٰهِ ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ فِي الجَنَّةِ لَيَتَّكِئُ سَبعِينَ سَنَةً قَبلَ أَن يَتحَوَّلَ[٣]، ثُمَّ تَأتِيهِ المَرأَةُ[٤] فَتقرُبُ مِنهُ فَينظُرُ فِي خَدِّهَا أَصفَى مِن المِرْءاةِ، فَتُسلِّمُ عَلَيهِ فَيَرُدُّ السَّلَامَ ويَسأَلُهَا مَن أَنتِ؟ فَتَقُولُ: أَنَا مِنَ المَزِيدِ[٥]، وإِنَّهُ يَكُونُ عَلَيهَا سَبعُونَ ثَوبًا، فَيَنفُذُهَا بَصرُهُ حَتَّى يَرَى مُخَّ سَاقِهَا[٦] مِن وراءِ ذَلِكَ، وإِنَّ عَلَيهِنَّ التِّيجَانَ، وإِنَّ أَدنَى لُؤلُؤَةٍ عَلَيهَا لَتُضِيءُ مَا بَينَ المَشرِقِ والمَغرِبِ[٧]».

وجاء في بعضِ الآثارِ الّتي أخرجَها ابنُ أبي الدُّنيا في «صِفة الجنّة» وابن أبي حاتِمٍ عن أنسٍ وابنِ عبّاسٍ رضي اللّٰه عنهُم: «لَو أَنَّ حَوْراءَ بزَقَتْ فِي بَحرٍ لُجِّيٍّ لَعَذُبَ».

(١) وفي لَفظِ مُسلمٍ في «صحيحِه»: «طُولُهَا فِي السَّمَاءِ سِتُّونَ مِيلًا».

(٢) أي زوجةٌ.

(٣) ولا مَلَل هُناكَ ولا تَعَب، فيتنعَّمُ المؤمِن بذلك مُستغرقًا في اللّذّةِ والسُّرورِ.

(٤) أي من الحُورِ العِين في الجنّة.

(٥) أي النَّعيم المَزيد له.

(٦) سبَقَ شرحُه قريبًا.

(٧) أي لو أُدنِيَت إلى الأرضِ.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ ﴾ أيُّها الجاحِدُون مِن الثَّقلَين.

ومِن صِفةِ أولئكَ النِّسوةِ أنّهُ ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ ﴾ أي لَم يُجامِعهُنّ ﴿ إِنسٌ قَبْلَهُمْ ﴾ أي قَبلَ أزواجِهِم هؤلاءِ ﴿ وَلَا ﴾ جامَعهُنّ مِن قَبلُ ﴿ جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ ﴾ أيضًا.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ ﴾ أيُّها الجاحِدُون مِن الثَّقلَين، أبِهذه النِّعَمِ الّتي أعَدَّها اللّهُ للطّائعِين في الجنّة.

ولمّا ذكَرَ اللّهُ عزَّ وجلَّ بعضَ ما لَهُم مِن النِّسوةِ أعقَبَه بذِكر بعضِ فُرُشِهِم فقال تعالَى: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ ﴾ أي يتنعَّمُون مُتّكئِين بهيئةِ المُتمَكِّن المُستَرِيح ﴿ عَلَىٰ رَفْرَفٍ ﴾ أي بُسُطٍ حِسانٍ أو وسائِدَ مُزيَّنة[1] ﴿ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ ﴾ أي طَنافِسَ[2] أو بُسُطٍ مَنقُوشةٍ ﴿ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ جميلةٍ، والمعنى أنّهم يتّكئُون على بُسُطٍ ناعمةٍ ذاتِ أطرافٍ مُزيَّنةٍ فاخرةٍ وفُرُشٍ رَقِيقةِ النَّسجِ مِن الحريرِ ووَسائِدَ عَظِيمةٍ في غايةِ الجَمالِ وحُسنِ المَنظرِ.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ ﴾ أيُّها الجاحِدُون مِن الثَّقلَين.

﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ﴾ أي تنزَّهَ ربُّكَ عمّا لا يجوزُ عليهِ[3] ﴿ ذِى ٱلْجَلَٰلِ ﴾ أي المُتّصِفِ بعِظَمِ الشّأنِ والّذي يَستحِقُّ أنْ يُجَلَّ فلا يُجحَدَ ولا يُكفَرَ به

(١) وفي تفسيرِها أقوالٌ أُخَرُ كثيرةٌ.

(٢) جمعُ طِنْفِسةٍ وهي البِساطُ الّذي له خَمْلٌ رَقِيقٌ.

(٣) فالاسمُ هنا بمعنَى المسمَّى كما في قوله تعالى: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ أي نَزِّه ربَّك وقدِّسه عمّا لا يجوزُ عليه.

﴿وَٱلۡإِكۡرَامِ ۝٧٨﴾ أي ذِي الإكــرامِ، ومعناهُ المُحسِــنُ إلى عِبادِه مِن غيرِ وُجوبٍ علَيهِ.

وقال بعضُ المفسِّرين مِن السَّــلَفِ الصّالِح: معناهُ تَنَزَّه اسمُ ربّك عن أنْ يَســتحِقَّ غيرُه اسمَه، فاللَّهُ وحدَه استحَقَّ علَى الخَلقِ أنْ يجُلُّوه عن أنْ يُسَمُّوا غيرَه باسمِه.

فائدة: أسماءُ اللَّهِ تَعالَى قِسمانِ: قِسمٌ لا يُسمَّى بِه غيرُهُ عزَّ وجلَّ وقِسمٌ يُسمَّى به غيرُه. فاللَّهُ والرَّحمنُ والقُدُّوسُ والخالقُ والرَّزَّاقُ ومالكُ المُلكِ وذُو الجلالِ والإكرامِ والمُحْيِي والمُميتُ لا يُســمَّى بها إلّا اللَّهُ تعالَى، أمّا أكثرُ الأســماءِ فيُسمَّى بها غيرُ اللَّهِ أيضًا لَكِن لا على المعنَى الخاصّ باللَّهِ تعالَى، فيجوزُ تســميةُ شخصٍ رحِيمًا مثلًا. وليُحذَر مِن بعضِ الأسماءِ التّي يُســمِّي بها بعــضُ النّاسِ أولادَهُم فَمِنها ما هــو كُفرٌ والعِياذُ باللَّهِ كمَن يُسمِّي ولدَه أو نَفسَه «ابن اللَّهِ» والعياذُ باللَّهِ تعالَى.

تمَّ تفسيرُ سُورةِ الرَّحمٰنِ عزَّ وجلَّ بحَمدِ اللَّهِ ومَنّه وفَضلِه

خاتِمةٌ مُوجزة

هذه خاتِمةٌ في إيجازِ ما اشــتَملَتْ علَيه سُــورةُ الرَّحمنِ عزَّ وجلَّ مِن أوّلِها إلى ءاخِرِها.

لقَد افتُتِحَت السُّورة بذِكرِ نِعَمِ اللهِ عزَّ وجلَّ على عِبادِه، فذكَرَ أوّلًا إنزالَ القرءانِ وما فيه مِن شرَفٍ عظيــمٍ ونِعمةٍ، وأنّه عزَّ وجلَّ هو الّذي علَّمَ الإنسانَ البَيانَ، وسَخَّرَ الشّــمسَ والقمَرَ يَسيرَانِ على نِظامٍ مُحكَمٍ، فإنَّه يَتعلَّق بهِما انتِظامُ كثيرٍ مِن الأمورِ ورجُوعُ كثيرٍ مِن المنافِع على العِبادِ.

ثُــمّ ذكَرَ عزَّ وجلَّ بعضَ العَجائِبِ مِن مخلُوقاتِه كمرَجِ البَحرَينِ وخُروجِ اللُّؤلؤِ والمَرجانِ مِن المياهِ، وناســبَ ذلكَ ذِكرُ السُّفُنِ الّتي سخَرَّها اللهُ عزَّ وجلَّ للعِبادِ لِينتفِعُوا بها.

وأَعقَــبَ جلَّ جَلالُه ما ســبَقَ ذِكرُه بالكَلامِ على البَقــاءِ والفَناء فذكَرَ بــأنّ كُلَّ مَن على الأرضِ يَفنَى، وأمّا اللهُ عــزَّ وجلَّ فهو خالِقُ الأرضِينَ والسّــماواتِ وما فيهما وما بَينَهُما فلا يَفنَى ولا يَبِيدُ، ووُجودُه عزَّ وجلَّ أزليٌّ أبديٌّ بلا كَيفٍ ولا مَكانٍ.

ثُــمّ ذكَرَ جلَّ جَلالُه جَمْعَ النّاسِ لِيَــوم القِيامةِ وأنّ الكافِرَ لا مَفرَّ له مِن العَــذابِ الّذي يَنتظِرُه، وفَصّلَ تعالَى ذِكرَ بعضِ ما يكونُ في ذلكَ اليومِ العَظِيم مِن الأهوالِ.

وأعقبَ سُـــبحانَه وتعالَى ما سبقَ ذِكرُه بالكَلامِ على بعضِ جِنانِ الآخرةِ الّتي خلقَها اللهُ للمتّقِينَ الّذين يَخشَـــون ربَّهُم سِرًّا وعَلانِيةً، وفصَّل ذِكرَ بعضِ ما لَهُم فيها مِن أنواعِ النّعِيم، وبيَّن أنّ ذلكَ الجزاءَ هو بفَضلٍ مِنه على المتّقِينَ الّذي أدَّوُا الواجباتِ واجتنَبُوا المُحرَّماتِ.

ثُـــمّ ذكرَ عزَّ وجلَّ أنّه خَلقَ جنّاتٍ أُخرَى دُونَ الجنّاتِ السّـــابقةِ الذِّكرِ للطّائعِينَ الّذيـــن هُم في مَرتبةٍ أقلَّ مِن المتّقِينَ الّذين ســـبَقَ ذِكرُهم، وفصَّلَ ذِكرَ بعضِ ما يكونُ لهؤلاءِ الآخَرين مِن أنواعِ النّعِيمِ.

ثُمّ فصَّـــل تعالَى الكلامَ على الحُورِ العِينِ اللّآئي خَلَقَهُنَّ للمؤمِن هنالِكَ ومـــا يَتّصِفنَ به مِن صِفـــاتٍ جَميلةٍ خَلْقًا وخُلُقًا، وذكَـــرَ كذلكَ الخِيَمَ الخاصّةَ الّتي يَســـكُنّها مع أزواجِهـــنّ، وأنهُنّ نِســـاءٌ لَم يَقرَبهُنّ أحَدٌ قبلَ أزواجِهنّ مِن أهلِ الجنّةِ.

وجاءَ ختَمُ السُّـــورةِ بالثَّناءِ على اللهِ عزَّ وجلَّ وأنّه مُنزَّهٌ عمّا لا يَجوزُ عليه سُبحانَه، وأنّه مُســـتحِقٌّ لِأَنْ يُعظِّمَهُ عِبادُه، وهو عزَّ وجلَّ كرِيمٌ مُحسِنٌ إلى عِبادِه مِن غيرِ وُجوبٍ علَيه.

الجَوَاهِرُ اللامِعَة

فِي تَفْسِيرِ

سُورَةِ الوَاقِعَةِ

سُورة الواقِعة: خَصائصُها وفَضائِلُها

وَقتُ نُزولِ سُورةِ الواقِعة

سُورةُ الواقِعةِ مكِّيّةٌ في قولِ الحسَنِ البِصريّ وعِكرِمةَ وعَطاءٍ وجابرٍ رضي اللَّه عنهُم، وقال ابنُ عبّاسٍ وقَتادةُ رضي اللَّه عنهُما مكِّيّةٌ إلّا ءايةً مِنها نزلَتْ بالمَدينةِ وهي قولُه تعالَى: ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ۝٨٢﴾، وروَى عطِيّةُ عنِ ابنِ عبّاسٍ أنها مدَنيّةٌ، وقِيل[(١)]: إنّها مَكّيّةٌ إلّا أربعَ ءاياتٍ؛ ءايَتان منها نزَلَتا في سَفرِه ﷺ إلى بعدَ الهِجرةِ مكّةَ: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ۝٨١ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ۝٨٢﴾، وثِنْتانِ نزَلَتا في سفَرِه إلى المدِينةِ وقتَ الهِجرةِ: ﴿ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٣٩﴾، لكن نقَل القاضِي أبو محمّدٍ عبدُ الحقِّ المعروفُ بابنِ عطِيّةَ الإجماعَ على أنّ كُلَّها مكِّيّةٌ.

وسُورة الواقعةِ لا ناسِخَ فيها ولا مَنسُوخَ باتّفاقِ المفَسّرِين[(٢)]، وادّعَى بعضُهم وجودَ ناسِخٍ فيها ومَنسوخٍ ولكنّه ضُعِّف[(٣)].

---

(١) وحكَى ذلكَ محمّدُ بنُ السائبِ الكَلبيُّ ولكنّه مَتروكُ الحديثِ مُتّهَمٌ بالكَذِب والرَّفضِ.

(٢) نقَل الاتّفاقَ على ذلكَ ابنُ سَلامة في «النّاسِخ والمنسُوخ» (ص/ ١٧٢).

(٣) ضعَّفَه الحافظُ ابنُ الجوزيّ في «نَواسخ القرءانِ» (ص/ ٣٥).

وقد نزَلتْ سُورةُ الواقِعةِ بعدَ سُورةِ طه، وترتِيبُها في المُصحفِ بعدَ سُورةِ الرَّحمٰنِ وقَبل سُورةِ الحدِيدِ وهو ترتِيبٌ تَوقِيفيٌّ بوَحيٍ نزلَ على رسولِ الله ﷺ.

مُناسَبةُ السُّورةِ لِما قَبلَها

أمّا مُناسبةُ مجيءِ سُورةِ الواقِعةِ بعدَ سُورةِ الرَّحمٰنِ أنّ في كُلٍّ مِنهُما وَصفَ القِيامةِ والجنّةِ والنّارِ، وأنّه ذُكِر في سُورةِ الرَّحمٰنِ انشِقاقُ السّماءِ يومَ القِيامةِ وذُكِر هنا ارتِجاجُ الأرضِ بالزَّلزَلةِ، فالموضوعُ مُتّحِدٌ؛ هذا معَ ذِكرِ عذابِ الكافِرين ونَعِيم المُتّقِين في سُورة الرَّحمٰنِ مِن غيرِ تقسيمٍ للمُكلَّفِين، فجاءَ في سُورةِ الواقعةِ تفصِيلُ ذلكَ إلى ثلاثِ فِئاتٍ: السّابقِينَ، وأصحابِ الميمَنةِ، وأصحابِ المَشئَمةِ.

وأمّا مُناسَبةُ أوّلِ السُّورةِ لِآخِرِ سُورةِ الرَّحمٰنِ فهو أنّه جاءَ في أوّلِ سُورة الواقِعةِ ذِكرُ ما في ءاخِرِ سُورة الرَّحمٰنِ، وفي ءاخِرِ الواقِعةِ ما في أوّلِ سُورة الرَّحمٰنِ.

وقال أبو حيّانَ في «البَحر»: «ومُناسَبتُها لِمَا قَبلَها تضمُّن العذابِ للمجرِمِين والنّعِيم للمُؤمنِين، وفاضَلَ بينَ جنَّتَي بَعضِ المُؤمنِين وجنَّتَي بَعضٍ بِقَولِه: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [سُورة الرَّحمٰن: ٦٢]، فانقسَم العالَمُ بذلِكَ إلى كافِرٍ ومُؤمِنٍ مَفضُولٍ ومُؤمِنٍ فاضِلٍ، وهكذا جاءَ ابتِداءُ هذه السُّورةِ مِن كَونِهم أصحابَ مَيمَنةٍ وأصحابَ مَشئَمةٍ وسابِقِين».

فَضلُ سُورةِ الواقِعة

أوّلًا: هي إحدَى سُوَرِ المُفصَّلِ الّتي خُصَّ بِها رسولُ اللهِ ﷺ دُونَ سائِرِ الأنبياءِ عليهِمُ الصّلاةُ والسَّلامُ

أخرَجَ الطَّيالسيُّ مِن حديثِ واثلةَ بنِ الأسقَعِ رضي اللَّه عنه أنّ رسولَ اللَّه ﷺ قال: «**أُعطِيْتُ مَكانَ التَّوْراةِ السَّبْعَ الطِّوالَ وَمَكانَ الزَّبُورِ المِئِينَ وَمَكانَ الإِنْجِيلِ المَثانِيَ وَفُضِّلْتُ بِالْمُفَصَّلِ**».

والسَّبعُ الطِّوالُ بكَسر الطاء جَمعُ طوِيلةٍ هي البقَرةُ إلى ءاخرِ براءةَ بجَعلِ الأنفالِ معَ براءةَ واحدةً في العَدّ، وقيل غيرُ ذلك. والمِئُون كلُّ سُورةٍ تَزِيدُ على مائةِ ءايةٍ أو تُقاربُها، وأمّا المَثانِي فهي السُّوَرُ التي تَلِي المئِينَ في تَرتيب المُصحَف، سُمّيَتْ بذلكَ لأنّها ثَنَتْها أي وليَتْها. وقال الفرّاءُ: هي السُّورةُ الّتي ءايُها أقلُّ مِن مائةٍ لأنّها تُثنَّى أي تُكرَّرُ أَكثر ممّا يُثنَّى الطِّوالُ والمِئُونَ، وقيل: سُمّيَتْ بذلكَ لِتثْنيةِ الأمثالِ فيها بالعِبَرِ والخَبَرِ. والمُفَصَّلُ ما وَلِيَ المَثانِيَ مِن قِصارِ السُّوَرِ(١)، سُمّيتْ بذلكَ لِكَثرةِ الفَصلِ بَين سُوَرِها بالبَسملة، وقيل: لِقلّةِ المَنسُوخِ مِنها ولِهذا

(١) أي قِصارٌ بالنّسبةِ لما قبلَها، وإلّا ففي المُفصَّلِ طِوالٌ وأَوساطٌ وقِصارٌ؛ فطِوالُه إلى النّبأ، وأوساطُه من النّبأ إلى الضُّحى، وقِصارُه من الضُّحَى إلى ءاخِرِ القُرءان. ويُكرَه تنزيهًا أن يُقال: «سُورةٌ صغِيرةٌ» بل يُقال: «مِن قِصارِ السُّوَر»، كما كرِه ابنُ سِيرينَ أن يُقال: «سُورةٌ خفيفةٌ» ولكن يُقال: «سُورةٌ يَسيرةٌ».

تُسمَّى المُحكَمَ كما روَى البُخاريّ في «صحيحِه» عن سعيدِ بنِ جُبَيرٍ رضي الله عنه قال: «إنَّ الّذِي تَدْعُونَه المُفصَّلَ هو المُحْكَمُ، وءاخِرُه سُورةُ النّاسِ بلا نِزاعٍ[(١)]».

ثانِيًا: إحدَى أخواتِ سُورةِ هُودٍ

روَى الترمِذيُّ والطبَرانيُّ وأبو يَعلَى وغيرُهم عن عُقبةَ بنِ عامرٍ رضي الله عنه أنّ رَسولَ الله ﷺ: «**شَيَّبَتْنِي هُودٌ وَأَخَوَاتُها**»، ومن طريقِ ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنهما بلَفظِ: «**شَيَّبَتْنِي هُودٌ وَالوَاقِعَةُ وَالمُرْسَلَاتُ وَعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ**» وهو حديثٌ ضعِيفٌ عِندَ بعضِ الحُفّاظِ، حسَنٌ عِندَ غيرِهم[(٢)].

قال شيخُ الإسلامِ الإمامُ الحافظُ عبدُ الله الهرري رحمه الله: «هذا الحدِيثُ ضَعِيفٌ ليسَ ثابتًا، أخرجَه الترمذيُّ وقال: هذا حدِيثٌ حسَن غرِيبٌ لا نَعرِفُه مِن حَدِيث ابنِ عبّاسٍ إلّا مِن هذا الوَجهِ، وأخرجه الطَبَرانيُّ والحاكِمُ وحسَّنه السُّيوطيُّ».

---

(١) واختُلف في أوّلِ المُفصَّلِ على أقوالٍ كثيرةٍ، فمِنهُم مَن قال: سورةُ ق، وءاخَرُون الحُجُرات، وغيرُهم سُورةُ محمّدٌ ﷺ.

(٢) قال الحافظ السُّيوطيّ في «الدُّرر المُنتَشِرة في الأحادِيث المُشتَهرة» (ص/ ١٣٣): أخرجَه البزّار مِن حَدِيث ابنِ عبّاسٍ وصَحَّحه في «الاقتِراح» وأعَلّه الدارَقُطنيُّ وأنكرَه موسَى بنُ هارُونَ وقال فيه إنّه موضُوع، والصَّوابُ تحسِينُه، وقد استَوفَيتُ طرُقَه في التّفسِير المُسنَد».

وقال المُلّا عليّ القاري في «المِرقاة» في معنَى الحديثِ: ««**قَدْ شِبْتَ**» أي ظهَر عليكَ ءاثارُ الضَّعفِ قبل أوانِ الكِبَر[1]، وليسَ المرادُ مِنه ظُهورَ كَثرةِ الشّعرِ الأبيَضِ عليه لِمَا روَى الترمذيُّ عن أنسٍ قال: «**ما عَدَدْتُ في رَأْسِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَلِحيَتُهُ إلَّا أَرْبَعَ عَشْرَةَ شَعرَةً بَيْضاءَ**»».

(١) قال شيخنا الإمامُ الحافظُ الهرريُّ رحمَهُ اللّهُ: «جاءَ في الأحاديثِ الدّالّةِ على أحوالِه ﷺ أنّه كان طَويلَ الصّمتِ دائِمَ الأحزانِ أي يَشعُر في قَلبِه بالحُزنِ لأنّــه يعلَمُ أمورًا كثيرةً مِن أهوالِ الآخِرة، ولذلكَ قال ﷺ: «**لَوْ تَعْلَمُونَ ما أَعْلَــمُ لَضَحِكْتُم قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُم كَثِيرًا**»، معناهُ لو تَعلَمُون ما أعلَمُ أنا مِن أُمورِ القَبرِ وأُمورِ الآخِرة كان قَلَّ ضَحِكُكُم وكَثُرَ بُكاؤُكم».
فلَم يكُن ﷺ دائِمَ الأحزانِ لأنّ يَخشَى على نَفسِــه يومَ القِيامة، حاشاه، فهو ﷺ رأسُ الآمنِينَ المُنعَّمين يومَ القِيامةِ فما بَعدَهُ، ولكنّه ﷺ أشَدُّ خَلقِ اللهِ رَحمةً بعِبادِ اللّه، فهو أرحَمُ بالمؤمنــينَ مِن أُمّتِه مِن أُمّهاتِهم ويخافُ علَيهم أكثَرَ مِن خوفِهم علَى أنفُسِهم حتّى إنّه حِينَ يقولُ النّاسُ يومَ القِيامةِ: «**نَفْسِي نَفْــسِي**» يقولُ هو ﷺ: «أُمّتي أُمّتي»، اللهم صَلِّ وسَــلِّم وأَعظِم وأكرِمْ علَيهِ وعلَى جَميعِ إخوانِه مِن النَّبيّينَ والمُرسَلين، ومِصداقُ ما قُلناهُ قولُ اللّهِ تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ١٠١﴾ [سُــورة الأنبياء: ١٠١]، وقولُه عــزَّ وجلَّ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢﴾ [سُــورة يُونــس: ٦٢]، وقولُه أيضًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٣٠ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ٣١﴾ [سُورة فُصِّلَتْ: ٣٠-٣١].

ثالثًا: إحدى السُّورِ القَرائنِ الّتي يُقرأُ بها في صَلاةِ اللَّيلِ

روى أبو داودَ عن عَلْقمةَ والأسودَ قالَا: أتى ابنَ مَسعُودٍ رَجلٌ[١] فقال: إنّي أقرَأُ المُفصّلَ في رَكعةٍ، فقال: أهذًّا كهذِّ الشِّعرِ[٢] ونثْرًا كنَثْرِ الدَّقلِ[٣]؟! لكِنَّ النّبيَّ ﷺ كانَ يَقرأُ النَّظائِرَ[٤] السُّورتَينِ في رَكعةٍ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ والنَّجمَ في رَكعةٍ، ﴿ٱقْتَرَبَتِ﴾[٥] و﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾[٦] في رَكعةٍ، والطُّورَ والذّارياتِ في رَكعةٍ، ﴿إِذَا وَقَعَتِ﴾[٧] و﴿نٓ﴾ في رَكعةٍ، و﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ﴾[٨] والنّازِعاتِ

---

(١) واسمُه نَهيك بنُ سِنانٍ.

(٢) الهــذُّ سُرعةُ القَطعِ، ومعناهُ أتَهُذُّ تِلاوةَ القُرءانِ هَذًّا فتُسرِعُ فيه كما تُسرِعُ في قِراءةِ الشِّــعرِ، يُريدُ الإنكارَ علَيهِ بسببِ إفراطِه في السُّرعةِ كما هي الصِّفةُ الّتي كانتْ عادتَهُم في إنشادِ الشِّعرِ.

(٣) أي يخــرُجُ منكَ بسُرعةٍ كمــا أنّ الدَّقل - وهو اليابِسُ مِن التَّمرِ - لا يَكادُ يَلصَقُ بَعضُه بِبعضٍ فإذَا نُثِرَ وهُزَّ تَفرَّقَ سَرِيعًا وتَساقَطَ.

(٤) أي السُّوَرَ المُتماثِلةَ في المَعاني كالمَواعِظ والحِكَم والقَصَص أو لا المُتقارِبةَ في عدَدِ الآيِ، قاله القسطلّانيُّ وغيرُه.

(٥) وهي سُورةُ القمَرِ.

(٦) هو اســمٌ للقِيامةِ، سُمّيَ بذلكَ مِن الحَقِّ الثابت وذلك لأنّها ثابِتةُ الوُقوعِ لا رَيبَ فِيها.

(٧) وهي سُورةُ الواقِعةِ.

(٨) وهي سُورةُ المَعارِجِ.

في رَكعةٍ، ﴿وَيۡلٌ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾[١] و﴿عَبَسَ﴾ في رَكعةٍ والمُدَّثِّرَ والمُزَّمِّلَ في رَكعةٍ، و﴿هَلۡ أَتَىٰ﴾[٢]، و﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ في رَكعةٍ، و﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ والمُرسَلاتِ في رَكعةٍ، والدُّخانَ و﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾[٣] في رَكعةٍ.

رابِعًا: خاصِّيةُ[٤] قِراءَتِها للرِّزقِ

رُوِّينا في «عمَلِ اليومِ واللَّيلةِ» لابنِ السُّنِّي و«شُعَبِ الإيمان» للبَيهقِيّ عنِ ابنِ مَسعودٍ رضي اللَّه عنه أنّ رسولَ اللَّه ﷺ قال: «**مَن قرَأَ سُورَةَ الواقِعَةِ في كُلِّ لَيلَةٍ لَمْ تُصِبْهُ فاقَةٌ**[٥] **أبَدًا**». وفي رِوايةٍ: «**لَمْ يَفْتَقِرْ أبَدًا**». قالَ ابنُ مَسعودٍ: وقَد أمرتُ بَناتي أنْ يَقرَأْنَها كلَّ لَيلةٍ[٦].

وقال شيخُنا الإمامُ الزّاهِدُ الشّيخُ عبدُ اللّهِ الهرريُّ رضي اللّه عنه: «سُورةِ الواقِعةِ تُقرَأُ كُلَّ لَيلَةٍ بَينَ المَغرِبِ والعِشاءِ للرِّزقِ مُجرَّبةٌ، تُقرَأ بعدَ صَلاةِ

---

(١) أي الّذيــن يَرتكِبُون التّطفِيفَ وهُم الّذيــن إذَا اكتالُوا على النّاسِ يأخذُون حُقوقَهُم كامِلةً مِنهُم، وإذَا كالــوا للغَيرِ من أموالِهم أو وزَنُوا لهُم يُنقِصُون، وهو ذَنبٌ مِن الكبائِر.

(٢) وهي سُورةُ الإنسانِ.

(٣) أي جُمِع بَعضُها إلى بَعضٍ ثُمَّ لُفَّتْ وطُمِسَ ضَوؤُها.

(٤) بتَخفيفِ الياءِ.

(٥) أي حاجةٌ وفقرٌ.

(٦) هو ضَعِيفٌ مِن حيثُ السَّنَدِ لكن يجوزُ العمَلُ بِه لا بأسَ بذلكَ.

المَغرِب»[١].

وأخرَج ابنُ الضَّريسِ في «الفَضائِل» والحافظُ العَسقلانيّ في «نَتائِج الأفكار» أنّه لمّا حضرَتِ ابنَ مَسعودٍ الوَفاةُ قِيل له: ما ترَكْتَ لِبَناتِك؟ قال: ترَكتُ لَهُنّ سُورةَ الواقِعةِ.

وقال أبو حامِد الغزاليّ في «مِنهاج العابدِين»: «قِراءَة السُّورة عِندَ الشّدّة في أمرِ الرّزقِ والخَصاصةِ إنّما هو شيءٌ ورَدَتْ به الآثارُ المأثورةُ عن النَّبيّ ﷺ وعن الصَّحابةِ رِضوانُ الله علَيهِم أجمَعين؛ حتّى إنّ ابنَ مَسعُودٍ حِينَ عُوتِبَ في أمرِ ولَدِه إذْ لَم يَترُكْ لَهُم مِن الدُّنيا شيئًا قال: لقَد خَلَّفتُ لهُم سُورةَ الواقِعة».

فإنْ قيل: حملُ ما جاءَ في شأنِ سُورةِ الواقعةِ في شأنِ الرِّزقِ محمُولٌ علَى القَناعةِ والقُوّة لا علَى نَيلِ السَّعَةِ في الرِّزق، فالجوابُ كما قال أبو سعِيدٍ الخادِميُّ الحنفيّ في «بَريقة محمُوديّة» بأنّ قد قُرّر في كلامِ الأُصوليّين أنّ كُلّ أمرٍ ممكِنٍ جاءَ في الآثارِ فهو على ظاهرِه ما لَم يَصرِفُه قَطعيٌّ وكذلك لا يُصارُ إلى المَجازِ إلّا عِندَ تعذُّرِ الحَقيقةِ، وليسَ الأمرُ كذلكَ في شأنِ ما أُثِرَ في شأنِ سُورةِ الواقعةِ.

---

(١) ولا يُعارِضُ العمَلُ بذلكَ كونَ الرّزقِ مكتوبًا قد قدَّره اللهُ عزَّ وجلّ، كما أنّ عمَلَ المَرءِ بالأسبابِ لا يُغيّرُ شيئًا مِمّا قدَرَ اللهُ حُصولَه.

خامسًا: تَرغيبُ السَّلَفِ الصَّالحِ في قِراءَتِها

أخرَجَ أبو عُبَيدٍ في «الفَضائِل» عن سُلَيمانَ التَّيمِيّ أنّ السّيِّدَة عائشةَ رضي اللّه عنها قالتْ للنِّساءِ: «لا تَعجزْ إِحداكُنَّ أنْ تَقرَأَ سُورةَ الواقِعةِ».

وأخرَجَ أبو عُبَيدٍ والمُستَغفِريّ كِلاهُما في «الفَضائِل» وأبو نُعَيم في «الحِلية» عن مَسرُوقِ بنِ الأجدَعِ[1] رضي اللّه عنه قال: «مَن أرادَ أنْ يَعلَمَ نبَأَ الأوَّلِينَ والآخِرِينَ، ونبَأَ أهلِ الجنّةِ وأهلِ النّارِ، ونبَأَ الدُّنيا والآخِرةِ، فلْيَقرَأْ سُورةَ الواقِعةِ».

مِن مُجرَّباتِ بعضِ العُلماءِ في خَواصِّها

ذكَرَ العلّامة عفيفُ الدّين أبو محمّدٍ اليافعيّ الشافعيّ اليمَنِيّ المكّي في «الدُّرّ النَظِيم» فيما جُرِّب في سُورة الواقِعة:

- إذا قُرِئَت على مَيِّتٍ خُفِّفَ عنهُ.
- وإذَا قُرِئَت عِندَ مَرِيضٍ وجَدَ الرّاحة.
- وإذَا قُرِئَت عِندَ مُؤمِنٍ مُحتضَر سَهَّلَ اللّهُ علَيه.

(١) هو أحدُ كِبارِ التّابِعين الكُوفِيّين وعالِمٌ كبيرٌ في الفَتوى. قال الخطِيبُ في «تاريخ بَغداد» (١٥/ ٣١١): «يُقال: إنّه سُرِق وهو صَغيرٌ ثُمّ وُجِدَ فسُمّيَ مَسرُوقًا، وأسلَمَ أبوه الأجدَعُ، ورأى مَسرُوقٌ أبا بكرٍ وعُمرَ وعُثمانَ وعَلِيًّا وعبدَ اللّهِ بنِ مَسعودٍ وعائشةَ أمّ المُؤمِنينَ رضي اللّه عنهُم».

- وإذا عُلِّقت على المرأةِ عِندَ الطَّلقِ سَهَّل اللهُ علَيها.

- ومَن قرأَها علَى طَهارةٍ صَباحًا ومَساءً لَم يجُعْ ولَم يَعطَشْ ولم يَلحَقْهُ خَوفٌ.

وهي مُجرَّبةٌ للرِّزقِ وذلك مشهورٌ فيها.

وليسَ هذا مِمّا ورَد في حديثٍ ثابتٍ عن رسولِ اللّه ﷺ إنّما هو مِن مُجرَّباتِ أهلِ الخيرِ الصّالحِين.

تفسير سُورة الواقعة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

افتُتِحَتِ السُّورةُ بالإخبارِ عن ثُبوتِ أمرِ السّاعةِ والقِيامةِ؛ وذلكَ أنّه لمّا كان المُشرِكُون يُكذِّبُون بالقِيامةِ رَدَّ عليهم اللّٰهُ عَزَّ وجلَّ بِقَولِه: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ۝١﴾ أي قامتِ القِيامةِ وحدَثَتْ[١] ولا بُدَّ مِن ذلكَ عِند نَفخِ إسرافيلَ عليه السّلامُ النَّفخةَ الثّانيةَ في البُوقِ ﴿لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا﴾ أي لَم يَكُن لِقيامِها حِينئذٍ ﴿كَاذِبَةٌ ۝٢﴾ أي تكذِيبٌ ومَردُودِيّةٌ، بل يُعايِنُها الكاذِبُ بِها والمُصدِّق.

وحُكِي في سببِ نُزولِها أنّ المشركِين مُنكِري القِيامةِ قالُوا استِبعادًا: متَى يكونُ ما نُوعَد به؟! فنزَلَ قولُ اللّٰهِ تعالَى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ۝١﴾ معناهُ يُنجز الوَعدُ إذا وقعَتْ.

والواقعةُ مِن أسماءِ القِيامة، كالصّاخّةِ[٢] والطّامّةِ[٣]

---

(١) يُقال: «وقَعَ ما كنتُ أرتَقِبُه» أي حصَلَ ما كنتُ أنتظِرُ حُدوثَه.

(٢) سُمِّيَت بذلكَ لأنّ صوتَ النَّفخِ لِقيامِها يَصُخُّ الآذانَ أي يَصُمُّها.

(٣) في اللُّغةِ الدّاهِيةُ هو الأمرُ الّذي لا يُستَطاعُ، وسُمِّيَت القِيامةُ بذلك لأنّها تطُمّ على الدَّواهِي أي تَعلُو عليها.

والآزفةِ[١] ونحوِ ذلكَ ممّا جاءَ في القرءانِ الكريم، وكُلُّها أسماءٌ تُنبئُ عن عَظيم شأنِها. وسُمّيَتِ الواقِعةَ لأنّها كائِنةٌ لا مَحالةَ[٢]، أو لدُنُوّ موعِدِ وقوعِها[٣]، أو لِكَثرةِ ما يقَعُ فيها مِن الأهوالِ والشّدائِد، وقيل غيرُ ذلكَ.

وبيَّن عزَّ وجلَّ بعضَ صِفاتِ القِيامةِ فقال: ﴿خَافِضَةٌ﴾ أي هي خافِضةٌ إلى النّارِ أقوامًا كانُوا في الدُّنيا مُرتفعِين مُترفِّعِين ﴿رَّافِعَةٌ ٣﴾ إلى الجنّةِ أقوامًا كانُوا في الدُّنيا ضُعفاءَ مُستضعَفِين، فتَرفعُ أهلَ الطّاعةِ وتضَعُ أهلَ العِصيانِ، ولا أخفَضَ وأخزَى مِن الكافِرين أهلِ النّارِ[٤]، ولا أعلَى وأعَزَّ مِن المؤمنِين أهلِ الجنّةِ.

ونِسبةُ الخَفضِ والرَّفعِ إلى القِيامةِ مَجازٌ لأنّ الخافِضَ الرافِعَ[٥] على الحقيقةِ هو اللّهُ عزَّ وجلَّ.

---

(١) سُمّيَت بذلكَ لِأُزُوفِها أي قُربِها، يُقال: أَزِفَ الأمرُ إذا دنا.

(٢) قال اللّهُ تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٌ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [سُورة غافِر: ٥٩].

(٣) قال اللّهُ تعالَى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ [سُورة القمَر: ١].

(٤) قال اللّهُ تعالَى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [سُورة الأنفال: ٥٥].

(٥) مِن أسماءِ اللّهِ عزَّ وجلَّ «الخافِض الرّافِع» ومعناهُ الذي يَخفِضُ الكُفّار بالخِزيِ ويرفَعُ المُؤمنِين بالعِزّ، وهذان الاسمانِ مِن الأسماءِ المقرُونةِ فلا يُفرَد أحدُهما عن الآخر في الدُّعاء ونحوِه بل يُقال «الخافِضُ الرّافِعُ»، وكذلك «المُعِزُّ المُذِلُّ» و«النّافِعُ الضّارُّ»، أمّا عند سَوقِ الكلامِ فيقال: لا نافِعَ ولا ضارَّ على الحقيقةِ إلّا اللّهُ، ونحو ذلكَ.

ولمّا ذكَرَ اللّهُ تعالَى أنّ القِيامةَ ءاتِيةٌ لا مَحالةَ وبيّن بعضَ صِفاتِها أعقبَ ذلَك بذِكر بعضِ ما يكُون بعدَ وُقوعِها فقال: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ رَجّٗا ٤﴾ أي زُلزِلَتْ زِلزالًا قوِيًّا وحُرِّكَت تحرِيكًا شدِيدًا عقِبَ النَّفخةِ الثّانيةِ في البُوقِ حتّى انهَدَمَ كُلُّ ما علَيها، وخرجَ النّاسُ مِن جوفِها فنُقِلُوا مِنها إلى ظُلمةٍ عِندَ الصّراطِ.

﴿وَبُسَّتِ﴾ أي وإذا فُتّتِ ﴿ٱلۡجِبَالُ﴾ التي على الأرضِ ﴿بَسّٗا ٥﴾ أي فتًّا ﴿فَكَانَتۡ﴾ أي فصارَتْ ﴿هَبَآءٗ﴾ أي غُبارًا ناعِمًا ﴿مُّنۢبَثّٗا ٦﴾ أي مُتفرِّقًا مُبعثَرًا، وانخفَضَ ما علَى الأرضِ مِن مُرتفِعٍ وارتَفَع ما كان فِيها مِن مُنخفَضٍ، فذلكَ الوَقتُ هو الّذي يُعايِنُ فيه العِبادُ أنّ الواقعةَ قَد وقَعتْ والأرضَ تُبدَّلُ غيرَ الأرضِ.

روَى مُسلِمٌ في «صحيحِه» عن ثَوبانَ مولَى رسولِ اللّه[1] ﷺ قال: كنتُ قائِمًا عِندَ رَسولِ اللّهِ ﷺ فجاءَ حَبْرٌ مِن أحبارِ اليهُودِ[2] فقالَ: السّلامُ علَيكَ يا محمّدُ، فدَفعْتُه دَفعةً كادَ يُصرَعُ مِنها فقالَ: لِمَ تدفَعُنِي؟ فقُلتُ:

---

(١) أي خادِمُ رسولِ اللّهِ ﷺ، واسمُه ثَوبانُ بنُ بُجْدُد الهاشميُّ، ويقال: ابنُ جَحْدَرٍ، مِن أهلِ السّراةِ - جبلٍ مُشرفٍ على عرفةَ يَنقادُ إلى صَنعاءَ - أو مِن قبيلةِ حِميَرٍ أو أَلْهانَ. أُصيبَ بالسَّبْيِ فاشتَراهُ رسولُ اللّهِ ﷺ فأعتَقه، ولم يَزَل معَه في الحضَرِ والسَّفَرِ، فلَمّا تُوفّيَ رسولُ اللّهِ ﷺ خرَج ثَوبانُ إلى الشّامِ فنزَلَ الرَّمْلةَ ثُمّ انتقَل إلى حِمصَ فتُوفّيَ بها سنةَ خَمسٍ وأربعِينَ، وقيل غيرُ ذلكَ.

(٢) أي عالِمٌ مِن عُلمائِهم.

ألا تقول يا رَسولَ اللهِ، فقالَ اليَهُودِيُّ: إنّما نَدعُوهُ باسْمِه الّذي سَمّاهُ بِهِ أهلُه، فقالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اسْمِي مُحَمَّدٌ الَّذِي سَمَّانِي بِهِ أَهْلِي**»، فقالَ اليهُودِيُّ: جِئتُ أسأَلُكَ، فقالَ لهُ رَسولُ اللهِ ﷺ: «**أَيَنْفَعُكَ شَيءٌ إِنْ حَدَّثْتُكَ؟**» قالَ: أسمَعُ بأُذُنَيَّ، فنكَتَ رَسولُ اللهِ ﷺ بعُودٍ معه[١] فقالَ: «**سَلْ**»، فقالَ اليهُودِيُّ: أينَ يكُونُ النّاسُ يومَ تُبدَّلُ الأَرضُ غيرَ الأَرضِ والسّماواتُ؟ فقالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: «**هُمْ فِي الظُّلْمَةِ دُونَ**[٢] **الجِسْرِ**[٣]» الحديثَ[٤].

---

(١) أي ضربَ الأرضَ بِهِ فأثَّر فيها.

(٢) أي ناحِيةَ.

(٣) بفَتحِ الجِيمِ وكَسرِها والمرادُ هُنا الصِّراطِ.

(٤) وتتِمّـةُ الحديثِ: قالَ: فمَنْ أوّلُ النّاسِ إجازَةً؟ قالَ: «**فُقَرَاءُ المُهَاجِرِينَ**»، قال: فما تُحفَتُهم حِينَ يدخلُونَ الجَنّةَ؟ قالَ: «**زِيادَةُ كَبِدِ النُّونِ**»، قالَ: فَما غِذاؤُهـم علَى إثرِها؟ قالَ: «**يُنْحَرُ لَهُمْ ثَـوْرُ الجَنَّةِ الَّـذِي كَانَ يَأْكُلُ مِنْ أَطْرَافِهَا**» قالَ: فَما شَرابُهم علَيهِ؟ قالَ: «**مِنْ عَيْنٍ فِيهَا تُسَـمَّى سَلْسَبِيلًا**» قال: صَدَقتَ. قالَ: وجِئتُ أَسأَلُكَ عَن شَيءٍ لا يَعلَمُه أحَدٌ مِن أهلِ الأرضِ إلّا نَبِيٌّ أو رَجلٌ أو رَجُلانِ، قالَ: «**يَنْفَعُكَ إِنْ حَدَّثْتُكَ؟**» قالَ: أَسمَعُ بِأُذُنَيَّ، قالَ: جِئتُ أسأَلُكَ عنِ الوَلَدِ، قالَ: «**مَاءُ الرَّجُلِ أَبْيَضُ وَمَاءُ المَرْأَةِ أَصفَرُ، فَـإِذَا اجْتَمَعَا فَعَلَا مَنِيُّ الرَّجُـلِ مَنِيَّ المَرْأَةِ أَذْكَرَا بِـإِذْنِ اللَّهِ، وَإِذَا عَلَا مَنِيُّ المَـرْأَةِ مَـنِيَّ الرَّجُلِ آنَثَا بِـإِذْنِ اللَّهِ**»، قالَ: لقَدْ صَدَقـتَ، وإنّكَ لَنبِيٌّ، ثُمّ انصَرَفَ فذَهَبَ فقالَ رَسـولُ اللهِ ﷺ: «**لَقَدْ سَـأَلَنِي هَذَا عَنِ الَّذِي سَأَلَنِي عَنْهُ وَمَا لِي عِلْمٌ بِشَيءٍ مِنْهُ حَتَّى أَتَانِيَ اللَّهُ بِهِ**» أي أَوحَى بِهِ اللهُ إلَى نَبيِّه ﷺ.

ففي هذا الحديثِ دليلٌ على أنّ النّاسَ يكونُونَ في مكانٍ خارِج الأرضِ حِينَ تُبدَّلُ الأرضُ؛ وفي ذلكَ اليومِ تُبدّلُ أشياءُ غيرُ الأرضِ: فتَتشقَّقُ السَّماواتُ وتتكسَّرُ ثُمّ تُطوى، وتَشتعِلُ البِحارُ نارًا، وتنطَفِئُ النُّجومُ وتتساقَطُ، ويَذهبُ ضَوءُ الشَّمسِ، وتفصِيلُ ذلكَ وارِدٌ في القرءانِ الكريمِ؛ فقَد روَى أحمدُ في «مُسنَدِه» والترمذيُّ في «سُنَنِه» وغيرُهما عن ابنِ عمرَ رضي اللَّه عنهما أنّ رسولَ اللَّه ﷺ قال: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى يَوْمِ القِيامَةِ كَأَنَّهُ رَأْيَ عَيْنٍ فَلْيَقْرَأْ**: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾، و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾، و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾»[1].

ثُمّ ذكَرَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ أحوالَ النّاسِ واختِلافَهُم فقال تعالَى: ﴿وَكُنتُمۡ﴾ أي وتصِيرُونَ أيُّها النّاسُ في ذلكَ اليومِ ﴿أَزۡوَٰجٗا﴾ أي أصنافًا ﴿ثَلَٰثَةٗ ۝٧﴾ صِنفانِ مُخلَّدٌ في الجنّةِ وواحِدٌ مُخلَّدٌ في النّارِ.

ثُمّ فَسّرَ الأصنافَ الثّلاثةَ وفصَّلَها فقال تعالَى: ﴿فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ أي وإذا أرَدتَ تفصِيلَ الأصنافِ الثّلاثةِ فأقول لكَ: الصِّنفُ الأوّلُ هم الّذين يُؤتَون صُحفَ أعمالِهم بأيمانِهم أو أنّهُم أصحابُ المَيمَنةِ بمعنَى الّذين يُؤخَذُ بهم ذاتَ اليَمينِ إلَى الجنّةِ[2] أي ما أسعدَهُم وما أعظَمَ ما يُجازَون به.

---

(١) أي سُورةَ التّكويرِ والانفطارِ والانشقاقِ.

(٢) وفي أصحابِ المَيمَنةِ سِتّةُ أقوالٍ أُخرَى، كلُّها تُفيدُ أنّهُم مُؤمِنُون.

﴿وَ﴾ الصِّنفُ الثّاني ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ أي الشِّمالِ، وهُم الّذين يُؤتَون صُحفَ أعمالِهم بشَمائلِهم مِن ورَاءِ ظُهورِهم وهُم الكافِرُون أو أنَّهُم أصحابُ الشِّمالِ بمعنَى الّذِين يُؤخَذُ بهِم ذاتَ الشِّمالِ إلَى النّارِ[١] ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ٩﴾ أي ما أشقاهُم وأخزاهُم وما أشَدَّ ما يَلقَون مِن العَذابِ.

وقد جاءَ في الحديثِ الّذي رواهُ أحمدُ وأبو يَعلَى والفِرْيابِيُّ - واللَّفظُ له - عن أبي موسَى الأشعريّ رضي اللّه عنه أنّ رسولَ اللّه ﷺ أخبَرَ أنّ اللّهَ عزَّ وجلَّ خلَقَ النّاسَ فِئتَين وقال: «**هَؤُلاءِ أَصْحابُ الْيَمِينِ وَلا أُبالِي**[٢]، **هَؤُلاءِ أَصْحابُ الْجَنَّةِ، وَهَؤُلاءِ أَصْحابُ الشِّمالِ وَلا أُبالِي، هَؤُلاءِ أَصْحابُ النّارِ**».

فائدة: تقُول العربُ: اليَدُ اليُمنَى واليَدُ الشُّؤمَى أي اليُسرَى لا على معنَى التّشاؤُمِ الّذي كان عادةً في الجاهليّة، ويُقال: المَيمنَةُ والأَيمَنُ في مُقابَلةِ المَشْأمةِ والأشْـأمِ، وقال بعضُ اللُّغويّين: مِن هُنا أُخِذ اليُمْن والشُّؤْم، واليَمَن والشَّأْمُ.

﴿وَ﴾ الصِّنفُ الثّالثُ ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ١٠﴾ أي الّذين سبقُوا إلى الإيمانِ باللّهِ ورَسُولِه مِن كُلِّ أمّةٍ، والتّكرارُ للتّوكِيدِ، وقال بعضُهم:

---

(١) وفي أصحابِ الشِّمالِ أقوالٌ أُخَرُ تُقابِلُ الأقوالَ في أصحابِ اليَمينِ.

(٢) أي لا يَنتفِعُ اللّهُ بأحَدٍ ولا يَنضَرُّ مِن أحَدٍ.

معناهُ ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ إلى طاعةِ اللّهِ عزَّ وجلَّ في الدُّنيا هُمُ ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ إلى رحمةِ اللّهِ في الآخرةِ[(١)] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المتّصِفُون بذلكَ النَّعتِ الجليلِ هُم حَصْرًا ﴿ٱلْمُقَرَّبُونَ ١١﴾ أي مِن رَحمةِ اللّهِ ورِضاهُ فقُرِّبَت درَجاتُهم من العَرشِ ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ١٢﴾ وأُعلِيَت مَراتِبُهم فِيها، وإنّ أعلَى الجنّةِ الفَرادِيس الّتي هي وسَطُ الجنّةِ وأعلاها؛ وقد صحَّ في الحديثِ الّذي رواهُ البُخاريّ وابنُ حِبّانَ في «الصّحِيح» والترمذيُّ في «سُنَنِه» وغيرُهم عن أبِي هُريرةَ رضي اللّه عنه أنّ رَسولَ اللّه ﷺ قال: **«إنَّ في الجَنَّةِ مِائةَ دَرجَةٍ، أَعَدَّها اللّهُ لِلْمُجاهِدِينَ فِي سَبِيلِه، كُلُّ دَرجَتَيْنِ ما بَيْنَهُما كَما بَيْنَ السَّماءِ والأَرْضِ، فَإذَا سَأَلْتُمُ اللّهَ فَسَلُوهُ الفِرْدَوْسَ فَإنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ وَأَعْلَى الجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحمنِ[(٢)]، وَمِنْهُ[(٣)] تَفَجَّرُ أَنْهارُ الجَنَّةِ[(٤)]»**.

---

(١) وفي تفسير السّابقِين أقوالٌ أُخرَى كثيرةٌ، كُلُّها تدُلُّ على كونِهم أعلَى مِن عوامِّ المُؤمنِين درَجةً.

(٢) أي العرشُ الّذي عَظَّمَ الرّحمنُ شأْنَه، والعَرشُ سَقفُ الجنّةِ، واللّهُ عزَّ وجلَّ موجودٌ أزلًا وأبدًا بلا مَكانٍ ولا جِهةٍ، فلا هو فوقَ العرشِ ولا تحتَه ولا في غيرِ ذلكَ مِن الأماكِن، هو اللّه عزَّ وجلَّ خالِقُ العالَمِ بأسْرِه ولا يحتاجُ إلى شيءٍ منه، هذا اعتِقادُ المُسلمِين، ومَن خالَفَ في ذلكَ كان كافِرًا باللّهِ.

(٣) أي مِن الفِردَوسِ.

(٤) أي مِنه تخرُجُ أُصولُها جاريةً في سائِر الجنّةِ.

ولمّا ذكَرَ عزَّ وجلَّ السّابقِينَ عرَّفَهُم بنَعتٍ ءاخرَ فقال تعالَى: ﴿ثُلَّةٞ﴾ أي في السّابقِين المذكُورِين جَماعَةٌ كبيرةٌ ﴿مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣﴾ أي من مُتقدّمِي هذه الأُمّةِ، وقد صحَّ عن رسولِ اللَّه ﷺ أنّه قال: «خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي»، فأهلُ المائةِ سنَةِ الأُولَى الّتي كان فيها رسولُ اللَّه ﷺ أفضلُ مِمّن جاءَ بَعدَهُم مِن حيثُ الإجمالُ، أمّا مِن حيثُ التّفصيلُ فقد يكونُ فَردٌ مِمّن جاءَ بَعدَهم أفضلَ مِن فَردٍ مِن أفرادِ القَرنِ الأوّلِ، فمَن كان صحابِيًّا وأخبَرَ عنه رسولُ ﷺ أنّه يكونُ في النّارِ لِذَنبٍ كبيرٍ كان قد اقترَفَهُ وماتَ غيرَ تائبٍ مِنهُ لا يكونُ أفضلَ مِن تَقِيٍّ أو ولِيٍّ ظَهَرَ في ءاخِرِ الزَّمانِ؛ وذلكَ لأنّ العِبرةَ بالتّقوَى أوّلًا كما قال عزَّ وجلَّ ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ [سُورة الحُجُرات: ١٣].

﴿وَقَلِيلٞ﴾ أي وفي السّابقِينَ عدَدٌ قليلٌ ﴿مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ١٤﴾ أي مِن مُتأخِّرِي هذه الأُمّةِ مِن حيثُ الزّمانُ[١]، فأكثَرُ متأخِّرِي الأُمّةِ ليسُوا مِن السّابقِينَ.

فائدة: روَى البُخاريُّ في «صَحِيحِه» وبعضُ أصحابِ السُّنَنِ عن أبي هريرةَ رضي اللَّه عنه قال: افتَتَحْنا خَيبَرَ ولَم نَغْنَم ذهَبًا ولا فِضّةً، إنّما غَنِمْنا البقَرَ والإبِلَ والمَتاعَ والحوائطَ[٢] ثُمّ انصَرَفْنا مع رسولِ اللَّه

---

(١) وفي تفسيرِ الأوّلِين والآخِرين في هاتَين الآيتَين أقوالٌ أُخَرُ للعُلَماءِ، لكِن ما ذكَرناهُ هو الّذي صوّبَه واعتمَده شيخُنا العلّامةُ المحقّقُ الهرَريُّ رحمه اللَّهُ.

(٢) أي ما في البَساتِين.

ﷺ إلى وادي القُرى، ومعَه عبدٌ له يُقالُ له مِدعَمٌ أهدَاهُ له أحَدُ بَنِي الضِّبابِ، فبينَما هو يَحُطُّ رَحْلَ رَسولِ اللَّه[١] ﷺ إذْ جاءَه سَهمٌ عائِرٌ[٢] حتّى أصابَ ذلكَ العَبدَ، فقالَ النّاسُ: هَنِيئًا لهُ الشّهادةُ، فقالَ رسولُ اللَّه ﷺ: «**بَلْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ[٣]، إنَّ الشَّمْلَةَ[٤] الَّتِي أَصَابَهَا يَوْمَ خَيْبَرَ مِنَ المَغَانِمِ لَمْ تُصِبْهَا المَقَاسِمُ[٥] لَتَشْتَعِلُ عَلَيْهِ نَارًا**».

فقولُ رسولِ اللَّه ﷺ ذلكَ يُثبِتُ أنّ مِدعَمًا صحابِيٌّ يُعذَّبُ بعدَ موته علَى ذَنبِ الغُلولِ وهو كبِيرةٌ بالإجماع.

وكذلكَ روَى البُخاريّ في «صحِيحِه» وبعضُ أصحابِ السُّنَنِ عن عبدِ اللَّه بن عمرٍو قال: كانَ علَى ثَقَلِ[٦] النّبِيّ ﷺ رجُلٌ يُقالُ له كِرْكِرةُ فماتَ، فقالَ رَسولُ اللَّه ﷺ: «**هُوَ فِي النَّارِ**»، فذهَبُوا يَنظُرُون إليه[٧]

---

(١) أي يأخُذ الرَّحْل عن ظَهرِ المَركُوبِ ويضَعُه علَى الأرضِ.

(٢) أي سَهمٌ لا يُدرَى رامِيه.

(٣) أي أحلِفُ باللَّهِ الّذِي نَفْسِي تحتَ مَشِيئتهِ وتَصرُّفِه، واللَّهُ مُنزّهٌ عنِ الجارِحَةِ والعُضوِ.

(٤) كِساءٌ يَشتمِلُ به المَرءُ.

(٥) أي أخذَها مِن المَغانِم قبلَ القِسمة الشّرعِيّة، والغَنِيمةُ مُشتَركَةٌ بينَ الغانمِين، فكانَ أخذُه لها غُلولًا وهو ذنبٌ مِن الكبائرِ.

(٦) أي مَتاعِ.

(٧) أي إلى ما فَعلَ لِيَستحِقّ العَذابَ.

فوجَدُوا عَباءةً قد غلَّها[١].

وروَى ابنُ حِبّانَ في «صَحيحِه» وأحمدُ وأبو يَعلَى في «المُسنَدِ» وغيرُهما عن ابنِ مَسعودٍ رضي الله عنه أنّ رَجُلًا كان يَقعُدُ معَ أهلِ الصُّفّةِ يسألُ النّاسَ وهو يُظهِرُ حاجتَهُ، فلَمّا ماتَ وجَدُوا في شَمْلَتِه دِينارَينِ فقال النّبيُّ ﷺ: «كَيَّتانِ» أي في النّارِ عُقوبةً له على سؤالِه النّاسَ المالَ إلحافًا وتَكثُّرًا وهو غيرُ مُحتاجٍ إلى الشّحاذةِ، فذلك داخِلٌ بأكلِ المالِ بطَرِيقٍ مُحرَّمٍ.

ولا يَقدَحُ ما ذكَرناه في قضِيّةِ عَدالةِ الصّحابةِ في الرّوايةِ، لأنّه إذا قِيل: «الصّحابةُ عُدول» فمحمولٌ على الرّوايةِ ومعناه أنّه لا يُوجَد فِيهم مَن يَكذِبُ على رسولِ الله ﷺ، وليسَ معناهُ أنّه لا يقعُ أحَدُهم في ذَنب مِن الذُّنوب، وإلّا فمِن أولئكَ مَن ثبَتَ أنّهُم زنَوا وشَرِبُوا الخَمرَ وهُم مُسلمُونَ فأقامَ رسولُ الله ﷺ عليهِم حَدَّ الزّنَى وشُربِ الخَمرِ، وفي ذلك يقولُ الحافظُ أبو سعِيدٍ العلائيُّ في «تَحقيق مُنِيفِ الرُّتْبةِ لِمَن ثَبَت له شَرِيفُ الصُّحبة» (ص/ ٨٦): «ليسَ المعنَى بعَدالةِ كُلِّ واحدٍ مِن الصَّحابةِ رضي الله عنهُم أنّ العِصمةَ له ثابتةٌ والمَعصِيةَ علَيه مُستحِيلةٌ، ولكِن المعنَى بهذا أنّ رِوايتَه مَقبولةٌ وقولَه مُصدَّقٌ ولا يَحتاجُ إلى تَزكيةٍ كما يَحتاجُ غيرُه إلَيها»[٢].

---

(١) أي أخذَها مِن المَغانِم قبلَ القِسـمة الشّرعِيّـة، والغُلولُ ذنبٌ مِن الكبائرِ إجماعًا.

(٢) وبنَحوِ ذلـكَ صرَّح الحافظ السَّـخاويّ في «فَتح المُغِيـث» (٣/ ٩٦)، =

فيتبيَّنُ مِمّا سبقَ أنّه لا يَصِحُّ قولُ مَن قالَ: «كُلُّ صَحابِيٍّ أفضَلُ مِن كُلِّ مَن جاءَ بَعدَه» لأنّ العِبرةَ في الأمرِ بِما عِندَ اللهِ، وقد سبَقَ قولُ اللهِ تعالَى: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾، وهو دلِيلٌ قاطِعٌ على أنّ التّقيَّ أفضَلُ مِن غَيرِه، فمَن جاءَ مِن بعدِ الصّحابةِ وكان تقيًّا هو أفضَلُ مِن صَحابِيٍّ غيرِ تَقِيٍّ كالّذينَ أخبَرَ عنهُم رسولُ اللهِ ﷺ أنّهُم مُعذَّبُون لِمَوتِهم على ذَنبٍ كَبيرٍ مع أنّهُم مِن الصّحابةِ، ومَن قال بِخلافِ هذا فقَد افْتَرى وخرَجَ عن صَرِيح القرءانِ.

ثُمّ ذَكَر اللهُ عزَّ وجلَّ حالةً أُخرى للسّابقِينَ المُقرَّبينَ في الجنّةِ فقال تعالَى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٖ﴾ أي وتَكُونُ مَجالِسُ السّابِقِين في الجنّةِ على سُرُرٍ[1] ﴿مَّوۡضُونَةٖ ١٥﴾ أي مَنسُوجةٍ بالذّهَب مُشبَّكَةٍ بالدُّرِّ والياقوتِ[2] حالَ كَونِهم ﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا﴾ مُستَرِيحِين في جِلسَتِهم[3] ﴿مُتَقَٰبِلِينَ ١٦﴾ أي وُجوهُ بَعضِهم إلى بَعضٍ لا يَستدبِرُ بعضُهم بَعضًا، ولا كُلفَةَ علَيهم في التّلاقِي للتّخاطُبِ، فإذَا أرادَ المؤمِنُ أنْ يجلِس على سَرِيرِه تواضعَ

= وزكريا الأنصاريّ في «فَتح الباقي» (٢/ ١٩١).

(١) جَمعُ سَرِيرٍ.

(٢) والوَضْنُ ثَنْيُ الشيءِ بَعضِه علَى بعضٍ ومُضاعفَتُه.

(٣) الاتّكاءُ التّحامُل علَى الشيءِ، واتّكاءُ أهلِ الجنّةِ عن راحةِ جِسمٍ وخلُوّ قلبٍ مِن المنغِّصاتِ، وذلك باعِثٌ على الجلوسِ جِلسةَ المتنعِّمِ الّذي لا يخشَى زَوالَ نَعِيمِه.

السّريرُ له ونزَلَ، فإذَا جلَس عليه ارتفعَ به، فإذَا أرادَ أن يرى صدِيقًا له طارَ بِهِ السّريرُ حتّى ينزِلَ بجانبِ سَرير مَن يُريدُ لِقاءَه فيَجلِسانِ ويَتحدَّثان ثُمّ يَعُود به السّريرُ إلى مكانِه، فلا مشّقةَ ولا تعبَ في ذلكَ ولا يحصُل ملَلٌ من انتظارِ لِقاءٍ أو بُعدِ مَسافةٍ لأنّ الاجتماعَ سَهلٌ، كما أنّه يَركَبُ الواحِدُ مِنهُم إذا أرادَ خَيلًا لها أجنحةٌ تَطِيرُ به حيثُ يَشاءُ، وفي كُلِّ ذلكَ لا مَشقَّة ولا طُولَ انتظارٍ لنَيلِ المُرادِ مَهمَا بَعُدَتِ المَسافةُ، بخِلافِ المُسافِرِ في الدُّنيا فإنّه يَتعَبُ ويَمَلُّ مِن السّفَرِ الطّويلِ غالِبًا.

ثُمّ ذَكَر عزَّ وجلَّ ما لهُم مِن خَدَمٍ وحشَمٍ في الجنّةِ فقال تعالَى: ﴿يَطُوفُ﴾ أي يَدُورُ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ أي على أولئكَ السّابقِينَ لخِدمَتِهم ﴿وِلۡدَٰنٞ﴾ أي غِلْمانٌ حِسانُ الشَّكلِ والزِّيِّ والهَيئةِ ﴿مُّخَلَّدُونَ ١٧﴾ لا يَهرَمُون ولا يَتغيَّرُونَ ولا يَمُوتونَ بل يَبقَونَ علَى عُمرٍ واحِدٍ بشَكلِ الوِلدانِ على مَرِّ الأزمنةِ(١)، يُشبِهُون بَنِي ءادمَ في الصُّورةِ لكن ليس لَهُم لِحًى ولا هُم من جِنسِ البشَرِ أو الجِنّ أو الملائكةِ بل خَلقٌ خاصٌّ خلَقَهُم اللّهُ تعالَى لخِدمةِ أهلِ الجنّةِ لَم يُوجَدُوا عَن وِلادةٍ، وإنّما أُطلِق علَيهم اسمُ الوِلْدان بمعنَى الغِلمانِ لأنّ العربَ تُسمّي الغُلامَ وَلِيدًا ما لَم يَحتَلِمْ كما تُسمّي الأمةَ وَلِيدةً لذلكَ، وأقَلُّ ما يكونُ للمُؤمنِ مِن الوِلدانِ في الجنّةِ عشَرةُ ءالافٍ، ومِن جُملةِ خِدمَتِهم لأهلِ الجنّةِ طَوافُهم عليهم ﴿بِأَكۡوَابٖ﴾ جمع

(١) قال شـيخُنا المفسّرُ الهرريُّ رحمه الله: «الوِلدانُ المُخلَّدُونَ في صُوَرِ الشّبابِ الّذين يَصلُحُونَ للخِدمةِ كهَيئةِ أربعةَ عشَرَ وثَلاثةَ عشَرَ واثنَتيْ عشْرةَ».

كُوبٍ أي بأقداحٍ لا عُرَى[١] لها ولا خَراطِيم[٢]، يَشربُ مِنها الشّارِبُ مِن أيِّ جِهةٍ أرادَ، ﴿وَأَبَارِيقَ﴾ جمع إبريقٍ[٣] أي وبآنيةٍ ذاتِ عُرًى وخَراطِيمَ فيها مِن المَشارِب ما تَشتهي الأنفُس وتَلَذُّ الأعيُنُ ﴿وَكَأْسٍ﴾ أي قدَحٍ فيها ﴿مِّن﴾ خمرٍ ﴿مَّعِينٍ ۝١٨﴾ أي جاريةٍ مِن منبَعٍ لا يَفيض ولا يَنقطِعُ، وخمرُ الجنّةِ لذيذُ الطَّعم طيّبُ الرّائحةِ ليسَ بنَجسٍ ولا مُسكِرٍ، يَشرَبُ مِنه أهلُ الجنّةُ ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ﴾ أي لا يَلحق رُؤوسَهُم صُداعٌ مُسبَّبًا ﴿عَنْهَا﴾ أي عن شُربها ولا مُسبَّبًا عن غيرِها ﴿وَلَا يُنزِفُونَ ۝١٩﴾ أي ولا تَغيبُ عُقولُهم مِن شُربها ولا يَسكَرُون، بخلافِ خَمرِ الدُّنيا فإنّها نَجِسةٌ خبيثةٌ مُنتِنةٌ مُسكِرةٌ تُصدِّعُ رُؤوسَ شارِبِيها غالبًا.

وقَد جعَلَ اللّهُ عزَّ وجلَّ لأهلِ الجنّةِ أنهارًا مِن خَمرٍ لا يتغيَّرُ طعمُها ولا يملُّها الشارِبونَ بل يَشرَبُونَ مِنها التِذاذًا وتنعُّمًا، قال تعالى: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [سُورة محمّد: ١٥]، وليسَت هي خمرًا حاصِلًا مِن مُعالجَةِ أَيدِي أو أرجُلِ عَمَلةٍ، بل يَخلُقُها اللّهُ عزَّ وجلَّ علَى هَيئتِها الّتي تبقَى علَيها في الجنّةِ فلا تَتطوَّرُ أطوارًا بحَيث إنّها تصِيرُ صالحَةً للشُّرب بعدَ أنْ لَم تَكُن، لا، بل هي مُعدَّةٌ لأهلِ الجنّةِ ابتِداءً لَذَّةً لهُم ونَعيمًا،

(١) أي لا ءاذانَ لها تُمسَك بها.

(٢) وهي ما يُصَبُّ مِنها.

(٣) سُمِّيَ الإبريقُ بذلِك لِبَريق لَونه مِن صَفائِه أو لأنّه يُرَى باطِنُه كما يُرَى ظاهِرُه.

فالاسمُ الخَمرُ ولكنَّ الطَّعمَ غايةٌ في اللَّذّة.

ويُحْرَمُ بعضُ النّاسِ مِن شُربِ خَمرِ الجنّةِ فيها وهو مَن شَربِ الخَمرَ في الدُّنيا ومات مؤمِنًا مِن أهلِ الكبائِرِ غيرَ تائبٍ مِن هذا الذّنبِ؛ فقد صحَّ في الحديثِ الّذي رواهُ الشَّيخانِ ومالِكٌ وبعضُ أصحابِ السُّنَنِ عن ابنِ عُمرَ رضي الله عنهما قال: «**مَن شَرِبَ الخَمْرَ فِي الدُّنْيا ثُمَّ لَمْ يَتُبْ مِنْهَا حُرِمَهَا فِي الآخِرَةِ**».

فائـدة: شُربُ الخَمرِ في الدُّنيا معصيــةٌ كبيرةٌ بنصّ القُرءان والحديثِ الصحيــحِ والإجماعِ، ويحصُل مِن شُربِها مِن المَفاسِـــد ما لا يُحصِيه إلّا اللهُ، فمِن ذلكَ:

١- أنّ شارِبَها إذا سَكِرَ صارَ ضُحكةً للنّاسِ ومَذمَّةً عِندَ العُقَلاءِ: مِن ذلكَ ما ذكَره الحافظُ ابنُ أبي الدُّنيا أنه قال: رأيتُ سَكرانَ في بَعضِ سِكَكِ بَغدادَ(١) يَبولُ ويَتمسَّحُ بِبَولِه وهو يقُول: اللهم اجعَلني مِن التوّابين واجعَلني مِن المُتطَهّرين.

٢- وهي مُتلِفةٌ للمالِ مُذهِبةٌ للعَقلِ.

٣- وشُربُها سببٌ للعَداوة بينَ الأقارِب والأصدقاءِ: قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَٰوَةَ وَالْبَغْضَآءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَوٰةِ﴾ [سُورة المائدة: ٩١] واللهُ أصدَق القائِلينَ.

---

(١) أي طُرُقِها.

٤- وشُربُها مانعٌ مِن الالتفاتِ إلَى ذِكرِ اللهِ وأداءِ الصَّلاةِ والطّاعة: ودلِيلُه الآيةُ السّابِقةُ، ويَشهَدُ لذلكَ حالُ شارِبِي الخُمورِ.

٥- وشُربُها يَحمِلُ شارِبَها علَى الزّنَى: وقَد حصَل مِن بعضِهم أنْ زنَى بابنتِه، فلَمّا أفاقَ مِن سُكرِه وجَدَ ذلكَ فقتلَها وقتَل نفْسَه[١].

٦- وشُربُها فاتِحٌ على المرءِ بابَ الشُّرورِ: فإذا شَرِبَها استهانَ بعدَها بالوُقوعِ فِي المعاصي، فقَد روَى ابنُ ماجهْ في «سُنَنِه» عن أبي

---

(١) رُوّينا في كِتابِ «الأُمِّ» للإمامِ الشّافعيِّ رضي اللهُ عنهُ قال: أخبرَنا ابنُ عُيينةَ عن أبي سَعدٍ سَعيدِ بنِ المَرزُبانِ عن نَصرِ بنِ عاصِمٍ قالَ: قالَ فروةُ بنُ نوفَلٍ الأشجَعِيُّ: عَلامَ تُؤخَذُ الجِزيةُ مِن المَجُوسِ وليسُوا بأهلِ كِتابٍ؟ فقامَ إليه المُستَوردُ فأخذَ بلُبّهِ وقالَ: يا عَدُوَّ اللهِ تَطعَنُ علَى أبِي بَكرٍ وعلَى أمِيرِ المُؤمِنينَ - يَعنِي علِيًّا - وقَد أخذُوا منهُم الجِزيةَ. فذَهَبَ به إلَى القَصرِ فخَرَجَ عليٌّ عليهِما فقالَ: الْبِدا، فجَلَسا فِي ظِلِّ القَصرِ فقالَ علِيٌّ رَضِيَ اللهُ عنهُ: «أنا أعلَمُ النّاسِ بالمَجُوسِ، كانَ لهُم عِلمٌ يَعلَمُونهُ وكِتابٌ يدرُسونهُ، وإِنَّما مَلِكُهُم سَكِرَ فوقَعَ علَى ابنَتِه أو أُختِه فاطَّلَعَ علَيه بَعضُ أهلِ مَملَكَتِه، فلَمّا صَحا خافَ أن يُقِيمُوا علَيه الحَدَّ فامتَنَعَ منهُم فدَعا أهلَ مَملَكَتِه فلَمّا أتَوهُ قالَ: تَعلَمُونَ دِينًا خَيرًا من دِينِ ءادَمَ؟ وقَد كانَ ءادَمُ يَنكِحُ بَنِيه بَناتِه، وأنا علَى دِينِ ءادَمَ، ما يَرغَبُ بكُم عن دِينِهِ؟! فتابَعُوهُ وقاتَلُوا الّذِينَ خالَفُوهُ حتّى قتَلُوهُم، فأصبَحُوا وقَد أُسرِيَ علَى كِتابِهِم فرُفِعَ مِن بَينِ أظهُرِهِم وذَهَبَ العِلمُ الّذِي فِي صُدُورِهِم، فهُم أهلُ كِتابٍ (أي فِيما كانُوا ولكنّه يَحرُم علَى المُسلِمِ النّكاحُ مِنهُم)، وقَد أخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وأبُو بَكرٍ وعُمَرُ مِنهُم الجِزيَةَ».

الدَّرداءِ رضي اللَّه عنه قال: أوْصاني خليلي ﷺ: «**لَا تَشْرَبِ الْخَمْرَ فَإِنَّهَا مِفْتَاحُ كُلِّ شَرٍّ**».

٧- نُفورُ النّاسِ مِن الرّائحةِ المُنتِنةِ الفائحةِ مِن شاربِها.

٨- حِرمانُ شاربِها مِن الثّوابِ في صَلاتِه ما دامت في مَعِدَتِه أي لا ثوابَ له فيها وإنْ صحَّتْ مِنه إنْ أتى بِأَركانِها وشُروطِها.

٩- تَعرُّضُ المُدمِن علَى شُربِها لخطَرِ سُوءِ خاتِمَتِه: فقَد روَى ابنُ ماجهْ في «سُنَنِه» عن أبي هُريرةَ رضي اللَّه عنه أنّ رسولَ اللَّهِ ﷺ قالَ: «**مُدْمِنُ الخَمْرِ كَعابِدِ وَثَنٍ**» معناه ذَنبُه كبيرٌ، والمُدمِنُ علَى الخمرِ المُواظِبُ على شُربِها المُداوِمُ على ذلكَ، وليسَ معناهُ أنّ مُجرَّدَ شُربِ الخمرِ لِمَن لا يَستحِلُّها كُفرٌ[1] بل هو كما قال بعضُ العُلماء: تشبيهٌ للمُدمِن على شُربِها وعدَمِ تَركِهِ لَها بِمُلازَمةِ المُشرِكِ الوثنَ الذي يَعبُدُه بباطِلٍ وعدمِ انتِهائه عن شِركِه، ففي ذلكَ تغليظٌ شديدٌ. وقد يُبتلَى مُدمِنُ الخمرِ بِسُوءِ الخاتمةِ عِندَ الموتِ؛ إذ إنّ الشّيطانَ يَتخبَّطُ مَن كان مِن أمثالِ أولئك فيُحرِّكهم ليَترُكوا الإسلامَ وَيقَعُوا في الكُفرِ والعِياذُ باللَّه.

---

(١) قال الإمامُ أبو جعفرٍ الطَّحاويُّ رضي اللَّه عنه في «مُختصَر اختلافِ العُلماءِ» (٤/ ٣٧٤): «فاتّفقتِ الأُمّةُ أنّ عَصيرَ العِنبِ الّذي اشتَدَّ وغَلَى وقذَفَ بالزَّبَد فهو خَمرٌ وأنّ مُستحِلَّه كافِرٌ».

وهذا بعضُ ما يُصِيبُ شرَبةَ الخُمورِ في الدُّنيا مِن مَفاسِدَ، فإذا ماتَ بلا توبةٍ مِن ذَنبِه ولَم يَعفُ اللَّهُ عنهُ فإنّ له في الآخرةِ عُقوباتٍ كَثيرةً مِنها أنّه يُسقى عُصارةَ جُلودِ أهلِ النّارِ الذّائبةِ المُحترِقةِ وتُسمَّى «طِينةَ الخَبالِ»(١)؛ فقَد صحَّ في الحديثِ الّذي رواهُ مُسلِمٌ وبعضُ أصحابِ السُّنَنِ عن جابرٍ رضي اللَّه عنه أنّ رسولَ اللَّه ﷺ قالَ: «**كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ، إِنَّ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَهْدًا**(٢) **لِمَنْ يَشْرَبُ الْمُسْكِرَ أَنْ يَسْقِيَهُ مِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ**(٣)» قالُوا: يا رَسولَ اللَّهِ، وما طِينةُ الخَبالِ؟ قالَ: «**عُصَارَةُ أَهْلِ النَّارِ**»، وفي روايةٍ: «**صَدِيدُ أَهْلِ النَّارِ**»، وفي أُخرَى: «**عَرَقُ أَهْلِ النَّارِ**».

تحذيرٌ: ما يقولُه بعضُ النّاسِ مِن أنّ «ناظِرَ الخَمرِ ولو عَن غيرِ رَغبةٍ فيها مَلعونٌ عِندَ اللَّهِ» هو كلامٌ مُعارِضٌ لدِينِ اللَّه، ويجِبُ على قائِلِ ذلكَ أو مُعتقدِه أنْ يتبرّأَ مِن ذلكَ ويرجِعَ إلى الإسلامِ بالنُّطقِ بالشّهادتَين. ومَن يَنسُبُ ذلكَ الكلامَ الكُفريَّ إلى رسولِ اللَّه ﷺ هو أشَدُّ كُفرًا مِن الأوّلِ، حاشا لِنَبيِّ اللَّه أنْ يقولَ ذلكَ، ومُقتضَى قَولِ ذلك أنْ يكونَ الأنبياءُ عُصاةً مَلاعِينَ؛ فإنَّ في الأنبياءِ مَن رأى الخَمرَ ونظَرَ إليها، فقَولُ أولئكَ الدَّجاجِلةِ مِن أقبَحِ الكُفرِ وأصرَحِه؛ وقَد روَى أحمدُ وأبو داودَ وأبو يَعلَى وغيرُهم عن ابنِ عُمرَ رضي اللَّه عنهُما أنّ رسولَ اللَّه ﷺ قالَ: «**لَعَنَ اللَّهُ الْخَمْرَ،**

---

(١) والخَبالُ في أصلِ اللُّغةِ الفَسادُ وذَهابُ الشّيء.

(٢) أي وَعِيدًا منه.

(٣) أي إنْ ماتَ بِلا تَوبةٍ.

وَلَعَنَ شارِبَها، وَساقِيَها، وَعاصِرَها، وَمُعْتَصِرَها، وَبائِعَها، وَمُبْتاعَها، وَحامِلَها، والمَحْمُولَةَ إِلَيهِ، وَءاكِلَ ثَمَنِها»، فذكَرَ عشرةً ليسَ فيهم «وناظِرَها» كما يقول بعضُ الجهَلةِ الدَّجاجلةِ[١].

ولمّا ذكَرَ اللهُ عزَّ وجلَّ بعضَ ما يَطُوف بهِ الوِلدانُ على المؤمنينَ من أشربةٍ، أعقبَ ذلكَ بذِكرِ بعضِ الأطعمةِ فقال تعالَى: ﴿وَفَٰكِهَةٍ﴾ أي ويطُوفُون عليهم أيضًا بفاكهةٍ كائنةٍ ﴿مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ٢٠﴾ أي يختارُون ويَشتهُونَ منها لِكثرتِها، فيأكلُون منها ما يَشاؤُون تلذُّذًا لا لِحفظِ صِحّتِهم لأنّ أبدانَهُم محفوظةٌ عنِ الآفاتِ إلى ما لا نهايةَ ولا يأكلُون عن جوعٍ بل يأكلُون تنعُّمًا.

ثُمّ أعقبَ عزَّ وجلَّ ذِكرَ الفاكهةِ باللَّحمِ فقال تعالَى: ﴿وَلَحْمِ﴾ أي ويطُوف عليهِمُ الوِلدانُ بلَحمِ ﴿طَيْرٍ﴾ كائنٍ ﴿مِّمَّا يَشْتَهُونَ ٢١﴾ أي تَشتهِيه أنفسُهم، فإذا اشتهَوه حضرَ عِندَهُم في الحالِ مَشويًّا، فيأكلُونه مُشتهِينَ لا كارِهِينَ له ولا مُضطَرِّينَ إليه.

وقد أخذَ بعضُ العُلماءِ مِن تَقدِيم الفاكِهةِ علَى اللَّحمِ إشارةً إلى أنّ الفاكهةَ تُقدَّمُ في الأكلِ على اللَّحمِ لأنّها ألطَفُ وأسرَعُ انحدارًا وأقلُّ حاجةً إلَى المُكثِ الطَّويلِ في المَعِدة للهَضمِ، وهذا في عادةِ الأبدانِ في

---

(١) وقد بسَطْنا الكلامَ على تحريمِ الخمرِ وأدِلّته في كِتابنا المَوسُوعِيّ «شرح الأدَب المُفرَد» فليُنظر.

الدُّنيا، أمّا في الجنّةِ فلا يُصِيبُ أهلَها شيءٌ مِن عُسرِ هَضمٍ أو غيرِه مهما تَناوَلُوا فيها مِن مَطعُومٍ ومَشرُوبٍ.

وذَكرَ اللهُ عزَّ وجلَّ الطَّيرَ ولَم يَذكُر لحمَ الإبِل أو غيرَه مِمّا كَثُر عِندَ العرب، ولَعلّ ذلكَ كما قال بعضُ المفسّرِينَ لأنّه لمّا كانَ يَكثُر عِندَ العرَبِ لَحمُ الإبِلِ ويَعِزُّ لحمُ الطَّيرِ الّذي يَسمَعُون أنه أطيَبُ اللُّحومِ(١) وأنّهُ يكونُ حاضِرًا عِندَ المُلوكِ لِما فيه مِن مَنفعةٍ ولَذّةٍ وُعِدُوا به في الجنّةِ.

ولا تعارُضَ بينَ كَونِ الولدانِ يطوفُون عليهم بِما تَشتهيه أنفسُهم مِن لَحمِ الطَّيرِ المَشويّ وبينَ ما رواهُ البَزّارُ وابنُ أبي الدُّنيا بسنَدٍ فيه ضَعفٌ عن ابنِ مسعودٍ رضي اللهُ عنه أنّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**إنَّكَ لَتَنْظُرُ إِلَى الطَّيْرِ فِي الجَنَّةِ فَتَشْتَهِيهِ فَيَجِيءُ مَشْوِيًّا بَيْنَ يَدَيْكَ**» لأنّهُ يَحتمِلُ أنْ يكونَ النّازِلُ مَشويًّا بينَ يدَيِ المُشتهِي في قَصعةٍ يُقدِّمُها الوَلِيدُ مِن الوِلدانِ للمؤمِن، ويَحتمِلُ أنّ الطّيرَ ينزِلُ مَشويًّا مِن فَورِه على طبَقٍ مُعَدٍّ

---

(١) وردَ في حديــثٍ ضعيفٍ رواهُ أبو داودَ والترمذيُّ في «السُّــنن» عن سَــفِينة خادِمِ رسولِ اللهِ ﷺ قال: «أكَلتُ معَ رسُولِ اللهِ ﷺ لَحمَ حُبارَى». والحُبارَى طائِــرٌ طَويلُ العنُقِ رَمــاديُّ اللَّونِ، في مِنقارِه بعضُ طُولٍ، وهو مِن أشَــدّ الطَّيرِ طيَرانًا، ومِن عجيبِ أمرِه أنّه إذَا نُتِفَ رِيشُه أو انحسَرَ وأَبطأَ نَباتُه ماتَ كمَــدًا أي بِكَتمِ الحزنِ، قاله الدَّميريُّ. ومِــن غريبِ أمرِ الحُبارَى كما قال القَزوينيّ أنّه يُوجَد في حَوصلَتِه (أي مَعِدَته) حجرٌ إذَا عُلِّقَ على الإنســانِ لا يَحتلِمُ ما دامَ عليه، وإنْ كانَ به إسهالٌ حُبِسَ بَطنُه، وإذَا عُلِّقَ قلبُ الحُبارَى على مَن يُكثِرُ النَّومَ قلَّ نومُه، فسُبحانَ الخالِقِ العَظِيم.

للأكلِ، كما أنّ الوِلدانَ يُحضِرُونَ للمؤمِنِ على الفورِ طَيرًا مَشوِيًّا اشتِهاهُ ولَو لَم يَكُن رأى طَيرًا في تِلكَ اللّحظةِ، لأنّ كُلَّ ما تَشتهِيهِ نَفسُ المؤمِنِ في الجنّةِ تَجِدُه.

وروَى الترمذيُّ والنَّسائيُّ في «السُّنَن» وأحمدُ في «مُسنَدِه» عن أنسٍ رضي الله عنه قالَ في صِفةِ الجنَّةِ: «فِيها طَيرٌ أَعْناقُها كَأَعْناقِ الجُزُرِ[1]»، فقال أبو بَكرٍ أو عُمَرُ رضي الله عنهما: إنَّ هذِه لَناعِمةٌ[2]، فقال رَسولُ اللهِ ﷺ: «أَكَلَتُها[3] أَنْعَمُ مِنْها[4]».

ويكونُ طوافُ الوِلدانِ المُخلَّدِين على أهلِ الجنّةِ بالأطعِمةِ والأشربةِ على صِحافٍ أي قِصاعٍ جَمع قَصعةٍ، يَحمِلُ الواحِدُ مِن الوِلدانِ بإحدَى يدَيه صحيفةً أي قَصعةً مِن ذهَبٍ وبالأُخرى صحيفةً من فِضّةٍ، قال اللهُ تعالَى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [سُورة الزُّخرُف: ٧١].

فائـدة: قد صحَّ في الحديثِ الّذي رواهُ الشَّيخانِ وغيرُهما أنّ عبدَ اللهِ ابنَ سَلامٍ رضي الله عنه كان قبلَ أنْ يُسلِمَ عالمًا من عُلماءِ اليهُودِ،

---

(١) جَمع جَزُورٍ وهو البَعِيرُ المُعَدُّ للنّحرِ.

(٢) أي مُتنعِّمةٌ.

(٣) جَمع ءاكِلٍ.

(٤) أي أكثَرُ تنعُّمًا مِنها.

فلمّا بلَغَه مَقْدَمُ رسـولِ اللَّه ﷺ المَدِينةَ أتَى يسأَلُه عن أشياءَ وقال له: إنِّي سائِلُك عن ثَلاثٍ لا يَعلمهُنّ إلّا نبِيٌّ، فسألَهُ مِن ذلكَ عن أوّلِ طَعامٍ يَأكلُه أهلُ الجنّةِ، فقال رَسـولُ اللَّه ﷺ: «**وَأَمّـا أَوّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الجَنَّـةِ فَزِيَادَةُ كَبِدِ الحُوتِ**»، وفي روايةٍ: «**زَائِدَةُ كَبِدِ النُّونِ**»(١)، صدَقَ رسـولُ اللَّه ﷺ. وزائدةُ كَبد الحُوتِ القِطعةُ المُنفرِدةُ المُعلَّقةُ في كَبده بطَرَفٍ مِنه، وهي في غايةِ اللَّذّةِ طَعمًا وأهنأُ وأمرأُ ما في الحُوتِ.

وقد صحّ عِندَ ابنِ حِبّانَ في «صحِيحِه» زِيادةُ أنّ ابنَ سَلامٍ سأَلَ رسولَ اللَّه ﷺ: ما غداؤُهم علَى إثْرِها؟ فقال ﷺ: «**يُنْحَرُ لَهُمْ ثَوْرُ الجَنَّةِ**(٢) **الَّذِي كَانَ يَأْكُلُ مِنْ أَطْرَافِهَا**»، قالَ: فَما شَرابُهم عليه؟ قالَ: «**مِن عَيْنٍ فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا**»(٣)، فقال ابنُ سَلامٍ: صدَقْتَ.

ولَمّا ذَكَر اللَّهُ عزَّ وجلَّ بعضَ طعامِ وشَرابِ السّابقِين مِن المؤمِنينَ أعقبَه بذِكر بعضِ ما خُصّ بِه الذُّكورُ مِنهُم فقال تعالَى: ﴿وَحُورٌ﴾

---

(١) والنُّونُ الحُوتُ، وجَمعُه نِينانٌ وأَنْوانٌ كما أنّ جَمعَ حُوتٍ حِيتانٌ وأَحْواتٌ.

(٢) أي ثَورٌ كان فِيها. ولا يكُون في الجنّة مُسـتَقذَراتٌ ولا دَمٌ ولا نَجاساتٌ إنّما يَحتمِـل أنْ يَصِير الثَّـورُ أمامَهُم جاهِزًا حاضِرًا لـلأكلِ بِقُدرةِ اللَّهِ كما هو حالُ الطَّيرِ المَشوِيّ.

(٣) ما ذهَبَ إليه بعضُ الأخبارِيّين مِن أنّ الحِكمةَ مِن ذلكَ أنّ أسـاسَ الدُّنيا مُركَّـبٌ علَى مَتنِ ثَورٍ، والثَّورُ على ظَهرِ حُـوتٍ، والحوتُ في ماءٍ، فلا يَصِحّ مِنه شيءٌ.

أي ولهُم فيها نِسوةٌ حُورٌ نَقيّاتُ بَياضِ العَينِ شَديداتُ سَوادِها، وهُنّ مِن غيرِ جِنسِ البشَرِ والجِنّ بل خَلقٌ خاصٌّ، قِيل إنّهُنّ خُلِقْنَ مِن الزَّعفَرانِ(١)، ومِن صِفَتِهنّ أنّهنّ ﴿عِينٌ ﴿٢٢﴾﴾ أي عظِميات العُيونِ في حُسنٍ وسَعةٍ، ويقالُ للواحِدةِ مِنهُنّ حَوْراءُ عَيْناءُ بفَتحِ العَينِ، وإنّهُنّ في صَفائِهنّ وتلألُ ﴿كَأَمْثَٰلِ﴾ أي كأشباهِ ﴿ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾﴾ أي الدُّرِّ المخزُونِ في الصَّدَفِ المَصُونِ مِمّا يُدنِّسُ صفاءَه ونقاءَه. وسبَق الكلامُ على الحُورِ العِينِ مفصَّلًا في تفسيرِ سُورةِ الرَّحمنِ(٢).

لَطِيفة: رُوِّينا(٣) في «الغَلْيانيّات» لأبي بكرٍ الشافعيّ و«التَّبصِرة» لابنِ الجَوزيّ وغيرِهما عَن ثابتٍ البُنانِيّ رضي الله عنه قال: كنتُ عِندَ أنَسِ ابنِ مالكٍ رضي الله عنه إذْ قَدِمَ عليه ابنٌ له مِن غَزاةٍ(٤) له، يُقالُ له أبو

---

(١) روى الطَبرانيُّ في «الكبير» و«الأوسط» وأبو نُعَيم في «صِفةِ الجَنّة» بأسانِيدَ فِيها ضُعَفاءُ عن أبي أُمامةَ رضي الله عنه أنّ رَسولَ اللهِ ﷺ قال: «**خُلِقَ الْحُورُ الْعِينُ مِن الزَّعْفَرانِ**».

(٢) يُنظَرُ تفسيرُ الآيةِ (٧٢) مِن سُورةِ الرَّحمن.

(٣) قال ابنُ المُلقِّن في «التّعيين» (ص/ ٥٧): «الأَجودُ في قراءةِ هذه اللَّفظةِ ضَمُّ الراءِ وتَشديدُ الواوِ وكَسرُها» على معنَى رَوّانا مشايخُنا أي جعَلُونا نَروِي عنهُم بأسانِيدِهم، وعِبارةُ ابنِ علّان في «الفُتوحات» (١/ ٣٠): «رَوّانا مَشايخُنا أي صيَّرُونا رُواةً عَنهم لِمَا نَقلُوا لنا عمّن أخَذُوا مِنهُم فسَمِعْنا ورَوَيْنا عنهُم».

(٤) أي غَزوٍ.

بكرٍ، فسألَهُ فقالَ: ألا أُخبِرُكَ عن صاحِبنا فُلانٍ؟ بَيْنا نحنُ قافِلُون[١] فِي غزاتِنا، إذْ ثارَ وهو يقُولُ: وا أهْلاهُ وا أهْلاه، فثُرْنا إلَيهِ، وظَنَنّا أنَّ عارِضًا عرَضَ لهُ، فقُلنا: ما لَكَ؟ فقالَ: إنّي كنتُ أُحَدِّثُ نفسِي أنْ لا أتزَوَّجَ حتّى أُستَشهَدَ فيُزَوِّجَنِي اللّهُ تعالَى مِن حُورِ العِينِ، فلَمّا طالَتْ علَيَّ الشّهادةُ قلتُ فِي سَفري هَذا: إنْ أنا رَجعتُ هَذِه المرّةَ تزوَّجتُ، فأتاني ءاتٍ فِي المَنامِ فقالَ: أنتَ القائِلُ: إنْ رَجعتُ تزَوَّجتُ؟ قُمْ فقَد زَوَّجَكَ اللّهُ العَيْناءَ، فانطَلَقَ بِي إلَى رَوضةٍ خَضراءَ مُعْشِبةٍ[٢]، فِيها عَشرُ جَوارٍ بيَدِ كُلِّ واحِدةٍ صَنْعةٌ تصنَعُها، لَم أرَ مِثلَهُنَّ فِي الحُسنِ والجَمالِ، فقلتُ: فِيكُنَّ العَيناءُ؟ فقُلنَ: نَحنُ مِن خَدَمِها وهِي أمامَكَ، فمَضيتُ فإذَا رَوضةٌ أعْشَبُ مِن الأُولَى وأحسَنُ فِيها عِشرُون جارِيةً، فِي يَدِ كُلِّ واحِدةٍ صَنعةٌ تَصنَعُها لَيسَ العَشرُ إلَيهنَّ بشىءٍ فِي الحُسنِ والجَمالِ، قلتُ: فِيكُنَّ العَيناءُ؟ قُلنَ: نَحنُ مِن خَدَمِها وهِي أمامَكَ، فمَضيتُ فإذَا أنا برَوضةٍ وهِي أعشَبُ مِن الأُولَى والثّانِيةِ فِي الحُسنِ، فِيها أربَعُون جارِيةً فِي يَدِ كُلِّ واحِدةٍ مِنهُنَّ صَنْعةٌ تَصنَعُها لَيسَ العَشرُ والعِشرُون إلَيها بشَىءٍ فِي الحُسنِ والجَمالِ، قلتُ: فِيكُنَّ العَيناءُ؟ قُلنَ: نَحنُ مِن خَدَمِها، وهِي أمامَكَ، فمَضيتُ فإذَا أنا بياقُوتةٍ مُجوَّفةٍ فِيها سَرِيرٌ علَيه امرَأةٌ قد فَضَلَ جَنْباها السَّرِيرَ، قلتُ: أنتِ العَيناءُ؟ قالَت: نعم مرحَبًا، فذَهبتُ أضَعُ

---

(١) أي راجِعُون.

(٢) أي ذاتِ عُشبٍ كثِيفٍ.

يَدِي عليها قالَت: مَهْ[١]، إنَّ فِيكَ شَـيئًا مِن الرُّوحِ بَعدُ[٢]، ولَكِن تُفطِرُ عِندَنـا اللَّيلةَ، قال: فانتَبَهتُ، قالَ: فما فـرَغَ الرَّجُلُ مِن حَدِيثِه حتّى نادَى المُنادِي: يا خَيلَ اللهِ اركَبِي[٣]، قالَ: فرَكِبْنا فصافَّنا العَدُوُّ، قالَ: فإنِّي لَأنظُرُ إلَى الرَّجُلِ وأنظُرُ إلَى الشَّمسِ وأذكُرُ حَدِيثَه، فما أَدرِي رَأسُه سَقطَ أمِ الشَّمسُ سَقطَتْ».

وقَد أُوتِيَ السّابِقُونَ مِن المؤمنِينَ ذلكَ بفَضلِ مِن اللهِ تعالَ ﴿جَزَآءَۢ﴾ مِنهُ ﴿بِمَا﴾ أي علَى ما ﴿كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٤﴾ في الدُّنيا مِن الطّاعةِ.

فائدة: حرَّفَ الكفرةُ مِن المُعتزِلة[٤] المعنَى الّذِي تُفِيدُه الآيةُ السّـابقةُ

---

(١) أي اكفُفْ.

(٢) أي في الدُّنيا.

(٣) أي يا فُرسـانَ خَيلِ اللهِ اركَبُوا، وإضافـةُ الخَيلِ إلى لفظِ الجلالةِ العظِيمِ مِن بابِ تكرِيمِها وتعظِيمِ شأنِها لِما أُرصِدَتْ له، كما يُقال في ناقةِ صالحٍ ﷺ: «ناقـةُ اللهِ» وبه نطَـقَ الكِتابُ الحكِيـمُ: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةً﴾ [سُورة الأعرف: ٧٣].

(٤) ليـسَ كلّ معتزِليٍّ وصَلَ إلى حدِّ الكُفرِ ببدعَتِه الاعتِقاديّة، فمِنهُم مَن كَفرَ كالقائلِينَ بنَفيِ صِفاتِ اللهِ الذاتيّة الأزليّة الأبديّة والقائلِينَ بأنّ العَبدَ يَخلُقُ فِعلَه، وقـد نقَلَ الإجماعَ على كُفرِ هَؤلاءِ أبو منصُورٍ البَغداديُّ في «تفسـير الأَسـماءِ والصِّفـات»، ومِنهُم مَن لَم يَقُل بمَقالاتٍ كفريّـةٍ لكنّ حالَه أنّه مُبتـدِعٌ بدعةً اعتقاديّة فهو مِن أهلِ الكبائرِ الّذين يَسـتحِقُّون العذابَ لو مـاتَ على ذلكَ، ولذلكَ قـالَ بعضُ العُلَماء: «كلُّ مُبتـدِعٍ في الاعتِقادِ =

وقالـوا: إنّها تدُلّ على أنّ إيصالَ الثّوابِ للطّائع واجِبٌ علَى اللهِ، والعِياذُ باللهِ مِن هذا الكُفرِ الشّـنيع. ويُجابُونَ بأنّه عـلى قولِهم ذلكَ «تمدُّح اللهِ بأنّـه مُجازي الطّائعِـينَ وذِكرُه ما وعدَهُم به» لا يصِـحُّ ولا فائدةَ منه؛ أمّـا في التمَدُّحِ فلأنّه على قولِ المعتزلةِ يجِبُ عليه إثابةُ الطّائعِين، وأمّا في الوَعـدِ فلأنّه بناءً على زَعمِهم لا يكـونُ مِنه فائدةٌ وقد حَكمَ العقلُ بوُجـوبِ إثابةِ الطّائعِـين، وكلُّ ذلكَ باطِلٌ بدِلالـةِ صحيحِ النُّصوصِ الشّرعيّةِ وصريحِ البراهينِ العقليّة، وليسَ هذا محلَّ التوسُّـعِ في الرَّدِّ على تلـكَ القَضيّةِ، بل يَكفِي أنْ يُقال في الـرَّدِّ عليهم: لو كانَ كما تقولُون إنّه يَجِبُ علَيه فِعلُ الأصلَح للعَبدِ ومِن ذلكَ إثابَتُه له لَم يَبقَ للتّفضِيل مَجالٌ على ما زَعمتُم ولَم يكُن له عزَّ وجلّ خِيَرةٌ في الإنعامِ على مَن يَشـاءُ على مذهبِكُم الباطِل، واللهُ تعالى يقولُ: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ﴾ [سُورة القَصَص: ٦٨].

ولمّا ذَكر اللهُ عزَّ وجلَّ بعضَ ما للسّابِقين مِن المؤمنين في الجنّةِ من النَّعيم وَصفَ حدِيثَهُم فقال تعالَى: ﴿لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا﴾ أي في الجنّةِ كَلامًا ﴿لَغۡوٗا﴾ أي باطِلًا يُرغبُ عنه ولا يَنفَعُ، واللّغوُ في الأصلِ السّاقِطُ مِن الكلامِ الّذي يَنبغِي أنْ يُلغَى، ﴿وَلَا﴾ يَسمعُونَ ﴿تَأۡثِيمًا ٢٥﴾ أي شيئًا

= لا بُـدَّ أن يُعذَّب إنْ ماتَ على بِدعَتِه، فإنْ كان كافِرًا فمُخلَّدٌ في النّارِ في جُملةِ الكافرِين، وإنْ لَم يبلُغ حَدَّ الكُفرِ ببدعَتِه عُذّبَ في النّارِ ثُمّ أُخرِجَ مِنها بعدَ مُضيِّ المُدّةِ التي يَستحِقُّها».

منسُوبًا إلى الإثم مِن مُحرَّمِ القَولِ[١] ﴿إِلَّا﴾ أي لكِن يَسمَعُون ﴿قِيلًا﴾ أي قولًا طَيِّبًا ﴿سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا ٢٦﴾ وذلكَ بأنْ تُسلِّمَ علَيهِمُ الملائكةُ[٢]، أو معناهُ يَسمَعُون قَولًا «سَلامًا سَلامًا» وذلك بأنْ يُسلِّم بعضُهم على بعضٍ، وقِيلَ غيرُ ذلكَ.

فائدة: للجنّةِ أسماءٌ كثيرةٌ مِنها دارُ السَّلامِ، سُمِّيَتْ بذلكَ لأنَّها دارُ السَّلامةِ الدّائمةِ؛ فمَن دخَلَها سَلِمَ مِن الآفاتِ والعَناءِ والتّعَبِ وكُلِّ ما يُنافِي كَمالَ الرّاحةِ، قال اللّٰهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٢٥﴾ [سُورة يُونس: ٢٥]، وقال في حالِ المؤمنِين: ﴿لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [سُورة الأنعام: ١٢٧].

تنبيه: فيما سبَقَ مِن الآياتِ التّصريحُ بذِكرِ جنّاتِ السابقِينَ الأوّلِينَ خُصوصًا دُونَ مَن دُونَهم في المَرتبةِ مِن المؤمنِينَ كعوامِّهم، لكِن مِن حيثُ الإجمالُ كُلّ المؤمنِينَ لهُم في الجنّةِ سُرُرٌ يَتّكِئُونَ علَيها وتَطِيرُ بِهِم إلى حيثُ أرادُوا، وأقلُّ مؤمنٍ لهُ عشرةُ ءالافٍ مِن الوِلدانِ الخَدَمةِ يَدُورونَ علَيهِ بلَذيذِ الطَّعامِ والشَّرابِ، ولِأقلِّ مُؤمنٍ فيها مَساحةٌ ما

---

(١) وقال بعضُ المفسّرِين: معنَى ﴿وَلَا تَأۡثِيمًا ٢٥﴾ أنّهُم لا يأتُونَ شيئًا فيه إثمٌ قولًا كان أو فِعلًا، فإنّ حرَكاتِ أهلِ الجنّةِ وسَكَناتِهم فيها لائقةٌ بأحوالِهم هنالِكَ.

(٢) قال تعالَى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٤﴾ [سُورة الرَّعد].

يكونُ مِثلَ هذِه الأرضِ وعشَرةِ أمثالِها. لا يَهرَمُ فيها وله فيها ما تَشتهِيه الأنفُس وتلَذُّ به الأعـيُنُ مِن طَعامٍ وشَرابٍ وغيرِهما، وليسَ فيها أعزَبُ كما رَوى ذلكَ مُسلِمٌ وابنُ حِبّانَ وأحمدُ في حديثٍ مرفوعٍ إلى النّبيِّ ﷺ.

وخُصَّ كُلُّ ذكَرٍ مِن أهلِها بنِسوةٍ حُورٍ عِينٍ، غيرَ أنّ السّابقِينَ الأوّلِين لهُم مِن كُلِّ ذلِكَ ما هو أكثَرُ وأعلَى ولهُم غيرُه مُضافًا إلى ما أعَدّه اللهُ لهُم مِن النَّعيمِ الّذِي لَم يُطْلِع عليه أحَدًا مِن خَلقِه ألبتّةَ ولَم يجعلْ لِقَلبِ أحَدٍ إلى ذلكَ النّعِيمِ سبيلًا في خَطرةٍ أو فِكرةٍ.

ولمّا ذكَرَ اللّهُ عزَّ وجلَّ بعضَ ما للسّابقِينَ في الجنّةِ - وهم الأَعلَون مِن المؤمنِينَ - أعقَبَ ذلكَ بذِكرِ ما لِمَن دُونَهُم فقال تعالَى: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾ وهُم الّذين يُؤتَون صُحفَ أعمالِهم بأَيمانِهم أو الّذين يُؤخَذ بِهِم ذاتَ اليَمِين إلَى الجنّةِ[1] ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ٢٧﴾ أي ما أعظَمَ أمرَهُم وأحسنَ جزاءَهُم، فإنّ لَهُم مِن ربِّهم خيرًا كبيرًا وفضلًا عظِيمًا.

روَى البَيهقيّ في «البَعث» عن عطاءٍ ومُجاهِدٍ قالا: لمّا سأَلَ أهلُ الطّائفِ الوادِيَ يُحمَى لهُم وفيه عسَلٌ ففعَل ﷺ - وهو وادٍ مُعجِبٌ - فسَمِعُوا النّاسَ يقُولونَ: في الجنّةِ كذَا وكذَا، قالوا: يا ليتَ لَنا في الجنّةِ مِثلَ هذا الوادِي، فأنزَلَ اللّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ٢٧﴾ أي هُم في أنواعٍ مِن النَّعيم؛ ﴿فِي سِدۡرٖ﴾ أي لَهُم في الجنّةِ مِن ثَمرِ شَجرِ سِدرٍ

(١) وسبقَتِ الإشارةُ إلى وُجودِ أقوالٍ أُخرَى في تعيينِهم كلُّها تُفِيدُ أنّهُم مؤمِنون.

﴿مَّخۡضُودٖ ٢٨﴾ أي لا شوكَ فِيه أصلًا، يُقال: شجرٌ مخضودٌ شوكه أي مَنزوعٌ.

رُوِّينا في «المُستدرَك» للحاكِم فيما صحَّحه وفي «البَعثِ» للبَيهقِيّ عن أبِي أُمامةَ رضي الله عنه قال: كانَ أصحابُ رَسولِ الله ﷺ يقولُون: إنّ اللهَ يَنفَعُنا بالأَعرابِ ومَسائلِهم[١]، أَقبلَ أعرابِيٌّ[٢] يومًا فقال: يا رسولَ اللهِ، لقد ذكَر اللهُ في القُرءانِ شجرةً مُؤذِيةً[٣]، وما كُنتُ أرَى أنّ في الجنّةِ شجرةً تُؤذِي صاحِبَها[٤]، فقال رَسولُ اللهِ ﷺ: «وما هِي؟»، قال: السِّدْرُ، فإنّ لَها شَوكًا، فقالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: «﴿فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ٢٨﴾ **يَخْضِدُ اللهُ شَوْكَهُ**[٥] **فيَجعَلُ مَكانَ كُلِّ شَوْكةٍ ثَمرةً، فإنَّها**[٦] **تُنْبِتُ ثَمرًا تَفتَّقُ الثَّمرةُ مَعها عَنِ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ لَوْنًا ما مِنْها لَونٌ يُشبهُ الآخَرَ**».

﴿وَطَلۡحٖ﴾ أي ولهم في الجنّةِ مِن طَلحٍ أي شجَرِ موزٍ ﴿مَّنضُودٖ ٢٩﴾ أي

---

(١) معناهُ كانُوا ينتظِرُون أنْ يَسألَ أهلُ الباديةِ والوُفودُ القادِمينَ على رسولِ اللهِ ﷺ أسئلةً فيظفَرُون بأجوبةِ رسولِ اللهِ ﷺ.

(٢) الأعرابِيُّ مَنسوبٌ إلى الأعرابِ وهُم ساكِنُو البادِية الّذِين لا يُقيمُون في الأمصارِ ولا يدخُلونها إلا لحاجةٍ.

(٣) أي بناءً على المشاهدة في الدّنيا لا نعلَمُ إلّا أنّ لَها شَوكًا مُؤذِيًا.

(٤) معناهُ وأنا أعتقِدُ أنّ شجرَ الجنّةِ لا يُؤذِي، فكيفَ تُفسِّرُ لَنا ذلكَ.

(٥) أي يُذهِبُه، والرّوايةُ بضميرِ المذكَّرِ على تقدِير: «الشَّجَرِ».

(٦) أي شجَرةُ السِّدرِ.

مَمْلُوءٍ بحمْله مِن الثِّمارِ مِن أسفَلِه إلى أعلاهُ قَد تَراكَب بعضُ ثمَرِه على بَعضٍ مِن كَثرَته فليسَ لشجَرِه ساقٌ بارِزةٌ بل مِن عُروقِه إلى أغصانه ثَمرٌ، وليسَ شيءٌ مِن ثَمرِ الجنّةِ في غِلافٍ مَخفِيٍّ كما هو أكثَر ثمَرِ الدُّنيا، بل جميعُ ثمرِ الجنّةِ مأكولٌ ومَشمومٌ ومَنظُورٌ إليه، فكُلُّ شجَرِ الجنّةِ جامِعٌ بينَ لذيذِ المَطعَمِ وطِيْبِ الرّائحةِ وحُسنِ المَنظَرِ.

﴿وَظِلٍّ﴾ أي وهُم في الجنّةِ في ظِلٍّ مُنبسطٍ ﴿مَّمْدُودٍ ٣٠﴾ أي دائِمٍ لا يتقلَّصُ ولا يُزيلُه ضَوءٌ، قيل: هو ظِلٌّ خاصٌّ ليسَ بظِلِّ شجَرٍ، وظاهِرُ الحديثِ أنّه ظِلُّ شجرةٍ بدَليل الحَديثِ الّذي رواهُ البُخاريّ وابنُ حِبّانَ في «الصِّحاحِ» وأحمدُ في «المُسنَدِ» وبعضُ أصحابِ السُّنَنِ عن أبي هُريرة رضي الله عنه أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «**إِنَّ فِي الجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لَا يَقْطَعُهَا، وَاقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ٣٠﴾**».

وروَى ابنُ حِبّانَ وأبو يَعلَى وأحمدُ وغيرُهم عن أبي سعدٍ رضي الله عنه أنّ رجُلًا قال: يا رسولَ الله، ما طُوبَى؟ فقال ﷺ: «**شَجَرَةٌ فِي الجَنَّةِ مَسِيرَةُ مِائَةِ سَنَةٍ، ثِيَابُ أَهْلِ الجَنَّةِ تَخْرُجُ مِنْ أَكْمَامِهَا**[1]».

﴿وَمَآءٍ﴾ أي ولهُم في الجنّةِ من ماءٍ ﴿مَّسْكُوبٍ ٣١﴾ أي مَصبُوبٍ سائلٍ لا يَنقطِعُ، يَجري نَواحيَ أماكِنِ إقامتِهم وغيرِها في غَيرِ أُخدودٍ، فلا يَحتاجُون إلى جَلبِ ماءٍ مِن أماكِنَ بَعيدةٍ ولا إلى إدلاءِ دِلاءٍ في بِئرٍ ولا

---

(١) جمع كِمٍّ بكسرِ الكاف وهو وِعاءُ الثّمرِ.

إعمال فُؤوس أو نُزول بَطن وادٍ[١]، وذلكَ خِلافُ ما اعتاده النّاسُ في الدُّنيا في تحصِيلِ المياه غالبًا، لا سيّما وأنّ بِلادَ العرَب حارّةٌ وأنهارها عَزِيزةٌ، فلَم يَكُونوا يَصِلُون إلى الماءِ إلّا بنَحوِ الدِّلاءِ، فوُعِد المؤمِنونَ بنيلِ الماءِ في الجنّةِ بوَفرةٍ ويُسرٍ.

لطيفة: روى الثَّعلبيُّ في «تفسـيره» عن مُزاحِم بنِ داودَ قال: ماتَ أخٌ لِي وكان بارًّا بأُمِّه، فرأيتُه فيما يَرى النائِمُ فقلتُ له: يا أخِي، إنّ أخاكَ يحِبُّ أنْ يَعلَم إلَى أيّ شيءٍ صِرتَ، فقال لي: أنَا في سِدرٍ مخضُودٍ، وطَلحٍ مَنضُودٍ، وظِلّ ممدُودٍ، وماءٍ مَسكُوبٍ.

﴿وَفَٰكِهَةٍ﴾ أي ولهُم في الجنّةِ مِن فاكِهةٍ ﴿كَثِيرَةٍ ٣٢﴾ نوعًا وكَمًّا ﴿لَّا مَقۡطُوعَةٍ﴾ أي لا تَنقطِعُ إذَا قُطِفَتْ؛ كُلَّما أكلَ مِنها ءاكِلٌ خلَقَ اللهُ مكانَها غيرَها، ولا تنقطِعُ بمُرورِ الأزمانِ كما تَنقطِعُ ثِمارُ الدُّنيا لانقِضاءِ موسِمٍ أو طُروءِ ءافةٍ ﴿وَلَا مَمۡنُوعَةٍ ٣٣﴾ أي ولا تُحظَرُ على أحدٍ ولا يَمنَعُ طالبَها مانِعٌ؛ إذَا اشتهَى مِنها شيئًا تدلَّى إليه الغُصنُ مِن غيرِ أنْ يتكلَّمَ هو أو يَتكلَّفَ الوُصولَ إليه، فيَأخذُ من الغُصنِ ما شاءَ مِن الثّمَر، قال اللهُ تعالَى: ﴿وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلٗا﴾ [سُورة الإنسان: ١٤]، ثُمّ يَعُود الغُصنُ مَكانَه ويُنبتُ اللهُ مكانَ الثّمَرِ المُجتنَى ثمرًا نَضِيجًا غيرَه.

---

(١) قال اللهُ تعالى: ﴿أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ﴾ أي غيرِ مُسكِرٍ ﴿لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗى﴾ [سُورة محمّد: ١٥].

روى الحاكمُ في «المُستدَرك» عن ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنهما أنّه قال في صِفةِ نَخلِ الجنّةِ قال: «نَخلُ الجنّةِ جُذوعُها زُمرُّدٌ أخضَرُ[١]، وكَرانيفُها[٢] ذهَبٌ أحمَرُ، وسَعفُها[٣] كِسْوةٌ لأهلِ الجنّةِ[٤]، مِنها مُقطَّعاتُهم[٥] وحُلَلُهم، وثَمرُها أمْثالُ القِلالِ[٦] أو الدِّلاءِ[٧]، أشَدُّ بَياضًا مِنَ اللَّبنِ، وأَحلَى مِنَ العَسلِ، وأَلْيَن مِن الزُّبْدِ، ولَيسَ لَها عَجْمٌ[٨]»[٩]، وبنَحوِه أخرجَه ابنُ أبي شَيبةَ مِن كلامِ الحسَنِ البصريِّ رضي الله عنه.

﴿وَفُرُشٍ﴾ ولهُم في الجنّةِ مِن فُرُشٍ - جَمع فِراشٍ - طويلةٍ ﴿مَّرْفُوعَةٍ ٣٤﴾ على الأسِرّة أو فُرشٍ بعضُها فوقَ بَعضٍ، وحَمل بعضُ المفسِّرينَ الفُرُشَ هُنا على الدَّرَجاتِ ونزَّلُوا عليه الحديثَ الضّعيفَ الذي رواهُ الترمذيُّ

---

(١) ولا يُعارِضُ ذلكَ كونَ أصلِ جِذعِها ذهبٌ جمعًا بينَ هذا وبينَ حديثِ التّرمذيّ السّابقِ.

(٢) جَمع كِرْنافةٍ وهي أصلُ السَّعْفةِ العرِيضُ المُلتصِقُ بجُذوعِ النَّخلةِ.

(٣) أي أغصانُها.

(٤) أي مِن جُملةِ ما لَهُم مِن الثِّياب.

(٥) المُقطَّعاتُ بُرودٌ عليها وَشْيٌ مُقطَّعٌ، والوَشْيُ النَّقشُ والعَلامةُ.

(٦) جَمع قُلّةٍ وهي الجرّة العظيمةُ.

(٧) جَمع دَلوٍ يعني العظيمَ منه.

(٨) جَمع عَجَمةٍ أي النَّواةُ.

(٩) قال الحاكم: «هذا حديثٌ صحيحٌ على شَرطِ مُسلِمٍ».

في «سُنَنِه» وأحمدُ في «مُسنَدِه» عن أبي سعيدٍ رضي الله عنه أنّ رسولَ الله ﷺ قالَ في قولِه تعالى: ﴿وَفُرُشٍ مَّرۡفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾﴾: «**ارْتِفاعُها كَما بَيْنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ، وَمَسِيرَةُ ما بَيْنَهُما خَمْسُمائَةِ عَامٍ**».

ولمّا ذكَرَ اللّهُ عزَّ وجلَّ الفُرُشَ، والعربُ تُسمّي المرأةَ فِراشًا ولِباسًا على سبيلِ الاستِعارة، أتبعَ اللّهُ تعالى ذلكَ بذِكرِ النّساءِ هنالِكَ فقال: ﴿إِنَّآ﴾ أي اللّهَ عزَّ وجلَّ، ولَفظُ الجمعِ للتّعظِيم لا لحقيقةِ الجَمعِ، فاللّه واحِدٌ لا شريكَ له، ﴿أَنشَأۡنَٰهُنَّ﴾ أي سَوَّى اللّهُ عزَّ وجلَّ خَلْقَ المُؤمِناتِ قبلَ دُخولِ الجنّةِ ﴿إِنشَآءٗ ﴿٣٥﴾﴾ أي تَسويةً وخَلْقًا جدِيدًا مِن غيرِ ولادةٍ بقُدرةِ اللّهِ عزَّ وجلَّ(١)، والإنشاءُ عامٌّ للحُورِ والمُؤمِناتِ مِن نِساءِ الدُّنيا؛ فالحُورُ أُنشئنَ ابتِداءً مِن غيرِ توالُدٍ، والمُؤمِناتُ أُنشئن بالإعادةِ بعدَ البَعثِ وتَغيِيرِ الصِّفاتِ الدُّنيويّةِ(٢)، ﴿فَجَعَلۡنَٰهُنَّ﴾ أي جعَلَ اللّهُ نِساءَ الجنّةِ ﴿أَبۡكَارًا ﴿٣٦﴾﴾ عَذارَى شابّاتٍ، كُلّما أتاهُنّ أزوجهُنّ للجِماعِ وجدُوهُنّ عَذارَى ولا وجعَ ﴿عُرُبًا﴾ جمعُ عَرُوبٍ وهي الغَنِجةُ المتودِّدةُ

---

(١) وفِعلُ اللّهِ عزَّ وجلَّ مُنزَّهٌ عن المُباشَرةِ ومُشابَهةِ فِعلِ المخلُوقِينَ، هذا هو اعتقادُ المُسلمين قاطبةً، ومَن خالَفَ في ذلكَ اعتِقادًا أو قولًا لَم يَكُن من المُسلمِين.

(٢) قال شيخُنا العلّامةُ المُحقِّقُ الهرريُّ رحمه اللّه: «قولُ إنّ الزّوجةَ الأُولَى تكُونُ سَيِّدةَ الحُورِ العِينِ في الجنّةِ غيرُ صحِيحٍ، هو مِن حيثُ الإجمالُ الحورُ العِينُ أجمَلُ مِن النّساءِ، أمّا المؤمِنةُ فهي أفضَلُ مِن الحُورِ العِينِ، ويجوزُ أنْ يجعَلَ اللّهُ بعضَ المُؤمِناتِ أجمَلَ مِن الحُورِ العِينِ».

إلى زَوجِها بإظهارِ محبَّتِها له ﴿أَتْرَابًا ٣٧﴾ أي مُستويات في السِّنّ بنات ثَلاثٍ وثلاثين وهُنّ في غايةِ الشَّبابِ والحُسن، وكانَ جَعلُهُنّ على هذه الصِّفاتِ ﴿لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ٣٨﴾ وهُم المؤمِنُون، وسبقَ بيانُ سببِ وصفِهِم بذلكَ.

تنبيه: روَى الترمذيُّ في «الشَّمائِل» والبَيهقِيُّ في «البَعث» عن الحسَنِ البصريّ رضي الله عنه قال: أتَتْ عَجُوزٌ النَّبِيَّ ﷺ فقالت: يا رَسولَ اللهِ، ادْعُ اللهَ أنْ يُدخِلَني الجنّةَ، فقال ﷺ: «**يا أُمَّ فُلانٍ إنَّ الجَنّةَ لا تَدْخُلُها عَجُوزٌ**»، قال: فولَّتْ تَبكِي فقال: «**أَخْبِرُوها أنَّها لا تَدخُلُها وَهِيَ عَجُوزٌ، إنَّ اللهَ تَعالَى يَقُولُ:** ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ٣٥ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ٣٦ عُرُبًا أَتْرَابًا ٣٧﴾»، وهذا حديثٌ ضعيفٌ.

قال الحافظ زَينُ الدِّين العِراقيُّ في «تَخرِيج أحاديثِ الإحياءِ»: «أخرجَه الترمذِيُّ في «الشَّمائِل» هكذا مُرسَلًا، وأسندَه ابنُ الجوزِيّ في «الوفاء» مِن حَدِيث أنسٍ بسنَدٍ ضَعِيفٍ».

وقَد رواهُ الطبَرانيُّ بألفاظٍ مُختلِفةٍ مِن طرِيقِ عائشةَ رضي الله عنها مرفوعًا وهو ضعيفٌ كذلك؛ قال الحافظ نُور الدِّين الهَيثميُّ في «مجمَع الزَّوائِد»: «وفِيه مَسْعَدةُ ابنُ الْيَسَعَ[١] وهو ضَعِيفٌ».

---

(١) قال الحافظ العَسقلانيّ في «لِسان المِيزان» (٨/ ٤٠): «كذَّبه أبو داودَ. وقال أحمدُ بنُ حنبَلٍ: خرَّقْنا (أي مزَّقْنا) حدِيثَه مُنذ دَهرٍ».

وقال شيخُنا شيخُ الإسلامِ الحافظُ المُحقِّقُ الهرريّ رضي الله عنه: «هذا الحديثُ وردَ بسنَدٍ ضعيفٍ ولا ينبغي رِوايتُه، فالرّسولُ ﷺ ما أرادَ إيهامَ العَجُوزِ أنّها لا تَدخُل الجنّةَ، ولو ظَنَّ أنها تتوهَّمُ أنّها لا تَدخُل الجنّةَ لا يقولُ لها: لا تَدخُل الجنّةَ عَجُوزٌ»[١].

ثُمّ أخبرَ اللهُ عزَّ وجلَّ عَن أصحابِ اليَمين فقال: ﴿ثُلَّةٌ﴾ أي أصحابُ اليَمينِ جَماعة كبيرةٌ ﴿مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ٣٩﴾ أي مِن مُتقدِّمي هذه الأُمّةِ ﴿وَثُلَّةٌ﴾ وعدَدٌ كبيرٌ أيضًا مِن أصحابِ اليَمين هُم ﴿مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ٤٠﴾ أي مِن مُتأخِّري هذه الأُمّةِ مِن حيثُ الزّمانُ. قال الزّجّاجُ: «معناه جماعةٌ مِمَّن تبعَ النّبيَّ ﷺ وءامَن به وعايَنه وجماعةٌ مِمّن ءامَن به وكانَ بَعدَه ولَم يُعايِنْهُ»، وهو التّفسيرُ الموافِقُ لِمَا أخرجَه الطَّيالِسيّ عن أبي بَكرة رضي الله عنه قال: «كِلْتاهُما مِن هذِه الأُمّة»[٢].

(١) فكيفَ وفي الرِّوايةِ أنّها تَروَّعتْ وبكَتْ.

(٢) رُوّينا في «جامعِ السُّيوطيّ» عن أنسٍ رضي الله عنه أنّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «مَتَى أَلْقَى أَحْبَابِي»، فقالَ بَعضُ الصّحابةِ: أوَ ليسَ نحنُ أحبابَكَ؟ قالَ: «أَنْتُمْ أَصْحَابِي، وَلَكِنْ أَحْبَابِي قَوْمٌ لَمْ يَرَوْنِي وءامَنُوا بِي، أَنَا إِلَيْهِمْ بِالأَشْوَاقِ».
وأخرَجَ أحمدُ في «مُسنَدِه» والطّبرانيّ وغيرُهما عن أبي أُمامةَ رضي الله عنه أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «طُوبَى لِمَنْ رءانِي وَءامَنَ بِي، وَطُوبَى لِمَنْ ءامَنَ بِي وَلَمْ يَرَنِي» سَبعَ مَرّاتٍ.
وأمّا ما جاءَ في الحديثِ المرفُوعِ: «وَدِدتُ أَنِّي قَد رَأَيتُ إِخْوَانِي»، قالُوا: =

ورَوّينا في «صحِيح ابن حِبّانَ» و«مُسنَدِ أبِي يَعلَى» عن ابن مَسعودٍ رضي الله عنه أنّ رَسولَ الله ﷺ قالَ لِبَعضِ أصحابه: «**إنِّي لأَرْجو أنْ يَكُونَ مَن تبِعَني مِنْ أُمَّتي رُبعَ أَهْلِ الجُنَّةِ**»، قال: فكَبَّرنا، ثُمّ قالَ: «**إِنِّي لأَرْجُو أَنْ يَكُونُوا الثُّلُثَ**»، قالَ: فكَبَّرنا، ثُمّ قالَ: «**إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونُوا الشَّطْرَ**»، قالَ: فكبّرْنا، فتلَا نَبِيُّ اللهِ ﷺ: ﴿وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ۝٤٠﴾.

وجاءَ في حديثٍ صحيحٍ ءاخَرَ عِندَ ابنِ حِبّانَ وأبي يَعلَى وأحمدَ وغيرِهما عن سُليمانَ بن بُريدةَ عن أبيه أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «**أَهْلُ الجَنَّةِ عِشْرُونَ وَمِائَةُ صَفٍّ، ثَمانُونَ مِن هَذِهِ الأُمَّةِ، وَأَرْبَعُونَ مِن سَائِرِ الْأُمَمِ**»[1].

ولمّا ذكَرَ اللهُ عزَّ وجلَّ المؤمنينَ وما لَهُم في الآخرةِ، السّابقِين مِنهُم فمَن دُونَهم في الرُّتبةِ، أعقبَ ذلكَ بذِكرِ الكَفرةِ فقال تعالَى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ وهُم الّذين يُؤتَون صُحفَ أعمالِهم بشمائِلِهم مِن وَراءِ ظُهورِهم وهُم الكافِرُون أو أنّهم أصحابُ الشِّمالِ بمعنَى الّذين يُؤخَذُ بهِم ذاتَ

= يا رَسولَ اللهِ أوَ لَسْنَا إخوانَكَ، قالَ: «**أَنتُم أَصحَابِي، وَإِخوَانِي قَومٌ لَم يَأتُوا بَعدُ**» إلى ءاخرِ الحديث، وليس في الحديثِ أنهم لمّا سألُوه: «أوَ لَسْنَا إخوانَكَ» أو «أوَ لَسْنَا أحبابَكَ» أنّه قال لهُم: «لا»، حاشا، فالرّسُول ﷺ لا يجوزُ عليه ذلك، فليُحذَر مِمّا في بعض الكُتبِ التّي تروي هذا الحديثَ بهذه الزّيادةِ المكذُوبةِ التّي لا أساسَ لها.

(١) أي المُسلمِين، فقد قال رَسولُ اللهِ ﷺ: «**قال اللهُ تعالَى: إِنِّي حَرَّمتُ الجَنَّةَ عَلَى الكَافِرِينَ**» رواهُ البُخاريُّ والحاكِمُ والبيهقيُّ.

الشِّمالِ إلَى النّارِ ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ٤١﴾ أي ما أشدَّ ما يُقاسُونَ وأعجبَ ما يَلقَون مِن أنواعِ العذابِ الأبديّ إلى ما نهايةَ له.

هُم ﴿فِي سَمُومٖ﴾ أي في حَرِّ نارِ جهنَّمَ وفَيحِها الّذي يَنفُذ في مَسامِّ أبدانِهم ﴿وَحَمِيمٖ ٤٢﴾ أي ماءٍ مُتناهٍ في الغلَيانِ يُسقَونه؛ وذلكَ أنّهُ لمّا أصابَهُمُ السَّمُوم اشتَدَّ بِهِمُ العطَشُ فطلَبُوا الشَّرابَ راجِين أنْ يَسكُنَ عطَشُهم ويَذهَب عنهُم ذلك، فإذَا أُدنِيَ مِنهُم الحميمَ شوَى وُجوهَهم وسقطَتْ فَروةُ رُؤوسِهم، فإذَا شَرِبُوه قَطَّع أمعاءَهم وأخرجَها مِن أدبارِهم، قال اللَّهُ تعالَى: ﴿وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَ﴾ [سُورة الكَهف: ٢٩]، وقال أيضًا: ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ﴾ [سُورة محمَّد: ١٥]، فلا يَزدادُون بذلِكَ إلّا عطَشًا على ما كانُوا.

﴿وَ﴾ يكُونُون أيضًا في ﴿ظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ ٤٣﴾ أي مِن دُخانٍ شَدِيد السَّوادِ؛ وذلكَ أنّهُم يجِدُون ظِلًّا فيَفزَعُون إليه فيَجِدُونه ظِلًّا مِن دُخانٍ شديدِ السَّوادِ ﴿لَّا بَارِدٖ﴾ كبَردِ الظِّلالِ المألُوفةِ فيَدفَعَ عنهُم شيئًا مِن حَرِّ اللَّهَبِ ﴿وَلَا كَرِيمٍ ٤٤﴾ أي ولا نافعٍ في دَفعِ شيءٍ مِن أذَى الحَرِّ عنهُم؛ فلَم يَكُن أمرُ هذا الظِّلِّ الّذي فَزِعُوا إليه مُقتصِرًا على كونه غيرَ مُغنٍ عنهُم مِن الحَرِّ شيئًا بل زادَهُم عذابًا لِكَونه حارًّا، مِن نارِ جهنَّم المُسعَّرةِ.

وقَد تضمَّنتِ الآياتُ الثّلاثةُ السّابقةُ بيانًا لحِرمانِ الكافرِين في النّارِ

مِن الأُمورِ الثّلاثةِ الّتي يُتبرَّدُ بها في الدُّنيا وهي: الماءُ والهواءُ والظِّلُّ[١]؛ فهواؤُهم سَمُومُ جهنَّمَ، وماؤُهم الحَميمُ، وظِلُّهم دُخانُ النّارِ الأسودُ، أجارَنا اللّهُ مِن ذلكَ كُلّه بِمَنّه وكرَمِه.

ثُمّ أخبرَ اللّهُ عزَّ وجلَّ عن أصحابِ الشِّمالِ ما كانُوا عاملِين في الدُّنيا فقال تعالَى: ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي الكفرةَ أصحابَ الشّمالِ ﴿كَانُوا﴾ في الدُّنيا ﴿قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾ العَذابِ النّازِلِ بهم ﴿مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾﴾ مُنعَّمين بأنواعٍ مِن النِّعَمِ تاركِين الإيمانَ باللّهِ والطّاعةَ له، فعُذِّبُوا بسَلبِ هذهِ النِّعَمِ عنهُم وبتسليطِ العذابِ الشّديدِ المُستمِرّ علَيهم.

﴿وَكَانُوا﴾ في الدُّنيا ﴿يُصِرُّونَ﴾ أي يُداوِمون ويُواظِبُون ﴿عَلَى الْحِنثِ﴾[٢] أي الذَّنبِ ﴿الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ وهو الكُفرُ، فلا ذَنبَ أشَدُّ مِن الكُفرِ.

﴿وَكَانُوا﴾ مِن شِدّةِ عِنادِهم وكُفرِهم بالبعثِ ﴿يَقُولُونَ﴾ على سبيلِ الاستبعادِ والجَحْدِ: ﴿أَئِذَا مِتْنَا﴾ في هذه الدُّنيا ﴿وَكُنَّا﴾ أي وصِرنا بعدَ مَماتِنا ﴿تُرَابًا﴾ في قُبورِنا ﴿وَعِظَامًا﴾ باليةً مُتفتّتةً ﴿أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾﴾

---

(١) قال اللّهُ تعالَى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ۚ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [سُورة الأعراف: ٥٠].

(٢) وفي الحديثِ الّذي رواهُ أحمدُ والطّبَرانيّ مَرفوعًا: «**وَيَكْثُر فِيهِم وَلَدُ الْحِنْث**» أي الزِّنَى. ويُطلَق الحِنْثُ أيضًا على الكَذِب، والميلِ مِن باطلٍ إلى حَقٍّ أو عَكسِه، والخُلفِ في اليَمينِ أي الحَلِفِ ونَقضِها، ونَقضِ العَهدِ المُؤكَّد.

أي لَمُحْيونَ خَلقًا جدِيدًا ومَبعُوثونَ كما يقُول مُنذِرُنا؟! يُرِيدُون: «لا نُرجَع ولا نُبعَثُ».

ويقُولون مُستبعِدين مكذِّبين: ﴿أَوَ﴾ يُبعَثُ ﴿ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ٤٨﴾ أي الأقدَمُون، وهُم الّذِين بَلِيَت أبدانُهم فصارُوا تُرابًا مُنذ زمانٍ بَعيدٍ حمَلَتْ رُفاتَهُمُ السُّيولُ ففرَّقَتْها وذهبَتْ بِها في الآفاق.

فرَدَّ اللهُ عزَّ وجلَّ علَيهِم وأمرَ رسولَه ﷺ أنْ يَقولَ: ﴿قُلْ﴾ أي لهُم يا محمّدُ رَدًّا لإنكارِهم وإثباتًا لِما هو كائِنٌ لا محالَة: ﴿إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي الأقدَمِين مِن الأُمَمِ الّذِين استبعَدتُم إعادتَهُم أشَدَّ الاستِبعادِ ﴿وَٱلْءَاخِرِينَ ٤٩﴾ أي حَدِيثِي العَهدِ بالمَوتِ والّذين يَموتونَ فِيما بَعدُ ﴿لَمَجْمُوعُونَ﴾ أي مَبعُوثونَ بعدَ الموتِ محشُورونُ ﴿إِلَىٰ مِيقَٰتِ﴾ أي في وَقتِ ﴿يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ٥٠﴾ عِندَ اللهِ، وهو يومُ القِيامةِ[1].

ولذلكَ سُمِّي يومُ القِيامة يومَ الجَمعِ، فكُلُّ ذواتِ الأرواحِ تُجمَع فيه بِما في ذلكَ البهائِمُ، قال تعالَى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [سُورة التَّكوير: ٥]. فإنْ قِيل: النَّملُ والذُّبابُ لَيسَا مِن الوُحوش، فالجوابُ أنّ معنَى الآيةِ حَشرُ جميعِ البَهائم بدليل الآيةِ الأُخرَى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ

(١) قال اللهُ تعالَى: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [سُورة الكهف: ٤٧].

يُحۡشَرُونَ﴾[(١)] [سُورة الأنعام: ٣٨]، فقال: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُم﴾ أي في الخَلقِ والمَوتِ والبَعثِ والاحتِياجِ إلى مُدبِّرٍ يُدبّرُ أمرَها وهو اللّهُ، فالنَّملُ والسَّمك والطَّير ونحوُ كُلِّ جِنسٍ مِن المَذكوراتِ داخِلٌ تحتَ هذه الآيةِ في جُملةِ الأُممِ وهي محشُورةٌ كسائرِ ذَوِي الأرواحِ، وقد أكّدَ عزّ

(١) أي إلى الموقِف الّذي يُوقِفُهم فيه ربُّهم، واللّهُ عزَّ وجلَّ موجودٌ أزلًا وأبدًا بلا كَيفٍ ولا مَكانٍ، لا يكونُ في أرضِ المَحشَرِ ولا في السّـماءِ ولا في غيرِها من الأماكِنِ، سُبحانه خالِقُ كُلِّ شيءٍ فلا يَحتاجُ إلى خَلقِه.
ومعنَى ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖ﴾ ما ترَكْنا شـيئًا مِن أمـرِ الدِّين إلّا وقَد دلَلْنـا عليه في القُرءانِ إمّـا دِلالةً مُبيَّنةً مُفصّلةً أو مُجمَلـةً يُتلقّى بيانُها من رسـولِ اللّه ﷺ أو من إجماعِ الأُمّةِ أو مِن القِياسِ المُعتبَرِ الّذي ثَبت بِنَصّ الكِتابِ، قاله القُرطبيُّ وغيرُه، وليـسَ معنَى الآيةِ كما يَدّعي بعضُ الزَّنادِقةِ المُسـمَّين بـ «القُرءانِيّين» مِن أنّه لا حاجةَ إلى الحديثِ وأنّه مُختلَقٌ مصنوعٌ لا أصـلَ له، وقولُهم هذا هو في حقيقةِ الأمـرِ رَدٌّ للقُرءانِ وتَكذيبٌ لإجماعِ الأمّة، قال اللّه تعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢﴾، وقال ابنُ عبّـاسٍ رضي اللّه عنهما: «الكِتابُ القُرءانُ والحِكمةُ السُّـنّةُ أي الحدِيثُ»، وقال تعالَى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾، وقال أيضًا: ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾، و ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ١١٥﴾، وقـد ردَدْنـا بفَضـلِ اللّه تعالى على هـذه الفِريةِ في رِسـالةٍ مُفردةٍ وأسـمَيناها «تَحذيرَ الأُمّة مِن الطاعنِينَ في النَّبيِّ والسُّـنّة» فإنّها بفَضلِ اللّهِ تعالَى كافيةٌ وافِيةٌ في هذه القَضِيّة.

وجلَّ في ءاخرِ الآيةِ أنّ البهائِمَ محشورةٌ كما أنّ الإنسَ والجِنَّ محشورون.

وجاءَ أمرُ حَشرِ البهائِم ثابتًا أيضًا في أحادِيثَ مرفوعةٍ وموقوفةٍ، مِنها الحديثُ الصّحيحُ الّذي أخرجَه مُسلمٌ وغيرُه عن أبي هُريرةَ رضي اللَّه عنه أنّ رسولَ ﷺ قال: «**لَتُؤَدُّنَّ الحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ**»، وكذلكَ ما أخرجَه ابنُ المُنذِرِ وابنُ أبي حاتِمٍ عن ابنِ عبّاسٍ رضي اللَّه عنهما قال: «يُحشَرُ كلُّ شَىءٍ، حتّى إنَّ الذُّبابَ ليُحشَرُ».

ثُمّ خاطبَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ أصحابَ الشِّمالِ مُتوعِّدًا إيّاهُم مُبيِّنًا بعضَ ما يُقاسُونَه في الآخِرة مِن العَذابِ فقال تعالَى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾ والخِطابُ لمُشركِي مكّة أو عامٌّ في كُلِّ كافرٍ مُكذِّبٍ ﴿أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ﴾ المائِلُون عن الحَقِّ والهُدَى ﴿ٱلْمُكَذِّبُونَ ۝٥١﴾ بالبَعثِ لَمبعُوثونَ مِن بَعدِ المَوتِ للحِسابِ ولَمَقذُوفُونَ في جهنَّمَ على وُجوهِكُم ﴿لَءَاكِلُونَ﴾ فيها ﴿مِن شَجَرٍ﴾ لا يُسمِنُ ولا يُغنِي مِن جُوعٍ بل تأكلُونَ ﴿مِّن زَقُّومٍ ۝٥٢﴾ وهو شجَرٌ مُنتِنٌ كرِيهُ المَنظرِ جِدًّا، وهو أشَدُّ ما خلَقَ اللَّهُ مِن مَرارةٍ في الطَّعمِ.

روى ابن حِبّان في «صحيحِه» وأحمدُ والترمذيُّ وصحَّحه عن ابنِ عبّاسٍ رضي اللَّه عنهما أنّ رسولَ اللَّه ﷺ قرأَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [ءال عمران: ١٠٢] ثُمّ قالَ: «**لَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنَ الزَّقُّومِ قُطِرَتْ فِي دارِ الدُّنيا لَأَفْسَدَتْ عَلَى أَهْلِ الدُّنيا مَعايِشَهُم، فَكَيْفَ بِمَنْ يَكُونُ طَعَامَهُ**».

وأخرَج عبدُ اللهِ بنُ أحمَد بنِ حَنبَلٍ فِي زَوائِد الزُّهدِ» وابنُ المُنذرِ عن أبِي عِمرانَ الجَونِيّ[١] رضي اللهُ عنهُ قالَ: «بلَغنا أنّ ابنَ ءادمَ[٢] لا يَنْهَشُ مِن شجرَةِ الزَّقُّومِ نَهْشَةً إلَّا نَهَشَتْ مِنهُ مِثلَها»، أجارَنا اللهُ مِن ذلكَ.

وإنّ الكافرِين لَمُكرَهُون على الأكلِ مِن الزَّقُّومِ في جهنَّمَ ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ ٥٣﴾ أي بطُونَهُم بالإكراهِ أو مِن شِدّةِ الجُوعِ ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ﴾ أي عَقِبَ أكلِ الزَّقُّومِ لِغلَبَةِ العطَشِ علَيهِم ﴿مِنَ ٱلۡحَمِيمِ ٥٤﴾ أي الماءِ المُتناهِي في الغلَيانِ ﴿فَشَٰرِبُونَ﴾ مِنهُ ﴿شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ ٥٥﴾ أي شُربًا مِثلَ شُربِ الإبِلِ العِطاشِ الّتي لا تَرتوي لإصابتِها بَداءِ الهُيامِ[٣]، والهِيْمُ جَمعُ أهْيَمَ للمذكَّرِ وهَيْماءَ للمؤنَّث.

قال السُّدِّيُّ: «بلغَنِي أنّ أهلَ النّارِ إذَا أكلُوا الزَّقُّومَ غَصُّوا فذكَرُوا أنّهُم كانُوا في الدُّنيا إذا أكلُوا فغَصُّوا سَوَّغُوه بالماءِ، فيُنطلَقُ بهِم[٤] إلى الحَمِيم

---

(١) هو تابعِيٌّ إمامٌ روَى عن عدَدٍ مِن الصّحابةِ كأنسٍ وجُندُبِ بنِ عبدِ اللهِ وعبادة بن الصّامِت وغيرِهم رضي اللهُ عنهُم.

(٢) أي الكافِرَ.

(٣) بضَمّ الهاءِ وهو داءٌ يُصيبُ صاحِبَه فيَشرَبُ ولا يرتوي بسببه كما أنّ المُصابَ بمرَضِ الاستِسقاءِ يأكل ولا يَشبَعُ. وقيلَ: الهِيمُ الإبِلُ الّذي يَهيمُ في الأَرضِ ولا يَرِدُ الماءَ أيّامًا، ثُمّ إذا ورَدَ الماءَ شَرِبَ فتَمتلِئُ بَطنُه حتّى يَهلِك مِن الامتِلاءِ.

(٤) أي يَستغِيثُونَ بالشّرابِ فيُسقَونَ مِن الحَمِيمِ، قال اللهُ تعالَى ﴿وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ =

لِيَشرَبُوا، فإذَا رفَع أحَدُهم الماءَ المُتناهِي في الغلَيانِ إلى فِيهِ سقَط لَحمُه في الإناءِ، ثُمّ يُعيدُه اللَّهُ تعالَى(١)».

﴿هَٰذَا﴾ أي ما ذُكِرَ مِن الحَمِيمِ والزَّقُّومِ ﴿نُزُلُهُمْ﴾ أي ما يُقدَّمُ لهُم مِن طعامٍ وشَرابٍ ﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ ٥٦﴾ أي يومَ يُجازون بأعمالِهم، والنُّزلُ في الأصل ما يُعَدُّ للضَّيفِ مِن طعامٍ وشَرابٍ تَكرِمةً(٢) له.

وما جرَى ذِكرُه مِن العذابِ لِمُشركي قُرَيشٍ والمُكذِّبين بالبَعثِ يشترِكُ فيه سائرُ الكُفّارِ في جهنَّم، ويزِيدُ بعضُهم على بعضٍ في العَذابِ؛ فإبليسُ أشَدُّ أهلِ النّارِ عذَابًا على الإطلاق، وفِرعونُ أشدُّ كُفّارِ البشَرِ عذابًا، وأبو طالِبٍ أوّل ما يَدخُل جهنَّم لا تأخُذ مِنهُ النّارُ إلّا إلى قدَميهِ فهو أخَفُّ الكُفّارِ عذابًا ابتداءً لأنّه كانَ يُناضِلُ عن الرّسول ﷺ إلّا أنّه مات كافِرًا لكِن لا يُخفَّف عنه شيءٌ بعدَ دُخولِه النّارَ بل يَبقَى على ما هو علَيهِ مِن العَذابِ(٣).

= ﴿يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِي ٱلْوُجُوهَ﴾ [سُورة الكَهف: ٢٩].

(١) أي ليَبقَى عذابُهم أبلَغ لا يَخِفُّ شيءٌ منه.

(٢) قال الحافظ النوويّ رحمه الله في «تهذِيب الأسماء واللُّغات» (٤/ ١١٤): «التَّكرِمةُ بفَتح التاء وكَسرِ الرّاءِ بِلا خِلافٍ».

(٣) قال شيخ المحقِّقين الإمامُ الهرريّ رضي الله عنه: «يُقال: الرَّسولُ ﷺ نفَع أبا طالِبٍ، لكِن لا يُخفَّف عَن أبي طالِبٍ بعد أنْ دخَل النّار شيءٌ من العذاب، يَبقى على ما كان علَيه فلا يُزادُ علَيه ولا يُخفَّف عنه، يَبقَى = =

ثُمّ أعقبَ اللهُ عزَّ وجلَّ ما ذكَره مِن عذابِ الكفرةِ بمُخاطبةِ كُفّارِ قُريشٍ والمُكذِّبين بالبَعثِ فقال تعالَى﴿ نَحۡنُ ﴾ أي اللهَ عزَّ وجلَّ، ولفظُ الجمعِ للتّعظيم لا لحقيقةِ الجمعِ، فاللهُ تعالَى واحِدٌ لا شريكَ له، ﴿خَلَقۡنَٰكُمۡ ﴾ أي أنشأناكُم وأخرجناكُم مِن العدمِ إلى الوُجودِ على هيئتِكُم الّتي أنتم عليها ﴿ فَلَوۡلَا ﴾ أي فإنْ كُنتُم تُصدِّقون أنّ اللهَ خالِقُكم فهلّا[1] ﴿ تُصَدِّقُونَ ٥٧ ﴾ بالإعادةِ والبَعثِ، فإنّ الّذي قدرَ على إنشائِكُم أوّلَ مرّةٍ قادِرٌ على إعادةِ خَلقِكُم مرّة ثانِيةً، فإنّ إنشاءَه لَكُم أوّلًا وإعادتَه لَكُم ثانِيًا سَواءٌ لا يَصعُب عليه ولا يُعجِزُه شيءٌ، ﴿كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ﴾ [سُورة الأعراف: ٢٩].

تأكُلُ النّارُ منه هذا القَدرَ إلى قدَمَيهِ فقط، أمّا غيرُه مِن الكُفّار ففي قَعرِ جهنّم مَسافةَ سَبعِين سَنةً في النُّزول، ودليلُ ذلكَ قولُ رسولِ اللهِ ﷺ فيه: «هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِن نارٍ، ولَوْلاَ أنا لَكانَ فِي الدَّرْكِ الأَسفَلِ مِن النّارِ» والضَّحْضاحُ هو ما يَبلُغُ الكَعبَين، ومعنَى «ولَوْلاَ أنا لَكانَ فِي الدَّرْكِ الأَسفَلِ مِن النّارِ» أي في ذلك العُمقِ البَعيد القعرِ البَعيد مَسافةَ سَبعِين سنَةً في النُّزول، معناه لَكانَ هُناكَ، لكن بسبَبِي جعَلَ اللهُ تعالَى عذابَه يومَ القِيامةِ قَدْرَ قدَمَيهِ لا تمَسُّ النّارُ منهُ إلّا قدَمَيه فيَغلِي منها دِماغُه لكِن يَبقَى هكذا علَى الدَّوام بلا تخفيفٍ ولا خُروجٍ يظَلُّ علَى تلكَ الحالِ إلَى أبدِ الآبادِ لأنّه مات مُعانِدًا ءابِيًا أن يقولَ الشّهادتَين، ما قال: «لا إلهَ إلّا اللهُ محمَّدٌ رسولُ اللهِ». قال رسولُ اللهِ ﷺ: «أَهْوَنُ أَهْلِ النّارِ عَذابًا أَبُو طالِبٍ وَهُوَ مُنْتَعِلٌ بِنَعْلَيْنِ يَغْلِي مِنْهُما دِماغُهُ» وهذا يكُون عذابَه بلا انقطاعٍ».

(١) يُقال: «هَلّا فَعلتَ كَذا» أي لِمَ لَمْ تفعَلْه.

وإنْ كانُوا يَشُكُّون ويَقولُون: «الخَلقُ لا يَكُون إلّا مِن مَنِيٍّ مُنعَقِدٍ، وبعد المَوتِ لا والِدةَ ولا مَنِيَّ»، يُجابُون بقَولِ اللَّه عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ٥٨﴾ أي أخبِرُوني[1] أيُّها المُكذِّبُون بالبَعثِ عمّا تَقذِفُونَه مِن مَنِيِّكُم وتَصُبُّونَه في أرحامِ النِّساءِ فيكونُ نُطْفةً ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ﴾ أي ءَأنتم تُصوِّرُونَ النُّطفةَ بشَرًا سَوِيًّا ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ٥٩﴾ أي أم اللَّهُ وَحدَه الخالقُ لذلكَ المُصوِّرُ له، وهذا استِفهامٌ للتَّوبِيخ، فإنَّهُم سيُقِرُّونَ بأنَّ اللَّهَ خالِقُ ذلكَ، فيُقال لهُم: فاللَّهُ الّذي خلَقَ المَنِيَّ في أوعِيةٍ داخلَ أبدانِكُم ثُمّ مَكَّنكُم مِن إخراجِ مَنِيٍّ دافقٍ إلى قَرارِ أرحامِ النِّساءِ وكَوَّنَ عزَّ وجلَّ بِقُدرَتِه مِن مَنِيٍّ مُنعَقِدٍ مُتطوِّرٍ أطوارًا بشَرًا، فإذا افترَقَتْ أجزاءُ هذا البشَرِ فيما بَعدُ بالبِلَى فكيفَ يَمتنِعُ علَى مَن خلَقَه أنْ يُعِيدَ خَلْقَه مرّةً أُخرى؟!

وذهَبَ الإمامُ أبو منصُورٍ الماتريديُّ رضي اللَّه عنه إلى أنَّ هاءَ الضَّمِيرِ في قولِه تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ﴾ راجِعٌ إلى أمرَين: فِعلِ العَبدِ وهو الإمناءُ وإلى المَنِيِّ، قال: «ثُمّ أخبرَه عزَّ وجلَّ أنّه خالِقُ ذلكَ» أي خالِقُ فِعلِ العَبدِ والأثَرِ المُسبَّب عن الفِعل، وقال: «ففي هذه الآيةِ دِلالةُ نَقضِ قَولِ المُعتزِلة في أفعالِ العِبادِ».

﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا﴾ أي اللَّهُ وَحدَه قضَى ﴿بَيْنَكُمُ﴾ أيُّها العِبادُ ﴿ٱلْمَوْتَ﴾ الآجالَ ووَقَّتَ مَوتَ كُلِّ أحدٍ بوَقتٍ مُعيَّنٍ على حسَبِ مشيئةِ اللَّهِ الأزليّةِ وعِلمِه

---

(١) واللَّهُ تعالَى لا يَخفَى عليه شيءٌ، والمُرادُ مِن هذا الكلامِ التَّبكيتُ وإقامةُ الحُجّةِ على الكافِرين.

لحِكَمٍ يَعلمُها اللهُ عزَّ وجلَّ، فمِنكُم مَن يَبلُغُ الكِبَرَ والهرَمَ ومِنكُم مَن يَمُوتُ طِفلًا وشابًّا وغير ذلك مِن الآجالِ القَريبةِ والبَعِيدة، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾﴾[1] أي ولَسنا بمَغلُوبِينَ أو عاجزِين ﴿عَلَىٰٓ﴾ أي عَن ﴿أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾ أي صُورَكُم وأشخاصَكُم بأنْ نُذهِبَها ونَخلُق خَلْقًا ءاخَرَ مِثلَها ﴿وَنُنشِئَكُمْ﴾ أي وما نحنُ بعاجزِين عن إنشائِكُم خَلْقًا جدِيدًا وإعادَتِكُم بعدَ تفرُّقِ أجزائِكُم ﴿فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ مِن الصُّوَر الجِسمانيّةِ وذلكَ بتَغيِيرِ الأوصافِ التّي كُنتُم علَيها أوّلَ مرّة وبإنشائِكُم خَلْقًا جدِيدًا بصِفاتٍ لَم يُحِط بها فِكرُكُم مِن قبلُ، فبَيَّنَ لَهُم اللهُ عزَّ وجلَّ أنّ الأمرَين كِلَيهِما مقدُورٌ له: إذهابُهُم والإتيانَ بأشخاصٍ ءاخَرِين أمثالَهُم، وإنشاءَهُم على صِفاتٍ لَم يَعلَمُوها ولا عُهِدُوا بمِثلِها.

فائدة: قال الإمامُ أبو مَنصُورٍ الماتريديُّ رضي الله عنه: «في قولِه تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ نَقـضُ قَولِهم[2] مِن أنّ المَقتُولَ لَم يَمُتْ بأجَلِه؛ لأنّه تعالَى أخبَرَ أنّه قدَّرَ المـوتَ بينَهُم، وعِندَهم[3] أنّ مَن قُتِلَ لَم يَمُتْ بما قـدَّر اللهُ تعالى ولَم يَمُتْ بأجَلِه[4]، وقد أخـبَرَ أنّه هو قدَّرَ ذلكَ وأنّه

---

(١) المَسبُوقُ على الشَّىء هو المَغلُوب علَيهِ بحَيث لا يَقدِرُ على فِعلِه.

(٢) أي كُفّارِ المُعتزِلة.

(٣) أي زَنادِقةِ المُعتزِلة.

(٤) وهذا القولُ كُفرٌ وضَلالٌ لِما فيه مِن نِسبةِ العَجزِ والمَغلُوبيّةِ في حَقِّ اللهِ عزَّ وجلَّ.

لا يُســبَقُ في ذلكَ بِقَولِه: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ٦٠﴾، ولو كان على ما تَقُولُه المُعتزِلَـةُ فإنّه[١] يَمُوتُ قبلَ أجَلِه فقد قالوا: إنّه لَم يُقدِّر له المَوتَ، وإنّ القاتِلَ قد سَبَقَه ومَنَعَه عن وفاءِ ما جَعَل له[٢] مِن الأجَلِ والبُلوغِ إلى ذلك الأجَلِ الّذي جَعَلَ له وكَذَّبَه[٣] في خبَرِه أنّه يَبلُغُ إلى ذلكَ الأجَلِ»[٤].

فبعدَ ذلكَ كيفَ يجوزُ أنْ يُظنَّ بِمَن دفعَ التّكفِيرَ عن المعتزِلةِ في كُلِّ مقالاتِهم أنّه حَقُّ عالِمٍ؟! فهذا واللّهِ هدّامٌ لدِين اللّهِ، وقد نقَل الفَخر الرازيُّ رحمه اللّه في كتابِه «نِهايةِ العُقولِ في دِرايةِ الأصول» سِتَّ مسائلَ كفَّرَ عُلماءُ المُسلمِين المُعتزِلةَ بها، فمَن دانَ مِن المعتزِلةِ بتِلكَ المسائِلِ كفَّرُوه، ومَن لَم يبلُغْ حدَّ الكُفرِ لَم يُكفِّرُوه، وعلى مِثلِ هذا يُنزَّلُ قولُ إمامِ الحرَمَين أبي المَعالِي الجُوَينيّ رحمه اللّه: «إدخالُ كافرٍ في المِلّةِ وإخراجُ مُسلِمٍ عنها أمرٌ عَظِيمٌ في الدِّين»[٥].

---

(١) أي المَرءُ.

(٢) أي ما جعَلَ اللّهُ للعَبدِ.

(٣) أي على زَعمِهم.

(٤) قــال اللّهُ تعــالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ [سُورة الأعراف: ٣٤].

(٥) ليُحذَر مِن تَمويه بعضِ مُدَّعِي المَشْيَخةِ الّذين يُردِّدُون: «لا نُكفِّرُ أحدًا من أهــلِ القِبلة بِذَنبٍ ما لَم يســتحِلَّه» مُريدين بذلكَ دفــعَ التّكفيرِ عمَّن هو حَقِيقٌ به كالمُجسِّـمةِ الّذين يُشبِّهُون اللّهَ بِخَلقِه والمُعتزِلة الّذين يقُولون=

=بأنّ اللّه أعطَى العبـدَ القُدرَة ليَخلُقَ أفعالَه، فهؤلاءِ المُتمَشـيخة ينطبقُ عليهم قولُ رسولِ اللّه ﷺ: «**اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوسًا جُهَّالًا فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْـمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا**» معناهُ مَن تَبِعهُـم على فَتواهُم كان على كُلٍّ وزرُه، فلَو كان أهلُ القِبلةِ على تفسيرِ أولئكَ الجُهّالِ هم كُلُّ مَن اتّجَهَ إلى القِبلةِ في الصّـلاةِ – صحيحةً كانتْ أو فاسـدةً – لدَخلَ في ذلكَ المُنافِقُ في الدِّين والمُرتَدُّ عنه، فمِن حيثُ الظّاهرُ قد يَخفَى عنّا حالُ من هو مُنافِقٌ ومَن هو مُرتَدٌّ فنَعمَلُ بالظّاهِرِ ونعدُّهُم مِن المسـلمين أهلِ القِبلة لعدَمِ قِيامِ قرينةٍ عِندَنا أنهُم مِن غيرِ المُسـلمين، مع أنهُم في حقيقـةِ الأمرِ كُفّارٌ بالإجماع، وظاهِرُ أمرِهم أنّهم يَستقبِلُونَ القِبلةَ ويُمسكُونَ عن المُفطِّراتِ معَ المُسلمين في أيّامِ الصَّوم، ولَم يُكشَـفْ أمرُ جميعِهم لِرَسولِ اللّه ﷺ، قال اللّهُ تعالَى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ [سُـورة التَّوبة: ١٠١]، فلا يَستقِيمُ حَملُ «لا نُكفِّرُ أحَـدًا مِـن أهلِ القِبلةِ» على كُلِّ مَن ادّعَى الإسـلامَ ظاهـرًا واتّجَه وهو في الحقيقةِ مُنفِقٌ في الاعتِقادِ أو مُرتَدٌّ.

ويؤيِّدُ ما قُلناهُ قولُ المُفسِّرِ الأُصوليِّ المُلّا شـهاب الدِّين الكُورانيّ الحنفيّ الشـافعيّ في «الدُّرَر اللَّوامع» (٤/ ٣٢٧) في قَولِ السُّبكيّ: «ولا نُكفِّرُ أحدًا مِن أهلِ القِبلةِ» ما نصُّه: «وليسَ علَى إطلاقِه، إذِ المُجسِّـمُ كافِرٌ وإنْ صام وصَلَّى».

وقال الإمامُ ابنُ الرِّفعة الشافعيُّ في «كِفاية النَّبيه» (٤/ ٢٤): «ومَن كفَّرْناه مِـن أهلِ القِبلَـةِ كالقائلين بخَلقِ القُـرءان (أي الصِّفَـةِ الذاتيّةِ لا الألفاظ المُنزَّلة) وبأنّـه (أي اللّهَ) لا يَعلَم المعدُوماتِ قَبلَ وُجودِها، ومَن لا يُؤمِنُ بالقَـدَرِ، وكذا مَن يَعتقِدُ أنّ اللّهَ جالِسٌ عـلَى العَرشِ، كما حكاه القاضي=

ثُمّ ذكرَ اللهُ عزَّ وجلَّ دليلًا ءاخر على صِحّةِ البَعثِ فقال تعالَى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ﴾ أيُّها الكفرةُ المُكذِّبون بالبَعثِ ﴿ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي علِمتم أنّ اللهَ هو الّذي أنشأكُم أوّلَ مرّةٍ إذْ خلقَكُم مِن نُطفةٍ طوَّرَها بقُدرَتِه إلى علَقةٍ ثُمّ إلى مُضْغةٍ حتّى خرَجتُم مِن بُطونِ أُمّهاتِكم أناسِيَّ[1]، ولَم تَكُونوا قبلَ ذلكَ شيئًا، ﴿فَلَوْلَا﴾ أي فهلّا ﴿تَذَكَّرُونَ ٦٢﴾ أي لِمَ لَا تتدبَّرُونَ وتَتفكَّرُونَ في النّشأةِ الأُولَى فتعلَمُوا أنّ مَن قَدر على إنشائِكُم أوّلَ مرّةٍ قادرٌ على ذلكَ مرّة أُخرَى.

= الحُسَينُ هنا عن نَصّ الشافعيّ».

وقال ابنُ أميرِ الحاجّ المالكيُّ في «التّقريـرِ والتّحبيرِ» (٣/ ٣٠٤): «القَول بأنّ اليهُوديَّ غيرُ مُخطئٍ في نَفيِ رِسالةِ نَبيّنا ﷺ ليسَ بأبعَدَ مِن القَولِ بأنّ المُجسّمةَ مِن أهلِ القِبلةِ غَيرُ مُخطئةٍ في أنّ اللهَ جِسمٌ وفي جِهةٍ».

وقال الشّيخُ الزاهِدُ الأُصوليُّ المُقرئُ أبو عليٍّ الشَّوْشَاويُّ المالكيُّ في «رَفع النّقاب» (٥/ ٨٧): «والكافِرُ على ضَربَينِ: كافِرٌ مِن غيرِ أهلِ القِبلةِ كاليَهُودِ والنَّصارَى، وكافِرٌ مِن أهلِ القِبلةِ كالمُبتدِعة» أي المُبتدِعةِ الّذين بلَغُوا ببِدعَتِهم حَدَّ الكُفرِ كالمُعتزِلةِ القائلينَ بأنّ العَبدَ يَخلُقُ أفعالَه.

وغيرُهم مِن العُلماءِ كثيرٌ مِمّن نصَّ على هذه المسألةِ، فالعِبرةُ بصِحّةِ الانتسابِ إلى أهلِ القِبلةِ بِناءً على حقيقةِ الأمر.

(١) جَمع إنسِيٍّ أو إنسانٍ، والإنْسُ والإنسانُ البَشَرُ، ويُقال: إنْسِيٌّ بكسرِ الهَمزةِ وأَنَسِيٌّ بالتّحريك. قالَ نِفطَويهِ مِن اللُّغَويّينَ: سُمّيَ الإنسيُّون بذلكَ لأنّهم يُؤنَسُون أي يُرونَ، وسُمّيَ الجِنُّ جِنًّا لأنّهم مُجتَنُّونَ عن رُؤيةِ النّاسِ أي مُتوارُونَ.

وقد أجمَلَ الكلامُ في الآيةِ السّابقةِ وفُصّلَ في غيرِها فقالَ تعالَى في سُورةِ القِيامةِ: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾[١] بلَى، فاللَّهُ قادِرٌ على كُلِّ شيءٍ.

فائـدة: استَدلَّ العلَماءُ بقولِ اللَّهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ على صِحّةِ اسـتِعمالِ قِيـاسِ الأَولَى، وهو نوعٌ مِن الأقْيِسـةِ المعرُوفةِ عِندَ الأصوليّين؛ ومِثالُـه: أنّه قد جاءَ في القُرءانِ الكريمِ نصٌّ فيه تحرِيمُ التأفُّفِ مِن الوالِدَين في وَجهِهما[٢]، فعُلِمَ أنّ ضربَهما – وهو

(١) قـال شَـيخُنا المفسِّرُ المُتكلِّمُ الهـرريُّ رحمه اللَّه: «قـال اللَّه تبارَك وتعالَى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾، قال أهلُ التّفسـيرِ: معناهُ أيَحسَب الكافرُ أنْ يُـترَك مُهمَلًا لا يُؤمَرُ ولا يُنهَى ولا يُبعَثُ ولا يُجازَى؟! أي أنَّ اللَّهَ تبارَك وتَعـالَى ما خَلَقَ الخَلْقَ لِكَي يَكُونـوا كالهَمَل أي كالإبِل الّتي ترعَى بلا راعٍ، بل خَلَقَهُم لِيأمُرَهم بـأداءِ الواجباتِ واجتِنابِ المُحرَّماتِ، لِيَجعَل جزاءَ المُطيعِـينَ له في هـذه الدُّنيا النَّعيمَ المُقيمَ الدّائـمَ في الآخرةِ ويَجعَل جزاءَ العاصِـينَ المُخالفينَ للأمرِ والنَّهيِ العَـذابَ الأليمَ في الآخرة، واللَّهُ تعالَى لا يَنتفِـعُ بشيءٍ مِن عِباداتِنا وعِباداتِ الملائِكة بل نحنُ نَنتفِعُ، كذلك هؤلاءِ الكُفّـارِ لا يَضُرُّونه بشيءٍ، فهو تعالَى لا يَحتـاجُ للمُطيعِين ولا للعاصِين، لا يَحتاجُ إلى شيءٍ مِن خَلقِه، قال اللَّه تعالَى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [سُورة فُصِّلَتْ: ٤٦]».

(٢) قال شَيخُنا العَلّامةُ الهرريُّ رحمه اللَّه: «قولُ «أُفّ» لأحدِ الوالِدَين في وَجهِه=

أشَدُّ مِن التأفُّفِ – مُحرَّم مِن قِياسِ الأَولَى.

وأعقبَ اللهُ عزَّ وجلَّ الدّليلَ السّابِقَ على صِحّةِ البَعثِ بذِكرِ ءاخرَ فقال تعالَى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝٦٣﴾ أي أخبِروني أيُّها المُكذِّبونَ بالبَعثِ عمّا تَحرُثونه مِن أراضِيكُم بإثارتِها وتقلِيب تُرابِها وذَرِّ البَذْرِ فيها وتَهيئَتِها للزَّرعِ ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ﴾ أي تُنبِتُون بَذْرَه[1] وتصيِّرُونه زرعًا ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝٦٤﴾ أي أَم اللهُ وَحدَه خالِقُ الزَّرعِ مُخرِجُه مِن البَذرِ المطرُوحِ في الأرضِ بقُدرَتِه عزَّ وجلَّ، ومعناهُ قد عاينتُم الزَّرعَ وأحوالَه أتزعُمون أنّكم تَخلقُون الزَّرعَ أمْ تُقِرُّون بأنّ اللّهَ خالِقُه، ومُشرِكُو مكّةَ لا يَشُكُّون في أنّ إيجادَ الحَبِّ في السُّنبُلةِ ليسَ بفِعلِ أحَدٍ مِن النّاسِ.

ولَمّا امتنَّ اللهُ علَيهم بأنّه هو الّذي أنعَمَ علَيهم بما تُنبتُ أرضُهم مِن زَرعٍ

= إنْ كانَ يتأَذَّى فذَنبٌ كبيرٌ، وهذا ما لَم يَكُن علَى وَجهِ المُزاحِ أو قالَها لإنكارِ المُنكَر».

(١) بفَتحِ الباء وسُكونِ الذّالِ اسمٌ قال الحِميَرِيُّ في «شَمس العُلوم» (١/ ٥١٣): «البَزْرُ بَزْرُ البَقلِ وغَيرِه، وقد تُكسَرُ باؤه أيضًا. قال ابنُ دُرَيدٍ: قولهم: بَزْر البَقْلِ خطَأٌ، إنّما هو بَذْر».
وقال ابنُ عابدِين في حاشِيَتِه نقلًا عن بعضِ أهلِ اللُّغة: «قال بَعضُهم: البَذْرُ في الحُبوبِ كالحِنطةِ والشَّعير. والبِزرُ أي بالزّاي في الرَّيّاحِينِ والبُقول، وهذا هو المشهورُ في الاستِعمالِ. ونُقِلَ عن الخليلِ: كلُّ حَبٍّ يُبذَرُ فهو بَذْرٌ وبَزْرٌ وجمعُه بُزورٌ، ثُمّ قال في اجتِماعِ الباءِ مَعَ الزّايِ البِزْرُ مِن البَقلِ ونَحوِه بالكَسرِ، والفَتحُ لُغةٌ».

قال لهم: ﴿لَوْ نَشَآءُ﴾ أي لو أرَدْنا ﴿لَجَعَلْنَٰهُ﴾ أي لصيَّرْنا المَزروعَ النّابِتَ ﴿حُطَٰمًا﴾ أي يابسًا مُتكسِّرًا لا حبَّ فِيه ولا ثمرَ بعدَما أنبَتْناه وعايَنتُموه مُخضرًّا وطَمِعْتُم في حِيازة غِلالِه وجَمعِها مِن بَعدِ ظُهوره وقَبل اشتِدادِ حَبِّه وثمرِه ﴿فَظَلْتُمْ﴾ أي فأقَمْتُم بسببِ ذلكَ ﴿تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ أي تَتعجَّبُون مِمّا نزَلَ بِكُم في زَرعِكُم مِن المُصيبةِ بفَنائِه وتكسُّرِه، وقيل: معناهُ تَندَمُون على ما سَلَفَ مِنكم مِن العِصيانِ الّذي استحقَقْتُم به تلكَ العُقوبةَ، وتَقولُون ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ أي ذاهِبٌ مالُنا بغَيرِ عِوَضٍ[1] ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾﴾ أي ممنُوعُون بأنْ حُرِمْنا ما كُنّا نَبغِي مِن الرَّيعِ[2] في الزَّرعِ.

وفي الآيةِ السّابقةِ جَوابٌ للمُعانِد القائِل: «نحنُ نَحرُث والزَّرعُ بِنَفسه يَصيرُ زَرْعًا لا بفِعْلِنا ولا بفِعلِ غَيرِنا»، فإنّه يُقال لهُ: ما تَقولُ في سلامةِ هذا الزَّرعِ مِن الآفاتِ الّتي تُصِيبُه وعدَمِ سَلامَتِه مِن غيرِها؟ فإنْ قال مُكابِرًا: إنّ الزَّرعَ يَدفَعُ عن نفسه بِنَفسِه بعضَها ويَترُك بعضَها فلا يَدفعُها، فقد جعَلَ للزَّرعِ اختِيارًا وإرادةً، ومَن كان كذلكَ كان مُتّصِفًا

(١) وفسَّره الإمام البخاريُّ رضي الله عنه بملُومين مَدينِينَ مُحاسَبِين، وقيل: معناهُ لَمُعذَّبون من الجُوع بسبب هَلاكِ الزَّرعِ أو بشُؤم معصيتِنا، فالغَرام العَذابُ، والمُغرَمُ مَن أُلزِمَ العَذابَ، ومنهُ قولُه تعالى في سُورة الفُرقان: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ أي دائِمًا مُلازِمًا للكافرِينَ لا يُخفَّفُ عنهم بل يَستمرُّ إلى ما لا نِهايةَ لهُ.

(٢) أي النَّماءِ والخُصوبة.

بالعِلمِ كالإنسانِ أو الغَريزةِ كالبَهيمةِ، وكلُّ مَا كان كذلكَ فهو مِن ذَواتِ الأرواحِ، وإنْ قُلت ذلكَ في النَّباتِ فقَد خالفتَ العُقلاءَ فيما أجمَعُوا علَيهِ، فبُهِتَ الّذي كَفر.

ثُمّ حاجَّهُم اللّهُ جلَّ وعزَّ[١] بأمرٍ ءاخَرَ فقال تعالَى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ﴾ أي أخبِرُوني أيُّها المُكذِّبونَ بالبَعثِ عنِ الماءِ ﴿ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾﴾ أي تشرَبُونَه حالَ كونِه صالِحًا للشُّربِ عَذبًا فُراتًا فتُسكِنُونَ به ما يُصِيبُكم مِن عطَشٍ وتَدفعُون به ما يَنزِلُ بِكُم مِن ظمَإٍ ﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ﴾ أي هذا الماءَ ﴿مِنَ ٱلْمُزْنِ﴾ أي السَّحابِ المُثقَلِ بالماءِ[٢] ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾﴾ له بقُدرَتِنا، معناه بلِ اللّهُ مُنزِلٌ للماءِ مِن السَّحابِ بقُدرَتِه عزَّ وجلَّ[٣]،

---

(١) أي أقامَ عليهم الحُجّةَ.

(٢) وقيل: المُزْنُ جمعُ مُزْنةٍ وهي السَّحابةُ البيضاءُ خاصّةً فإنّ ماءَها أعذَبُ ماءٍ يَنزِلُ.

(٣) المَطَرُ كُلُّه أصلُه من ماءٍ تحتَ العَرشِ، فاللّهُ تعالَى يُنشِئُ رِيحًا يَسمَعُ صوتَها المَلائِكَةُ المُوكَلون بالقَطْرِ وهُم ميكائيلُ وأعوانُه عليهِم السّلامُ فيأخذُون مِن الماءِ الّذي تحتَ العَرشِ بأمرِ اللّهِ ويجعَلُونَ ذلكَ الماءَ في تلكَ الرّيحِ، ثُمّ تحمِلُه هي إلى السَّحابِ الّذي بينَ السَّماءِ والأرضِ، قالَ اللّهُ تعالَى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [سُورة الحجر: ٢٢] معناهُ الرِّيحُ المذكورةُ تحمِلُ الماءَ فتُلقِّح به السَّحابَ. وهذه الرِّيحُ لَها وَزنٌ معلومٌ تَجري بِه، فلا يَضعُ الملائكةُ المُوكَلُون بالقَطرِ فيها إلّا بِقَدرِ ما أمرَهُم اللّهُ عزَّ وجلَّ بِه، ثُمّ ملائكةُ السَّحابِ يَسُوقونَ المُزْنَ إلى الجِهةِ الّتي أُمِرُوا بإفراغِ الماءِ فَوقَها، قال تعالَى:=

﴿لَوْ نَشَآءُ﴾ أي ولو أرادَ اللّهُ عزَّ وجلَّ ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾ أي لجعَلَ بقُدرَتِه الماءَ النّازِلَ مِن المُزْنِ ﴿أُجَاجًا﴾ أي مالِحًا شديدَ المُلوحةِ فلَم تَنتفِعُوا بِه في شربٍ ولا زَرعٍ[1] ﴿فَلَوْلَا﴾ أي فهلّا ﴿تَشْكُرُونَ ۝٧٠﴾ اللّهَ الشُّكرَ الواجِبَ على إنعامِه عليكم بِما أعطاكُم مِن الماءِ العَذبِ الصّالِحِ لِشُربكم ومَنافعِكُم في مَعايشِكُم وعدَمِ جَعلِه ماءً مالِحًا غيرَ نافِعٍ للشُّربِ والزَّرعِ، والشُّكرُ الواجِبُ علَيكُم لا يصِحُّ مع كُفرِكُم بالبَعثِ لأنَّكُم تُكذِّبُونَ اللّهَ والعِياذُ باللّهِ، بل يَكُونُ الشُّكرُ بأنْ تُؤمِنُوا باللّهِ وبرَسولِه وتُؤدُّوا الواجباتِ وتَجتنِبُوا المُحرَّماتِ.

فائـدة: خُصَّ الـشُّربُ بالذِّكرِ في الآيةِ معَ كَثرةِ فَوائِـدِ الماءِ ومَنافعِه

= ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ [سُـورة المؤمنُـون: ١٨]، وقال ابنُ عبّاسٍ رضي اللّه عنهما: «إنّ اللّهَ تعالَى جعَلَ إنزالَ الماءِ تذكرةً بأنْ يَصرِفَه عن بعضِ المَواضعِ إلَى بعضِ المواضِـعِ، وهذا كُلُّه في كُلّ عامٍ بمِقْدارٍ واحِدٍ»، ومِثلَه قال ابنُ مسـعودٍ رضي اللّه عنه: «ما مِن عامٍ أمطَرُ مِن عامٍ ولكنّ اللّهَ يَصرِفُه حيثُ يَشـاءُ». وقال ربُّنا جلَّ جلالُه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [سُورة الأعراف: ٥٧]، ومعنَى ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ أي أمـامَ نِعمَتِه وهو الغَيثُ الّذي هو من أجَلِّ النِّعَمِ على العِبادِ، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [سُورة الزُّمَر: ٢١].

(١) وقيل: الماءُ الأُجاجُ المُرُّ الّذي لا يُنتفَع به في شربٍ ولا زرعٍ ولا غيرِهما.

لأنّ بـهِ حياةَ البشَرِ؛ فقَد أجرَى اللّه العادةَ أنْ لا يَستغنِي الإنسانُ عن شُربِ الماءِ إلّا مَن خرَقَ اللّهُ له العادةَ كبَعضِ أوليائِه فقَد يمكُث أيّامًا لا يَشرَبُ كَعبدِ الرَّحمنِ بنِ أبي نُعْمٍ رضي اللّه عنه[١]، أو شُهورًا كعليّ بنِ رَزينٍ[٢] رضي اللّه عنه، وسنِينَ كرَحمةَ بنتِ إبراهيمَ الخوارزميّةُ مِن أهلِ القرنِ الثالثِ الهجريّ والّتي أُكرِمَتْ بذلك بسببِ زَوجها الّذي مات مُجاهدًا في قِتالِ الكُفّارِ[٣]، بل ومِئاتُ السِّنِينَ كالمَسيحِ عيسَى ابنِ مَريمَ ﷺ فإنّ اللّهَ خلّصَه مِن أذى الكافرين ورفعَه إلى السّماء وأغناهُ هُنالِكَ عن الطَّعامِ والشَّرابِ، وفي هذا كُلّه دليلٌ على أنّ الأسبابَ ليسَتْ خالقةً للمُسبَّباتِ؛ فلَو كان الطّعامُ والشّرابُ هو خالِقَ الحياةِ لَماتَ الملائكةُ

---

(١) مكَثَ خمسةَ عشَر يومًا لا يَشرَبُ.

(٢) صَحبَه أبو عبدِ اللّهِ المغرِبيُّ رضي اللّه عنهما فوجَدَه لا يَشرَبُ شيئًا إلّا شَرْبةَ ماءٍ في كُلِّ أربعةِ أشهُرٍ، ذكرَه أبو نُعيمٍ في «الحِلية».

(٣) رأتْـه في المَنامِ في الجنّة مـعَ أصحابِه فناولها كِسرةَ خُبزٍ قالـت: وأنا أعلَمُ حِينئذٍ أنّه خُبزٌ ولكن لا أدري كَيفَ يُخبَزُ، هو أشَدُّ بياضًا مِن الثّلجِ واللّبَنِ وأحلَى مِن العسَلِ والسُّكّرِ وألينُ مِن الزُّبد والسَّمن، فأكَلْتُه فلمّا استقَرَّ في جَوفي قال: اذهَبي كَفاكِ اللّه مُؤنةَ الطّعامِ والشّرابِ ما حَيِيتِ في الدُّنيا، قالـتْ: فانتبَهْتُ مِن نَومي شَبْعَى رَيّا لا أحتاجُ إلى طعامٍ ولا شَرابٍ وما ذُقتُهما مُنذ ذلكَ اليومِ إلى يَومِي هذا ولا شيئًا يأكُلُه النّاسُ. وقَد ذكَر القِصّةَ بتَمامِها التاجُ السُّبكيُّ في «الطّبقاتِ» (٨/ ١٤) وابنُ العِمادِ في «الشَّذَراتِ» (٣/ ٣٠٠) وغيرُهما.

لأنّهـم لا يأكلـون ولا يَشربونَ، فإنَّ اللّهَ تعالَى جَعلَهُـم علَى هذه الصِّفةِ لحِكَمٍ كثيرةٍ(١).

ثُـمّ حـاجَّ اللّهُ الكافِرين بدليـلٍ ءاخرَ فقال تعـالَى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ﴾ أي أخـبِرُوني أيُّهـا المُكذِّبونَ بالبَعثِ عنِ النّـارِ ﴿ٱلَّتِي تُورُونَ ٧١﴾ أي تُظهِرُونَهـا(٢) بِقَدْحِ غُصنٍ رَطبٍ بآخرَ مِثلِه كالمَـرْخِ والعَفارِ(٣)، وهُما شـجَرانِ مَوجُـودانِ في أغلَـبِ بَوادِي العـرَبِ يُقطَع مِنهُمـا غُصْنانِ كالمِسْـواكَينِ وهما أخضَرانِ يَقطُر مِنهُما الماء، فيُسْـحَقُ المَرْخُ وهو الذّكَرُ والأَعلَى ويُسـمَّى الزَّنْدَ(٤) بالعَفارِ وهي الأُنثَى والأسـفَلُ وتُسمَّى الزَّنْدة فتَنقدِحُ النّارُ بـإذنِ اللّهِ تعالَى، ﴿ءَأَنتُمْ﴾ أيُّها الكفرة ﴿أَنشَأْتُمْ﴾ أي اختَرعْتُم ﴿شَجَرَتَهَآ﴾ أي الشّجَرة التي يَنقدِحُ مِنها وبواسطتِها النّارُ كالمَـرْخِ والعَفـارِ ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ٧٢﴾ معناهُ بَـلِ اللّه مُختَرِعُها

---

(١) ومِن الأدِلّةِ علَى أنّ الملائكةَ لا تأكُلُ ولا تَشرَبُ ما جاءَ في القُرءانِ في شـأنِ ضَيفِ سيِّدِنا إبراهيمَ ﷺ من الملائكةِ الّذين دخَلُوا عليه بِصُوَرٍ جميلةٍ ولَم يَعرِفْهُـم ابتداءً؛ قال اللّهُ تعـالَى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ٦٩ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ أي لَم يعرِفْ ما شأنُهم لا يأكُلون حتّى أخبَرُوه أنّهُم ملائكةٌ.

(٢) يُقال: أورَيتُ النّارَ إذا قدَحتُها، وورَى الزَّنْدُ يَري إذا انقدَح مِنهُ النّارُ.

(٣) وتُوقَـد النّارُ من غيرِهما أيضًا إلّا أنّ هذَيـن متوفِّرانِ بِكثرةٍ في أرضِ العربِ ويَقدَحانِ بِسرعةٍ.

(٤) بفَتحِ الزّايِ وسكُونِ النُّونِ، وجمعُه زِنادُ بكسرِ الزّايِ.

وخالقُها بإبرازِها مِن العدَمِ إلى الوُجودِ مع ما أودَعَ فِيها مِن الخصائِصِ والمَنافِعِ الّتي تُدركُونها بالحِسّ أيُّها المُكذِّبُون بالبَعثِ، فإنّ ذلكَ لجَدِيرٌ بأنْ تُقرُّوا بأنّ اللهَ القادرَ على خَلقِ النارِ من الشّجرِ الأخضَرِ - مع ما في هــذا النَّباتِ مِن المائيّة المضادّةِ للنّــارِ - لا يُعجِزُه إعادةُ الرُّطوبةِ إلى العِظامِ البالِيةِ كما أنّه لا يُعجِزُه خَلقُ الأجســادِ الفانيةِ مِن تُرابٍ، فهو قادرٌ على بَعثِكُم وإنشائِكُم نشأةً جديدَّة بعدَ المَوتِ، وإنّ ذلكَ كائنٌ لا محالةَ، ﴿نَحۡنُ جَعَلۡنَٰهَا﴾ أي اللهُ وَحدَه جعَلَ بقُدرَتِه نارَ الدُّنيا ﴿تَذۡكِرَةٗ﴾ لِنــارِ جهنَّمَ؛ وذلك أنّ الرائيَ إذَا أبصرَها وأحَسَّ بحَرارَتِها وعاينَها كيفَ تأكُلُ ما تُباشِرُه[١] بإذْنِ اللهِ كان جَدِيرًا به أنْ يَتذكَّرَ نارَ جهنَّم فيَخشَى اللهَ عــزَّ وجلَّ ويَخافَ عِقابَه فلا يَعصِيَــه، ﴿وَ﴾ من فَضلِه عزَّ وجلَّ أنْ جعَلَ نارَ الدُّنيــا ﴿وَمَتَٰعٗا لِّلۡمُقۡوِينَ ٧٣﴾ أي مَنفعةً للمُســافرين[٢] إذَا نزَلُوا بالأَرضِ القِيّ[٣] أي القَفرِ الخاليةِ من الماءِ والنّباتِ والعِمارةِ[٤].

وخُصَّ المسافِرُون بالذِّكرِ لأنّهم أحوَجُ إلى النّارِ في تَهرِيبِ السِّباعِ،

(١) النّارُ جِسمٌ كثِيفٌ، ونُورُها جِسمٌ لَطِيفٌ، وحَرارتُها عرَضٌ تابِعٌ لها.

(٢) يُقال: أَقْوَتِ الدّارُ وقَوِيَتْ إذَا خَلَتْ عَن ساكِنِيها.

(٣) بكَسرِ القافِ وتشــديدِ الياءِ، ويُقالُ لها القَــواءُ بفَتحِ القافِ وتَخفيفِ الواوِ. وتُطلِقُ العربُ المُقْوِي على الجائعِ وعلى مَن لا زادَ معَه ولا مالَ له.

(٤) وقال بعضُهم: مَنفعةً للمُنتفِعين بها مِن النّاسِ أجمَعِين، المُســافِرين منهُم والحاضِرين؛ فإنّهم يَســتضِيئُون بها في الظُّلمةِ، ويَســتدفِئونَ بها مِن البَردِ، ويَنتفِعُون بِها في الطَّبخِ والخَبزِ وغيرِ ذلك.

والاستدفاءِ مِن البَردِ، وتجفيفِ الثِّيابِ في العَراءِ، وإصلاحِ الطَّعامِ في الأرضِ الخاليةِ عن القُوتِ؛ أمّا المُقيمُ في الحضَرِ فيَجدُ حاجاتِه كُلَّها عِندَ مُجاوِرٍ له إذَا أعوزَ، وغير ذلكَ مِن المَنافِعِ الّتي لا يُحصِيها إلّا اللهُ عزَّ وجلَّ.

روَى الشَّيخَانِ وغيرُهما عن أبِي هُريرةَ رضي اللهُ عنه أنّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**نارُكُم**[١] **جُزْءٌ مِن سَبْعِينَ جُزْءًا مِن نارِ جَهنَّمَ**»، قِيل: يا رَسولَ اللهِ إنْ كانَتْ لَكافِيةً[٢]، قال: «**فُضِّلَتْ**[٣] **عَلَيهِنَّ**[٤] **بِتِسْعةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا**» الحديثَ[٥].

فائدة: ذكَرَ اللهُ عزَّ وجلَّ في الآيةِ المَنفَعةَ الحاصِلةَ في تَذكُّرِ نارِ الآخِرة الكُبرَى بنارِ الدُّنيا الصُّغرَى فقدَّمها على المَنفَعةِ الدُّنيويّةِ المُكتسَبةِ مِن نارِ الدُّنيا لكَونِ أمرِ الآخِرةِ أهَمّ وءاكَد من أمرِ الدُّنيا، والعادةُ في

---

(١) أي التّي في الدُّنيا، فيَدخُل في ذلكَ أشَدُّ نارٍ خلقَها اللهُ في الدُّنيا.

(٢) أي ولو كانتْ هذه النّار الّتي في الدُّنيا عذابَ الكافرين لكَفَتْ، فكيفَ بهم إذا كانَ لهُم نارٌ أشَدُّ مِن نارِ الدُّنيا بأضعافٍ كثيرةٍ، ولا شَكَّ أنّ الصحابة مُوقِنُون أنّ اللهَ عزَّ وجلَّ جعلَها على تِلكَ الصِّفةِ لحِكَمٍ هو أعلَمُ بها.

(٣) أي ضُوعِفَتْ.

(٤) أي على نِيرانِ الدُّنيا.

(٥) جاءَ في روايةٍ أُخرى عِندَ أحمدَ: «**هَذِهِ النَّارُ جُزْءٌ مِنْ مِائَةِ جُزْءٍ مِنْ جَهَنَّمَ**»، واختلَفَ كلامُ الشُّرّاح، فالّذي ذهَبَ إليه عددٌ مِنهُم أنّه لا تَعارُضَ بين الرّوايتَين بِناءً على أنّ المُرادَ المُبالَغةُ في الكَثرةِ لا العَددُ الخاصُّ بالمائة.

كلامِ العرَبِ تقدِيمُ الأهَمّ والأكثر عِنايةً بِه علَى ما هو أقلُّ أهمِّيّةً وعِنايةً، وأمثِلةُ ذلكَ فِي القُرءانِ كثِيرةٌ جِدًّا، مِنها قولُه تعالَى: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [سُورة النّساء: ٣٦] فقُدّمَ الوالِدانِ لأنّ حقَّهُما على المَرءِ أعظَمُ مِن حَقِّ غيرِهما علَيهِ مِن ذَوِي القَرابةِ كالأخِ والعَمِّ والخالِ.

تنبيه: سبَق ذِكرُ وَصفِه تعالَى بأنّه هو الذي خلَقَ الخلق وأنّه لم يُسبَق إلى فِعلٍ، وأنّه أخرَجَ الزَّرع بقُدرَتِه، وأنزلَ الماءَ مِن السّماءِ على ما شاءَ، وأنّه المَشكُور على لِسانِ عبادِه المؤمنين، وأنّه الّذي أنشأَ بقُدرَتِه الأشجارَ الّتي منها تُقدَح النّارُ، ولكِن ليسَ مِن أسماءِ اللّه تعالَى السّابقُ والزّارِعُ والمُنْزِلُ والمَشكُورُ والمُنشِئُ، بل ثَبتَ تَسمِيَتُه عزَّ وجلَّ بالخالِقِ، وكلُّ ما سبَقَ مِن المفعولاتِ أي المَصنُوعاتِ خَلْقٌ له عزَّ وجلَّ، فهو يَفعلُ ذلكَ كُلَّه بقُدرَتِه الأزليّةِ الأبدِيّةِ، فالأوصافُ تُفهَم مِن الأسماءِ بمعنَى أنّه يُفهَم مِن اسمِه القادِرِ اتّصافُه بالقُدرةِ، ومِن اسمِه القَيُّومِ اتّصافُه بالاستِغناءِ عمّن سِواهُ، ومِن اسمِه القُدُّوسِ اتِّصافُه بعدَمِ مُشابهَةِ الخَلقِ، وهكذا، لكِن لا يجُوزُ اشتِقاقُ اسمٍ للّه لَم يثبُتْ له؛ فلا يُقال: «هو أخبرَنا في القرءان أنّهُ يُنْزِلُ الماءَ مِن السَّماءِ بقُدرَتِه فنُسمِّيه المُنْزِلَ» مَعاذَ اللّهِ، فإنّ أسماءَ اللّهِ عزَّ وجلَّ توقيفيّةٌ أي يُتوقَّفُ فِي إطلاقِها علَيه سُبحانَه بالاقتِصارِ علَى ما ثبَتَ مِنها فِي نُصوصِ الشَّرعِ والإجماعِ ولا يُتجاوَزُ نصُّ القُرءانِ والحديثِ الثابت والإجماعُ فِي إطلاقِ اسمٍ علَيهِ تعالَى.

ومِن الكُفر بِاللهِ تَعالَى أنْ يُسمَّى ماكِرًا أو مُخادِعًا أو مُستهزِئًا أو ناسِيًا أو ضالًّا كما جازَف بِه البَعضُ فقالُوا بِجوازِ إطلاقِ ذلكَ على اللهِ وتَسمِيَتِه به، والعِياذُ باللهِ، فإنّ قولَهُم يَقتضِي جوازَ أنْ يُسمَّى امرُؤٌ «عبدَ الماكِرِ وعبدَ الضالِّ» أو أن يُدعَى اللهُ - علَى زَعمِهم - بأنْ يُقال: «يا مُستهزِئُ أصلِحْني، يا ماكِرُ وَفِّقْني، يا ضالُّ اهْدِني»، والعِياذُ باللهِ تعالَى، ولَسْنا نُثبِتُ مِثلَ ذلكَ علَى العلّامةِ شيثِ بنِ إبراهِيمَ المالكِيّ المعرُوفِ بابنِ الحاجّ القِفْطِيّ[1] وإنْ ورَد في النُّسخةِ المُتداوَلةِ مِن كِتابِه «حَزِّ الغَلاصِم في إفحامِ المُخاصِم»[2].

ولمّا ذَكَر اللهُ عزَّ وجلَّ بعضَ ما يَدُلُّ على وَحدانِيَّتِه وقُدرَتِه وإنعامِه علَى الخَلقِ خاطَب نَبِيَّه ﷺ فقال: ﴿فَسَبِّحْ﴾ أي وإذَا عُدَّ كُلُّ ما عُدَّ مِن الآياتِ الدّالّةِ على ما ذُكِرَ وإنكارًا على الجاحِدِين الكافِرِينَ فَسَبِّحْ ﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ أي نَزِّهِ اللهَ ربَّكَ[3] عمّا لا يَلِيقُ بِه كالّذي أضافَه إليه

---

(١) قال الحافظ السُّيوطيّ في «لُبِّ اللُّباب» (ص/ ١٨٦): القِفْطِيّ بالكَسرِ وسُكونِ الفاءِ إلى قِفْطٍ بلَدٍ بِصَعيدِ مِصرَ».

(٢) وفي النُّسخةِ المُتداوَلةِ عِبارةٌ فاسِدةٌ مُعارِضةٌ لدِينِ اللهِ، فيها أنّه يجوزُ تسمِيةُ اللهِ ماكِرًا وناسِيًا ومُخادِعًا، والعِياذُ باللهِ تعالَى.

(٣) قال الفَخرُ الرّازيّ في تفسيره (٢٠/ ٢٩١): «قال النَّحويُّون: «سُبحانَ» اسمُ علَمٍ للتّسبِيح، يقالُ: سَبَّحتُ اللهَ تَسبِيحًا وسُبحانًا، فالتَّسبِيحُ هو المصدَرُ، وسُبحانَ اسمُ علَمٍ للتّسبِيح كقولِكَ: كفَّرتُ اليَمينَ تَكفِيرًا وكُفْرانًا؛ وتَفسِيرُه تنزِيهُ اللهِ تعالَى من كُلِّ سُوءٍ. قال صاحِبُ «النَّظم»:=

المُشرِكُونَ مِمّا لا يجوزُ عليه سُبحانَه ﴿ٱلْعَظِيمِ ۝٧٤﴾ قَدرًا وشأنًا لا حَجمًا لأنّه ليسَ بذِي حَجمٍ ولا يُشبِهُ الخَلقَ بأيِّ معنًى مِن المعاني، أو معناه سَبِّحِ اللهَ بذِكرِ اسمِه العظيمِ بنَحوِ قولِ: «سُبحانَ اللهِ»، ولَفظُ الجلالةِ «اللهُ» أعظَمُ الأسماءِ وأفضَلُها على الإطلاق.

رُوِّينا في «المعجَمِ الأوسَطِ» للطّبَرانيّ عن أبِي الوَرْدِ قال: سَمِعتُ عبدَ اللهِ ابنَ الزُّبَيرِ رضي الله عنه يقول: إنَّ تشهُّدَ النَّبِيِّ ﷺ: «**بِاسْمِ اللهِ وَبِاللهِ خَيْرِ الأَسْمَاءِ**» الحديثَ.

ورُوِّينا في «صحِيحِ ابنِ حِبّانَ» و«صحِيحِ ابنِ خُزَيمَةَ» عن عُقبةَ بنِ عامرٍ الجُهَنِيِّ رضي الله عنه قالَ: لمّا نزَلَتْ: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾، قال رَسولُ اللهِ ﷺ: «**اجْعَلُوها فِي رُكُوعِكُم**»، فلَمّا نَزَل ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾(١) قال: «**اجْعَلُوها فِي سُجُودِكُم**».

= السَّبحُ في اللُّغةِ التّباعُد، يَدُلُّ عليهِ قولُه تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ [سُورة المُزَّمِّل: ٧] أي تباعُدًا، فمعنَى: سَبّحَ اللهَ تعالَى أي بَعّدَهُ ونَزّهَهُ عمّا لا يَنبغِي. وقد جاءَ في لفظِ التَّسبيحِ مَعانٍ أُخرى: أحدُها أنّ التَّسبيحَ يُذكَرُ بمَعنَى الصّلاةِ ومنهُ قولُه تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ [سُورة الصافّات] أي مِن المُصلِّينَ، والسُّبْحةُ الصّلاةُ النافِلةُ، وإنّما قِيلَ للمُصلِّي مُسبِّحٌ لأنّه مُعظِّمٌ للهِ بالصّلاةِ ومُنَزِّهٌ له عمّا لا يَنبغِي». ا.هـ.

(١) أي نَزِّه ربَّكَ العالِي القَدْرِ والشأنِ عمّا لا يجوزُ عليه، ولا يجوزُ وصفُ اللهِ عزَّ وجلَّ بعلُوِّ المَكانِ والجِهةِ لأنّه سُبحانَه خالِقُ العالَمِ بأسرِه لا يَحتاجُ إلى شىءٍ مِنه، وقد نقَل شيخُ الحُفّاظِ الإمامُ العِراقِيُّ في بعضِ أمالِيّهِ الإجماعَ على =

ولمّا ذكَر اللهُ عزَّ وجلَّ بعضَ الأدِلّةِ علَى انفرادِه بالألُوهِيّةِ والخالِقِيّةِ وقُدرَتِه على البَعثِ أعقَبَ ذلكَ بذِكرِ بعضِ ما يَدُلُّ على صِحّةِ نُبُوّةِ محمّدٍ ﷺ وصِدقِ القُرءانِ الكَريم، فأقسَمَ علَى صِحّةِ هذا بِما يُشاهِدُونَه عِيانًا فقال تعالَى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ أي فأُقسِمُ، ولا مُضافةٌ للتّوكِيد[١]، وهو الّذي عليه جُمهورُ المفسّرِين[٢] ومعناه: أحلِفُ ﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥﴾ أي مَساقِطِها وهي مَغارِبُها، وقيل: هي نُجومُ القُرءانِ أي الدُّفعاتُ الّتي كانتْ تَنزِلُ منه، فإذا قِيل: نزَل القُرءانُ مُنجَّمًا فمَعناهُ مُفرّقًا في ثلاثٍ وعِشرينَ سَنةً دُفعةً بَعد دُفعة مُوزَّعًا علَى الأَوقاتِ[٣]، وهو قِسمانِ:

= كُفرِ مَن يُثبتُ للهِ الجِهةَ والمَكانَ.

(١) يُقال لها «صِلَةٌ مُؤكّدةٌ» وهو أحسَنُ مِن قولِهِم: «زائدةٌ مؤكِّدةٌ». وقد قُرِئَ في الشاذّةِ: «فَلَأُقْسِمُ» بالتّوكِيد.

(٢) وذهَب بعضُ المفسّرين إلى أنّ ﴿فَلَآ﴾ راجعةٌ إلى ما تَقدَّم مِن الآياتِ ومعناها: فَلا تكذِبُوا ولا تَجحَدُوا أيُّها الكفرة ما ذُكِرَ لَكُم من النِّعَمِ والحُجَجِ، وقال غيرُهم: معنَى ﴿فَلَآ﴾ أي فليسَ الأمرُ كما يَقولُ الكُفّار في شأنِ القُرءانِ مِن أنّه سِحرٌ وشِعرٌ وكَهانةٌ، وإنّي أُقسِمُ بِمَواقعِ النُّجومِ إنّ المُنزَّل على محمّدٍ ﷺ لَقُرءانٌ كريمٌ. وقال ءاخَرُون: إنّ ﴿فَلَآ﴾ هنا معناها النَّفيُ، وذلكَ كقَولِ القائل: لا تسأَلْ عمّا جرَى، وهو يُريدُ تَعظِيمَ الأمرِ لا النَّهيَ عن السُّؤالِ.

(٣) قال اللهُ تعالَى: ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا﴾ [سورة الإسراء: ١٠٦].

مِنهُ ما نزَلَ ابتِداءً، ومِنه ما نزَلَ لِحادِثةٍ أو سُؤالٍ ونحوِ ذلكَ، ويَتمسَّك القائِلُون بالوَجهِ الأخيرِ في تفسِيرِ الآيةِ بما رواهُ الحاكِمُ في «المُستدرَك» عنِ ابنِ عبّاسٍ رضي اللهُ عنهُما قال: «أُنزِلَ القُرءانُ في لَيلةِ القَدْرِ مِن السَّماءِ العُلْيا إلى السَّماءِ الدُّنْيا جُملةً واحِدةً ثُمَّ فُرِّقَ في السِّنِينَ»، وتلَا هذه الآيةَ ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥﴾ قال: «نزَلَ مُتفرِّقًا».

ثُمّ بيَّنَ اللهُ تعالَى عظَمةَ هذا القسَمِ علَى المُقسَم علَيهِ وهو صِدقُ القُرءانِ فقال تعالَى: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي القسَمَ بمَواقِعِ النُّجومِ على المُقسَمِ علَيهِ ﴿لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ٧٦﴾ أي هو قسَمٌ عظِيمٌ، ولو كُنتُم تَعلَمُون عظَمَتَه لانتفعتُم بذلكَ، وجوابُ القسَمِ ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي الكِتابَ المُنزَّلَ على محمّدٍ ﷺ ﴿لَقُرۡءَانٞ﴾ أي لَكِتابٌ ﴿كَرِيمٞ ٧٧﴾ أي مُكرَّمٌ شأنًا مُعظَّمٌ قدْرًا ﴿فِي كِتَٰبٖ﴾ أي في لَوحٍ ﴿مَّكۡنُونٖ ٧٨﴾ أي محفُوظٍ مَصُونٍ مِن عبَثِ الشّياطِين، وقيل: المُرادُ بالكِتاب المَكنُونِ هُنا المُصحَفُ فإنّه مَكنُونٌ أي مَصُونٌ محفُوظٌ مِن التّبدِيلِ والتّحرِيفِ، وصحَّحَ التَّفسِيرَ الأوّلَ جُمهورُ المفسِّرِين.

روَى الطَّبَريُّ وغيرُه عن الضحّاك وابنِ زَيدٍ[1] قالَا: كانَ المُشرِكُون

---

(١) حيث أُطلِق في التّفسِيرِ «ابنُ زَيدٍ» فالمُرادُ به عبدُ الرَّحمنِ بنُ زَيدِ بنِ أسلَم رضي اللهُ عنهُما، فأبوه زيدٌ كان مولَى عمرَ بنِ الخطّابِ رضي اللهُ عنه وأحَد عُلماءِ التّفسِير مِن كِبارِ التّابعِين، وقَد أخذَ عنهُ ولَدُه عبدُ الرَّحمنِ وهو عالِمٌ مُفسِّرٌ مِن عُلماءِ المدِينةِ المنوَّرة.

يقولُونَ: إنّ هذا القُرءانَ تَنزَّلَتْ بِهِ الشّياطِينُ علَى محمّدٍ، فأَكذبَهُم اللهُ عزَّ وجلَّ وأخبَرَ أنّ الشّياطِينَ لا يَقدِرُون علَى ذلِكَ ولا يَستَطِيعُونَ أنْ يَنزِلُوا بِهذا، فإنّه قُرءانٌ مَصُونٌ محجُوبٌ عنهُم في اللّوحِ المحفوظِ، قال تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢١٠ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ ۝٢١١﴾ [سُورة الشُّعَراء: ٢١٠-٢١١].

فائدة: اللّوحُ المحفوظُ جِسمٌ مُتحقِّقُ الوُجودِ مكانُه فوقَ العَرشِ جِهةَ اليَمِـين أو غيرَها[١] أو أنّه تحتَ العَرشِ[٢]، وقد جاء في شـأنِه أحاديثُ وءاثارٌ بعضُها ثابِت وبعضُها ضعِيفٌ سنَدًا؛ فمِن القِسمِ الأوّلِ ما رواهُ أبـو داودَ والترمـذيُّ وأحمدُ وغيرُهم عَن عُبادةَ بـنِ الصّامتِ رضيَ اللهُ عنه أنّه قال لابْنِه: سَمِعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «**إنَّ أوَّلَ ما خَلَقَ اللهُ القَلَمُ**[٣] **ثُمَّ قالَ: اكْتُبْ، فَجَرَى فِي تِلْكَ السّاعَةِ بِما هُوَ كائِنٌ إلَى يَوْمِ**

---

(١) وهو الّذي قاله الدّاوُديّ والخطّابيُّ والحافظ العَسقلانيّ والبَدرُ العَينيّ وغيرُهم.

(٢) وبه قالَ المُحِبُّ الطبَريُّ والقاضِي البَيضاويُّ والطِّيبيُّ وغيرُهم.

(٣) وهي أوّلِيّةٌ نِسـبِيّةٌ، فإنّه قد خُلِقَ قَبلَه المـاءُ الأوّلُ ثُمّ مِنه العَرشُ كما دلَّ عـلى ذلكَ نُصوصٌ أُخرَى ثابِتةٌ مِنها قولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّ﴾ [سُـورة الأنبياء: ٣١]، وقولُ رسـولِ اللهِ ﷺ: «**كانَ اللهُ ولَيْسَ شيءٌ غَيْرُهُ، وكانَ عَرْشُهُ عَلَى المْاءِ، ثُمَّ كَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شيءٍ، ثُمَّ خَلَقَ السَّماواتِ والأَرْضَ**».

ومعنَى «**كانَ اللهُ ولَيْسَ شيءٌ غَيْرُهُ**» أنّ اللهَ عزَّ وجلَّ لَم يَزلْ موجُودًا في الأزَلِ=

القيامة»، ومن القسم الثاني: ما رواه الحاكم في «المستدرك» والطّبرانيّ في «المعجم الكبير» وأبو الشّيخ في «العظمة» وغيرهم عن ابن عبّاس رضي الله عنهما مرفوعًا وموقوفًا: «**إنّ ممّا خلق الله لوحًا محفوظًا من دُرّةٍ بيضاء، دفّتاه من ياقوتةٍ حمراء، قلمُه نورٌ، وكتابُه نورٌ**» الحديث، وهو ضعيف سندًا لا يثبت فلا يُجزم بأنّ هذه صفة اللّوح، وفي زيادةٍ موقوفةٍ على ابن عبّاسٍ: «طُوله ما بين السّماءِ والأرضِ، وعرْضه ما بين المشرقِ والمغربِ».

فكلُّ ما يحدُث في هذا العالَم إلى نهايةِ الدُّنيا مسطورٌ في اللّوحِ المحفوظ

= ليس معه غيرُه، لا زمانٌ ولا مكانٌ ولا جهاتٌ ولا ماءٌ ولا هواءٌ ولا أرضٌ ولا سماءٌ ولا كرسيٌّ ولا عرشٌ ولا إنسٌ ولا جنٌّ ولا ملائكةٌ، فهو تعالَى موجودٌ قبلَ المكانِ بلا مكانٍ، ولم يزلْ بعدَ خلقِ العالَمِ بلا كيفٍ ولا مكانٍ ولا يتقيّدُ بزمانٍ.

ومعنَى «**ثُمَّ كَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ**» أنّ الله عزَّ وجلَّ أمرَ القلمَ الأعلَى بأنْ يجري فيكتُبَ في اللّوحِ المحفوظِ كُلَّ ما يكون في الدُّنيا مِن حركةٍ وسكونٍ وحادثٍ يُوجَدُ وموجودٍ يُعدَمُ إلى نهايةِ الدُّنيا، أمّا أُمورُ الآخرةِ فلا تدخلُ في حصرِ لوحٍ أو صحيفةٍ لأنّ الحياةَ الأُخرويَّةَ ممتدَّةٌ لا نهايةَ لها، فجرَى القلمُ بقُدرةِ الله عزَّ وجلَّ مِن غيرِ أنْ يمسَّ ذلكَ القلمَ أحدٌ وكتبَ ما هو كائنٌ إلى نهايةِ الدُّنيا، فالذّكرُ هنا في الحديثِ هو اللّوحُ المحفُوظُ، وقد سمّاهُ القرءانُ الكريمُ أيضًا «الإمامَ المُبينَ»؛ قال تعالَى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة يس: ١٢]، وسبقَ كلامُنا على هذه الآيةِ في تفسير سُورةِ يس فليُنظر.

تَفصِيلًا؛ سَواءٌ في ذلكَ حُدوثُ الأعيانِ وعدَمُها ووجودُ الأعراضِ وزَوالُها، وهو الّذي يَدلُّ عليه ءاياتٌ صريحَةٌ في ذلكَ؛ مِنها قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ﴾ [سُورة الحَجّ: ٧٠]، وقولُه عزَّ وجلَّ: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾ أي لا يَغيبُ عن عِلمِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ ﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [سُورة سَبأ: ٣]، واللَّهُ عزَّ وجلَّ عالِمٌ بكُلِّ المعلُوماتِ مِن قَبلِ أن يُوجِدَ القلَمَ الأعلَى واللَّوحَ المحفُوظَ، وليسَ هو عزَّ وجلَّ مُحتاجًا إلى اللَّوحِ المحفوظِ أو غيرِه مِن الخَلقِ ولكنّه أوجَدَ ذلكَ لحِكَمٍ كثيرةٍ هو يَعلَمُها.

ولمّا ذكَرَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ أنّ القُرءانَ مكتوبٌ في اللَّوحِ المَحفُوظِ مَصُونٌ مِن أنْ تَعبَثَ بهِ الأيدِي قال تعالَى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ٧٩﴾ واختُلِفَ في معنَى ذلكَ على أقوالٍ كثيرةٍ، مِنها:

- أنّه لا يمَسُّ اللَّوحَ المحفُوظَ إلّا الملائِكةُ.
- أو أنّه إذَا أرادَ اللَّهُ أنْ يُنزِل كِتابًا على أحدِ أنبيائِه علَيهِمُ السّلامُ نَسَخَتْهُ بعضُ الملائكةِ، فلا يَمَسُّ ذلكَ الكِتابَ إلا المَلائِكةُ وهُم الّذين طهَّرَهُم اللَّهُ مِن الذُّنوبِ والقَبائِح.
- أو أنّه لا يَنبغِي أنْ يَمَسَّ المُصحَفَ إلّا مَن كان مُسلِمًا مُطَهَّرًا مِن الشِّرك.
- أو أنّه لا يجوزُ أنْ يمَسَّ المُصحَفَ مِن النّاسِ إلّا مَن كان على طَهارةٍ

مِن الحدَثِ الأكبَرِ والأصغَرِ، وبهذا الأخيرِ قال جَمعٌ مِن المُفسِّرين، وقد جاءَ في حدِيثِ عَمرو بنِ حَزمٍ رضي الله عنه أنّ رسولَ الله ﷺ أمرَ بِكَتبِ كِتابٍ إلى أهلِ اليمن وأرسلَه معَه ومِمّا جاءَ فيه: «**وَلَا يَمَسَّ الْقُرْءانَ إِلَّا طاهِرٌ**» وهو حديثٌ صحِيحٌ أخرَجه مالِكٌ في «الموطّأ» وابنُ حِبّانَ في «صحِيحِه» والدّارمِيُّ وغيرُهم.

ونزَّلَ الحلِيمِيُّ مِن الشافعيّةِ القولَ الأخِيرَ على القولِ المُرادِ به الملائكةُ فقال ما نصُّه: «وقد عَلِمْنا أنّه ليسَ في السَّماءِ إلّا مُطهَّرٌ، فدَلَّ ذلك علَى أنّ المُرادَ بيانُ أنّ الملائِكةَ إنّما وصَلَتْ إلى مَسّ ذلكَ الكِتابِ لأنهم مُطهَّرُونَ[1]، والمُطَهَّر هو المُيَسَّرُ للعِبادةِ والمَرضِيُّ لها، فثبَتَ أنّ المُطهَّرَ مِن النّاسِ هو الّذي يَنبغِي له أنْ يَمَسَّ المُصحَفَ، والمُحدثُ ليسَ كذلِكَ لأنّه ممنوعٌ عَن الصّلاةِ والطَّواف، والجنُبُ والحائِضُ ممنوعانِ عنهُما» اهـ.

ولمّا أخبَرَ الله عزَّ وجلَّ أنّ القُرءانَ المُنزَّلَ على محمّدٍ ﷺ مَصُونٌ من عبَثِ الشّياطِين[2] في لَوحٍ محفُوظٍ، أكَّد أنّ إنزالَه على نَبِيّه ﷺ بِوحيٍ مِنهُ عزَّ وجلَّ فقال تعالَى: ﴿تَنزِيلٌ﴾ أي القُرءانُ - الّذي هو ألفاظٌ مَتلُوّةٌ بالألسُنِ مسموعةٌ بالآذانِ محفُوظةٌ في الصُّدورِ - مُنزَّلٌ بوحيٍ وأمرٍ ﴿مِّن﴾ اللهِ ﴿رَّبِّ﴾ أي مالكِ ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ ٨٠﴾ جمع عالَمٍ، وهو

(١) والمَلائِكةُ لا يُحْدِثون.

(٢) أي لا تَصِلُ إلَيه ولا تَقدِرُ علَى تَغييره وتَبديلِه.

اسمٌ لكُلِّ موجُودٍ سِوى اللَّهِ.

والنّازِلُ بالقُرءانِ على سيّدِنا محمّدٍ ﷺ هُم ملائكةٌ مخصُوصونَ مُوكَلُون بذلكَ، وأكثَرُ من كانَ ينزِلُ مِنهم بالوَحيِ هو جِبريلُ عليه السّلامُ، قال تعالَى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [سُورة فاطِر: ١]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ [سُورة النَّحل: ٢].

فائدة: ليسَ كُلُّ ما ذُكِرَ في الكُتبِ في كَيفيّةِ نُزولِ القُرءانِ على رسولِ اللهِ ﷺ صحيحًا، والصّوابُ في ذلكَ أنّ اللهَ تعالى أمَرَ جبريلَ عليهِ السّلامُ أنْ يأخُذَ القُرءانَ من اللَّوحِ المَحفُوظ ويَنزِلَ بِه إلى بَيتِ العِزّة في السَّماءِ الأُولَى لَيلةَ القَدْرِ جُملةً واحِدةً، ثُمّ صارَتِ الملائكةُ المُوكَلةُ بأمرِ الوَحيِ تَنزِلُ بَعدَ ذلكَ بالآياتِ والسُّوَرِ بألفاظِها مِن غيرِ تصرُّفٍ فيها على حسَبِ أمرِ اللهِ لهُم.

وليُحذَرْ مِن بعضِ الأقوالِ المُصادِمةِ لِنُصوصِ الشَّريعة في هذه القضيّةِ كقولِ بعضِهم: «إنّ اللَّفظَ المُنزَّلَ من القُرءانِ على محمّدٍ ﷺ هو من تألِيفِ جِبريلَ ممّا فَهِمَ من القُرءانِ الّذي قرأَه في اللَّوحِ المحفوظِ»، وهذا القولُ ضَلالٌ وكُفرٌ لتكذيبه النُّصوصَ الشّرعِيّة، وأمّا قولُ الله تعالَى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ فمَعناهُ أنّ اللَّفظَ الّذي نزَلَ بِه جِبريلُ - رسولُ اللَّهِ إلى الملائكةِ - هو مَقرُوءُ جبريلَ على محمّدٍ ﷺ لا من تألِيفِ أحدٍ مِنهُما.

مسألة مُهِمّة: القُرءانُ» لَفظٌ له إطلاقان: يُطلَق علَى اللَّفظِ المُنزلِ

على محمّد ﷺ، ويُطلَق على كلام اللَّهِ الذاتيّ أي صِفَتُه الأزَليّة الّذي هو كلامٌ لا بِحرفٍ ولا صوتٍ ولا لُغةٍ. فإن أُطلِقَ لفظُ «القُرءان» أو «كَلام اللَّهِ» وقُصِد بذلك الكلامُ الذاتيُّ الّذي هو صِفةُ اللَّهِ فهو كلامٌ أزليٌّ لا يُشبِهُ كلامَ المخلوقِينَ بأيّ وَجهٍ مِن الوُجوه؛ لا هو كلامٌ مُبتدأٌ ولا مُختتَمٌ ولا مُتعاقِبٌ ولا مُتقطِّعٌ، وإنْ أُطلِقَ وقُصِد به اللّفظُ المُنزَّلُ فهو كلامٌ مكتوبٌ في الصُّحفِ متلُوٌّ بالألْسُنِ مسموعٌ بالآذانِ محفوظٌ في القُلوبِ بلُغةٍ عربيّةٍ فصيحةٍ، ولا شَكَّ أنّ ذلكَ حادِثٌ مخلوقٌ له مَبدَأٌ ومُختتَمٌ، لَكِنّه عباراتٌ عن كَلامِ اللَّهِ الذّاتيّ الّذي لا يُشبِهُ كلامَ المخلوقِينَ، وتقريبُ ذلكَ كما قال الشّيخُ أبو المَحاسِن القاوُقجيُّ الحنفيُّ (ت ١٣٠٥ هـ) رحمه اللَّه أنّه لَو كان الحِجابُ المَعنويُّ يُكشَفُ عنّا ونَسمَعُ كَلامَ اللَّهِ الّذي لا يُشبِهُ كلامَ العالَمينَ لفَهِمْنا مِنهُ الأمرَ كـ ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، والنَّهيَ كـ ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ ونحوَ ذلكَ، ولكنّنا لا نَسمَعُ كلامَ اللَّهِ الذاتيّ ونحنُ في الدُّنيا، فجعَلَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ لهذه الأُمّةِ كِتابًا هو القُرءانُ فيه ما هو عِبارةٌ عَن كَلامِ اللَّهِ الذاتيّ.

فَصلٌ في أحكامِ مَسّ المُصحَفِ في المَذاهبِ الأربعةِ

نذكُر قَبل الشُّروع في تفاصِيل مسائِل هذا البابِ أنّ مَذهبَ الحنفِيّة والمالكيّةِ والشافعيّةِ والحَنابلةِ تحريمُ مَسّ المُصحفِ على الجنُبِ، وعليه كثيرٌ مِن الصّحابةِ والسّلَفِ الصّالِح كعليّ وابنِ مَسعودٍ وسَعدِ بنِ أبي وَقّاصٍ وعَبدِ اللَّهِ بنِ عُمرَ وسعِيدِ بنِ زَيدٍ وسَلمانَ الفارِسيّ وغيرِهم

مِن الصّحابةِ رضي الله عنهم، ومِن التابعِينَ عَطاءٌ والزُّهرِيُّ والحسَنُ البصرِيّ وطاوُوسٌ والنَّخَعِيُّ والفُقَهاءُ السَّبعةُ رضي الله عنهُم.

وذهَب داودُ الظاهِريّ إلى جوازِ مَسِّ الجُنبِ المُصحَفَ، وهو مَرويٌّ عنِ ابنِ عبّاسٍ والشّعبِيّ والضَّحّاكِ والحكَمِ بن عُتَيبةَ وحمّادِ بن أبي سُلَيمانَ وغَيرِهم، وهو قولٌ مرجوحٌ مُخالفٌ لِمَا علَيهِ جماهِيرُ العُلماءِ بل وحكَى بعضُهم الإجماعَ على ذلكَ وتردَّد فيه ءاخرُونَ.

هذا ما قِيلَ في الجُنبِ، أمّا المُحدِثُ حدَثًا أصغَرَ فيَتعلّق بمَسّه المُصحَفَ تفاصِيلُ نَسرِدُها كَما يَلِي:

أوّلًا: مَسُّ ورَقِ المُصحَفِ

ذهَب جُمهورُ فُقَهاءِ الحنَفيّةِ والمالكيّةِ والشافعيّةِ والحَنابلةِ إلى أنّ اسمَ المُصحَفِ شامِلٌ للمكتُوبِ مِنه، ولِمَا بَين سُطورِه وحَواشِيه وغِلافِه المُتّصِلِ بِه لأنّه تابعٌ له؛ فحُكمُ الجُزءِ مِن المُصحفِ في المَسِّ كحُكمِ مَسِّ جَميعِه.

وذهَب بعضُ فُقَهاءِ الحنَفيّةِ والشافعيّة والحَنابلةِ[١] مَذهبًا مَرجُوحًا وهو أنّ المُحرَّم على المُحدِثِ إنّما هو مَسُّ الموضعِ الّذي فيه كِتابةٌ

(١) يُنظَر: «البحرُ الرّائق» لابنِ نُجَيم الحنفيّ (١/ ٢١١)، و«حاشية ابن عابدِين» الحنفيّ (١/ ٤٨٨)، و«المجموع» للنوويّ الشافعيّ (١/ ٧٤)، و«الإنصاف» للمَرْداويّ الحنبليّ (١/ ٢٢٣).

مِن المُصحفِ لا مواضِعُ البَياضِ مِنه؛ قالوا: فمَن مَسَّ البَياضَ لَم يَمسَّ القُرءانَ حَقيقةً - لأنّ القُرءانَ هو المقرُوءُ - وقَد مَسَّ المُحْدِثُ صحِيفةً بيضاءَ ليسَ فيها قُرءانٌ.

ثانيًا: مَسُّ غِلافِ المُصحَفِ المُنفصِل عنه

مَذهَبُ الحنَفيّة وبعضِ الشافعيّة والصّحيحُ عِندَ الحنابِلةِ[1] أنّه لا يَحرُم على المُحدِثِ مَسُّ غلافِ المُصحَفِ المُنفصِل عنه كأنْ يكونَ في موضوعًا في كيسٍ، وهو المرويُّ عن بعضِ السّلَفِ الصّالِح رضي الله عنهُم كالحسَن البِصريّ وعَطاءٍ وطاوُوسٍ والشّعبِيّ والقاسم بن محمّدٍ وغيرِهم.

ومَذهَبُ المالكِيّةِ والصّحيح عِندَ الشافِعيّة وبعضِ الحنابِلةِ[2] أنّه يَحرُم على المُحدِثِ مَسُّ غلافِ المُصحَفِ المُنفصِلِ عنه، وهو المَروِيُّ عن الإمامِ الأَوزاعِيّ رضي الله عنه، وهو المَذهبُ الرّاجح.

---

(١) يُنظَر: «الهداية» للمَرْغيناني الحنَفيّ (١/ ٣١)، و«الجوهَرة النَّيِّرة» للحَدّادِيّ الحنَفيّ (١/ ٣٥)، و«البَحرُ الرّائِق» لابنِ نُجَيم الحنفيّ (١/ ٢١١)، و«رَوضَة الطّالِبين» للنوويّ الشافعيّ (١/ ١٠٩)، و«المُغنِي» لابن قُدامة الحنبليّ (١/ ١٤٧)، و«الإنصاف» للمَرْداويّ الحنبليّ (١/ ٢٢٤).

(٢) يُنظَر: «الذَّخيرة» للقَرافِيّ المالِكيّ (١/ ٢٣٧)، و«الشَّرح الصَّغير» للدَّرديرِ المالِكيّ (١/ ٢٢٣)، و«رَوضَة الطّالِبين» للنوويّ الشافعيّ (١/ ١٠٩)، و«المُغنِي» لابنِ قُدامةَ الحنبليّ (١/ ١٤٧) و«الإنصاف» للمَرْداويّ الحنبليّ (١/ ٢٢٤).

ثالثًا: مَسُّ المُصحَفِ بِحائِلٍ

ذَهَب الحنفيّةُ في الصّحيحِ مِن مذهبِهم والمالكِيّةُ والشافعِيّةُ وبعضُ الحَنابِلةِ[١] إلى أنّه إنْ كان المَسُّ بِنَحوِ كُمّ يَدِه حَرُم ذلكَ على المُحدِثِ. وأمّا حَملُه ضِمنَ مَتاعٍ في نَحوِ حقيبةٍ، نُظِرَ: فإنْ كان المُحدِثُ قَد حَمَلَه قاصِدًا لِذاتِ المُصحفِ حَرُم، أمّا إنْ كان غيرَ مَقصُودٍ لِذاتِه بالحَملِ كأنْ قصَد حمْلَ المتاعِ وَحدَه أو قصَدَهُما[٢] أو لَم يَقصِد شيئًا لَم يَحرُم.

وذهَبَ بعضُ فُقهاءِ الحنفِيّةِ والحَنابِلةُ في الصّحيحِ عِندَهُم إلى عدَمِ حُرمةِ مَسِّ المُحدِثِ المُصحفَ بحائِلٍ.

أمّا لَو خافَ علَى المُصحَفِ مِن غَرَقٍ أو حَرْقٍ أو نَجاسةٍ أو كافِرٍ يَنتهِكُه ولَم يَتمكَّن مِن الطّهارةِ ولَو بِتَيمُّمٍ فلا شَكَّ أنّ له حَمْلَه معَ الحَدَثِ للضَّرُورةِ.

رابِعًا: مَسُّ الصَّبِيِّ المُميِّزِ المُصحَفَ علَى غيرِ طَهارةٍ

ذهَب الحَنَفِيّةُ في الصّحيحِ والمالكِيّةُ والشافعِيّةُ في المُعتمَدِ مِن

---

(١) يُنظَر: «الهداية» للمَرغيناني الحنَفيّ (١/ ٣١)، و«البحرُ الرّائق» لابن نُجيم الحنفيّ (١/ ٢١٢)، و«حاشية ابنِ عابدين» الحنفيّ (١/ ٣١٥)، و«الذَّخيرة» للقَرافيّ المالكيّ (١/ ٢٣٧)، و«الشَّرح الصَّغير» للدَّردير المالكيّ (١/ ٢٢٣)، و«المجمُوع» للنوويّ الشافعيّ (٢/ ٦٨)، و«المُغني» لابن قُدامة الحنبليّ (١/ ١٤٧)، و«الإنصاف» للمَرْداويّ الحنبليّ (١/ ٢٢٤).

(٢) وفيما إذا قصدهُما معًا خِلافٌ عِندَ الفقهاءِ هَل يَحرُم أو لا.

المذهبَين والحنابلةُ في رِوايةٍ[١] إلى جوازِ تمكِين المُميّزِ غيرِ المتوضّئِ مِن المُصحَفِ لِحاجةِ الدِّراسةِ، وخالفَ ابنُ العِمادِ مِن الشافعيّة فقالَ: ولَو لَم يَكُن للدِّراسةِ[٢]، وهو خِلافُ المُعتمَد.

وذهَبَ بعضُ الحنَفيّةِ وبعضُ المالكيّةِ[٣] إلى كراهةِ تمكِين المُميّزِ غيرِ المتوضّئ مِن مَسّ المُصحَفِ إن كانَ كامِلًا، أمّا تمكِينُه مِن مَسّ بَعضِه فلا يُكرَه.

وذهَبَ بعضُ الشافعيّةِ والحنَابلةُ في الصّحيح عِندَهُم[٤] إلى أنّه يَحرُم على

---

(١) «الهداية» للمَرْغيناني الحنَفيّ (١/ ٣١)، و«البَحرُ الرّائق» لابن نُجَيم الحنفيّ (١/ ٢١٢) و«حاشية ابنِ عابدِين» الحنفيّ (١/ ٣١٦)، و«التَّفريع» لابنِ الجَلّاب (١/ ٢١٢)، و«الشَّرح الصَّغير» للدَّردِير المالِكيّ (١/ ٢٢٣)، و«رَوضَة الطّالِبين» للنوويّ الشافعي (١/ ١٩٢)، و«الإنصاف» للمَرْداويّ الحنبليّ (١/ ٢٢٣).

(٢) قال زكريّا الأنصاريّ في «أسنَى المَطالِب» (١/ ٦٢): «قال ابنُ العِماد: وقضِيّة هذا (أي التّقييد بالحاجةِ للدِّراسةِ) أنّ الصَّبيّ لو مَسَّه للتَبرُّكِ به حَرُم (أي علَى بالِغٍ مَكّنَه منه) وهو باطِلٌ بل إذا أبَحْنا مَسَّه له فلا فَرْقَ بين حَملِه للدِّراسةِ وللتبرُّك ولِنَقلِه إلى مكانٍ ءاخَرَ، وهذا ما يَقتَضِيه صَرِيحُ كَلامهم».

(٣) «البِنايَة شَرح الهِداية» للعَينيّ (١/ ٦٥١)، و«الذَّخِيرة» للقَرافيّ المالِكيّ (١/ ٢٣٧).

(٤) «رَوضَة الطّالِبين» للنوويّ الشافعيّ (١/ ١٩٢)؛ و«مُنتهَى الإرادات» لابنِ النَّجّار الحَنبليّ (١/ ٢٧).

البالغ تمكين المُميّزِ غيرِ المتوضّئِ مِن مَسّ المُصحَفِ كُلِّه أو بَعضِه.

ويحرُم تمكِينُ المَجنُونِ والصّبِيِّ غيرِ المُميّزِ مِن حَملِ المُصحَفِ لِئَلّا يَنتهِكاهُ.

ونختِمُ هذا الفَصلَ بقَولٍ للحافظِ النوويّ رحمه الله في «المجموع» (٢/ ٦٩) ونصُّه: «أجمَعَ المُسلِمُون علَى جوازِ قِراءةِ القُرءانِ للمُحْدِثِ[١] والأفضَلُ أن يَتطهّرَ لها. قال إمامُ الحرَمَينِ والغزاليُّ في «البَسِيط»: ولا نَقُول قِراءةُ المُحْدِثِ مكرُوهةٌ فقَد صَحَّ أنّ النّبِيَّ ﷺ كان يَقرَأُ معَ الحَدَث».

ولَمّا بَيّنَ اللهُ عزَّ وجلَّ بعضَ صِفاتِ القُرءانِ ذَكَر أنّه لا يَجوزُ التّهاوُن في أوامِره ونَواهِيه فقال تعالَى: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ﴾ أي القُرءانِ الجَلِيلِ النُّعوت العَظِيمِ الشّأنِ ﴿أَنتُم﴾ يا مُشرِكِي مكّةَ ﴿مُّدۡهِنُونَ ٨١﴾ أي مُكذِّبون[٢]

---

(١) أي حدَثًا أصغَـرَ مِن غيرِ مَسٍ ولا حَملٍ له، وكذلك يجوزُ إمرارُ الألفاظِ علَى القلبِ والنّظَـرُ في المُصحَفِ للمُحدِثِ حدَثًا أصغَرَ وأكبَرَ بالإجماعِ ما دامَ مِن غيرِ مَسّ، أما قِراءتُه باللّسانِ مِن غيرِ مَسّ للمُصحَفِ فَجائزٌ للمُحدِثِ حدَثًا أصغَرَ دُونَ المُحدِث حدَثًا أكبَرَ.

ولِمَعرِفَـةِ المزيدِ مِن ءادابِ تِلاوةِ القُرءانِ فليُنظَر كِتابنا «**النُّجومُ الحِسـانُ علَى كِتابِ التّبيانِ في ءادابِ حَمَلةِ القُرءانِ**».

(٢) والمُدْهِن في الأصلِ مِن الإدْهانِ وهو الجَرْيُ في الباطِنِ علَى خِلافِ الظّاهِرِ، وتِلكَ صِفةُ المُنافِقِ، ثُمّ أُطلِقَ علَى المُكذِّبِ المُدهِنُ وإنْ صَرّحَ بالتّكذِيبِ الّذي يُبْطِنُه.

كافِرُون ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ﴾ أي بدَلَ الشُّكرِ علَى ما رُزِقتُموهُ ﴿أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ٨٢﴾ بنِعمةِ اللهِ علَيكُم؛ أنعمَ اللهُ علَى العِبادِ بإنزالِ المطرِ الّذي بِهِ حَياةُ الأرضِ، فازدادَ المُشرِكُون كُفرًا باللهِ بدَلَ أنْ يَشكُرُوه على هذِه النِّعمةِ؛ فاعتقَدُوا أنَّ النَّجمَ هو الّذي يَرزُقهُم الماءَ وقالوا: «مُطِرْنا بِنوءِ كَذا»[1].

ويُؤيِّدُ تفسيرَ الآيةِ بذلكَ ما رَواهُ مُسلِمٌ في «صَحيحِه» وأحمدُ في «مُسنَدِه» وغيرُهما عن ابنِ عبّاسٍ رضي اللهُ عنهما قال: مُطِرَ النّاسُ علَى عَهدِ النَّبيِّ ﷺ فقال النَّبيُّ ﷺ: **«أَصبَحَ مِن النّاسِ شاكِرٌ ومِنهُم كافِرٌ، قالُوا: هذِهِ رَحْمَةُ اللهِ، وقالَ بَعْضُهُم: لَقَدْ صَدَقَ نَوْءُ كَذا وكَذا»**، فنزلَتْ هذه الآيةُ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ حتّى بلَغَ ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾ [سُورة الواقعة: ٧٥-٨٢].

وقال بعضُ المفسِّرينَ: قَد أنعمَ اللهُ على العِبادِ بأنْ نزَّلَ القُرءانَ كِتابًا فيه الهُدَى والنُّورُ، فكفَرَ بِه مُشرِكُو مكّةَ وغيرُهم بدَلَ أنْ يَشكُروا اللهَ على هذه النِّعمةِ العظِيمةِ فذلكَ معنَى: ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾.

ولمّا ذَكَر اللهُ عزَّ وجلَّ جُحودَ الكافِرينَ بآياتِه وتَكذِيبَهم رَسولَه ﷺ

---

(١) كانَ مُشركُو العرَب في الجاهليّـة يعتقِدُون أنّ المطَر والحرّ والبَرد كُلَّه يجيء مِن تصرُّف مَنازِل القمَرِ فيقولون: «مُطِرْنا بنَوء كَذا، والنَّوءُ مَغيبُ نَجمٍ مِن المَنـازِل جهةَ المَغرِب وقـتَ الفَجرِ تَزامُنًـا مع طُلوعِ مُقابِلـه مِن جهة المَشرِق، فإنّ لِكلّ منزِلٍ ءاخرَ يُقابِلُه مِن ساعَته مَغربًا ومَشرِقًا.

وكِتابه الكريمَ واعتِقادَهُم أنّ رزْقهم الماءَ مِن فِعلِ النُّجومِ لا مِن فِعلِ اللَّهِ الخالِقِ، بيّن لهم عزَّ وجلّ أنّه إذا قضى على أحدٍ بالموتِ لا يستطِيعُون ردّ شيءٍ مِمّا قدّرَ اللَّهُ فقال عزَّ وجلَّ ﴿فَلَوْلَآ﴾ أي فهلّا ﴿إِذَا بَلَغَتِ﴾ الرُّوحُ وقتَ النَّزعِ ﴿ٱلْحُلْقُومَ ٨٣﴾ وهو مجرى النَّفسِ في الحَلقِ[1]، ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ﴾ أي حِينَ إذْ بلغَتِ الرُّوحُ الحُلقومَ مِن المُحْتضَر[2] ﴿تَنظُرُونَ ٨٤﴾ إليهِ وهو في غَمراتِ الموتِ مُشفِقِينَ عاجزِينَ عن دَفعِ شيءٍ مِن ذلك عنه ﴿وَنَحْنُ﴾ أي اللَّهُ عزَّ وجلَّ ﴿أَقْرَبُ﴾ بعلمِه ﴿إِلَيْهِ﴾ أي إلَى المُحْتضرِ ﴿مِنكُمْ﴾ أي مِن عِلمِكُم بالمُحتضَرِ مع أنّكُم حاضِرُون حوله تُعايِنُون ما يُقاسِيه ﴿وَلَٰكِن﴾ أَخفى اللَّهُ عنكُم كيفيّةَ نزعِ الرُّوحِ وحقيقَتَها وما يُعايِنُه المَيّتُ عِندَ خُروجِها مِن حُضورِ الملائكةِ وغيرِ ذلك ﴿لَّا تُبْصِرُونَ ٨٥﴾ بأعيُنِكُم شيئًا مِن ذلكَ أو بِمَعنَى لا تَعلَمُونَ[3] ما أُخفِيَ عنكُم.

روَى ابنُ حِبّانَ في «صحِيحِه» والنَّسائيُّ في «السُّنَن» وغيرُهما عن أبي هُريرة رضي اللَّه عنه أنّ رسولَ اللَّه ﷺ قالَ: «**إِنَّ المُؤمِنَ إذا قُبِضَ أَتَتْهُ ملائِكَةُ**

(١) والحَلْقُ المَرِيءُ وهو مَساغُ الطَّعامِ والشَّرابِ، والبُلْعُوم بضمّ الباءِ مجرَى الطّعامِ.

(٢) بفَتحِ الضّادِ وهو الّذي حَضَرَ أجلُه أي أوانُ انقضاءِ أجَلِه، وقيل: معناهُ مَن حضَره الملائكةُ عِندَ المَوتِ، وصحّح بعضُهم الأوّلَ لأنّه شامِلٌ لِمَن حضرَتْه الملائكةُ ولِمَن قرُبَ حُضورُ أوانِ موتِه ولَم تحضُرْهُ الملائكةُ بعدُ.

(٣) مأخُوذٌ مِن البَصِيرةِ أي العِلم.

الرَّحْمَةِ بِحَرِيرَةٍ بَيْضاءَ فَتَقُولُ: اخْرُجِي إِلَى رَوْحِ[(١)] اللَّهِ[(٢)]، فَتَخْرُجُ كَأَطْيَبِ رِيحِ مِسْكٍ حَتَّى إِنَّهُم لَيُناوِلُهُ بَعْضُهُم بَعْضًا يَشُمُّونَهُ، حَتَّى يَأْتُونَ بِهِ بابَ السَّماءِ[(٣)] فَيَقُولُونَ[(٤)]: ما هَذِهِ الرِّيحُ الطَّيِّبَةُ الَّتِي جاءَتْ مِنَ الْأَرْضِ؟ وَلا يَأْتُونَ سَماءً إِلَّا قالُوا مِثْلَ ذَلِكَ، حَتَّى يَأْتُونَ بِهِ أَرْواحَ الْمُؤْمِنِينَ، فَلَهُم أَشَدُّ فَرَحًا بِهِ مِنْ أَهْلِ الْغائِبِ بِغائِبِهِم، فَيَقُولُونَ: ما فَعَلَ فُلانٌ[(٥)]؟ فَيَقُولُونَ: دَعُوهُ حَتَّى يَسْتَرِيحَ فَإِنَّهُ كانَ فِي غَمِّ الدُّنْيا، فَيَقُولُ: قَدْ ماتَ أَما أَتاكُم؟ فَيَقُولُونَ: ذُهِبَ بِهِ إِلَى أُمِّهِ الْهاوِيَةِ[(٦)]، وَأَمّا الْكافِرُ فَيَأْتِيهِ مَلائِكَةُ الْعَذابِ بِمِسْحٍ[(٧)] فَيَقُولُونَ: اخْرُجِي إِلَى غَضَبِ اللَّهِ[(٨)]، فَتَخْرُجُ كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ فَتَذْهَبُ بِهِ إِلَى

---

(١) بفَتحِ الرَّاءِ.

(٢) أي إلى نعيمه ورحمَتِه الخاصّة.

(٣) أي الأولَى.

(٤) أي بعضُ ملائكتِها.

(٥) أي مِن أهلِ الدُّنيا.

(٦) أي إلى العَذابِ الّذي يهوي إليه على أُمِّ رأسِه وليسَ المُرادُ بذلكَ أمَّه التي ولدَتْه.

(٧) بكَسرِ الميم وهو في الأصلِ ثَوبٌ مِن الشَّعَرِ غلِيظٌ، واللَّهُ أعلَمُ ما صِفةُ ما يأتِي به الملائكةُ مِن المِسْحِ.

(٨) أي إلى مُقاساةِ ءاثارِ غضبِ اللَّهِ وهو العَذابُ، فغضَبُ اللَّهِ ليسَ انفعالًا نَفسانيًّا، وفي روايةٍ: «اخْرُجِي إِلَى عَذابِ اللَّهِ» وهي مُفسِّرةٌ لهذه.

باب الأَرْضِ(١)».

وأخرَج ابنُ أبي شَيبةَ وعبدُ الرَّزّاقِ في «المُصنَّفِ» - واللَّفظُ له - عن عُمرَ رضي الله عنه قال: «احْضُروا مَوتاكُم فألزِمُوهُم لا إلهَ إلّا اللَّهُ وأَغمِضُوا أَعيُنَهُم واقْرَؤُوا عِندَهُم القُرءانَ»، وفي روايةٍ: «واعْقِلُوا ما تَسمَعُون مِن المُطِيعِين مِنكُم فإنَّهُم لهُم أمُورٌ صادِقَةٌ» أي مِن البَشائِرِ ليسَتْ مِن تلبِيسِ الشَّيطانِ(٢).

لطيفة: روَى البَيهقيُّ في «الشُّعَب» و«الدَّلائِل» بسنَدٍ ضعِيفٍ عن ابنِ أبي أَوْفَى قالَ: بَينما نحنُ قُعودٌ عِندَ رَسولِ اللَّه ﷺ إذْ أَتاه ءاتٍ فقال: يا رسولَ اللَّه، إنّ ههنا شابًّا يجُودُ بنَفْسِه(٣) يُقالُ له: قُل «لا إله إلّا اللَّهُ» فلا يَستطِيعُ، قال: فنَهَضَ ونَهَضْنا معَه حتّى دخَلَ علَيه فقال: «**يا شابُّ**

---

(١) وفي روايةٍ: «**وَذُهِبَ بها إلَى بابِ الْأَرْضِ يَقُولُ خَزَنَةُ الْأَرْضِ: ما وَجَدْنا رِيحًا أَنْتَنَ مِنْ هَذِهِ، فَتَبْلُغُ بِها إلَى الْأَرْضِ السُّفْلَى**».

(٢) قال الحافظ النوويّ في «الرَّوضة» في ءادابِ المُحتضَرِ: «يُستقبَلُ بِهِ القِبلةُ وذلِكَ بأنْ يُضجعَ علَى جَنبِهِ الأيمَنِ مُستَقبِلَ القِبلةِ كالمَوضُوعِ في اللَّحدِ. ويُستَحَبُّ أن يُلقَّنَ كَلِمةَ الشَّهادةِ ولا يُلِحّ المُلقِّنُ بَل يَذكُرُها بَينَ يَدَيهِ بلُطفٍ ليَذكُرَ أو يَقُولُ: ذِكرُ اللَّهِ تَعالَى مُبارَكٌ، فنَذكُرُ اللَّهَ تَعالَى جَميعًا، ويقُولُ: «سُبحانَ اللَّهِ، والحَمدُ للَّهِ، ولا إلهَ إلّا اللَّهُ، واللَّهُ أكبَرُ»، ويُستحَبُّ أن يُلقِّنَه غيرُ الوَرثَةِ، فإن لَم يحضُر غيرُهم، لَقَّنَه أشفَقُهُم علَيهِ، ويُستحَبُّ أن يُقرَأَ عِندَه سُورةُ يس والرَّعدَ» اهـ. مُختصَرًا.

(٣) في الأصلِ معناهُ يُخرِجُها، والمُرادُ هنا أنّه يُحتضَرُ.

قُلْ: لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ» قال: لا أَستطِيعُ، قال: «لِمَ؟»، قال: أُقفِلَ على قَلبي، كُلَّما أردتُ أنْ أقولَها عمَرَ القُفلُ قَلْبي، قال: «لِمَ؟» قال: بِعُقوقي والِدتي، قال: «أَحَيَّةٌ وَالِدَتُكَ؟» قال: نَعم، فطَلَبَ في إرسالِها فلَمّا جاءَتْ قال لها: «هَذا ابْنُكِ؟»، قالت: نَعم، قال: «أَرَأَيتِ إِنْ أُجِّجَتْ نارٌ عَظِيمَةٌ، فَأَرادُوا أَنْ يَقْذِفُوهُ فِيهَا، فَقِيلَ لَكِ: أَتَشْفَعِينَ لَهُ أَمْ تُلْقِينَهُ فِيهَا» فقالَتْ: بلَى يا رَسولَ اللهِ أَشْفَعُ له، فقالَ: «ارْضِي عَنِ ابْنِكِ»، فقالت: اللَّهُمَّ إِنِّي أُشْهِدُكَ وأُشهِدُ رَسولَكَ أَنّي قد رَضِيتُ عنهُ، فقالَها[1] الشّابُّ.

ولمّا كانَ المُكَذِّبونَ بالبَعثِ يرونَ أنَّهم غيرُ مجزيّينَ بَعدَ الموتِ وأنَّ أمرَهُم إلى أنفُسِهم ليسَ لِأحَدٍ عليهِم حِسابٌ قال اللَّهُ لَهُم: ﴿فَلَوۡلَآ﴾ أي فهَلَّا ﴿إِن كُنتُمۡ﴾ علَى زَعمِكُم ﴿غَيۡرَ مَدِينِينَ ٨٦﴾ أي غيرَ مَجزِيّينَ[2] ولا مُحاسَبِينَ بِما قدَّمتُم في الحياةِ الدُّنيا ﴿تَرۡجِعُونَهَآ﴾ أي تَرُدُّونَ رُوحَ مَن يَعِزُّ عليكُم مَوضِعَها إذا بلَغَت مِنهُ الحُلقومَ ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٨٧﴾ في أنَّ أمرَكُم إلَيكُم وأنَّكُم غيرُ مُجازَينَ بِما تَعمَلُونَ؟! فلَو حُوجُّوا بذلكَ عَلِموا بلا شَكٍّ أنَّهم عاجِزُونَ ولا يُمكِنُهم ذلكَ بِوجهٍ فبُهِتُوا وانقَلَبُوا صاغِرِينَ أذِلَّاءَ.

فائدة: استَدَلَّ بعضُ المفسِّرين على وُجودِ عَذابٍ في القَبرِ بقولِ اللَّهِ تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ﴾ [سُورة المُمتحَنة: ١٣] قالُوا:

---

(١) أي الشّهادتَينِ.

(٢) مِن الدِّين بِمعنَى الجزاءِ.

معناهُ يَئِسَ الكُفّارُ الّذين ماتُوا مِن أنْ يَرحَمَهُمُ اللّهُ تعالَى؛ وذلكَ أنّهُم لمّا عايَنُوا وقاسَوا ما حضرَهُم مِن العَذابِ في قُبورِهم وعَرضِ مقاعدِهِم في النّارِ علَيهِم أوّلَ النّهارِ وءاخِرَه وهُم في القَبرِ أيقَنُوا أنّهُم صائِرُون إلى حالٍ مِن العَذابِ حيث لا يَنالُون شيئًا مِن رَحمةِ اللّهِ، أجارَنا اللّهُ مِن ذلكَ.

ولَمّا ذَكَر اللّهُ عزَّ وجلَّ حالَ المُحتضَرِين في الدُّنيا أعقَبَ ذلكَ بذِكرِ حالِهم بَعدَ الوفاةِ وجعلَهم أقسامًا ثلاثةً، وبدَأ بذِكرِ الأشرَفِ أوّلًا فقال تعالَى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ﴾ المُتوفَّى[١] ﴿مِنَ﴾ السّابقِين إلى طاعةِ اللّهِ ﴿ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾﴾ مَنزِلةً عِندَ اللّهِ[٢] ﴿فَرَوْحٌ﴾[٣] أي فلَهُ رَوحٌ

---

(١) بفَتحِ الفاءِ وهو الميّتُ، وأمّا المُتوفِّي بكَسرِ الفاءِ فهو على الحقيقةِ ربُّنا عزَّ وجلَّ: قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم﴾ [سُورة الأنعام: ٦٠]، ويُطلَقُ ذلكَ على ملَكِ الموتِ عزرائيلَ وأعوانِه عليهِم السّلامُ مجازًا بمعنَى أنّهُم قابِضُو الأرواحِ بأمرِ اللّهِ؛ قال تعالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [سُورة الأنعام: ٦١].

(٢) أي مِن الّذين جعَلَ اللّهُ لهُم أعلَى المَنازلِ في الآخِرة بعدَ مَنازلِ النّبيّين، فإذا قيل: «فُلانٌ لَهُ مَنزِلةٌ عندَ اللّهِ» فالعِنديّةُ هُنا لِتَشريفِ العَبدِ لا مِن بابِ نِسبةِ التحيُّزِ في مَكانٍ إلى اللّهِ، حاشا، فاللّهُ عزَّ وجلَّ خالِقُ المَكانِ وغيرِه مِن الخَلقِ فلا يَحتاجُ إلى شىءٍ مِن ذلكَ، هو عزَّ وجلَّ موجودٌ أزلًا وأبدًا بلا كَيفٍ ولا مَكانٍ سُبحانَه.

(٣) وقرأ رُوَيسٌ عن يَعقُوبَ الحضرَميّ مِن العشَرةِ ﴿فَرُوحٌ﴾ بضَمّ الرّاء، وهي قِراءةٌ ثابتةٌ عنِ النّبيّ ﷺ، وفُسّرت بالرَّحمةِ الخاصّةِ وبالحياةِ الأبديّةِ في الآخِرة.

أي راحــةٌ وطُمأنينــةٌ وسُرورٌ[١] ﴿وَرَيۡحَانٞ﴾ أي ولَــهُ رِزقٌ عَظِيــمٌ[٢] أو معناهُ له بعدَ الموتِ[٣] نَبْتٌ حسَنٌ بَهِيجٌ وأزاهِيرُ زَكِيّةُ الرائِحةِ أو هو ما يَتلقّاهُ مِن النَّعيم عِندَ الموتِ بشَمّ رائحةٍ طيّبةٍ ونحو ذلكَ[٤] ﴿وَجَنَّتُ﴾ أي ولَهُ جنّةٌ ذاتُ ﴿نَعِيمٖ ۝٨٩﴾ له خاصّة، فلِكُلٍّ هُنالكَ نَعيمُه.

أخرَجَ ابنُ أبي الدُّنيا في «ذِكر المَوتِ» عن إبراهِيمَ النَّخَعِي قال: «بلَغنا أنَّ المؤمِنَ[٥] يُستَقبَلُ عِندَ مَوتِه بطِيبٍ مِن طِيبِ الجنّةِ ورَيحانٍ مِن رَيحانِ الجنّةِ فتُقبَضُ رُوحُه فتُجعَلُ في حَرِيرِ الجنّةِ ثُمّ يُنْضَحُ[٦] بذلِكَ الطِّيبُ ويُلَفُّ في الرَّيحانِ ثُمّ ترتَقِي به مَلائِكةُ الرَّحمةِ حتَّى يُجعَلَ في عِلِّيِّينَ[٧]».

---

(١) وفيه أقوال أُخرَى كثــيرةٌ، فقالوا: الرَّوْحُ المَغفِرةُ والرَّحمةُ، وهو الّذي رجَّحه الإمامُ ابنُ جريرٍ الطَبَريُّ رضي اللّٰهُ عنه، وقيل: طِيبُ النَّسيمِ في القَبرِ، وقيل غيرُ ذلكَ.

(٢) الرَّيحــانُ الرِّزقُ في لُغةِ حِمــيرَ، ورُوي عن ابنِ عبّــاسٍ رضي الله عنهما قال: «كلُّ رَيحانٍ في القُرءان فهو رِزقٌ».

(٣) في القَبرِ والآخِرة.

(٤) قال الحسَــن البصريّ وأبو العالِية: يُؤتَى بغُصنٍ مِن رَيحانِ الجنّة فيَشَــمّهُ ثُم تُقبَضُ رُوحُه.

(٥) أي التّقِيَّ.

(٦) أي يُرَشُّ.

(٧) هو مَكانٌ في السّــماءِ الســابعةِ أو ما فوقَها تُؤخَذ إليه أرواحُ الأتقياءِ. أمّا =

روَى الطّبَرانيّ في «المُعجَم الأوسَط» بإسنادٍ رجالُ ثِقاتٌ عن نافعٍ عن ابنِ عُمرَ رضي الله عنهما قال: قَرأتُ علَى النّبيّ ﷺ سُورةَ الواقعةِ، فلَمّا بلَغتُ ﴿فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ﴾ قالَ لي رَسولُ اللهِ ﷺ: «**فَروحٌ وريْحانٌ يا ابْنَ عُمرَ**».

لطيفة: حكَى ابنُ أبي الدُّنيا في «الرِّقّةِ والبُكاء» وابنُ قُدامةَ في «الرِّقّةِ» أنّه لمّا ماتَ ورّادٌ العِجْليُّ فحمَلُوه إلَى حُفرَتِه نزَلُوا ليُدلُوه فيها، فإذَا القَبرُ مَفروشٌ بالرَّيحانِ، فأخَذَ بعضُ القومِ الّذين نزَلُوا القبرَ مِن ذلكَ الرَّيحانِ شيئًا فمَكثَ سبعِينَ يومًا طرِيًّا لا يَتغيَّرُ، يَغدُو النّاسُ ويَرُوحُونَ يَنظُرُونَ إليهِ، وكَثُرَ النّاسُ في ذلِكَ حتّى خافَ الأميرُ أنْ يُفتَنَ النّاسُ فأرسَلَ إلى الرّجلِ فأخَذَ ذلكَ الرَّيحانَ وفرّقَ النّاسَ، ففقَدَه الأميرُ من مَنزلِه لا يَدرِي كيفَ ذهَبَ.

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ﴾ المُتوفّى دُونَ السّابقِينَ المُقرَّبِينَ في الدّرَجة فكانَ ﴿مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ۝٩٠﴾ أي الّذين يُؤخَذُ بهم إلى الجنّةِ من ذاتِ اليَمِين ﴿فَسَلَٰمٞ﴾ أي فسَلامةٌ ﴿لَّكَ﴾ ممّا تكرَهُ ﴿مِنۡ﴾ جِهةِ أنّكَ من ﴿أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ۝٩١﴾ الّذين هُم مِن كُلِّ فزَعٍ ءامِنُون، ويُلحَقُ بهؤلاءِ مَن عفَا اللهُ

= كونه في السّماءِ السّابعةِ فهو المفهوم مِن ظاهرِ الحديث الّذي رواهُ أحمدُ والحاكمُ مرفوعًا بلَفظِ: «**حَتَّى يُنْتَهَى إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ ثُمَّ يُقَالُ: اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي عِلِّيِّينَ**»، وأخرَج عبدُ الرَّزّاق وابنُ حُمَيدٍ وابنُ جريرٍ عن قتادة رضي الله عنه قال: «عِلِّيُّون فوقَ السّماءِ السّابعةِ عِندَ قائمةِ العَرشِ اليُمنَى» ويُطلَق عِلِّيُّون أيضًا على مَكانٍ عالٍ في الجنّةِ رزَقَنا اللهُ إيّاهُ.

عنهُ مِن عُصاةِ المؤمنِينَ ابتِداءً[١] إلّا أنّهُم أقلُّ مِن المُتَّقِينَ.

وقيل: مَعناه تقول له الملائكةُ: يا صاحِبَ اليَمينِ إخوانُكَ مِن أصحابِ اليَمينِ يُسَلِّمون عليكَ، وقيل: مَعناه لكَ سلامٌ يُحيّيك بِه ملَكُ المَوتِ عِندَ قَبضِ رُوحِكَ في الدُّنيا أو سَلامٌ مِن قِبَلِ مُنكَرٍ ونكِيرٍ في القَبرِ أو عِندَ البَعثِ مِن قِبَلِ الملائكةِ أو في المَواطِنِ الثّلاثةِ إكرامًا بَعدَ إكرامٍ[٢].

ولَم يَذكُرِ اللّهُ عزَّ وجلَّ ما يكونُ لأهلِ الكبائِرِ مِن المؤمنِينَ بل جعَلَ القِسمَ الثّالِثَ الكافرِين أصحابَ الشِّمالِ فقال: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ﴾ المُتوفّى ﴿مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ بالبَعثِ ﴿ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾﴾ أي المائلِين عنِ الهُدَى إلى الكُفرِ، وفي معنَى المُكذِّب بِالبَعثِ سائِرُ الكافرِين أصحابُ الشِّمالِ، ﴿فَنُزُلٌ﴾ أي فلَهُ مَكانٌ في جهنَّمَ يُطعَم فِيه من زَقُّومٍ ويُسقى فِيه ﴿مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾﴾ وقد سبَقَ تفصِيلُ ذلكَ في تفسيرِ الآيَة: ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿وَتَصْلِيَةُ﴾ أي وللكافِرِ دخولٌ وإقامةٌ أبَديّةٌ في ﴿جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾ أي نارٍ فظِيعةٍ يُقاسِي فيها أنواعًا هائلةً مِن العَذابِ الّذي لا يَخِفُّ ولا يَنقطِعُ لحظةً، أجارَنا اللّهُ من ذلك.

---

(١) أي لَم يُعذَّبوا بالمرّة.

(٢) وفيها أقوالٌ أُخرَى، مِنها أنّ معناهُ: لا ترَى يا صاحِبَ اليَمين مِن أصحابِ اليَمينِ إلّا ما تُحِبُّ مِن السَّلامةِ لهُم فإنّهم سالِمون مِن العَذابِ، ومِنها أنّ معناه: سلامٌ لكَ وصلاةٌ عليكَ يا محمّدُ ﷺ من قِبَلِ أصحابِ اليَمِين.

ولمّا انقضَى الإخبارُ بتقسيم أحوالِ الأقسام الثّلاثةِ وما يؤولُ إلَيه كُلُّ قِسمٍ مِنهُم أكّد ذلِكَ عزَّ وجلَّ بِقولِه: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي الخَبَرَ المذكُورَ في هذِه السُّورةِ الكرِيمةِ ﴿لَهُوَ حَقُّ﴾ الأمرِ ﴿ٱلْيَقِينِ ۝٩٥﴾ الّذي لا شَكَّ فيه[1].

ولمّا ذكَرَ اللّهُ عزَّ وجلَّ الأقسامَ الثّلاثةَ أمرَ نَبيَّه ﷺ بذِكرِه عزَّ وجلَّ تقديسًا وتنزيهًا له تعالَى عمّا لا يَلِيق به مُقبِلًا علَى طاعةِ رَبّه مُعرِضًا عن تَكذيبِ الكفَرةِ مُنكرِيْ البَعثِ والحِسابِ والجَزاءِ فقال جلَّ وعَزَّ: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ﴾ أي فنَزِّه اللّهَ ربَّك عمّا لا يَلِيقُ به سُبحانَه ممّا نسبَه إليهِ الكافِرُون مِن وَلَدٍ وشَرِيكٍ ومَثِيلٍ واتِّصافٍ بِصفاتِ الخَلقِ مِن قُعودٍ وجُلُوسٍ، جلَّ اللّهُ عن ذلكَ تقدُّسًا جليلًا، ﴿رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٩٦﴾ قَدْرًا وشأنًا لا حَجمًا لأنّه ليسَ بذِي حَجمٍ ولا يُشبِهُ الخَلقَ بأيِّ معنًى مِن المعاني، أو معناه سَبِّح اللّهَ بذِكر اسمِه العظِيم بنَحوِ: «سُبحانَ اللّهِ»، ولَفظُ الجلالةِ «اللّهُ» أعظَمُ الأسماءِ وأفضَلُها على الإطلاقِ.

تمَّ تفسيرُ سُورةِ الواقِعةِ بحَمدِ اللهِ ومَنِّه وفَضلِه

---

(١) وقال أبو حيّانَ وغيرُه: «هو مِن إضافةِ المُترادِفَين على سَبِيل المُبالَغة كما تقُول: هذا يقِينُ اليَقِينِ وصَوابُ الصَّوابِ، بمَعنَى أنّه نِهايةٌ في ذلِكَ».

خاتِمةٌ مُوجزة

هذه خاتِمةٌ في إيجازِ ما اشتَملَتْ علَيه سُورةُ الواقِعةِ الكريمةُ مِن أوّلِها إلى ءاخِرِها.

لقَد افتُتِحَت السُّورة بذِكر القِيامةِ وقِيامِها وتفخِيم شأنِها وأنّه لا رادَّ لحُصولِها، لأنّ اللهَ تعالَى شاءَ أنْ تكونَ القِيامةُ في وقتٍ معلُومٍ ولو كَرِهَ الكافِرُون؛ وذكَر عزَّ وجلَّ أنّ لهذا اليَومِ أهوالًا عظِيمةً وأنّ ذلكَ كُلَّه على أرضٍ تُبدَّلُ هي أو مَعالِمُها حيثُ لا جِبالَ ولا أودِيةَ بل أرضٌ مُنبسِطةٌ.

وقسَّمَ اللهُ عزَّ وجلَّ النّاسَ إلى ثَلاثةٍ: السّابقِينَ درَجةً مِن المؤمنِين، وأصحابِ اليَمينِ وهُم المؤمنُون ذوُو الدّرجاتِ الّتي دُونَ ما للسّابقِينَ، وأصحابِ الشِّمالِ وهُم الكافِرُونَ على اختِلافِ أصنافِهم.

ثُمّ أعقَبَ اللهُ عزَّ وجلَّ ذلكَ بتَفصِيلِ الكلامِ على ما لِكُلّ فِئةٍ مِن الثّلاثةِ في الآخِرة، فبدأَ بذِكر السّابقِين وما لهُم مِن مَقامِ النَّعِيمِ، وأخبرَ أنهُم الفِئةُ الأقلُّ عدَدًا.

ثُمّ أخبَرَ تبارَكَ وتعالَى عن بعضِ ما يكونُ لأصحابِ اليَمِين في الجنّةِ مِن النَّعِيمِ المُقِيمِ، وهو شيءٌ عظِيمٌ جِدًّا إلّا أنه أقلُّ ممّا أُعِدَّ للسّابقِينَ.

ثمّ ذكَر اللهُ تعالَى الفِئةَ الثّالثةَ وهُم أصحابُ الشّمالِ الكافِرُونَ وما لهُم مِن ألِيمِ العَذابِ في الآخِرةِ، وذكَّرَ النّاسَ بأنّ أولئكَ كانُوا في الدُّنيا مُنعَّمِينَ، ومع ذلكَ كانُوا يُصِرُّونَ على الكُفرِ ويأْبَون إلّا اتّباعَ ءابائِهِمُ

الأوَّلِين في الشِّركِ ويُكذِّبُون بالبَعثِ، والعِياذُ بالله.

ثُمّ أعقبَ اللهُ تعالَى ذِكرَ الفِئاتِ الثّلاثةِ بإقامةِ الحُجَجِ على الكافِرينَ المُكذِّبِينَ بالبَعثِ فذكَّرهُم بأنّهُ خالِقُهم وخالِقُ أعمالِهِم وأنّهُم لا يَخلُقون شيئًا؛ فذكَرَ إنزالَ الماءِ مِن السَّماءِ وإنباتَ الزَّرعِ في الأرضِ وإخراجَ النّارِ مِن شجَرٍ أخضرَ وأنّ ذلكَ كُلَّه يكونُ بتَقدِيرِ اللهِ ومشيئَتِه وعِلمِه وتخلِيقِه عزَّ وجلَّ وأنّه ليسَ للعِبادَ إلّا الكَسبُ، وأمّا الخَلقُ بمعنَى الإبرازِ مِن العدَمِ إلى الوُجودِ فهو فِعلُ اللهِ عزَّ وجلَّ وليسَ ذلكَ لأحَدٍ غيرِه.

ثُمّ أقسَمَ اللهُ عزَّ وجلَّ بمَواقِعِ النُّجوم بأنّ المُنزَّلَ على محمّدٍ ﷺ قُرءانٌ كَرِيمُ الشّأنِ عَظِيمٌ وأنّه مَسطورٌ في اللَّوحِ المحفُوظِ المَصُونَ عن عبَثِ الشّياطِينِ، واللهُ يُقسِمُ بما يَشاءُ مِن خَلقِه، ولا يُقسِمُ إلّا بِما فيه نَفعٌ.

وجاءَ ختَمُ السُّورةِ بذِكر ما يكونُ علَيه المَرءُ حالَ الاحتِضارِ؛ فإنْ كانَ مِن ذَوِي الدَّرجاتِ العُلَى مِن المؤمنِينَ فإنّه مِن المُبشَّرِينَ عِندَ المَوتِ بنعِيمٍ في جنّةٍ عَرضُها السّماواتُ والأرضُ، وإنْ كانَ مِمّن دُونَ ذلكَ مِن المؤمنِينَ فمَآلُه إلى الجِنانِ في دَرجةٍ دُونَ درَجةِ الأوّلِينَ، وإنْ كانَ مِن الكافِرينَ فهو مِن الّذين تُبشّرُهم الملائكةُ بعَذابٍ ألِيمٍ لا يَخِفُّ ولا يَنقَطِعُ، أجارَنا اللهُ مِن ذلكَ.

وجاءَ في ختَمِ الخاتِمةِ الأمرُ بتَسبِيحِ اللهِ عزَّ وجلَّ أي تنزِيهِ عمّا لا يَجوزُ علَيه سُبحانَه، فسُبحانَ اللهِ والحمدُ للهِ ولا إلهَ إلّا اللهُ واللهُ أكبَرُ.

تَنْوِيرُ الْمَدَارِك

فِى تَفْسِيرِ

سُوْرَةِ تَبَارَك

سُورة المُلك: خَصائصُها وفَضائِلُها

لقَد أحصَى العلَماءُ مِن خلالِ الأحاديثِ والآثارِ لهذه السُّــورة المُبارَكةِ أســماءً تُنبِـئُ عن بعــضِ أوصافِها، فهــي: المُلكُ، وتبــارَكَ المُلكُ، والمانِعةُ(١)، والمَنّاعةُ، والمُنْجِيةُ، والواقِيةُ، والمجادِلةُ(٢)، ذكَرها العَلَمُ السّخاويُّ في «جَمال القُرّاء» والسُّيوطيُّ في «الإتقان».

وَقتُ نُزولِ سُورةِ المُلكِ

سُورةُ المُلكِ مكّيّةٌ، ونُقِل الاتّفاقُ على ذلك، وقال بعضُهم: فيها ثلاثُ ءايات مدنِيّة؛ وقد أغرَبَ حيث إنه لَم يُعيِّنها، وفي السُّــورة قولٌ غرِيبٌ أيضًا أنها مدَنيّةٌ، وهي مُحكَمةٌ ليسَ فِيها ناسِخٌ ولا مَنسوخٌ.

وقَــد نزلَتْ على النّبِيّ محمّدٍ ﷺ بعدَ سُــورة الطُّــورِ أو المؤمِنُون، لكنّ ترتِيبَها في المُصحَف بعدَ سُــورة التّحرِيم توقيفًا. ومُناسبةُ وُقوعِها بعدَ سُورة التّحرِيم في القُرءان أنّه جاء في كِلَيهما مدحُ الطّائعِين وذَمُّ العاصِينَ، وأمّا مُناسبةُ ءاخِرِ التّحرِيم مع أوّل المُلك فهو أنّ ختمَ التّحرِيم جاءَ بأنّ

---

(١) سُــمِّيت بذلكَ لأنّها ســببٌ في منعِ عــذابِ القبرِ عن قارئِهــا مِن عُصاةِ المؤمنِين.

(٢) أي التّي تُجادِلُ بمعنَى تَشفَعُ لصاحبِها يومَ القِيامةِ.

السـيّدةَ مريمَ عليها السّلامُ كانتْ مِن القانتِين للّهِ تعالى[١]، وافتُتِحَتْ تبـارَكَ بالقولِ بأنّ المُلـكَ للّهِ، كلُّ شيءٍ تحت تصرُّفِـه، يَفعَلُ اللّهُ ما يشاءُ، وأهلُ السّماواتِ والأرضِ كلُّهم للّهِ قانِتُون.

فَضلُ سُورةِ المُلكِ

أوّلًا: هي إحـدَى سُـوَرِ المُفصَّلِ الّتي خُصَّ بِها رسـولُ اللهِ ﷺ دُونَ سائِرِ الأنبياءِ عليهِمُ الصّلاةُ والسَّلامُ.

أخرَجَ الطَّيالسِيُّ مِن حديثِ واثلةَ بنِ الأسقَعِ رضي اللّه عنه أنّ رسولَ اللّه ﷺ قال: «**أُعْطِيتُ مَكانَ التَّوْراةِ السَّبْعَ الطِّوالَ وَمَكانَ الزَّبُورِ المِئِينَ وَمَكانَ الإِنْجِيلِ المَثانِيَ وَفُضِّلْتُ بِالمُفَصَّلِ**».

والسَّـبعُ الطِّوالُ بكسرِ الطاءِ جَمعُ طويلةٍ هي البقَرةُ إلى ءاخرِ براءةَ بجَعلِ الأنفـالِ مع براءةَ واحدةً في العَدِّ، وقيل غيرُ ذلك. والمِئُون كلُّ سُـورةٍ تَزِيـدُ على مائةِ ءايةٍ أو تُقاربُها، وأمّا المَثانِي فهي السُّـوَرُ الّتي تَلِي المئِينَ في تَرتِيـبِ المُصحَفِ، سُـمِّيَتْ بذلـكَ لأنّها ثَنَتْهـا أي ولِيَتْها. وقال الفَرّاءُ: هي السُّـورةُ الّتي ءايُها أقلُّ مِن مائـةٍ لأنّها تُثنَّى أي تُكرَّرُ أكثر مِمّا يُثنَّى الطِّوالُ والمِئُونَ، وقيل: سُـمِّيَتْ بذلكَ لِتثْنِيةِ الأمثالِ فيها بالعِبَرِ

(١) أي المُقيمين على طاعتِه المُواظِبين عليها في الشِّدّةِ والرَّخاءِ.

والخبَرِ. والمُفصَّلُ ما ولِيَ المَثانِيَ مِن قِصارِ السُّورِ[١]، سُمِّيتْ بذلك لِكَثرةِ الفَصلِ بَين سُورِها بالبَسملة، وقيل: لِقلّةِ المَنسُوخ مِنها ولهذا تُسمَّى المُحكَمَ كما روَى البُخارِيّ في «صحِيحِه» عن سعِيدِ بن جُبَيرٍ رضي الله عنه قال: «إنَّ الّذِي تَدْعُونَه المُفصَّلَ هو المُحْكَمُ، وءاخِرُه سُورةُ النّاسِ بلا نِزاعٍ[٢]».

ثانيًا: شَفاعتُها لِمَن واظَبَ على قِراءتِها كلَّ لَيلةٍ مِن المؤمِنين

أخرَجَ أحمدُ في «مُسنَدِه» وابنُ ماجهْ والتّرمذيُّ في «السُّنَن» وحسَّنَه عن أبي هُريرةَ رضي الله عنه أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «**إنَّ سُورَةً فِي القُرْءانِ ثَلاثُون ءايَةً شَفَعَتْ لِصَاحِبِها حَتَّى غُفِرَ لَهُ**: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾»، وفي روايةِ ابنِ حِبّانَ في «صحِيحِه»: «**تَسْتَغْفِرُ لِصَاحِبِهَا حَتَّى يُغْفَرَ لَهُ**»، وفي روايةٍ عِندَ الطّبَرانيّ في «المُعجَم الصّغِير»: «**خاصَمَتْ عَن صَاحِبِها**[٣]

(١) أي قِصارٌ بالنِّسبةِ لما قبلَها، وإلّا ففي المُفصَّلِ طِوالٌ وأَوساطٌ وقِصارٌ؛ فطِوالُه إلى النّبأ، وأوساطُه من النّبأ إلى الضُّحى، وقِصارُه مِن الضُّحَى إلى ءاخِرِ القُرءان. ويُكرَه تنزيهًا أن يُقال: «سُورةٌ صغِيرةٌ» بل يُقال: «مِن قِصارِ السُّوَر»، كما كرِه ابنُ سِيرينَ أن يُقال: «سُورةٌ خفِيفةٌ» ولكن يُقال: «سُورةٌ يَسِيرةٌ».

(٢) واختُلِف في أوّلِ المُفصَّلِ على أقوالٍ كثِيرةٍ، فمِنهُم مَن قال: سورةُ ق، وءاخَرُون الحُجُرات، وغيرُهم سُورةُ محمّدٍ ﷺ.

(٣) أي جادلَت بمعنَى شفَعَتْ له.

حتّى أَدْخَلَتْهُ الجنّةَ».

وروى النَّسائيُّ في «السُّنَن الكُبرى» والطّبَرانيُّ في «الأوسَط» عن ابنِ مَسعودٍ رضي الله عنـه قال: «مَن قرَأَ ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾[1] كُلَّ لَيلةٍ مَنَعَهُ اللهُ بِها مِن عَذابِ القَبرِ، وكُنّا في عَهدِ رَسـولِ اللهِ ﷺ نُسَمّيها المانِعةَ، وإِنّها في كِتابِ اللهِ سُورةٌ مَن قرَأَ بِها في كُلِّ لَيلةٍ فقَد أَكثَرَ وأَطابَ».

وروى الترمذيُّ في «سُـنَنِه» عن ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنهُما قال: ضَرَبَ بَعضُ أصحابِ النَّبيِّ ﷺ خِباءَه علَى قَبرٍ وهو لا يَحسِبُ أنّهُ قَبرٌ، فإذا فيه إنسانٌ يَقرَأُ سُورة ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ حتَّى خَتَمها، فأَتى النَّبيَّ ﷺ فقال: يا رَسـولَ اللهِ، إنّي ضَرَبتُ خِبائي علَى قَبرٍ وأنا لا أَحسِبُ أنّهُ قَبرٌ، فإذا فيهِ إنسانٌ يَقرَأُ سُورة ﴿تَبَٰرَكَ﴾ المُلكَ حتَّى خَتَمها، فقال رَسولُ اللهِ ﷺ: «**هِيَ المانِعَةُ، هِيَ المُنجِيَةُ، تُنجِيهِ مِن عَذابِ القَبرِ**».

وأخرَجَ عبدُ[2] بنُ حُمَيدٍ في «مُسنَدِه» عن عِكرِمةَ أنّ ابنَ عبّاسٍ رضي الله عنهُما قال لرَجُلٍ: «ألا أُطرِفُك بحَديثٍ تَفرَح به؟»، قال الرّجُل: بلَى يا أبا عبّاسٍ رَحِمَك اللهُ، قال: «اقرَأ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾[3] واحفَظْها وعَلِّمْهـا أَهْلَك وجَميعَ ولَدِك وصِبيانَ بَيتِـك وجِيرانَك، فإنّها المُنجِيةُ،

---

(١) يعني السُّورةَ كُلَّها.

(٢) يُقال: اسمُه عبدُ الحَميد.

(٣) يعني السُّورةَ كُلَّها.

وهي المُجادِلةُ تُجادِلُ وتُخاصِمُ يومَ القِيامةِ عِندَ رَبِّها[١] لِقارِئِها، وتَطلُبُ لهُ إلى رَبِّها أنْ يُنْجِيَه مِن النّارِ إذَا كانتْ في جَوفِه، ويُنْجِي اللّهُ بِها صاحِبَها مِن عَذابِ القَبرِ»[٢].

وأخرَجه ابنُ مَردَويهِ والبَزّارُ والطَّبَرانيُّ والبيهقيُّ عن ابنِ عبّاسٍ رضي اللّه عنهما أنّ رسـولَ اللّهِ ﷺ قال في شأنِ سُـورةِ المُلكِ: «**لَوَدِدْتُ أَنَّها فِي قَلْبِ كُلِّ إِنْسَانٍ مِنْ أُمَّتِي**». قال الحافظ العَسقلانيّ في «نَتائجِ الأفكارِ»: «هذا حديثٌ حسَنٌ غريبٌ».

ثالثًا: مُواظَبةُ رسولِ اللهِ ﷺ على قِراءَتِها قبلَ النَّومِ ليلًا

روَى البُخـاريّ في «الأدَب المُفـرَد» وأحمَـدُ في «المُسـنَد» والترمذيُّ والنَّسـائيُّ في «السُّنَن» وغيرُهم عن جابرٍ رضي اللّه عنه قال: «كان النَّبِيُّ ﷺ لا ينامُ كُلَّ ليلةٍ حتَّى يقرأَ ﴿تَنزِيلُ﴾ السَّـجْدة[٣]، و﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾».

---

(١) أي عِندَ حِسابِ اللّهِ عِبادَه يومَ القِيامةِ، واللّهُ تعالَى مُنزَّهٌ عن الحُلولِ في مَكانٍ وفي جميعِ الأماكِن.

(٢) قال شيخُنا رحمه اللّه: «مَن عُذِّبَ في قَبرِه مِن أهلِ الكبائرِ مِن المُؤمنين قد لا يُعـذَّبُ في الآخِـرة، ومَن لَم يُعذَّب في قَبرِه قد يُعـذَّبُ في الآخرة ببَعضِ أنـواعِ العَذابِ لكن أخفَّ مِـن غيرِه، أمّا مَن كان يُداوِمُ علَى قِراءةِ سُـورةِ المُلكِ كُلَّ لَيلةٍ فلا يُعذَّبُ في القَبرِ ولا في الآخرة».

(٣) وأوَّلُها: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾.

خامِسًا: مِن مُجرَّباتِ بعضِ العُلماءِ في خَواصِّها

ذكَرَ العلّامةُ عفِيفُ الدّين أبو محمّدٍ اليافعيّ الشافعيّ اليمَنيّ المكّي في «الدُّرّ النَظِيم» فيما جُرِّب في سُورة المُلك أنّها إذا قُرِئت على مَن به رمَدٌ ثلاثةَ أيّامٍ مُتوالية كُلَّ يومٍ ثلاثًا بَرِئ بإذْن اللّهِ عزَّ وجلَّ.

وليسَ هذا مِمّا ورَد في حديثٍ ثابتٍ عن رسولِ اللّه ﷺ إنّما هو من مُجرَّباتِ أهلِ الخيرِ الصّالحِين.

تفسير سُورة المُلك

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَبَٰرَكَ﴾ أي تقدَّس وتنزَّه عن صِفاتِ المخلُوقِين وعَن سِماتِ المُحدَثِين مِن حُدوثٍ وتغيُّرٍ وحُلولٍ واحتياجٍ لشيءٍ أو أحَدٍ أو مَكانٍ اللَّهُ الخالِقُ ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِ﴾ أي بقُدرَتِه وتحتَ تصرُّفِه ﴿ٱلۡمُلۡكُ﴾ بضمّ المِيم[1] أي لهُ الأمرُ والنَّهيُ والسُّلطانُ فيُعِزُّ مَن يَشاءُ ويُذِلُّ مَن يَشاءُ[2]، واستِعمال لَفظِ «اليَدِ» مُضافًا إليه عزَّ وجلَّ ليسَ على معنى

---

(١) المُلْكُ بضمّ المِيم مصدَرٌ ومعناهُ السُّلطانُ والقُدرةُ، وأمّا ما مُلِكَ مِن مالٍ وغَيرِه فهو مِلْكٌ بتَثليثِ المِيم والكَسرُ أفصَحُ وأشهَرُ.

قلتُ: وأروي بالسّنَدِ المتّصِل سماعًا إلى الحافظِ النّوويّ رحمه اللّه في كتابه «تهذِيب الأسماء واللُّغات» (٤/ ١٤٢) قال: «المُلْكُ بضمّ المِيم مصدرُ المِلْكِ بكَسر المِيم، ومنه قولُهم في التَّلبِية: إنّ الحمدَ لكَ والمُلْكَ، وقولهم: لا إلـه إلّا اللّهُ وَحدَه لا شَريكَ لـه، له المُلْكُ، وأمّا مِلـكٌ مِن مالٍ أو غيرِه فيُقالُ فيه: هو مِلْكُ فُلانٍ، ومِلكُ يَمينِه بكَسرِ المِيم وفَتحِها وضَمِّها ثَلاثُ لُغاتٍ الكَسرُ أفصَحُ وأشهَرُ».

(٢) قال الإمامُ أبو منصورٍ الماتريديُّ في «تأويلات أهل السُّنّة» (١٠/ ١٠١): «والمعتزِلَةُ يقُولون بأنّ مِلكَ مُلْكِ الكفَرة ليس له، وأنّه لا يُولِي المُلكَ للكافِر، ويقولون في قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ =

العُضوِ والجارِحة، حاشــا لله وتقدَّسَ عن ذلكَ، فاللهُ مُنزَّه عن الجِسميّة وسائِر معانِيها لأنّه لا يُشبِهُ الخلقَ بمَعنًى مِن المعانِي، فإطلاقُ اليَدِ هُنا لتأكِيد كونِه عزَّ وجلَّ ذَا السُّــلطانِ المُطلَق الّذي يَفعل ما يَشاءُ ويَحكم بما يُريد، ألَا ترى أنّــه يُقال: «بيَدِ فُلانٍ الأمرُ والنَّهي والحَلُّ والعَقدُ في كذا وكذا» ولا يُقصَدُ بذلك اســتِعمالُ اليَدِ بمعنَى العُضوِ مع أنّها تجوزُ على الخَلقِ.

فائدة: قال الله تعــالَى: ﴿بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾ ولم يَقُل: «المُلكُ بيَدِه»، فقدَّمَ «بيَدِه» على «المُلْكُ» للدّلالةِ على أنّ للهِ عزَّ وجلَّ المُلكَ المُطلقَ وليسَ ذلــك لأحدٍ غيرِه، وذلــكَ أنّ ﴿ٱلۡمُلۡكُ﴾ فيه الألِفُ والــلّامُ الدالّةُ على العُموم، وتقدِيمُ ﴿بِيَدِهِ﴾ يدُلّ على الحَصرِ، فدَلَّ على أنّ المُلكَ المُطلقَ له لا لغَــيرِه. وأمثِلةُ ذلــكَ في القرءانِ كثيرةٌ كقولِــه تعالَى: ﴿فَلَا أُنفُسِهِمۡ

=ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ﴾ [سُورة البقرة: ٢٥٨] أنّ الّذي ءاتاهُ اللهُ المُلكَ هو إبراهيمُ ﷺ والهاءُ تَنصرِفُ إليه لا إلى الّذي حاجَّهُ، وإذَا لَم يجعَلُوا مِلكَ مُلْكِ الكافِرِ في يَــدِه (أي تحــتَ تصرُّفِه) لَم يَصِر مُتمدِّحًا بما ذكَرنــا لأنّه يكُون في يَدِه بعضُ المُلكِ لا كُلُّه. وقال في ءايةٍ أخرى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ [سُــورة ءال عِمــران: ٢٦] وعــلى قولِهم يَصِيرُ المُلكُ في يَدِ مَن لا يَشاءُ لأنّه لا يَشاءُ المُلكَ للكافِر، ومَع ذلك يُوجَد فيهم المُلكُ». وهذا مِن المُعتزِلة كُفرٌ وضَلالٌ مُبِينٌ لا مِرْيةَ فيه ولا شَكَّ، لأنّهم جعَلُوا اللهَ تعالَى مَقهُورًا مغلُوبًا يحصُل في العالَمِ ما لَم يَشــأْه، فلَا يَملِكُ مَخلوقٌ شيئًا إلّا بتملِيك اللهِ له ذلك، والعبدُ وما يَملِكُ مِلكٌ للهِ عزَّ وجلَّ.

يَمۡهَدُونَ ﴾ أي لا لِغيرِهم، وقولِه: ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ أي لا لِغيرِه، وقولِه: ﴿ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ أي خَلْقًا ومُلكًا لا لِغيره[١]، وأمّا مِلكُ المخلوقِ لِلمَخلُوقِ فمَجازيٌّ بدلِيلِ أنّه ليسَ للمالِك أن يَتصرَّف في مملُوكِه إلّا فيما أباحَ اللّٰه له، أمّا اللّٰهُ عزَّ وجلَّ فهو المالِكُ الحقيقيُّ لجَميعِ المملُوكاتِ يَفعَلُ بها ما يَشاءُ.

﴿وَهُوَ﴾ أي اللّٰهُ وحدَه ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ مِن المُمكِناتِ ﴿قَدِيرٌ ١﴾ أي تامُّ القُدرةِ لا يُعجِزُه شيءٌ، فقُدرَتُه تعالى مُتعلِّقةٌ بالمُمكِناتِ كُلِّها، لكن يُدخِلُ في الوُجودِ بقُدرَتِه الأزليّةِ ما شاءَ له الوُجودَ بمشيئتِه الأزليّةِ[٢].

ثُمّ بيَّنَ اللّٰهُ سُبحانَه وتعالَى بعضَ أحكامِ مُلكِه وءاثارِ قُدرتِه فبدأَ بِوَصفِ

---

(١) وفي ذلك رَدٌّ على المُعتزِلة القائلِينَ بأنّ فِعلَ العَبدِ مخلوقٌ للعَبدِ نَفسِه، وفيه رَدٌّ على المُجسّمة الوهّابيّةِ وأمثالِهم مِن الكافرين القائلِين بأنّ اللّٰهَ في السَّماءِ بذاتِه؛ فإنّ الآيةَ أثبتَتْ أنّ كُلَّ ما في السّماواتِ مِلكٌ للّٰهِ عزَّ وجلَّ مخلوقٌ له مملُوكٌ، فيَلزَم مِن قولِ أولئكَ الكافرين أنْ يكونَ اللّٰهُ مملُوكًا لنَفسِه مخلُوقًا والعياذُ باللّٰهِ مِن هذا الكُفرِ، فبطَلَ قولُ الكفَرةِ عن اللّٰهِ «إنّه حالٌّ في السَّماءِ»، تنزَّهَ اللّٰهُ عن ذلكَ تنزُّهًا عظيمًا.

(٢) تمسَّكَ المُعتزِلة بهذه الآيةِ لِمَقالتِهم: «المَعدومُ الّذي يصِحُّ وجودُه شيءٌ» فقالوا: «المعدوم مَقدُورٌ للّٰهِ، واللّٰهُ تعالَى يقول: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١﴾، فاقتضَتْ هذه الآيةُ اعتبارَ المعدُوم شيئًا».
وأجابَ أهلُ السُّنّة عن ذلكَ بأنّ المعدُوماتِ الّتي هي مشِيئاتٌ أي شاءَ اللّٰه لَها الدُّخولَ في الوجودِ فيما بعدُ سُمِّيَتْ شيئًا باعتبارِ مآلِها.

نفسه أنّه الخالق ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ أي أوجد وقدّر ﴿ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾[١] فأحياكم بعد كونكم نطفًا ميّتة في أصلاب ءابائكم[٢] أيّها المكلّفون ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾[٣] ليختبركم فيتميّز للخلق ما سبق في علمه الأزليّ وهو

(١) أي خلق موت كلّ من قامت به صفة الموت وحياة من قامت به صفة الحياة.

واختلف المتكلّمون هل الموت صفة وجوديّة أو أنّه ضدّ الحياة، فذهب الذين قالوا إنّه وجوديّ إلى الاستدلال بظاهر قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ﴾ فالموت عندهم أمرٌ وجوديّ وهو كيفيّة يخلقها الله تعالى في الحيّ تضادّ الحياة، وذهب بعض متأخّري الأشاعرة كالبيضاويّ والإيجيّ إلى أنّه أمرٌ عدميٌّ بمعنى عدم الحياة ممّن اتّصف بها وإلى أنّ الّذي في الآية متأوّل على معنى أنّ الله خلق الأسباب الّتي تزول بها الحياة عمّن كان موصوفًا بها فيوصف بالموت أو على معنى أنّ الله قدّر الموت فكان.

(٢) قال الله تعالى إخبارًا عن قول الكافرين في الآخرة: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ [سورة غافر: ١١]، قال قتادة: «كانوا أمواتًا في أصلاب ءابائهم فأحياهم الله في الدّنيا، ثمّ أماتهم الموتة الّتي لا بدّ منها، ثمّ أحياهم للبعث يوم القيامة، فهما حياتان وموتتان»، ونظيره قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ﴾ أي إلى حسابه ﴿تُرْجَعُونَ﴾ [سورة البقرة: ٢٨].

(٣) ذهبت المعتزلة إلى أنّ اللّام في ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ دالّة على أنّ أفعال الله عزّ وجلّ معلّلة بمصلحة العبد، وهذا كفرٌ وضلال، فإنّهم يعنون بذلك أنّه يجب=

= على اللهِ تعالى مِن طريق الحِكمة أنْ يَخلُق الخلق ابتداءً، وإذَا خَلَق الّذين عَلِـمَ أنّه يُكلّفُهم فيَجبُ عليه على زَعمِهم أنْ يُكمّل عقُولَهم ويُزيحَ العِلَل حـتّى يُؤمِنُوا به، وقالـوا: يَجبُ علَيه أن يَفعَل ما هـو أصلَحُ لهُم في دِينِهم ودُنياهـم، وأنّه إذَا أطاعَ العبدُ رَبَّه فِيما أمَـرَه به وجَب عليه أنْ يُثِيبَه علَيه وأن يُعوّضَـه عمّا لَحِقَه مِنه، تنزَّهَ اللّهُ عمّا يقـولُ الظّالِمُون تنزُّهًا عظِيمًا. ومُـؤدَّى كلامِهم قبَّحَهُم اللّهُ أنّه إذَا تَـرَك اللّهُ ما هو أصلَحُ لعِبادِه أو اختارَ الصَّلاحَ بَين صَلاحٍ وأَصلَحَ فقد حَصَل مِنهُ بزَعمِهم بُخلٌ وَسَـفَهٌ يَستحِقُّ الذَمَّ علَيه، فلَمّا كانَ مُستحِقًّا للمَدحِ زعَمُوا أنّه لا بُدَّ أنّهُ يَفعَل الأصلَحَ لا غـير ولو كانَ اللّهُ كما زعَمُوا فلِمَ خَلَقَ إبليـسَ والنّارَ وجَعَل بَعضَ النّاسِ مجانِينَ وخلَقَ السُّـمُومَ والمَضارَّ، فاللّهُ تَعالَى فَعّالٌ لِما يُريدُ وقَد خلق ذلكَ كُلَّه لحِكمةٍ بالِغةٍ، ومَن شَكَّ في أنّ للّهِ في ذَلِكَ حِكمةً فهو كافِرٌ لأنّه نَسَبَ للّهِ السَّـفَه، والعِياذُ باللّهِ، فقَـولُ المعتزِلة بوُجوب الصّـلاحِ والأصلَح على اللّهِ مذهبُ ضَلالةٍ وكُفرٍ لا يَترَدّدُ عاقِلٌ في بُطلانِه وسُـقوطِه، وأمّا الحقُّ فهو ما عليه المُسـلِمُونَ قاطبةً أنّ اللّهَ عزَّ وجلَّ ليسَ علَيهِ محكُومِيّةٌ لأحَدٍ ولا يجِبُ عليـه شيءٌ، يُوجِـدُ ما يَشـاءُ ويُعدِمُ ما يَشـاءُ، فهو سُـبحانَه وتعالى فاعِلٌ بالاختيارِ، ولو كان يجِبُ عليه فِعلُ شيءٍ أو تركُه لَما كانَ مُختارًا فِيه، تنزَّه اللّهُ عن ذلكَ.

وهذه الطّائفةُ تُسمَّى القدَرِيّةَ أيضًا، وذلك لأنّهُم قالُوا: «العَبدُ يَخلُق أفعالَه الاختيارِيّةَ وليسَ اللّهُ خالِقَها»، وهذا كُفرٌ صريحٌ مِنهُم.

قال الإمامُ أبو شَكُورٍ السالِميّ الحنفيّ رحمه الله في «التمهيد في بيان التوحيد» (ص/ ١٣٥) ما نصُّه: «وقالت المعتزِلة: «العَدلُ مِن اللّهِ تعالى أنْ لا يَخلُق الكُفرَ والشّرّ والضّرر ولا يَقضِيَ به، ومصالِحُ العِبادِ واحتِياجُهم واجِبٌ على=

﴿أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾ أي أيُّكُـم عملُه أحسَـنُ مِن عمَـلِ غيرِه وأطوَعُ للَّهِ وأوْرَعُ عن محَارِمه فيُجازِيَكُم، واختِبارُ اللَّهِ للعِبادِ إظهارُ أمرِهم للخَلق وتميِيزُه لَهُم بـين العِباد، فإنّه عزَّ وجلَّ يَعلَم في الأزَل أحوالَ عِبادِه جُملةً وتَفصيلًا، وليس معناه أنّه يَظهَرُ له شيءٌ كانَ خافِيًا عليه.

﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ أي الغالِبُ الّذي لا يُعجِزُه شيءٌ ولا يَفُوتُه عاصٍ شـاءَ اللَّهُ الانتِقامَ مِنه ﴿ٱلۡغَفُورُ ٢﴾ [1] أي الّذي يَكثر مِنهُ السَّـترُ على المُذنِبين

= اللّه تعالى، ولَو مَنَع لا يكُون عَدلًا منه». قالوا: «هذا هو صِفةُ العَدل حتّى إنّـه لو خَلَق الشَّرَّ والكُفرَ ثُمّ عذَّبَهم على ذلـك يكُون ظُلمًا وجورًا»، وهذا الاعتقادُ منهُم كُفرٌ».
ثُمّ ذكَرَ قِصّة سيِّدنا عليّ رضي اللّه عنه مع القدَريّ التّائبِ وقال: «ففي هذا دليـلٌ على أنّ مَن أنكرَ القَـدَر يَصير كافرًا، ولأنّ النَّبيَّ عليه السّـلامُ قال: «**القدَريّـةُ مجُـوسُ هذه الأُمّـة، إنْ مَرِضُوا فلا تَعُودُوهـم، وإنْ ماتوا فلا تُشـيِّعُوا جنائِزَهـم، أولئك شِـيعَةُ الدَّجّالِ**»، وحقٌّ عـلَى اللّه أنْ يُلْحِقَهم بالدَّجّـال، ولأنّهم أنكرُوا النَّصّ، لأنّ اللّهَ تعالى قال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [سُورة التّكوير: ٢٩]» اهـ. كلامِ أبي شَكُورٍ رحِمَهُ اللّهُ.

[1] قال شيخُنا رحمه اللّه: «إذا قِيل: فلانٌ غَفُورٌ أو غافِرٌ بِدُون إضافةٍ يجُوز، لأنّ كلِمةَ غفُورٍ إذا أُطلِقت في حَقِّ المخلُوق كان مَعناه الرَّجل الّذي يُسـامِحُ كُلَّما أُسِيءَ إليه، وقد ورَد في القُرءانِ ما يجُيز ذلك: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ أي مِن الأُمورِ المطلُوبةِ شَرعًا، أمّا بالنِّسبةِ للّهِ تعالى فالغفورُ مَعناه الّذي يَغفِـرُ الذُّنوبَ، فبِهذا المعنَى لا يُضافُ إلَى المَخلُوقِ، قال اللّهُ تعـالَى: ﴿وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ معنـاه لا أحَـد يسـتطيعُ أنْ =

مِن عبادِه والعَفوُ عنهم(١)، سترَ اللّهُ علَينا في الدُّنيا والآخرة.

ثُمّ أخبَرَ عزَّ وجلَّ عن بعضِ مصنُوعاتِه الدّالّةِ على توحِيده فقال: ﴿ٱلَّذِى﴾ أي هو اللّهُ الّذي ﴿خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا﴾ أي ذاتَ طِباقٍ صُلبةً، طبقةٌ مِنها فوقَ طبقةٍ مِن غيرِ مُماسّةٍ ولا عُمدٍ، لِكُلٍّ منها مَلَكٌ كريمٌ خازنٌ أي مُوكّلٌ بأُمورِها(٢)، وقدَ جعلَ اللّهُ السّماواتِ على غايةٍ مِن الإتقانِ حيث إنّكَ ﴿مَّا تَرَىٰ﴾ أي لستَ ترَى أيُّها المُخاطَبُ إذا نظَرتَ ﴿فِي﴾ السّماوات ﴿خَلۡقِ﴾ أي مَخلُوقِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖ﴾ أي عدَمِ تناسُبٍ وخلَلٍ واضْطرابٍ كالفائت بعضُه بَعضًا فلا يَتساوَى،

= يَغفِرَ الذُّنوبَ لِمَن عصَى إلّا اللّه، فدَعوى الرُّبوبيّةِ لها وجوهٌ مِن جُملَتِها أنْ يَعتقدَ الإنسانُ أنَّ للعبدِ حَقَّ مَغفرةِ الذنوبِ، فالّذِي يقُولُ لِشَخصٍ: «اعترِفْ عِندِي بذُنوبِكَ أنا أغفِرُها لك» فقَد ادَّعَى الأُلوهيّةَ لِنَفسِه لأنّ ذلكَ لا يكُونُ إلّا للّهِ تعالَى».

(١) روَى البُخاريّ في «صحيحِه» وغيرُه عن أبي بكرٍ الصدّيقِ رضي اللّه عنه أنّه قال للنّبيّ ﷺ: علّمْني دُعاءً أدعُو به في صَلاتي، قالَ: «**قُل: اللَّهُمَّ إنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثيرًا، ولَا يَغفِرُ الذُّنُوبَ إلّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِن عِندِكَ وَارْحَمْنِي، إنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ**».

(٢) وخازِنُ السّماءِ الأُولَى مَلَكٌ كريمٌ اسمُه إسماعِيلُ عليه السّلامُ. وقد جاء في حديثٍ عند الطّبرانيّ في «المُعجَم الكبير» مرفوعًا: «**إنَّ فِي السَّمَاءِ**» أي الأُولَى «**مَلَكًا يُقالُ لَهُ إسْمَاعِيلُ عَلَى سَبْعِينَ أَلْفِ مَلَكٍ كُلُّ مَلَكٍ عَلَى سَبْعِينَ أَلْفِ مَلَكٍ**» (أربعة مليارات وتسعمائة مليون).

وإنْ كُنّا لا نُشاهِدُ إلّا السّماءَ الأُولَى التّي هي دُنيا بالنِّسبة للأرضِ ولكنّها على نِظامٍ مُتّسِقٍ في الشّكلِ واللَّونِ لا يَظهَرُ فِيها شُقوقٌ ولا يَحمِلُها عُمُدٌ.

والرَّحمنُ مِن أسماءِ اللهِ الخاصّةِ التّي لا يجوزُ تسمية غيرِه بهِ مُعرَّفًا أو مُنكَّرًا، ومعناه ذو الرَّحمةِ الشّامِلة التّي وَسِعَت الخلقَ في أرزاقِهم وأسبابِ معايشِهم ومصالِحِهم(١)، وبعِبارةٍ أُخرى يُقال: هو الكثيرُ الرَّحمةِ بالمؤمِنِ والكافِرِ في الدُّنيا وبالمؤمنِ خاصّةً في الآخِرة.

ولمّا أخبَرَ عن حالِ السّماءِ أمرَ بمُعايَنةِ ذلكَ فقال: ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ﴾

---

(١) روى مُسلِمٌ في «صحيحه» وغيرُه عن سَلمانَ الفارِسيّ رضي الله عنه أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «**إنَّ اللهَ خَلَقَ يومَ خَلَقَ السَّماواتِ والأَرضَ مِائَةَ رَحْمَةٍ، كُلُّ رَحْمَةٍ طِباقَ ما بَيْنَ السَّماءِ والأَرْضِ، فَجَعَلَ مِنها في الأَرضِ رَحْمَةً، فَبِها تَعْطِفُ الوالِدَةُ عَلَى وَلَدِها، والوَحْشُ والطَّيْرُ بَعْضُها عَلَى بَعْضٍ، فإذا كانَ يَوْمُ القِيامَةِ أَكْمَلَها بِهذِهِ الرَّحْمَةِ**» أي جعَلَ الرَّحمةَ الواحِدةَ الّتي أنزَلَها في الدُّنيا مضمومةً إلى الرَّحماتِ التِّسعةِ والتِّسعِينَ التي أخَّرَها للمؤمنِينَ في الآخِرة، أمّا الكافِرُون في الآخِرة ففي عذابٍ أبدِيّ غير مُنقطع ولا رَحمةَ لهُم ألبتّة.

قال الحافظُ النوويّ رحمه اللهُ في «شرح مُسلِم» (١٧/ ٦٨): «هذا الحديثُ مِن أحاديثِ الرَّجاءِ والبِشارةِ للمُسلمين، قال العُلَماء: لأنّه إذا حصَلَ للإنسانِ مِن رَحمةٍ واحدةٍ في هذه الدّارِ المَبنيّةِ على الأكدارِ الإسلامُ والقُرءانُ والصَّلاةُ والرَّحمةُ في قلبه وغيرُ ذلك ممّا أنعمَ اللهُ تعالى به، فكيفَ الظَّنُّ بمائةِ رَحمةٍ في الدّارِ الآخِرةِ وهي دارُ القَرارِ ودارُ الجَزاء».

أي اردُدْه إلى السّماءِ بعدما أُخبرت بأنه ليسَ فيها مِن تفاوُتٍ وعايِنْها ببصَرِك ﴿هَلۡ تَرَىٰ﴾ فِيها ﴿مِن فُطُورٖ ٣﴾ أي صُدوعٍ وشُقوقٍ وخُروقٍ، معناه إذا تأمَّلْتها لَم تَجِدْ فيها عَيبًا أو نَقصًا أو خَلَلًا لأنّ اللّهَ عزَّ وجلَّ شاء لَها أنْ تكونَ على تِلكَ الصِّفةِ.

وفي الآيةِ دليلٌ على اتّصافِ اللهِ عزَّ وجلَّ بصفةِ القُدرةِ وصِفةِ العِلم؛ فقَد أوجَدَ اللّهُ عزَّ وجلَّ السّماواتِ السَّبعَ بقُدرَته الأزليّةِ على ما بَيَّنَ مِن أوصافِها في الآيةِ، وأمّا دَليلُ اتّصافه عزَّ وجلَّ بالعِلم فقولُه: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾.

فائدة: قال الشيخُ المتكلِّمُ المفسّرُ فخر الدّين الرّازيّ رحمه اللّه: «دلائلُ التَّوحيد محصورةٌ في قِسمَين: دلائِلُ الآفاقِ، ودلائِلُ الأنفس؛ ولا شَكّ أنّ دلائِلَ الآفاق أجَلُّ وأعظَمُ كما قال تعالَى: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[1] [سُورة غافِر: ٥٧]، ولمّا كانَ الأمرُ كذلكَ لا جرَم[2] أمَرَ في هذِه الآيةِ بالفِكرِ في خَلقِ السَّماواتِ والأَرضِ لأنّ دِلالتَها أعجَبُ وشواهِدَها أعظَمُ، وكيفَ

(١) لمّا كان مُنكرُو البَعثِ يُجادِلُون في مسألةِ الإعادةِ بعدَ الموتِ أُقيمَت عليهم الحُجّة بأنّهم مُقرُّون بأنّ اللّهَ عزَّ وجلَّ خَلَقَ السَّماواتِ والأرض، والقادِرُ على خَلقِها معَ عِظَمِها ومَتانَتِها لا شكَّ أنّه قادرٌ على خَلقِ الإنسانِ الضّعيف الصّغيرِ الحَجمِ بالنّسبةِ لها.

(٢) أي لا شَكَّ.

لا نَقولُ ذلكَ ولو أنّ الإنسانَ نظَرَ إلى ورَقةٍ صَغيرةٍ مِن أوراقِ شجرةٍ رأى في تِلكَ الورَقةِ عِرقًا واحِدًا مُمتَدًّا في وسَطِها ثُمَّ يَتشعَّبُ مِن ذلِكَ العِرقِ عـرُوقٌ كَثيرةٌ إلى الجانِبَين، ثُمّ يَتشعَّبُ مِنها عـرُوقٌ دَقيقةٌ، ولا يَزالُ يَتشعَّبُ مِن كُلِّ عِرقٍ عُروقٌ أُخَرُ حتّى تَصيرَ في الدِّقّةِ بحَيثُ لا يَراها البَصرُ، وعِندَ هذا يَعلم أنّ لِلخالِقِ في تَدبيرِ تِلكَ الورَقةِ على هذه الخِلْقةِ حِكَمًا بالِغةً وأسرارًا عَجيبةً وأنّ اللّهَ تعالَى أودَعَ فيها قُوًى جاذبةً لغذائِها مِـن قَعرِ الأرضِ، ثُمّ إنّ ذلكَ الغذاءَ يجري في تِلكَ العُروقِ حتّى يَتوزَّعَ عـلَى كُلِّ جُزءٍ مِن أجزاءِ تِلكَ الورَقةِ جُزءٌ مِن أجزاءِ ذلكَ الغِذاءِ بِتَقديرِ العَزيزِ العَليم، ولو أرادَ الإنسـانُ أنْ يَعـرِفَ كَيفيّةَ خَلْقِ اللّه تِلكَ الورَقةَ وكَيفيّـةَ التَّدبيرِ في إيجادِهـا وإيداعِ القُوى الغاذيـةِ والنّاميةِ فِيها لعَجزَ عنـهُ[1]، فإذا عرَفَ أنّ عقلَه قاصِرٌ عـن الوُقوفِ على كَيفيّةِ خَلْقه تعالَى تِلـكَ الورَقةَ الصَّغيرةَ فحِينئذٍ يَقيسُ تِلكَ الورَقةَ إلى السَّـماواتِ مَع ما فِيها[2] مِن الشَّمسِ والقمرِ والنُّجوم، وإلى الأرضِ مع ما فِيها مِن البِحارِ والجِبالِ والمَعادِنِ والنَّباتِ والحيَوانِ، عرَفَ أنّ تِلكَ الورَقةَ بالنِّسـبةِ إلى هذه الأشـياءِ كالعدَمِ، فإذا عرَفَ قُصورَ عَقلِه عـن مَعرِفة ذلك الشيءِ

---

(١) وإنْ كانَ الباحِثُون قَد عكَفُوا على تَشريحِ النَّباتِ ودراسـةِ بِنيَتِها ووظائفِها بواسطةِ المِجهَرِ منذ نحوِ أربعِمائةِ سنَةٍ إلّا أنّ أحدًا مِنهُم لا يجرُؤ على ادّعاءِ أنّه أحصَى كُلَّ ما يتعلّق بذلكَ.

(٢) أي تحتَها، فإنّ السّماءَ الأُولى بعيدةٌ جدًّا مِن الشَّمسِ والقَمرِ والنُّجومِ.

الحقير[١] عرف أنّه لا سَبيلَ له ألبتّةَ إلى الاطّلاعِ على عجائِب حِكمةِ اللّهِ في خَلقِ السّماواتِ والأرضِ، وإذا عرَفَ بهذا البُرهانِ النيّرِ قُصورَ عَقلِه وفَهمِه عن الإحاطةِ بهذا المَقامِ لَم يَبْقَ معَه إلّا الاعتِرافُ بأنّ الخالِقَ أجَلُّ وأعظَمُ[٢] مِن أنْ يُحيطَ به وَصفُ الواصفِينَ ومَعارِفُ العارِفينَ، بل يُسلِّمُ أنّ كُلَّ ما خلقَه اللّهُ فِيه حِكَمٌ بالِغةٌ وأسرارٌ عظِيمةٌ وإنْ كان لا سبِيلَ له[٣] إلى مَعرِفتِها» اهـ. كلام الرّازيّ.

﴿ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ﴾ أي رُدَّه إلى السّماءِ مُعايِنًا لها ﴿كَرَّتَيۡنِ﴾ أي كَرّةً بعدَ كَرّةٍ وإنْ كَثُرَتْ[٤] ﴿يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ﴾ أي يَرجِعْ إليكَ بصَرُك أيُّها الرّائي ﴿خَاسِئٗا﴾ أي بعِيدًا مِن إيجادِ عيبٍ[٥] في السّماءِ ﴿وَهُوَ حَسِيرٞ ٤﴾ أي كالٌّ مُتعَبٌ مِن شِدّةِ النّظَرِ وكَثرةِ التأمُّلِ ومُراجَعةِ البصَرِ.

---

(١) أي الضّئيل القليل.

(٢) أي شأنًا وعظَمَةً لا حجمًا، لأنّ اللهَ عزَّ وجلَّ ليسَ حجمًا ولا يُشبهُ الأحجامَ ولا المخلوقاتِ بأيِّ معنًى مِن المَعاني.

(٣) أي لا طريقَ ولا وسيلةَ للإنسانِ.

(٤) ليسَ المرادُ بـ ﴿كَرَّتَيۡنِ﴾ الاقتِصارَ على التّثنيةِ بل بمعنَى التّكريرِ والتّكثيرِ، فهي كَرّاتٌ كثيرةٌ لا أنها كرّتانِ لا غيرُ، كما تقولُ «لَبَّيك» وتريدُ أنّك تُجيبُه وتُطِيعُه إجاباتٍ كَثِيرةً بعضُها إثرَ بَعضٍ. وقال الحَسَنُ البصريّ رضي اللّه عنه: «لو كرَّرْتَه مَرّةً بَعدَ مرّةٍ إلى يومِ القيامةِ لَم تَرَ فِيه فُطورًا».

(٥) بمعنَى أنّه يرجِعُ البصَرُ بعدَ مُعاينةٍ ولَم يجِدْ شيئًا مِن العَيبِ في السّماءِ لأنّه لا وجودَ لذلكَ فيها لا أنّ العَيبَ موجودٌ فيها وأنّ البصَرَ لَم يُدرِكه لِبُعدِ المسافةِ.

﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا﴾ أي جعَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ ﴿ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي القُربى مِن الأرضِ(١) مُزيَّنةً في عَينِ النّاظِرِ إليها ﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾ أي كواكِبَ مُضيئةٍ كأنّها السُّرج وهي النُّجومُ(٢) تُرى في اللّيلِ كأنّها جواهِرُ مُتلألِئةٌ مَركوزةٌ في سَطح السَّماءِ(٣) بصُورٍ بَديعةٍ وأشكالٍ عجيبةٍ على نمطٍ مُنتظمٍ رائقٍ تَحارُ في فَهمِه الأفكارُ.

﴿وَجَعَلۡنَٰهَا﴾ أي ولَم تُجعَل هذه النُّجومُ للزّينةِ والإضاءةِ فقط بل جعَلَها اللهُ أيضًا ﴿رُجُومٗا﴾ أي جعَلَ مِن هذه النُّجوم شُهُبًا مَرامِيَ ﴿لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ وهُم كفَرةُ الجِنّ، ترجُمُهم بها الملائكةُ، فالمصابيحُ الّتي زيَّنَ اللهُ بها السّماءَ الدُّنيا لا تَزولُ عن مَكانِها ولا يُرجَم بعَينِها بل يَنفصِلُ مِنها شِهابٌ(٤) تأخذُها الملائكةُ فترمِي بها الشَّياطِينَ الّذين يَسترِقُونَ السَّمعَ

---

(١) هي أقربُ السّماواتِ السّبعِ إلى أرضِنا وإلّا فهي بعيدةٌ مسافةَ خَمسِمائةِ عامٍ.

(٢) النَّجمُ هو الكوكبُ الطّالِعُ المُضيءُ الّذي يَبدُو للنّاظِرين لامِعًا في الفَضاءِ تحتَ السّماءِ. يُقال: نجَمَ الشيءُ يَنجمُ نُجُومًا إذا ظَهر، ومِنه: نجَمَ النَّباتُ، قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ﴾ [سُورة الرَّحمن: ٦] وأرادَ بالنَّجمِ هُنا ما يَنبُت على وَجهِ الأرضِ مِمّا لا ساقَ له يقُوم بها بخِلافِ الشّجرِ فإنّ لَه ساقًا يقُوم بها، و﴿يَسۡجُدَانِ﴾ هُنا بمعنَى يَنقادانِ أي كِلاهُما تحتَ مشيئةِ اللهِ وتصرُّفِه.

(٣) وهي في الحقيقةِ بعيدةٌ عن سَطحِ السّماءِ غيرُ مركُوزةٍ فيه ولكنّها تبدُو في عَينِ النّاظِر كأنّها سُرُجٌ مُضيئةٌ مُثبّتةٌ في سَطحِ السّماءِ مع أنّها مِن حيثُ الحقيقةُ في الفَضاءِ.

(٤) قالَ شيخُنا الإمامُ الهرريُّ رحمَه اللهُ: «النُّجومُ مُتحرِّكةٌ دائمًا مُنذُ =

مِن حديثِ الملائكةِ الّذين هُم تحتَ السّماءِ لا ملائكةِ السّماءِ، فيُقتَل الجنّيُّ أو يُخبِّلُه الشِّهابُ.

﴿وَأَعۡتَدۡنَا﴾ أي وقد هيّأ اللهُ عزَّ وجلَّ ﴿لَهُمۡ﴾ أي للشَّياطِين بَعدَ الإحراقِ بالشُّهبِ في الدُّنيا ﴿عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥﴾ في الآخِرة وهو أشَدُّ الحريق، والسَّعيرُ هو جهنَّمُ وهي لظَى والحُطَمةُ وسَقَرُ والجَحِيمُ والهاويةُ، كلٌّ مِن هذه الأسماءِ يُطلَق علَى الآخرِ ويُرادُ به المَكانُ الّذي أعدَّهُ اللهُ للعَذابِ في الآخِرة.

وكانتِ الشّياطِينُ قبل بِعثةِ رسولِ الله محمّدٍ ﷺ تَصعدُ إلى ما فوقَ الغَمامِ بمَسافةٍ مِن غيرِ أن يُمكَّنُوا مِن دُخولِ السّماءِ فيستَمِعُون إلى حديثِ بعضِ الملائكةِ الّذي يذكُرون فيما بينَهُم بعضَ ما أطلعَهُم اللهُ عليه مِن الأُمورِ المُغيَّبة عنِ العِبادِ وبعضَ ما أُمِروا بتدبيرِه مِن الوظائفِ المُوكَلةِ إلَيهِم، فلمّا بُعِثَ النّبِيُّ محمّدٌ ﷺ صارَ الشّياطِينُ

= خلَقَها اللهُ تعالَى، بَعضُها حركَتُه سَرِيعةٌ وبعضُها حرَكَتُه بطِيئةٌ، لا يُوجَدُ نَجمٌ ساكِنٌ أبدًا حتّى هذا النَّجمُ الّذي يُستدَلُّ به في الأسفارِ يُقالُ له القُطبُ الشَّماليُّ، والنَّجمُ الآخَرُ الّذي يُقال القُطبُ الجَنُوبِيُّ كذلكَ، هذانِ يَتحرَّكانِ، مَن راقبَهُما أربعَ ساعاتٍ خَمسَ ساعاتٍ سِتَّ ساعاتٍ يرى حركتَهُما. بعضُ النُّجوم في حركةٍ بطيئةٍ فيُظَنُّ أنّها ثابتةٌ عِندَ النّظرِ إليها وهي في الحقيقةِ مُتحرِّكةٌ، وبعضُها حركتُه سَرِيعةٌ عِندَ المَغرب تُرَى في جِهةٍ وعِندَ الصُّبحِ في جهةٍ أُخرى».

يُرمَونَ بالشُّــهبِ فانقطعُوا عن ذلكَ، قال اللهُ تعــالَى إخبارًا عن قولِهم: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾ أي قصَدْنا الدُّنوَّ مِنها لاستِراقِ السَّمعِ مِن حديثِ الملائكــةِ بعدَ مَبعــثِ محمّــدٍ ﷺ ﴿فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا﴾ ملائكةً حافظِينَ ﴿وَشُهُبًا ٨ وَأَنَّا كُنَّا﴾ قبلَ مَبعَثِه ﴿نَقْعُدُ مِنْهَا﴾ أي نجِدُ لَنا مِن تحتِها ﴿مَقَٰعِدَ﴾ أي أماكِنَ لا نُرمَى فيها بالشُّهبِ فنقعُد هُنالِكَ ﴿لِلسَّمْعِ﴾ أي لاستِراقِ السَّمعِ مِن حديثِ الملائكةِ فيما بينَهُم ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ﴾ بعــدَ بعثةِ محمّــدٍ ﷺ ﴿لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ٩﴾ أي راصِدًا له يصدُّهُ عن الاستِماعِ، إمّا أن يَقتُلَه أو يُخبِّلَه.

فصارَ بعدَ ذلكَ الشّــياطِينُ يَطلُعون ناحِيةَ الغَمامِ مُتخفِّينَ فيسترِقونَ السَّــمعَ مِن حديثِ بعضِ المَلائكةِ الّذين عِندَ السّــحابِ مِن غيرِ أن يتنبَّهُــوا لهُم، ويكونُ مِــن حديثِ الملائكةِ ما أطلعَهــم اللّهُ عليهِ مِن بعضِ حوادِثِ الدُّنيا الّتي تحصُلُ الآنَ أو فيما بَعدُ، ثمّ هؤلاءِ الشّياطِينُ يَذهَبُون فيُخبِرُون بعضَ النّاسِ بما سَمِعُوا ويُضِيفُون إلى ذلكَ الأكاذِيبَ أضعافًا، وهذا معنَى ما رواهُ البُخاريّ في «صحيحِه» عن عائشةَ رضي اللّه عنها أنّها سَمِعَتْ رسولَ اللّه ﷺ يقول: «**إِنَّ المَلائِكَةَ تَنْزِلُ فِي العَنَانِ - وَهُوَ السَّحَابُ**[1] **- فَتَذْكُرُ الأَمْرَ قُضِيَ فِي السَّماءِ**[2]**، فَتَسْتَرِقُ الشَّيَاطِينُ**

(١) هو تَفسيرٌ مِن الرّاوي للعَنانِ أدرجَه في مَتنِ الحدِيث، قاله الشَّمس البِرْماويّ والسُّيوطيّ والقسطلّانيّ.

(٢) أي يُحدّث بعضُ الملائكةِ بعضًا عِندَ السَّــحابِ بما أُطلِعُوا عليهِ وهُم في=

السَّـمْعَ[١] **فَتَسْـمَعُهُ، فَتُوحِيهِ**[٢] **إِلَى الكُهَّانِ**[٣] **فَيَكْذِبُـونَ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ**[٤] **مِن عِنْدِ أَنْفُسِهِم»**.

فائدة: اعتمَد النّاسُ على النُّجومِ للاهتِداءِ لا سيّما العربُ القُدامَى، سواءٌ

= السّـماءِ مِن الحوادِث التي تقَعُ في الدُّنيا، وليسَ معنَى قولِه ﷺ: «**قُضِيَ فِي السَّـماءِ**» أنّ اللهَ يكونُ حالًّا في السّماءِ فيَقضِي بِما يكُون، حاشا للهِ وتقدَّسَ عن ذلكَ، فاللهُ عزَّ وجلَّ موجودٌ أزلًا وأبدًا بلا مَكانٍ ولا جِهةٍ ولا كَيفٍ، لا يحُـلُّ في مَكانٍ واحِدٍ ولا في جميعِ الأمكنة، وقد قدَّرَ تعالَى في الأزَلِ حُصولَ كُلِّ ما يكونُ في العالَمِ، فلمّا خلَقَ اللهُ الماءَ والمَكانَ والزّمانَ والعرشَ والقلمَ الأعلَى واللَّوحَ المحفوظَ أمرَ عزَّ وجلَّ القلَمَ قَبلَ خَلقِ السّـماواتِ والأرضِ بخمسـينَ ألفَ سنةٍ أنْ يُثبِتَ في اللَّوحِ المحفوظِ كُلَّ ما يكونُ في الدُّنيا إلى نِهايَتِهـا، ومِن جُملةِ ذلكَ ما أُطلع عليهِ الملائكةُ وهو بعضُ الغَيبيّاتِ، أمّا الغيـبُ كُلُّه فلا يَعلَمُه أحَدٌ إلّا اللهُ عزَّ وجلَّ، قال اللهُ تعالى: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [سُورة النَّمل: ٦٥].

(١) أي تسمَعُ مُستخفِيةً.

(٢) أي تُلقِي المسموعَ.

(٣) جمـعُ كاهِن وهـو الّذي يَتعاطَى الخـبَرَ عن الكائناتِ في مُسـتقبَلِ الزَّمانِ ويدَّعِي مَعرِفةَ الأسرارِ المُغيَّبة، وتُسـمَّى حِرفةُ مَن يَتكهَّنُ «الكَهانَة» بفَتحِ الـكاف وكَسرِها. والحُكمُ في دِيـنِ اللهِ أنّه إنِ ادَّعَى الفاسِـقُ أنّه يُطْلَعُ على غيبٍ واحِدٍ فقَد كفَر باللهِ العَظِيم، فإنّه لا يُطلَع على شيءٍ مِن المُغيَّباتِ إلّا نَبِيٌّ وملَكٌ ووَلِيٌّ، أمّا جميعُ الغيبِ فلا يَعلَمُه أحَدٌ إلّا اللهُ عزَّ وجلَّ.

(٤) بفَتحِ الكافِ، وفي بعضِ نُسَخِ البُخاريّ بكَسرِها.

النُّجومُ المُنفرِدةُ أو المَجموعاتُ النَّجمِيّة؛ فاعتمَدُوا على النَّجمِ القُطبيّ في تَحدِيد جِهةِ الشَّمالِ، ونَجمَيْ سُهَيلٍ والشِّعرَى اليَمانِيةِ في تَحدِيد جهةِ الجَنُوبِ، وبنات نَعشٍ الكُبرَى والثُّريّا وغيرهما مِن المجموعاتِ النَّجمِيّة وبرُوج الشّمسِ ومَنازِل القمرِ الّتي سبَق ذِكرُها في تَفسِير سورةِ يس.

فكان إذا أراد أحدُهم أنْ يَقصِد مِن الحِجازِ بلَدًا في ناحيةِ المَشرِق كأفغانِستانَ مَثلًا استقبَل مَنازِلَ الشَّمسِ والقمَرِ وجعَل النَّجمَ القُطبِيَّ وبَنات نَعشٍ الكُبرَى على يَسارِه والشِّعْرَيَينِ اليَمانِيَةَ والشامِيّةَ وسُهَيلًا عَلَى يَمِينِه، وإنْ كان مَقصِدُه بلدًا في ناحيةِ المَغرب استَدبَر منازِلَ القمَرِ وجعَل النَّجمَ القُطبِيَّ وبنات نَعشٍ على يَمِينه والشِّعْرَيَين وسُهَيلًا على يَسارِه، وإنْ كان مَقصِدُه بلدًا في ناحِيةِ اليمَنِ جعَل مَنازِلَ القمَرِ على يَسارِه والنَّجمَ القُطبِيَّ وبنات نَعشٍ وراءَه وسُهيلًا أمامَه، وإن كان مَقصِدُه بلدًا في ناحيةِ الشّامِ جعَل مَنازِلَ القمَر على يَمِينه والنَّجمَ القُطبِيَّ وبنات نَعشٍ أمامَه وسُهَيلًا وراءَه.

ولمّا أخبَرَ اللهُ عزَّ وجلَّ عن تَهيئةِ العَذابِ للشّياطِينِ خُصوصًا أكَّدَ أنّ العذابَ في الآخرة شامِلٌ للكافرِين المُكلَّفِين عُمومًا فقال تعالَى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾ أي ولِكُلّ مَن كفَرَ باللهِ وماتَ على ذلكَ مِن المُكلَّفِين مِن إنسٍ وجِنٍّ ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ في الآخِرة، مَقرُّهم الطّبَقةُ السُّفلَى في جهنَّم ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٦﴾ أي قبُحَ المرجعُ الّذي صارُوا إليه خالدِين في عذابٍ مُستمِرٍّ إلى ما لا نِهايةَ له.

فائدة: الطّبَقةُ السُّفلَى في جهنَّم مُستقرُّ الكُفّار لا يَبلُغُها عُصاةُ المُسلمِين، قال اللهُ عزَّ وجلَّ في سُورة النِّساءِ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ أي في الإيمان ﴿فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ﴾ أي الطّبَقةِ السُّفلَى ﴿مِنَ ٱلنَّارِ﴾ مع عامّةِ الكافرِين غيرِ المنافقِينَ في عذابٍ دائمٍ دائِبٍ لا يَخِفُّ ولا يَنقطِعُ، والدَّرْكُ الأسفَلُ الطّبَقةُ الّتي بينَها وبينَ أعلَى جهنَّمَ مسافةُ سبعِينَ عامًا، أمّا أبو طالِبٍ عمُّ رسولِ الله ﷺ فإنّه وإنْ كانَ كافِرًا مُخلَّدًا في النّارِ إلّا أنّ اللّهَ جعَل جزاءَه مِن نارِ جهنَّمَ أنّها تأخُذُ مِنهُ إلى القدَمِ فقَط، فلا يُدخَلُ المَكانَ الّذي هو بَعدَهُ في النُّزولِ مَسافةَ سَبعِينَ عامًا كغَيرِه مِن الكُفّار، أمّا غيرُه مِن الكافرين فلا بُدَّ أنْ يَصِلُوا إلى الدَّرْكِ الأسفَلِ مِن النّارِ كما يُفهَم مِن قولِ رَسولِ اللّهِ ﷺ: «**هُوَ فِي ضَحْضاحٍ مِنْ نارٍ**[١]، **وَلَوْلا أَنا لَكانَ فِي الدَّرْكِ**[٢] **الأَسْفَلِ مِنَ النّارِ**»[٣]، وفي حديثٍ ءاخَر عِندَ مُسلمٍ

---

(١) أي ما يَبلُغ الكَعبَين.

(٢) والعرَبُ تُسمِّي الطبقاتِ المُتعالِيَةَ درَجاتٍ، والمُتسفِّلةَ درَكاتٍ.

(٣) قال شيخُنا رحمه الله: «قول بعضِ شُرّاحِ الحديث: «بابُ شَفاعةِ النّبيِّ ﷺ لِأَبِي طالِبٍ» سَمَّوهُ شَفاعةً لا بمعنَى الشّفاعةِ في الآخِرة، وكان لا يَنبغِي أن يُقالَ هذا لِقولِه تعالَى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [سُورة الأنبياء: ٢٨]، ليسَ شَفاعةً مِن النّبيِّ لأبِي طالِب، إنّما مِن أجلِ صَنيعِه بالنّبيِّ ﷺ في الدُّنيا كَتبَ اللّهُ له أن يكُون عَذابُه هذا القَدْرَ، فالتّعبيرُ بالشّفاعةِ هنا مِن هؤلاءِ لا مَعنَى له».

وأمّا ما يَلهَج به بعضُ النّاسِ مِن أنّ النّبيَّ ﷺ قال: «**أَنا وَكافِلُ** =

عن ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنهما أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «**أهْوَنُ أَهلِ النّارِ عذابًا أَبُو طالِبٍ وَهُوَ مُنْتَعِلٌ بِنَعْلَيْنِ يَغْلِي مِنْهُما دِماغُهُ**» ومعَ هذا فإنّه لا يُخفّف عنه بل يَبقى على هذِه الحالِ أبَدَ الآبدِين، قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم

= **اليَتيم في الجنَّة**» وأنّ أبا طالِبٍ كان كافِلًا النّبيَّ ﷺ في الدُّنيا فيكونُ معَه في الجنّة، فلا معنَى له، وإلّا فعلَى قولِهم يكونُ فِرعونُ في الجنّةِ لأنّ فِرعَون ربَّى مُوسَى حين كان طِفلًا. وكذلك لا عِبرةَ بقولِ بعضِهم: «إنّ أبا طالِبٍ كان مُؤمِنًا لكنّه لَم يَنطِق بالشَّهادتَين» إذْ ثبتَ في الحديثِ أنّ عليًّا رضي الله عنه جاءَ إلى النّبيّ ﷺ فقال: إنّ عَمَّك الشَّيخَ الكَافِر قد مات، فما تَرى فيه؟ قال: «**أَرى أنْ تُغسّله وتُكفّنه**» ولَم يَقُل له رسولُ الله ﷺ أنْ تدفِنه في مَقابِرِ المسلمين لأنّه ماتَ كافرًا ولَم يُنكِرْ رسولُ الله ﷺ على عليّ رضي الله عنه قولَه ذلكَ، وصحَّ في روايةٍ أُخرى أنّ عليًّا رضي الله عنه قال: إنّ عَمَّك الشّيخَ الضَّالَّ قد ماتَ، وفي روايةٍ ثالثةٍ عند ابن الأعرابيّ: «إنَّ عَمَّكَ الضَّالَّ المُشْرِكَ قد تُوُفّي».

فبعدَ إقرارِ رسولِ الله ﷺ بأنّ أبا طالِبٍ كافِر لا اعتبارَ لِقولِ مَن يقول إنّ أبا طالِبٍ ناجٍ. ثُمّ ما المانعُ عقلًا أنْ يكُون عمُّ رسول الله مِن الكافرينَ؟! فليسَ في ذلكَ طعنٌ في رسولِ الله ﷺ ولا جرحٌ في عِصمَته الشّريفةِ ﷺ، وقد نَصَّ القرءانُ الكريمُ على أنّ والِدَ سيّدِنا إبراهيمَ ﷺ كان اسمُه ءازر وماتَ كافِرًا، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ﴾ [سُورة التَّوبة: ١١٤]، وفي القُرءان ءاياتٌ كثيرةٌ صرَّحتْ بأنّه كان أباه، حتّى وعلى القولِ المرجوحِ الّذي ذهَبَ إليه بعضُ المفسّرين بأنّ المرادَ به جَدُّه فالجَدُّ أبٌ أعلَى، والوالدُ والجَدُّ أقربُ مِن العَمّ إلى المَرءِ.

مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ﴿٣٦﴾ ﴾ [سُـورة فاطِر: ٣٦] فأكَّد عزَّ وجلَّ بأنّ كُلَّ كَفُورٍ ينالُه المذكورُ وهو عذابُ النّارِ الّذي لا يَنقطِعُ ولا يُخفَّفُ، وكفَى بصَريح نَصّ كِتابِ اللهِ دَليلًا، فلا يجوزُ أنْ يُقال: «إنّ عذابَ أبي طالِبٍ يُخفَّف عنه» بل يُقال: «عَذابُه أخفُّ مِن عذابِ غيرِه مِن الكافِرين»(١)، وكُلُّ كافِرٍ عدُوٌّ للهِ مُخلَّدٌ في النّارِ(٢).

ثُمّ ذكَـرَ اللهُ عزَّ وجلَّ بعضَ أحوالِ جهنّمَ أجارَنا اللهُ مِنها فقال: ﴿ إِذَآ

---

(١) قال ابنُ عرَفة في «تفسـيره» (١/ ١٩٣): «إنّ العَذابَ الّذي اسـتَحقَّه أبو طالِبٍ وأبو لهَبٍ ونزَل بهِما لا يُخَفَّف عنهُما بَل يُعذَّب أحَدُهما دُونَ عَذابِ غَيرِه».

(٢) قـال القاضي عِياضٌ رحمـه اللهُ: «انعقَد الإجماعُ عـلى أنّ الكُفّار لا تَنفعُهم أعمالُهم ولا يُثابُون علَيها بِنَعِيم ولا تَخفِيف عذابٍ لكِن بعضُهم أشَدُّ عَذابًا مِن بَعضٍ بحَسَبِ جَرائمِهم». نقله عنه النوويّ في «شرح مُسلم» (٣/ ٨٧)، والحافظ العسقلانيّ في «الفتح» (٩/ ١٤٥).
وقال القَسـطَلّاني في «إرشاد السّاري» (٨/ ٣١) رَدًّا على مَن قال بأنّ الكافِرَ قَـد يَنتفِعُ في الآخِرة بسـببِ عمَـلٍ صالِحٍ فَعلَه في الدُّنيـا: «**وهو مَردُودٌ بظاهِرِ قـولِ اللهِ تعـالى: ﴿ وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ﴾** [سُورة الفرقان: ٢٣]».
وقـال البَدرُ العَينيّ الحنفيّ في «عُمدة القاري» (٢٠/ ٩٥) ناقِلًا عن الحافظ ابنِ بَطّالٍ المالِكيّ مُقِرًّا لـه: «ومَذهبُ المحقِّقين أنّ الكافِر لا يُخفَّف عنه العَذابُ بسبَب حسَناتِه في الدُّنيا بل يُوسَّع علَيه بها في دُنْياه».

﴿أُلۡقُواْ فِيهَا﴾ أي وحِينَ يُكَبُّ الكُفّار على وجُوهِهم في جهنَّم ويُطرَحُون فيها كما يُطرَح الحطَبُ في النّارِ العظِيمةِ ﴿سَمِعُواْ لَهَا﴾ أي سمعَ الكُفّارُ لجهنَّم نَفسِـها ﴿شَهِيقٗا﴾ صوتًا مِن جوفِها فظِيعًا مُنكرًا[1] من شِـدّةِ توقُّدِها وغلَيانِهـا وتَغيُّظِها عليهِم ﴿وَهِيَ﴾ أي والحال أنّها ﴿تَفُورُ ٧﴾ أي تَغلي بِهِم كغلَيانِ قِدْرِ الماءِ بما فِيه.

﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ﴾ أي تَقـرُب مِن أنْ تَتقطَّع وتَتمزَّق ويَنفصِلَ بعضُها عن بَعضٍ ﴿مِنَ ٱلۡغَيۡظِ﴾ أي مِن شدّةِ تغيُّظِها على الكافرِين وغضَبِها عليهِم، ولكنّها لا تتمزَّقُ في الواقِع.

ولمّا ذكَرَ اللهُ عزَّ وجلَّ مِن صفاتِ جهَّنم هنا ثلاثةً: شَهيقَها، وفوَرانَها، وتغيُّظَها الشّديدَ على الكافرين أتْبعَ ذلك بذِكرِ بعضِ أحوالِ الكُفّارِ فيها فقـال: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا﴾ أي طُرِحَ وكُبَّ في جهنَّمَ ﴿فَوۡجٞ﴾ أي جَماعةٌ مِن الكُفّارِ ﴿سَأَلَهُمۡ﴾ فِيهـا ﴿خَزَنَتُهَآ﴾ أي زَبانِيةُ جهنَّمَ المُوكَلُونَ بتَعذِيب الكُفّارِ فيها سـؤالَ توبِيخٍ لهُم وتَقريعٍ وتَبكيـتٍ[2] لِيَزدادُوا عَذابًا فَوق عَذابٍ وحَسرةً علَى حَسرةٍ ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ﴾ في الدُّنيا ﴿نَذِيرٞ ٨﴾ أي مُنذِرٌ يُبلِّغُكم الرِّسالةَ ويُخوِّفكم بالنّارِ والعُقوبةِ على المُخالَفةِ والمعصِيةِ.

---

(١) أي قبِيحًا بَشِعًا.

(٢) التّقريع التّعنِيفُ وأن يقُـول الرّجُل في وجهِ الرّجُلِ عَيبَه: فعَلتَ كذَا وكذا، والتّبكِيـتُ قريبٌ مِنهُ وهو اسـتِقبالُ الرّجُل بما يَكـرَهُ، قاله الزّبِيديّ في «تاج العَروس».

فائدة: الزَّبانيةُ مأخوذةٌ مِن الزَّبْنِ وهو الدَّفعُ والصَّدمُ، وزبانية جَهنّمَ يَدفعُون الكُفّارَ إليها، وهُم ملائكةٌ كِرامٌ مُوكَلُون مع غيرِهم مِن ملائكةِ العذابِ بتعذِيب أهلِ النّارِ فيها، والزَّبانِيةُ اسمٌ خاصٌّ بالتِسعة عشَرَ ملَكًا بِما فيهِم مالِكٌ عليه السّلامُ رئيسُهم أو أنّهُم تِسعةَ عشَر سِواهُ، وتحتَهُم ملائكةُ العذابِ في جهنَّم، قال اللهُ تعالى: ﴿عَلَيْهَا﴾ أي قائمٌ بأمرِ التّعذِيب في جهنَّم ﴿تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ مِن الزَّبانِيةِ، وتحتَ كُلٍّ مِنهم ملائِكةٌ للعَذابِ كثِيرٌ[(١)].

وقَد جعَلَ اللّهُ عزَّ وجلَّ ذِكرَ عددِهم في القرءانِ فِتنةً لبعضِ النّاسِ المُكذِّبِينَ الكافرين فقالَ تعالَى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي لِيعلَموا[(٢)] أنّ ما أتى بِه محمّدٌ مُوافِقٌ لِمَا في كُتبِهم ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ شَكٌّ وهُم بالمدِينةِ ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ﴾ الّذين هُم بمكّة ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا﴾ العدَدِ ﴿مَثَلًا﴾ [سُورة المُدَّثِّر: ٣١]؛ وقد أخرَج الطّبَريّ عن ابن عبّاسٍ رضي الله عنهُما قال: لمّا سَمِع أبو جَهلٍ نُزولَ الآيةِ في شأنِ خزَنةِ جهنَّمَ: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾

---

(١) قال شيخُنا الإمام الهرريّ رحمه الله: «الكِبارُ مِن المَلائكةِ الّذين يُعذّبُون الكُفّارَ الزَّبانِيةُ التّسعةَ عشَرَ، وتَحتَهُم كَثيرٌ من الملائكة، الزَّبانيةُ هُم الأكابِرُ تَحتَ مالِكٍ خازنِ النّارِ، أمّا خُزّانُ الجنّة فلَم يَرِد حَصرٌ لعدَدِهم».

(٢) قال بعضُ المفسّرين: أي لِيَعلَم اليَهودُ المُكذِّبونَ لسيِّدِنا محمّدٍ ﷺ.

قال لِقُريشٍ: ثَكِلَتكم أُمّهاتُكم، أَسْمَعُ ابنَ أَبِي كَبْشَةَ[١] يُخبِرُكم أنّ خزنةَ النّارِ تِسعةَ عشرَ وأنتم الدَّهْمُ[٢]، أفيَعجِزُ كلُّ عشرةٍ مِنكم أنْ يبطِشوا برَجُلٍ مِن خزنةِ جهنَّمَ؟! وفي روايةٍ أنّه قال: أنا أكْفيكم سبعةَ عشرَ فاكْفُوني أنتم اثنَين. وفي القُرءانِ الكريمِ ردٌّ عليهِ مِن قولِه تعالَى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾[٣] أي ليسُوا كالبشرِ بل ملائكةٌ شَديدُون لا تؤثِّرُ فيهِمُ النّارُ، وقال تعالَى في سُورة التَّحريم: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾[٤] أي لا يَرحَمُون الكُفّارَ، وقيل: معناهُ ضِخامُ الحجمِ ﴿شِدَادٌ﴾ أي أقوياء.

وأخرجَ عبدُ اللهِ بنُ أحمدَ في «زَوائِد الزُّهد» عن أَبِي عِمرانَ الجَونيّ قال: «بلَغَنا أنّ خَزَنةَ النّارِ تِسعةَ عشرَ ما بَين مَنكِبِ أحدِهم مَسيرةُ مائتَي

---

(١) يعنُونَ النَّبيَّ ﷺ. وأبو كَبْشَةَ اسمُ رَجُلٍ كانَ قَديمًا فارَقَ دِينَ الجاهليّةِ وعَبدَ نَجْمَ الشِّعْرَى فشَبَّهَ المُشرِكونَ النَّبيَّ ﷺ به. وقيل: كانَتْ لِلنَّبيّ ﷺ أختٌ مِن الرَّضاعةِ تُسمَّى كَبْشَةَ وكانَ أبوهُ مِن الرَّضاعةِ يُكنَى بها. وقيل: كان في أجدادِه لِأُمّه مَن يُكنَى بذلك. وذَكَرَ بعضُهم أنَّ جَماعةً مِن جِهةِ أَبيه وأُمّه يُكنَونَ بأَبِي كَبْشةَ، قاله الملّا عليّ في «شرح الشّفا» (١/ ٥٩٠).

(٢) بفَتحِ الدّالِ العددُ الكثيرُ، أمّا الدُّهم بضمِّها فجمعُ أدهَمَ وهو الخيلُ الأسوَدُ.

(٣) أصحابُ النّار هُم خَزَنتُها وملائكةُ العَذابِ المُوكَلُون بتَعذِيب الكُفّار فيها.

(٤) أي علَى الكفّار.

خَريفٍ، ليسَ في قلوبِهم رحمةٌ[١] إنّما خُلقُوا للعَذابِ، ويَضربُ المَلَكُ مِنهُـم الرّجُلَ مِن أهلِ النّارِ الضَّرْبـةَ فيَترُكُه طَحنًا مِن لَدُن قَرْنِه[٢] إلى قَدمه».

وَمن شِدَّةِ ملائكةِ العذابِ في النّارِ أنَّ واحدَهم يضُمُّ ناصِيةَ الكافِرِ إلى قدَمِه فيَكسِرُ له ظَهرَه وذلك عليَه هَيِّنٌ، وقـد رُوي أنّه يأخُذ أحدُهم سَـبعينَ ألْفًا مِن الكافرين في كَفِّه ويَرمِيهم حيثُ أرادَ مِن جهنَّمَ، هذا معَ ما يكُون مِن ضَخامةِ جسَـدِ الكافرِ في النّـارِ أجارَنا اللهُ مِنها؛ فقد ورَد في الحديثِ أنّ ما بينَ عاتِقِ الكافرِ الأيمَنِ والأيسَرِ مَسيرةُ ثلاثةِ أيّامٍ، وأنّ سَمْكَ جلدِه اثْنانِ وأربعُون ذِرعًا بالذِّراعِ العظِيمةِ، وأنّ مَقعدَه مِن النّارِ كما بَينَ مكّةَ والمدينةِ مِن المَسـافةِ، وأنّ حَجمَ الضِّرسِ الواحدِ مِن أضراسِه كجبَلِ أحُدٍ، نسألُ اللهَ الوِقايةَ مِن النّارِ.

ثُمّ إذا سـألَ خزَنةُ جهنَّمَ كُلَّ فوجٍ يُلقَى فيها مِن الكُفّارِ سـؤالَ توبيخٍ وإقامة للحُجّة عليهم: أَمَـا جاءَكُم في الدُّنيا مُنذِرٌ يُحذِّرُكم مِن عذابِ الآخِرة ﴿قَالُواْ﴾ أي كُلُّ فَوجٍ مِن الكَفرةِ مُجِيبًا المَلائكةَ: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا﴾ أي في الدُّنيا ﴿نَذِيرٌ﴾ أي مُنذِرٌ وأنْذرَنا ﴿فَكَذَّبْنَا﴾ ذلكَ النَّذِيرَ وما جاءَ بِه ﴿وَقُلْنَا﴾ في شـأنِ ما تَلاهُ عَلينا المُنذِرُون مِن الآياتِ والأحكامِ الّتي أنزَلَهـا اللهُ ﴿مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾ على أحَدٍ ﴿مِن شَيْءٍ﴾ مِمّا تقُولونه أيُّها المُنذِرُون

---

(١) أي على الكافرين.

(٢) أي رأسِه.

﴿إِنۡ﴾ أي ما ﴿أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ أي بُعدٍ عن الحقّ ﴿كَبِيرٖ ٩﴾ ويحتمِلُ أن تكونَ الخزَنةُ قالتْ للكافرين بعدَ شهادتِهم على أنفسِهم: «ما أنتم إلّا في ضَلالٍ» أي هَلاكٍ كبيرٍ، وسَمَّوا جزاءَ الضَّلالِ باسْمِه كما سُمِّيَ جَزاءُ السَّيِّئةِ سيِّئةً في قولِه تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾[1] [سُورة الشُّورى: ٤٠]، ويُسمَّى هذا في عِلمِ البلاغةِ المُشاكَلة[2].

---

(١) أُطلِقَتِ السَّيِّئةُ على الثّانيةِ مع أنّ المُرادَ بها الجزاءُ والقِصاصُ المشروعُ المأذونُ فيه.

(٢) هي اصطلاحٌ بلاغيٌّ يُفيدُ ذِكرَ الشيء بلَفظِ غيرِه لِوُقوعِه في صُحبتِه، كما جاء في قولِه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ١٤ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ﴾ [سُورة البقرة: ١٤-١٥]، فمعناه: اللهُ يجازيهم، فجيء بلَفظٍ مُشاكِلٍ للَّفظِ الأوّلِ لكن على معنَى المُجازاة.

قال شيخُنا الإمام الهرريّ رحمه الله: «هذه الآيةُ نزلَتْ في المنافقِين لأنّهم كانوا حِينَ يجتمِعُون بأمثالِهم يَتكلَّمُون ببُغضِ الإسلامِ وكراهِيَتِه، فأخبرَنا اللهُ أنّه يُجازيهم بما يَليقُ بهم، وهذه المُجازاةُ سَمّاها استِهزاءً. لكن لا يجوزُ أن يُسمَّى اللهُ «مُستهزِئًا» حاشاه، فمَن قال: يَجُوز تسميةُ اللهِ مُستهزِئًا كفرَ لأنّه استخفَّ باللهِ وجوّزَ أن يُدعَى اللهُ بقولِ: «يا مُستهزِئُ» والعياذُ بالله. وكذلكَ لا يجوزُ أن يقال في حقِّ اللهِ: «يا مُخادِعُ» أو «يا ناسِي» أو «يا مُستَهزِئُ» أو «يا ماكِرُ»، فمَن قال يجوزُ تسميةُ اللهِ بذلكَ فقد كفرَ والعياذُ بالله».

وسُئِلَ شيخُنا رحمه الله: إنْ قِيلَ لنا: العربُ تقولُ: ظَلَمَني فُلانٌ فظَلَمْتُه أي جازَيْتُه علَى ظُلمِه، واللهُ يَقولُ ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ والسَّيِّئةُ الثّانيةُ هي المُجازاةُ علَى الظُّلمِ، فلِمَ لا يجوزُ أنْ نَقُول: «اللهُ يَظلِمُك =

ولمّا اعترَفَ الكفَرة بِما كانَ مِنهُم في الدُّنيا مِن تكذِيب الرُّسُل أعْقَبُوه باعترافِهم بجهلِهم مُتحسِّرِين ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا﴾ في الدُّنيا ﴿نَسْمَعُ﴾ مِن

=كما ظَلَمْتَنِي» على هذا المعنَى أيضًا؟

فأجابَ رحمه اللَّه: «لا يُقاسُ الخالِقُ علَى المَخلُوقِ».

قال الفقيه الأصوليّ بدر الدّين الزَّركشيّ في «تشنيف المَسامع» (٤/ ٤٠٦): أي شرعًا وعقلًا، أمّا شرعًا فلِقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [سُورة النِّساء: ٤٠]، وقولِه تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [فُصِّلَت: ٤٦]، وقولِه: ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ [سُورة هُود: ١٠١] وذلكَ لِحقيقةٍ عميَتْ عنها الأبصارُ، وقولِه أيضًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا﴾ [سُورة يُونس: ٤٤]، فتمَدَّح سبحانه وتعالى بنفي الظُّلم عنه، فلا يجوز زوالُه (أي زوالُ نفيِ الظُّلم) عنه كما لا يجوز نَفيُ ما أثبَتَهُ لنَفسِه مِن النُّعوت والصِّفات، كذلك ما نَفاهُ عنه مِن النَّقائِص، وفي الحديثِ الصّحيح: «يا عِبادِي إِنّي حَرّمتُ الظُّلمَ عَلَى نفسِي» (أي تنزَّهْتُ عنه)، وأمّا عَقلًا فلِأَنَّ الظُّلمَ إنّما صار ظُلمًا لأنّه مَنهِيٌّ عنه، ولا يُتصَوَّر في أفعالِه تعالَى ما يُنهَى عنه، إذْ لا يُتصَوَّر له ناهٍ، ولأنّ العالَم خَلقُه ومِلكُه، والمُتصَرِّف في مِلكِه يَستحيلُ وَصفُه بالظُّلم، وأيضًا فلا يُتصَوَّر إلّا علَى مَن يُتصَوَّر في حقّه الجهلُ لأنّه وَضعُ الشيء في غَيرِ مَوضِعه، وأمّا مَن أحاط عِلمُه بالأشياءِ ومواقِعها فلا، والمُخالِفُ في هذه المسألةِ القَدريَّةُ قالوا: «إنّ القَدِيمَ يَصِحُّ منهُ الظُّلمُ لكنْ لا يَظلِمُ لِكَونه قَبيحًا». قال الشّيخُ أبو إسحاقَ: وفي هذا إسقاطٌ لِمَا يُشيعُونَه عَن أهلِ الحَقّ أنهم يَنسُبُون إليه فِعلَ القَبائِح، تَعالَى اللَّهُ عَن ذلِكَ عُلُوًّا كَبيرًا» اهـ. وتجويزُ القدريّة وغيرِهم الظُّلمَ على اللَّه كُفرٌ مِنهُم.

المُنذِرينَ - الرُّسـلِ والدُّعاة إلى الحَقِّ - سمَاعَ قَبُولٍ للهُدَى ﴿أَوْ﴾ كُنّا ﴿نَعْقِلُ﴾ـه عقلَ مُتأمِّلٍ له على الوجهِ الصّحيح ﴿مَاكُنَّا﴾ اليومَ في الآخِرةِ ﴿فِيٓ﴾ جُملـةِ ﴿أَصْحَٰبِ﴾ أي أهلِ ﴿ٱلسَّعِيرِ ١٠﴾ جهنَّمَ المُشـتمِلةِ على النّارِ المُسعَّرةِ أي المُوقدَةِ أشَدَّ التّسعِيرِ المُتناهيةِ في الحَرارةِ.

﴿فَٱعْتَرَفُواْ﴾ أي الكُفّار ﴿بِذَنۢبِهِمْ﴾ أي بذُنوبِهـم حين أَقَرُّوا بأنّهُم كانُوا يُكذِّبون المُنذِرينَ ﴿فَسُحْقًا﴾ أي فبُعْدًا[1] ﴿لِّ﴾ للكُفّارِ ﴿أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١١﴾ من رَحمةِ اللّهِ وكَرامَتِه[2].

وأخرَج ابنُ المُنذِر وابنُ أبي حاتمٍ عن سـعيدِ بنِ جُبَيرٍ رضي اللّه عنه أنّ السُّحْقَ وادٍ في جهنَّمَ[3].

وقد جعَلَ اللّهُ جهنَّمَ سـعِيرًا أي مُسعَّرةً مُتَّقِدةً أشدَّ الاتِّقادِ، وقد أُعِدَّتْ على هـذه الصِّفةِ، قال تعـالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ [سُـورة التّكوِير: ١٢]، وقَد فسَّرَ بعضَ ذلكَ حديـثٌ رواهُ الترمذيُّ والطَّبَرانيّ والبيهقيّ عـنْ أبي هُريرةَ رضي اللّه عنه عن النّبيِّ ﷺ قـال: «**أُوقِدَ علَى النّارِ أَلْفَ سَـنَةٍ حَتَّى احْمَرَّتْ، ثُمَّ أُوقِدَ عَلَيْها أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى ابيَضَّتْ، ثُمَّ أُوقِدَ**

---

(١) والتّقدير في ﴿فَسُحْقًا﴾: فأسْـحقَهُم اللّهُ سُـحقًا وإسْحاقًا أي باعدَهُم من رَحمتِه مُباعَدةً، والسَّحيقُ في اللُّغةِ البعِيدُ.

(٢) أي لا رَحمةَ لِمَن ماتَ كافِرًا ألبتّة.

(٣) ويكون التّقدير في ﴿فَسُحْقًا﴾: فألْزَمَهُم اللّهُ سُحقًا واديًا في جهنَّمَ.

عَلَيْها أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى اسْوَدَّتْ، فَهِيَ سَوْدَاءُ مُظْلِمَةٌ»[١].

وروى مالكٌ عن أبي هُريرةَ رضي اللَّه عنه قال: «أَتَرونَها حَمراءَ مِثلَ نارِكُم هذِه الّتِي تُوقِدُون؟! إِنَّها لَأَشَدُّ سَوادًا مِن القَارِ[٢]».

ولَم يُفصَّل في الحديثِ السّابقِ قُوّةُ حرارَتِها - وإنْ كانَ ذلكَ مفهومًا مِن مُدّةِ الإيقادِ المَديدةِ - لكن ثبتَ في حديثٍ ءاخرَ عِندَ الشَّيخَينِ في «الصّحيحَين» وغيرِهما عن أبي هُريرةَ رضي اللَّه عنه أنّ رسولَ اللَّه ﷺ قال: «**نارُكُم**[٣] **جُزْءٌ مِن سَبْعِينَ جُزْءًا مِن نارِ جَهَنَّمَ**»، قِيلَ: يا رَسولَ اللَّهِ إِنْ كانَتْ لَكافِيَةً[٤]، قال: «**فُضِّلَتْ**[٥] **عَلَيهِنَّ**[٦] **بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا**» الحديثَ[٧].

---

(١) قال التِرمِذيّ: «حدِيثُ أَبِي هُريرةَ في هذا مَوقوفٌ أَصَحُّ».

(٢) أي الزِّفتِ.

(٣) أي الّتي في الدُّنيا، فيَدخُل في ذلكَ أشَدُّ نارٍ خلقَها اللَّهُ في الدُّنيا.

(٤) أي ولو كانتْ هذه النّارُ الّتي في الدُّنيا عذابَ الكافرين لكَفَتْ، فكيفَ بِهِم إذا كانَ لَهُم نارٌ أشَدُّ مِن نارِ الدُّنيا بأضعافٍ كثيرةٍ، ولا شَكَّ أنّ الصحابةَ مُوقِنُون أنّ اللَّه عزَّ وجلَّ جعلَها على تِلكَ الصِّفةِ لِحكَمٍ هو أعلَمُ بِها.

(٥) أي ضُوعِفَتْ.

(٦) أي على نِيرانِ الدُّنيا.

(٧) جاءَ في روايةٍ أُخرى عِندَ أحمدَ: «**هَذِهِ النَّارُ جُزْءٌ مِنْ مِائَةِ جُزْءٍ مِنْ جَهَنَّمَ**»، واختلَفَ كلامُ الشُّرّاحِ، فالّذي ذهَبَ إليه عددٌ مِنهُم أنّه لا تَعارُضَ بينَ =

ولمّا ذكَرَ سُبحانَه وتعالَى بعضَ أحوال أهلِ النّارِ ذكَر صفةَ بعضِ أهلِ الجنّة فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ﴾ أي يخافونَ اللّهَ ﴿رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ أي في حالِ غيبَتِهم عن أعيُنِ النّاسِ فيُطِيعونَه سِرًّا وعلانيةً أو معناه يَخافُونَه ولَم يُعايِنُوا عذابَ الآخِرةِ أولئكَ ﴿لَهُم﴾ مِن رَبِّهم ﴿مَّغۡفِرَةٞ﴾ عظِيمةٌ ﴿وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١٢﴾ أي ثوابٌ عظِيمٌ في الآخِرة فضلًا مِن اللّهِ ورحمةً بحيثُ يَنسَون ما قاسَوه في الدُّنيا ويَنعَمُون بما هُم فيه مِن نعيمِ الجنّةِ الّذي لا يَنقطِعُ أبدًا.

وقد جاءَ في حديثِ جِبريلَ عليهِ السّلامُ أنّه سألَ رسولَ اللّهِ ﷺ تعليمًا للأُمّةِ فقال: فأَخبِرني عن الإحسانِ، فقالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «**أَنْ تَعْبُدَ اللّهَ كأنَّكَ تَراهُ، فإنْ لَم تَكُنْ تَراهُ فإنَّهُ يَراكَ**»، ومعناه أن تخشَى اللّهَ خَشيةً كاملةً كأنّكَ تَراهُ، إلّا أنَّ المُؤمِنَ وهو في الدُّنيا مَهمَا بلَغ في الولايةِ مَرتبةً عاليةً فليسَ يَرى ربَّه تعالَى الموجودَ أزلًا وأبدًا بلا مَكانٍ ولا جِهةٍ ولا يُشبِهُ شيئًا مِن خَلقِه، قال أبو بكرٍ الكَلاباذيُّ الحنفيّ في «التَّعرُّف لِمَذهب أهلِ التّصوُّف»: «وأجمَعوا أنّه لا يُرَى في الدُّنيا»، ونبَّه رسولُ اللّهِ ﷺ على التمسُّكِ بالتّقوَى فقال: «**فإنْ لَمْ تَكُنْ تَراهُ فإنَّهُ يَراكَ**» معناه اثبُتْ على فِعلِ ما يُرضي اللّهَ تعالَى خاشِعًا له خاضِعًا فإنّه عزَّ وجلَّ يَراكَ برؤيتِه الأزليّة الأبديّة وأنتَ والمرئيُّ المخلوقُ حادِثٌ.

ثُمّ نبَّه عزَّ وجلَّ عِبادَه أنّه عالِمٌ بخَفايا الأُمور مُطَّلِعٌ على السّرائِر فقال

= الرّوايتَين بِناءً على أنّ المُرادَ المُبالَغةُ في الكَثرةِ لا العَددُ الخاصُّ بالمائةِ.

تعالَى ﴿وَأَسِرُّواْ﴾ أيُّها النّاسُ ﴿قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓ﴾ أي سواءٌ أخفيتم كلامَكُم أو جهرتُم بهِ ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي اللَّهَ ﴿عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٣﴾ أي بما تُضمِرُه القُلوبُ الكائنةُ في الصُّدورِ وتُخفيه مِن خواطِرَ واعتقاداتٍ وظُنونٍ وغيرِها مِن خَفايا القُلوبِ، فَعِلمُه تعالَى شامِلٌ لِمَا يُضمِرُونَه في قُلوبِهم ولو لَم يَتكلَّمُوا، ولمّا كانَ عزَّ وجلَّ هو العالِمَ بمُضمَراتِ القُلوبِ جُملةً وتفصيلًا وَجَب عقلًا أن يكونَ سميعًا لِمَا تقولُونَه سِرًّا وجهرًا عالِمًا بذلكَ، لا يَحدُثُ له سَمعٌ عِندَ حُدوثِ المسموعِ بل سَمعُه صِفتُه الأزليّةُ وأمّا كلامُ الخَلقِ فحادِثٌ، وسواءٌ أَظْهَرَ المُضمِرُ كَلامَه أم لا فإنّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ يَسمَعُ كُلَّ المَوجوداتِ مِن أصواتٍ وغيرِها، وهو القولُ المُعتمَد عند الأشاعِرة[1].

ورُوِي عن ابنِ عبّاسٍ رضي اللَّهُ عنهُما أنّ الخِطابَ في الآيةِ للكُفّارِ، وسببُ نُزولِها أنّ الكُفّارَ كانُوا يَنالُونَ مِن رسولِ اللَّهِ ﷺ بالقَولِ هُزْءًا وتكذيبًا في غَيبَتِه فيُوحِي اللَّهُ عزَّ وجلَّ إليهِ ببعضِ ما قالُوا، فقال

---

(١) قال أبو شكُور السّالميّ في «التّمهيد» (ص/ ١٢٧): «قالتِ الجهميّةُ وصِنفٌ مِن المُعتزِلة: إنّ اللَّهَ تعالَى لَم يَعلَم الأشياءَ ما لَم يَخلُقْها، وهو لا يَعلَمُ المَعدُومَ، وهذا كُفرٌ؛ لأنّه لو لَم يَعلَم الأشياءَ قبلَ أنْ يَخلُقَها فلو أرادَ أنْ يَخلُقَها كيفَ يَعلَم أينَ يَخلُقُها وكَم يَخلُقُها ومتَى يَخلُقُها وكَيفَ يَخلُقُها، يكونُ في هذا تعطيلُ الألوهيّةِ، وهذا كُفرٌ. والصّحيحُ أنّ اللَّهَ تعالَى عالِمٌ على الكمالِ، يَعلَمُ الأشياءَ على ما هي عليه بَعدَ أنْ يَخلُقَ وقبلَ أنْ يَخلُقَ، ويَعلَمُ المَعلُومَ والمَوجُودَ».

بعضُهم لِبَعضٍ: «لا تَرفَعوا أصواتَكم فيَسمعَ إلهُ محمّدٍ» يُرِيدُون لئلّا يَعلَم ذلكَ على زَعمِهم، فنزلَتِ الآيةُ وأخبرَهُم عزَّ وجلَّ أنّهُ عالِمٌ بجَمِيعِ ما في قلُوبِهم ممَّا هو بإرادَتِهم كالاعتِقاد والتّصمِيم وما ليسَ بإرادَتِهم كالخَواطِر.

ثُمّ ذكَرَ عزَّ وجلَّ بعضَ ما يَدُلّ على كونِه عالِمًا بكُلّ شيءٍ فقال: ﴿أَلَا﴾ أي كيفَ لا ﴿يَعۡلَمُ﴾ السِّرَّ والجهرَ ﴿مَنۡ خَلَقَ﴾ أي مَن أوجَدَ بقُدرَتِه سائرَ الخَلقِ ﴿وَهُوَ﴾ وحدَه ﴿ٱللَّطِيفُ﴾ أي العالِمُ بدَقائِق الأمورِ وتَفاصِيلِها[1] ﴿ٱلۡخَبِيرُ ١٤﴾ العالِمُ بحَقائِق الأشياءِ وبَواطنِها.

ثُمّ عدَّدَ عزَّ وجلَّ بعضَ نِعَمِه على عِبادِه فقال: ﴿هُوَ﴾ أي وَحدَه الخالقُ ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ الّتي تَسكنُونَها[2] ﴿ذَلُولٗا﴾ أي مُذلَّلةً في غايةِ الانقيادِ يَسهُل علَيكُم أن تَسلُكُوا فيها لِتَبلُغوا مقاصِدَكُم، ولَو شاءَ اللّهُ

---

(١) وقال بعضُ العُلماءِ: اللَّطِيفُ مِن أسماءِ اللّهِ معناهُ الّذي يَلطُفُ بعِبادِه مِن حَيثُ لا يَعلَمُون، ويُسبِّبُ لهُم مَصالِحَهم مِن حَيثُ لا يَحتَسِبُون. وليُحذَر مِن اعتِقادِ الكفَرةِ الّذين يظُنُّونَ أنّ اللّهَ شيءٌ لطِيفٌ كالهواءِ في الجوّ أو أنّه نُورٌ بمعنَى الضَّوءِ أو رُوحٌ أو أنّه يُشبِهُ شيئًا مِن ذلكَ أو غيرِه مِن المخلوقاتِ، فمَن اعتقَدَ ذلك لَم يكُن مِن المُسلمِين وإنْ زعَمَ ما زعَم.

(٢) وقد جعَلَ اللّهُ عزَّ وجلَّ ستّةَ أرضِينَ أُخرَى سِوى أرضِنا هذه، ويَشهَدُ لذلكَ قولُ اللّه تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ﴾ [سُورة الطَّلاق: ١٢] أي سَبعًا مِن الأرَضِينَ أيضًا.

لجعَلَها عَسِرةً عليكُم غيرَ مُذلَّلةٍ فيَصعُب عليكُم المشيُ علَيها والسُّلوكُ فيها(١)، فقد ذلَّلَها لكُم مِنّةً ورحمةً وفضلًا ﴿فَٱمۡشُواْ﴾ أي فاسلُكوا ﴿فِي مَنَاكِبِهَا﴾ أي نَواحِيها وأطرافِها(٢) ﴿وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦ﴾ أي مِمّا خلَقَه اللّهُ عزّ وجلَّ لكُم رِزقًا حَلالًا ﴿وَإِلَيۡهِ﴾ أي إلى حِسابِه وجَزائِه وَحدَهُ ﴿ٱلنُّشُورُ ١٥﴾ أي بعثُكم مِن القُبورِ.

فائدة: الرِّزقُ عِندَ أهلِ السُّنّة والجماعةِ هو ما يَنتفِعُ به المَرزُوقُ مِن مأكولٍ وغيرِ مأكولٍ حَلالًا كانَ أو حَرامًا، والرّازِقُ والرزّاقُ هو اللّهُ عزّ وجلَّ، وخالَف في ذلكَ المُعتزِلةُ فقالوا: إنّ الحرامَ المُنتفَع بِه لا يُسمّى رِزقًا، قالوا: الرِّزقُ هو ما يَملِكُه الّذي يأكُلُه، وقال بعضُهم: هو ما لا يُمنَع مِن الانتِفاع به، فاعتبَرُوا أنّ الرِّزقَ لا يكونُ إلّا حلالًا، فلَزِمَهُم علَى التّعريفِ الأوّلِ أن يكونَ ما يَقتاتُه الدَّوابُ ليسَ برزقٍ وذلكَ مُصادِمٌ لقولِ اللّه تعالَى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ [سُورة هُود: ٦].

ثُمّ خوَّف اللّهُ عزّ وجلّ كُفّارَ مكّةَ فقال: ﴿ءَأَمِنتُم﴾ أي هل أمِنتُم أيُّها المُشرِكُون المكذِّبون ﴿مَّن﴾ أي الملائكةَ الكائنينَ ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾

---

(١) وقال بَعضُهم: ذَلَّلَها لكُم معناهُ جعلَها لَيِّنةً مُنبتةً يُمكِنُ فيها حفرُ الآبارِ وبناءُ الأبنيةِ وزرعُ الحُبوبِ وغرسُ الأشجارِ، ولو كانتْ صُلبةً لا تُعالَجُ لتعذّر عليهِم ذلك.

(٢) رُوي عن قَتادةَ والضّحاكِ وابنِ عبّاسٍ رضي اللّه عنهُم أنّ معناه: امشُوا في جِبالِها وتِلالِها فقد سهُل لكُم ذلكَ، فكيفَ الحالُ في سائرِ أجزائها.

المُوكَلِين بإرسالِ العذابِ على الكافرين ﴿أَن يَخۡسِفَ﴾ بعضُهم[(١)] ﴿بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ ويُغيِّبَكُم فيها بأمرِ اللَّهِ بَعدَما جعلَها اللَّهُ لَكُم ذلولًا تمشُــونَ في مَناكِبِهــا وتأكُلون مِن رِزقِه؛ وذلكَ بأنْ يَــضرِب الملَكُ بعضَها ﴿فَإِذَا هِيَ﴾ أي الأرضُ الّــتي أنتُم علَيها ﴿تَمُورُ ١٦﴾ أي تتحرَّك وتضْطَرِب مِن تحتِكُم ذهابًا ومَجيئًا ثُمّ تَهوي بِكُم هابِطةً إلى حيثُ شاءَ اللَّهُ[(٢)]. وقال بعضُهم: إذَا شاءَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ في الأزَلِ أنْ تَخْسَفَ بِهِمُ الأرضُ أَمرَ ملَكًا حَرَّكَ بِهِمُ الأرضَ فتَضْطرِبَ وتَتحرَّكَ حتّى تَعلُوَ علَيهم وهُم أسفل مِنها ذاهِبُون في جوفِها.

مِمّن حملَ تفسِــيرَ قولِه تعالَى: ﴿مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ على جِبريلَ عليهِ السّــلامُ الفقيــهُ الأصوليُّ المتكلِّــم إمامُ الحرمَين أبــو المَعالِي عبــدُ المَلِك بنُ عبد اللَّهِ الشــافعِيُّ الأشــعَرِيُّ (ت ٤٧٨ هـ) في كتابِه «الشّامِل في أصول الدّيــن»: «حملَه بعضُ المُتأوِّلِين على جِبريلَ؛ فإنّه الّذي جعَلَه اللَّهُ يجعَلُ قُرى (قوم) لُوطٍ عالِيَها سافِلَها واقتلَعها مِن حيثُ أرادَ اللَّهُ واحتمَلَها[(٣)] على قادِمةِ جَناحِه إلى أعناقِ السَّــماءِ، وهو المَعنِيُّ بِقولِه تعالى: ﴿ذِي قُوَّةٍ

---

(١) كجِبريلَ عليه السّلامُ.

(٢) وقــال بعضُ المفسّرين: معنَى الآيةِ: كيــفَ أَمِنتُم أيُّها الكافِرُون عذابَ اللَّهِ وأنتُم تُنكِرُونَ البَعثَ وتُكذِّبونَ رَسولَ اللَّهِ ﷺ؟!

(٣) أي جِبريلُ عليه السّلامُ.

﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾[(١)] [سُورة التكوير: ٢٠]، وهو المُوكَل بالتّدمِير على القُرونِ الخاليةِ[(٢)]».

قال المفسِّرُ المتكلِّمُ الشّيخُ فَخر الدّين الرازيّ الشافعيّ الأشعريّ رحمه الله في «تفسيره»: «واعلَم أنّ هذِه الآياتِ نَظِيرُها قولُه تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [سُورة الأنعام: ٦٥]، وقال: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ [سُورة القصَص: ٨١].

واعلَم أنّ المُشبّهةَ احتجُّوا علَى إثباتِ المَكانِ للهِ تعالَى بقولِه: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾، والجوابُ عنه أنّ هذِه الآيةَ **لا يُمكِنُ إجراؤُها على ظاهِرِها باتِّفاقِ المُسلمين**[(٣)]، لأنّ كونَه في السَّماءِ يَقتضِي كونَ السَّماءِ مُحِيطةً بِه مِن جَمِيع الجوانِب، فيكونُ أصغَرَ مِن السَّماءِ، والسَّماءُ أصغَرُ

---

(١) أي جبريلُ عليه السّلامُ ذو قُوّةٍ شَدِيدةٍ وله عِندَ اللهِ خالقِ العَرشِ شأنٌ مَكِينٌ أي درَجةٌ عاليةٌ، وليسَ معنى ﴿ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ أنّ اللهَ عزّ وجلّ يتّخِذُ من العرشِ مَكانًا، حاشا لله، فهو عزّ وجلّ خالقٌ للعالَمِ كُلّه بِما فيه ذلكَ العَرشُ، وليسَ اللهُ مُحتاجًا إلى شيءٍ، موجودٌ أزلًا وأبدًا بلا مَكانٍ ولا جهةٍ.

(٢) أي الأُمَمِ الماضيةِ مِن الكافرين الّذِين جاءَهُم عذابُ الاستئصال.

(٣) وممّن نقلَ الإجماعَ على ذلكَ القاضي عِياضُ المالكيُّ فِيما نقلَه عنه الحافظُ النوويّ في «شرح مُسلِم» فقال: «لا خِلافَ بَين المُسلمين قاطِبةً فقِيههم ومُحدِّثِهم ومُتكلِّمِهم ونَظّارِهم ومُقلِّدِهم أنّ الظواهِرَ الوارِدةَ بذِكرِ اللهِ تعالَى في السّماءِ كقولِه تعالَى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ ونَحوه ليسَتْ على ظاهِرِها بل مُتأوّلَةٌ عِندَ جميعِهم».

مِن العَرشِ بكثيرٍ، فيَلزَمُ أنْ يكُونَ اللّٰهُ تعالَى شيئًا حقِيرًا[١] بالنِّسبةِ إلى العَرشِ، وذلك باتِّفاقِ أهلِ الإسلامِ مُحالٌ، ولأنَّه تَعالَى قال: ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ ﴾ [سُورة الأنعام: ١٢]، فلَو كانَ اللّٰهُ في السّماءِ لوجَبَ أن يكُونَ مالِكًا لِنَفسِه وهذا مُحالٌ، فعَلِمْنا أنّ هذِه الآيَةَ يجِبُ صَرفُها عن ظاهِرِها إلى التأويلِ، وفيه وُجوهٌ:

أحدُها: أنْ يكُون تَقدِيرُ الآيةِ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ عَذابه، وذلكَ لأنّ عادةَ اللّٰهِ تعالَى جاريةٌ[٢] بأنّه إنّما يُنزِلُ البَلاءَ علَى مَن يَكفُر باللّٰهِ ويَعصِيه مِن السَّماءِ[٣]، فالسَّماءُ مَوضِعُ عَذابِه تعالَى كما أنّه مَوضِعُ نُزولِ رَحمتِه ونِعمَتِه.

ومِنها: أن يكونَ تقديرُ قولِه تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ سُلطانَه ومُلكَه وقُدرَتَه[٤]، والمُرادُ مِن ذِكرِ السّماءِ تَفخيمُ سُلطانِ اللّٰهِ وتَعظِيمُ

(١) أي صغِيرًا جِدًّا.

(٢) أي أَجرَى اللّٰهُ العادةَ بذلك.

(٣) قال اللّٰهُ تعالَى: ﴿فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ [سُورة البقَرة: ٥٩]، وقال عزَّ وجلَّ ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ﴾ [سُورة الأعراف: ١٦٢]، والرِّجزُ هنا هو العذابُ.

(٤) أي ءاثارَ ذلكَ، فصِفاتُ اللّٰهِ تعالَى الذاتيّةُ أزليّةٌ أبديّةٌ ليسَتْ حالّةً فِيه ولا في غَيرِه.

قُدرَتِه، كما قال تعالَى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ﴾(١) [سُورة الأنعام: ٣]، فإنّ الشيءَ الواحِدَ لا يكُون دُفعةً واحِدةً في مكانَين، فوجَب أنْ يكُون المرادُ مِن كَونه في السّماواتِ وفي الأرضِ نَفاذَ أَمرِه وقُدرَتِه، وجَريانَ مَشيئَتِه في السّماواتِ وفي الأرضِ، فكذَا ههُنا.

ومِنها: أن يكُون المرادُ بِقَولِه: ﴿مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ الملَكَ المُوكَلَ بالعَذابِ وهو جِبريلُ علَيه السّلامُ، والمعنَى أنْ يَخسِفَ بِهِم الأرضَ بأمرِ اللهِ وإِذْنِه» اهـ. كلام الرازيّ مُختصَرًا(٢).

ثُمّ خوَّفَ اللهُ عزَّ وجلَّ مُشركِي مكّةَ بِعَذابٍ ءاخَرَ فقال: ﴿أَمۡ أَمِنتُم﴾

---

(١) معناه هوَ الإلهُ والخالِقُ للسّماواتِ والأرضِ ومَن فيها، وليسَ معناهُ أنّ اللهَ عزَّ وجلَّ حالٌّ في السّماءِ والأرضِ معًا أو في أحد المكانَين دُونَ الآخَر، حاشا لله، فهو عزَّ وجلَّ خالِقٌ للعالَمِ كُلِّه وليسَ مُحتاجًا إلى شيءٍ، موجودٌ أزلًا وأبدًا بلا مَكانٍ ولا كَيفٍ ولا جِهة.

(٢) ويُضافُ إلى ذلكَ أنّ اللهَ عزَّ وجلَّ أخبرَ في ءاياتٍ كثيرةٍ مِن القُرانِ الكريم أنّ السّماواتِ والأرضَ وما فِيهما وما بينَهُما مِلكٌ له عزَّ وجلَّ، فلَو كانَ كما تقولُ المجسِّمة الكفَرةُ: «إنّ اللهَ موجودٌ في السّماءِ» أو «هو السّماء بذاتِه» لكانَ على زَعمِهم مالِكًا لِنفْسِه، والعياذُ باللهِ.
ومَن أرادَ التّوسُّع في قضيّة التّنزيه فقد أفرَدْنا لها في التّصنيفِ مجموعاتٍ مَوسوعيّةً وكُتبًا مثل: «**مُعجَم أهلِ الإيمان في تنزيهِ اللهِ عن الجِسمِيّة والكَيفِيّة والمكان**»، و«**مُعجَم الأُصول الجامع لمُتونِ عَقيدةِ الرّسُولِ ﷺ**»، و«**إجماع أهلِ التّنزيل علَى إثباتِ حَقّيّةِ التّأويل**».

أي بَل هــلْ أمِنتُم أيُّهــا المُشرِكــون المكذِّبــون ﴿مَّن﴾ أي الملائكة الكائنِينَ ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ المُوكَلين بإرســالِ العــذابِ على الكافرين ﴿أَن يُرْسِلَ﴾ بَعضُهم ﴿عَلَيْكُمْ﴾ مِن جِهة السّماءِ ﴿حَاصِبًا﴾ أي رِيحًا ذاتَ حِجارةٍ كما فُعِل بِقوم لُــوطٍ[1] ﷺ ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ أيُّها الكفرةُ ﴿كَيْفَ﴾

(١) لقَــد أخبرَ عزَّ وجلَّ في القُــرءانِ الكريم عن عذابِ قومِ لُــوطٍ الّذين كفرُوا وفسَــقُوا وأتى الرِّجالُ مِنهُم الرِّجالَ بالوطءِ في الدُّبــرِ، وليسَ معنَى ذلكَ أنّ اســمَ نبِيِّ اللهِ لُوطٍ ﷺ مُشتَقٌّ مِن اللِّواطِ أو أنّ اللِّواطَ مُشتَقٌّ مِن اسمِ لُوطٍ، حاشا، فقَد صانَ اللهُ عزَّ وجلَّ الأنبياءَ عن أنْ يكونَ اسمُ أحدٍ مِنهُم خبيثًا أو اشــتُقَّ مِن خبيثٍ، فلُوطٌ اســمٌ أعجميٌّ، واللِّواطُ كلمةٌ عربيّةٌ لا يصحُّ كونُ أحدِهما مُشــتقًّا مِن الآخَر. فلَفظُ اللِّواطِ كان قبلَ قومِ لُوطٍ ﷺ، لأنّ اللُّغــةَ العربِيّةَ لُغةٌ قدِيمةٌ، حتّى قالَ بعضُ العُلَماء: إنّ أوّلَ لُغةٍ تكلَّم بها ءادمُ هي العرَبِيّةُ، وإنّما قومُ لُوطٍ هُم أوّلُ مَن فعَل تِلكَ الفعلةَ الشّنيعةَ، أمّا اللَّفظُ فكان موضُوعًا بينَ المُتكلّمِينَ باللُّغةِ العرَبِيّة قبلَ لُوطٍ وهُم قومٌ عادٍ.

وأمّا ما جاءَ في خبرِ قومِ لُوطٍ الكافرين فهو أنّه حِين فجَرُوا وكَفرُوا ولم يَنتهُوا عن خَسِيسِ فعلتِهم، أرسلَ اللهُ عزَّ وجلَّ ملائكةً إلى نبِيِّ اللهِ لُوطٍ فطلَبُوا منه أن يَخرُجَ من أرضِ قومِه معَ أهلِه ليلًا قبلَ طُلوعِ الشّــمسِ، وقالوا له بأنْ لا يَلتفِتَ فإنّه ســينزِلُ بِقومِــه الكافرين عَذابٌ عظِيمٌ، وأخــبرُوه أنّ امرأتَه الكافرةَ ستلتَفِتُ ويُصِيبُها ما أصابَ قومَها، فخرَجَ لوطٌ وامرأتُه.

فأدخلَ جبريلُ عليه السّــلامُ رِيشــةً واحدةً مِن أجنحَتِه في قُراهُم ومُدُنِهم الأربعةِ أو الخَمســةِ واقتلعَها مِن أصلِها بمن فِيها مِن الكافرين وكانوا كما قِيــلَ: أربعمائة ألفِ شَــخصٍ، فرفعَهُــم ومعَهم البهائِم، فبلَــغ بهِنّ عَنانَ السّــماءِ حتّى سَــمِعَ ملائكةُ السّــماءِ الأُولَى أصــواتَ دِيكتِهــم ونُباحَ =

كانَ ﴿نَذِيرِ ١٧﴾ أي إنذارِي بالعَذابِ أنّه حقٌّ حِين يأتِيكُم الموتُ ويَحضُركُم العذابُ الّذي أُنذِرْتُموه فتُعايِنُونَه.

ولمّا خوَّف اللّهُ عزَّ وجلّ المُشركِين بالعَذابِ ذكَرَ شَواهِدَ علَى مَن حقَّتْ علَيه كلِمةُ العَذابِ مِن قبلِهِم، فخفَّفَ عن نَبيّه ﷺ لِما لَحِقَه مِن أذَى الكُفّار وتعنُّتِهِم في الكُفرِ وهدَّدَ عزَّ وجلَّ كُفّار مكّة، فقال تعالَى: ﴿وَلَقَدۡ كَذَّبَ﴾ مِن الأُمم ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ أي قبل كُفّارِ مكّة كقَومِ سيِّدنا نُوحٍ ﷺ وعادٍ وثَمُودَ وغيرِهم ﴿فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ١٨﴾ أي إنكارِي عليهِم كُفرَهم وتكذِيبَهُم، ألم يَجِدُوا العذابَ حَقًّا؟! بلَى، فقَد دمَّرَهُم اللّهُ وأهلَكَهُم، فليَحذَرْ كُفّارُ مكّة أنْ يُصِيبَهُم مِثلُ ذلكَ. وقال بعضُهم: معناهُ فلينظُروا كيفَ كان تَغيِيرِي ما كان فيه أولئكَ مِن النِّعَمِ بالهَلاكِ والعَذابِ بسبَبِ كُفرِهم[1]، فالنَّكِيرُ بمعنَى التّغيير.

= كِلابِهم، ثُمّ قلَبَها عليهِم فجعَل عالِيَها سافِلَها أي جعلَها مَقلُوبةً مِن دُونِ تعَبٍ ولا مشقّةٍ لِمَا أعطاهُ اللّهُ مِن بأسٍ شدِيدٍ، ثُمّ صاح بهِم مِن جهةِ السّماءِ وأمطَر علَيهِم حجارةً مِن سِجّيلٍ مِن جهةِ السّماءِ كالمطَرِ الغزيرِ المُتتابِعِ، وكان علَى كُلِّ حَجَرٍ اسمُ صاحِبِه الّذي يَهبِطُ علَيه فيَدفَعُه ويَقتُلُه، فلمّا سَمِعَتْ زوجةُ لوطٍ عليه السّلامُ صَيحةَ العَذابِ الّذي نزَلَ بقَومِها الْتَفَتَتْ وقالَت: وا قَوماهُ، فأصابَها حجَرٌ أهلَكَها مَعَ الهالِكِين. وما إنْ أشرَقَتِ الشّمسُ حتّى كانت القُرَى خَرابًا ودَمارًا عالِيها سافِلُها.

(١) وقَد يُرسِلُ اللّهُ عزَّ وجلَّ العذابَ وأنواعًا مِن البَلاءِ الشّديدِ على القومِ الّذين يَترُكُون الأمرَ بالمعرُوفِ والنّهيَ عن المُنكَرِ ويسكُتُونَ عن ذلكَ مع القُدرةِ =

ثُــمّ بيّنَ لهُم عزَّ وجلَّ بعضَ الشّــواهِدِ على كَمــالِ قُدرَتِه وأنّه قادِرٌ على إيصــالِ العَــذابِ لكُفّار مكّةَ إذَا شــاءَ، فقال تعــالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ أي أغفلَ أهلُ مكّةَ عن التفكُّــرِ والنّظرِ في مَخلُوقاتِ اللهِ ودَلائِل قُدرَتِه عزَّ وجــلَّ، ولَم يَنظُــرُوا بأعيُنِهم ﴿إِلَى الطَّيْرِ﴾ جَمع طائِــرٍ ﴿فَوْقَهُمْ﴾ في جوّ السّماءِ ﴿صَافَّاتٍ﴾أي باسِطاتٍ أجنِحتَها عِندَ طيَرانِها ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ أي ويَضمُمْنَهــا إذا ضرَبْــنَ بها جنُوبَهُــنّ ﴿مَا﴾ أي ليسَ ﴿يُمْسِكُهُنَّ﴾ أي يَحفظُهُــنّ في الهَواءِ عن السُّــقوطِ عند القَبضِ والبَســطِ في الجَوّ بقُدرَتِه ﴿إِلَّا الرَّحْمَٰنُ﴾ عزَّ وجلَّ، فمِن رَحمَةِ اللهِ بالطّيرِ أنْ ألهَمَها كَيفيّةَ البَسْــطِ والقَبضِ في الهَواءِ وحفظَها مِن السُّقوطِ بإذْنِه.

= عليــه، فقَد صَّح في الحديثِ أنّ زينبَ بنتَ جَحش زوجَ النّبيِّ ﷺ قالتْ لــه: أنَهلِكُ وفينــا الصّالِحُون؟ فقال ﷺ: «**نَعَمْ إِذَا كَثُــرَ الخُبْثُ**»، فتُصِيبُ أحيانًا في الدُّنيا النِّقمةُ والبَــلاءُ الصّالِحَ والطّالِحَ، أمّا في الآخِرة فيُبعَث هذا على حسَــبِ عمَلِه وهذا على حسَــبِ عمَلِه، فإذا كانَ عُمومُ البَلاءِ حاصلًا بسبَبِ تفشّي المُنكَراتِ هذا معَ وُجودِ مَن ينهَى عنها قَدْرَ استِطاعَتِه، فكيفَ بأهــلِ بلَدٍ ترَكُوا كلُّهم النّهيَ عن المُنكَــر. وقد صَّح في الحديثِ أنّ أبا بكرٍ الصدّيــقَ رضي اللهُ عنه قامَ في النّاسِ فحَمِدَ اللهَ وأثــنَى عليه ثُمّ قال: يا أيُّها النّاسُ، إنّكم تقرَؤُون هذه الآيةَ وتَضعُونها (أي بعضُكم) على غيرِ مواضِعِها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [ســورة المائدة: ١٠٥]، وإنّا سَمِعنا النّبيَّ ﷺ يقول: «**إِنَّ النّاسَ إِذا رَأَوُا الظّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقابٍ**».

وفي الآيـةِ دليلٌ عـلى أنّ اللّهَ تعالَى وحدَه الّذي خَصَّ الطّيرَ بالتّماسُكِ في الهَواءِ خِلافًا لِما طَبَعَ اللّهُ عليه الأجسـامَ غيرَ الطّائرةِ مِن الهُبوطِ إلى السُّفلِ وَفقًا للعادةِ الّتي أجراها اللّهُ في الأجسامِ، فلا يَلزَمُ وجودُ قُوّةٍ جاذبةٍ للأجسـامِ في باطِنِ الأرضِ بل العادةُ الّتي جعلَها اللّهُ للأجسـامِ هي أنْ يَهبِطَ الجِسمُ مِن أعلَى إلى أسفلَ إلّا ما حَفِظَه اللّهُ مِن السُّقوطِ كالأرضِينَ والسّماواتِ والنُّجومِ المستقِرّاتِ في فضائِها مِن غيرِ عُمُدٍ[١].

جاءَ في حدِيثٍ ضَعيفٍ لا يثبُت مرفوعًا: «كُلْ مَا دَفَّ وَدَعْ مَا صَفَّ»، يقـال: دَفَّ الطائِرُ في طيَرانِه إذَا حرَّك جناحَيه كأنّه يَضرِبُ بهِما دَفَّه، وصَـفَّ إذَا لَم يَتحرَّك كالجَـوارح. قال الماوَرديّ الشـافعيّ في «الحاوي الكبـير»: «يُرِيد أنّ ما حَرَّكَ جَناحَـه كالحمامِ وغَيرِه يُؤكَل، وما صَفَّ

---

(١) وقد نصَّ الإمامُ أبو مَنصورٍ البَغدادِيّ في «الفَرقِ بَين الفِرَق» على أنّ مِن طَبعِ الجِسـمِ أن يَسـقطَ مِن ثِقَلِه إلى الأرضِ، معناهُ لا لأجـلِ أنّ في الأرضِ قُوّةً جذَبتْه إليها بل لأجلِ أنّ هذا الذي طبعَ اللّهُ الأجسامَ عليه. وانظُر في شأنِ الطّائرِ، فلو قال مُدّعو نظريّة الجاذبيّة إنّ الطائرَ يقاومُ الجاذبيّةَ التّي بالأرضِ إذَا حرَّكَ جناحَيه أو صفَّهُما فلا تُسقِطُه إليها، فماذا يقولُون في حالِ قَبضه أجنحَتَه وهو في مكانه مِن الهواءِ مِن غيرِ سُقوطٍ، فلَو كان هنالِكَ قُوّةٌ جاذِبةٌ كما زَعمُوا لسَقطَ الطَّيرُ حالَ قَبضِه جَناحَيه، واللّه أصدَقُ القائلِينَ فإنّه قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَقۡبِضۡنَ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ أي ما يحفظُهنّ مِن السُّـقوطِ إلّا اللّهُ عزَّ وجلّ بِقُدرَتِه، وقد سبَقَ كلامُنا على تَنزِيه اللّهِ عنِ المُماسّةِ.

جناحيه ولم يحرِّكْهما كالصُّقور والنُّسور لا يؤكل»[١].

﴿إِنَّهُۥ﴾ أي اللهَ الرَّحمنَ ﴿بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ ١٩﴾ أي لا يَعزُبُ عن بَصَرِه الأزليِّ شيءٌ كائنًا ما كانَ، يرى برؤيته الأزليّةِ جميعَ المُبصرَاتِ من غيرِ ءالةٍ ولا حُدوث بصَرٍ له[٢]، كما أنّه عزّ وجلّ عالِمٌ بها جُملةً وتفصيلًا، وليسَ «بصيرٌ» هُنا بمعنَى عليمٍ، فالعِلمُ صِفةٌ له أزليّة كما أنّ البصَرَ صِفةٌ له أزليّةٌ، وقد خالفَ بعضُ المُعتزلةِ مذهبَ المُسلِمين في ذلك فقالوا: «اللهُ سَميعٌ بصِيرٌ بمعنَى علِيم»، فردُّوا ذلكَ في كُلّ نَصٍّ شَرعيّ إلى كونِه علِيمًا، ويَكفِي في الرَدِّ عليهِم قولُ اللهِ تعالَى واصفًا نفسَه: ﴿أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [سُورة طه: ٤٦]، فيكونُ المعنَى على زَعمِهم: «أَعلَمُ وأَعلَمُ»، ثُمّ قد صَحّ في العَقلِ وُجوبُ اتّصافِه عزّ وجلّ بالسَّمعِ والبصَرِ الأزليَّين لأنّهما مِن صفات الكَمال، فثبتَ اتّصافُه تعالَى بِهما على ما يَليقُ بهِ عزّ وجلّ، ولَو لَم يَكُن مُتّصِفًا بِهما لكانَ أصمَّ وأعمَى، تنزَّهَ اللهُ عن ذلكَ.

ولمّا كان المشرِكون يزعُمون أنّ الأوثانَ الّتي يعبُدونها تَدفعُ عنهم

---

(١) وهذا المذكورُ هو مذهبُ أبي حَنيفةَ والشافعيّ وأحمدَ رضي الله عنهُم، وذهبَ مالكٌ إلى القولِ بجَوازِ أكلِ الطَّيرِ كُلِّها ما له مِخْلَب كالبازِ والعُقاب والصَّقرِ، وما لا مِخلَبَ له.

(٢) قال الإمام أبو منصورٍ الماتريديّ في «التأويلات» (١٠/ ١٢٣): «معناهُ بَصيرٌ بأفعالِ الخَلقِ ما كان وما يكون، لأنّه ذكَر علَى إثرِ ذِكرِ الأَفعال وهو قوله: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٣ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ﴾.

الآفـاتِ بَكّتَهُـم اللّهُ تعالَى فقـال: ﴿أَمَّنْ﴾ أي مَـن ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ﴾ في زَعمِكُم ﴿جُندٌ﴾ أي حِزبٌ ومنَعةٌ ﴿لَّكُمْ يَنصُرُكُم﴾ أي يمنَعكم ويحميكم ﴿مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي مِـن عذابِ اللّهِ عزَّ وجلَّ إنْ أرادَ بِكُم ذلكَ، معناهُ لا أحـدَ ناصِرُكـم إنِ ابتَلاكُـم اللّهُ بِعذابِـه. ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي ما هُم ﴿إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾﴾ عظيـمٍ وضَلالٍ فاحشٍ مِن جِهةِ الشّـيطانِ يَغُرُّهم بأنّ العَذابَ لا ينزِلُ بهم.

ولمّا كان المشركُون يمتنعُون عنِ الإيمانِ باللّهِ ورَسُـوله ويتباهَون بوفرةِ الـرِّزقِ فيهِم وأنّ الأوثـانَ تُوصِلُ إليهِمُ الخَـيراتِ وبَخَهُم اللّهُ تعالَى وردَّ عليهِم فقال: ﴿أَمَّنْ﴾ أي مَن ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ﴾ أي يُوصِلُ لكُم الرِّزقَ ﴿إِنْ أَمْسَكَ﴾ أي حبَـسَ ومنَعَ اللّهُ عنكُـم ﴿رِزْقَهُۥ﴾ معناهُ لا رازِقَ لكُم غيرُ اللّهِ، فلَو حبَسَ اللّهُ أسـبابَ الـرِّزقِ كالمطَرِ والنَّبـاتِ وغيرِهما لَم يَكُن أحَدٌ رازِقًا سِـواهُ، وكذا لو كان الطَّعامُ موجودًا بِوفرةٍ سَهلَ التّناوُلِ فوضَعه أحدُهُم في فَمِه فمنَعَ اللّهُ تعالَى عنهُ قُوّةَ الازْدِرادِ[1] لَم يَكُن أحَدٌ مُمكّنًـا له مِن ذلـك، ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ [سُورة الأنعام: ١٧]، فمَع وُضوحِ الحَقّ لَم يُؤمِنوا ﴿بَل لَّجُّوا۟﴾ أي تمادَوا وأصَرُّوا وتشَـدَّدُوا ﴿فِى عُتُوٍّ﴾ أي في تكَـبُّرٍ وعِنـادٍ ﴿وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾ عن الإيمانِ وقبُولِ الحَقّ، فقَد غرَّهُم الشّـيطان بوَسوسَـتِه فظَنُّوا أنّ الأوثانَ الّتي يَعبدُونَها تَنفعُهم بدَفعِ الآفاتِ وجَلبِ المَنافِعِ.

(١) أي الابتِلاع.

فائـدة: كان بعـضُ العرَب في الجاهليّة يعتقِـدُون أنّ بعضَ الكواكِب فاعلةٌ مُدبّرةٌ بِنَفسِها مُنشِئةٌ للمطَر، وهذا كُفرٌ والعياذُ باللَّهِ، وقَد حذَّر مِن ذلكَ رسولُ اللَّه ﷺ فقال: «**مَنْ قالَ: مُطِرْنا بِنَوْءِ كَذا وَكَذا فَذَلِكَ كافِـرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَـبِ**» معناه مَن اعتَقَد أنّ الكَوكبَ فاعِلٌ مُدبِّرٌ مُنشِئٌ للمطَر فهذا لا شَكَّ في كُفرِه، وهذا هو التّفسِيرُ الّذي ذهَبَ إليه الجُمهورُ، كما ذكَر ابنُ المُلقِّن الشّافعيُّ، وهو ظاهِرُ الحدِيث، وقال ابنُ المُلقّن: «وعلى هذا القَولِ لو قال: «مُطِرْنا بنَوءِ كَذا» مُعتقِدًا أنّه مِن اللَّهِ وبِرَحمتِـه وأنّ النَّوءَ صِفةٌ له[١] وعلامةٌ اعتِبارًا بالعادةِ فكأنّه قال: مُطِرْنا فِي وَقتِ كَذا، فهذا لا يَكفُر، واختُلِفَ في كَراهتِه[٢] والأظهَرُ نعم تنزيهًا لأنّها شِعارُ الجاهلِيّة».

والنَّوءُ عِندَ العرَب سُقوطُ نَجمٍ في جهةِ المَغرب وطُلوعُ رَقيبِه في المَشرِق، وهي ثمانيةٌ وعِشرُونَ نَجمًا معروفةُ المَطالِع في أوقاتٍ معيَّنةٍ مِن السَّـنةِ، يَسـقُط مِنها في كُلِّ ثلاث عَشْرةَ لَيلةً نَجمٌ في المَغرِب مع طُلوعِ الفَجرِ، ويَطلُع ءاخَرُ يُقابِلُه مِن المَشرِق مِن سـاعَتِه، وتَنقضِي السَّـنةُ بانقِضاءِ الثَّمانيةِ والعِشرين.

ثُـمّ ضرَبَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ مثَلًا تَفرِقةً بَين حالِ المؤمِن وحالِ المُشرِك فقال

(١) أي للمطَر.

(٢) أي كراهةِ قولِ ذلكَ.

تعالَى: ﴿أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا﴾ أي مُنحَنِيًا لا مُستوِيًا فيعثَرُ كُلّ الوقتِ ويَخِرُّ ﴿عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ﴾ في كُلّ خطوةٍ ضالًّا تائِهًا حائِرًا لا يَدري أينَ يَسلُك ولا كيفَ يَذهَبُ، أهذا ﴿أَهۡدَىٰٓ﴾ أي أكثرُ هِدايةً ورشدًا إلَى مَقصدِه ﴿أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا﴾ قائمًا مستوِيًا في مَشيه ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٢٢﴾ أي طريقٍ قويمٍ فيَسلَمُ مِن التعثُّرِ والتخبُّطِ، أيُّهما أهدَى الأوّلُ أوِ الثّاني؟! والجوابُ أنّ الثانِيَ هو المُهتدِي والأوّلَ هو الضّالُّ، فالسّؤال للإنكارِ والتّبكِيتِ.

ورُوِي عن عِكرِمةَ أنّ المُكِبَّ على وَجهِه أبو جَهلِ بنُ هِشامٍ[1] لعنَه اللّهُ والمُهتدِيَ حَمزةُ بنُ عبدِ المطّلِب رضي اللّه عنه عَمُّ رسولِ اللّه ﷺ وأنّ الآيَةَ نزلَتْ فيهما.

ذهَب قَتادةُ إلى أنّ الآيَةَ تُخبِرُ عن حالِ القِيامةِ وأنّ الكُفّار يَمشُونَ فِيها

---

(١) واسمُه عمرو بنُ هِشامِ بنِ المُغيرة المَخزُوميُّ القُرشيُّ الكِنانيُّ أحدُ رُؤساءِ قُريشٍ ومِن أشَدِّ المعاندِين لدَعوةِ رسولِ اللّه ﷺ ومن أكثرِ مَن ءاذَوا رسولَ اللّهِ والمؤمنِينَ، كان يُكنَى أبا الحَكمِ في قُريشٍ فكنّاه الصّحابةُ أبا جَهلٍ. رُوِي أنّه لمّا خرَجَ مع الكُفّار لقِتالِ المُسلمِين في بَدرٍ الكُبرَى وقد أُصيبَ وأُلقِي جانبًا وجدَهُ عبدُ اللّه بنُ مَسعودٍ رضي اللّه عنه بآخرِ رمقٍ فوضَعَ رِجلَه على عُنقِه وقال له: هل أخزَاك اللّهُ أيْ عَدُوَّ اللّه؟ قال: وبِماذا أخزاني عدا رَجلٍ قتَلْتُموه، فاحتزّ ابنُ مسعودٍ رأسَه ورجَعَ فأخبرَ رسولَ اللّه ﷺ فكَبّرَ رسولُ اللّه ﷺ ثلاثًا وحَمِدَ اللّهَ وأثنَى عليه أنْ جعَلَ الغلَبةَ للمُسلمِين حِسًّا كما هي لهم معنًى، ثُمّ قال لابنِ مَسعودٍ: «**انطَلِقْ فأَرِنِيه**»، فانطلَق معه فأراهُ إيّاه فقال ﷺ: «**هَذا فِرعَونُ هَذِهِ الأُمَّة**».

على وُجوهِهم، وأتقياءُ المؤمِنين يَمشُون علَى استِقامةٍ وكذا المَعفُوُّ عنهم مِن عُصاةِ المؤمِنين. وروَى الترمذيُّ في «جامعِه» وحسَّنَه عن أبِي هُريرة رضي اللَّه عنه أنّ رسولَ اللَّه ﷺ قالَ: «**يُحْشَرُ النّاسُ يوْمَ القِيامَةِ ثَلاثَةَ أَصْنافٍ: صِنْفًا مُشاةً، وَصِنْفًا رُكْبانًا، وَصِنْفًا عَلَى وُجُوهِهِم**»، قِيلَ: يا رَسُولَ اللَّهِ، وكَيف يَمشُونَ علَى وُجُوهِهم؟ قالَ: «**إِنَّ الَّذِي أَمشاهُم عَلَى أَقْدامِهِم قادِرٌ عَلَى أَنْ يُمشِيَهُم عَلَى وُجُوهِهِم**»، وقال اللَّهُ عزَّ وجلَّ ﴿وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُمۡ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِهِۦۖ وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾ [سُورة الإسراء: ٩٧].

ولمّا امتنَّ اللَّهُ عزَّ وجلَّ علَى عِبادِه بِما أعطاهُم مِن النِّعَمِ مِن تزيينِ السَّماءِ بالنُّجومِ المُهتدَى بِها وتَذليل الأرضِ بِما فيها وغيرِ ذلك ذكَرَ لَهُم ما هو أقربُ إليهِم فقال تعالَى ﴿قُلۡ﴾ يا مُحمّدُ ﷺ للكافِرين: اللَّهُ عزَّ وجلَّ ﴿هُوَ﴾ وَحدَه ﴿ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمۡ﴾ أي أوجدَكُم وخلقَكُم ابتِداءً بَعدَ أنْ لَم تكونوا، وأحسَنَ صُورَكُم ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ﴾ لتسمَعُوا ما تعقِلُه قُلوبُكُم فتتَّبِعُوا الحقَّ ﴿وَٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾ أي وجعلَ اللَّهُ لكُم الأبصارَ لِتنظُروا في مَصنوعاتِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ فتَعتبِرُوا وترتَدِعُوا عمّا يُوْدِي بِكُم إلى الهَلاكِ ﴿وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾ أي وجعلَ اللَّهُ لكُم القُلوبَ لِتَعقِلُوا بِها، وكُلّ إنسانٍ لهُ عقلٌ واحدٌ يعقِلُ به وهذا معنَى قوله تعالَى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٖ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦ﴾[1].

(١) روَى الترمذيُّ عن ابنِ عبّاسٍ رضي اللَّه عنهُما أنّ النَّبِيَّ ﷺ قامَ يومًا يُصلِّي فقال بعضُ المنافِقين لِبعضٍ مِن الَّذين يُصلُّون معه صُورةً: ألا ترَى أنّ له قلبَين =

﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٢٣﴾ ذهَب كثيرٌ مِن المفسّرين إلى أنّ المُرادَ به قليلٌ مِنكم مَن أسلَم، ولا يصحّ حملُه على أنّ الكافِرَ يُعَدّ مِن عِبادِ اللهِ الشّاكِرين على قِلّةٍ في الشُّكرِ.

ولذا قال شيخُنا المفسِّرُ الهرريُّ رحمه الله: «لا يَصِحُّ حملُ الشّاكِرين على المُشركِين إنّما معناهُ الّذينَ أسلَمُوا مِنهم كانُوا قِلّةً لأنّهُم في ذلك الوَقتِ عِندَ نُزولِ الآيةِ أهلُ مكّةَ أكثَرُهم كانوا على الشِّرك، فالّذين أسلَمُوا مِنهم هُم الّذين يَشكُرُونَ، أمّا الكافِرُ مهما عَمِلَ لا يكُون شاكِرًا للهِ[1] لأنّ أصلَ الشُّكرِ توحِيدُه وإفرادُه بالعِبادةِ، فمَن لَم يفعَلْ هذا لا يكُونُ شاكِرًا للهِ مَهما فعَل مِن خَيرٍ في الدُّنيا».

وذهَب بعضُ المفسّرين إلى أنّ معنَى ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٢٣﴾ لَم تعرِفُوا عَظِيمَ النِّعَم فتَشكُرُوا اللهَ الشُّكرَ الواجِبَ، فالمرادُ نَفيُ صُدورِ الشُّكرِ الواجِب مِنهُم، فعُبِّر بصِيغةِ القِلّةِ وأُرِيدَ النَّفيُ[2] كقَولِ العرَبِ: «هذه

= قلبًا معكُم وقلبًا معهُم، فأنزل اللهُ ﴿مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾.

(١) أي الشُّكرَ الواجِبَ، وإلّا فقد يقولُ بلسانِه: «الحمدُ للهِ» وهو في الحقيقة كافِرٌ باللهِ.

(٢) وبنحو ذلكَ فسّر بعضُهم قولَ اللهِ تعالَى في اليَهُودِ: ﴿لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [سُورة البقرة: ٨٨]، لكن اعترَضَ أبو حيّان على حَمل القِلّةِ هنا على النَّفيِ المَحضِ وقال إنّه ليسَ بصَحيحٍ، وذكَر تعليلَ ذلكَ في «البحر المحيط» (١/ ٤٨٥).

أرضُ قلَّما تُنبِتُ كذا» وهي أرضٌ لا تُنبِتُه ألبتّةَ، وبهذا الوجهِ قرأتُ على شيخِنا الإمام الهرريِّ رحمه اللهُ فأقرَّه[1].

فيُفهَم مِن الآية أنّ اللهَ تعالَى جعَلَ في المُشركين قُوى[2] السّمع والبصرِ والإدراكِ لكنّهم ضيَّعُوها فلَم يَقبلُوا ما سَمِعُوه مِن الحقّ ولا اعتبَروا بِما أبصرُوا مِن الآياتِ والمُعجِزاتِ ولا تأمَّلُوا بعُقولِهم ما دُعُوا إليه مِن الهُدَى، فاستِعماُلهم هذه القُوَى في غيرِ ما خُلِقَت لَهُ تضييعٌ لها، فكأنَّهم بذلكَ مُحارِبُون مُقتضَياتِ العقلِ السّليم مُهدِرُون لقِيمةِ البُرهانِ العَقليِّ وفائِدةِ السَّمعِ والبصَرِ.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمّدُ: اللهُ ﴿هُوَ﴾ وحدَه ﴿ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ﴾ أي خلقَكم وبثَّكم ونشَرَكُم ﴿فِى﴾ أقطارِ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ وأرجائِها، وجعلَكم مُختلفِينَ في لُغاتِكم وألوانِكم وأشكالِكُم ﴿وَإِلَيْهِ﴾ أي إلى حِسابِه يومَ القِيامةِ ﴿تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ أي تُبعَثُون فيُجازي كُلًّا بعمَلِه.

---

(١) قال شيخنا الإمام الهرريّ رحمه الله: «﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ القِلّةُ في هذا لها وجهانِ: إمّا أن يكُون قليلًا ما شَكرتُم بإسلامِكم أي قليلٌ مِنكم شكرُوا بأنْ أسلمُوا وكَثيرٌ لَم يُسلِمُوا، والوجه الثّاني: قليلًا أي لَم يَشكُروا بالمرّة، ما شَكَر مِن أولئك أحدٌ. فلعلّها تُستعملُ علَى مَعنيَينِ في مَعرِض النَّفي: إمّا للنّفيِ العامّ الشامل أو للنَّفيِ عن الأكثرِ».

(٢) القُوَى بضمّ القافِ جمعُ قُوّةٍ.

ولمّا ذكرَ عزَّ وجلَّ أمرَ البَعثِ أعقَبَهُ بحِكايةِ قَولِ المُنكرِين مِن الكافِرِين فقال تعالَى: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي ويقُول كُفّارُ مكّةَ مِن فَرطِ عِنادِهم واستِكبارِهم واستِهزائِهم ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي إنجازُ الوَعدِ الّذي تَعِدُونَنا به مِن نُزولِ العَذابِ أو البَعثِ للقِيامةِ[1] ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ فيما تُخبِرُونَنا به مِن نُزولِ العَذابِ بِنا أو الحَشرِ وأمرِ القِيامةِ.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمّدُ ﴿إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ﴾ بوَقتِ السّاعةِ ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ لا يُطْلِعُ علَيهِ غيرَه كما قد أخبرَ عزَّ وجلَّ عن استِئثَارِه بالعِلم بذلكَ[2] ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ﴾ أي مُنذِرٌ ﴿مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾﴾ أي بَيّنُ الإنذارِ بإقامةِ الأدِلّةِ، أُخوّفكُم مِن عِقابِ اللهِ على الكُفرِ والعِصيانِ، ولَم أُطْلَعْ[3] علَى وَقتِ قِيامِ السّاعةِ لِأُعلِمَكُم به بل ذلكَ مِمّا استَأثَرَ اللهُ عزَّ وجلّ بعِلمِه، ولكنّ السّاعةَ كائنةٌ ءاتيةٌ لا مَحالةَ فاحذَرُوا عِقابَ اللهِ.

---

(١) قولانِ لأهلِ التّفسير.

(٢) قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [سُورة الأعراف: ١٨٧]، وقال أيضًا: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [سُورة الأحزاب: ٦٣]، وقال جلَّ جلالُه:= =﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [سُورة فُصِّلَت: ٤٧].

(٣) وقد جاءَ في حديثِ جبريلَ عليهِ السّلامُ أنه سألَ رسولَ اللهِ ﷺ تعليمًا للأُمّةِ فقال: أَخبِرْنِي عنِ السّاعةِ، قالَ: «**مَا المَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ**»، يعني كِلانَا يستوِي في عدمِ العِلمِ بوَقتِ قِيامِ السّاعةِ، فإنّ ذلكَ مِمّا استأثَرَ اللهُ بِهِ مِن الغَيبِ ولَم يُطلِع عليه أحدًا مِن خَلقِه.

ثُمّ بَيّنَ اللّهُ عزّ وجلّ حالَ الكافرِين حِينَ مَجِيءِ الوَعدِ فقال: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ أي وحِـين يأتِي الحَشرُ والعَذابُ المَوعودُ فيَراهُ الكُفّارُ عِيانًا ﴿زُلْفَةً﴾ أي قرِيبًا ﴿سِيٓـَٔتْ﴾ أي ساءَتْ ﴿وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي ظَهَر فيها السُّوءُ وعَلَتْها الكَآبَةُ وغَشِيَها السَّوادُ والعُبوسُ والذِّلّةُ لِرُؤيَةِ العذابِ ﴿وَقِيلَ﴾ أي وتقـولُ لهُم ملائكةُ العـذابِ توبيخًـا: ﴿هَٰذَا﴾ أي العذابُ الّذي تُشـاهِدُونَه هو ﴿ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ٢٧﴾ أي لـه تطلُبونَ في الدُّنيا وتَسـتعجِلُونَه اسـتِهزاءً وإنكارًا، أو معناهُ هذا هو الّذي كُنتُم تَدَّعُون أنّه لا يكون أي أنّه لا بَعثَ ولا حَشرَ[1] بِسَـببِ أنّ النَّبِيَّ ﷺ والمُؤمنِين يذكُرونَه لَكُم إنذارًا.

يُروَى أنّ كُفّار مكّةَ كانُوا يتمنَّونَ هلاكَ رَسـولِ اللهِ ﷺ والمؤمنِين كما أخبرَ عنهُم عـزَّ وجلّ بقولِه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾[2]، فأمـرَ اللّهُ عـزَّ وجلّ نَبِيّـه ﷺ أن يُجيبَهُم فقـال: ﴿قُلْ﴾ لهُم يا مُحمّدُ ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ أيُّهـا المُشرِكُون ﴿إِنْ أَهْلَكَنِىَ﴾ أي أماتَنِي[3] ﴿ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ﴾

---

(١) وأمّـا على قِراءة: ﴿تَدْعُونَ﴾ بتَخفِيف الدّالِ فبِمعنَى تَطلُبُونَه مُسـتهزِئِين مُنكرِين.

(٢) يَعنُون بذلكَ أنّهم يَنتظِرُون نَوائِبَ الزّمانِ تأتِي عليهِ فيَمُوت.

(٣) يـأتِي الهَلاكُ بِمعنَى الموتِ مِن غيرِ عِقابٍ مِـن اللّهِ كقولِه تعالَى: ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ﴾ أي مات ﴿لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ الآيةَ [سُـورة النِّسـاء: ١٧٦]، وقولِ رسـولِ اللهِ ﷺ: «كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ =

مِن المؤمنِين ﴿أَوْ رَحِمَنَا﴾ بأنْ أخّرَ في ءاجالِنا[١] ﴿فَمَن يُجِيرُ﴾ أي يُنجي ويُنقِذُ ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾ إذا نزَلَ بهِم سَواءٌ مِتْنا أو بقِينا، معنــاه لا أحَد مُنقِذٌ لكُم مِن عَذابِ اللهِ إذا أرادَه بِكُم ولا يَنفعُكم وقُوعُ ما تتمنَّونَ لَنا.

﴿قُلْ﴾ لهُم يا محمّدُ ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أي اللهُ وهو الّذي أدعُوكُم إلى عِبادَتِه وعــدَمِ الإشراكِ به ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أنا ومَن مَعِي مِــن المؤمِنين ﴿وَعَلَيْهِ﴾ وَحدَه ﴿تَوَكَّلْنَا﴾ أي اعتمَدْنا، وإليــه أمورنا فوَّضْنا، ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ أيُّها المُشرِكُــون عِندَ مُعايَنةِ العَــذابِ[٢] ﴿مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾﴾ أي بَيِّنٍ أَمرُه، نحنُ أم أنتُم.

= الأَنْبِيَاءُ» أي تحكمُهم «كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ» أي ماتَ «خَلَفَهُ نَبِيٌّ، وَإِنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي» الحديثَ.

(١) معناهُ بأنْ جعَلَ أعمارَنا طويلةً لأنّه شــاءَ ذلكَ في الأزلِ بمشــيئتِه الأزليّة وَفقَ عِلمِه الأزليّ، وليسَ معناهُ أنّه عزَّ وجلَّ يُغيِّرُ مشيئتَه فيَزيدُ في عُمرِ مَن كتَبَ له أقلَّ مِن ذلكَ قبلُ، حاشا للهِ، فإنّه يَستحيلُ على اللهِ التغيُّرُ والتبدُّلُ والتطوُّرُ في ذاتِه وصِفاتِه.

(٢) عِنــدَ المــوتِ أو ما بَعدَه، فــإنّ الكافِرَ تحضُرُه ملائكةُ العَــذابِ ويَبقَى في عــذابٍ مِن تلــكَ اللّحظةِ إلى ما لا نِهايــةَ؛ فإنّ له في القــبرِ عذابًا بالرُّوحِ والجسَد، فإذا فَنِيَ جسَدُه دامَ العذابُ على الرُّوحِ، ثُمّ يُعادُ جسَدُه لِلبعثِ يومَ القِيامةِ فيُعذَّبُ في أرضِ المَحشَرِ بالرُّوحِ والجسَــدِ إلى أنْ يُلقَى في جهنَّمَ في العذابِ المُستمرِّ الأبديّ الّذي لا يَخِفُّ ولا يَنقطِعُ أبدًا.

ولمّـا خوَّفهم عزَّ وجـلَّ بالعَذابِ عُمومًا ذكَّرهم بأنّـهُ المُمْتَنُّ عليهم بالمـاءِ الّذي لـو منَعَهم إيّـاه في الدُّنيا لتعذَّبوا بذلـكَ وهَلَكُوا وذلك عـذابٌ مخصوصٌ أيضًا، قال تعالى: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمّدُ مُقيمًا للحجّةِ عليهِـم: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ أي أخـبِروني يا مَعشرَ المُشركِـين ﴿إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ﴾ أي المـاءُ الّذي تنالُـه أيدِيكم للانتِفاعِ مِنـه ﴿غَوْرًا﴾ أي غائرًا في الأرضِ ذاهِبًـا بالكُلّيّةِ نازِلًا فِيها بحَيثُ لا تصِلُ إليه الدِّلاءُ ولا يُمكِنُكم تحصِيلُه بنَوعِ حِيلةٍ ﴿فَمَن يَأْتِيكُم﴾ وأنتم على ضَعفِكم حينئذٍ ﴿بِمَآءٍ مَّعِينٍ ۝٣٠﴾ أي ظاهـرٍ تَراهُ العُيون وتَنالُه الأَيدِي والدِّلاءُ، والجواب: لا أحدَ يأتِيكُم بِه غـيرُ اللهِ، والمرادُ مِن ذلكَ إقامةُ الحُجّـةِ علَيهم لِيُقِرُّوا بأنّ الّذي يأتِيهِـم بالماءِ هو اللهُ عزَّ وجلّ، فيكونُـون مَحجُوجِينَ بأنْ أقرُّوا ببعـضِ نِعَمِ اللهِ عليهِم مـعَ أنهُم جعَلُوا له شُركاءَ وأنكَـرُوا قُدرتَه على البَعثِ، والعِياذُ باللهِ تعالَى.

وقد حُكِي أنّ جاهِلًا مُلحِدًا سَمِع تِلاوةَ قولِه تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ۝٣٠﴾ فقال مُسـتهزِئًا: تـأتِي بها الفُؤوس والمَعاوِلُ، فذهَب ماءُ عَينَيه وعَمِي.

فائـدة: يُسـتحَبُّ للقارِئ في الصّلاةِ وخارِجها إذا قرأَ: ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ۝٣٠﴾ أنْ يقول: «اللهُ ربُّ العالَمِين»، واللهُ تعالى أعلَم.

خاتِمةٌ مُوجزة

هذه خاتِمةٌ في إيجازِ ما اشتَملَتْ علَيه سُورةُ المُلكِ الكريمةُ مِن أوّلِها إلى ءاخِرِها.

لقَد افتُتِحَت السُّــورة بذِكر تنزِيهِ اللهِ وتقدِيســه وبَيانِ أنّه وَحدَه مالِكُ المُلــكِ والمتصِّرفُ في مُلكِه بِما شــاءَ، وبَيَّن عزَّ وجــلَّ أيضًا أنّ إماتَةَ الأحياءِ وإحياءَ الموتَى بُقدرَته، ثُمّ فصَّل عزَّ وجلَّ ذِكرَ بعضِ المَظاهِرِ الدّالّةِ على كَمالِ قُدرَته وأنّ العِبادَ راجِعُون إلى حِسابِه يومَ القِيامةِ.

ثُــمّ أعقَبَ ذلكَ عــزَّ وجلَّ بذِكرِ حــالِ الكافِرين في الآخِــرة وأنّهُم في العَذابِ الشّــدِيد الدّائِم، وذكَرَ تحسُّرَهُم على حالِهم هُنالِكَ لِما صارُوا إليه مِن العذابِ الشّــدِيد، وأخبَرَ أنّهُم يَتذكَّرُون هُنالِكَ معَ بالِغِ الحَسرةِ كيــفَ كانُوا يُكذِّبُونَ رُســلَ اللهِ في الدُّنيا، ولكنّهم لا مأوَى لهُم سِــوَى جهنَّمَ الّتي تتغيَّظُ علَيهِم فيُكَبُّــونَ فِيها ويُوبِّخُهم خزَنَتُها مِن الملائكةِ المُوكَلِين بتَعذِيبِهم. ثُمّ بَيَّن مَصِيرَ الفِئةِ المُقابِلةِ وهُم المؤمِنينَ الّذين يَخشَونَه، وذكَرَ أنّ ذلكَ سَببٌ لدخُولِهم الجنّةَ في الآخِرةِ.

ثُــمّ بَيَّنَ جــلَّ وعزَّ اتّصافَه بصِفــةِ العِلمِ الأزليِّ الأبديّ الّذي لا يُشــبِهُ عِلــمَ غيرِه، وأنّه تعالَى عالِمٌ بِكُلّ مــا يُعلِنُه العِبادُ وما يُسِرُّونَه في قُلوبِهم وضَمائِرهم، فإنّه تعالَى عالِمٌ بِكُلّ شيءٍ لا يَخفَى عليه شيءٌ.

ثُمّ خوّفَ اللّهُ الكافِرين بالعِقابِ في الدُّنيا وأنّه قادرٌ على إرسالِ العَذابِ الألِيم عليهِم مِن جِهةِ السّماءِ – وهي مَسكَنُ الملائكةِ، أمّا اللّه تعالَى فموجودٌ أزلًا وأبدًا بلا مَكانٍ – وأخبرَهُم تعالَى أنّه لو شاءَ لأَنزلَ علَيهِم حِجارةً تَقتُلُهم كما فعَلَ ببعضِ الأُمَمِ الكافرةِ السّالِفة.

ثُمّ ذكَّرَ عزَّ وجلَّ المُخاطبِينَ بأنّه المُنعِمُ عليهِم بالحواسّ والإدراكِ والرِّزقِ وأنّه لو شاءَ أنْ يَسلُبَهُم ذلك لَم يَقدِرْ أحَدٌ على إعطائِهم شيئًا مَنَعَهُم اللّهُ إيّاه، كما ذكَّرَهُم بأنّهم جميعًا خَلْقٌ مِن خَلْقِه يَفعَلُ بهِم ما يَشاءُ، وأنّهم محشُورونَ يومَ القِيامةِ لحِسابِه وجزائِه.

وأعقَبَ ذلكَ عزَّ وجلَّ بحِكايةِ قولِ الكافرين المُنكرِين للبَعثِ المُستَعجِلينَ العَذابَ استِهزاءً منهُم: «متَى هو»، وأمرَ تعالَى نَبيَّه ﷺ بأنْ يقولَ لهُم: إنّ اللّهَ وَحدَه يَعلَمُ متَى يكونُ يومُ القِيامةِ.

ثُمّ جاءَ خَتمُ السُّورةِ ببيانِ بعضِ حالِ الكافرِين حِينَ يصِيرُون إلى العذابِ الّذي كانُوا يَستعجِلُونَه مُستهزِئيَن به مُكذِّبين، وبيانِ أنّ الرَّحمةَ النّازلةَ بالمؤمنِينَ في الآخرة والعذابَ النّازلَ ببَعضِ العُصاةِ مِن المؤمنين وبسائِر الكافرين كُلّ ذلكَ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ، وإليه الأمرُ لا إلى غيرِه، وأنّ الكافرين سيُعاينُونَ العذابَ الّذي كانُوا يُكذِّبُون به وسَيُقاسُونَ الآلامَ الشّديدةَ مِنهُ.

وجاءَ خَتمُ الخاتِمةِ بذِكرِ أنّ اللّهَ عزَّ وجلَّ هو مُوصِلُ الأرزاقِ إلى العِبادِ، فإنْ شاءَ أنْ يَمنعَ الماءَ عن بعضِهم منَعَهُم إيّاه ولَم يأتِهم أحَدٌ بِما منَعَهم اللّهُ مِنهُ لأنّ الأمرَ كُلَّه بتصرُّفِ اللّهِ عزَّ وجلَّ.

فائدةٌ في شَرطِ قبول الأعمالِ الصالِحة

يُشترَط لقَبول الأعمال الصالِحة، ومِنها التعبُّدُ بتِلاوةِ القُرءانِ أمورٌ:

١.**الإيمان**: لأنَّ الله تعالى قال: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ١٢٤﴾ [سورة النساء]، فكل الأعمال الصالحة لتكون صحيحةً مقبولة عند الله لا بدَّ وأن تكونَ من مؤمنٍ متجنِّبٍ لجميع أنواع الكفر.

٢.**الإخلاص**: وهو عمل البِرِّ والطاعة طلبًا للأجر من الله تعالى، وأن يكون خالصًا من الرياء، فالعمل الذي يدخله الرياء لا ثواب فيه، قال ﷺ: «**إِنَّمَا الأَعْمالُ بِالنِّيَّاتِ**»، وقال: «**اتَّقُوا الرِّيَاءَ فَإِنَّهُ الشِّرْكُ الأَصْغَرُ**» أي ذنب من الكبائر وليس خروجًا من الدين والإسلام.

٣.**أن تؤدَّى الأعمال الصالحة على حسب ما اشترطَ الشرع الشريف**: فتُراعى فيها الأركانُ والشروط وتجنب المبطلات، فإن كان العمل مخالفًا للشرع فالنية الحسنة وحدها لا تكفي، فلا بدَّ أن تجتمع حسن النية وحسن العمل.

٤.**لا بدَّ في قراءة الآيات أن تكون أُخِذت بالتلقي وأن تكون القراءة صحيحةً**: فلا يصح ولا يقبل أن تكون القراءة محرَّفة غير موافقة

للصواب والصحيح، ولا بدَّ من إخراج الحروف من مخارجها ومراعاة ما لا بدَّ منه. وكذلكَ في الأذكار لا بدَّ من تجنب التحريف الذي يقع فيه بعض الجهال من تحريف أسماء الله تعالى، فيقولون: «اللا» بدل «الله»، أو «اللهم سلِّ» بالسين بدل «صلِّ» بالصاد، وهذا تحريفٌ يجب تجنُّبه. وكذلك ما يقع فيه بعض الجهال من قولهم: «اللهم صلّي» بالياء، والصحيح والصوابُ: «اللهم صلِّ» بلامٍ مكسورةٍ وليس بلامٍ وياء. قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ مِنْ أَحَدِكُم إِذَا عَمِلَ عَمَلًا أَنْ يُتْقِنَه**»، قيل: وما إتقانه يا رسول الله؟ قال: «**يُخَلِصُهُ مِنَ الرِّياءِ وَالبِدْعَةِ**»، وقال ﷺ: «**صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي**»، وقال ﷺ: «**خُذُوا عَنِّي مَناسِكَكُم**»، وقال ﷺ: «**رُبَّ قائمٍ لَيسَ لَهُ مِنْ قِيامِهِ إِلَّا السَّهَرُ وَالتَّعَبُ، وَرُبَّ صائِمٌ حَظُّهُ مِنْ صِيامِهِ الجُوعُ وَالعَطَشُ**»، وقال: «**مَنْ تَوَضَّأَ كَمَا أُمِرَ وَصَلَّى كَمَا أُمِرَ غُفِرَ لَهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ**».

فلا بدَّ من مراعاةِ أحكام الشرعِ ولا عبرة بالعادات والتقاليد المخالفة للشرعِ والأحكام الدينية.

الخاتِمة

إنّ خيرَ ما تُنْفَقُ فيه الأوقاتُ الاشتغالُ بطاعةِ اللّهِ عزَّ وجلّ، ومِن خيرِها الاشتغالُ بعلوم القُرءانِ الكريم، ومِن خيرِ ما يُشتغَل بهِ فيه هو تَلقّي علمِ التّفسيرِ عَن الثّقاتِ الّذينَ تلقَّوه عن أمثالِهم، أمّا المُطالَعةُ في كُتبِ التفسيرِ وغيرِها مِن كُتبِ علوم الدِّين مِن غيرِ مُعلِّمٍ لِمَن لَم يَتأهَّل للمُطالعةِ وحدَه فهي السُّقوطُ في مَهْواةِ الضّلالِ بسبَبِ عدمِ أهليّة هذا المُطالِع؛ إذْ لا يُميِّزُ بينَ الصّوابِ والخطإِ والمُصَحَّفِ والمُحرَّف، فكَيف به إذا كان يَلْحَنُ في اللُّغة ولا يُميِّزُ المُحْكَم مِن المُتَشابِه؟! ناهِيكَ عَن أنّه قد يكُون في هذِه الكُتب الّتي يُطالِعُها دَسٌّ وافتِراءٌ على الدِّين أودَعَه فيها بعضُ الزّنادِقةِ عَمْدًا، أو قد يَفهَمُ هذا المُطالِعُ ممّا يَقرأُه أشياءَ على خلافِ الحَقِّ فيعتَقِدُه فيُؤدِّي بناءً على فهمِه السَّقِيم عِباداتٍ فاسِدةً أو يقَعُ في الكُفرِ والضَّلالِ، والعياذُ باللّهِ.

ولقد قال الحافظُ الخَطِيبُ البغداديُّ رحمه اللّه نقلًا عن بعضِ العُلماءِ: «مَن طالَع الكُتُبَ لِنَفْسهِ بدُونِ مُعَلِّمٍ يُسمَّى صُحُفيًّا ولا يُسَمَّى مُحَدِّثًا، ومَن قرأ القُرءانَ لِنَفْسه بِدون مُعَلِّمٍ يُسَمَّى مُصْحَفِيًّا ولا يُسَمَّى قارِئًا» اهـ.

وتفكَّـرْ في قولِ اللّه عـزَّ وجـلَّ: ﴿فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ

﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾ تلقِّيًا عن غيرِهم، وفي قولِ الله تعالَى ﴿عَلَّمَهُۥ﴾ أي علَّم محمَّدًا ﷺ جبريلُ ﴿شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ﴾، وكُنْ علَى ذُكْرٍ للنِّيّةِ الحسَـــنةِ في الاشتِغالِ بطاعةِ الله.

الفهرس

التَّوطِئَة المِيزان في بَيان عَقِيدَة أهلِ الإيمان ٥
المقدّمة ١١
نُبْذَة تعريفيَّة عن حياةِ الشّيخ الدُّكتور جَمِيل حَليم ١٦
نَسَبُ الشّيخ الدكتور جَمِيل حَليم إلَى رَسُولِ الله ﷺ ١٨

الرَّوضُ الأُنُف في تَفسِير سُورة الكَهف

سُورة الكَهفِ: خَصائصُها وفَضائِلُها ٢٠
وَقتُ نُزولِ سُورةِ الكَهف ٢٠
فَضلُ سُورةِ الكَهفِ ٢١
تفسير سُورة الكَهفِ ٢٥
ذِكر قِصّة الكَهف وسبَب خُروج الفِتية إليه ٢٩
ذِكر قِصّةِ مُوسَى ويُوشَعَ علَيهِما السّلامُ ١٠٩
خاتِمةٌ مُوجزة ١٥٧

إتحافُ المُؤمِنين بتَفسِير سُورة يٰس

سُورة يٰس: خَصائصُها وفَضائِلُها ١٦٠
وَقتُ نُزولِ سُورةِ يٰس ١٦٠
فَضلُ سُورةِ يٰس ١٦١
تفسير سُورة يٰس ١٦٨
خاتِمةٌ مُوجزة ٢٤١

فَتْح المَنّان في تَفسِير سُورة الرَّحمٰن

سُورة الرَّحمٰن: خَصائصُها وفَضائِلُها ٢٤٤
وَقتُ نُزولِ سُورةِ الرَّحمٰن ٢٤٤
مُناسَبةُ السُّورةِ لِمَا قَبلَها ٢٤٦
فَضلُ سُورةِ الرَّحمن ٢٤٦
مِن مُجرَّباتِ بعضِ العُلماءِ في خَواصِّها ٢٤٨
تفسير سُورة الرَّحمٰن ٢٤٩
فصلٌ في خَلقِ سيِّدنا ءادمَ ﷺ ٢٦٤
فَصل في إثباتِ ما فسَّرْناهُ مِن معنَى الوَجهِ في الآيةِ السّابقةِ ٢٧٧
خاتِمةٌ مُوجزة ٣١٣

الجَواهِرُ اللّامِعة في تَفسِير سُورةِ الواقِعة

سُورة الواقِعة: خَصائصُها وفَضائِلُها ٣١٦
وَقتُ نُزولِ سُورةِ الواقِعة ٣١٦
مُناسَبةُ السُّورةِ لِما قَبلَها ٣١٧
فَضلُ سُورةِ الواقِعة ٣١٨
مِن مُجرَّباتِ بعضِ العُلماءِ في خَواصِّها ٣٢٤
تفسير سُورة الواقعة ٣٢٦
فَصلٌ في أحكامِ مَسِّ المُصحَف في المَذاهِبِ الأربعةِ ٣٩٣
خاتِمةٌ مُوجزة ٤٠٩

تَنوِير المَدارِك بتَفسِير سُورة تَبارَك

سُورة المُلك: خَصائصُها وفَضائِلُها ٤١٢
وَقتُ نُزولِ سُورةِ المُلكِ ٤١٢

فَضلُ سُورةِ المُلكِ ٤١٣
تفسير سُورة المُلك ٤١٨
خاتِمةٌ مُوجزة ٤٦٨
فائدةٌ في شَرطِ قَبول الأعمالِ الصالِحة ٤٧٠
الخاتِمة ٤٧٢
الفهرس ٤٧٤

إصدارات المؤلّف في عُلومِ القُرءانِ العَظِيم

الأعطارُ الفائِحة
في فضل وتفسير
سورة الفاتحة

تصنيف
الشيخ الدكتور جميل حليم علي

المَنهَج المُبارَك
في تفسِير
جُزء تَبارَك

تصنيف
الشيخ الدكتور جميل حليم علي

جَواهِر الأئِمّة
في تفسِير
جُزء عَمَّ

تصنيف
الشيخ الدكتور جميل حليم علي

الرَّوضُ الأُنُف
في تفسِير
سورة الكَهفِ

تصنيف
الشيخ الدكتور جميل حليم علي

إتحافُ المُؤمِنين
في تفسِير
سُورة يـس

تصنيف
الشيخ الدكتور جميل حليم علي

فَتح المَنّان
في تفسِير
سُورة الرَّحـٰمن

تصنيف
الشيخ الدكتور جميل حليم علي

الجَواهِر اللّامِعة
في تفسِير
سورة الواقِعة

تصنيف
الشيخ الدكتور جميل حليم علي

تَنوير المَدارِك
في تفسِير
سُورة تَبارَك

تصنيف
الشيخ الدكتور جميل حليم علي

التّفسِير الأسمَى
لقولِه تعالَى
﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾

تصنيف
الشيخ الدكتور جميل حليم علي

المدَد القُدسيّ

في فضل وتفسير

ءاية الكُرسيّ

تصنيف

الشيخ الدكتور جميل حليم علي

الغَدَقُ النَّمير

في شرحِ الزَّمْزَمِيّة

في أُصولِ التّفسِير

تصنيف

الشيخ الدكتور جميل حليم علي

فَتحُ العَينَين

علَى أخطاءِ

تفسِير الجَلالَين

تصنيف

الشيخ الدكتور جميل حليم علي

إجماعُ أهلِ التَّنزِيل

على إثباتِ حَقِّيّةِ

التّأوِيل

تصنيف

الشيخ الدكتور جميل حليم علي

القواعِد القُرءانيّة

في تنزِيه اللهِ عن الشَّكل

والصُّورةِ والكَيفيّة

تصنيف

الشيخ الدكتور جميل حليم علي

مَواهِب الرَّحمن

في فَضائِل القرءان

تصنيف

الشيخ الدكتور جميل حليم علي